\bigcirc 6 الم تاريخ الإنسانية معا 9 ه. ج.

الألف كشالوه النشالو

الإنشواف العام و .سمسيار سيموحان مريس محلس الإدارة

دشیسالتحویو المستسالی المعلمیسمی

مسلابوالمتحوير

أخسمه صلبيضة

الإشواف الفنى محسّمد فنطبيّ

الإخراج الضنى على على الوات الدى

في النايف والترجمة والنشر

H. G. WELLS.

ه ج ج ولز

مَعالِم إرخ الإنسّانية

ترجمـــه عبد العزيز توفيق جاويد

المجلد الرابع فى التساريخ الحديث (١٦٠٠ – ١٦٠٠)



هذه ترجمة لكتاب

The Outline of History

Being A Plain History of Life and Mankind

By

H. G. WELLS.

محتويات الكتاب

ميلية	
جو	محتويات الكتاب الكتاب المسالم
	بهرس الصور والحرائط من د
– ل	كلمـة المترجم
- ن	كلمة المترجم للطبعة الثانية أ م.
	اللِّيا الشِّيامِينَ
	عصر الدول العظمى
	غصل الرابع والثلاثون : أمراء ويرلمانات ودول··· ··· ··· ··· ··· ··· ··· ···
1.37	١ – الأمراء والسيامة الخارجيــة
	٢ - الحمهورية الهولئدية
	٣ - يو الإنجلسيزية به ما الإنجلسيزية
1.44	٤ - إنقسام أَلمَانِيا وَاصْطَرابِها أ تند التسام أَلمَانِيا وَاصْطَرابِها أ
1.94	ه – أبهـــة الملكية المظمى في أوربا ،
11.0	٩ الموسيقي في القرنين السايع عشر والثامن عشر أ
11.7	٧ – التصوير أني القرئين السابع عشر والثامن عشر
	٨ – نمو فكرة الدول العطبي
1117	٩ - جهورية بولندة المترجة ومصيرها
114.	 ١٠٠ أول تخاطف على الإسراطوريات وراء البحار
37//	١١- بريطانيا تسود الهنسه نبر نبر المنايا تسود الهنسه
114.	١٢ – تقدم الروسيا إلى المحيط الهسادي
	١٣- رأى جيبون في العالم في ١٧٨٠
1311	١٤ - الهدفة الاجتماعية تشارف نهايتها
	نصل الخامس والثلاثون : الجمهوريات الديمقراطية الجديدة بأمريكا وفرنسا
	١ متاعب نظام الدولة العظمى ،
	٣ – المستعمرات الثلاث عشرة قبل عصيائها ١٠٠ ١٠٠ ١٠٠ ١٠٠
117.	٣ - الحَربِ الأهليــة تفرض على المــتعمرات فرضاً ،،، ،،، ،،، ،،، ،،، ،،، ،،،
1177	 عرب الاستقلال
1174	ه – دستان الدلايات المتحلق الدلايات المتحلق

.

	هديميث																
	1111	. 5	• • •					•••	7	المحدة	يات	الولا.	لدسور	دائبه	لطاعر أأ	1	٦
	3111	* • •			***					***	*14	نــأ	في فر	مورية	فكرة ال	ß	٧
	PALL									4.00	• • • •		. 1	P A N	ورة سئة	- ĉ	A
	1191		***	***	٠				٩	- 1	44	لمترجة	سية ا	القرة	فهوريا	1 -	٩
	14.1		•••	* * *						• • •				اقبة .	ورة ال	# -1	*
	1214		* * *	* * *		,			***	1.4	98-	- 174	17 2	أليعاقب	بهورية	-1	1
	1414	12	• • •		*** .		۲.			•••				لإدارة	ىكوسة ا	1	۲
	1444			•••					مرية	: العيد	راكيا	الاشا	إقجسر	سير و	وقف الن	I ~1	٧,
		, *		•••		••	ٿ	نابر	ن بو	ابليونا	ِة نا	ا سير	: ئ	الثلاثر	دس و	ے السا	الفصا
	1744	• • • •									t	رسيكا	آن کر	اير ت	سم قیوا	1 _	1
	3771										_						
	148.								4.0.0	14.	£ -	1741	ا ال	تمدلا	ر پر اللمون ق		Y
	1487																
	1404														*		
	1771																
	1777																
															•		
															بع والثا		
	1414																
	1441																
	PAYE																
	1144																
	14.1																
	14.4																
	1414														_		
	1448																
	1440													*	-		
	1441													_	-		
•	7345																
	170+	**		••		***	* * *	***	البحار	ودات	ريات	ر اطور	ועיי	ائ على	داقع الث	i1	۲
	1414		***	***		***	***	* * *	***	***	***	444	ے امیا	اندية	سابقة ال	H 1	٣
	1777		•••	***	• • •	h # +	* * *	***	P * P	**>	***		• • • • • • • • • • • • • • • • • • • •	پاڻ . س	ريخ اليا	۱- تا	£
															نتام فأرا		
															إمير أطو		
															نصوير و -		
	1777	1			***	***	* * *	***	• • •	. 80	شر : ۱۱ :	سع ع	ال الات	ال الافر	وسيقي .)	٨
	14.70	***	•••		• • •	***	***		پ	11 C	الياق	قَبِةَ الم	ن المر	المسلة إ	وض الة	r -1	7

inches					
		ى	ة الاستمار العصرة	نمصل الثامن والثلاثون : كارثا	11
1444	133 144		العظمى	١ - إسلام المملع قبل الحرب	
12	*** ***	*** *** *** ***		٢ - ألمانيا العيصريه	
1814		*** *** *** ***	لانها و ارائندة	٣ - الروح الاستعارية في بريط	
ATS	*** ***	*** *** ***	نبيا وإطاليا والبلقان	 ٤ - النزعات الاستمارية في فر 	
154.	*** ***	*** ** *** .	عطمی	ه - الروسيا تصح دولة ملكيه	
1544		*** *** *** ***	الاستعارية و	١ – الولايات المتحدة والفكرة	
1244		*** *** *** ***	المظمى	٧ – الأساب الباشرة للحرب	
				٨ – خلاصة للمعرب العظمي حر	
				٩ الحرب العظمي مثلًا أنهيار ا	
				لفصل التاسع والثلاثون : عثــ	ı
					,
				۱ سـ دور إحهاد محلقي	
				۲ – الرئيس ولسون في قرسلي	
				٣ – دسور عصبة الأم	
				ع - ماعدات ۱۹۱۹ - ۱۹۲۰	
1844	***	*** *** *** ***	*** *** *** ***	ه اليلشمية في الروسيا	
101.	***	*** *** *** ***	*** *** ***	٣ - دولة إرلنهة الحرة	
				٧ – الشرعان الأقصى والأدنى	
1044	*** ***	*** ** *** ***	*** *** *** ***	٨ – الدنون والنقود والتثبيت	
1044	***	*** *** *** ***	*** *** ***	٩ – الإنهيار العظيم في ١٩٢٩	
				١٠ – المأساة الأسافية	
1004	*** ***	*** *** *** ***	*** *** *** ***	١١ – قيام النازية	
1071	***	*** *** ***	*** *** ****	١٢٠- العالم يتحدّر نحر الحرب	
				فصل الأربعون : الحرب العالم	1
1014			*** *** *** ***	۰۰۰ مجری الحرب ۰۰۰ ۰۰۰	
1040		*** *** *** ***	*** *** *** ***	٢ - مستقبل البشرية ٢	
				بدول تاریخی	
1741	Ja		* * * * * * * * * * * * * * * * * * *	لتعريف بالمترجم	İ

فهرس الصور والخرائط

1.74		• • •									, .	* * 1	ال	كروموم	مسورة	-	179
٧٧٠/						٠.			138	A L	ستفالي	ح و	بعد صا	أوريا إ	خريطه	-	14.
39.1	1 4					* 4						عثر	ار ابع	لويس ا	صورة	-	111
1.99		100				110		•	1 * *		9 6 0	1.4	18 0	أرربا	خريطة	-	141
114.							454						والثدة	تقسيم ۽	عر اثط	-	144
1140																	
1177																	
1144							4				٠	1	٧٥٠	الهند في	خريطة	-	141
1144	1.4.1			, ,			• •			• •				قو لتاير	صررة	-	144
1/00									1.4	1.7	به إل	مر پکی	ت الأ	المستقرا	خر يطة	***	1.44
1110					4 + 1			•	144	ا ۾ ا	بعاورہ	وماع	رسطن	لمدينة بو	خريطة		144
117.																	
1144																	
1144			• •					٠	9.5	9 10			رن	و اشتعلو	چورچ	-	144
14.5	•••	• • •				* 1 *	***				۵	، ۋار	ىرار يلم	خطة الف	خريملة	7001	144
1418																	
1444																	
1484																	
1401																	
1404																	
1400	x - P		***	• • •			***		* - 1		رن	ناپلير	روات	إلممغز	شريطة	704	114
1418																	
1441				***	• • •	111			سبة	السيا	وريا	للاً ا	العليوم	الوضيح	خريعلة	***	193
1444	4 1 1		* 1	***	***	* * *	•		4 0 6	***	* * *		ارکس	كارل م	صورة	Personal Property and Property	144
1440	* * *	* * *	***	6.4	* -	* * *				***	4.61	• •	أويئ	رويرت	حبورة	-	194
1444		* , , ,	***				4.4	عسر	ے ،	ن التا	, القر	رن في	الغملير	الآر باب	صورة	MA	115
1441				* *		***	111	• •		/ A A	إلى ١	1.4	ئ ۸\$	اوريا،	خر بطة	***	190
1446	***	6 B B		***				1 "		• • •		***	ي ٠٠	غار بيالد -	مبورة	bres	197
															عو بدله		
															صورة		
ILLA	* * *				. · n		419	• • •	* * *	***	***		الثالث	نابليون	مبور ڌ	-	199
1444	* > >	9 4 4			•••	• • •	• • •	* * *			***		و حقید	لنكولن	صورة	-	***
															خريطة		
140.														لآسا	خر بوأة	-	Y . Y

كلمة المترجم

اليوم وقد استوت و المعالم » كتاباً عربياً ، يلتفت إلينا ولزنحن معشر العرب من بين أطباق السهاوات العلى التى تسكنها روحه بين العباقرة والنابغين ، ويهيب بنا ، هاؤم اقرءوا كتابيه » .

واليوم يتردد صوته فى أجوائنا التى خفت فيهاكل صوت نبيل منذ قرون الإسلام الأولى ، يتردد جهيراً مدوياً كأنه النفخ فى الصور؛ إنى لسعيد إذ أديت نحو الإنسانية واجبى ، وبذلت لها دعوتى ، ورضيت لها مذهبى وفكرتى ،

واليوم يحق لولز أن تبوئه البشرية مكاناً علياً ، وأن تضمه بين أبنائها المخلصين وأفذاذها الخالدين . فقد قضى نصف عمره فى الحدب عليها والمنافحة عن مصالحها والدعوة إلى صلاح أمرها وتمحيض النصح لها .

والبوم يستطيع واز أن يسامى الهداة الملهمين بأنه ظل يحمل مشعل رسالته مضيئاً ذاكياً وهنّاجاً نصف قرن كامل من الزمان . وهي فترة لم تتح في العصر الحديث لصاحب دعوة ولم تنهيأ لمرشد ذي رسالة .

واليوم يستطيع القارئ أن يستعرض مع ولز مشاهد الحياة منذ هوادى بواكبرها ومسهل تباشرها ، إذ هي هزة نشأت بإذن العلى القاهر في ذلك الماء الذي جعل منه كل شيء حي ، هزة لايكاد يقوم لها أثر ولكها الأثركل الأثر ، هزة ما زالت الأبام ترعاها والليالي تهدهدها حتى تمثلت على طول الحقب بشراً سوياً . ذلكم هوالكائن الذي حارت البرية فيه ، والذي هو حيوان مستحدث من جماد كما يقول شيخ المعرة ، هذا الكائن الضعيف بقوته القوى بحكمته الثائر بغريزته المتمرد الجبار بطبيعته القابل للصلاح بفطرته ، هو منذ خليقته مصدر الشغب ومثار الفين . بسببه فسق الشيطان عن أمر ربه فغوى . وحل بالأرض فأفسد فيها وسقك فيها الدماء وكانت من قبله مطهرة من كل رجس ، ولم يزل الهذا دأبه حتى يومنا هذا ، تأمتنه هوائجه ويزين له حب شهواته ، والله في عليائه يرسل له رسله وأنبياءه فما كف عن غيه ولا أقلع .

والبوم من لنا بمن يشهد روحه النبيلة أننا أخذنا بدعوته ، وأيفنا أن التاريخ وحدة واحدة ، وأن ركب الحضارة مهر واحد متدارك اللجات متلاحق الفيضات، وأنه إن هدأ يوساً أو ألم به أيء من النبغير ، فالآباء أن يتدنى في اليه ويعود سيرته من جريان وتلاطم والصطخاب ، وأن البدرية على مركتة واحدة متحركة دائماً إلى الأمام في حركة واحدة أبعمتها بميعاً و نصم شملها في عالمنا العصري الذي أصبح بعضه إلى بعض أقرب من حيل الوريد .

. E 4

والعصر الذي يستهل به كتابنا هذا كان ، كما يقول بعص أفذاذ الزمان ، أمثل الأزمان وأسوأها ، وأحكها وأحقها ، وأشدها نوراً وأشدها حلوكة . كان عصر الإيمان وعصر الكفر والإلحاد ؛ وكان ينطوى على ربيع الأمل والرحاء وخربف اليأس والقنوط ؛ وكان عصر ملكية عظمى باغية وكثرة عظمى مهيضة ؛ عصر رقى بلغ اللروة وجهل أنزل الناس إلى الحضيض ؛ وكان دهر عز شامخ واستبداد داس كرامة الإنسان بالنعال ؛ يوم كان صاحب الدين يلاحق أخاه ليدخله في دينه وإلا فله الموت والعذاب ؛ ويوم كان العزيزيعني من الصرائب والتبعات ويبهظ بها الفقير الجالع محمد بصرك فتجد في مكان كل شيء وتسرح الفكر فتجد إلى جواره لاشيء.

وجاءت الثورة الفرنسية لأن ذئب الإرستقر اطية كان ينهش كلب العامة ، فما كاد الكلب ينتصر ويقطع رأس الذئب وذنبه ، حتى انقلب هو كذلك ذئباً أشد ما يكون عواء وإزعاجاً ولعلعة بلسانه وولوغا به فى دماء الأبرياء .

وأين مبادىء الثورة الفرنسية ؟ أين الإخاء والحرية والمساواة ؟ لقد ذهبت في أطباق الهواء هباء وراحت طرائق قددا .

وهذه مغالبتى قوى الطبيعة تنفتح منذ أوليات القرن التاسع عشر، إذ أخذ عقل ذلك الجعبار يتسلل إليها رويداً رويداً . فعرف كيف يستذل البخار، ولم يلبث أن جعله مطية ذلولا وعسيفاً ذليلا . وانتقل منه إلى عناصر الطبيعة عنصراً بعد عنصر يدرسها ويتحكم فيها ويستبد بها ، حتى أصبح يفعل بها ما يشاء ويستخلمها أنسى شاء .

وأبطره العلم حتى زعم أن ليس فوقه عليم ، واستهوته المادة حتى أنسى الروح وما لها من قيام معلوم ، وليج به الطغيان فبغى فى الأرض يستعبد أهلها ويتخذ بعضهم شيعاً . وسلط على أخيه الإنسان مناجل الفناء ، وأخذ يستغله استغلال السوائم يمتلك منه وطنه ويستأثر بخيراته دونه بعد أن يفدحه عملا ، ويحرم عليه تعمة التمتع بما وهبه

الله لكافة مخلوقاته من حرية . لأن داعي الاستعارقد أصمه عن كل ضمعر وأعماه .

واحتاج العلم إلى مواد الطبيعة يصنعها ويبدعها ، فإذا استوت سلعة مصنوعة استوجبت سوقاً يتلقفها . وبشمت أوربا بما أنتجته لها دواليب المصانع فخرجت تهرول تلتمس مشترياً . وتحول الشراء والبيع فى أقطار الشرق المنكودة من السلع إلى الشعوب ، فحيمًا حل الأوربي فتم الاستعار الغيض . وتلفتت دول أوربا بعضها إلى بعض ، فإذا بعضها قد سبق وأرسى أسسه ووطد فى أقطار العالم أقدامه ، وإذا بعضها الآخر قد تخلف . وثار فى النفوس ما ركب فها من حشع . فالسابق يريد أن يستأثر، واللاحق يبتغى لقمة يسد بها جوعته . فأما من عدا الأوربين فتعسا لهم وثبوراً .

فهذا الأسود المسكن وذاك الأصفر أو النحاسي المنكود 1 ما بالهم ينظر إليهم الأبيض كأنهم من حثالة السوائم ، أو من خشاش الأرض ؟ وفيم الضن بالعلم عليهم والاستئثار به دونهم حتى لا يقووا به فينازعوه سيادته التي زعم أن الله آثره بها وحده ؟ وهذه بريطانيا لماذا تئب على مصرفتحرمها نعمة الحرية بدريعة واهية ؛ والله يعلم والناس يعلمون أن الحقيقة غير الذريعة ، وأن الهدف إن هو إلا فتح السوق ، وقطع الطريق ، والاستئثار بما في البلاد من خمر وثمار

وكيث يكون النفط في أرض إبران ومالكته الحكومة البريطانية مستخفية من وراء تلكم الشركات ، وما هي بشركات ولكنها خدع وذر للرماد ُفي العبون .

والإنسان لا جرم يطغي أن رآه تقوى فيعود بهذه القوة على إخوانه من بنى الإنسان حرباً بهزمه فيها ويفتك به . ولا يطبق المغلوب على الهزيمة صبراً ، فهو يتر سد الغالب ويتربص به الدوائر ، ويعد له معدات الفتك والفناء ، ويستخدم له ما استطاع من وسائل العلم والعلماء ، ثم ينفجر بها حرباً ضروساً عاتية ، يريد أن يجعلها للأولى الجولة الثانية ، ونم يدر أنه هدم الكون على أعدائه ونفسه وسعى بيديه إلى حفر رمسه ، فإذا انقضت الجولة الثانية كرست جهود العلم الثائثة وأعد لها من المبيدات والمهلكات ما لا يتصوره عقل ، وما كان يعد قبل ذلك من بعيد الجيالات : وانقسم العالم كدأبه فإذا هو عور وديموقراطية ، ثم أخذ الطرفان بعضهما بتلابيب بعض ، هذبا ينسف فإذا هو عور وديموقراطية ، ثم أخذ الطرفان بعضهما بتلابيب بعض ، هذبا ينسف فلاذ بدك ويقصف ، حتى استلقت البشرية بأجمعها جريحة مهيضة ضعيفة دامية ، قد نزفت من الدماء ما لاقبل للأيام برده ، وأزهقت من الأرواح شباباً ما كان أجدره

بأن يحيا ليسعد مالحياة ، وماكان أشد حاجة العالم إلى سواعده الفتية فى البناء والتعمير لا فى الفتك والتخريب .

والمالية والميلسكية والنقود ، ما خطبهن وما بال آثارهن عميقة في حياة الفرد والمعاعة ؟ وما بالهن ينتجن المشاكل الاجتماعيسة والمذاهب الاقتصادية المتناحرة والمعسكرات الشيوعية والرأسمالية المتقاتلة ؟ وما بالهن يحيرن الإنسان ويبلبلن فكره ويذهبن به كل مذهب ؟ وهل من سبيل إلى علاج لدائهن الوبيل ؟

6 6 6

الاإن البشرية أصبحت مخبرة بين أمرين فإما أن تأتلف فتعيش أو تختلف فتهلك . على البشرية أن تأتلف مكونة حكومة اتحادية للعالم أجمع ليس فيها قوى ولا ضعيف ولا استعار ولا مستعمرات ، بل تكون كلها الولايات العالمية المتحادة ، كل دولة لها حكومتها وإدارتها الداخلية ، وكل دولة منهن خاضعة لتلك الحكومة المركزية التى وظيفتها التصدير والتوريد ، وضبط النظام في البر والبحر والجو ، وإرساء أسس الديموقر أطية الصحيحة ، والاطمئنان على احترام روح الدساتير وإجراء الانتخابات البر لمائية النزيهة وإنتاج المجالس النيابية الممثلة للشعوب أصدق تمثيل ، وتعليم أفراد العالم قاطبة إلى مستوى موحد عام من العلم .

ألاوإن على اليشرية أن تتناسى أحقادها القديمة وتعصباتها الدينية والعنصرية ، وأن يشعر الجميع أنهم أبناء قرية واحدة كبرى هي هذه الدنيا التي عليها نعيش ، فما اختلاف الألوان ولا الأدبان بعيب في طبيعها جميعاً ، ولكن العيب في الناس وفيا يذهب إليه الناس من مذاهب تنطوى على الغل والحقد أو التجر والتحكم ، فالناس جميعاً إخوان ، والدين بالفطرة خبر ، فكيف ينجم عن الحبر الشر ؟

إن ولز بقف من كل ذلك موقف المحب المحذر لأموقف المتطير المنذر ، فإن حافزه حب لا تشاوم ، ولذا فهو بهدى الناس بوعى وقوة وحمية وإخلاص هي السرفيا أوتى من بعد الصيت ونباهة الذكر في الناس .

إن ولز هو بشير الإصلاح إلى هذه البشرية المادية . يريد أن يأخذ بيدها إلى قديم الروحانية وأن يدعوها إلى التخلى عن ذميم الأخلاق وإلى الاستمساك بكريم المبادئ الحلقبة . فالمادية إذا طغت ولدت حرباً ، والروحانية إذا سادت خلقت على الأرض

محبة وسلاماً ، وحولتها من دار للشقاء إلى دار نعيم ووئام ، وأعادت إلى الإنسانية فردوسها المفقود ، وسعادتها الصائعة ، وسلامها المنشود .

ومن عجب أن ولز لا يترك علماً ولا فا ولا تقدماً ولا أدباً إلا أرخ له وكتب عنه ، ولا حادثة ذات أتر فى تاريخ البشرية ولاملكاً أو عظيماً خلد اسمه فى ذاكرة البشر إلا نوه به ناسجاً ذلك كله بهذه المبادىء الإسابة الرفيعة ومنتجاً منها وشياً رائع النقش أخاذ الإبداع.

فأنت لا تفف فى إعجابك به عند حد ، ولا ثلبث حتى تقتنع بوجهة نظره وإخلاصه ، ثم أنت حين تقرأ كتابه وتنع فيه النطر وتندبر ما فيه من آيات ، تشعر بأن من المحزن حقاً أن عظاء الدول وأصحاب الرأى فيها لم يأخدوا إلا مؤخراً جداً بهذه المبادئ النبيلة التى دعت إليها الأدبان السهاوية قديماً والتي يبثها ولز في كل سطر من سطور كتابه . ولكن حسبك عزاء أن ميثاق الأطلسي الذي أصدره روز قلت وميثاق سان فرانسسكو وحقوق الإنسان تكاد تكون الثمرة المباشره لتعاليم ولز في هلا الكتاب وغيره .

ولا يذهبن عن فطه القارئ أن ولز كاتب عميق عويص ، يعبر عن فكرعميق عويص ، لذلك نرجو أن يتدبر كل فقرة من ففرات ولز ، وأن يزن بفكره كل كلمة يقروها فيه ، لأنه مثقف يكتب لكل مثقف مثله . وأنت أبها القارئ سهما تكن مهنتك أو مزاجك في الحياة سواجد في هذا الكتاب ما يروقك بل ما يروعك ، وواجد فيه حيثًا تصفحت فائدة فكرية تعود عليك وواجد أنك كلما أمعنت فيه نظراً زدت منه أثراً .

فن زعم أنه لن يجد التاريخ نقباً صافياً ، منزها من كل دخل ، مبرئاً من كل هوى ، مصفى من كل تحيز فليمدد بسبب إلى سماء و المعالم و ومن كان يريد خلاصة وافية الثقافة الدهور يضمها إلى ثقافته ويزيدها بها صقالا فلينهل من مناهل ولز العذبة ؛ ومن كان يريد أن يتعلم كيف يكون مواطناً حراً ذا رأى في إدارة شئون بلاده فليفد من ولز ؛ ومن كان من رجال السياسة يريد أن يتعلم نزاهة الحكم ، وصراحة العمل ، واحرام رأى الأغلبية ، وتقديس الدساتير ، والتخلي عن المكياڤلية البغيضة والدس والتآمر سه فليتُخذ من ولز رائده وهاديه .

وما أبدع أن تجلس إلى جلسة الناسبد الخاشع من أستاذه العظيم ، لكى تخرج بعد ذلك منقفاً ناصع السقل ، ومواطناً بالعالم رحب الأفق فسيح النظرة ، عديم التعصب ، عارفاً بحقك وكرامتك مؤدياً لواجبك ومؤمناً بالديموقراطية .

وبعد فإذا لتى القارئ بعض العسر فى استيعاب ولز ومتابعة،عميق أفكاره فليصبر وليصابر فإن ما سيبذله فى ذلك من جهد واصطبار ثمن قليل لما سيجنيه من التزكى بشمرات ذلك العقل الملهم الفياض .

عبد العزيز توفيق جأوير

مصر الحلياة في (٩ أبريل ١٩٥٢ مصر الحلياة في ١٢٧١

المة المترجم الطعة الثانية

عندما صدرت الطعه الأولى من هذا الكتاب لهب استجابة جباة من جمهور القراء من عشاق أدب ولز رفاغته ورسالته الإنسانيه ، وكان رواج الكتاب في الأقطار الشقيقة أعظم منه في مصر بلدنا العزيز ، وهو أمر عجبت له كثيراً وأسفت اله آكثر ، ويوم صدرت الطبعة الأولى من الكتاب كان فيه من المفاهم والتعبيرات المقدمية ما أعتقد آنه كان ولا جرم سابقاً لأوانه ففيه متلا : التطور والتطوير ، والتنمية والتخطيط ، والتأميم والحكم المحلى ، ووحدة البشرية والدولة العالمية المتحدة ، إلى غير ذلك مما كان بعض الناس في العالم أجمع يرفضونه بوصفه من شطحات الخيال أو على الأقل يناقضونه أو لا يسيعونه في أبسط الظروف .

ولكن الأبام حققت معظم نبوءات ولز بعد أن ظل زميله ومعاصره برماردشو نفسه يسخر منه ومنها أكثر من نصف قرن . وها هي ذي الإنسانية تشهد اليوم من الحقائق ما كان يعد وهما بعيدا ي ١٩٣٠ . فقد انحسر الاستعار عن إفريقبا بعد أن ركز نفسه فيها واطمأن عند طرده من آسيا ، أنه واحد فيها الأرض الخصبة البكر الني يرتع فيها ومهطع. وأخذت جميع الشعوب تؤمن بنفسها وتؤمن من ثم بحقوقها ٢ فتتخد الديموقراطية أساسأ والاشتراكية منهجآ والمساواة بن الطبقات دعامة وتوزيع العلم على الجميع والاعتماد عليه فى رفع مستوى المعيشة ركازًا والنهوض بافتصاد الأمة مبدأ وعقيدة . وأخذت المصالح تجمع الأمم في اتجاهات إن كانت ضيقة الأنن الآن وكانت الأغراض منها غير كريمة في بعض الحين ، فقد أخذ هذان العيبان يزايلانها إلى حد كبير . فهناك السوق الأوربية (وهي مثل سبيم) وتهدف إلى ما وراءها من الوحدة الأوربية المنشؤدة . وهناك وحدة أفريقيا التي بدت نواتها على بد المؤتمر الأفريقي . وهي لن تلبث حتى تجمع بين دولها في الحكومات بعد أن قربت بين أممها الأماني والآلام وجمعت بينها في الأهداف والخطط السياسية . وهناك وحدة العرب التي التأمت على يد الرئيس جمال عبد الناصر . وهناك الدعوة إلى منع الحرب وإلى الحياد الإيجاني وعدم الانحياز التي تنزعمها جمهرريتنا الفتية وتسابق في عقد موتمراتها . إلى غير ذلك مما يجده الفارئ موضحاً في هذا الكتاب كدعوة ومتسلفاً كنبوءة وممثلا في جو الحياة كحقيقة .

وقد نقحت هذه الطبعة تنقيعة شادلا نضلا عن أنها ضبطت على أحدث طبعات الكتاب في الإبجليزية (١٩٥٦). وهي الطبعة التي قال في مقدمها المستر رايمونله بوستجبت الذي تولى إصاءارها إنه جمع فيها كل المواد التي أعدما المؤلف لضمها إلى طبعة حديثة ، كان المؤلف نفسه يزمع إصدارها جامعة لتعقيباته على أحداث أربعينات القرن . وكان تاريخ صدور الطبعة التي نقلتها إلى العربية (١٩٣٧) فكأنها لم تكن تحتوى على أحداث الحرب العظمي الثانية ، الأمر الذي ألجأني إلى آن أنتهج نفس السبيل التي سلكها المستر رايموند بوستجيت حيث نقلت تاريخ تلك الحرب عن كتاب و موجز تاريخ العالم و الذي أصدر المؤلف نفسه طبعة منه قبيل وفائه . كما تاريخ المعالمة الثانية ، ومن ثم فإن الوضع الجديد لآخر طبعات الكتاب الإنجليزية تاريخ المؤلف فالمي تعديل جميع الأجزاء الأخيرة من الكتاب مرة نانية . فتعدل الفصل ٣٩ وأضيف الفصل الأربعون وألغي ذيل الكتاب القدم .

وْكداْبِي فِي الطبعة الثانية من أجزاء هذا الكتاب ذيلته بكشاف أبجدي وأضفت إليه من الصور والخرائط ما اقتضته ظروف الحرب الثانية .

وإنى لأشكر للسادة أعصاء لجنة التأليف والترجمة والنشر جيل عنايتهم بهذا الكتاب الذي يمثل الثقافة الرفيمة والفكر التقدى الكريم ولا يسمى إلا أن أبذل الشكر جزيلا عاطرة إلى الأستاذ الكبير محمد فريد أبو حديد على عنايته الكريمة بفحص هذه الطبعة وإسداء التوجهات المرشدة . وإذ أختم كلمتى هذه أوكد للقارئ أنى أفدت من نقل الكتاب فائدة ثقافية وفكرية ومذهبية اشتراكية ديمقراطية ، أرجوأن تعود على كل من يطلع عليه من أبناء الضاد .

كما أنني أشهد القارئ أنني أفارق ولز فراق الآسف راجياً أن يمد الله في الأجل حتى أرى رسالته قد تحققت ودعوته قد آمن بها الناس جميعاً وحتى أستطيع أن أظهر الطبعة الثالثة من الكتاب في مجلد واحد يستعرض به القارئ عوكب الحضارة الإنسانية متكاملة بين دفتي سفر محدود.

والله الموفق للسداد مصر الحديدة في ١٤ يناير ١٩٦٥

ع . تـ . ج .

الاِ الشِيابِ عصر الدول العظمي

الفصِل *آبع واليُّلاثون* أمراء وبرلمانات ودول

٨ – أبو فكرة الدول النظمي .	 ٩ – الأمراء والسياسة الخارجية .
 ٩ – جهورية بولندة المترجة ومصيرها . 	٧ – الجمهورية الهولمدية .
 ١ - أو ل تفاطف على الإمبر اطوريات وراء البحار. 	٣ الإنجليزية .
١١ – بريطانيا تسود الهند .	 ائتسام ألمانيا واضطرابها .
١٢ – تقلم الروسيا إلى الخيط المادى .	ه – أبهة الملكية العظمى في أرربا
اً ١٣ – رأى جيبون ى العالم فى ١٧٨٠ .	٣ – الموسيق فى القرنين السابع عشر والثامن عشر .
 ١٤ – الهدنة الاجتماعية تشارف نبايتها . 	٧ – التصوير فى القرنين السابع عشر والثامن عشر .

١ – الأمراء والسياسة الخارجية

تتبعنا فى الفصل السابق بزوغ فجر مدنية جديدة ، هى المدنية ذات الطابع الحديث التى أصبحت فى العصر الحالى تعم العالم أجمع . وهى لا تزال إلى الآن شيئاً ضخماً لم تستو له قسيات ، ولم تتخط فى يومنا هذا بواكير أدوار النمو والتطور . وشهدنا فكرتى العصور الوسطى عن الإمراطورية الرومانية المقلسة وعن الكنيسة الكاثوليكية بوصفهما صورتين للقانون والنظام العام - تذويان - عند مسهل ذلك الفجر . وها إنما تزولان من الوجود بحكم نوع من الضرورة قضت بذلك حتى يتهيأ للناس معاودة صوغ الفكرات الداعية إلى قيام قانون واحد ونظام واحد صوغاً جديداً يشمل العالم برمته . وبيا كان التقدم يلم بكل ميدان من ميادين المصالح الإنسانية الأخرى ، جاء زمان أدى فيه زوال هاتين الفكرتين السياسيتين العامتين وها الكنيسة والإمراطورية ، إلى معام تاريخ الإنسانية بالم تاريخ الإنسانية جاء ترمان

تدلى الأوضاع السياسية إلى مجرد الملكية الاستبدادية المطلقة وإلى القومية الملكية ذات الطراز المقدوني .

وجاءت فترة توقف فيها بالفعل تماسك الروابط الإنسانية ، وهي طور من تلك الأطوار التي كان بسميها كتاب الحوليات(١) من الصينين و عصور الاضطراب و ولبثت فترة التوقف هذه أمداً يعادل المدة الممتدة بين سقوط الدولة الرومانية الغربية وبين تتويج شرلمان في روما . وما زلنا حتى اليوم نعيش في ظلالها ولعلها أشفت على نهايتها . وأقول و لعلها ولا لانستطيع حتى الآن أن نجزم بذلك . وكانت الأفكار المسيطرة القديمة قد تحطمت ، وظهر خليط من المشروعات والمقترحات الجديدة غير المجربة أخذ يبلبل عقول الناس وأفعالم ، لذا اضطر العالم في الوقت نفسه أن يرتد على عقبيه فيطلب الزعامة على أساس التقاليد القديمة : تقاليد الأمير الفرد . ذلك أن الناس لم يكن أمامهم من محجة بينة المعالم يستطيعون أن يضربوا فيها بقدم ، وكان الأمير بين أيدمهم .

شهدت خاتمة القرن السادس عشر أرجاء العالم كافة ، وقد سادتها الملكية التي تنزع إلى الحكم المطلق . فكانت ألمانيا وإيطاليا مقسمتين إلى رقاع صغيرة من الإمارات الاستبدادية (الأوتوقراطية) . وكان الحكم في أسبانيا استبداديا بالفعل . ولم يصل العرش يوماً في إنجلترة إلى مثل قوته آنداك ، حتى إذا تقدم القرن السابع عشر كانت الملكية الفرنسية قد أصبحت على الأيام أعظم دولة في أوربا وأشدها تماسكا . وما نحن بقادرين على أن نسجل هاهنا أطوار رفعتها وما مربها من تقلبات .

وكانت تحتشد فى كل بلاط زمر من الوزراء يلعبون دوراً مكياڤلياً ضد منافسيهم فى الدول الأخرى . والسياسة الحارجية هى الوظيفة الطبيعية للبلاط والملك . ويكاه وزراء الخارجية يكونون أهم الشخصيات البارزة الزعيمة فى تاريخ القرنين السابع عشر والثامن عشركله . وهم الذين دأبوا على إلقاء أوربا فى أتون تُمتَّى من الحروب .

⁽١) كتاب الحوليات (Annelists) هم الذين ينونون التسجيلات السنوية للأحدث . (المترجم)

وكانت نفقات الحروب فى ازدياد باهظ ، فلم تعد الجيوش بعد مكونة من مجندين غير مدربين ولم تعد جموعاً من فرسان الإقطاع يجلبون معهم خيلهم وسلاحهم وأتباعهم ، بل أخذت تشتد حاجة هذه الجيوش إلى المدفعية ؛ وأصبحت تتكون من جنود يتناولون أجوراً يلحون فى طلبها ؛ كانوا جنوداً محترفين متأنين حذاقاً ؛ يقومون بالحصارات الطويلة ، ويحتمون إقامة التحصينات المحكة . فزادت نفقات الحرب فى كل مكان واستدعت الزيادة المستمرة فى فرض الضرائب .

وهنا حدث أن اشتبكت هذه الملكيات ، ملكيات القرنين السادس عشر والسابع عشر — فى نزاع بينها وبين قوى للحرية جديدة غير مكتملة النضج فى المجتمع . إذ تلفت الأمراء حولهم فوجدوا أنفسهم لا يتحكون فى حياة رعاياهم ولا أموالهم . بل وجدوا مقاومة مزعجة للضرائب التى كانت ضرورية لا مندوحة عنها إذا شاءوا لاعتداء أنهم ومحالفاتهم السياسية أن تتواصل . وأصبحت الشئون المالية شبحاً كريهاً فى كل قاعة يجتمع فيها مجلس . وكان العاهل من الوجهة النظرية هو المالك لبلاده . فقد أعلن جيمس الأول ملك انجلترة (١٩٠٣) أنه « لما كان من الكفر والتجديف أن يعترض أحد الرعايا على ما يستطيع الملك فعله ، أو أن يقول إن ملكا لا يستطيع أن يفعل هذه أو تلك » .

ولكنه وجد في الواقع – كما قدر لولده شارل الأول (١٩٢٥) أن يجد بصورة أقوى أثراً مما وجد أبوه – أن في ملكه عدداً كبيراً من أصاب الأرض والتجار ، وهم أشخاص لهم وزنهم ولهم ذكاؤهم ، قد رسموا حداً محدوداً لمطالب الملك ووزرائه ومقتضياتهم . كانوا على استعداد الرضا بحكمه إذا مكتنوا هم أنفسهم أن يكونوا ملوكاً وأقيالا لأراضيهم وأعمالهم وتجارتهم وما إلى هذا بسبيل . ولكنهم لا يقبلون عدا ذلك شيئاً .

وكان هناك تطور مماثل فحذا فى كل أرجاء أوربا . فمن دون الملوك والأمراء كان هؤلاء الأفيال الصغار ، وأعنى بهم أصحاب الأملاك والنبلاء والمواطنين (المادنين) الأغنياء ومن إليهم ، الذين كانوا يظهرون آنذاك لمولاهم الأمير نفس المقاومة التى

أبداها ملوك ألمانيا وأمراؤها للإمراطور . وكانوا يرمون إلى تحديد الضرائب بقلر ما كانت تضغط على أشخاصهم ، وأن يكونوا أحراراً في ديارهم وضياعهم . وكان من أثر انتشار الكتب والقراءة وازياد الاتصال بين الناس ، أن تمكن هؤلاء الأقيال الصغار ، أقيال الأملاك والتجارة من إنشاء مجتمع فكرى متطور ودعم أركان المقاومة فيه بصورة لم يكن لها نظير في أية مرحلة من المراحل التي مرت بتاريخ الإنسانية كله . كانوا نزاعين في كل مكان أن يقاوموا الأمير ، ولكنهم لم يجدوا في كل بقعة نفس اليمر في المقاومة المنظمة . فإن الظروف الاقتصادية والتقاليد السياسية في الأراضي المنخفضة وإنجائرة جعلت هذين القطرين أول من جعل الحصومة بين العاهل والمالك موضع البحث الوصول إلى حل ناجع لها .

وفى بادئ الأمركان الإجهور القرن السابع عشر هذا ، جمهور أصحاب الأملاك ، على الاحتفال بالسياسة الحارجية . ذلك أنهم لم يستشعروا أول الأمركيف أنها توثر فيهم . فلم يربدوا أن يشغلوا أنفسهم بها فقد سلموا بأنها شئون الأمراء والملوك . ومن ثم لم يحاولوا قط التحكم في معقدات السياسة الحارجية ، ولكن حدث أنهم اشتبكوا مع النتائج المباشرة لهذه المعقدات . فقد اعترضوا على الضرائب الفادحة ، وعلى التدخل في شئون التجارة ، وعلى الحبس التعسني ، وعلى تحكم الملك في الضائر . وعلى أساس هذه المسائل نزلوا حومة الكفاح ضد التاج .

٢ - الجمهورية الهولندية

كان انفصال الأراضي المنخفضة عن الملكية المطلقة بداية سلسلة من تلك المنازعات الى استعرت طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر . بيد أنها كانت تختلف في تفاصيلها اختلافاً بالغاً تبعاً المخصائص المحلية والعنصرية ، ولكنها كانت كلها من حيث الجوهر تمرداً على السلطان الشخصي « للأمير » وعلى توجهه السياسي والديني .

كانت منطقة الراين الأدنى بأكلها مقسمة في القرن الثاني عشر بين عدد من

صغار الحكام ، وكان السكان من أرومة ألمانية دنيا (Low German) من دونها أساس كلتى قديم ، وتخالطهم عناصر دانيمركية متأخرة عهداً شديدة الشبه بما فى بلاد الإنجليز من خليط . وكان الإفريز الجنوبي الشرقي لحذا الإقليم ينطق بلهجات فرنسية ؛ على حين تنطق كتلة السكان بلغات فريزية وهولندية ولغات ألمانية دنيا أخرى . ولقد ظهرت الأراضي المنخفضة ظهوراً كبراً في الحروب الصليبية . فإن جود فرى البوبوني (of Bouillon) الذي استولى على بيت المقدس (في الحملة الصليبية الأولى) كان بلجيكياً . كما أن مؤسس ما يسمى بالأسرة اللاتينية في القسطنطينية (الحملة الصليبية الرابعة) هو بالدوين أمير فلاندرا . (وإن أطلق عليهم اسم الأباطرة اللاتينية ن، لأنهم كانوا يظاهرون الكنيسة اللاتينية) .

ونمت مدن ضخمة فى الأراضى المنخفضة إبان القرنين الرابع هشر والخامس عشر : منها غنت وبروج وإير وأترخت وليّدن وهارهم وما إليها . وتطورت فى هذه المدن و حكومات مجالس بلدية ، شبه مستقلة وطبقة من رجال المدن المتعلمين . ولن نشغل القارئ بما سنح بين الأسرات المالكة من صدف ربطت شئون الأراضى المنخفضة ببورغنديا (فرنسا الشرقية) ، وانتهت إلى انتقال السلطان الأعلى عليها إلى ميراث الإميراطور شارق الحامس .

وفى عهد شارل انتشرت إلى الأراضى المنخفضة المبادئ البروتستانية التى كانت عند ذاك تعم ألمانيا . واضطهد شارل الناس فى شيء من الشدة ، ولكنه ما لبث فى (١٥٥٦) ، كما أسلفنا أن ترك الأمر إلى ولده فيليب (فيليب الثانى) . وسرعان ما أصبحت سياسة فيليب الحارجية الناشطة ــ وقد كان مشتبكا بحرب مع فرنسا حصدر شر آخر بينه وبين نبلاء الأراضى المنخفضة وأهل مدنها ، لأنه اضطر أن يلجأ إليهم طالباً المعونة . فنصب النبلاء العظام أنفسهم على رأس مقاومة شعبية عامة ، يفودهم وليم الصامت ، أمير أورانج ، وكونتا إجونت وهورن ، وصار يستحبل فيها التفريق بين الاعتراض على فرض الضرائب والاعتراض على الاضطهاد

⁽١) راجع ص ١٤٠ ج ١ من المعالم ط ٢ . والأورمة الألهانية الدنيا هي التي كانت تسكن سهل ألمانيا الثالى المنخفض ولغتهم تسمى بالهجة الألمانية الدنيا . (المترجم)

الدينى . وفى أول الأمر لم يكن النبلاء العظام من البروتستانت ، ولكنهم اعتنقوا ذلك المذهب عندما اشتدت حدة النزاع مرارة . أما الشعب فكان من قبل پروتستانتياً متعصباً .

وعقد فيليب العزم على أن يحكم الأراضى المنخفضة وضمائر أهلها جميعاً . فأرسل الهم نخبة مختارة من الجنود الأسبان واستعمل على البلاد نبيلا اسمه ألفا ، وهو أحد أولئك الرجال « الصارمين » الذبن لا تعرف الرحة إلى قلوبهم سبيلا والذين يحطمون الحكومات والملكيات . فطفق يحكم البلاد ردحاً من الزمان بقبضة من حديد ، ولكن اليد الحديدية تبث فيا تمسه من جسم روحاً من حديد ، فني (١٩٦٧) جهرت كل الأراصي المنخفضة بالعصيان . وأخذ ألقا يتعمل القتل والانتهاب والمدابح على غير طائل . وأعدم الكونتان إجمونت وهورن . فأصبح وليم الصامت زعيم الهولندين الأكر ، ومليكهم في الواقع .

واستمر الكفاح في سبل الحرية زماناً طويلا يتخلله كثير من التعقيد ، ومن الجدير بالذكر أن العصاة ظلوا متعلقين في كل أدوار الكفاح بالقول بأن فيليپ الثانى إنما هو ملكهم — على شريطة أن يرضى أن يكون ملكاً معقولاً محدود السلطان . ولكن فكرة الملكية المقيدة كانت فكرة كريهة المذاق لدى أصحاب التيجان في أوربا وقتداك ، وأخيراً دفع فيليب بالمقاطعات المتحدة التي نطلق عليا اليوم اسم هولندة ، إلى النزوع نحو الحكم الجمهورى . وليلحظ القارئ أن ذلك النزوع ظهر في هولندة وليس الأراضى المنخفضة جمعاء . ذلك أن القسم الجنوبي من الأراضى المنخفضة وهو بلاد البلجيك كما يسمى ذلك القطر الآن ، ظل حتى نهاية الكفاح ولاية إسبانية وكاثوليكية العقيدة أيضاً .

ويمكن أن يتخذ حصار آلكار (١٥٧٣) كما يصفه موتلى^(١) ، مثالا على ذلك النضال الطويل الفظيع بين الشعب الهولندى الصغير وبين موارد الاستعار الكاثوليكى التى كانت ما تزال كبرة ضخمة . كتب ألڤا إلى فيليب يقول :

Rise of the Dutch Republic" ن کتابه (۱)

«إدا استوليت على آلكمار فلن أدع فيها على قيد الحياة فرداً. ولسوف أضع النصل في كل رقبة . . . ، والآن وقد متلت أمام أعيهم مدينة هارلم المجردة من أسلحها والجاوية على عروشها ، وكأنى بها شبحاً يتنبأ لهم بمصيرهم ، فإن رجال آلكمار الذبن يعدون على الأصابع والذبن أغلقوا عليهم أبوابها تهيئوا لأسوأ الظروف . وكان صديقهم البحر هو مناط أملهم الأكبر . ذلك بأن الفتحات الهائلة التي يمكن بواسطنها محر المقاطعة الشهالية بغاية السرعة ، لم تكن إلا على مبعدة أميال قليلة . فلو أنهم فتحوا هذه البوابات وهدموا بعض جسور الماء لجعلوا المحيط يحارب في صفهم . ومع ذلك فقد كانت موافقة الأهلين لازمة للحصول على تلك النتيجة ، إذ أن تلف كل المحاصيل التي في الحقول يكون عند ذاك محققاً . وكانت المدينة محوطة بالمحاصرين إحاطة وثيقة جعلت من العسير عليهم أن يجلوا رسولا يقوم بتلك المهمة المخطرة . وأخيراً تقدم للقيام بهذه المغامرة نجار يدعي بيترفان درماى .

و وسرعان ما تحرجت الأمور فى داخل المدينة المحصورة . فقد كانت تحدث فى كل يوم خارج الأسوار مناوشات غير حاسمة . ثم حدث آخر الأمر فى اليوم الثامن عشر من سبتمبر أن أصمر اللون فرهريك فى الساعة الثالثة بعد الظهر أمراً بالهجوم ، بعد ضرب المدينة بالمدافع ضرباً متواصلا دام اثنتى عشرة ساعة تقريباً . وبالرغم مما مر به من خبرة دامت سبعة شهور فى هارلم فإنه ظل يعتقد أن من المحقق أن يأخذ المدينة اكتساحاً . وحدث الهجوم فى نفس الوقت على كل من البوابة الفريزية والبرج الأحمر فى الجهة المقابلة . وكان على رأس الهجوم فرقتان من نحبة الجند وصلتا وشيكا من لومبارديا ، وهما تزلزلان الجو بصيحات أفرادهما معبرين عن نقتهم بنصر هن قريب . وكانت تظاهرهم قوة جارفة من الجنود المنظمة . بيد أنه لم يحدث بنصر هن قريب ، أن قوبلت هجمة بصدور أثبت جناناً وأشجع أفئدة . فإن كل رجل به نسمة من حياة كان متخذاً مكانه على الأسوار . وكانت الجاعات فإن كل رجل به نسمة من حياة كان متخذاً مكانه على الأسوار . وكانت الجاعات المهاجمة تقابل بالمدافع والقرابينات والغدارات ، وكان الماء الحار والقار والزيت المغلى والرصاص المصهور والحير الحي تصب عليهم فى كل لحظة صباً . وكانت منات من الأطواق المقيدة والحياة تلتى بمهارة حول أعناق الجنود ، الذين حاولوا عبئاً أن

يخلصوا أنفسهم من تلك الأطواق النارية ، فى حين أنه لم يكن أحد من المهاجمين يكاد يضع قدمه على التغرة حتى يتلقاه سكان المدينة بالسيوف والخناجر وينكسوه على أم رأسه فى الخندق .

و وتجدد الهجوم ثلاث مرات بحدة وقوة لا تلين وصد كذلك ثلاث مرات بمضاءة وجلد لا هوادة معهما . واستمرت العاصفة هوجاء أربع ساعات . ولم يغادر واحد من المدافعين مكانه طيلة تلك المدة ، إلا أن يسقط عنه صريعاً أو جريحاً . ونفخ في البوق نفخة الارتداد ، وانسحب الأسبان عن الأسوار مندحرين تمام الاندحار ، مخلفين وراءهم في الخنادق ما لا يقل عن ألف قتيل ، أما أهل المدينة فلم يقتل منهم إلا ثلاثة عشر من السكان وأربعة وعشرون من الحامية . . . وقد روى حامل العلم سوليز الذي صعد على ثغرة السور مدة لحظة قصيرة وثبما بحياته بمعجزة حين قذف به من الأسوار ، أنه لم ير عندما أشرف على المدينة خوذة ولا سرجاً : بل شهد نفراً من الناس البسطاء المظهر يرتدون عموماً ثباب صيادي السمك . ومع ذلك فإن هولاء الصائدين البسطاء قد دحروا محنكة جنود ألقا .

« وفى نفس الوقت كان الحاكم سونوى قد فتح كثيراً من جسور الماء ، فأخذت الأرض فى المنطقة المجاورة للممسكر تصبح بركا ، وإن كان الفيضان الداهم لم يحدث حتى آنذاك . ودب دبيب القلق فى الجنود وامتلأت نفوسهم بالشكس والتمرد . ولم تذهب مهمة النجار عبثاً . . . »

فإنه عاد إلى المدينة يحمل بعض الرسائل . ولكنه فقد تلك الرسائل إما على وجه الصدفة أو التدبير ـ وهو في طريقه إلى المدينة ـ فوقعت في يد ألفا . وكانت تحوى وعداً صريحاً من دوق أورانج بغمر البلاد بالماء عمراً يجعل الجيش الأسباني بأكمله من المغرقين . وكان هذا الأمريغرق في نفس الوقت معظم محصول الهولنديين وماشيتهم . ولكن ألفا عندما اطلع على تلك الوثائق لم ينتظر حتى تفتح عليه بوابات أخرى . وسرعان ما أخذ رجال آلكمار البواسل يتصايحون ويهتفون ـ حين شهدوا الأسبان بأخذون أهبة الرحيل والتفرق .

واتخذت حكومة هولندة المحررة شكل جمهورية من الأشراف تحت رياسة بيت أورانج . وكان « مجلس الطبقات States General » أقل تمثيلا لهيئة المواطنين بأكملها من البرلمان الإنجليزى ، الذي سنقص عليك فيما يلى قصة كفاحه مع التاج .

ومع أن أسوأ أدوار الكفاح انقضت بعد آلكمار ، فإن هولندة لم تصبح مستقلة بالفعل حتى (١٦٠٩) ، ولم يعترف باستقلالها اعترافاً ناماً كاملا إلا فى معاهدة وستفاليا فى (١٦٤٨) .

٣ ــ الجمهورية الإنجليزية

يبدأ النزاع الصريح الذي قام به مالك العقار مناهضاً عدوان و الأمير ، في إنجلترة منذ عهد قديم يرجع إلى القرن الثاني عشر . ودور الكفاح الذي علينا أن ندرسه الآن إنما هو الذي ابتدأ بمحاولات هنري السابع والتامن وخلفاتهما ، إدوارد السادس ، وماري و إثير ابيث جعل حكومة إنجلترة و ملكية شخصية (۱) ، من الطراز الشائع بالقارة الأوربية . واشتد الكفاح حدة عندما حدث تبعاً لمصادفات المصاهرة في الأسرة المالكة ، أن أصبح جيمس ملك اسكتلندة ، هو چيمس الأول ملك إنجلترة واسكتلندة على المنوال الذي اقتبسناه عنه آنفاً عن و حقه الإلهي ، في أن يفعل ما يشتهي .

ولكن لم يحدث قط أن كان طريق الملكية الإنجليزية سهلا معبداً . فني كل العاهليات التي أقامها غزاة الإمبر اطورية الشهاليون والألمانيون كان هناك تقاليد لجمعية شعبية تجمع ممثلي الشعب ذوى النفوذ من الرجال لحفظ حرياتهم العامة ، ولم تكن تلك الجمعية أنشط في أيّ منها حياة منها في إنجلترة . فكانت لفرنسا تقاليدها الخاصة بجمعية والطبقات الثلاث Estates وكان الأسبانيا كورتيزها . بيد أن الجمعية الإنجليزية كانت تتسم بسمة خاصة من ناحيتين : أولاهما أنها كانت تستند إلى

 ⁽١) الملكية الشحصية أو الفردية هي الاستبدادية المطلقة التي مجتمع فيها الحكم في شخص الملك .
 (المترجم)

تصريح يتخذ صفة الوتيقة ويحتوى على حقوق معينة أولية وعامة ؛ وثانيتهما أنها كانت تضم ؛ فوانيتهما أنها مقاطعات ؛ منتخبن كما تضم نواباً عن المدن متنجبن أيضاً . وكانت الجمعيتان الفرنسية والأسبانية تتألفان من العنصر الأخير دون الأول .

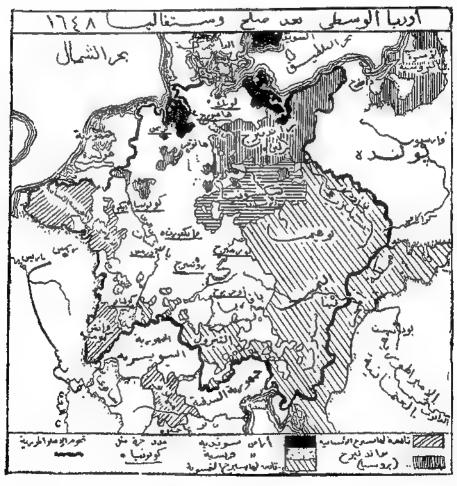


(تكل ١٦٩) صورة كرموبل

وهاتان الخصيصتان جعلتا للرلمان الإنجليزى قوة خاصة فى كفاحه مع العرش. والوثيقة المعنية إنما هى الماجنا كارتا ، أى العهد الأعظم ، وهو تصريح أخد غصبا من الملك چون (١٩٩٩ – ١٢١٦) ، وهو أخو الملك ريتشارد قلب الأسد (١١٨٩ – ١١٩٩) وخليفته ، وذلك بعد العصيان الذى قام به البارونات فى (١٢١٥). وهو يكرر عددا من الحقوق الجوهرية التى جعلت من إنجلترة دولة قانون لا دولة ملك . وهو قد أبى على الملك التسلط على الممتلكات والحرية الشخصية لكل نوع من أنواع المواطنين – اللهم إلا أن يكون ذلك برضاء نظراء ذلك المواطن.

فأما وجود ممثلي المقاطعة المنتخبين في البرلمان الإنجليزى – وهي الحصيصة الثانية في حالة بريطانيا – فقد نجم عن بدايات بسيطة جداً ، وحميدة لا مضرة منها . إذ يبدو أن الفرسان كانوا يستدعون من المقاطعات أو أقسام الريف إلى المجلس الوطني ليشهدوا بمقدرة نواحهم على دفع الضرائب . وكان يرفعهم إلى ذلك المكان من هم أدنى منهم مرتبة من الأعيان وأصحاب الأملاك وشيوخ القرى في نواحهم في زمان يرجع إلى (١٢٥٤)، فينوب عن كل مقاطعة فارسان . فألهمت هذه الفكرة سيمون دى مونت فورت ،

وكان فى ثورة ضد هترى النالث ، خليفة چون ، أن يدعو إلى المجلس الوطنى فارسين عن كل مقاطعة ، وتمادنين لكل مدينة أو بندر انتخاب (١) . وواصل هذا العمل إدوارد الأول خليفة هنرى الثالث ، إذ أنه كان يلوح فى نظره وسيلة ملائمة تمكنه من الاتصال المالى بالمدن النامة .



(شکل ۱۷۰)

وأبدى الفرسان ورجال المدن في بادئ الأمر قدراً جسيا من عدم الرغبة في

⁽١) البندر الانتخابي : لفظة أطلقناها للدلالة على Borough ومناها المدينة التي نرسل عنها نوابا في البرلمان . (المترجم)

حضور البرلمان ، ولكنهم أدركوا شيئاً فشيئاً القوة التى يملكومها فى اتخاذ رفع الظلم عن الناس شرطا لمنح الاعتهادات المالية .

وكان هؤلاء ممثلو ملاك العقارات العامة في المدن والريف يسمون باسم العموم «Commons». وكانوا يعقدون جلساتهم ويتناقشون في الأمور من زمن قديم جداً أو قل منذ البداية ، بمعزل تام عن كبار اللوردة والأساقفة . وهكذا نمت في انجلترة جمعية نيابية تمثيلية ، هي مجلس العموم ، إلى جانب جمعية أخرى من الأساقفة والنبلاء هي مجلس اللوردة . ولم يكن هناك فارق جوهرى عميق يفرق بين هيئتي الجمعيتين . إذ أن كثيرا من فرسان المقاطعة رجال لهم قيمتهم ووزنهم ، وربما بلغوا من الثراء والنفوذ مبلغ النبلاء وبينهم كذلك أبناء النبلاء وأشقاؤهم ، على أن مجلس العموم كان في جملة أمره هو الجمعية الأدنى إلى الشعبية .

وأظهر هذان المجلسان منذ البداية ، وبخاصة مجلس العموم ، ميلاً إلى ادعاء الحق الكامل فى فرض الضرائب على البلاد . وأخذا بالتدريج يوسعان دائرة اختصاصهما من النظر فى المظالم إلى نقد شئون المملكة كلها .

ولسنا بمترسمين التقلبات التي ألمت بقوة البرلمان الإنجليزى وهيبته إبان حكم ملوك آل تيودور ، (أعنى هنرى السابع والثامن وإدوارد السادس ومارى والبزابيث) ، على أنه يتضبع للقارئ مما قلناه ، أنه عندما أعلن چيمس استبوارت آخر الأمر ادعاءه الصريح للحكم المطلق الأوتوقراطي ، وجد التجار والنبلاء والجنتلمانية المستقلون الإنجليز ، بين أبديهم وسيلة تقليدية شريفة مختبرة لمقاومته لم يكن عند أى شعب في أوربا نظير لها .

وهناك خصيصة أخرى للنضال السياسي الإنجليزى ، هي انفصاله النسبي عن الكفاح العظيم بين الكاثوليك والبروتستانت ، وهو الكفاح الذي كانت نيرانه مشبوبة في كل أرجاء أوربا . حقاً إنه اختلطت بالكفاح الإنجليزى منازعات دينية واضحة المعالم جداً ، ولكنه كان في جوهره نضالاً سياسياً بين الملك والبرلمان ، مجسها في طبقة المواطنين أصحاب الأملاك الحاصة . على أن الشعب والتاج كانا من الناحية الرسمية

من الآخذين بالإصلاح الديني كماكانا من البروتستانت. تعم إن كثيراً من الناس في الجانب الأول (أعنى الشعب) كانوا بروتستانت ، من طراز يحترم الكتاب المقدس ولا يقيم وزناً للنظام الكهنوني ، وهو الطراز الذي يمثل الإصلاح الديني كما تراه الشعوب ، وأن الملك كان الرئيس الإسمى لكنيسة من نوع خاص تعترف بالعشاء الرباني وتقوم على نظام الكهنوت ، وهي كنيسة إنجلترة الرسمية ، التي تمثل الإصلاح الديني كما يراه الأمراء (١) ولكن هذه الخصومة لم تحجب بأية حال أسس الكفاح الحوهرية .

وكان الكفاح بين الملك والبرلمان قد وصل بالفعل إلى دور حاد قبل وفاة چيمس الأول في (١٩٢٥) ، ولكنه لم يبلغ ذروته ، ويصل إلى الحرب الأهلية إلا في حكم ولده شارل الأول . وفعل شارل بااضبط كل ما يتوقع من ملك في ذلك الموقف ، بالنظر إلى قلة الرقابة البرلمانية على السياسة الخارجية . فإنه زج بالمملكة في حرب مع كل من أسبانيا وفرنسا ، ثم جاء يطلب من بلاده المدد آملا أن يتغلب الشعور الوطني على ما توقر في النفوس من كراهية طبيعية لإعطائه المال . فلما أن رفض البرلمان إمداده بالمان ، طلب من كثير من رعاياه بعض القروض ، وحاول أن يفرض على الناس ألوانا مماثلة من هذه الفرائض غير القانونية .

فأدى هذا بالبرلمان إلى إصدار وثيقة لا تنسى أبداً (١٦٢٨) ، هي « ملتمس الحقوق Petition of Rights ، ذكره فيها بالعهد الأعظم وأكد القيود القانونية على سلطة الملك الإنجليزى ، وأنكر حقه في جباية الفرائض من أي إنسان أو سجنه أو معاقبته ، أو أن ينزل جنوده على حساب الناس ، - دون اتخاذ الإجراءات القانونية الواجبة .

إن ملتمس الحقوق عرض قضية البرلمان الإنجليزي. والميل إلى عرض الفضية ، كان على الدوام خصيصة من الحصائص الإنجليزية الملحوظة جداً . وعندما كان

⁽¹⁾ انظر ص ٩٧٩ ج ٣ من المعالم الطبعة الثانية .

الرئيس ولسون أثناء الحرب العظمى (١٩١٤ – ١٨) يمهد لكل خطوة من خطوات سياسته « بمذكرة » ، كان يسير في نهج أعظم التقاليد الإنجليزية وقارآ .

وتصرف شارل مع هذا البرلمان تصرف المتعسف المتغطرس – فحله فی (۱۳۲۹) ، وظل أحد عشر عاما يحكم بلا برلمان . ويجمع الضرائب جمعاً غير قانونی ، ولكنها لم تكن تني بغرضه وإذ أدرك أن فی الإمكان أن تستعمل الكنيسة أداة لنشر الطاعة ، عين لود رئيساً لأساقفة كانتربورى وبذا يصبح على رأس كنيسة إنجلترة ، وهو رجل من كبار رجال الكنيسة عدوانى الطبع ، وينطوى على كثير من صفات القسيس وممن يؤمنون و بالحق الإلهى ع .

وفى (١٦٣٨) حاول شارل أن يبسط طابع الكنيسة الإنجليزية الذى يجمع بين البروتستانتية والكاثوليكية ، إلى مملكته الأخرى الإسكتلندية ، التي كان تباعدها وانفصالها عن الكاثوليكية أتم وأشمل ، والتي كانت تتخد صورة من المسيحية لا تقوم على نظام كهنوتى ولا تعترف بالعشاء الربائى ، وهي الكنيسة البريزبتريانية على نظام كهنوتى ولا تعترف بالعشاء الربائى ، وهي الكنيسة البريزبتريانية وتمردت الجنود الإنجليزية التي جمعها شارل لمقاتلهم .

وكان الإفلاس ... وهو فى كل الأزمان النتيجة الطبيعية لكل سياسة خارجية طموح – قاب قوسين منه أو أدنى . واضطر شارل حين لم يعد لديه مال ولا جنود جديرة بالثقة ، أن يدعو آخر الأمر برلماناً (١٦٤٠) . ولكنه حل ذلك البرلمان فى السنة نفسها ، وهو المعروف بالبرلمان القصير . ثم حاول الاستعانة بمجلس من النبلاء فى يورك (١٦٤٠) ، ثم استدعى فى نوفم من نفس السنة آخر برلمان له .

و اجتمعت هذه الهيئة ، وهي البرلمان الطويل ، وهي في حالة تهيؤ للنضال . فقبضت على لود ، رئيس أساقفة كانتربورى ، واتهمته بالخيانة . ونشرت ما يسمى .

 ⁽١) البيريزبتريانية هي كما ترى الكبيسة الإسكتلندية الرسمية. وهي تقوم على إدارة الشئون الدينية والكنسية بواسطة الكهول والشيوخ سواء أكانوا من رجال الدين أم لم يكونوا. وقد قامت على تعاليم چون كالفن. (المترجم)

و بالاعتراض الأكبر ، وكان تقريرا مفصلا شاملا لقضية البرلمان ضد شارل . وأصدر البرلمان مشروع قانون (Bill) ... اتخذ به التدابير اللازمة لاجتماع البرلمان مرة فى كل ثلاث سنين على الأقل ، سواء استدعاه الملك أم لم يستدعه . وحاكم أكابر وزراء الملك الذين أعانوه على الحكم مثل ذلك الزمان الطويل بلا برلمان ، وبخاصة الإيرل سترافورد .

فدبر الملك إنقاذاً لاسترافورد – موامرة للاستيلاء بالجيش فجأة على لندن. ولكن المؤامرة اكتشفت ، وسارع البرلمان إلى إصدار مشروع القانون القاضى بإدانة سترافورد وسط عاصفة عظيمة من الهياج الشعبي . ودب الحوف من جاهير لندن إلى قلب الملك شارل الأول ، الذي لعله كان من أسفل من جلسوا على العرش البريطاني وأشدهم خيانة . ولكي يموت سترافورد حسب الأصول القانونية السليمة ما لم يكن بد من أن يوافق الملك على القرار . فوافق الملك وقطعت رأس سترافورد .

وكان الملك في الوقت نفسه يأتمر في الخفاء ويبحث عن المعونة في مواطن غريبة ، ينشدها بين الإرلنديين الكاثوليك وبين الخونة من الإسكتلنديين . وأخيراً بلأ إلى مظهر للعنف ضعيف . فذهب إلى دار البرلمان ليعتقل خسة من أنشط خصومه . فدخل إلى مجلس العموم واعتلى منصة الخطابة . وكان مستعداً لإلقاء خطبة جريئة عن الحيانة ، ولكنه عندما رأى أماكن خصومه الحمسة خالية ، أرتج عليه واضطرب وتكلم في جمل متقطعة . إذ علم أنهم ارتحلوا عن مدينته الملكية وستمنسر ، وبلأوا إلى مدينة لندن التي كان لها مجلس بلدية بحكها حكماً ذاتياً . وتحدته لندن . وبعد ذلك بأسبوع قام رجال حرس لندن المدربون بتوصيل هولاء الأعضاء الخمسة إلى ذلك بأسبوع قام رجال حرس لندن المدربون بتوصيل هولاء الأعضاء الخمسة إلى دار البرلمان بوستمنستر في موكب عظيم من مواكب النصر ، ولكي يتجنب الملك جو الصخب والعداء الذي عجب الحادث ، غادر قصر هوايت هول إلى وندسور . وعديد استعد كل من الفريقين صراحاً للحرب .

وكان الملك هو الرئيس التقليدى للجيش وقد جرت عادة الجند بطاعة الملك . وكانت لدى البرلمان موارد أعظم . ورفع الملك لواءه فى نوتنجهام فى مساء يوم مظلم عاصف من أغسطس (١٦٤٢) . وعقبت ذلك حرب أهلية طويلة عنيدة ، كان الملك فيها مستحوذاً على أكسفورد والبرلمان على لندن . وكان النجاح يتنقل من جانب إلى جانب ، ولكن الملك لم يستطع قط أن يطبق على لندن ، كما لم يستطع البرلمان أن يستولى على أكسفورد . وكان يفل من عزم كل من الحصمين وجود أتباع من المعتدلين الذين ه لم يكونوا بحبون الاشتطاط في الأمور . .

وبرز من بن قادة البرلمان ، رجل اسمه أوليڤر كرومويل ، كان قد جمع ثلة من الفرسان وارتفع إلى رتبة جرال . ويصفه معاصره اللورد وارويك بأنه رجل بسيط يرتدى بدلة من قماش عادى صانعها خياط «ريني ردىء » . لم يكن مجرد جندى مقاتل ، بل كان منظماً حسكرياً ، أدرك ما عليه كثير من القوات البرلمانية من حالة دنية ، ونصب نفسه لإصلاحها . وكان لفرسان الملك تلك التقاليد الجميلة ، تقاليد الفروسية والولاء . وكان البرلمان شيئاً جديداً عسيراً على الأفهام ليست له تقاليد تقارن بتلك . قال كرومويل « إن معظم جنودكم إنما هم خدمة وسقاة "كهول" واهنو القوى ، فهل تظنون أن أرواح مثل هولاء الأشخاص الأسافل الأدنياء ، تستطيع يوماً أن تقاتل الجنالمانية الذين ملأ أعطافهم الشرف والشجاعة والعزم ؟ » .

ولكن هناك شيئاً أقوى وأحسن من الفروسية الجذابة فى العالم ، وذلك هو الحاسة الدينية . ولذا نصب كرومويل نفسه ليجمع فرقة من « الربانيين الاتقياء » . وكان لا بد لهم من أن يكونوا رجالا جادين معتدلين في حياتهم . وكان لا بد لهم فوق كل شيء من أن يكونوا رجالا ذوى عقيدة قوية . فتجاهل جميع التقاليد الاجماعية وجمع ضباطه من بين كل طبقة . قال : « إنى لأفضل أن أحصل على ضابط بسيط برتدى بدلة ريفية حمراء ، ويعرف الذى من أجله يحارب ويحب ما يعرف ، على ما تسمونه چتلاناً وليس بشيء عدا ذلك » .

واكتشفت إنجلترة بين ظهرانها قوة جديدة هي الحرس الحديدي . كان السعاة والحوذية وربابنة السفن يتولون فيها قيادة عليا ، إلى جوار أبناء البيوتات . وأصبحوا النموذج الذي حاول البرلمان أن يبي على منواله من جديد جيشه بأكمله . وكان

الحديديون هم العمود الفقرى « للنموذج الجديد » . واجتاح هؤلاء الرجال أمامهم فرسان الملك من مارستون مور إلى نيسبي . وأخيراً وقع الملك أسيراً في قبضة البرلمان .

ورغم ما جرى بذلت محاولات لتسوية الأمور هدفها ترك الملك فى عرشه بشكل ما ، ولكن شارل كان رجلا قدرت عليه العواقب المحزنة ، فهو لا ينقطع عن تدبير الخطط ، و رجلا بلغ من إفكه أنه لا يجوز أن يثق به إنسان ، وكان الإنجليز ينساقون نحو موقف جديد فى تاريخ العالم ، وجب فيه أن يحاكم ملك على خيانته شعبه وأن يقضى فيه بحكم .

والحق أن جميع الثورات ـ شأن هذه الثورة الإنجليزية ـ إنما تدفعها نحو العجلة المهورة تصرفات الحاكم وعاولته استعال القوة والحزم استعالا يتجاوز حدود القانون . وتنقذف معظم الثورات بحكم نوع من الضرورة نحو خاتمة أشد تطرفاً بما كان يستشف من الحلاف الأصلى . ولم تكن الثورة الإنجليزية استثناء لهذا الأمر . والإنجليز بطبعهم شعب ميال إلى الصلح والتفاهم بل هم قوم متر ددون ، والراجح أن الغالبية العظمى منهم كانت ما تزال تريد أن يظل الملك ملكاً وأن يكون الناس أحراراً ، وأن يرقد الأسود والحراف بعضهم إلى جوار بعص في سلام و-عرية . ولكن الجيش ذا الطراز الجديد لم يكن في مستطاعه أن يتراجع . فلن تكون هناك إذا ما عاد الملك إلى عرشه فرة من الشفقة نحو هؤلاء السعاة والحوذية الذين وطئوا جنتهانية الملك بخيولم . وعندما شرع البرلمان في التفاوض من جديد مع المخاتل الملكي ، تلخيل الطراز الجديد ، فطرد شرع البرلمان في التفاوض من جديد مع المخاتل الملكي ، تلخيل الطراز الجديد ، فطرد الكولونيل برايد ثمانين عضواً من أعضاء البرلمان الإنجليزي كانوا يميلون إلى الملك ، الملك ، فعلمت البقية الباقية غير القانونية وهي البرلمان الإنجليزي كانوا يميلون إلى الملك ، الملك المناها المناها كان كانوا يميلون إلى الملك ، الملك المناها كان كانوا كان كانوا كانون كانوا كون المناك كانوا كلاك كانوا

المحاكمة . وحكم على الملك بأنه و طاغية وخائن وقاتل وعدو لبلاده . وأخذ في صباح أحد أيام شهر يناير (١٦٤٩) إلى مشنقة ، أقيمت خارج نوافذ قاعة ولائمه الحاصة في هوابت هول . وهناك قطعت رأسه . فمات وعليه سيا التقوى وضرب من الإشفاق على الذات نبيل ــ وذلك بعد إعدام استر افورد ببانية أعوام ، وبعد ست سنوات ونصف مضت في حرب أهلية مدمرة ، سبها كلها تقريباً بلا استثناء خروجه على القانون .

والحق إن هذا الذي عمله البرلمان كان عملا فظيعاً مرعاً . فلم يسمع الناس بمثله قط في العالم من قبل نعم إن الملوك كثيراً ما قتل أحدهم الآخر ؛ وإنماكان قتل الأب أو الأغتيال وسائل اختص بها الأمراء ؛ فأما أن يقوم فريق من الشعب ، ويحكم ملكه في جد وتعمد منهماً إياه بعدم الولاء وإثارة الشر والحيانة ، ويحكم بإدانته ثم يقتله ، فأمر بث الذعر في كل بلاط في أوربا . ذلك أن المرلمان الأبشر تجاوز ما يطيقه ضمير زمانه وفكرانه . وكأنما خرج من إحدى الغابات سرب من الفلباء فأسر أحد النمور وقتله – وهي جريمة مخالفة للطبيعة . فطرد قيصر الروسيا السفير الإنجليزي من بلاطه ، واتخذت فرنسا وهولندة تصرفات عدائية صربحة . السفير الإنجليزي من بلاطه ، واتخذت فرنسا وهولندة تصرفات عدائية صربحة . ووقفت إنجليرة منعزلة أمام العالم ، مبلبلة يؤنها ضميرها بجرمها .

ومضى ردح من الزمان تهيأ فيه للمزايا الشخصية لأوليثر كرومويل ولمنظام الجيش اللي أنشأ وقوته ، أن تصون لانجلترة النهج الجمهوري الذي سلكت . وكان الإرلنديون الكاثوليك قاموا بمذبحة في الإنجليز البروتستانت النازلين في إرلندة ، وعند ذاك قع كرومويل بشدة عظيمة الإرلنديين العصاة . وفيا عدا رهبانا بأعيانهم قتلوا أثناء الهجوم العنيف على دروجيدا فإن جنوده لم يقتلوا إلا الرجال الذين يحملون السلاح بأيديهم . ولكن فظائع المذبحة كانت ما تزال قوية الأثر في ذهنه ، ولذا لم تبد من جانبه أية رحمة في المعركة ، ومن ثم لا تفتأ فأكراه ينقد لهيها في أذهان الإرلنديين ، الذين يطول تذكرهم لما يصيبهم من النوازل .

وبعد إيرلندة ، جاء درر اسكتلندة ، حيث مزق كرومويل جيشاً ملكياً في معركة دنبار (١٦٥٠).

ثم صرف نتباهه إلى هولندة ، وهي القطر الذي نهز في حماقة فرصة الانقسامات بين الإنجليز واتخذها ذريعة لإيقاع الأذى بهم كمنافسين له في النجارة . وكان المولنديون آنذاك سادة البحر ، فكان قتال الأسطول الإنجليزي من ثم غير مضمون العاقبة . ولكن حدث بعد سلسلة من الحروب البحرية العنيدة أن طرد الهولنديون من البحار البريطانية ، وحل الإنجليز محلهم بوصفهم الدولة البحرية العظمي . وأصبح حيا مقرراً على السفائن الهولندية والفرنسية أن تخفض لها راياتها . وذهب أسطول المجليزي إلى البحر الأبيض ، وكان أول قوة بحرية إنجليزية دخلت تلك المياه ؛ فأصلحت كثيراً من الحيف الواقع على أرباب السفن الإنجليز من توسكاني ومالطة ، وأطلقت قنابلها على وكر القرصان التونسي وحطمت أسطول القراصنة – الذي تعود في أيام شارل وتراخيه أن يصل حتى شواطئ كورنوال وديڤون ليقطع الطريق على السفن ويحمل الرقيق إلى إفريقية .

وتدخلت كذلك ذراع انجلترة القوية لمساعدة البروتستانت في جنوب فرنسا والسويد وكان دوق ساڤوى يطاردهم ويفتك بهم . ثم وجدت كل من فرنسا والسويد والدانمارك أن من الحكمة أن يتغلبن على نفورهن الأول من وقتل العاهل و فتحالفن مع انجلترة . ونشبت الحرب مع أسبانيا ، ودمر الأميرال الإنجليزي العظيم بليك أسطول المعادن (۱) الأسباني في تاناريف في إقدام وجرأة لا يكاد يصدقها عقل . فإنه هاجم البطاريات البرية . فكان بذلك أول رجل وجعل السفن تخدش كبرياء قلاع الشوطئ و . (ومات في ١٦٥٧ ، ودفن دير وستمنستر ، ولكن نبشث عظامه بعد عودة الملكية بأمر من شارل الثاني ، ونقلت إلى كنيسة القديس مارجريت بوستمنستر) . تلك هي الصورة التي نقشتها إنجلترة لنفسها أمام عين العالم أثناء أيامها الجمهورية الوجيزة .

وفى اليوم الثالث من سبتمبر (١٦٥٨) توفى كرومويل أثناء عاصفة هوجاء لم يفتها أن تبلغ من نفوس أصحاب الحرافات كل مبلغ . وما كادت يده القوية تجمد عن

⁽١) المستعمل في نقل المعادن النفيسة المنتصبة من أمريكا . (المترجم)

الحركة ، حتى تخاذلت بريطانيا عن تلك المحاولة السابقة لأوانها لتحقيق إنشاء دولة تقوى قوامها الأحرار من الرجال ؛ فني (١٦٦٠) رحب الناس في انجلترة بعودة شارل الثاني ابن شارل و الشهيد و بكل مظاهر حفاوة الولاء الشخصي الحببة إلى قلوب الإنجليز ، وتراجعت البلاد عن كفايتها العسكرية والبحرية كأنها النائم إذ يستيقظ ويتمعلى ويتناءب بعد حلم عنيف حاد . قنضي على الهبوريتان (المتطهرين) وانتهى أمرهم . وعادت إنجلترة المرحة سيرتها الأولى ، وفي (١٦٦٧) دخلت سفن الهولنديين وقد عادت إليهم سيادة البحر ثانية – في نهر النامز حتى وصلت جرافزند Gravesend وأحرقت أسطولاً إنجليزياً في الميدواي (١) .

يقول پيپيس في يومياته : « وفي الليلة التي أحرق فيها الهولنديون سفننا ، تعشى الملك فعلاً مع مولاتي الليدي كاستيل مين ، وهناك جن جنونهم وهم يطاردون فراشة مسكينة ».

وتناول شارل منذ ساعة عودته (١٦٦٠) ، زمام شئون الدولة الخارجية بين يديه ، و (١٦٧٠) عقد محالفة سرية مع لويس الرابع عشر الفرنسي ، تعهد فيها أن يجعل السياسة الإنجليزية الخارجية تابعة تماماً لسياسة فرنسا مقابل جعل سنوى مقداره مئة ألف جنيه . وكانت دنكرك التي سبق أن استولى عليها كرومويل قد بيعت قبل ذلك إلى فرنسا . وكان الملك رياضياً عظيماً ، وله الولع الإنجليزي الصحيح بمشاهدة مباق الخيل ، ولعل أبلغ آثاره في الدلالة على خصائصه حلبة السباق في نيوماركت .

وقد استطاع شارل بفضل فكاهته السهلة ، الاحتفاظ مدى سنى حياته بالعرش البريطانى ، ولكنه وصل إلى ذلك بالنزام الحيطة وخطة التفاهم والمسالمة ، حتى إذا خلفه في (١٦٨٥) أخوه چيمس الثانى ، الذي كان كاثوليكياً مخلصاً ، وكان أغبى من أن يدرك التحديد الحتى الذي يحد من سلطة الملكية أليجلترة ، عاد النزاع القديم بن المرلمان والملك حدته الأولى .

⁽١) الميدواى : نهر صمير بإنحلترة يصب نى نهر التاميز . (المترحم)

ونصب چيمس نفسه لإرغام مملكته على العودة إلى الاتحاد الديني مع روما . وإذا به في ١٦٨٨ يتخذ طريق الهرب إلى فرنسا . على أن اللوردة الكبار والتجار والختلانية كانوا في هذه المرة أحرص من أن يسمحوا بأن يقذف بهم هذا التمرد على الملك إلى أيدى كولونيل برايد آخر أوكرومويل آخر . وكانوا استدعوا آنفآ ملكاً آخر هو وليم أمير أورانچ ليحل محل الملك . وتم التغيير سريعاً . ولم تحدث أية حزب اهلية ــ اللهم إلا في إرلندة ــ ولم تنطلق في البلاد أية قوة ثورية أكبر من هذه .

وليس هنا مجال البحث في دعوى وليم بالعرش ، أو بالحرى في ادعاء زوجته مارى به ، فإن هذا موضوع فني بحت _ كا يقولون _ ؛ ولا كيف حكم وليم الثالث ومارى ، ولا كيف حلث بعد ذلك أن الملك الأرمل وليم حكم وحده ردحاً من الزمان ، ثم انتقل العرش إلى آن (١٧٠٢ – ١٧١٤) أخت مارى . ويلوح أن آن كانت تنظر بعين العطف إلى عودة الملك إلى أسرة استيوارت ، ولكن اللوردة والعموم الذين كانوا عند ذاك المسيطرين على الدثون الإنجليزية ، فضلوا أن يليهم ملك أقل كفاية . إذ كان في الإمكان أن يقام نوع من الادعاء على العرش لمنتخب هانوڤر ، الذي أصبح ملكاً على إنجلترة باسم چورچ الأول (١٧١٤ – ١٧٢٧) . كان ألمانياً قحاً لا يعرف اللغة الإنجليزية ، واجتلب معه إلى البلاط الإنجليزي حشداً من النساء الألمانيات والحشم الألمان ؛ وبمقدمه حلت بالحياة العقلية في البلاد فترة خود وركود وزال عنها الصقل ، ولكن انعزال البلاط عن الحياة الإنجليزية كان أعظم ما يزكيه لذي كبار ملاك الأراضي وأصحاب المصالح التجارية ، مل كان الميزة الني ما يزكيه لذي كبار ملاك الأراضي وأصحاب المصالح التجارية ، عل كان الميزة الني من أطبها خاصة استقدموه .

الأوليجركية : هي حكومة هيئة صفيرة من الرجال تمملك زمام السلطة العليا بإحدى الدول .
 (المذرجم)

اللذين رفعهما إلى درجة عالية السر روبرت والبول ، سلبت مجلس العموم حريته وقوته الأصليتين . فإنه استخدم طرقاً خبيثة ماهرة قصرت الأصوات البرلمانية من الناخبين . فقد ترسل مدن قديمة تحوى نفراً قليلا من السكان أو هي لا تحوى أحداً قط عضواً أو عضوين (فكان لمدينة ساروم القديمة ناخب واحد لا يقيم فيها ، وليس مها أحد من السكان وينوب عنها مع ذلك نائبان) ، على حين لم يكن أحد يمثل على الإطلاق بعض المراكز الجديدة الآهلة بالسكان . وأفضى الإصرار على وجوب امتلاك الأعضاء مؤهلا عقارياً ضخماً ، أن زادت ضيقاً على ضبق ، الفرص المتاحة للعموم الذين يتكلمون بلسان العامة معبرين عن حاجات السوقة .

وعقب چورچ الأول چورچ الثانى (۱۷۲۷ – ۱۷۲۰) الشديد السبه به ، وبموته أتيح لإنجلترة من جديد ملك مولود فى إنجلترة ، ويستطيع أن يتكلم الإنجلترية بدرجة من الجودة متوسطة وهو حفيده چورچ الثالث . وسنحدثك فى فصل تال عن محاولة هذا الملك استرداد بعض السلطات الملكية الكبرى .

ذلك موجز لقصة الكفاح الذى حدث بانجلترة إبان القرنين السامع عشر والثامن عشر بين العوامل الثلاثة الكبرى فى مشكلة الدولة المصرية ؛ أى بين التاج وأصحاب الأملاك الخاصة وتلك القوة المبهمة ، التى ما تزال عمباء جاهلة ، وهى قوة الناس العوام الخلتص . وهذا العامل الأخير لا يبدو حتى الآن إلا فى اللحظات التى تهتز فيها البلاد اهتزازاً أشد ما يكون عمقاً ، ثم لا يلبث أن يعود إلى الأعماق ، ولكن نهاية القصة تعد حتى ذلك الوقت نصراً تاماً جداً لصاحب الأملاك الخاصة البريطانى على أحلام الحكم المطلق المكياقللي وخططه . وأصبحت إنجلترة وعلى رأسها الأسرة الهانوفرية وعلى رأسها الأسرة المانوفرية وعلى درأسها الأسرة المانوفرية عبوجة » ، على حد تسمية جريدة التابمز لها فى الآونة الأخيرة . في أما صاغت طريقة جديدة للحكم ، هى الحكم البرلمانى ، الذى يذكرنا من نواحى كثيرة بمجلس السناتو والجمعية الشعبية للى الرومان ، ولكنه حكم أرسخ قدماً وأشد كفاية لاستخدامه طريقة التمثيل النيابي مهما يكن ذلك الاستخدام محدوداً . وكان أن قصبح « أم البرلمانات » فى كافة أقطار العالم .

وقد أمسك البرلمان الإنجليزى وما يزال ممسكاً حيال التاج بقسط وغير من العلاقة بين ناظر القصر وبين الملوك الميروڤنچيين . وهم يرون فى الملك شخصاً للرسميات غير مسئول ، ورمزاً حياً للنظام الملكى والإمبراطورى .

ولكن يظل الشيء الكثير من القوة كامناً فى تقاليد التاج وهيبته ، وإن فى اعتلاء المسلوك الهانوڤريين المسمين بچورچ ، ووليم الرابع (١٨٣٠) ، وڤيكتوريا (١٨٣٧) ، وإدوارد السابع (١٩٠١) وچورچ الحامس (١٩٩٠) وإدوارد الثامن (١٩٣٠) ، لأسلوبا يخالف تماما ملوك الميروڤنچيين الضعفاء . فقد مارس هولاء الملوك جيماً على درجات متفاوتة فى شئون الكنيسة ، والهيئات العسكرية والبحرية ، والسياسة الحارجية ، نفوذاً لم يقلل من شأنه كونه غير ذى حدود تحدده .

٤ ــانقسام ألمانيا واضطرابها

لم يجلب الهيار الفكرة القائلة بمسيحية موحدة ، فى أى قطر من أقطار أوربا ، عواقب أوخم مما جره على ألمانيا ، وطبيعي أن يتبادر إلى ظن الإنسان أن الإمبر اطور ، وقد كان ألماني الأرومة ، فى كل حالة الأسرات الأولى وحالة آل هابسبرج ، كان لا بد أن يتطور به الأمر حتى بصبح المليك القومي فى دولة تتكلم الألمانية . على أنه كان مما جلبته المصادفة من نكد الطالع على ألمانيا ، أن لم يظل أباطرتها قط ألمانين . فإن فردريك الثاني آخر سلالة آل هوهنشاوفن ، كان كما رأينا ، صقليا نصف مستشرق . وأصبح آل هابسبرج بالمصاهرة والميل ، ممثلين فى شخص شارل الحامس ، بورغنديي الروح بادئ ذى بده ، ثم أسبانيها . وبعد موت شارل الحامس أخذ أخوه فرديناند المنسا والإمبر اطورية ، وأخذ ابنه فيليب الثاني أسبانيا والأراضي المنخفضة وجنوبي إيطاليا . ولكن السلالة المحسوية ، كانت كاثوليكية عنيدة فى كثلكتها ، محسكة بزمام معظم مبراثها على الجدود الشرقية متورطة لذلك أعمق التورط فى الشئون المنغارية و دافعة الجزية للأثراك شأن فرديناند وخليفته ، لذا لم تحتفظ لنفسها بأى سلطان على شئون المغارب ، وجهلهم بألخطر التركي أو عدم أهمامهم به .

وما كان أصاب السلطان من الأمراء واللوقة والمنتخبن والأساقفة الأمراء وأشباههم ، الذين كانت أملاكهم تقطع أوصال ألمانيا في القرون الوسطى إلى مرقعة تكد البصر بأجزائها الممزقة ، ب بمعادلين في الحقيقة لملوك إنجلترة وفرنسا بل كانوا على التقريب في مستوى كبار أصاب الأراضي من اللوقات والنبلاء بفرنسا وإنجلترة . ولم يكن فهم واحد حتى (١٧٠١) يحمل لقب و ملك ع ؛ وكان الكثير من ممتلكاتهم أضأل في الحجم والقيمة من الأملاك الكبيرة التي يملكها بعض النبلاء الريطانين . وكان مجلس الدايت الألماني شبها بمجلس الطبقات (States Genseral) أو مثيلا لبرلمان ليس فيه نواب منتخبون . حتى أن الحرب الأهلية العظيمة التي شبت للفور في ألمانيا ، وهي حرب الثلاثين سنة (١٦١٨ – ٤٨) ، كانت في جوهرها أوثق قرني وشها بالحرب الأهلية في إنجلترة (١٦٤٨ – ٤٩) ، وبحرب عورب على طاهرها لأول وهلة .

وفى كل هاته الحالات كان التاج إما كاثوليكياً أو نزاعاً إلى الكثلكة ، ووجد الأمراء المعاندون أن ميلهم الفردى ، ينزع بهم نحو نزعة پروتستانتية . ولكن على حين حدث فى إنجلترة وهولندة أن النبلاء البروتستانت والتجار الأغنياء فازوا فى النباية فوزاً مبيناً ، وكان نجاح التاج فى فرنسا أكمل وأوى ، فإن الإمبراطور فى ألمانيا لم يبلغ من القوة والسيادة مبلغاً كافياً ، ولا كان لدى الأمراء البروتستانت من الوحدة والتنظيم فيا بينهم ، ما يكفل لأحد الطرفين نصراً نهائياً . وانتهت الحال هناك متمزق أوصال ألمانيا .

ونما زاد الكفاح الألمانى تعقيداً اشتباك شعوب غير ألمانية منوعة فيه ، وهى البوهيميون والسويديون (الذين كانت لهم ملكية پروتستانتية جديدة نشأت تحت چوستافوس فازا كنتيجة مباشرة للإصلاح الدينى) . وأخيراً تدخلت الملكية الفرنسية ، وقد انتصرت نهائياً على نبلائها ، فعضدت البروتستانت وإن كانت كاثوليكية ، رامية بذلك إلى غاية واضحة هى الحلول محل آل هابسبرج فى رياسة الإمبراطورية .

وقد ترتب على طول أمد الحرب ، وعدم جريامها على امتداد جهة محددة ، لتنائرها في كل أرجاء إمىر اطورية قوامها الرقاع : فمن پروتستات هنا وكاثوليك هنالك ــ أن تحولت إلى حرب من أقسى الحروب وأشدها تدميراً ، حرب لم تشهد أوربا لها مثيلًا منذ أيام الغارات الهمجية . وليس يقوم شرها الخاص في القتال ، بل فيما يلازم القتال من ويلات . فإنها حدثت في زمن تطور فيه الناكنيك العسكرى إلى حد جعل المجندين العاديين غير ذوى غناء حيال المشاه المحترفين المدربين . فإن إطلاق الجماعات النار دفعة واحدة من القرابينات إلى مبعدة بضع عشرات من الياردات قضي على الفارس الفرد ذي الدروع السابغات ، بيد أن هجات جموع الفرسان المنظمة كانت ما تزال تستطيع أن تشتت شمل أي مشاة ، لم تصل في تدريها إلى درجة كافية من الصلابة الآلية . فإن المشاة بقرابيناتهم التي لا بد من حشو أنابيها بين لحظة وأخرى لم تكن لتستطيع أن تقيم من النار سياجاً متواصلاً يني بتشتيت فرسان ذوى عزم وصرامة قبل وصول هجمتهم إلى هدفها وإنزالهم ضربتهم . ومن ثم كان لزامًا عليهم أن يقابلوا الصدمة وقوفاً أو راكمين خلف جدار براق من الحوازيق أو السونكيات. وكان لا بدلهم في هذا من تنظيم عظيم وخبرة كبيرة ؛ وكانت المدافع الحديدية ما تزال صغيرة الحجم كما لم تكن وفيرة العدد جدا ، ولم تكن تقوم حتى آنذاك بدور حاسم في الحرب. نعم إنها كانت تستطيع أن و تشق خطوطاً ، في صفوف المشاة ، ولكنها لم تكن لتستطيع في سهولة أن تحطمها وتبددها ، إن هي كانت قوية العزم جيدة التدريب.

وكانت الحرب في مثل ثلث الظروف موكولة تماماً إلى جنود مدربين محترفين ، وكانت مسألة أعطياتهم أمراً يعادل في أهميته لدى قواد ذلك الزمان أهمية مسألة الميرة والذخيرة . وبينها الكفاح الطويل يجر قدميه جراً من طور إلى طور ، وتتفاقم معه محنة البلاد المالية ؛ كان قواد كل من الجانبين مضطرين أن يرجعوا بالانهاب على المدن والقرى ، رغبة في أحد المؤن والتعويض عن متأخرات أعطيات جنودهم ، ومن ثم أخذ جندهم يتحولون رويدا رويدا إلى مجرد مناسر تعبش على حساب البلاد نهبا واستلابا ، وأوجدت حرب الثلاثين سنة تقاليد من الانهاب والسلب بوصفهما عملية

قانونية في الحرب ومن انتهاك الحرمات بوصفه امتيازاً للجندى ، وهي تقاليد لوثت سمعة ألمانيا الطبية حتى الحرب العظمي (١٩١٤) .

إن القصول الأولى من كتاب ومذكرات فارس Memoirs of a Cavalier الليف و دانيال ديفو » ، بما حوت من وصف رائع لمذبحة ماجدبورج وحريقها ، لتعير القارئ فكرة عن طريقة الحروب في ذلك الزمان ، أحسن جداً من أى كتاب رسمى في علم التاريخ . إذ بلغت البلاد من الحراب حداً عمل الفلاحين على الكف عن الزراعة ، وكان ما يستطاع حصده من المحصولات السريعة غير المنتظمة يخفي فور جمعه ، وأصبحت جماهير غفيرة من النساء الطاويات والأطفسال الجائعين ممن يتتبعون معسكرات الجيوش ، حاشية من اللصوص إلى جانب الناهبين الأشد عشونة وشراسة . فما أن انهي الكفاح حتى كانت كل ألمانيا قد أمست خراباً ببابا ، ولم تتخلص أوربا الوسطى تخلصا تاما من هذه السرقات والمفاسد المدمرة إلا بعد قرن من الزمان .

ولن يسمعنا ها هنا إلا أن نذكر اسمى تللى (Tille) ووالنشتين (Wallenstein)، قائدى النهب الكبيرين في جانب أسرة هابسيرج، وچوستاف أخولف ملك السويد أسد الشهال ونصير الهروتستانت الذي كان يحلم بأن يجعل من بحر البلطيق « بحيرة سويدية » . ولكن چوستاف أدولف قتل ساعة نصره الحاسم على والنشتين في لوتز (١٦٣٢) ، وقتل والنشتين في (١٦٣٤) .

وفى (١٦٤٨) اجتمع الأمراء والسياسيون بين ظهرانى ذلك الدمار الذى حاكته أيدهم ، اجتمعوا لترقيع شنون أوربا الوسطى فى صلح وستفاليا . وبهذا الصلح استحالت قوة الإمراطور إلى شبح أو خيال ، وترتب على استلحاق فرنسا للألزاس أن وصلت إلى نهر الراين . وأصبح فى حوزة أمير ألمانى هو منتخب براندنبرج سليل آل هوهنزلرن قدر عظيم من الأراضى جعل بين يديه أعظم قوة ألمانية تلى قوة الإمبراطور ، وهى قوة سرعان ما أصبحت (١٧٠١) ، مملكة بروسيا .

واعترفت معاهدة وستفاليا أيضاً بحقيقتين مقررتين من زمان مديد ، وهما الانفصال عن الإمبراطورية والاستقلال التام لكل من هولندة وسويسرة .

ه _ أمهة الملكية العظمي في أوربا

المتتحنا هذا الفصل بقصى قطرين ، ها الأراضى المنخفضة وبريطانيا ، اللتن نجمت فهما مقاومة المواطن الحاص لحذا الطراز الجديد من الملكية ، وهى الملكية المكياڤلية ، التى أخذت تنشأ عن انهيار المسيحية الحلق . ونكن الملكية الفردية فى فرنسا والروسيا وفى كثير من أنحاء ألمانيا وإيطاليا – فى سكسونا وتوسكانى مثلا لم تنصد وتقهر على مثل تلك الدرجة . بل الواقع أنها وطدت نفسها بوصفها النظام الأوربى السائد أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر . بل لقد كانت الملكية فى هولندة وبريطانيا آخذة بأسباب استرجاع قوتها أثناء القرن الثامن عشر . (فأما يولندة فلها ظروف خاصة ، وإنا لمعالجوها فى فصل تال) .

ولم يكن ثمة العهد أعظم المراجناكارتا الى فرنسا ، ولا كان للحكم السرلماني بها مثل تلك التقاليد انجد دة الفعالة . أجل كان هناك نفس تعارض المصالح بين التاج من ناحية وبين أصحاب الأراضي والتجار من ناحية أخرى ، ولكن هولاء لم يكن لهم متجمع (أي مكان احباع) معترف به ، ولا كان لهم أسلوب للوحدة كريم . لقد شكلوا المعارضة للتاج ألواناً ، وأنشأوا عنصباً للمقاومة ، - كذلك شأن «الفروند(۱) المعارضة للتاج ألواناً ، وأنشأوا عنصباً للمقاومة ، - كذلك شأن «الفروند(۱) الله ، الذين كانوا يكافحون الملك الشاب لويس الرابع عشر ووزيره العظيم مازارين ، على حين كان شارل الأول يقاتل لاستنقاذ حياته في إنجلترة - ولكن الأمر انهي في إنجلترة بعد حرب أهلية . وعلى ولكن الأمر انهي في إنجلترة بعد عرب أهلية . وعلى حين حدث في إنجلترة بعد تاسيس بيت هانوڤر أن مجلس الوردة وتابعه مجلس حين حدث في إنجلترة بعد تاسيس بيت هانوڤر أن مجلس اللوردة وتابعه مجلس

 ⁽١) وحدوب الفروند: هي الحروب الأهلية الفرنسية (١٦٤٨ - ٥٣) وتقع في مرحلتين:
 عارلة برلمان باريس في (١٦٤٨ - ٤٩) تحديد سلطات الملكية وثورة كبار النبلاء برئاسة كونديه
 على جحكم ما زارين في (١٦٥٠ - ٥٣).



(شكل ۱۷۱) سورة لوبس الراس عشر

العموم صارا يحكمان البلاد ، فإن البلاط فى فرنسا على العكس من ذلك كان .

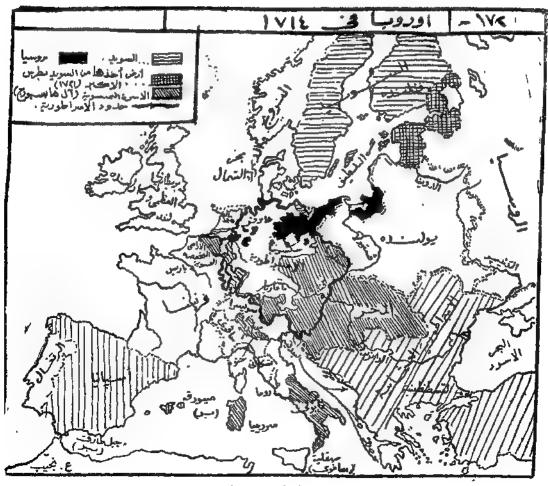
بعد (١٦٥٢) هو صاحب السيطرة التامة على الأرستقراطية . وكان الكردينال
مازارين نفسه يبنى على آسس مهدها له الكردينال ريشيليو معاصر چيمس الأول
ملك إنجلترة .

ولسنا نسمع بعد زمان مازارين بأى نبيل فرنسى عظيم إلا أن بكونوا فى البلاط حشماً للملك وموظفين . ذلك أنهم شروا وروضوا – ولكن بثمن ، والثمن هو إلقاء عبء الضرائب على جماهير العامة التي لا صوت لها . فكان كل من رجال الدين والنبلاء ، بل وفى الواقع كل إنسان يحمل لقباً – معفين من كثير من الضرائب ، وأصبح هذا الظلم فى النهاية أمراً لا يطاق ، ولكن الملكية الفرنسية از دهرت ردحاً من الزمان از دهار شجرة الغار الحضراء فى المزامير . وإنك لترى الكتاب الإنجليز عند مفتتح القرن الثامن عشر ، وقد أخذوا يستلفتون الأنظار إلى بؤس الطبقات الدنيا الفرنسية وإلى ما يستمتع به الفقراء الإنجليز ، فى نفس ذلك الزمان ، من رخاء نسى .

على مثل هذه الأوضاع الآئمة أقامت ما عسانا أن نسمها و الملكية العظمى الفرنسية أنسها . فحكم لويس الرابع عشر الملقب بالعاهل الأعظم زماناً لا نظير له في الطول هو اثنتان وسبعون ستة (١٩٤٣ – ١٧١٥) ، وأقام من نفسه نموذجاً يحتذيه كل ملوك أوربا . وكان يقوده بادئ الرأى وزيره المكيافللي الكردينال مازارين . وبعد وفاة الكردينال أصبح هو نفسه بشخصه ونصه وفصه و الأمير المائللي . وكان . في داخل حلود عطنه الفيق - ملكاً ذا كفاية استثنائية ؛ وكان طاحه أقوى من شهواته الدنيا ، فجر على بلاده الإفلاس بما انتهج من معقدات سياسية خارجية شديدة النشاط أظهر فيها وقاراً عكماً ما يزال يستدعي إعجابنا . وكان أول ما يخالحه من رغبة أن يربط أجزاء فرنسا بعضها ببعض وأن يمد حلودها إلى تهر الراين وجبال البرانس ، وأن يتمثل الأراضي المنخفضة الأسبانية ؛ وكانت أحلامه المبعدة ترى في ملوك فرنسا خلفاء محتملين لشرالمان في دولة رومانية مقدسة المبعدة ترى في ملوك فرنسا خلفاء محتملين لشرالمان في دولة رومانية مقدسة معاد سكها .

واتخذ من الرشوة وسيلة للدولة تكاد تكون أعظم أهمية من الحرب . وكان شارل الثانى ملك إنجائرة يتناول منه الأعطيات المالية ، وكذلك كان شأن معظم النبلاء الهولنديين ، الذين سنصفهم من فورنا . وكانت نفوده أو بالحرى نقود الطبقات الدافعة للضرائب في فرنسا تذهب كل مذهب . ولكن البذُخ كان شغله الشاغل . فكان قصره العظيم في قرساى بقاعاته (صالوناته) ودهاليزه ومراياه وشرفاته ونافوراته وجناته ومظراته ، موضع غبطة العالم أجمع وإعجابه .

لقد حفز الجميع إلى محاكاته . فإن كل ملك أو أمير صغير في أوربا كان يبني



(سکل ۱۷۲)

لنفسه قصر قرسايه الخاص متجاوزاً موارده المالية بالقدر الدى يسمح به رعاياه ودائنوه . وكان النبلاء في كل مكان يعيدون بناء قصورهم أو يوسعونها وفق النموذج الجديد . وتطورت صناعة الأقشة والأنائات الجميلة المحكمة الصنع وعظم شأنها . وازدهرت فنون الترف في كل مكان ، فئمة تماثيل من الرخام المجزع ، والقاشاني(۱) وازدهرت فنون الترف في كل مكان ، فئمة تماثيل من الرخام المجزع ، والقاشاني(۱) وموسيقي كثيرة وتصوير فاخر ، وطباعة جيلة وتجليد مونق وطباخة ممتازة وخمور بديعة . وكان يسبر بين المرايا والأثاث البديع جنس عجيب من السادة في شعور مستعارة ضخمة مدرورة بالمساحيق ، وحرائر ومخرمات وهم يتمايلون على أعقاب عالية خمراء ، ويتوكأون على عصى باهرة !! هذا إلى سيدات أكثر إدهاشاً وإعجاباً ، همت أبراج من الشعور المغطاة بالمساحيق وفي ثياب لها متسعات عظيمة من الحرير والسائان تحملها الأسلاك ، وكان يتجلى وسط ذلك كله لويس العظم ، شمس عالمه ، غير شاعر بالوجيه الهزبلة المتجهمة المريرة التي كانت ترقبه من تلك الظلمات الدنيا التي غير شاعر بالوجيه الهزبلة المتجهمة المريرة التي كانت ترقبه من تلك الظلمات الدنيا التي غير قرح ججبتها شمس شميائه .

وليس هذا مجال التفصيل فى قصة حروب ذلك الملك وأعماله . وما يزال كتاب قولتير المسمى « عصر لويس الرابع عشر » أحسن ما كتب عنه وأصحه من وجوه كثيرة . أنشأ الملك بحرية فرنسية كفءاً لمقاتلة الإنجليز والمولنديين . وهو عمل يعد مأثرة عظيمة القدر . ولكن نظراً لأن ذكاءه لم يسم فط عن سحر مغريات ذلك السراب الخادع ، أو تلك اللوثة التي أصابت العقلية السياسية فى أوربا ، وأعنى به الحلم بقيام « إمبراطورية رومانية مقدسة » تشمل العالم طرا ، فإنه تحول فى سنواته الأخيرة إلى استرضاء البابوية ، التي كانت حتى ذلك الحين معادية له . ونصب نفسه حربا على روح الاستقلال والانقصال ، الممثلة فى الأمراء البروتستانت ، وأشعل نار الحرب على البروتستانية فى فرنسا . فأبيقت إلى خارج البلاد فرارا من اضطهاداته الدينية على البروتستانية فى فرنسا . فأبيقت إلى خارج البلاد فرارا من اضطهاداته الدينية بما وفيرة العدد من خيرة رعاياه اعتدالا وأعظمهم قيمة ، حاملين معهم فنوناً

⁽١) القاشاني : هو ضرب من الخزف الممثاز مطلي بطبقه صفيلة من الطلاء الملون . (المُرجم)

وصناعات. فإن صناعة الحرير الإنجليزية مثلا ، قام بتأسيسها البروتستانت الفرنسيون . ونفذت إبان حكمه عملية و الدراجوناد Dragonnades وهي طريقة للاضطهاد شريرة فعالة بوجه خاص . فكان بعض الجنود الأجلاف يُنزَ لون في منازل البروتستانت ، ويباح لهم أن يفسدوا نظام حياة مضيفهم وأن يهينوا نساءهم على الشاكلة التي ترضهم . وخضع لهذا النوع من الضغط ، كثير من الرجال لم ممن يكونوا ليخضعوا للنا، والعدراء ، خالعة العظام .

وانقطع تعليم الجيل التالى من البروتستانت ، وكان الآباء بين أن يعلموا أولادهم تعليا كاثوليكياً أو لا يعلمونهم البئة . ولا يداخلنك شك أنهم كانوا يعطونهم ذلك التعليم ، ولكن في سخر ونغمة صوت تذهب بكل ثقة فيه . وبينا الاقطار الاكثر تساعاً أصبحت في معظم أمر هامخلصة في عقيدتها الكاثوليكية أو البروتستانتية فإن الاقطار التي أنزلت الاضطهاد برعاياها أمثال فرنسا وأسپانيا وإيطاليا ، بلغ من فتلها المتعليم البروتستانتي الشريف ، أن أصبح هؤلاء الناس في جل شأنهم مجرد كاثوليك معتنقين للكثلكة أو كاثوليك ملحدين ، مستعدين للانتقال إلى الإلحاد الغفل المطلق ما سنحت لم الفرصة لذلك . وكان العهد التالى أي عهد لويس الخامس عشر المطلق ما سنحت لم الفرصة لذلك . وكان العهد التالى أي عهد لويس الخامس عشر السان في الجهاعة الفرنسية مطابقاً للكنيسة الكاثوليكية ومتمشيا معها ، على حين لا يكاد يكون فهم واحد يؤمن بها .

وكان من مقومات الملكية العظمى – بل من مقوماتها العائقة الممتارة – أن تنصر الآداب والعلوم . فأقام لويس الرابع عشر أكاديمية للعلوم مناصاً بها الجمعية الملكية الإنجليزية الني أنشأها شارل الثاني ومثيلتها جمعية فلورنسا . وقد زين بلاطه بالشعراء وكتاب المسرحيات والفلاسفة ورجال العلم . ولئن خرجت الطريقة من هذه الرعاية بالشيء القليل من الإلهام ، فإنها حصلت على كل حال على موارد مالية تعينها على النجريب والنشر مع قدر خاص من الهيبة في أعن السوقة .

وكانت الجهود الأدبية في كل من فرنسا وإنجلىرة ، منوالا تقيس على مثاله معظم الجهود الأدبية الأوربية أتناء تلك الفترة ، فترة الملوك الأعظمين ما بين صغير وكبير ،

وفترة البيوتات الريفية الكبيرة والمنشئات النجارية النامية . وكانت ظروف الأحوال بفرنسا أكثر اعبَّاداً على اللَّكية منها بانجلترة ، وأشد تمركزاً واتساقاً . وكان الكتاب الفرنسيون تعوزهم التقاليد العظيمة التي حيأت لمثل تلك الروح الحرة غير المنظمة ـــ روح شكسبر ــ إذ كانت الحياة الدهنية للفرنسية تتركز حول البلاط ، وكانت أشد من الإنجليزية إحساساً بالضبط وكبح الجاح. وهي لم تنتج أبداً أدباء من « العامة » أبناء الشعب أمثال 1 بنيان Buoyan الإنجليزى ، ولم يكن في متناول أبديها في القرن السابع عشر مثل ذلك السراح للطلق لروح النمود والانشقاق الذى قامت عليه الجمهورية والذي يطلق عقال رجل مثل ملتون . وكانت نزعتها أميل إلى مراعاة الصحة والقيود ، وكانت أتم خضوعاً لنفوذ معلمي المدارس والنقاد المتمسكين بالقواعد . وكانت تخضيع المادة للأسلوب . فكأن تنظيم الأكاديمية لم يزد قيودها المفرطة إلا تشديدا . وترتب على تلك الفروق ، أن تشبع الأدب الفرنسي السابق على القرن التاسع عشر بالوعي الذاتي الأدبي ، وكأني به قد كتب بروح طالب ماهر يخشي الدرجات الرديثة ، أكثر منه بروح رجل ينشد التعبير الصريح . فإنه أدبقوامه الدرر اليتيمة والماأسي والمهازل (التر اچيديات والكوميديات) وقصص الروماتس(١) والمباحث النقدية وكلها باردة صيحة مطابقة للأصول ، جوفاء خالية من الحيوية بشكل خارق للعادة . وممَّن برزوا بن ممارسي و الصبحة ، في الدراما ، كورثنيّ (Corneille) (١٦٨١ – ١٦٨١) وراسين (۱۹۳۹ ـ ۱۹۹۹) . وانتصر موليد (۱۹۲۲ ـ ۷۳) كذلك على عصره بكوميديات يرها بعض الثقات خير ما ظهر في العالم . ويكاد للمرق الوحيد من القراءة السهلة الناصعة اللذيذة الذي يبعو وسط الرياش العقلي الدمث الفاخر للملكية الفرنسية العظمى ، أن يوجد فى مذكرات ذلك الزمان المليئة بالقيل والقال والفضائح . فهناك هذه ، وهناك تلوين بعض للساجلات القوية الاجتماعية والسياسية .

ومن أروع وأحسن ما سطر بالقرنسية آثناء ذلك الزمان ما قام به في خارج فرنسنا فرنسيون منفيون ومتمردون . فإن ديكارت (١٥٩٦ – ١٦٥) أعظم الفلاسفة

⁽١) الرومانس : تصمن الغزل والغروسية . [المترحم]

الفرنسين عاش معظم حياته في ظلال أمن هولندة النسبي . وهو الشخصية المركزية المتسلطة بين مجموعة متألقة من العقول المتأملة وأهل النظر ، نشطت في إعمال معول التقويض والتعديل والتحقير بمسيحية عصرهم المهذبة . وكان يعلو محلقاً فوق كل هولاء المبعدين ، وفوق كل الكتاب المعاصرين الأوربيين شخص أولتير العظيم ، الذي سنتكلم عن اتجاهاته الذهنية في فصل تال . وإن چان چاك روسو (١٧١٢ – ١٧٧٨) سوهو روح أخرى منبوذة – بما قام به من هجوم عاطني على الأخلاق الشكلية وانخاذه العاطني للطبيعة والحرية مثلا أعلى ، ليقف مبرزاً بوصفه الروائي الأعظم في عصره ووطنه . وسنزيد القراء عنه بياتا

وكان الأدب الإنجليزى في القرن السابع عشر مرآة تعكس سمة الشئون الإنجليزية الأقل قراراً وتمركزاً ، وكان به من العنفوان قدر أكبر ومن الصقل قدر أصغر مما للفرنسي . ولم يكن البلاط والعاصمة الإنجليزيان ابتلعا حياة البلاد القومية كما فعلت العاصمة والبلاط الفرنسيان . وربما أمكننا أن نضع مقابل ديكارت ومدرسته ، باكون الذي سبق أن نبَّأناك عنه في بياتنا عن النهضة العلمية ، ثم هوبز ولوك . وكان ملتون (١٦٠٨ – ١٦٧٤) ، يرتدى ثوباً مخلطاً من الدراسات الإغريقية واللاتينية ، والثقافة الإيطالية واللاهوت البيوريتاني مع أبراد من المجد من نسج يديه . وكان هناك قدر جسيم من الأدب الحر خارج مجال النفوذ الكلاسيكي ، ولعله وجد أشد خصائص تعبيره في كتاب "بنيان ۽ مسير الحاح Pligrim's Progress _ (١٩٧٨) . وواضح أيضاً أن تواليف ديفو Defoe المبتكرة (1309 ــ ١٧٣١) الذي لم ينل بعد قدره الحق من التقدير ، موجهة إلى جمهور برىء من تهذيبات العالم الأكاديمي وادعاءاته به وإنما جاء مؤلَّفه روبنسون كروزو واحداً من أعظم مبتكرات الأدب . وكتابه و مول فلاندرز Moll Flanders ؛ إنما هو دراسة للأخلاق تستدعى الإعجاب ، وديفو هذا الكناب وفيما كتبه في التطورات الحيالية للتاريخ ، إنما يسبق كثيراً من الناحية الفنية كل معاصريه . ويكاد يكون على نفس مستواه ، فيلدنج الحاكم اللندني وموالف ﴿ تُوم چُونُز ﴾ . وكان صويل ريتشاردسون يائع الأقشة الذي كتب ﴿ باميلا وكلاريسًا ، ، شخصية عظيمة ثالثة بين حقائق الأدب الإنجليزي الحية في القرن النامن عشر ؛ وهو الأدب الذي لم يعن بأن يكون أدبياً ، وإلى هؤلاء الثلاثة جرت عادة النقاد أن يربطوا اسم و سموليت Smoliett » ، وهو أدنى كثيراً . و-بذه الأسماء وباسم چان چاك روسو معها ، تعود إلى الأهمية و الرواية » وهي البيان شبه الحقيقي عن طرائق العيش ، وعن الضرب في أرجاء العالم ، وعن الالتقاء بالمسائل الحلقية ، وذلك بعد أن اختفت بتدهور الإمبر اطورية الرومانيه . وتؤذن عودتها بانطلاق سراح أنواع جديدة غير محدودة من الناس ميالة إلى الاستطلاع في شئون الحياة والحكلي ، وهم أناس أوتوا شيئاً من وقت الفراغ ، وأناس تواقون إلى تكيل تجربتهم الحاصة بقصص مغامرات من هم على شاكاتهم . ذلك بأن الحياة أصبحت أقل وطأة وأكثر للة .

وربما جاز لنا هنا قبل أن نحتم هذه الحاشية الأدبية ، أن نلحظ أيضاً ما عليه أديسون (١٩٧٧ – ١٧١٩) ، من خواء رشيق بوصفه شخصية لها أثرها في الأدب الإنجليزي ، وما للدكتور صويل چونسون (١٧٠٩ – ١٧٠٨) ، من رغبة في المتعيد يحبها الناس ، وهو مصنف أول قاموس إنجليزي . ولا يكاد يصلح للقراءة الآن من كتاباته الفعلية شيء اللهم إلا تراجم قليلة قصيرة للشعراء ، بيد أن أمثاله وغرابة أطواره قد يقيت لنا في الكتاب الذي ألفه بوزويل عن تاريخ حياته چونسون ، فأما اسكندر پوپ (١٩٨٨ – ١٧٤٤) ، وكان كلاسيكي الانجاء فرنسي الروح ، فإنه ترجم هوميروس ثم تناول بعض المذاهب الدابستية (١) فحولها إلى شعر صقيل متقن . وصدرت أقوى كتابات هذا العصر ، عصر الرجال المؤدبين غير المتازين في المجليرة شأنه في فرنسا ، عن روح انفست في نزاع عنيف مع النظام السائلا ، بل مع بحليقر . وهناك ه لورانس سرن ١٦٦٧ – ١٧١٥) ، مولف رحلات بحليقر . وهناك ه لورانس سرن Lagra السوء والذي كتب ه تريسترام شاندي ، وهو وعلم من تلاه من كتاب القصص مئة حيلة مبتكرة في فن الرواية . وقد استي حيويته من عظمة الفرنسي رابليه السابق على العها الكلاسيكي . ولسوف نقتبس من حيويته من عظمة الفرنسي رابليه السابق على العها الكلاسيكي . ولسوف نقتبس من

⁽١) الفلسفة الدايستية أو الربوبية Deistic فلسفة تخالفة السيحية تؤمن بوجود الإله وتنكر الوسى . (المترجم)

جيبون المؤرخ فى قسم تال ، وعند ذاك تحدثك ثانية عن التحديدات العقلية العجيبة التى تغلى ذلك العصر عصر الحنتلمانية .

ومات الملك الأعظم في ١٧١٥. وخلفه لويس الحامس عشروهو ابن حفيده والمقلد غير الكفء لفخامة سلفه العظيم. اتخذوضعة ملك وجلاله ، ولكن الشهوة المتسلطة عليه كانت هي الشيء العادى الملازم لجنسنا البشرى ، وهي طراد النساء الذي يخفف منه خوف من جهنم يمت إلى الحرافات بسبب . فأما كيف أن نساء من أمثال الدوقة شاتوروه ومدام پومپادور ومدام دى بارى تسلطن على ملذات الملك ، وكيف أن الحروب كانت تشب والمحالفات تعقد وأن المقاطعات كان يعاث فيها فساداً ، وآلافاً من الناس يقتلون بسبب غرور هاته المخلوقات وأحقادها ، وكيف حدث أن كل الحياة العامة لفرنسا وأوربا تلوثت بالدسائس والبغاء والاحتيال بسببهن ، سه فأمور يتبغي أن يعلمها القارئ من مذكرات ذلك الزمان . وصارت السياسة الحارجية العلموح في حكم لويس الحامس عشر بقدم ثابتة صوب تحطيمها النهائي .

وفى ١٧٧٤ مات هذا اللويس بمرض الجدرى ، لويس المحبوب جداً كما كان علمته و محلفه على العرش حفيده لويس السادس عشر (١٧٧٤ — ١٧٩٣) ، وهو رجل غبى حسن النية ، وصاحب طلقة نارية يديعة التسديد ، وصانع أقفال هاو على شيء من المهارة . فأما كيف أنه تبع شارل الأول إلى المقصلة فأمر سندلى به في قسم تأل . إذ ينحصر كل اهيامنا في الوقت الحاضر ، في الملكية العظمى إبان عجدها .

وقد نسطيع أن نذكر من بين ممارسي الملكية العظمي خارج فرنسا الملوك البروسين أولا وهم فردريك وليم الأول (١٧١٣ - ١٧٤٠) ، وابنه وخلفه فردريك الثاني وهو فردريك الأكبر (١٧٤٠ - ١٧٨٦) . وقصة النهوض البطيء لأسرة هوهنزلرن ، التي حكمت مملكة بروسيا ، مبتدئة من بدايات مغمورة غير منرزة ، قصة منملة ليس بهمنا أن نتبعها هنا . وهي قصة تجمع بين الحظ والعنف ، واللاعاوى الجريئة والحيانات المباغتة . ويسردها مع التقدير العظيم كتاب كارليل المسمى ه فردريك الأكبر ع . حتى إذا وافي القرن الثامن عشر كانت المملكة البروسية المسمى ه فردريك الأكبر ع . حتى إذا وافي القرن الثامن عشر كانت المملكة البروسية

قد بلغت من الأهمية حداً هددت معه الإمبراطورية ؛ وكان لها جيش قوى حسن التدريب ، وكان ملكها ممن أعطوا مكيافللي حظاً كبيراً من التفاتهم وعنايتهم . وجعل فردريك من قصر بوتسدام فرسايا آخر بلغ به حد الكمال . إذ هناك بلغت جنات سان سوسي ، بنافوراتها وشوارعها المزدانة بالأشجار وتماثيلها حد التقليد « القردى » لفوذجها الفرنسي ؛ وكان هناك كذلك القصر الجديد وهو بناء هائل من الطوب أنفقت في تشييده أموال طائلة ، وكذلك صوبة البرتقال (الأورانجري (١٠) ذات الطراز الإيطالي وفيها مجموعة من الصور ، وقصر من الرخام إلى غير ذلك . وهما فردريك بالثقافة إلى حد التأليف ، كما أنه أخذ يراسل قولتير ويستضيفه حتى انتهى بهما الأمر إلى السامة المتبادلة .

وكانت الإمبر اطورية النمساوية مشغولة على الدوام ما بين مطرقة الفرنسيين وسندان الأتراك حتى أنها لم تستطع أن تطور تموذج الملك الأعظم الحقيق إلى عهد ماريا تريزا (١٧٤٠ ــ ١٧٨٠) (التي لم تحمل لقب الإمبر اطورة لأنها امرأة) . وخلفها على قصورها في ١٧٨٠ چوزيف الثاني الذي تولى الإمبر اطورية منذ (١٧٦٥ ــ ١٧٩٠) .

وبظهور بطرس الأكبر انفصلت الإمراطورية المسكوفية عن تقاليدها التتارية ودخلت إلى حيز الجاذبية الفرنسية . وحلق بطرس لحى نبلائه الشرقية وأدخل الثياب الغربية . ولم تكن هذه إلا الرموز الخارجية المرئية لميوله الغربية . ولكى يحرر نفسه من الشعور الأسيوى وتقاليد موسكو ، التي لها – شأن بكن – مدينة جوّانية مقدسة ، هي « الكرمنين الاستال بي لنفسه عاصمة جديدة هي بتروجراد على مستنقع النيقا . وطبيعي أنه شاد لنفسه قرسايا أخرى هي قصر البيترهوف على قرابة تمانية عشر ميلا من باريس الجديدة هذه ، مستخدماً في ذلك مهندساً معارياً فرنسياً ومنشئاً شرفة (تراسا) ونوافر ومساقط مائية ومواً للصور وجنات وكل المظاهر المعترف مها . وكان من أبرز خلفائه إلىزابث (١٧٤١ – ١٧٦٢) وكاترين العظيمة ، وهي أمرة ألمانية ، عادت بعد الحصول على التاج بطريقة شرقية بحتة هي قتل زوجها ،

⁽١) الأورانجرى أو صوية البرتقال (Orangery) يَـ مَنِى مِنَ الرَّجَاجِ يَسَاعِهُ بِدَفْتُهُ شَجِرَالبِرتقالُ عَلَى النَّمُو . (المَدَرَّجُمِ)

القيصر الشرعى ، فانحرفت إلى مثل عليا غربية تقدمية وحكمت البلاد بقوة عظيمة من (١٧٦٢ إلى ١٧٩٦) . فأقامت أكاديمية ، وتراسلت مع ڤولتير . وعاشت حتى شهدت نهاية « الملكية العظمى » فى أوربا وإعدام لويس السادس عشر .

ويضيق المقام عن مجرد تقديم قائمة بأسماء صغار و الملوك الأعظمين و في فلورنسا (توسكاني) وساقوى وساكسونيا والدانماركة والسويد . ولو راجعت كتاب دليل بيديكار (١) لشهدت في كل عاصمة قرسايا جديداً باسم جديد تقلد قرساى باريس ، وإن السائح لتأخذه الدهشة أثناء مروره في تلك القصور لدقة التقليد . وكذلك يضيق المقام عن معالجة حرب الوراثة الأسبانية . فإن أسبانيا وقد أجهدتها فوق طاقها مشروعات التوسع الإمراطورى التي دبرها شارل الحامس وفيليب الثاني ، وأضعفها ما أظهرته نحو البروتستانت والمسلمين واليهود من اضطهاد تعصبي ، أخلت طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر تهبط عما أونيت من أهمية موقوتة في الشئون الأوربية وتعود ثانية إلى مستوى دول الدرجة الثانية .

كان هؤلاء الملوك الأوربيون يحكمون ممالكهم كما يحكم نبلاؤهم مزارعهم ، كانوا يتآمرون بعضهم ببعض ، وكانوا و سياسين و وبعيدى النظر و بطريقة أبعد ما تكون عن الواقع ، وكانوا يخوضون الحروب ويبددون العصارة الحيوية لأوربا في سياسات سخيفة من العدوان والمقاومة . وانتهى الأمر بأن انفجرت عليهم من الأعماق عاصفة هوجاء . وكانت تلك العاصفة هي الثورة الفرنسية الأولى ، فإن خضب الرجل العامى في أوربا أخذ نظامهم بغتة وعلى حين غرة . ولم يكن ذلك إلا الانفجار الافتتاحى لدورة عظيمة من العواصف السياسية والاجماعية ما تزال مستمرة ، ولعلها ستستمر حتى يزول آخر أثر للملكية القومية النزعة ثم ينقشع الغام وتنجلى الساوات تانية على السلام الأعظم الذي سيظلل النزعة ثم ينقشع الغام وتنجلى الساوات تانية على السلام الأعظم الذي سيظلل أتحاد البشرية جمعاء .

⁽١) دليل بيديكار (Baedeker) : كتاب يصدر بلغات أجنبية متعددة عن أهم أقطار العالم مبينا أهم ما بها من المدن والآثار والمعالم . (المترجم)

٦ ــ الموسيقي في القرنين السابع عشر والثامن عشر

كان القرنان السابع عشر والثامن عشر فترة تقدم قوى فى الموسيقى . إذ أن العوامل الفكرية الممهدة لذلك كانت أحكمت ، وتأسس الديوانان (السلمان) الموسيقيان الكبير والصغير بما لها من تعاقب ثابت النغات ، ومن قابلية المنكيف وفق التلحينات و بما يكن فيهما من احبالات اللون الهارمونى . فصار فى الإمكان تحديد القصد الموسيقي (Musical تحديداً و اضحاً ، وأن ينظم التعاون بين آلات متنوعة فى دقة عظيمة . وكانت الأحوال الاجباعية ما بين مدن نامية وبلاطات وبيوتات ريفية تضيف ميادين جديدة من الاحبالات الموسيقية إلى الحجال القديم المنحصر فى جوقة المرتلين الكلسين . وكانت الحفلات التنكرية والمهرجانات قد انتشرت وأصبحت مجبوبة من الشعب فى القرن السادس عشر ، فأتاحت أمام محكم الموسيقي فرصاً جمة ، وأصابت الأربرات والأناشيد الدينية تقدما عظها عند حلول القرن السابع عشر .

وظهرت في إيطاليا الموسيقي الجديدة (Nuove Musiche). يقول السير و . ه . هادو ال إن لولتي (١٦٣٥ – ١٦٨٧) ، هو أعظم شخصية من الوجهة التاريخية ، وما كان ذلك فقط من أجل ما حوثه ألحانه من قوة درامية تمثيلية ، بل لما تجلى في طريقة خطابه الدرامي من ضبط متسق ، ويقف إلى جوازه الإيطالي مونتيفردي . ذلك أن الموسيتي شرعت تعمل علي معيار كبير في تلك المادة .

ا ودونت قد اسات القرن السادس عشر لجوقات المرتلين بالكنيسة ، وكتبت غزليات (مادر يجالات) القرن السادس عشر ليستمتع مها جماعة من الخلان حول مائدة عشائهم ، ولم يحدث إلا عند قريب من نهايته أن عازفي العود والقرجينال يشرعون في أن يتجهوا بأذهانهم إلى فكرة الأستاذية (Virtuoso في الفن التنفذي ... واجتلب التحسين العظيم في بناء الآرغن عُدداً متعاقباً من العازفين العظاء : منهم بئل وفيلبس الإنجليزيان ، وسويلنك الهولندي ، وفرسكو بالدي في روما ، وفروبر جو فيلبس الإنجليزيان ، وسويلنك الهولندي ، وهو الذي سعى إليه باخ ماشياً على قدميه لكي

⁽١) (Virtuoso) : الأستلذ الماهر في الفنون الجميلة رخاصة للرسيقي . (المترجم)

ينعم بساعه . . ويساير هذا كله التطور الذي لحق موسيقي الشرچينال (١) ولا يقل عن ذلك في الأهمية وصول الكمان وعائلها وتذكو التاس في قبولها . فإنها وإن رجعت إلى عهد تيفن بروخر وأسرة أماتي (٢) في النصف الأول من القرن السادس عشر ، إلا أنها قضت زهاء مئة عام تشق طريقها نحو القبول والرضا العام . ناهيك بأن ماس عازف العود كان في عصر يصل في تأخره إلى ١٦٧٦ ما يزال مستطيعاً أن يطعن في ه الكمان الصارخة ۽ - على حد تعبيره ، وأن يأسف على نغم جدتها الفبول Viol الأكثر هدوءاً واستواءاً . بيد أن نطاقها الأرحب ، وخفة حركها العظمي وقوة تعبيرها الأشد وخزاً وتأثيراً فرضت نفسها وأصبحت شيئاً ملموساً على طول المدى . . . وبلغ من شأنها في إيطاليا موطنها الأصلى وإن حملوها في سماجة وعزفوا علها في سماجة – أن اعترف لها الناس بأنها الآلة الوحيدة التي تستطيع أن تضارع الصوت الإنساني وتنافسه (٢) . .

ويقال إن التطور الموسيقي تأخر حيناً من اللمعر بسبب التباهى بالصالت المغنى والإصحاب به فى الأوبرا الإيطالية ، وكان لمغنى القرن السابع عشر ، وبخاصة أصحاب صوت السوبرانو من الذكران ، صيت يقارب فى سوقيته وشناعته ما لمنجوم السيما العصريين ، ومع هذا فإن تلك الفترة أظهرت موسيقى السائلرو اسكرلاتى (١٦٥٩ ـ ١٧٢٥) الجميلة الوفيرة وهو البشير الممهد لموزاد . وحدث فى انجلترة انفجار عظم من النشاط الموسيقى بلغ أوجه فى شخص پورسل (١٦٥٨ ـ ١٦٩٥) بعد فترة هدوء أثناء عصر الجمهورية . وفى ألمانيا أملت البلاطات الصغيرة وجوقات المدن الشعب الألماني بقدر لاحصر له من مراكز الاستثارة الموسيقية ، وولد فى ١٦٨٥ بسكسونيا يوهان سباستيان باخ وهاندل ، ليحملا الموسيقية ، وولد فى همه التفوق والاستعلاء الذى قدر فا أن تحافظ عليه طيلة قرن ونصف من الزمان ه

 ⁽١) الثمرچينال : آلة موسبقية صغيرة يلعب عليها بواسطة الدساتين (لوحة الأصابع) .
 (١) المد بـ)

⁽ المترجم) (٢) أسرة أماتى (Amatis) : اسم عائلة من صناع إيطاليين الكمان وهم مؤسسو مدرسة الكمان الكريمونية ، (المترجم)

⁽ r) انظر كتاب "Music" من تأليف السير و . ه . هادو .

يقول السير و . ه . هادو « إنهما بين جميع الملحنين قبل عصر ڤيينا أشداهم وأوثقاهم ارتباطأ بزماننا هذا وإن صوتيهما ليرنان في آذاننا بالف اللهجات وأدناها إلينا » .

فأما بالسترينا الذي سجل لنفسه آنفاً ذروة في الموسيقي ، فإنه بالمقايسة مخلوق يعيش في عالم آخر . إذ كان تاجأ على مفرق أساتلة موسيق جوقة المرتلين الكنسية قبل عهد الآلات العظم , وجاءت بعقب أسماء باخ وهاندل مجموعة من أسماء أخرى. فإن هايدن (۱۷۳۲ – ۱۸۰۹) ، وموزار (۱۷۵۱ – ۱۷۹۱) وبيتهوڤن (۱۷۷۰ – ١٨٢٧ ﴾ يقفون مبرزين بين أشد الكواكب تألقاً . ذلك أن الفيض العظيم للموسيقي العصرية كان ينثال T نذاك عميقاً جياشاً واسع الجنبات . وما يزال بهمي ويفيض . ولا يتسع المقام هنا إلا لذكر المؤلفين الموسيقيين ثم ندلى إليك بعد ذلك في فقرة موجزة أو ما إلها بتعميات قليلة مركزة حول موسيقي القرن الناسع عشر وموسيقي أيامنا هذه . كانت هذه الموسيقي ، موسيقي القرنين السابع والثامن عشر إبان صنعها امتيازًا خاصاً لعالم صغير مثقف ــ هو من في البلاطات من الناس ، ومن في مدن المقاطعات والدور الريفية من أناس يستطيعون أن ينظموا حفلات عزف ومَن من الناس في مدن تحوى لكبرها دور الأوبرا وحجرات العزف . وكان نصيب الفلاح والعامل من الموسيقي في أوربا الغربية قدراً مطرد التناقص إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر بينها كانت هذه الأشكال الجديدة آخذة في التطور . ذلك أن الغناء الشعبي تدلى واضمحل وبدت عليه مظاهر التعرض للنسيان . وكان كل ما تبقى للكافة من الناس من حياة موسيقية هو بضع أغان شعبية وبضع ترانع . والراجح أن النهضات الدينية في تلك الآيام ، مدينة بشيء من قوتها الدافعة إلى إطلاقها سراح الحافز الغناثي السجين . ولم يحدث إلا في أيامنا هذه مع ظهور تطور ضخم في الطرائق الآلية للإنتاج والنشر الموسيقي ، أن الموسيقي وقد صبغت بالصباغ العصري وخالطها النشوء والارتقاء وارتفعت في علياء التسامي ــ تعود إلى غمار الحياة العادية . فأصبح من ثم باخ وبيُّهوڤن جزءًا من ثقافة الجنس البشري العامة .

٧ ــ التصوير في القرنين السابع عشر والثامن عشر

إن في التصوير والعارة في هذا الزمان شأن موسيقاه ، مرآة تعكس الأحوال الاجتماعية فيه . وهو زمان تحطمت فيه الفكرات وتمزق السلطان ، ولم تعد اعتبارات

المظهر (object) والروعة تسبطر على الفن التصريري . وقد نزلت الموضوعات الدينية ا إلى مرتبة ثانوية ، فحيثًا عالجها الناس عالجوها بوصفها أحداثاً صغيرة في قصة وليس بوصف كونها حقائق عظيمة هاثلة . وتنحط أشكال الكنايات(١) والرمزيات . فإن المصور يصور من أجل الروية لامن أجل الفكرة ولا من أجل الحقيقة . وتحل صورة الحقيقة والواقع محل صورة الأبطال أو صور النبتل الديني على نفس الشاكلة التي تحل بها الرواية محل الملحمة والرومانس العجيبة الحيال . والأستاذان المتفوقان في تصوير القرن السابع عشر هما فيلا سكويز (١٩٩٩ ــ ١٦٦٠) ورامرانت (١٦٠٦ – ١٦٦٩) . إذ يخيل إلينا أن الحياة كانت في نظرهما متكافئة كلها لا تتفاوت إلا بمقدار ما تقدم إلهما من مجال ضاق أو رحب لتحقيق الجمال في الجمو والنور والمادة . وكان ڤيلا سكويز يقوم في البلاط الأسباني المتدهور ، برسم الباباوات والملوك دون تمليق ، ورسم الأقزام والمقمدين دون ما احتقار . ويخلى الرسم الدقيق التحليلي والتسجيلي (Documentary) مكانه في أشغال هذين الرجلين _ وهما أول المصورين العصريين ــ لعملية إفراغ إجمالي للأثر ، ولتركيز على وحدة الانطباعة وذلك على حساب كل الاعتبارات الثانوية . وكانت الصورة إلى ذلك العهد في حياة الماضي الشديدة لتمركز ، إما شاهداً يشهد بشيء أوحنتاناً على شيء أو تمليقاً لشخص أو حلية لمكان ؛ فأما الآن فإنها أصبحت في إعدد عظيم من الحالات ، شيئًا في حد ذاته ، شيئاً يوجد من أجل نفسه . فالصور تُهلِّل بوصفها صوراً وتجمع في معارض للصور . وتطورت المناظر الطبيعية (Landscape) تطوراً قوياً ، كذلك تصوير مناظر الحياة العادية (Genre) (٢٢). وصارت الصور العارية (Nude) تنقش شكل لطيف مثير ؟ وفى فرنسا أبهج كل من واتوه وفراجونار وغيزهما طبقة الخاصة وتملقوهم بلمسة من التقديس الرقيق لحقائق الحياة الريفية . وإن الإنسان ليدرك في هذه الأشياء شواهد

⁽١) الكمايات (Allegory) ضرب من التصوير المجازى أر الرمزى برمى إلى موثف له ظل من الحقيقة ومع دلك مهو موضوع في عالم الحيال . (المترجم)

 ⁽٢) الجنر (Geure) . هو لعظ يطلق في النقش والتصوير على العمور التي تصور الحياة العادية
 من أمثال المباظر المنزلية أو الريفية أو القروية . (المترجم)

تهم عن مجتمع نام مكون من أناس آمنين موفقين ذوى أرواح جداً ممنازة ، يقدرون الحباة وينفصلون شيئاً ما عن مباذخها وآلامها جميعاً .

ولم يُسبد عصر إليز ابيث في إنجلترة أي تحمس في فنون التشكيل يطاول جهوده الأدبية والموسيقية . فهي إنجا كانت تستورد مصورها ومعاريها . بيد أنه حدث في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، أن خلقت الثروة المتجمعة والرخاء المتكاثف اللذان أصابتها تلك الدولة التي كانت حتى حين قطراً على هامش المدنية الغريبة ساحوالا توائم ازدهار الحجهود الغني ، حتى إذا وافي القرن الثامن عشر كان أمثال رينولدز (١٧٢٧ – ١٧٨٣) ورومي من المعبورين الإنجليز يستطيعون أن يطاولوا أي مجهود معاصر .

وكانت هذه الفترة ، فترة الملكيات وطبقة الحاصة ، موائمة أيضاً أعظم المواءمة لتطور طرز معينة من العارة . ذلك أن عمليات ناشطة من قبل فى القرن السادس عشر ، كانت لا تزال تعمل عند ذاك بقوة متزايدة . وكان الملوك فى كل مكان يبنون القصور ويعيلونها بناء "، وكان النبلاء والأعيان بهدمون تلاعهم ويشيدونها منازل أنيقة . فأما منازل المدن فقد شرع فن العارة فى التفكير فها على معيار أكبر . فأما فن العارة الكنسى فإنه ذوى . وأضحى مجهود البلديات الله أهمية نسبيا ، والواقع أن المثرى الكبير الفرد ، إنما هو القابض بيده على مفتاح الابتكار فى ذلك المصر فى هذا الشأن وفى غيره من الشئون . وأتاح احتراق قسم عظيم من لندن فى الحريق الكبر (١٩٦٦) ، لإنجلترة نهزة خاصة أتيحت السير كرستوفررن "، وإن كاتدرائية سانت بول وكنائس لندن ، للسجل أتيحت السير كرستوفررن "، وإن كاتدرائية سانت بول وكنائس لندن ، للسجل المريكا الأوج فى العارة الإنجليزية . وكان له الفضل على أمريكا إذ أرسل أثرها فى فن النصميم الأمريكي الباكر . وكان إينيجو چونز شخصية عظيمة ثانية بن الماريين الإنجليز فى بواكبر القرن السابع عشر ، وهذه قاعة الولائم التي قصد بها أن تكون قسها من قصر في هوايت هول (١٤ لم بناؤه - تبحل عله مألو فا قصد بها أن تكون قسها من قصر في هوايت هول (١٤ لم بناؤه - تبحل عله مألو فا قصد بها أن تكون قسها من قصر في هوايت هول (١٤ لم بناؤه - تبحل عله مألو فا

⁽١) هوايت هول : قصر بناه ولم يتمه هنرى الثامن ودمرته النيران في ١٦٩٨ . (المترجم)

لدى كل زائر لمدينة لندن . وكان كل من هذين الرجلين بل في الواقع كل المماريين والألمان في تلك الفترة ، يشتغلون على أساس النهضة الإيطالية التي كانت ما تزال حية متطورة ، وذلك أن كثيرا من أحسن المبانى في ذلك الزمان كان من عمل إيطاليين . وحدث بالتدريج مع اقتراب القرن الثامن عشر من نهايته ، أن توقف التطور الحر الطبيعي لعارة عصر النهضة ، إذ اعترضته موجة من التحدلق الكلاسيكي . وكان لما نال الدراسات الكلاسيكية بمدارس أوربا الغربية من مجمد تدريجي ، نظير بدا في ظهور نزعة متزايدة إلى تقليد نماذج إغريقية ورومانية فا كان يوماً ما من المنهات أضحي الآن محدراً ذهنياً تقليدياً مخبلا المعقول . وأصبحت البيوت المالية والكنائس والمتاحف تبني على صورة المعبد الأثيني ، وحتى شرفات (تراسات) المنازل نفسها أخضعت لنظام أبهاء الأعمدة الأثيني ، وحتى شرفات (تراسات) المنازل نفسها أخضعت لنظام أبهاء الأعمدة (Coionnades) . ولكن أسوأ غلو تهيأ لهذه الزعات القائلة ، جاء في القرن التاسع عشر خارج حدود عصرنا الراهن هلها .

٨ ــ نمو فكرة الدول العظمى

رأينا كيف ظهرت في الشئون الإنسانية فكرتا الحكم العالمي والمجتبع البشرى ، وقصصنا كيف أن إخفاق الكنيسة المسيحية على اختلاف مذاهها في توطيد وصيانة تينكم الفكرتين ، فكرتي مؤسسها يسوع ، قد أفضى إلى الهيار خلتي في الشئون السياسية وانتقال إلى الأنانية ونقص في الإيمان . ورأينا كيف أن الملكية المكيافلية نصبت نفسها لمناهضة روح الأخوة في المسيحية ، وكيف أن الملكية المكيافلية تطورت في قسم كبر من أوربا فأصبحت الملكيات العظمي والملكيات البرلمانية في القرنين السابع عشر والثامن عشر . بيد أن عقل الإنسان وخياله لاينفكان ناشطين ، لذلك فقد كانت تنتسج انتساج الشبكة تحت سلطان الملوك الأعظمين مجموعة معقدة من الأفكار والتقاليد ، تهدف إلى اصطياد عقول الناس والإمساك بها . تلك المجموعة المعقدة هي فكرة السياسة الدولية لا بوصفها موضوع معاملات بين الأمراء ، بل بوصف كونها موضوع معاملات بين نوع من الكائنات الخالدة ، هي الدول .

ذلك أن الأمراء يجيئون ويذهبون . فإن لويس الرابع عشر قد يخلفه لويس خامس عشر متصيد لربات الدل والجمال ، وقد يخلفه يدوره ذلك صانع الأقفال الهاوى الغبي لويس السادس عشر . وجاء بعد بطرس الأكبر خلف متعاقب من القيصرات . وكان أهم مظهر مستمر لآل هابسبرج بعد شارل الخامس ، في كل من النمسا أو أسپانيا ، تواصلا الشفاه الغليظة والذقون القبيحة والاعتقاد في الحرافات . وإن النذالة المحببة التي بيديها ملك مثل شارل الثاني ، لتتخذ من مدعياته هزوا وسخريا : فأما الشيء الأرسخ قدماً فهو أعباء وظيفة وزير الخارجية ، وفكرات الناس الذين كتبوا عن اختصاصات الدولة . وقد كان الوزراء يحافظون على استمرار السياسة أيام اعتكاف ملوكهم ، وفي الفرات التي يخلو فيها المرش بين ملك وخلفه .

ولذا فإنا نجد أن الأمر أصبح بالتدريج أقل أهمية فى أذهان الناس من والدولة عن التى كان الأمير رأساً لها ؟ ومن ثم يمين الزمان الذى نقرأ فيه القليل فالأقل عن خطط وأطاع هذا الملك أو ذاك ، ونقرأ أكثر عن وخطط فرنسا ه أو وأطاع بروسيا » . فإنا نجد فى عصر كانت فيه العقيدة الدينية فى انحدار ، رجالا يظهرون إيمانا جديداً جازماً بحقيقة هذه الشخصيات المعنوية . وذلك أن تلك الأطياف الضخمة المهمة وأعنى بها والدول » تسللت خفية إلى الفكر انسياسى الأوربى ، حتى تسلطت عليه تسلطاً كاملا عند ختام القرن الثامن عشر وإبان التاسع عشر . وهى الا تبرح متسلطة عليه إلى يومنا هذا . وظلت القارة الأوربية مسيحية اسماً ، ولكن عبادة رب واحد روحاً وحقيقة معناها الانهاء إلى مجتمع واحد يضم كل زملاء الإنسان فى تسليماً تاماً لعبادة . ولكن الواقع العملي أن أوربا لا تفعل ذلك ، بل إنها قد سلمت نفسها تسليماً تاماً لعبادة تلك الرطازة (Mythology) العجيبة المسهاة بالدولة . ومن أجل هذه الآلمة والدول ذات السيادة » ، ومن أجل وحدة وإيطاليا » ، وزعامة و بروسيا » ، ومن أجل مجد عباجيال عديدة من الوحدة والسلام والرخاء وأودت بحياة ملايين من الرجال .

والنظرة إلى القبيلة أو الدولة كنوع من الشخصية إنما هي نزعة قديمة جداً في العقل

الإنساني . والكتاب المقدس حافل بمثل هذه التجسهات أو الشخصبات المعنوية . فإن مملكة بهوذا وأدوم وموآب ومملكة آشور (آشوريا) لتبدو في الكتب المقدسة العبرانية كأنما هي أفراد . بل قد يكون من المستحيل في بعض الأحايين أن يقول المرء هل الكاتب العرى يعالج شخصاً أو أمة ؟ ولاخفاء في أنها نزعة بدائية وطبيعية . ولكنها في حالة أوربا العصرية ، ضرب من النكوص . فإن أوربا في كنف فكرة ، عالم Christendom ، المسيحية تقدمت مر احل كثيرة في سبيل الوحدة . وبينها كانت شخوص قبلية أمنال « إسرائيل » أو «صور» تمثل بالفعل مجتمعاً بعينه من القرابة الدموية ، واتساقاً بعينه في الطراز وتآلفاً في المصلحة ، فإن الدول الأوربية التي نشأت في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، كانت وحدات افتعالية تماماً . فالروسيا مثلا كانت في الحقيقة مجموعة من أشد العناصر تبايناً وعدم تجانس ، ما بين قوزاق وتتار وأوكرانيين ومسكوفيين ثم انضم إليهم ـ بعد زمان بطرس ـ الاستونيون واللتوانيون . وكانت فرنسا في حكم لويس الخامس عشر تضم الألزاس الألمانية ومناطق بورغنديا المتمثلة حديثًا ، وكانت سجنًا للهوجنوت المهيضي الجناح ومستنزفًا لحياة الفلاحين . فأما في و بريطانيا ۽ فإن انجلترة كانت تحمل على كاهلها الممتلكات الهانوڤرية في ألمــانيا كما تحمل اسكتلندة ، وأهل ويلز الأجانب تماماً ، والإرلندين الكاثوليك المعادين . وإن هناك دولا كالسويد وبروسيا ، وأكثر منها في هذا پولندة والنمسا ، وكلها تروح إذا نحن تنبعناها في سلسلة من الخرائط التاريخية ، ــ تتقلص وتتمدد ، وتقذف بزوائدها وذوائهًا خارجًا وتتجول فوق خريطة أورباكما تفعل الأميبا تحت الميكرسكوب.

ولو أنّا تأملنا سبكولوچية العلاقات الدولية كما نراها متجلية فى العالم المحيط بنا ، وكما يظهرها تطور فكرة «الدولة» فى أوربا العصرية ، لأدركنا حقائق بعينها على غاية الأهمية من الوجهة التاريخية عن طبيعة الإنسان . لقد قال أرسطو إن الإنسان إنما هو حيوان سياسى ، ولكنه فى المعنى العصرى الذى لدينا عن كلمة « السياسة » وهى التى تشمل الآن سياسة العالم بأجمعها ، ليس بأى حال شيئاً من هذا القبيل . وما تزال غرائز قبيلة العائلة باقية فيه إلى يومنا هذا ، ولديه بعد هذا نزعة تدفعه إلى ربط نفسه وعائلته إلى شيء أكبر منهما ، أى إلى قبيلة أو مدينة أو أمة أو دولة .

ولكن هذه النزعة لو تركت ونفسها لكانت نزعة مهمة جد غير نقادة . ومهما يكن من شيء ، فإنه ميال إلى ختية وكراهية كل نقد يوجه لذلك الشيء الأكبر الذي يحيط بحياته والذي سلم نفسه إليه ، كما أنه ميال إلى تجنب مثل هذا النقد . ولعل في نفسه خوفاً شبه شعوري من العزلة التي قد تترتب على تحطيم النظام أو هدم ثقة الناس به ذلك أنه الوسط الذي يجد فيه نفسه أمراً مسلماً به . وإنه ليتقبل مدينته أو حكومته مثلما يتقبل الأنف أو الهضم الذي حباه الحظ به . بيد أن ولاءات الرجال ، أغنى الجوانب التي ينحازون إليها في الأمور السياسية ليست فطرية ، وإنما هي نتائج تربية وتعليم . ولكن التعليم الذي يتلقاه أغلب الناس في تلك الأمور إنما هو التعليم الصامت المستمر المصادر عن الأشياء الحيطة بهم . فإن الناس يجدون أنفسهم جزءاً من انجلترة المستمر المصادر عن الأشياء الحيطة بهم . فإن الناس يجدون أنفسهم جزءاً من انجلترة المرحة أو الروسيا المقدسة . وهم إنما يشبون على هذه العقائد ويتقبلونها كجزء من طبيعتهم .

الواقع أن العالم شرع يدرك ولكن بغاية البطء ، إلى أى حد من العمق يمكن التعليم المضمى المفهوم بالاستنتاج والذى تجىء به الظروف العابرة ، أن يُستكمل أو أن معدل أو يصحح بالتعليم الإيجابي والأدب والجدال ، والحبرة المنقودة نقداً صحيحاً . فحياة الفرد المعادى الحقيقية هي حياته اليومية وأعنى بها الدائرة الصغيرة لعواطفه ومحاوفه وجوعاته وشهواته واندفاعاته الخائلة . وهو لا يلزم عقله المتكره أن يوثر في الشئون السياسية إلا عندما يُوجّه نظرُه إليها بوصفها شيئاً له أثره الحيوى في تلك الدائرة الشخصية . ولا تكاد تكون هناك مبالغة في القول بأن الرجل العادى يفكر في الأمور السياسية بأقل قدر مستطاع ، وأنه يكف عن التفكير فيها بأسرع ما يستطبع . فالعقول الشي استطاعت بفضل المثل فالعقول الشديدة التطلع والقدرة الاستئتائية ، أو العقول التي استطاعت بفضل المثل المتذى أو التربية الممتازة بلوغ تلك العادة العلمية ألا وهي الرغبة في معرفة أسباب المتذى أو العقول التي حزت فيها أو صدمها كارثة قومية عامة حتى استئاربها المنوف من الأخطار المقبلة ، هي وحدها التي تأيي قبول حكومات ونظم سخيفة إلى التخوف من الأخطار المقبلة ، هي وحدها التي تأيي قبول حكومات ونظم سخيفة غير معقولة واعتبارها مقبولة لا بأس بها لمحرد أنها لم تود ثلك العقول ولم نسبب لها ما يكدرها شخصياً . وإن الكائن الإنساني العادى لينضوى — حتى بأتى الوقت الذي ما يكدرها شخصياً . وإن الكائن الإنساني العادى لينضوى — حتى بأتى الوقت الذي

يستثار فيه على تلك الشاكلة – تحت ظلال أية مناشط جماعية تجرى فى هذا العالم الذى يجد فيه نفسه ؛ كما أنه يتقبل أى تعبير أو رمز يواجه حاجته المبهمة إلى شىء أعظم وأكبر يمكن أن ترسو لديه وتطمئن إليه شئونه الشخصية وداثرته الفردية .

فإذا نحن وعينا جبداً هذه التحديدات الواضحة التي تغل طبيعتنا ، لم يصبح بعد وسراً خافياً كيف أنه كما حدث أن فكرة اتخاذ المسيحية أخوة عالمية بين الناس قد هوت في دركات المهانة وضياع التقة بسبب اشتباكها القاتل بلسائس القساوسة ومطامع المبابوية من ناحية ، وبسلطان الأمراء من ناحية أخرى ، ومن ثم انتقل عصر الإيمان إلى عصر نا الراهن عصر الشك وعدم الإيمان ، – فقد حول الناس مدار حاتهم عن ملكوت الرب وأخوة الجنس البشرى إلى هذه الحقائق الماثلة بين أيديهم والأكثر فى ظاهرها دواماً وحياة ، وهي فرنسا وانجلترة والروسيا المقدسة وأسبانيا وبروسيا ، التي كانت على الأقل تتجسم في شخص بلاطات ناشطة ، والتي كانت تحافظ على القوانين ونظهر القوة بواسطة الجيوش والأساطيل ، والتي كانت تلوح براياتها في هيئة جد ووقار تعنو لعزتها الجباه كما كانت رافعة رؤوسها اعتزازاً بالنفس سهمة شهم من لا يشبع بصورة متسقة تمام الانساق مع الطبيعة الإنسائية .

ولا مراه أن رجالا من أمثال الكردينال ريشليو والكردينال مازارين كانوا يرون أنفسهم خداماً لغايات أعظم من غاياتهم هم ، ومن غايات ملوكهم ، إذ يخدمون قرنسا شبه المقدمة التي تصورها لهم أخيلتهم . كما لامراء أيضاً أن هذه العادات العقلية انساب مهم إلى مرورسهم وإلى هيئة الشعب العامة . وفي القرنين الرابع عشر والحامس عشر كان عامة السكان في أوربا تستمسك بالدين ولم تكن وطنيتهم إلا شيئاً مهماً ؛ فما أن حل القرن التاسع عشر حتى أصبحوا وطنيين يكليهم ، فلوحدث في عربة مزدهمة من عربات السكك الحديدية الإنجلزية أو الفرنسية أو الألمانية في أخويات القرن التاسع عشر ، أن شخصاً سخر من الله لاستثار من العداوة قدراً أقل كثيراً مما تستثيره السخرية بأحد من هاته المخلوقات العجيبة ؛ إنجلترة أو فرنسا أو ألمانيا . فإلى هذه الأشياء تعلقت أذهان الناس ، تعلقت بها لأنه لم يبد في كل أنحاء العالم أي شيء آخو تقتنع النفوس بأن تتعلق به . ولذا كانت هي آلمة أوربا الحقة الحية

لقد رفعوا الحكومات ووزارات الخارجية إلى مصاف المثل العليا ، وحلموا منها وطازة ، هي رطازة (١٦ « الدول » وعبائها وكراهياتها ونصالاتها . واشتد تشمع خبال أوربا وآسيا الغربية مها إلى حد أن كانت مصدراً تستّى منه ﴿ أَسَكَالَ تَفْكُمُ هَا ﴾ . ويكادكل ما دون من النواريخ ، وكل الأدب السياسي فى القرنين الأخبرين في أوربا ، أن تكون مكتوبة بنفس تلك اللغة والروح . على أنه لا بد أن يأتى ذلك الزمان الذي سوف يقرأ فيه جيل أوضح نظرة وأصنى بصيرة ويرى فى شيء من الارتباك والحبرة ، كيف حدث في الحجتم الأوربي الغربي ، المكون في كل مكان (مع تنوعات طفيفة جداً ﴾ من جليط عنصرى مشترك من الشعوب النوردية والأبيرية وعناصر نازحة سامية ومغولية وهي تتكلم في كل مكان تقريباً لهجات محورة عن نفس اللسان الآرى ، ولها ماض مشترك متمثل في الإمبراطورية الرومانية ، وأشكال دينية مشتركة ، وعادات اجتماعية مشتركة وفن وعلم مشتركان ، وهي تتزاوج فها بينها بحرية لا يستطيع إنسان معها أن يتكلم في أي تحقق عن جنسية (أي قومية) أيُّ من أولاد أحقاده ، _ كيف حدث أن كان في الإمكان أن تهيج في الرجل أقصى أنواع الانفعال حول مسألة عظمة فرنسا ، ونهضة وتوحيد ألمانيا ، ومدعيات الروسيا واليونان المتنافستين على امتلاك القسطنطينية . ولسوف تبدو هذه المنازعات عند ذلك غريبة لا سبب لها ، جنونية لا عقل فها ، شأن ما اندثر قبلها من منازعات لايفهمها الناس الآن أمثال التي اشتجرت بن « الخضر والزرق^(٢) » الذين كانوا يماؤون شوارع بنزنطة بالضجيج وسفك الدماء

وهذه الأطياف أعنى الدول عظيما ما عظم تسلطها اليوم على عقولنا وحيواتنا إنما هي ـــكما يبين لك هذا الكتاب أوضح بيان ــ أمور لا ترجع إلى أقدم من القرون

⁽١) الرطازة (Mythology): هي أسطورة أو حكاية تقليدية كتيراً ما تعبر عن معمقدات وأحلام بدائية لشمب بعيثه وعن طريقة تفسيره الظواهر الطبيعية والتاريخية . (المترجم)

 ⁽ ۲) الخضر والزرق ؛ فرقتان زياضيتان قديمتان بالقسطنطينية كانتا تعدان حرسا للمدينة . وكان النزاع بينهما دائماً لا ينقطع (انظر المترجم كتاب الحضارة البيزنطية في مجموعة الألف كتاب) .
 (المترجم)

معالم تارمخ الإنسانية بصا ــ

الأخبرة القليلة بل هي مجرد ساعة واحلمة أو دور عرضي في التاريح المقصود المتعمد لنوعنا البشرى. وهي تسجل دوراً من أدوار الانتكاس أو ضرباً من الانسلاخ من ركب التقدم ، مثلما يسجل بهوض الملكية المكياقلية حالة تخلُّف وقتى عن مسايرة الركب. هي جزء من نفس دوامة العقيلة المضطربة المترددة تعترض سبيل اتجاهها العام وهو اتجاه أشد منها قوة وأبعد ما بكون عنها جملة وتفصيلا : ألا وهو الاتجاه نحو الاتحاد الحلتي والذهني للبشرية . لقد ارتد الناس حيناً من الدهر إلى أربابهم هؤلاء من قومية وإمىر اطورية ولكن هذا لن يدوم إلا إلى حنن . فإن فكرة « الدولة العالمية » ومملكة الصلاح العامة التي يصبح فنها كل كائن حي مواطنا ، كانت موجودة في العالم قبل ذلك بألفين من السنين ، ولن تغادر العائم بعد ذلك قط . وإن الناس ليعلمون أنها بين أيديهم وإن أبوا أن يعتر فوا بها . وإنك لتحس في كتابات وأحاديث الناس عن الشئون الدولية اليوم وفي المناقشات الجارية الدائرة الآن بن ظهراني المؤرخين والصحفيين السياسيين ، ـ كأنما بن يديك رجال ثماون قد شرعوا يستفيقون ، ويداخلهم ذعر شديد من استفاقتهم هذه . فهم لا يفتأون يتكلمون بصوت مرتفع عن « حبهم » لفرنسا و «كراهيتهم » ألمانيا وعن « سيادة برّيطانيا التقليدية في البحار » ، وهكذا وهكذا . . . شأن أولئك الذين يغنون مترنمين بكؤوسهم بالرغم من تواصل دبيب الاستفاقة إليهم وخوفهم من زوال الحار (١) عنهم . وما ثلك الى يخدمون إلا أرباب ميتة . فإن الناس لا يريدون في البحر أو البر دولا تتسم بالرفعة ، وإنما يبتغون القانون والحدمة . وإن ذلك التحدى الصامت الذي لامندوحة منه ولا مفر ، لموجود في أذهاننا وجود الفجر وهو يبزغ في تمهل وأناة ، وينفذ ضيارًه خلال مصاريع حجرة مشوّشة النظام .

٩ – جمهورية پولندة المتوجة ومصيرها

كان الفرن السابع عشر فى أوربا قون لويس الرابع عشر الذى كان هو وعظمة فرنسا وفرساى قطب الرحى فى القصة . وكان القون الثامن عشر بالمثل «قرن نهضة

⁽١) الخاد : كما ورد في المعجم الوسيط : ما خالط الإنسان من سكر المهر . [المترجم]

بروسبا كدولة عظمى » ، والشخصية الرئيسية فى قصته هى فردريك التانى ، أى فردريك الأكر . وتجىء قصة پولندة مشتبكة وتاريخه .

كانت الشئون في يولىدة ذات سمة خاصة . وبولنده بخلاف جبرانها التلاثة الروسيا وبروسيا وملكبة آل هابسترج في النمسا والحجر ، لم تطور لنفسها ملكية عظمي . وخير وصف يوصف به نطام حكومتها أن يقال إنه كان نظاماً جمهورياً له ملك ، أى رئيس ينتخب مدى الحياة . وكان كل ملك ينتخب على حدة . فكأنها كانت في واقع الأمر أبلغ في روحها الجمهورية من بريطانيا ، ولكن روحها الجمهورية كانت أكثر أرستقراطية في شكلها . وكان لبولندة تجارة طفيفة ومصنوعات قليلة العدد ، وكانت قطراً زراعياً ما يزال به مساحات عظيمة للرعى والغابات والأرض البراح؛ فكانت لذلك قطراً فقبراً ، وكان أمهاب الأراضي فها أرستقر اطيين فقراء . وكانت حمهرة سكانها فلاحين أذلاء جهلة جهلا وحشيًا ، وكانت تؤوى كذلك جاهر غفرة من الهود الشديدي الإدقاع . وقد حافظت على عقيدتها الكاثوليكية . فكأنها كانت - إن صح هذا التشبيه - بريطانبا أخرى أرضية كاثوليكية فقبرة ، يكتنفها الأعداء من كل حانب مثل ما يكتنف البحر بريطانيا . ولم تكن لها على وجه الإطلاق أية تخوم محدودة ، فلا بحر ولا جبل . ومما زاد في مصالمها أن بعض ملوكها المنتخبين كانوا حكاماً أذكياء عدوانبي النزعة . فكان سلطانها يمتد شرقاً امتداداً ضعيفاً إلى مناطق يسكنها كلها تقويباً الروسيون ؛ كما يشمل من ناحية الغرب بعض الرعايا الألمان .

ونظراً لأنها لم يكن لها تجارة عظيمة ، لم تنشأ لديها مدن عظيمة تقاس إلى مدن أوربا الغربية ، ولا تكونت بها جامعات قوية تضم شتات ذهنها بعضه إلى بعض . وكانت طبقتها النبيلة تعيش على ما تغله لها مزارعها ، دون الشيء الكثير من الاختلاط الله في كانوا وطني النزعة ، ولديهم إحساس أرستقراطي بالحرية بتسق تماماً مع الإفقار المنظم الذي يعيش فيه موالي أراضهم – ولكن وطنيتهم وحريتهم كانتا غير قادرتين على إنتاج التعاون الفعال . كانت يولندة يوم كانت الحروب أمر جمع للرجال والخيل ، دولة قوية نسبياً ؟ ولكنها لم تستطع بأي حال أن تماشي تطورات الفن

العسكرى الذى كان يتخذمن قوات دائمة من جنود محترفن، العدة الضرورية فى الحروب. ولكنها على ما كانت عليه من الانقسام وقلة الاقتدار ، تستطيع أن تكتب فى كتاب حسابها بعض انتصارات جديرة بالذكر . فإن الهجوم التركى الأخير على قيينا (١٦٨٣) قد قضى عليه الفرسان الپولنديون بقيادة الملك حنا سوبيسكى (الملك چون الثالث) . (وكان هذا السوبيسكى نفسه قبل أن ينتخب ملكا ، أجيراً يتقاضى المال من لويس الرابع عشر ، وكان قد حارب فى صفوف السويديين ضد وطنه) . ولا حاجة بنا إلى القول ، أذ هذه الجمهورية الأرستقراطية الضعيفة ، بانتخاباتها المتداركة الحدوث كانت تستدعى العدوان من كل من جيرانها الثلاثة . وكانت و الأموال الأجنبية » كانت تستدعى العدوان من كل من جيرانها الثلاثة . وكانت و الأموال الأجنبية » وكانت نوع من أنواع المتدخل تنساب إلى البلاد عند كل انتخاب . وكان كل مواطن بولندى ساخط منهم يفر — شأن الإغريق قديماً — إلى أحد الأعداء الأجانب ويصب على وطنه الناكر المجميل ,

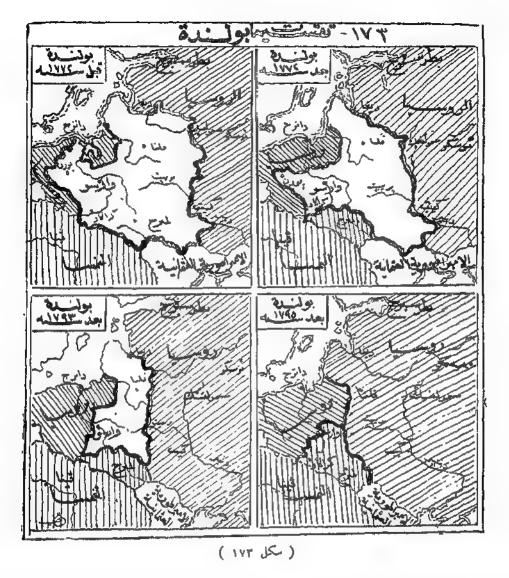
ولم تكن للملك البولندي إلا سلطة ضعيفة جداً حتى بعد أن يتم انتخابه ، وذلك بسبب غيرة النبلاء البولندين بعضهم من بعض . إذ هم شأن النبلاء الإنجليز كانوا يفضلون الأجني ؛ ولأنه - لنفس السبب لم يكن له عماد من قوة أوعزوة يرتكز عليها في البلاد . ولكنه بخلاف البريطانيين لم تكن لحكومتهم نفس قوة التماسك التي كانت تعيرها للنبلاء البريطانيين الاجماعات الدورية للبرلمان في لندن ، التي كانوا يسمونها : ه الحضور إلى العاصمة » . وكانت لندن ملتتي المجتمعات وما يتلوها من تماذج متواصل بين الفكرات وبين أصحاب النفوذ من الأشخاص . ولم تكن لبولندة مدينة كلندن ولاكان فيها ه هبئة اجماعية » . ولذا فالواقع أنه لم تكن لبولندة حكومة مركزية على الإطلاق . وما كان ملك بولندة بمستطيع أن يعلن حربا أو يعقد صلحا ، ولا أن يجي ضريبة أو يغير قانونا دون موافقة بجلس الدايت ، (وكان لكل عضو بمفرده في مجلس أو يغير قانونا دون موافقة بجلس الدايت ، (وكان لكل عضو بمفرده في مجلس الدايت الحق في الاعتراض (Veto) على أي مقترح مطروح للبحث) . وما كان عليه إلا لن ينهض ويقول ا إني غير موافق ، فيسقط الموضوع . بل إنه كان يستطيع عليه إلا لن يعمل حقه في الاعتراض المطلق (Liberum Veto) إلى مدى أبعد من هذا . إذ يستطيع أن يعترض على اجماع المجلس ، وعند ذلك يعمل الدايت . فكأن بولندة يستطيع أن يعترض على اجماع المجلس ، وعند ذلك يعمل الدايت . فكأن بولندة يستطيع أن يعترض على اجماع المجلس ، وعند ذلك يعمل الدايت . فكأن بولندة يستطيع أن يعترض على اجماع المجلس ، وعند ذلك يعمل الدايت . فكأن بولندة

لم تكن إذن مجرد جمهورية أرستقراطية متوّجة مثل تلك البريطانية ، بل كانتجمهورية أرستقراطية متوجة مشلولة .

وكان وجود پولندة فى نظر فردريك الأعظم أمراً مثيراً بوجه خاص بسبب الطريقة التى كانت بها ذراع لپولندة تمتد إلى بحر البلطيق فى دانزج ، وتفصل ممتلكاته الموروثة عن أجداده فى بروسيا الشرقبة عن أراضيه داخل الإمبراطورية . فكان هو من حرض كاترين الثانية قبصرة الروسيا وماريا تريزا النمسوية ـ التى فاز باحترامها بحرمانه إياها من سيليزيا ـ على القيام بهجوم مشترك على پولندة .

واسمحوا الآن لحرائط أربع لپولندة أن تروى لكم القصة .

وبعد هذا الانتهاك الذي أصاب بولندة في (١٧٧٧) ، ألم بفؤادها تغير كبير . إذ الواقع أن بولندة ولدت شعباً مناسكا في ليلة انحلالها . إذ حدث فيها تطور إن يكن سريعاً فقد كان إلى ذلك جسيا ضخا في التعليم والأدبوالفن . ونشأ المؤرخون والشعراء بغنة ، وقلف جانباً بالدستور العقيم الذي بعمل من بولندة دولة كليلة واهنة . وألغي حق الاعتراض المطلق ، وجعل الناج وراثياً من أجل إنقاذ بولندة من المؤامرات الأجنبية التي كانت تصحب كل انتخاب ، وأقيم برلمان بحاكي البرلمان البريطاني . على أنه كان هناك مع ذلك عبون للنظام القديم في بولندة ، كرهوا تلك التغييرات الضرورية ، وطبيعي أن تعين الروسيا وبروسيا هؤلاء المعترضين ، إذ كانتا لا ترغبان في نهضة بولندية . وجاء التقسيم النائي ، وبعد كفاح وطني عنيف ابندأ بالمنطقة التي سلختها بروسيا ، ووجد في كوزكيوسكو (Kosciusko) ، زعيا له وبطلا وطنياً ، حدثت إزالة بولندة نهائياً من الخريطة . وبذا انتهى إلى حين منازمان ذلك التهديد البرلماني للملكية العظمي في أوربا الشرقية . ولكن وطنية البولندين اشتد تضرمها وتلألاً صفارهم لهذا الضغط . فإن بولندة ظلت مئة وعشرين سنة تكافح كفاح مخلوق مغمور بالماء ، تحت تلك الشبكة السياسية



والعسكرية الني كانت تمسك بها وتغل عركتها . ثم نهضت ثانية في (١٩١٨) عند نهاية الحرب العظمي .

١٠ ــ أول تخاطف على الإمبراطوريات وراء البحار

أدلينا إليك ببعض البيانات عن ارتقاء فرنسا مدارج الرفعة فى أوربا ، وعن الانحلال السريع لذلك النماء الرخو الذى تهيأ للدولة الأسپانية وعن انفصالها عن

النمسا ، وقيام بروسيا . فأما فرنسا والبرتغال وأسپانيا وبريطانيا وهولندة ، فإن تنافسها على الرفعة في أوربا قد امتد وتعقد في كفاح على الممتلكات وراء البحار .

ذلك بأن اكتشاف قارة أمريكا وهي الضخمة القليلة السكان ، غير المتطورة والمكيفة تكيفاً زائماً لإقامة الأوروبيين واستغلالهم ، وما رافق ذلك من اكتشافات لمساحات عظيمة من الأرض البكر جنوبي المناطق الاستوائية الحارة في إفريقية التي كانت حتى ذلك الحين تحد من معرفة الأوربيين ، ثم التوصل على التدريج إلى معرفة أقالم جزيرية فسيحة في البحار الشرقية ، لم تمسمها حتى ذلك الحين المدنية الغربية ، -كانت بأكلها عملية عرض للهزات أمام أعين الإنسانية لم يسبق لها مثيل في التاريخ أجمع . وكأنما ورثت شعوب أوربا ميراثاً فاخراً باذخاً . فإن عالمهم تضاعف بغتة أربعة أضمافه . وكان لكل ما يني بحاجته ويفيض . ولم يكن عليهم إلا أن يتسلموا تلك الأراضي وأن يواصلوا بها عيش النراء ، وعند ذلك يتبدد ما هم عليه من فقر وتزاح تبدد الحلم عند اليقظة . ولكهم تلقوا ذلك النراث الفاخر تلتَّى الورثة السبثى التربية . إذ لم يكن له لديهم من معنى إلا أنه ظرف جديد تتجلى فيه المنازعات الفظيعة . ولكن أنَّى لنا ذلك المجتمع البشرى الذي يؤثر الخلق والابتكار على المؤامرة ؟ وأى شعب في قصننا بأجمعها تعاون قط مع شعب آخر بينها كان يستطيع بأى تُمن أن يدبر المكايد لإلحاق الضرر بذلك الشعب الآخر ؟ ابتدأت دول أوربا الأمر « بادعاء » المدعيات الجنونية المتهوسة على الأقطار الجديدة . ثم ترامى بهم الأمر إلى منازعات مستنفدة للقوى . فإن أسيانيا صاحبة أول الادعامات وأشدها به والتي ظلت ردحا من الدهر « سيدة » ثلثي أمريكا ، لم تفد من ممتلكاتها بطريقة أحسن من أن تنزف دماء نفسها فيها إلى درجة الموت تقريباً .

ولقد ذكرنا كيف أن البابوية فى آخر أدوار تمسكها بالسيادة العالمية ، قسمت القارة الأمريكية بين أسپانيا والبرتغال بدل أن تحافظ على الواجب المشترك لكل عالم المسيحية بإنشاء حضارة عظيمة مشتركة فى الأراضى الجديدة . وطبيعى أن يستثير ذلك عداوة الشعوب المحرومة . ومن ثم فإن رجال البحر الإنجليز لم يعيروا مدعيات الطرفين أى احترام ، ونصبوا أنفسهم ضد الأسپان بوجه خاص ، وحوّل السويد

نزعتهم البروتستانتية إلى شيء من هذا القبيل . وما كاد الهولنديون يلقون عن أنفسهم نير أسيادهم الأسپان حتى نشروا قلوعهم غرباً ليسحروا من البابا ، وينالوا نصيهم من خيرات العالم الجديد . فأما صاحب الجلالة الكاثوليكية الورعة ملك فرنسا ، فإنه لم يتردد إلا قدر ما يتردد أى پروتستانتي . فكانت كل هذه الدول مشغولة تتنافس في دعاويها على أمريكا الشهالية وجزائر الهند الغربية .

ولم تفد المملكة الدانيمراكية (وكانت آنذاك تضم النرويج وإيسلندة) ولا السويد شيئاً كثيراً جداً في هذا التخاطف . فضم الدانيمركيون إليهم بعض جزائر الهند الغربية . ولم تصل السويد إلى شيء منها . وكان كل من الدانيمرك والسويد في ذلك الأوان غائصتين في الشئون الألمانية . فقد ذكرنا آنفاً چوستاف أدولف و أسد الشهال البروتستاني ، وأشرنا إلى حملاته في ألمانيا وبولندة والروسيا . والحق أن هذه الأقاليم الأوروبية الشرقية تمتص الطاقات امتصاصاً عظيا ، وإن هذه القوة التي ربما كانت تكسب السويد قسطاً عظيا من العالم الجديد ، قد حصدت لها محصولاً عقيا من المجد في أوروبا ، وسرعان ما سقطت تلك المستقرات الصغيرة التي أنشأها السويديون بأمريكا في أيدى الحولئديين .

وكذلك الهولنديون أيضاً فإنهم وقد شهدوا حيالم الملكية الفرنسية تحت الكردنيال ريشليو وتحت لويس الرابع عشر ، وحي تشق طريقها عبر الأراضي المنخفضة الأسهانية نحو تخومهم ، لم تكن لديهم الموارد غير المبددة ولاالقوة المجتمعة التي كانت بريطانيا من خلف لجمج « بحرها الفضي ، تستطيع أن تقذف بها في ميادين المغامرات وراء البحار .

وفضلا عن ذلك فإن الجهود التي بلمها في سبيل الحكم المطلق چيمس الأول ، وعودة شارل الثانى ، كان من أثرها أن دفعت خارج إنجلترة عددا وشارل الأول ، وعودة شارل الثانى ، كان من أثرها أن دفعت خارج إنجلترة عددا عظيا من البروتستانت الأقوياء العقول ، الجمهوريي الروح ، وهم قوم أشداء ذوو وطنية قوية وأخلاق متينة ، أقاموا في أمريكا ، وبوجه خاص في منطقة نيوإنجلند ، بعيدا عن منال الملك وضرائبه — فيا كانوا يظنون . ولم تكن السفينة « ماى فلور » بعيدا عن منال الملك وضرائبه في فيض من سفن المهاجرين . وكانا من حسن طالع إلا واحدة من السفن الأولى في فيض من سفن المهاجرين . وكانا من حسن طالع بريطانيا أنهم ظلوا تحت العلم البريطاني ، وإن كانوا مخالفين منشقين . فأما الهولنديون

فلم يرسوا إلى أمريكا البتة مستقرين على نفس وفرة العدد والرقى ، وذلك أولا لأن حكامهم الأسپانيين لم يكونوا ليسمحوا لهم ، وثانياً لأنهم تملكوا بلادهم هم . ومع أنه حدثت هجرة عظيمة للهوجنوت البروتستانت لما لقوا عداب الدراجوناد واضطهاد لويس الرابع عشر ، فقد كان لهم من هولندة وانجلترة ملتجأ قريب ، فانتقلت صناعاتهم ومهارتهم وجدهم وقناعهم إلى ذينك القطرين فكان لهما مهم وبخاصة انجلترة قرة أى قوة . وأسس القليل منهم المستقرات فى كارولينا ، على أن هذه لم تستمر فرنسية . فإنها انتقلت إلى الأسپان أولا ثم انتقلت آخر الأمر إلى الإنجليز .

كذلك خضعت المستقرات الهولندية ومعها السويدية لمريطانيا . فأصبحت نيوأمستردام بريطانية (١٩٧٤) وتعدل اسمها إلى نيويورك ، كما قد يرى القارى في كتاب واشنجتن إرڤنج الفكه : « تاريخ نيويورك الموجز » . وتتبين حال الأمور بأمريكا في (١٧٥٠) تبيناً واضحاً جلماً من خريطة كيفناها عن أخرى في كتاب « العصور الوسطى والحديثة » لمروبنسون(١) . وقد تأسست دائرة النفوذ العريطانية على امتداد الشاطي الثبرق من ساڤانا إلى نهر السانت لورنس ، فأما نيوفوندلند وأراضي شمالية مترامية هي أراضي شركة خليج هدسون فقد اكتسبت من الفرنسين بمعاهدة صلح . واحتلُ الريطانيون بربادوس في (١٩٠٥) ، (وهي تكاد تكون أقدم ممتلكاتهم الأمريكية) ، واستحوذوا على چامايكا وجزائر مهاما وهندوراس البريطانية من الأسپان . ولكن فرنسا كانت تطارد صيداً خطراً مزعجاً جداً ، وهو صيد يبدو على الخريطة أشد خطراً وإزعاجاً منه في الحقيقة . فإنها أنشأت مستقرات حقيقية في كوبيك ومونتريال في الشمال وفي نيو أورليانز في الجنوب ، وتقدم مستكشفوها وعملاؤها جنوبًا وشمالاً ، يعقدون المعاهدات مع الهنود الأمريكيين بالسهول العظيمة ويقيمون المدعيات ــ دون أن يقيموا المدن ــ عبر القارة بأكملها خلف منطقة البريطانيين . ولكن حقائق الموقف لاتمثَّل على هذا النحو تمثيلا كافياً . فإن المستقرات البريطانية قد توطدت بها إلى أقصى حد إقامة طبقة صالحة من الناس ؛ وكان عددهم يتجاوز بالفعل المليون . وما كان الفرنسيون في ذاك الزمان يدانون عُـشر ذلك العدد .

Robinson: « Medieval & Modern Times ». (1)

أجل كان لهم عدد من أذكياء الرحالين والميشرين يعملون ناشطين ، على أنهم لم يكن من وراتهم مادة عظيمة من السكان .

وما يزال في الإمكان العثور على كثير من الحرائط القديمة لأمريكا في تلك الفترة ، وهي خرائط وضعت خصيصاً لإخافة البريطانيين واستثارتهم حتى يتنهوا إلى لا خطط الفرنسين » في أمريكا . ونشبت الحرب في (١٧٢٤) . وفي (١٧٥٩) استولت القوات البريطانية وقوات المستعمرات بقيادة الجنرال وولف على كويبك وأتمت من فتح كندا في السنة التالية . وما وافت (١٧٦٣) حتى كانت كندا قد انتقلت بهائياً إلى أيدى بريطانيا . (على أن الجزء الغربي من إقليم لويزيانا الذي يكاد يكون لا حد له في الجنوب ، والمسمى باسم لويس الرابع عشر ، ظل خارج الدائرة البريطانية . فأخذته أسبانيا ، وفي (١٨٠٠) استردته فرنسا . ثم اشترته آخر الأمر المستقرون الأمريكيون على خبرة جسيمة في فن الحروب ، وعلى علم بالتنظيم العسكرى البريطاني عاد عليم بعظم النفع بعد ذلك بزمن وجيز .

١١ – بريطانيا تسود الهند

لم يقتصر اصطدام الدولتين الفرنسية والبريطانية على أمريكا وحدها . بل إن أحوال الهند كانت في ذلك الزمان شديدة الجاذبية عظيمة اللذة للمغامرين الأوربيين . فإن الإمبر اطورية المغولية العظيمة ، إمبر اطورية بابر وأكبر وأورانغزيب ، كانت قد سارت في الانحلال شوطاً بعيداً . وما حدث للهند كان موازياً ومماثلا لما جد لألمانيا . فإن المغولي الأكبر ، شأن إمبر اطور الدولة الرومانية المقدسة في ألمانيا ، كان ما يزال صاحب السيادة العليا شرعاً ، ولكنه كان بعد وفاة أورانغزيب ، يتولى سلطة اسمية ليس غبر ، اللهم إلا في المنطقة المجاورة مباشرة لعاصمته . وقد حدث نهوض عظيم في المندوكية وفي الروح الوطنية . في الجنوب الغربي ثار على الإسلام شعب هندوكي هو الماراتا (Mahratias) ، وأعاد البرهمانية ديانة سائدة . ثم بسطوا سلطانهم حيناً من الدهر فوق مثلث الهند الجنوبي بأجمعه . وتقوض حكم الإسلام في راجهوتانا

أيضاً وحلت محله البرهمانية ، وكان يحكم فى بهورتبور وفى چايبور ، أمراء راچپوتانيون أقوياء . وكانت فى أوده مملكة شيعية عاصمتها لكثنو ، وكانت البنغال كذلك مملكة إسلامية منفصلة . ونشأت فى بلاد الپنچاب القصبة فى الشمال هيئة



دينية شائقة جداً هي السيخ ، الذين أعلنوا أن الحكم العام لرب واحد وهاجوا الڤيدا الهندا الهندوكية والقرآن الإسلامي على السواء . وكان السيخ في الأصل طائفة سلم ما لبثوا أن

احتذوا حذو الإسلام (١) وحاولوا – موقعين أنفسهم في أول الأمر في أشد الكوارث – أن يؤسسوا مملكة الرب بحد الحسام . وإلى هذه الهند الهندية المتبلبلة البالغة الفوضى وإن كانت ناهضة قوية الحيوية ، هبط للفور (١٧٣٨) غاز من الشال ، هو نادرشاه (١٧٣٦ – ٤٧) حاكم فارس التركماني ، الذي انثال بجيوشه عابراً ممر خيبر ، موقعاً بكل جيش اعترض طريقه ، واستولى على دلهي ونهما ، وحمل منها غنائم هائلة . وخلف شمال الهند محطماً يباباً إلى حد أن عدد غارات النهب الأخرى الناجحة في العشرين سنة التالية لم يُقل عن ست غارات في شمال الهند أتت جميعاً من بلاد الأفغان ، التي أصبحت دولة مستقلة عند وفاة نادرشاه . وواصل الماراتا محارية الأفغان ، التي أصبحت دولة مستقلة عند وفاة نادرشاه . وواصل الماراتا محارية



^(1) سبق أن رددنا على هذه النقطة في المجلد الثالث من المعالم ص ٦٣٢ ط ١ و (ص ٧٨١ – ط ٢) فليرجع إليها القارئ في موضعها . (المترجم)

الأفغانيين ردحاً من الزمان على حكم شمال الهند. ثم تحطمت دولة للساراتا وتقسمها عدد من الإمارات وهي إندور وجواليور وبارودا وغيرها. فكانت الهند في القرن السابع عشر شديدة الشبه بأوربا في القرن السابع أو التامن ، إذ كانت أرض نهوض بطيء لا يفتأ المغيرون الأجانب ينزلون مها الكوارث.

ذلك شأن الهند التي كان يندفع إليها الفرنسيون والإنجليز إبان القرن النامن عشر . ذلك أن عدداً متعاقباً من الدول الأوربية الأخرى ما فتى يكافع طلباً لمرسى تجارى وسياسى في الهند والشرق، منذ السنة التي قام فها فاسكودا جاما برحلته العظيمة حول رأس الرجاء إلى قاليقوت . وكانت تجارة الهند البحرية قبل ذلك في يد عرب البحر الأحمر ، فظفر بها منهم البرتغاليون بعد سلسلة من المعارك البحرية . إذ كانت تحمل أسلحة أنقل . وظل البرتغاليون



(شکل ۱۷۲)

زماناً وزمام التجارة الهندية ملك خاص لبيهم ، وبزت لشبونة البندقية كسوق للأفاويه الشرقية . ومهما يكن من شيء فإن القرن السابع عشر شهد الهولنديين قابضين على هذا الاحتكار . وكان للهولنديين وهم في أوج قوتهم مستقرات عند رأس الرجاء الصالح ، هذا إلى جزيرة موريشيوس ، وإلى مؤسستين في فارس ، وأثنتي عشرة في الهند ، وست في سيلان ، وكانوا قد نثر وا محطاتهم المحصنة في كل أرجاء جزائر الهند الشرقية . ولكن ما أبدوا من عزم أناني على حرمان التجار من أية جنسية من الاستفادة من تجارة الشرق ، أجاماً السويديين والدانم كبين والفرنسيين والإنجليز إلى المنافسة العدائية . فكانت أولى المضربات التي كيلت لاحتكارهم وراء البحار ، تلك التي وجهها بليك فكانت أولى المنافسة عشر في نزاع ومنافسة قوية للهولنديين على التجارة والامتيازات في كل أرجاء الهند . وأنشأ الإنجليز مراكزهم الكبرى في مدراس وبمباى وكلكتا ؛ وكانت المستقران الفرنسية الرئيسية هي بوندتشيرى وشاندر ناجور .

وفى بادى الأمر ، كانت كل هاته الدول الأوربية تأبى بوصفها مجرد متجرين ، وكانت المؤسسات الوحيدة التى يجاولون تشييدها هي المخازن . ولكن حالة البلاد غير المستقرة ، والطرق غير الشريفة التى كان يتبعها منافسوهم ، جعلت تحصيهم أنفسهم وتسلحهم شيئاً طبيعياً ، وجعلهم هذا التسلح حلفاء جذابين في أعين الأمراء المتنوعين المتقاتلين الذين كانت تنقسم الهند آنذاك بيهم . وكان مما يتواءم تماماً وروح السياسة القومية الأوروبية الجديدة ، أنه ما يكاد الفرنسبون ينضمون إلى جانب ، حتى يجب أن ينحاز الإنجليز إلى آخر . وكان الزعيم في الجانب الإنجليزي هو روبرت كلايڤ ، المولود في (۱۷۲۵) والذي وصل إلى الهند في (۱۷۵۳) . وكان خصمه الأكبر هو المولود في (۱۷۲۵) ولكن قصة هذا الكفاح الذي استغرق النصف الأول من القرن الثامن عشر أطول وأعقد من أن يتسع لها هذا المكان . ولما وافت (۱۷۲۱) نظر الإنجليز وإذا في السيادة الكاملة على شبه الجزيرة الهندية . وفازت جنودهم في يلاسي (۱۷۵۷) وبوكسر (وبوكسر (۱۷۲۶) بانتصارات رائعة فاصلة على جيش البنغال وجيش أوده . وكان المغولى الأكبر ، صاحب السيادة عليهم اسمياً ، قد أصبح في الحقيقة ألعوبهم الحاضعة . المغولى الأكبر ، صاحب السيادة عليهم اسمياً ، قد أصبح في الحقيقة ألعوبهم الحاضعة .

وكانوا يجبون الضرائب في مساحات عظيمة ؛ وكانوا يحتمون دفع النعويضات جزاء لأية معارضة حقيقية أو خيالية .

على أن هذه الانتصارات لم تحرزها آيدى قوات ملك انجلترة مباشرة ، بل فازت بها شركة الهند التجارية ، التى ما كانت فى الأصل حين إنشائها فى حكم الملكة إلىزابيث ، إلا شركة من المغامرين البحريين . واضطروا خطوة فخطوة أن يجمعوا الجنود وأن يسلحوا سفتهم وعند ذلك وجدت هذه الشركة التجارية بما لها من تغاليد الكسب والربح ، أنها لا تتجر فحسب فى الأفاويه والأصباغ والشاى والجواهر ، بل فى إبرادات الأمراء وممتلكاتهم وفى مقدرات الهند . جاءت لتشترى وتبيع ، ووجدت نفسها تصيب قرصنة هائلة . ولم يكن هناك من إنسان يتحدى تصرفاتها . أعجيب إذن أن قادتها وضباطها وموظفها ، كلا بل كتبتها وجنودها العاديين ، كانوا بعودون إلى انجلترة محملين بالغنائم ؟ إن رجالا فى مثل هذه الظروف وتحت رحمهم أراضى عظيمة غنية ، لا يستطيعون أن يمزوا بين ما يجوز أن يفعلوه وما لا يجوز . كانت عظيمة غنية ، يخرج عن مجال عطفهم . وكانت معابدها ومبانها السمر القاتمون أركان معايير للسلوك وهمية سخيفة .

وكانت خواطر الإنجليز في بلادهم تضطرب ونتبليل عندما يعود هؤلاء القادة والموظفون إلى بلادهم ويتراشقون بالنهم السوداء مابين ابتزازات وقساوات . وأصدر البرلمان قرازاً بلوم كلايف . فقضى على نفسه انتحاراً في (١٧٧٤) . وفي (١٧٨٨) موكم وارن هاستنجس وهو مدير عظيم آخر للهند وقضى ببراءته (١٧٩٢) . وكان ذلك الموقف موقفاً غريباً لم يسبق له مثيل في تاريخ العالم . فإن البرلمان الإنجليزي الني نفسه يحكم فوق شركة لندنية التجارة ، كانت بدورها تتسلط على إمبراطورية أعظم وأكثر سكاناً من كل ممتلكات التاج البريطاني . وكانت الهند في نظر كتلة الشعب الإنجليزي أرضاً شاسعة خيالية سخيفة لا يكاد يستطاع الوصول إليها . لم يذهب إليه الإفتراء الشبان من المغامرين ليعودوا إلى وطنهم بعد سنوات كثيرة سادة مسنين أغنياء جداً حادى الطبع جداً . وكان من العسير على الإنجليز أن يتصوروا ماذا يمكن أن

تكون عليه حياة ملاين السُّمر الذين لا يحصرهم عدد فى ضياء شمس الشرق . وكانت أخيلتهم تأبى عليهم حمل هذه الصورة . فظلت الهند شيئاً غير حقيقى يشابه فى غرابته الروايات الرومانسية ومن ثم كان من المستحيل على الإنجليز ، أن يقيموا أى إشراف ورقابة فعالىن ، على تصرفات الشركة .

١٢ ــ تقدم الروسيا إلى المحيط الهادى

وعلى حين كانت شبه الجزيرة العظيمة في الجنوب من آسيا تقع على اهذا النحو تحت سلطان التجار البحريين الإنجليز ، كان يحدث في الشمال رد فعل آخر لأوروبا على آسيا معادل لذاك عظيم . ولقد سبق أن نبأنا القارى كيف استردت الدول المسيحية في الروسيا استقلالها من الرهط (الحشد) الذهبي ، وكيف أصبح قيصر الروسيا سيداً على جمهورية نوڤجورود ؛ وأخبرناك في القسم الخامس من هذا الفصل عن بطرس الأكبر وهو ينضم إلى جماعة الملوك العظام ثم يسوق الروسيا في الواقع إلى أوروبا سوقاً . ونهوض هذه الدولة الكبرى التي تتوسط العالم القديم والتي لا هي بِالشَرِقية تَمَامًا ولا هي بالغربية تمامًا ، نهوض ذو أهمية قصوى لمقدّراتنا الإنسانية . كذلك نبأناك فىالفصل ذاته عن ظهور شعب مسيحى فى السهوب ، هم القوزاق الدين كانوا حداً فاصلا بن زراعة پولندة وهنغاريا الإقطاعية من ناحية الغرب وبن التتار من ناحية الشرق . وكان القوزاق يمثلون شهرق أوروبا المتوحش ، وكانوا في كثير من الوجوه لا يختلفون كثيراً عن القسم الغربي المتوحش في الولايات المتحدة إبان منتصف القرن البتاسع عشر . فكل من أحنق غليه صدر الروسيا حتى لم تعد تطيق أن تؤويه ، من أمثال الحجرمين ثم الأبرياء المضطَّهدين ، وموالي الأرض الثائرين ، وأعضاء الشيع الدينية ، واللصوص ، والأفاقين والقتلة ، كانوا يلوذون بملجأ السهوب الجنوبية ، تم يبدءون حياتهم من جليد ويقاتلون مِن أجل الحياة والحرية ضد كل من اليولنديين ، والروسين ، والتبار على السواء . ولا مرية فى أن لاجئين من التنار فى الشرق كانوا ينضمون كذلك ويزيدون في عدد خليط القوزاق . وكان أكبر هذه القبائل المرحلة الجديدة ، قوزاق أوكرانيا على بهر الدنيبر وقوزاق الدون على بهر الدون . وضُمُّ هوالاء القوم على الحدود فى بطء إلى الحدمة الإمبراطورية الروسية ، على نفس الطريقة التي تم بها تحويل عشائر الأراضي المرتفعة (هايلاند) في اسكتلندة إلى فرق أنشأتها الحكومة البريطانية . فمنحوا أراضي جديدة في آسيا . فأصبحوا سلاحاً ضد قوة المغول المترحلين المضمحلة ، في التركستان في مبدأ الأمر ، ثم عبر سيبيريا حتى شهر العامور .

وانحلال الطاقة المغولية في القرن السابع عشر والثامن عشر أمر يعسر علينا جداً أن نفسره . فلم ينقض قرنان أو ثلاثة على أيام چانكيز وتيمورلنك ، حتى انعدرت آسيا الوسطى من فترة رفعة عالمية إلى حالة كلال ووهن سياسي مفرط . ولعل تغيرات في المناخ ، وأوبئة لم يسجلها التاريخ ، وعدوى من طراز يشبه الملاريا ، قد قامت بدورها في هذا التأخر الذي ألم بشعوب آسيا الوسطى ، والذي ريما لا يكون الا تأخراً موقوتاً إذا قيس إلى معيار التاريخ العام . ويظن بعض الثقات أن انتشار التعاليم البوذية من الصين إلى تلك الأصقاع كان له أيضاً أثر مهدئ لنفوسهم . ومهما يكن من شيء ، فلم تعد شعوب النتار والترك المغولية عند حلول القرن السادس عشر يكن من شيء ، فلم تعد شعوب النتار والترك المغولية عند حلول القرن السادس عشر علافظة على ضغطها نحو الخارج ، بل تحولت بهم الحال ، فأصبحوا هم الذين يغزون ويتُدفعون إلى الخلف من كل من الروسيا في الغرب والسين في الشرق .

وظل القوزاق ينتشرون نحو الشرق طوال القرن الثالث عشر من الروسيا الأوربية ويستقرون حيثًا تبيأت لهم الظروف الزراهية . وكانت نطاقات من التحصينات والمحطات تقوم مقام التخوم المتحركة لهذه المستقرات في الجنوب ، حيث كان التركمان لا يبرحون أقوياء ناشطين ؛ ومع ذلك فإن الروسيا من الجهة الشهالية الشرقية لم تكن لها تخوم حتى وصلت إلى المحيط الهادى نفسه . وكانت الصين في نفس الوقت في دور اتساع . إذ أن الغزاة والمانشو ، بثوا في الشئون الصينية طاقة جديدة ، وأدى اهتمامهم بمناطق الشيال إلى توسع شهالي عظيم لحضارة الصين وسلطانها في كل من منشوريا ومنغوليا . وهكذا حدث عند منتصف القرن الثامن عشر أن مناطق الزيغ الإنسانية جئه

تلاحم (١) الروسيون والصينيون فى منغوليا . وكانت الصـــين فى تلك الفترة تحكم التركستان الشرقية ، والتبت ونيبال ، ونورما وأنام .

وكان عصر المانشو في الصين فترة نشاط أدبي جسيم أيضاً ، مماثل لعصور نظرائهم في أوربا وإن استقل عنها الاستقلال كله ، فإن الرواية الصينية والقصة الصينية القصيرة ارتفعنا إلى مستويات عالية في الأسلوب والإمتاع ، وحدثت للدرامة الصينية تطور ات هامة . وصورت مناظر أرضية ممتازة كثيرة ، واخترعت الطباعة بالألوان ، وتعلم الناس الحفر على النحاس من المرسلين اليسوعيين ، وارتني صنع الخزف (البورسلين) الصيني إلى فرا لا مثيل لها من الرفعة . ولكن السمة الجمالية لهذا الحزف انحطت مع تقدم الزمن بالقرن النامن عشر بسبب مسارعة الفخرانية إلى تكييف أنفسهم طبقاً لما كانوا يعدونه الذوق الأوربي . وتواصل التصدير طيلة هذا القرن كله إلى السرايات والقصور والدور الربفية الني للنبلاء والأعيان الأوربيين . وقلدت صناعة المرايات والقصور والدور الربفية الني للنبلاء والأعيان الأوربيين . والمدت أيضاً تجارة الشاى الأوربية المنتجات الصينية ونافسها ولكنها لم تفقها قط . وابتدأت أيضاً تجارة الشاى الأوربية .

سبق أن ذكرنا غزواً يابانياً للصين (أو بالحرى لكوريا) . ولا تلعب اليابان فيا عدا عدوانها هذا على الصين ، أى دور فى تاريخنا قبل القرن التاسع عشر فإنها سأن الصين تحت حكم أسرة منج – قد نصبت نفسها فى حزم وعزم ضد تدخل الأجانب فى شئونها . فكانت قطراً يمضى قدما فى ظل حياته الحضارية الحاصة . وهو محتوم خيّا سحرياً ضد كل دخيل . وقد حدثناك عنها بالنزر البسير حتى الآن لأن كل ما لدينا كان ذلك النزر البسير . فإن تاريخها الحميل الحداب الرومانسي الشعرى يقف بمعزل عن الدرامة العامة للشئون الإنسانية . كان سكانها فى معظم أمرهم الشعرى يقف بمعزل عن الدرامة العامة للشئون الإنسانية . كان سكانها فى معظم أمرهم من المغول ، بهم مسكة من شعب أبيض شائق جداً يوحى بطراز نور دى بدائى ، هو الأينو (Ainu) المشعرون فى الجزائر الشمالية . ويلوح أن مدنينها قد استمدت

⁽١) ثلاحمت الأشياء : تضامت وتملامت بعد أن كانت منفصلة .

كلها تقريباً من الصين وكوريا ؛ وأن فنها تطور خاص للفن الصينى وكتابتها تكييف للكتابة الصينية .

۱۲ ــ رأى جيبون في العالم في ۱۷۸۰

كنا نعالج فى هذه الأقسام الاثنى عشر السابقة عصر فرقة وانقسام ، وقوميات متفرقة . وسبق أن شبهنا تلك الفترة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر بفترة « عطل وخلو » من الدافع الأعلى توقف فيها تقدم البشرية نحو وحدة تعم العالم أجمع . وقد حرمت عقول الناس طوال هذه الفترة من كل « فكرة موحدة جامعة » . فإن قوة دفع الإمبر اطورية قد بلغ من إخفاقها أن الإمبر اطور لم يعد بزيد عن فرد بين جماعة من الأمراء المتنافسين ، كذلك ذهب حلم « عالم المسيحية » أدراج الرياح . وكانت الدول المتطورة تتدافع بالمناكب فى كل أرجاء العالم قاطبة ؛ وانقضى حين من الدهر كان يبدو أثناءه أنها سوف تمضى تتدافع بالمناكب إلى ما شاء الله دون أن تملم بالإنسانية أية نازلة عظيمة . وقد وستعت المكتشفات الجغرافية العظيمة فى القرن



السادس عشر الموارد الإنسانية إلى درجة أنه بالرغم من انقساماتهم ، وبالرغم مما كانت تجره الحروب والسياسات على شعوب أوربا من الحسارة والضياع ، فإن تلك الشعوب استمتعت بظلال رخاء جسم متزايد . وراحت أوربا الوسطى تنتهش انتعاشاً مطرداً مما حل مها من جراء حرب الثلاثين سنة .

وإذا نحن ألقينا إلى الخلف نظرة (شكل ١٧٧) ڤولتير إلى تلك الفترة التي بلغت ذروتها في القرن الثامن عشر ، كما قد نستطيع أن

نفعل ذلك اليوم ، ورأينا أحبدائها بالعلاقة إلى القرون التي سبقتها ، وإلى الحركات العظيمة في الزمن الحاضر ، استطعنا أن ندرك كم كانت أشكالها السياسية موقوتة غير دائمة وعرضية طارثة وكم كانت ضماناتها غير ثابتة . كانت لا جرم عرضية طارئة على صورة لم تسبق لأى عصر آخر ، وكانت عصر تمثل وإبلال بل هي كانت توقفاً سياسياً ، وتجميعاً لفكرات البشر وموارد العلم توطئة لمجهود إنساني أرحب . على أن العقل المعاصرلها لم يرها على هذه الصورة . فإن إخفاق الفكرات الحلاقة العظيمة بشكلها الذي صيغت فيه في القرون الوسطى ، غادر الفكر الإنساني حينا من الدهر محروما من هداية الفكرات الحلاّقة؛ فإن المتعلمين وذوى الحيال الفسيح أنفسهم كانوا يرون العالم بطريقة عارية من كل روعة ؛ فلم يعد في نظرهم مكاناً تتفاعل فيه الجهود والمصائر بل مشهدا تلتمس فيه الفصائل الفأترة حسن الجزاء . ولم يكن أصحاب العقول المحافظة والقانعة هم وحدهم الذين كانوا يتفيَّثون ـ في عالم حافل بالتغيرات السريعة ـ أكناف هذا الاطمئنان الذي يجزم ببلوغ الشئون الإنسانية مرحلة الثبات والاستقرار . بل لقد أظهر نفس النزعة أصحاب الفطن القوية الناقدة والثائرة ، وذلك لامتناع وجود أي حركات تدعم روح المجتمع وتشد أزره فإنهم أحسوا بأن الحياة السياسية تغيرت ولم تعد على ما كأنت عليه من العجلة الفاجعة ؛ فإنها أصبحت كوميديا مؤدبة . وكان القرن الثامن عشر قرن كوميديا أصبحت في النهاية عابسة جهمة . ولا يكاد يتصور العقل أن ذلك العالم عالم منتصف القرن الثامن عشر كان في طوقه أن ينتج عظاء من أمثال يسوع الناصري ولاجوتاما ولافرنسيس الأسيسي ، ولا إغناطيوس ليولا . فلو استطاع الإنسان أن يتصور وجود چون هـَس آخر في القرن الثامن عشر ، فإن من المستحيل عليه تصور وجود أي إنسان لديه ما يكني من الحميَّة لإحراقه . فإلى يوم بدأت حركات تيقظ الضمير بريطانيا التي تطورت إلى نهضة المهاجيين (Methodists)(١) لانكاد نلمح في أوربًا أية بارقة شك تشير إلى أنه ما تزال توجد بين يدى جنسنا واجبات عظيمة لابد له

⁽١) المنهاجيون : هيئات دينية كثيرة نشأت عن الحركة الإنجيلية التي قام بها شارل و چون ويسل في القرن الثامن عشر . (المترجم)

من إتمامها ، ولا أن اضطربات هائلة كانت على الأبواب ، ولا أن أخطاراً لاحصر لها كانت تغشّى بالسُّدفة والظلام طريق الإنسان فى الزمان والفضاء ، وأن قطعه لذلك الطريق لا بدله من أن يظل حتى النهاية جهداً عظيماً ورهيباً .

عاودنا في هذا التاريخ مرة بعد أخرى الاقتباس عن كتاب « اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها » لجيبون . ونحن الآن على أن نقتبس منه لآخر مرة ثم نستودعه الله ، ذلك أننا وصلنا إلى العصر الذي كتب فيه ذلك الكتاب . ولد جيبون في ١٧٣٧ ، وصدر آخر جزء من تاريخه في ١٧٨٧ . على أن الفقرة التي نقتبسها كتبت فيها يرجح في ١٧٨٠ . كان جيبون شاباً رقيق الصحة متوسط الثراء ، نال في أُوكسفورد تعليماً جزئياً متقطعاً ، ثم أتم دراساته في چنيف ؛ وكان اتجاهه الذهبي في جمانه فرنسياً دوليا أكثر منه بريطانياً . وكان كبير التأثر بالنفوذ العقلي للفرنسي العظیم الذی یشتهر باسم ڤولتیر (فرانسوا ماری ارویه دی ڤولتیر ، ۱۹۹۴–۱۷۷۸) . كان ڤولتىر موالفاً هائل الجد والتشمير ، فإن سبعين سفراً له تزين رفوف كاتب هذه السطور ، وهناك طبعة أخرى لمؤلفات ڤولتير ترفع العدد إلى أربعة وتسعين سفراً ، وكان أكثر ما يعالجه شئون التاريخ والشئون العامة ، وتراسل مع كاترين العظمى قيصرة الروسيا وفردريك الأكبر ملك بروسيا ولويس الحامس عشر ومعظم الرجال البارزين في ذلك الزمان. وكان إحساس جيبون وفولتىر بالتاريخ فويا ، وكلاها قد وضع آراءه في الحياة الإنسانية على أكمل وأوضح وجه ؛ وواضح أنهما كِلْمَيْهُمَا كَانَا يُرِيَانَ أَنَ النظامِ الذي كَانَا يَعِيشَانَ فِيهِ وَأَعْنَى بِهُ نَظَامُ المُلكية . ونظام الطبقات الراقية الناعمة بالفراغ والامتيازات ، ونظام الأقوام المحتقرين تقريباً أصحاب الصناعة والتجارة ، ونظام العامة والفقراء والعال المدوسين بالأقدام والمنزلين منزلة الإهال ، كان يبدو أثبت طريقة للعيش رآها العالم طَوال الدهر . فاعتنقا مبادئ الجمهورين إلى حين ، وأخذا يستخران من الإدعاءات المقدسة للملكية ؛ ولكن الروح الجمهورية التي راقت ڤولتىر كانت ﴿ الروحِ الجمهورية المتوجه ﴾ في بريطانيا أثناء ذلك الزمان ، التي كان فها الملك مجرد الرأس الرسبي ، وأول الحنتلمانية وأعظمهم . وكان المثل الأعلى الذي يرفعان لواءه وبناءه هو المثل الأعلى القائل بوجود عالم مؤدب مهذب يكون فيه الرجال ـ وأعنى بهم الرجال ذوى السجايا العالية ، إذ ليس لغبر هؤلاء وزن - في خجل من أن يكونوا قساة أو غلاظاً أو متحمسين ، وتكون فيه مرافق الحياة فسيحة الجنبات رشيقة الحواشي ، والحشية من هزو الناس أقوى معين للقانون على صيانة السلوك اللائق وضروب التوازن والانسجام في الحياة . وكان قُولَتُيْرِ يَحْمَلُ فِي صَدْرَهُ اسْتَعْدَاداً للْكُرَّهُ الْمُتَوْقَدُ لَلظَّلْمِ ، ومَا تَدْخَلَاتُهُ فِي نَصِرَةً مِنْ يضطهدون أو يساء إليهم من الرجال إلا الأنوار الساطعة في قصة حياته المديدة المعقدة . وإذ كان مذا هو الميل الذهني لدى جيبون وڤولتير ، ولدى العصر الذي كانا يعيشان فيه ، فإن من الطبيعي لديهما أن يجدا في وجود الديانة في العالم وبخاصة وجود الديانة المسيحية ظاهرة مربكة محيرة لا يكاد يوجد لها ما يبررها . وكان ذلك الجانب من الحياة يبدو لها في مجموعه نوعاً من الخبل في الكيان الإنساني . وما ذلك التاريخ العظيم الذي ألفه جيبون إلا مهاجمة للمسيحية في جوهره ، بوصفها السبب الفعال للندهور والسقوط . فكان يمجد بلوتوقراطية(١) روما الفجة للغليظة ويتخذ منها مُثلاً عليا حاول أن يبنُّها في عالم مكون من چنتلمانية ممتازين نشأوا على غرار القرن الثامن عشر ، كما بين كيف أن سقوطها أمام هجات البرابرة القادمين من الحارج جاء نئيجة لفسادها الداخلي من جراء المسيحية . وقد حاولنا في كتابنا التاريخي هذا أن نقيم معالم تلك القصة تحت ضياء أصح وأحسن . وكان ڤولتير يرى في المسيحية الرسمية « شنعة L'infâme » ، وشيئاً يحد من حياة الناس ، ويتدخل في أفكارهم ، ويضطهد المخالفين الذين لايضرون أحداً . والواقع أنه لم يكن في 3 فترة العطل والحلو من الدافع الأعلى ، هذه إلا أثر ضئيل جداً من النور أو الحياة في أي من مسيحية روما (السلَّفية) أو كنائس الروسيا الأرثوذكسية الخاضعة وكنائس الأمراء البروتستانت . وكان من العسير على الإنسان في فترة هذا ﴿ الْحَلُّو مِن الدَّافِعِ الْأُعْلِي ﴾ التي يثقل الجو فيها وجود كثرة من الأساقفة المداهنين والقساوسة المكرّة ــ أن يدرك

⁽١) البلوتوقراطية Plutocracy : حكو.ة الأغنيا. (المترجم)

أى نيران توقدت جمرتها يوماً ما فى قلب المسيحية ، وأى نيران من الشهوات السياسية والدينية لعلها ما تزال ممكنة التوقد فى قلوب الناس .

وأتم جيبون فى نهاية سفره الثالث بيانه عن تصدع الإمبر اطورية الغربية . ثم تساءل عند ذلك هل تصاب المدنية يوماً ما بانهيار يماثل ذاك ؟ وأدى به ذلك إلى استعراض حال الشئون المعاصرة له (١٧٨٠) وإلى مقارنها بحال الأمور أثناء اضمحلال روما الإمبر اطورية . وعندى أن من المناسب جداً لخطتنا العامة في هذا الكتاب أن نقتبس هنا بعض فقرات من تلك الموازنة ، فما من شيء يستطيع أن يوضيع خيراً منها الحال العقلية لدى المفكرين المتحررين في أوروبا إبان بلوغ « فترة العطل والحلو من الدافع الأعلى » في عصر الدول الكبرى أوجها من الناحية السياسية . وذلك قبل ظهور من الدافع الأعلى التي أنتجت في النهاية على بوادر تلك المقوى العميقة السياسية والاجهاعية ، قوى التفكاك التي أنتجت في النهاية حالة التساول المستوقفة لمنظر الموجود في عصرنا هذا .

كتب جيبون عن الأنهيار الغربي يقول : « ربما طبقت هذه الثورة الرهيبة تطبيقاً نافعاً يعود بالعظة والعبرة المفيدة على عصرنا الحاضر. فإن من واجب الوطني أن يؤثر ويزكى مصالح ومجد وطنه وحده دون أى شيء عداه . على أنه ربما أبيح الفيلسوف أن يوسع وجهة نظره ، وأن يعد أوربا جمهورية واحدة عظيمة ، أوشك سكانها المتنوعون أن يصلوا إلى نفس المستوى من التأدب والتهذيب . ولسوف يستمر توازن القوى في التأرجح ، وسوف يتعاور على رخاء مملكتنا أو المائك المجاورة لها غيبر الله ما بين تسام وتدل على أن هذه الأحداث الجزئية لا تستطيع بالمضرورة أن تسدد سهما يجرح سعادتنا العامة ، وأعنى بلك مجموعة الفنون والقوانين وآداب السلوك ، التي تميز الأوربيين ومستغمراتهم عن الجنس البشرى تميزاً له جدواه النامة . فإن شعوب الكرة الأرضية المتوحشين هم الأعلماء المشركون للجاعة اللهدانية الممدنة ، ولعلنا نتساءل في تطلع القلق أما تزال أوربا مهددة بتكرار الإنسانية الممدنة ، ولعلنا نتساءل في تطلع القلق أما تزال أوربا مهددة بتكرار تلك النوازل التي سبق أن ألمت بقوى روما ونظمها . وربما وضحت نفس التأملات سقوط تلك الإمبراطورية الجارة وشرحت الأسباب انحتملة لحالة الطمأنينة القعلية التي نحن علمها اليوم .

«كان الرومان بمجهلة لمدى الحطر المحيق مهم وعدد أعدائهم . وكانت المناطق وراء الراين والدانوب أى الأقطار الشهائية لأوربا وآسيا غاصة بقبائل لا يحصبها حصر من الصيادين والرعاة وهم فقراء جشعون جياشون بالثورة والعصيان ، متصفون بالحرأة عند اشتباك القتال وهم أشوق ما يكوُنون إلى انتهاب ثمار الكدح والجد الذي يبذله من يجاورهم من شعوب عاملة . كان العالم المتعربر يضطرم بدافع الحرب السريع الجياش ، وكان سلام بلاد الغال أو إيطاليا يتزلزل بما يثور في الصين من ثورات . فراح الهون الذين كانوا يفرون أمام عدو مظفر ، يجعلون وجهتهم الغرب ، وتزايد السيل وطها بمن كان ينضم إليهم من الأسرى والأحلاف . واتخذت القبائل الهاربة التي خضعت للهون ، روح الغزو بدورها ؛ وكان طابور البرابرة الذي لا نهاية له يضغط على الإمر اطورية الرومانية بقوة متجمعة متكاثفة . ولئن دُمر الأولون منهم ، لقد كان المكان الشاغر يملوء على الفور مهاجمون جدد . وليس في المستطاع بعد ذلك أن تجيء من الشيال مثل هاته الهجرات العاتية . فأما السكون الطويل الذي يعزى إلى نقص هدد السكان ، فهو النتيجة السعيدة لتقدم الفنون والزراعة . فبدلا من ألا" تقوم بألمانيا إلا بضع قرى خشنة متناثرة تناثراً بعيداً وسط غاباتها ومستنقعاتها ، فإن ألمانيا تُصدر اليوم قائمة بألفن وثلثمثة مدينة مسورة ؛ وتأسست على التعاقب ممالك الدانحارك والسويد وپولندة المسيحية . ومد تجار الهانسا ومعهم الفرسان التيوتون مستعمر الهم على امتداد ساحل بحر البلطيق ، حتى خليج فنلندة . ومن خليج فنلندة حتى المحيط الشرق ، تتخذ الروسيا الآن شكل إمبر اطورية قوية ممدنة . ويستقدم المحراث والمنوال والكور إلى ضفاف الڤولجا والأولى واللينا ؛ وعُلِنَّمت أشد قبائل التتار شراسة كيف ترتعد وتطيع .

« وكانت إمبراطورية روما راسخة البنيان بسبب تضامن أعضائها الفريد الكامل . ولكن هذا الاتحاد اشترى بضياع الحرية القومية والروح العسكرية ؛ وكانت الولايات الذليلة وهى خلو من الحياة والحركة ، تتوقع أن تكون سلامتها على يد الجيوش والحكام المرتزقة الذين كانوا يأتمرون بأوامر بلاط بعيد الشقة . وكانت سعادة مئة مليون من الأنفس تتوقف على الجدارة الشخصية لرجل أو رجلين ، ربما كانا طفلين ممن

أنسد عقولهم طراز تربيتهم وترفهم وسلطتهم الاستبدادية . وأوربا اليوم مفسمة إلى اثنتي عشرة مملكة فوية وإن تكن غير متعادلة ، ثلاث منها إمير اطور بات عظمي ، هذا إلى عدد من الدول الصغرى ، وإن كانت مستقلة . فالفرص أمام مواهب الملوك والوزراء تضاعفت ، وذلك على الأقل بقدر تكاثر عدد حكامها . وربما نولى الأحكام في الشيال چوليان آخر (أي فردربك الأكبر) أو سمير اميس أخرى (يعني كاترين الكبيرة قيصرة الروسيا) ، على حين يغلب النعاس من جهة أخرى على أركاديوس (اويس السادس عشر) ، وهو نوريوس (اشارل الثالث ملك أسبانيا) ، الجالسين على عرش آل بوربون . وقد أوقفت مساوئ الطغيان عند حدها نتيحه لما للخوف والخبجل من تأثير متبادل . فاكتسبت الجمهوريات النظام والثبات ، وانطوت الملكيات على مبادئ الحرية ، أو مبادئ القصد والاعتدال على أقل تقدير ؛ ودسَل إلى أشد الدساتير نقصاً شيء من معنى الشرف والعدالة بفضل ما ساد الزمان على الجملة من خلق حسن . وفي زمن السلم كانت سرعة تقدم العرفان والصناعة تزداد بتنافس متل هذا الحجم من المتبارين الناشطين . وفي زمن الحروب سمرس القوات الأوربية بنضال معتدل غير حاسم . فلوخوج من صحراء النتار عاز متبربر ، نلا بدُّ له من أن يقمع على التوالى فلاحي الرُّوسيا الأشداء ، فجيوش ألمانيا العابيدة ، فنبلاء فرنسا الشجعان فرجال بريطانيا الأحرار الجريثي الحنان ، الذين لعلهم يتحالفون من أجل دفاعهم المشترك . ولو أن البوابرة المظفرين حلوا الاسترقاق والتدمير حتى المحيط الأطلسي ، لنقلت عشرة آلاف من السفن بقايا الجاعة الممدنة إلى حيث لا تنالها أيديهم، وعند ذلك تنتعش أوربا مزدهرة في العالم الأمريكي المليء بمسعمراتها ونظمها .

و والبرد والفقر وحياة الخطر والمتاعب تخلع على قوة البرابرة وشجاعهم متعة وحصانة . ولقد كانوا في كل عصر كلا يوقع فادح المتاعب على أهل التأدب والسلام من أمم الصن والهند وفارس ، الذين أهملوا ومما يزالون بهملون أن يقيموا لأنفسهم عماداً يوازن تلك القوى الطبيعية بالالتجاء إلى موارد الفن العسكرى . وكانت الدول الحربية الزعة في الأزمان القديمة أمثال الإغريق ومقدونيا وروما ، تغني جساً من الجنود ، فتمرن أجسامهم ، وتنظم شجاعتهم وتكثر من عددهم بما تحدث في قواتهم

من تطورات منظمة ، وتحول ما فى حوزتها من حديد إلى أسلحة متينة نافعة . ولكن هذا الاستعلاء الحربى ما لبث أن انحط بالتدريج وبشكل غير محسوس بظهور قوانيهم وآداب سلوكهم . وأدت السياسة الضعيفة التى انتجها قسطنطين وخلفاؤه إلى تسليح المرتزقة البرابرة وتدريب شجاعتهم الحشنة على فنون القتال ، فعاد ذلك على الإمبر اطورية بالحراب . ولقد غير اختراع البارود كل أصول الفن العسكرى ؛ والبارود يطوع للإنسان السيادة على أقوى عوامل الطبيعة شكيمة وها الهواء والنار . ووضعت علوم الرياضيات والكيمياء والميكانيكا والعارة فى خدمة الحرب ؛ وأخذ كل خصمين مننازعين يطبقان على بعضهما البعض أحكم طرائق الهجوم والدفاع . وربما لاحظ بعض منازعين يطبقان على بعضهما البعض أحكم طرائق الهجوم والدفاع . وربما لاحظ بعض مزدهرة والمحافظة عليها . ومع ذلك فليس فى مستطاعنا أن نتكدر لأن نخريب مدينة المؤرخين فى شيء من الفضب أن نفقة معدات الحصار قد تكفى لتأسيس مستعمرة على لابد أن يتكلف ثمناً غالباً وأن تعترضه صعوبة كبيرة ، أو أن شعباً عبداً يجب مؤن تحميه فنونه ، التى تبقى بعد فناء وانحلال الفضيلة العسكرية والتي تكون من عوامل فلك الفناء . فالآن تنهض المد افع والتحصينات حاجزاً منيماً فى وجه خيل التتار ؛ كما أن أوريا أمست بمامن من أية غارة مستقبلة يشها البرابرة ؛ إذ أنه يجب عليهم قبل أن يفتحوا ويقهروا أن يتخلوا أولا عن همجيهم .

و فإن ساورك الشك في هذه الآراء ، أو تبينت خطأها ، فما يزال هناك مصدر متواضع للراحة والأمل . فإن مكتشفات الملاحين القدامي والعصريين والتاريخ الداخلي أو التقاليد لأشد الشعوب استنارة ، – تظهر و المتوحش الإنساني ، عارياً في كل من جسده وعقله ، ومجرداً من والقوانين والفنون والفكرات ، بل من اللغة تقريبا ، وعن هذه الأحوال الوضيعة ، ولعلها على وجه العموم حالة الإنسان البدائية ، ارتفع الإنسان شبئاً و فشيئاً ، إلى السيطرة على الحيوان وإلى تسميد الأرض ، وإلى اختراق بات المحات المحيط ، وإلى قياس أطباق السهاوات . وكان تقدمه في تحسين وتدريب مواهبه العقلية والجسمية منوعاً غير منتظم ، بطيئاً بطئاً لا نهائياً في البداية ، متزايد السرعة بعد ذلك منضاعفها درجة فدرجة . وكم تلت عصور الرفعة المضنية لحظات انجدار

سريع . وأحست أجواء الكرة الأرضية المختلفة تقلبات النور والظلام . على أن خبرة أربعة آلاف سنة ، يجب أن توسع آفاق آمالنا ، وأن تقلل من مخاوفنا . ولسنا بقادرين أن نبلغ الكمال . على أنه من الممكن أن يفكر المرء وهو على جانب الأمنة أن شعباً واحداً لن ينتكس إلى حالة همجيته الأصلية ما لم يتغير وجه الطبيعة .

و فنذ اكتشاف الفنون لأول مرة بثت الحروب والتجارة والحياسة الدينية بن متوحشى الأزمان القديمة والعالم الجديد ، تلك الهبات التي لا تقدر ، بأن طفقت تنشرها نشراً متعاقباً على الأجيال ؛ وإذن فليس في الإمكان أبداً أن تزول . ولذا فإنا نستطيع أن نوافق على ذلك الاستنتاج السار القائل بأن كل عصر في العالم قد زاد وما يزال يزيد - في الثروة الحقيقية والسعادة والعرفان لدى الجنس البشرى وربما زاد في فضيلته أيضائه.

١٤ - الهدنة الدينية تشارف نهايتها

ومن أمتع مظاهر قصة أوربا هذه في القرن السابع عشر ومستهل الثامن عشر ، اثناء دور الملكيات العظمي والبرلمانيسة ، ما نراه من الاستسلام النسي في العمال والفلاحين . والظاهر أن نيران العصيانات التي شبت إبان القرون الرابع عشر والحامس عشر والسادس عشر قد خمدت تماماً . ذلك بأن بعض التسويات الحشئة الفجة خفضت من حدة الحلافات الاقتصادية في الفترة السابقة ، إذ أحدث اكتشاف أمريكا انقلاباً وتغييراً في معيار الأشغال التجارية والصناعة ، وأدخل إلى أوريا قدرا ضخماً من المعادن النفيسة فصنعت نقودا ، وزاد في العمل ونوعه . وامتنعت أسباب الشقاء المعادن النفيسة فصنعت نقودا ، وزاد في العمل ونوعه . وامتنعت أسباب الشقاء المعادن النفيسة فصنعت نقودا ، وزاد في العمل ونوعه . وامتنعت أسباب الشقاء المعادن النفيسة فصنعت نقودا ، وزاد في العمل ونوعه . وامتنعت أسباب الشقاء الفقراء . ولكن لم يحل هذا بالطبع دون وجود الكثير من الشقاء والتذمر الفردي ، أن كان الناس يعيشون وإلى جوارهم على مدى الدهر كله الفقراء ، بيد أن هذا الشقاء والتذمر كان موزعاً متناثراً . فأصبح من ثم همهمة لا تصل إلى الآذان .

وكان لعوام الناس فى الفترة السابقة فكرة يتبلورون حولها وهى فكرة الشيوعية المسيحية . وقد وجدوا فى أمثال ويكليف من القساوسة والعلماء المنشقين قيادة مثقفة .

وإذ أن الحركة الداعية إلى بهضة في المسيحية استنفدت قوتها ، وإذ أن العقيدة اللوثرية نكصت في زعامتها عن يسوع الناصرى إلى الأمراء البروتستانت ، فقد نضب معن ذلك التماس والتفاعل الذي تهيأ بين الأذهان الجديدة المطبقة المتعلمة وبين الأذهان الأمية . ومهما تبلغ ضخامة عدد الطبقة المهيضة الجانب ، ومهما يبلغ التطرف بشقاوتها ، فلن يكون في إمكانها القيام باحتجاج فعال حتى تصل إلى التكتل بواسطة تكوين فكرة عامة تجمع شهل أفرادها . فإن أصحاب الأفكار من متعلمي الرجال والنساء ألزم وأشد ضرورة لأية حركة سياسية شعبية منهم إلى أية عملية سياسية أخرى . فإن الملكية تتعلم الحكم عن طريق الحكم ، وإن للأوليجركية ... من أي سياسية أخرى . فإن الملكية تتعلم الحكم عن طريق الحكم ، وإن للأوليجركية ... من أي طراز كانت - لتعليماً تتلقاه من إدارتها للشئون ؛ ولكن ليس لدى الرجل العاى وأعني به الفلاح أو الكادح أى تجربة في الشئون الكبيرة ، فهو لا يستطبع أن يعيش سياسياً بغير خدمات المتعلمين وإخلاصهم وإرشادهم . فالإصلاح الديني أي الإصلاح الديني الأمراء ، قد قضى بتحطيمه للوسائل بغير خدمات المتعلمية على العالم الفقير وطبقة القسوس قضاء كبيرا وهم الذين جعلوا الإصلاح محكنا بإقناعهم الجمهور .

هذا ولم يفت أمراء الأقطار البروتستنية أن يدركوا منذ البداية أى عند ما استولوا على الكنائس الوطنية ، ضرورة الاستحواذ على الجامعات أيضاً . وكانت فكر مهم عن التعليم هى فكرة الاستيلاء على أذكياء الشبان واستخدامهم فى خدمة سادتهم . وكان التعليم يعد عندهم فيا وراء ذلك شيئاً ضاراً . وعلى ذلك لم يبق للفقر إلا وسيلة واحدة للتعلم هى الاستعانة بنصر يأخذ بيده . وبديهى أن جميع الملكيات العظمى كانت تشجع التعليم بطريقة هى بالمهر جانات أشبه ، ففيها أقيمت الأكاديميات والجمعيات الملكية ، ولكن هذه الأوضاع لم تفد إلا طبقة صغيرة من العلماء الخاضعين ، والجمعيات الملكية ، ولكن هذه الأوضاع لم تفد إلا طبقة صغيرة من العلماء الخاضعين ، ويقول وكانت الكنيسة كذلك تعلمت ألا تثق فى المتعلم الفقير . كذلك حدث فى الجمهورية العظيمة الاستقراطية المتوجة فى بريطانيا ، نفس التناقص فى الفرص التعليمية . ويقول هاموند فى بيانه عن القرن الثامن عشر : و إن كلا من الجامعتين القديمتين ، كانت المأضياء . وهناك فقرة فى ماكولى تصف حالة أكسفورد وما كانت عليه من بذخ

وأبهة هناه مختم القرن السابع عشر ، « هناه ما جلس مديرها اللوق أورموند الوقور في ثبابه الموشاة على عرشه تحت السقف المنقوش في المسرح الشلدوني (١) ، يحيط به مئات من المتخرجين كل في ثباب رتبته ، على حين كان يقدم إليه أنبل شبان انجلترة في دعة ووقار بوصفهم طلاباً للموجات الشرف العلمية . لقد كانت الجامعة قوة ، لا بالمعنى الذي يمكن أن تقال به تلك الكلمة عن جامعة مثل جامعة باريس القديمة ، التي كان العلم فيها يستطيع أن يجعل البابوات يرتعدون فرقاً ، بل بالمعنى القائل بأن الجامعة كانت جزءاً من الجهاز الأرستقراطي المعترف به . وماكان يصدق عن الجامعات ، كان يصدق عن المدارس العامة (٢) . فلم يكن التعليم في انجلترة مهد الجامعات ، كان يصدق عن المدارس العامة (٢) . فلم يكن التعليم في انجلترة مهد المحتمع ، بل مهد هيئة من الناس ، وليس مهد دولة ، بل مهد جنس من الحكام الملاك » . وكانت روح التبشير الدبني قد فارقت التعليم في كل أرجاء أوربا . وإلى هذا ، بل وأيضاً إلى تحسن الأمور بانتشار الرخاء ، ينسب طور الإستسلام هذا الذي ران بل وأيضاً إلى تحسن الأمور بانتشار الرخاء ، ينسب طور الإستسلام هذا الذي ران على الطبقات الدنيا . فإنهم فقدوا عقولم وألسنتهم ، وكان الطعام يقدم إليهم وكني . وكان المجتمع أشبه شيء بحيوان مسلوب الحيوية في أيدى الطبقة الحاكة .

وفضلا عن ذلك فقد دخلت تغيرات جسيمة على ما بين الطبقة والطبقة من تناسب. ومن أشق الأمور التي على المؤرخ أن يقفوها في مجتمع ما ، تقدير القبمة النسبية للأملاك الكلية ، التي تملكها في أى وقت أية طبقة خاصة في ذلك المجتمع فإن هذه الأمور تتقلب تقلباً سريعاً جداً. وتدل حروب الفلاحين في أوربا على دور تركز نسبي للأملاك في أيدى قلة من الناس بينا تشعر جاهير من الناس أنها قد شردت تركز نسبي للأملاك في أيدى قلة من الناس بينا تشعر جاهير من الناس أنها قد شردت عن أملاكها وهملتها حالة من السوء مشركة . وبذلك تنتهج خطة العمل الجمعي . كان هذا هو الزمان الذي تسنمت فيه أسرة الفوجر (٣) وأمثالها مراقي الرفعة والرفاهية ، وهو زمان مالية دويية . ويبدو أنه قد صاحب الاستراد الهائل للذهب والقضة والسلع إلى

⁽١) المسرح الشلدون : نسبة إلى حلبرت شلدون رئيس أساقفة كانتربرى في ١٦٦٣ بناء على نفقته بأكسفورد وقد صممه المهندس رن . (المترجم)

⁽ ٢) المدارس العامة Public Schools : هي المدارس الثانوية . (المترجم)

⁽٣) أمرة فوجر Fuggers : أمرة موابية من التجار كانت تعيش في أوجزبرج وبلغ من ثرائها أن كانت تنفق أحياناً على حملات ملوك ألمانيا المسكرية . (المترجم)

أوربا من أمريكا ، عودة لحالة ثراء أوسع انتشاراً بين الأفراد . وكان الفقراء على حالهم التي هم عليها من الشقاء والتعاسة ، ولكن لعله لم يكن هناك فقراء بمثل العدد الأولُ نسبياً ، كما أنهم كانوا مقسمين إلى أضرب عديدة من الطوائف التي لاتجمعها فكرات مشتركة . فأما في بريطانيا العظمي ، فإن الحياة الزراعية التي فككها وزلزل أركانها مصادرات الأملاك إبان الإصلاح الديني ، قد استقرت من جديد في نظام زراعة المستأجرين يعيشون من دون ملاك للأراضي عظام . وإلى جوار هذه المزارع الكبيرة ، كان ما يزال يوجد أراض كثيرة مشاعة لرعى سائمة القروبين الأفقرين ، كما كان هناك أراض كثيرة تزرع قطعاً عل أساس الملكية المشتركة للمجتمع. فأما الرجل المتوسط الحال ، وحتى النوع الأفقر منه من الرجال المرتبطين بالأرض ، فكانوا يعيشون عيشاً مطاقاً مقبولا في (١٧٠٠) . فإن مستوى الحياة وأعنى به فكرة ما قد يطاق من العيش ، كان مع ذلك في ارتفاع أتناء مستهل عهد الملكية العظمي . وبعد إنقضاء آن من الزمان ، تبدو عملية تركز البُّروه وأتجاهها إلى أعلى وكأنما قد استؤنفت. فإن ملاك الأراضي العظام أخذوا يضعون أيديهم على الأراضي ويطردون الزراع الأحرار الأفقرين زرافات ، وتزايدت من جديد نسبة الفقراء ونسبة القوم الدين كانوا يشعرون بأنهم يعيشون حياة من يحل بهم الفقر : وكان أكابر الرجال هم حكام بريطانيا العظمي الذين لا ينازعهم منازع ، فنصبوا أنفسهم لإصدار قوانان ــ هي قوانان السياجات (The Enclosure Acts) ــ وهي التي كادت تفضى إلى مصادرة الأراضي غير المسوّجة والأراضي المشاع ، لمصلحة كبار ملاك الأراضي قبل كل إنسان . وانحدر صغار الرجال إلى مرتبة الأجراء كاسبي الأجور بعرق الجبين في الأراضي التي كانوا يملكون نيها في أحد الأيام حق الفلاحة والرعى.

ولم يصل الفلاح فى فرنسا وأوربا عامة إلى مثل هذه الدرجة من الحرمان من ممتلكاته . فلم يكن عدوه هو صاحب الأرض بل الجابى ؛ فكان بُدفع إلى أرضه دفعاً بدل أن يدفع إلى خارج أراضيه .

ومع مضى العهد بالقرن الثامن عشر يتضح لنا من ادب ذلك الزمان ، أن معالجة شأن و الفقر و عادت فشغلت أذهان الناس ثانية ، فإنا تجد كتابا من متوقدى الأذهان بين الإنجليز من أمثال ديفو (١٣٥٩ – ١٧٣١) وفيلدنج (١٧٠٧–١٧٥٤)، يفكرون أعمق التفكير في هذه المسألة . ولكن لم يحدث حتى ذلك الحين انتعاش للفكرات الداعية إلى الشيوعية والمساواة الموجودة في المسيحية البدائية . شأن ما كان يميز أزمان ويكليف وهس (Huss) . فالبروتستانتية عند تمزيقها للكنيسة العامة ، مزقت ردحاً من الزمان فكرة التماسك العام ، وحتى لو صح أن الكنيسة العامة في القرون الوسطى فشلت فشلا تاماً في تحقيق تلك الفكرة ، فإنها كانت على كل حال رمزها .

وكان ديفو وفيلدنج رجلين أونيا خيالا عمليا أشد نشاطاً من خيال جيبون ، فأدركا شيئاً من العمليات الاقتصادية التي كانت قائمة على قدم في زمانهما ، وكذلك شأن أوليشر جولد سميث (١٧٧٨ – ٧٤) ، فإن قصيدته ، القرية المهجورة ، (١٧٧٠) ليست إلا منشوراً في موضوع السياجات متنكراً في زى قصيدة . ولكن ظروف جيبون لم تظهر قط الحقائق الاقتصادية أمام ناظريه ظهورا ناصعا جداً . فإنه كان يرى العالم في صورة كفاح بين التبربر والمدنية ، على أنه لم يدرك شيئاً من ذلك النزاع الآخر الذي كان (جيبون) يطفو فوقه ، وهو ذلك الكفاح الصامت غير المدرك ، كفاح عامة الناس ضد الرجال القادرين الأقوياء الأثرياء الأنانيين . فلم يدرك تجمع عوامل الضغط التي أوشكت للفور أن تعصف بكل التوازن القائم بين « ممالكه الإثنتي عشرة القوية غير المتعادلة » أعنى بين « إمبر اطورياته الحقرمة الثلاث » وما حولها من السفلة والزعانف من أصاغر المستقلين من الأمراء والأدواق الحكام ومن اليهم . وحتى الحروب الأهلية التي ابتدأت في المستعمرات البريطانية بأمريكا ، لم توقظه إلى إدراك قرب نشوء ما نسميه اليوم « بالديمقراطية » .

وقد يظن القارئ مما ظلنا نقوله حتى الساعة عن دفع الملاك العظام للمزارع الصغير والفلاح إلى خارج الأراضي ، وعن اختطاف أرض المشاع وتركيز العقار في أيدى طبقة قوية شرهة ذات امتيازات ، أن ذلك كان كل ما يحدث في الأراضي الإنجليزية في القرن الثامن عشر _إذ الواقع أنا اقتصرنا على ذكر أسوأ نواحي التغيير . وفي نفس الوقت الذي كان يحدث فيه هذا التغيير في الملكية ، كان يحدث تقدم عظم في

الزراعة . ونيس هناك إلا القليل من الشك في أن طرائق الفلاحة التي يستخدمها الفلاحون وواضعو اليد على الأرض والمزارعون الصغار ، كانت طرقاً عنيقة بالية مضيعة للجهد وغير منتجة نسبيًا ، وأن الملكيات والمزارع الحاصة الكبرى التي خلقتها قوانين السياجات كانت أكثر إنتاجاً بكثير من الطرق القديمة (يقول حجة من الثقات إنها كانت تنتج عشرين ضعفا) . فلر بماكان التغير أمراً ضروريا ، على أن ما فيه من الشر لم يكن راجعاً إلى حدوثه ، بل إلى أنه إنما حدث لكى يزداد الأثرياء ثراء والفقراء عدداً . أما منافعه فإن المالك الحاص الأكبر قطع الطريق دونها مختصاً بها نفسه . فوقعت المضرة على المجتمع وإن استفادت هذه الطبقة الفائدة العظمى .

وهنا نبلغ واحدة من أعظم مشاكل حياتنا في الزمن الحاضر ، وهي مسألة انحراف ثمار التقدم ومكاسبه عن طُريقها الطبيعي . فقد انقضت مثات من السنين – ظهر فيها بتأثير العلم والبحث بوجه رئيسي ، تحسن متواصل في طرائق إنتاج كل شيء تقريباً تحتاج إليه الإنسانية . فلو أن إحساسنا بالجماعة وعلمنا الإجماعي كانا معادلين للواجبات المفروضة عليهما ، فلن يكون هناك أدنى شك في أن هذه الزيادة الكبيرة في الإنتاج ، كانت تعود بالنفع على المجتمع بأكمله ، وكانت تتبيح لكل فرد قدراً من التعليم ووقت الفراغ والحرية لم تحلم الإنسانية قط بمثله من قبل . ولكن على الرغم من أن مستوى المعيشة العام قد ارتفع ، فإن الارتفاع تم بمعيار صغير غير مناسب. إذ أن الأغنياء طوروا لأنفسهم حرية وترفا لم يعهدهما العالم من قبل ، كما تزايدت نسبة الأغنياء والخاملين من الناجحين وغير المنتجين في المجتمع ؛ على أن هذا يفشل ف تعليل النفع الكامل المستفاد . إذ حدث نمة كثير من المضيعة التي لا فائدة تجني من ورائها ، فإن تجمعات هائلة من المادة والطاقة قد أنفقت في الحرب والاستعداد لها . وكرس شيء كثير من الجمهد في سبيل تلك الجمود غير المجدية ، التي تنفق و المنافسة الفاشلة في الأعمال التجارية . وظلت إمكانيات كشرة بلا تطوير وتنمية بسبب ما أبداه الملاك ومحتكرو السوق والمضاربون من معارضة لاستغلالها الإقتصادي. ولم تتناول الطيبات التي ظل العلم والتنظيم يقربـّانها إلى متناول يد الإنسانية ــ تناولاً ً

منهاجياً (١) ولم تستعمل إلى أقصى حلودها ، ولكن تخاطفتها الآيدى وتجاذبتها الأصابع واستمسك بها المغامرون المقامرون واستخدمت لغايات أنانية تمت إلى الغرور بسبب . وكان القرن الثامن عشر في أوربا وبوجه أخص في بريطانيا العظمي وبولئدة عصر الماكية الخاصة . وكان القدح المعلى فيه و المسعى الحاص ، (٢) الذي معناه في المارسة العملية أن لكل فرد الحق في الحصول على كل شيء يستطيعه من أشغال المجتمع . ولسنا نعثر في الروايات العادية والمسرحيات وما إليها من الأدب الممثل الزمان على أي إحساس بالتزام الأفراد بأى شيء نحو الدولة في شئون الأعمال . إذ أن كل إنسان منطلق و لتكوين ثروته ، وليس هناك من يلبرك أن من الخطأ أن يظل الإنسان طفيلياً على المجتمع غير منتج ، وأقل من هذا أن يشعر مالى أو تاجر الإنسان طفيلياً على المجتمع غير منتج ، وأقل من هذا أن يشعر مالى أو تاجر أو صاحب صناعة ، أنه يتناول لقاء خلماته للإنسانية أجراً أكثر مما ينبغي . كان الشعب المشاع ، يفترضون امتلاك المناجم التي تحت أراضهم ، ويحطمون صغار الشعب المشاع ، يفترضون امتلاك المناجم التي تحت أراضهم ، ويحطمون صغار المزارعين الملاك اك المناجم التي تحت أراضهم ، ويحطمون صغار تخام معناء هذا كله أية فكرة إلا أنهم إنما يعيشون عيشا جديرا تماما بكل كرامة تخام عد هذا كله أية فكرة إلا أنهم إنما يعيشون عيشا جديرا تماما بكل كرامة واستحقاق .

وكان يساير هذا التغيير في بريطانيا العطمي ، أعنى هذا الانتقال من فلاحة الرقاع التقليدية والمراعى المشتركة إلى الزراعة الكبيرة الأكثر اعباداً على العلم تغيرات عظيمة جداً في صناعة السلع . وكانت بريطانيا العظمى في القرن الثامن عشر زعيمة العالم في تلك التغيرات . فحتى ذلك الحين وعلى مسار التاريخ أجمع منذ بداية المدنيات ، كانت المصنوعات والمباني والصناعات في أيدى أرباب الحرف على وجه

⁽١) مَهَاجِياً Methodically : أَي مَتِماً لِلرَّتيبِ المنطق في البحث العلمي .

⁽ ٢) كلسمى الماص أو أبلهد الفردى Private Enterprise : جهود الأفراد فيالتجارة و الأعمال الجرة . (للترجم)

 ⁽٣) صفار المزراعين الملاك Yeomen : وكانت ملكيتهم مدى حياتهم فقط أو تتوارث بقيود .
 (المترجم)

معالم تاريح الإنسانية جـ 1 -

العموم وفى أيدى صغار المعلمين (الأسطوات) الذين كانوا يشتغلون في بيوتهم الخاصة . وكانت تنتظمهم نقابات ، وهم في معظم الأمر سادة أنفسهم وأصاب أعمالهم . فكانوا يكونون طبقة وسطى جوهرية مستديمة لها وزنها . وكان بينهم الممولُون الذين كانوا يخرجون الأنوال وما إليها ، ويزودون غيرهم بالخدمات ، ويأخلون السلمة التي تم ، على أنهم لم يكونوا ممولين كباراً . فلم يكن هناك أصاب مصانع أغنياء ، بل كان أغنياء العالم قبل ذلك الزمان هم أصحاب الأراضي العظام أو مسلفوا النقود أو المارسون لشئون النقود أو التجار . ولكن حدث في القرن الثامن عشر أن بدأت طريقة جديدة هي تجميع صناعات بعينها رغبة في إنتاج أشياء بمقادير أكبر بطريقة توزيع نظامى للعمل ، وشرع صاحب العمل عميزًا من المعلم (الأسطى) في أن يكون شخصاً هاما . زد على ذلك أن الاختراعات الآلية أخدت تنتج الآلات التي تسهل عمل الإنتاج اليدوى وتبسطه ، والتي كان في الإمكان دفعها بقوة الماء ثم للفور بقوة البخار . إذ ركبت في (١٧٦٥) آلة وات Watt البخارية ، وهو تاريخ عظيم الأهمية في تاريخ الحركة الصناعية. . وكانت صناعة القطن من أوائل الصناعات التي تحولت إلى الإنتاج في المصانع (وكان ذلك في الأصل بواسطة آلات تدفعها المياه > وتلى ذلك صناعة الصوف. وفي نفس الوقت بلحأت صناعة صهر الحديد إلى فحم الكوك المصنوع من الفحم الحجرى وكانت حتى ذلك الحين تقتصر على أساليب صغيرة تعتمد على الفحم النباتى. وابتدأت صناعات الفحم والحديد كذلك فى الانتشار. وانتقلت صناعة الحديد من أرض ساسكس (Sussex) وسرى (Surrey) المليئة بالغابات إلى مناطق الفحم . ولما وافت (١٨٠٠)كان هذا الانقلاب في الصناعة قد سار شوطاً صالحا وانتقل بها من الانتاج الصغير بما يصحبه من أصحاب الأعمال الصغار إلى الإنتاج الكبر في كنف أصحاب أعمال كبار . فنشأت في كل مكان مصانع استعملت الماء بادئ بدء ثم ننت بقوة البخار . كان تغيرا ذا أهمية جوهرية في الاقتصاد البشري. ومنذ فجر التاريخ كان صاحب المصنع وصاحب الحرفة كما قلنا نوعاً من أهل المدن أبناء الطبقة المتوسطة

فالآن حلت محل مهارته الآلة وصاحب العمل ، فأما هو فإنه أصبح إما

صاحب عمل يستخدم إخوانه ، ويرق درجات الغنى إلى حد النساوى بالطبقات الفنية الأخرى ، أو ظل صانعاً وانحط سريعاً إلى مستوى العامل الأجبر ، ويعرف هذا التغير العظيم في الشئون الإنسانية بامم الانقلاب الصناعي أو الثورة الصناعية . وقد بدأ ذلك الانقلاب في بريطانيا العظمي وظل ينتشر طيلة القرن التاسع عشر إلى العالم أجمع

ومع تقدم الزمن بالثورة الصناعية ، إنفتحت هوة عظيمة بن صاحب العمل المستخدم لغيره والعامل المستخدم الأجير في الماضي كان كل عامل و منتج » يمني النفس بأن يصبح يوما ما معلما (أسطى) مستقلا . وبلغ الأمر بأصحاب الحرف الأرقاء في بابل وروما أن كانت تحميم قوانين كانت تمكنهم من إدخار المال وشراء حريبهم وإقامة عمل مستقل لأنفسهم . أما الآن فقد أصبح المصنع وعدده وآلاته شيئاً ضخا باهظ النفقة ، بالقياس إلى قدرة الصانع المالية . ولذا صار لزاماً على الأغنياء أن يجتمعوا لينشئوا مشروعا . وكان الاقيان ومعدات المصنع وأعنى مهما و رأس المال » لازمين مطلوبين . ولم تعد إقامة الصانع و عملا مستقلا بنفسه ، مطمحاً طبيعاً لمهرة الصناع . ومن ثم أصبح العامل منذ ذلك الحين عاملا من مهده إلى لحده . ونشأت عند ذلك بالإضافة إلى أصحاب الأراضي والتجار والماليين الذين كانوا يمولون الشركات التجارية ويقرضون أموالم المتجار والدولة ، نشأت عند ذاك هذه الثورة الناتحة من رأس المال الصناعي - وهي ضرب جديد من القوة في الدولة .

وإنا لهدائوك عما قليل ، كيف نهضت تلك البدايات حتى بلغت تمامها . وكان الأثر المباشر للثورة الصناعية فيا حلت به من أقطار ، أن أحدثت إنتقالا أيما وهزة عظيمة بين عوام السكان الصامتين غير المتعملين الذين لا زعيم لهم والذين أصبحوا الآن محرومين من الأملاك حرمانا يتزايد أكثر فأكثر . فأما صغار المزارعين والفلاحين — وقد قضت عليهم قوانين السياجات وأخرجتهم من أراضهم — فإنهم انتقلوا إلى المناطق الصناعية الجديدة ، وهناك انضموا إلى عائلات أصحاب الحرف الذين عضهم الفاقة وانحطت مكانتهم في المصانع . وظهرت في الوجود مدن كبيرة مكونة من منازل قدرة . وما نخال أن إنسانا لاحظ في وضوح ، ماذا كان يجرى في ذلك

الزمان . فالفكرة الأساسية لأرباب مذهب و المسعى الخاص و هي أن يلزم كل امرى شأنه ، وأن يحصل على أقصى ربح في مستطاعه ، وأن يغفل كل ما عدا ذلك من عواقب . ونحت مصانع قبيحة الشكل ، بنيت بأرخص ما يمكن من نفقة ، لتضم أكبر عدد ممكن من الآلات والعال . وتجمعت حولها شوارع تموى منازل العال ، وقد بنيت بأرخص الأسعار ، دون أى إنساع ودون أى انفصال عن الجيران ، ودون أى مظهر من مظاهر اللياقة والاحتشام تقريباً ، مع تأجيرها للعال بأقصى ودون أى معتمه عليم . وكانت هذه المراكز الصناعية الجديدة ، بلا مدارس ولاكنائس بادى الأمر .

وكان الجنتلان الإنجليزى الذى عاش فى الهزيع الأخير من القرن الثامن عشر يقرأ السفر الثالث من جيبون ثم يقبل على نفسه بالنهنئة لأنه ثم يعد يوجد منذ ذلك الحين أى خوف خطير من الهمج المتبربرين ، على حين أنه على قيد بضع خطوات من باب منزله كانت هذه الهمجية الجديدة تشب وتنمو ، كما كان هذا التحول ، اللي كان يحيل أبناء وطنه شيئاً حالكاً معها لا رجاء فيه ، يسير بأشد قوة وأقصاها .

الفصل عامر والتهاثون

الجهوريات الديمقراطية الجديدة بامريكا وفرنسا

٢ - متاعب نظام الدولة العطبى .
 ٧ - المستعمرات الثلاث عشرة قبل عصيانها .
 ٩ - الجمهورية العرفسية المتوجة ٨٩ - ٩١ - ٠
 ٣ - الحرب الأعلية تفرض على المستعمرات قرضا .
 ١١ - جهورية اليعاقبة .
 ١١ - جهورية اليعاقبة ١٩٩١ - ١٧٩٤ .
 ١١ - حكومة الإدارة .
 ٢ - المفاعر البدائية للمتور الولايات المتحدة .
 ٢ - الفكرات الثورية في فرنسا
 ٧ - الفكرات الثورية في فرنسا

١ _ متاعب نظام الدولة العظمى

عنداما كان جيبون بهنء منذ قرن ونصف من الزمان عالم الأناسي المهذبين المتعلمين بأن عصر الكوارث السياسية والاجتماعية قد ولى" ، كان بهمل دلالات كثيرة كنا نستطيع بعد أن مرت بنا أحداث التاريخ وحقائقه الواقعة أن نخره بأنها تحمل في طياتها النفر بهزات وتقلقلات أفلح ثقلا من أى شيء توقعه . ولقد خمر ناك كيف أن كفاح أمراء القرنين السادس عشر والسابع عشر من أجل الرفعة والمنافع تطور إلى كفاح أكثر مكراً ودهاء وأشد تعقداً بين وزارات معبودات ومثلا عليا مع تقدم المهد بالقرن الثامن عشر . وتطور فن الدبلوماسية المعقد العريض الدعاوى . ولم يعد و الأمير ، متآمراً مكيا قليا يعمل في الحفاء ، وأصبح عجرد الرمز المتوج لحطة مكيا قلية . فانقضت بروسيا والروسيا والنمسا على يولندة واقسمتها . وتورطت فرنسا في تدابير عميقة ضد أسهانيا . وخاتلت بريطانيا «خطط فرنسا » في أمريكا واستحوذت على كندا . وتفوقت على فرنسا في الهند . عند ذلك خرنسا في الهند . عند ذلك حدث أمر جلل ، أمر عدته الدبلوماسية الأوربية مزعجاً جداً . فإن المستعمران

البريطانية فى أمريكا رفضت رفضاً باتاً أن يكون لها بعد ذلك أى دور أو نصيب فى لعبة «الدول العظمى» هذه . إذ أنهم دفعوا بأنهم قوم ليس لهم صوت ولا مصلحة كبيرة فى هذه الحطط والمنازعات الأوربية ، ورفضوا أن يتحملوا أى نصيب من عبء الضرائب التى تجرها تلك السياسات الخارجية ، وكانت الفكرة المتسلطة عليم هى أن « الضرائب بلا تمثيل نيابي استبداد وطغيان »

وغنى عن البيان أن هذا العزم على الانفصال لم يتفجر كاملا سوى الخلُّق من العقل الأمريكي منذ بداية هذه المتاعب . فقد كان الرجال العاديون في أمريكا في القرن الثامن عشر مثلما كانوا في انجلترة في القرن السابع عشر ، في رضاء تام بل رغبةً أكيدة في الواقع في ترك الشئون الخارجية في يد الملك ووزرائه . ولكن كانت هناك رغبة تعادل هذه في القوة من جانب الرجال العاديين أنفسهم هي ألا تقرر عليهم الضرائب ولا يتدخل في شئون اتجاهاتهم العادية مندخل . ولكن هاتين الرغبتين متعارضتان . فإن الرجال العاديين لايستطيعون أن يتنصلوا من السياسة العالمية وأن يستمتعوا في نفس الوقت بالحرية الحاصة ، ولكن تعلمهم هذه الحقيقة اقتضاهم أجيالًا لاتقع تحتّ حصر . وعلى ذلك فإن أول ما ظهر من اعتراض في العصيان الأمريكي على حكومة بريطانيا ، كان مجرد تذمر من الضرائب ، ومن الندخل اللَّى تَبُّع بِالْضُرُورَةِ ﴿ السَّيَاسِيَةِ الْحَارِجِيَّةِ ﴾ دون أي تمييز واضح لما كان ينطوي عليه ذلك الاعتراض . ولم يحدث إلا عندما بلغ العصيان ذروته ، أن سكان المستعمرات الأمريكية ميزوا حقاً تمييزاً واضحاً أنهم رفضوا وجهة نظر « الدولة العظمي » في الحياة . وكانت العبارة التي عبرت عن ذلك الرفض هي وصية واشنجتون ﴿ بتجنب المحالفات المورطة ٤ . ومن ثم فإن المستعمرات البريطانية المتحدة بأمريكا الشمالية ظلت قرنا كاملا وقد تحررت واستقلت تحت اسم الولايات المتحدة الأمريكية – بمنآة تامة عن المؤامرات والمنازعات الملطخة باللماء بين وزارات الحارجية الأوربية . وسرعان ما استطاعوا بعد (۱۸۰۱ إلى ۱۸۲۳) أن يمدوا مبدأهم الانفصال إلى سائر أجزاء ٠٠ القارة ، أو يجعلوا العالم الجديد أجمع ﴿ محظوراً ﴾ على من في العالم القديم من أصاب هوامرات التوسع الاستعاري ومدبري خططه . وعندما اضطروا آخر الأمر في

۱۹۱۷ أن يدخلوا ثانية إلى مجتلد^(۱) السياسة العالمية ، كان هدفهم من ذلك أن يزجوا في معقدات العلاقات الدولية ، بالروح الجديدة والأغراض الجديدة اللواتي مكنهم ترفعهم من تطويرها . على أنهم لم يكونوا مع ذلك أول من ترفع . فنذ معاهدة وستفاليا (١٦٤٨) حافظت ولايات سويسرا الاتحادية في معاملتها الجبلية على حقها في الانعزال عن خطط الملوك والامراطوريات .

ولكن لما كانت شعوب أمربكا الشهالية مقدمة الآن على القيام بدور فى تاريخنا تتزايد أهميته ، فإن من الخير أن نقسم لهم من عنايتنا قسها أوفى قليلا مما قسمناه لتطورهم حتى الآن . ولقد سبق أن ألقينا نظرة إلى هذه القصة فى القسم العاشر من الفصل السابق . ولسوف نزيدك من فورنا إيضاحاً – وإن كان ذلك فى حدود أبسط المعالم – عن أحوال تلك المستقرات ، التى كان عنادها سبها فى تلك المضايقة لملك بريطانيا العظمى ووزرائها فى لعبهم السياسية ضد سائر بنى الإنسان .

٢ - المستعمرات الثلاث عشرة قبل عصيانها

تبين الحريطة المرافقة امتداد المستعمرات البرايطانية في أمريكا في النصف الأول من القرن الثامن عشر . والتظليل الأقتم يمثل المناطق التي سكنت في ١٧٠٠ ، ويمثل المنظليل الأخف نمو المستعمرات (المستقرات) إلى ١٧٦٠ . وسيرى القارئ أن المستعمرات كانت مجرد حافة من السكان على طول الساحل ، تمتد إلى الداخل شيئاً فشيئاً وتعترض سبيلها جبال ألكيجاني والجبال الزرقاء حتى لتعد حاجزاً خطيراً جداً . ومن أقدم هذه المستقرات مستعمرة فرچينيا ، التي يخلد اسمها ذكرى الملكة البزابث ، ملكة انجلترة العذراء . وأول حملة لإنشاء مستعمرة بقرچينيا قام مها السيد والتررائي في ١٥٨٤ ، ولكن ذلك الزمان لم يكن يتم فيه استقرار مستديم ، ومن ثم ترجع بدايات فرچينيا الحقيقية إلى يوم تأسيس الشركة الفرچينية في ١٦٠٦ ، إبان حكم چيمس الأول الحقيقية إلى يوم تأسيس الشركة الفرچينية في ١٦٠٦ ، إبان حكم چيمس الأول

^(1) المجلد (Arena) : هو حلبة المباراة والمنارلة عند الرومان . (المترجم) .

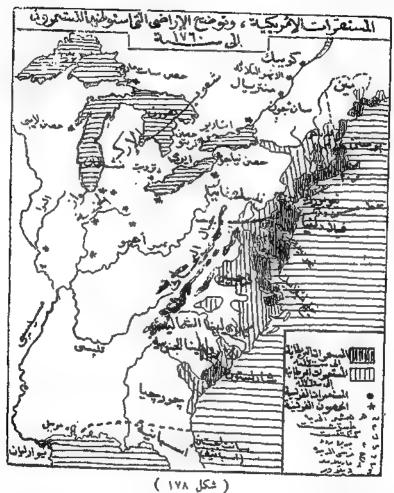
تزوجت الأمرة الهندية پوكاهونتاس من أحد رجاله الأماثل لتشكل قطعة أدبية كلاسبكية هي ورحلات چون سميث ،(١) . ولتي الڤرچينيون أول بوادر اليسار في زراعتهم الطباق. وفي نفس الوقت الذي تأسست فيه الشركة الڤرچينية ، حصلت شركة بليموث على مرسوم يخول لها الاستقرار في الأراضي الواقعة إلى الشمال من ه مضيق الجزيرة الطويلة (٢٦) ، لونج أيلند التي ادعى الإنجليز ملكيتها . ولكن الناس لم يشرعوا يستقرون في المناطق الشهالية إلا في (١٦٢٠) ، وذلك بموجب مراسيم جديدة . وكان المستعمرون في المنطقة الشهالية (نيو إنجلند) التي أصبحت كونكتي كتّ ونيوهمبشير ورود آبلاند وماساشوستس ، رجالًا لهم طابع يخالف طابع الڤرچينيين ، فإنهم كانوا بروتستانت،متلمرين مما أبدت الكنيسة الإنجيلية من موادعة ، كما كانوا رجالا ذوى روح جمهورية لا مأمل لديهم في مقاومة ملكية چيمس الأول أو شارل الأول العظمي . وكانت سفينتهم الأولى هي زهرة مايو May Flower التي أنشأ ركابها مدينة نيوپليموث في ١٦٣٠ . وكانت أهم المستعمرات الشهالية هي ماساشوستس . وأدت الفوارق في الطرائق الدينية واختلاف الفكرات عن التسمح الديني إلى تفرقة المستعمرات الثلاث البيوريتانية الأخرى عن ماسا شوستس . ومما يوضح المعيار الذي كانت تقوم عليه الأمور في تلك الأيام أن ولاية نيو همبشر بأجمعها قد ادعى تبعيتها له شخص معين اسمه الكابَّن چون ماسون ، وأنه عرض أن ببيعها للملك (وهو الملك شارل الثاني في ١٦٧١) مقابل استبراده ثلاثمثة طن من النبيد الفرنسي ــ معفاة من المكوس الحمركية ــ وهو عرض رفضه الملك . واشترت ولاية ماساشوستس ولاية مين Maine الحالية من مدحى ملكيتها بمبلغ ألف ومثتن وخسن جنها .

وفى إبان الحرب الأهلية التي انتهت يقطع رأس الملك شارل الأول ، كانت عواطف نيو إنجلند منحازة إلى جانب الدلمان . وكانت قرچينيا من أنصار فرسان

John Smith's Travels (1)

Long Island Sound (Y)

الملك ، ولكن كان يفصل بين هاتين المستعمرتين (١٠ مثنان وخسون ميلا، ولذا لم يحدث بينهما احتكاك خطير . وصحب عودة الملكية في ١٦٦٠ تطور قوى في الاستعار



البريطانى بأمريكا . إذ كان بشارل الثانى ومن حوله من خلطاء شراهة للمال ، فضلاعن أن التاج البريطانى فقد رائماً كل رغبة فى أن يقوم بتجاريب أخرى لفرض الضرائب غير المشروعة فى أرض الوطن . غير أن العلاقات غير المحددة بين المستعمرات وبين

 ⁽١) المستقرات والمستعمرات والمستوطنات : تستعمل هنا يمنى واحد والمؤلف في الإنحابزية يستعمل
 كلمني (Settlement, Colony) ولا تنطويان على معنى الاستجار ألحالى . بل على معنى الاستيطان والتعمر .
 (المدرجم)

التاج والحكومة البريطانية لاح فيها بوادر بعض الأمل في القيام بمغامرة مالية وراء المحيط الأطلسي . فحدث تطور سريع في المزارع الواسعة الرقعة وفي مستعمرات الملاك , وكان اللود بالتيمور أقام قبل ١٦٣٢ مستعمرة لتكون للكاثوليك ملجأ يستمتعون فيه بالحرية الدينية تحت الإسم الحذاب مارى لاند ، إلى الشمال وإلى الشرق من فرچينيا . وعندالله استقر و پن ، الكويكرى (الذي أدى والده لشارل الثاني خدمات جليلة ﴾ إلى الشيال من فيلادلفيا وأنشأ مستعمرة بنسلڤانيا . وقد حدد تخومها الرئيسية مع مارى لاند وڤرچينيا ، رجلان هما ماسون وديكسون ، اللذان قدر الحطهما وخط ماسون وديكسون ، أن يكون بالفعل خط تقسيم هاماً جداً فيما تلى ذلك من شئون الولايات المتحدة . ومن قبل ذلك سقطت كارولينا في أيدى الإنجلمز فسكنوها في جهات متعددة . وكانت كارولينا هذه في الأصل مؤسسة فرنسية بروتستانتية غير ناجحة ، وكانت تدين باسمها لا لشارل الثاني (كارلوس) ملك انجلترة ، بل لشارل التاسع الفرنسي . وكان يمتد بين مارى لاند ونيو انجلند عدد من المستعمرات الصغيرة الهولندية والسويدية ، كانت المدينـــة الرئيسية فيها هي تيو أمستردام . وقد استولى البريطانيون على همله المستعمرات من الهولنديين في ١٦٦٤ ، ثم خسروها مرة ثانية في ١٦٧٣ ، واستعيدت بالمعاهدة التي أبرم بها الصلح بين هولندة وانجلترة في ١٦٧٤ . وبهذا غدا الساحل كله من مين إلى كارولينا (ممتلكة بريطانية بطريقة ما أو بأخرى). وكان الأسبان مستقربن إلى الجنوب ؛ وكان مقرهم الأكبر في قلعة سانت أوغسطين في فلوريدا ، وفي ١٧٣٣ سكن مدينة سافانا رجل محب للإنسانية هو « أوجلي ثورپ ، الإنجليزي ، وقد مست قلبه الرحمة بالفقراء المسجونين وفاء لدينهم في انجلترة ، ومن ثم أنقذ من السجن عدداً منهم فأصبحوا مؤسسي مستعمرة جديدة ، هي چورچيا التي أصبحت حصناً منيعاً يقف في وجه الأسبان . ومن ثم نجد عند منتصف القرن الثامن عشر هذه المستقرات ممتدة بإزاء الساحل الأمريكي وهي : مجموعة نيو إنجلند المكونة من البيوربتانة والبروتستانت الأحرار ، وهي : ــ مين (التابعة لماساشوستس) ، و نيو همبشير وكونكني كت ورود أيلاند وماساشوستس ؛ والمجموعة المنتزعة من الهولنديين التي كانت انقسمت آنذاك إلى نيوبورك (وهو الإسم الجديد لمدينة نيو أمستردام) ونيو چرسى وديلاوير (وكانت سويدية قبل أن تصبح هولندية ، وألحقت فى أبكر أدوار تبعيتها البريطانية بينسلڤانيا) ثم جاءت مارى لاند الكاثوليكية ، وفرچينيا الفرسانية ، وكارولينا (التي قسمت للوقت إلى شمالية وجنوبية) ثم چورچيا ومنشأة أو جلى ثورپ ، ثم التجأ إلى چورچيا بعد ذلك عدد من البروتستانت التيرولين ، وهاجرت إلى پنسلڤانيا أعداد ضخمة من طبقة صالحة من الزراع الألمان .

تلك هي الأصول المخلطة لمواطني المستعمرات الثلاث عشرة . ولابد أن قيام أية وحدة وثيقة فيها بينها في يوم من الأيام كان يبدو في عن أي أمرى عنر متحيز يراقب الأمور في ١٧٦٠ احمَّالا ضعيفاً جدا . ومما زاد الأمر سوءاً أن اجتمع إلى الفوارق السابقة فروق أخرى ولكها المناخ . فإلى الشيال من خط ماسون ديكسون كانت الزراعة تمارس على اساس القواعد المتبعة في بريطانيا وأوربا الوسطى وعلى يه زراع أحرار من البيض. واكتست المنطقة المسكونة في نيوانجلند بثوب مشابه للريف الإنجلىزى ﴾ ونشأت في مساحات مترامية من پنسلڤانيا حقول ودور ريفية تشبه ما في جنوب ألمانيا . وكانت للظروف الممزة في الشهال آثار هامة من الناحية الاجتماعية . إذ كان لزاماً على السادة ورجالهم أن يعملوا يداً ليد بوصفهم سكان غابات خلفية (١) فتمت التسوية بينهم أثناء ذلك . أجل إنهم لم يبدأوا العمل متساوين . فإن قائمة السفينة ، ماى فلاور ، تحوى أسماء كثير من الحدم ولكنهم سرعان ما أصبحوا متساوين جميعاً في ظل ظروف المستعمرات ، فكان هناك ـــ مثلا ـــ متسع عظيم من الأرض يمكن امتلاكه بوضع اليد عليه ، وكان الخادم ينطلق ويأخذ الأرض مثل سيده وهنا اختنى نظام الطبقات الإنجليزي . ونشأت في أكناف هذه المستعمرات مساواة ، في ملكات كل من الجميم والعقل ، . وظهر استقلال فردى في الحكم على الأشياء تأخذه حمّية الأنف لأى تدخل من جانب انجلترة . ولكن ابتدأت زراعة الطباق إلى الجنوب من خط ماسون وديكسون ، وكان المناخ

⁽١) الفايات الخلفية ؛ أراضي غابات غير مزدرعة تقوم وراء الأرض المزروعة بمنأى من المعن والمستقرات . (المترجم)

الأدفأ مشجعاً على إنشاء المزارع الضخمة وما بها من مناسر العمال . فحاولوا بادى الرأى استخدام الأسرى من الهنود الحمر ولكهم وجدوا بهم ميلا شديداً إلى سفك الدماء البشرية . وأرسل كرومويل أسرى الحرب الإيرلنديين إلى ڤرچينيا ، وهو أمركان له أثره البالغ في استرضاء أفئدة المزارعين الملكبين على الجمهورية ومبادئها , وكان المحكوم عليهم يرسلون إلى هناك ، واتسعت التجارة في الأطفال المخطوفين الذين كانوا ، يرسلون خفية ، إلى أمريكا لكي يصبحوا صبياناً في صناعة (١) أو عبيداً أرقاء . ولكن أثبتت الأيام أن أوفق شكل من أشكال مناسر(٢) العال إنما هو منسر العبيد الزنوج. وقد اجتلبت سفينة هولندية أول فوج من الزنوج إلى (چیمس تاون) من مدن ڤرچینیا فی زمن مبکر برجع إلی ۱۹۲۰ . ولما وافت ۱۷۰۰ كان الأرقاء الزنوج منتشرين فى كل أرجاء الولايات ، بيد أن ڤرچينيا ومارى لاند والكارولينتين كانت مناطق استخدامهم الرئيسية ، وعلى حين كانت المجتمعات في الشمال مجتمعات من زراع غير كبيرى الثراء وغير كبيرى الفقر ، فإن الجنوب طور طرازًا من المالك الكبير ومجتمعاً أبيض من المشرفين وأرباب الحرف يعيشون على العمال الأرقاء . فكان المال الأرقاء ضرورة اقتضاها النظام الاجتماعي والاقتصادى الذي نما في الجنوب ، وكان وجود الأرقاء في الشيال أمراً لا ضرورة له بلكان من بعض الوجوه أمرا مزعجاً : لذلك وجدت اعتراضات أصحاب الضمائر الحية على الاسترقاق في جو الشهال مجالا أرحب لتطورها وازدهارها . ولابد لنا من عودة إلى هذه المسألة ، مسألة انبعاث الرق من جديد ، عندما نأخذ في التأمل فيها تتعرض له الديمقراطية الأمريكية من دواعي الارتباك . ونحن هنا إنما نلحظها في بساطة بوصفها عاملًا إضافياً إلى ذلك الخليط المتنافر في المستعمرات البريطانية .

ولكن لأن كان سكان المستعمرات الثلاث عشرة أنواعاً شي في أصولهم متخالفين في عاداتهم واتجاه عواطفهم ، لقد كانت تجمعهم معاً خصومات تلاث : فكانت لهم مصلحة مشتركة ضد الهنود الحمر . وتقاسموا ردحا من الزمان خوفا

⁽١) وهم الدين يعبر عنهم الآن ناسم تلامية صناعيين . (المترجم)

⁽ ٢) مناسر البال Gang Labour : هي جاعات العال التي تجمع لأداء عمل ما . (المترجم)

مشتركا من الفتح والسيادة الفرنسيين ۽ وكانوا في الثالثة ــ مشتركين بأجمعهم في النضال ومدعنيات التاج البريطانى والأنانية التجارية للأوليجركية الجشعة التي كانت تسيطر على البرلمان البريطاني والشئون البريطانية : فأما الخطر الأول وهو الهنود ، فكان شرا مستديما ولكنه لم يزد قطعن مجرد تهديد ينذر بالشر ، إذ إنهم ظلوا منقسمين على أنفسهم : ومع ذلك فلقد ظهرت عليهم في يعض الأحيان احيًالات تبشر بالامتزاج وتوحيد الجهود على معيار كبير . فإن الشعوب الخمسة في عصبة القبائل الإيروكوازية (Iroquois) (راجع خريطة مستعمرات ١٧٦٠) كانت عصبة قبائل هامة جدا. بيد أنها لم تنجح في حمل الفرنسين على العمل ضد الإنجليز لكي تضمن لنفسها الأمان ، ولم ينشأ بين مرتحلة العالم الجديد هؤلاء چانكيزخان هندى أحمر . وكان العدوان الفرنسي تهديدا أخطر ، ولم يقم الفرنسيون أبدا بإنشاء مستعمرات في أمريكا على معيار ينافس المستقرات الإنجليزية . بيد أن حكومتهم انجهت إلى تطويق المستعمرات وإخضاعها بطريقة منظمة مرعبة . كان الانجليز في أمريكا مستعمرين مستوطئين ، وكان الفرنسيون مرتادين ومغامرين ، ووكلاء تجاريين ومبشرين وتجاراً وجنوداً . ولكنهم لم يرسوا لبنائهم أساساً متيناً إلا في كندا : إذ أن رجال السياسة الفرنسيين كانوا يكبون على الخرائط ويطلقون لأحلامهم العنان . وإنك لواجب أحلامهم ماثلة في خريطتنا ، في سلسلة القلاع المتسللة جنوباً ، من البحيرات العظيمة ، وشمالا في أعلى المسيسبي والأوهابو ؛ وكان الكفاح بين فرنسا وبريطانيا كفاحاً شمل العالم أجمع. وقد فُصل فيه في الهند وفي ألمانيا وعلى صفحة أعالى البحار (١). ويصلح باريس (١٧٦٣) أعطى الفرنسيون كندا لإنجلترة ، وتركوا لويزيانا لإسبانيا المتقوضة المشلولة اليدين . وكان معنى ذلك تخلى فرنسا تماماً عن أمريكا . وبزوال هذا الحطر الفرنسي أصبح المستعمرون أحراراً لا يعوقهم عائق عن مواجهة عدوهم الثالث المشترك : ـــ وهو تاج بلادهم الأصلية وحكومتها ٥

⁽١) أعالى البحار : High Seas أجزاء البحار الموجودة في عرض البحر والتي تقع خارج المياء الإقليمية لأي قطر من الأقطار التي عرضها كما ينص القانون الدولي ثلاثة أميال . (المترجم)

٣ ــ الحرب الأهلية تفرض على المستعمرات فرضاً

لاحظنا في الفصل السابق كيف أن الطبقة الحاكمة في بريطانيا العظمي دأبت على وضع يدها على الأراضي والقضاء على حريات العامة طيلة القرن الثامن عشر ، وعرفنا كيف تمخض جشعهم وعمايتهم عن الثورة الصناعية (١) الجديدة . كذلك لاحظنا كيف أن العرلمان العريطاني بسبب انحلال أساليب التمثيل النيابي لمجلس العموم ، أصبح في كل من مجلسيه الأعلى والأدنى أي اللوردة والعموم ، مجرد أداة للحكم عن طريق كبار أصحاب الأراضي . وكان كل من كبار الملاك هؤلاء والتاج ذا مصلحة عيقة في أمريكا ــ الأولين منهم بوصفهم مغامرين يحدون مصالحهم الخاصة ، والأخر بوصفه ممثلا لاستغلال ملوك أسرة استيوارد ومضاربتهم من ناحية ، وبوصفه ممثلاً للحكومة في بحثها عن موارد مالية للقيام بنفقات السياسة الخارجية من ناحية أخرى ؛ وطبيعي أن اللوردة والتاج لم يكن أحد منهم ينظر إلى التجار والزراع والعامة سكان المستعمرات نظرة فيها تقدير أكثر من نظرته إلى صغار المزارعين. وصغار الزارعين الملاك في أرض الوطن . والواقع أن مصالح الرجل العامي (العادي) ف كل من بربطانيا العظمي وإرلندة وأمريكا كانت في صميمها واحدة لا إختلاف بينها . فإن كلا منهم كانت تعتصره وتستغله نفس الهيئة الحاكمة ، ولكن على حين كان العاصر والمعصور في انجلترة متشابكين تشابكا وثيقاً في نظام اجتماعي وطيد، فإن التاج وطانمي الاستغلال في أمريكاكانا بعيدين ، وكان في مكنة الرجال هنا أن يتخذوا وأن يطوروا في أنفسهم شعوراً بالجاعة ضد عدوهم المشترك .

هذا إلى أن المستوطن الأمريكي كانت له الميزة الهامة ، ميزة امتلاكه لساناً وترجمانا منفصلا قانونياً لمقاومة الحكومة البريطانية يتمثل في مجلس مستعمرته أو جمعيها التشريعية ، التي كانت ضرورية لإدارة الشئون المحلية . ولم يكن للرجل العامى في انجلترة ـ وهو الذي تحرمه الحنتاانية بما تستخدمه من ضروب الحيل والحداع من

⁽¹⁾ تسمى تلك النهضة الصناعية باسم الثورة الصناعية أو الانقلاب الصناعي . (المترجم)

التمثيل الصحيح فى مجلس العموم ... أى لسان ناطق عنه ولا أى مركز للعمل والتعبير عن تذمره .

ولسوف يتضح للقارئ إذ يتذكر تنوع المستوطنات أن الوضع هنا كان بهي الفرص لسلسلة لا نهاية لها من المنازعات ، وضروب العدوان وما يقابل ذلك من التدابير المضادة . وقصة تطور الانفعالات بين المستعمرات وبين بريطانيا قصة أشد تعقداً وأدق وأطول من أن تتسع لهـــا خطة هذه « المعالم » . وحسبك أن المظالم كانت تقع تحت عناوين ثلاثة رئيسية هي المحاولات المبذولة لضهان حصول المغامر البريطاني أو الحكومة العريطانية على أرباح استغلال الأراضي الجديدة ؛ والتضييقات المنظمة على التجارة بغية الاحتفاظ بتجارة المستعمرات الخارجية كلها في أبد بريطانية ، بمعنى أن جميع صادرات المستعمرة لم تكن لترسل إلا بطريق بريطانيا ولم يكن يستعمل في أمريكا سوى السلع البريطانية . وأخيراً تجيء محاولة فرض الضرائب بواسطة البرلمان البريطاي بوصفه السلطة العليا الفارضة للضرائب في الإمبراطورية . واضطر المستوطنون الأمريكيون تحت ضغط هذا النظام الثلاثي من المضايقات ، أن يقوموا بقدر جسيم من التفكير السياسي العميق . وشرع رجال من أمثال بانريك هنري وچيمس أوتس (Otis) في مناقشة الفكرات الأساسية التي تقوم عليها الحكومات والترابط السياسي على نحو شديد الشبه بمناقشتها في انجلترة في الأيام العظام أيام دولة كرومويل الجمهورية . وأخذوا ينكرونكلا من الأصل المقدس للملكية والسياسة العليا للبرلمان البريطاني م وكان أن قال جيمس أوتس في ١٧٦٢ أشياء من أمثال التالي :

ه خلق الله الناس جميعاً متساوين تساوياً طبيعياً

والفكرات القائلة باستعلاء الإنسان على أخيه الإنسان فكرات تلقينية غير فطرية وقد خلق الملوك لحير الناس ولم تخلق الناس لهم وليس لأية حكومة أن تتخذ من رعاياها عبيداً ومع أن معظم الحكومات تعسفية فى واقع الأمر وهى بناءاً على ذلك لعنة وفضيحة للطبيعة الإنسانية.

فما من واحدة منها تكون تعسفية قانوناً وشرعا a .

وبعض هذه الأقوال تضرب في الموضوع بسهم بعيد المرمى .

وقد بدأ هذا التخمر فى أفكار الأمريكين السياسية بفضل خميرة بريطانية . فإن هناك كاتباً انجلزياً عظيم التأثير هو چون لوك (١٦٤٢ -- ١٧٠٤) ، الذى يمكن أن يعد كتابه و مقالتان عن الحكومة المدنية » نقطة الارتحال الأساسية للفكرات الديمقراطية العصرية . كان أبوه جندياً من أتباع كرومويل ، كلية وقد تعلم فى اكرايست تشرتش Christ Church » بأكسفورد إبان عظمة الجمهورية ، وقضى بضع سنين مبعداً فى هولندة ، وتكوّن كتاباته جسراً يصل بين التفكير السياسي الحرىء فى تلك الأيام الجمهورية القديمة وبين الحركة الثورية فى كل من أمريكا وفرنسا .

على أن الرجال لا يشرعون في العمل والتصرف على أساس النظريات. وإنما يحدو الناس إلى و العمل و على الدوام شعورهم بوجود خطرما حقيقي أو ضرورة ما عملية . ولن تستقيم النظريات الأمور وتستقر في نصابها إلا بعد أن يكون العمل والتصرف قد هد صرح العلاقات القديمة كلها وأنتج أموراً جديدة عيرة . وعند ذلك توضع هذه النظرية في بوتقة الاختبار . فالحلاف على المصالح والفكرات ، المشتجر بين المستوطنين تحول إلى قتال لما أبداه البرلمان البريطاني بعد صلح ١٧٦٣ من عنيد التصميم على فرض الضرائب على المستعمرات الأمريكية . وكانت بريطانيا ترفل في بحبوحة السلم وتهال عليها الرفاهية من كل جانب ، فأحست أن بريطانيا ترفل في بحبوحة السلم وتهال عليها الرفاهية من كل جانب ، فأحست أن أمامها فرصة بديعة لتصفية الحساب مع هؤلاء المستوطنين العصاة . ولكن كبار أصاب الأملاك البريطانين وجدوا إلى جوار قوتهم قوة تشاطرهم آزاههم نفسها ، أصاب الأملاك البريطانين وجدوا إلى جوار قوتهم قوة تشاطرهم آزاههم نفسها ، ولان اختلفت عنهم قليلا في غاياتها – وهي قوة التاج المنتعش . ذلك بأن جورج الثالث الذي بدأ حكمه في ١٧٦٠ ، أصر على أن يكون في سلطانه ملكا أكثر من القب بربطونيا(١) ، وعندى أنه اسم لا بأس بأن يطلق على رجل لا تجرى في عروقه يلقب بربطونيا(١) ، وعندى أنه اسم لا بأس بأن يطلق على رجل لا تجرى في عروقه يلقب بربطونيا(١) ، وعندى أنه اسم لا بأس بأن يطلق على رجل لا تجرى في عروقه يلقب بربطونيا(١) ، وعندى أنه اسم لا بأس بأن يطلق على رجل لا تجرى في عروقه

⁽¹⁾ بريطون Briton : أي من سكان بريطانيا القدامي . (المترجم)

قطرة واحدة معروفة من الدم الإنجليزى ولا الويلزى ولا الاسكتلندى !! ؟ وكان يخيل إليه أن المستعمرات الأمريكية والممتلكات وراء البحار عامة بما لها من مراسيم غير محددة — (بل عساها بلا مراسيم مطلقاً) — أما كن قد يستطيع التاج فيها أن يدعى السلطان وأن يحصل على الموارد المالية والسلطات التي تنكرها عليه إنكاراً باتاً الأرستقراطية القوية الغيور على سلطانها في بريطانيا . فدفع هذا كثيراً من نبلاء الهويج (Whigs)(۱) أن يعطفوا على المستوطنين عطفاً لم يكونوا ليظهروه لولا هذا الظرف . ذلك أنه لم يكن لديهم أي اعتراض على استغلال المستعمرات لصالح صاحب « المسعى الخاص على البريطاني ولكن كانت لديهم اعتراضات قوية جدداً على تقوي التاج بذلك الاستغلال تقوياً يجعله على الفور مستقلا مستغنياً عهم ،

من أجل ذلك لم تكن الحرب التي نشبت حرباً بين بريطانيا والمستوطنين بل بين الحكومة البريطانية والمستوطنين ، المحاز فيها قسم من نبلاء حزب الأحرار (الهويج) وقلس جسيم من الشعور العام في انجلترة إلى صف هؤلاء المستوطنين . وهناك حركة مبكرة بعد (١٧٦٣) كانت ثرى إلى محاولة جمع الإيرادات لبريطانيا في المستعمرات بتحتيم دمنع الصحف وأنواع مختلفة من الوثائق . ولقيت هذه المحاولة مقاومة عنيدة ، وداخلت الرهبة قلب التاج البريطاني ، فألغيت قوانين اللمغة مقاومة عنيدة ، وداخلت الرهبة قلب التاج البريطاني ، فألغيت قوانين اللمغة وشمها شيء من الشغب في لندن ، وتجهل فيها من السرور القلبي ما لم يتجل في المستعمرات نفسها .

ولكن موضوع قانون الدمغة لم يكن إلا دوامة واحدة فى سيل مضطرب يتدافع هاويا نحو حرب أهلية . فكان ممثلو الحكومة البريطانية مستترين وراء عشرات من الحجج فى أعلى الساحل وأسفله دائين على تحقيق سلطاتهم وإبرازها وجعل

⁽١) الهويج Whige : حزب ظهر في القرن التاسع عشر ممثلا لنجار الطبقة الوسطى مناهضاً الأصحاب الأسلاك من حزب التورى (المحافظين أخيراً) تسمى فيما بعد باسم "حزب الأحرار . (المترجم) (٢) المسعى الحاص Private enterprise : الجهود أو المشروعات الحاصة التي يقوم بها فرد أو أفراد أو شركات . (المترجم)

الحكومة البريطانية كلاً فادحا لا يطاق . وكان إنزال الجنود في ضيافة المستوطنين كرها ، من أفدح الأموروطأة عليهم . وكانت رودايلاند ناشطة بوجه خاص في تحديها لقيو د التجارة . فإن سكان رودأيلاند كانوا متجرين أحراراً ... أي مهربين ؛ وقد حدث أن سفينة حكومية تسمى چاسپي (Gaspee) شحطت على أرض بروڤيدانس ؛ فباغتها واعتلى ظهرها واستولى عليها رجال مسلحون في زوارق ، ثم مالبئوا أن أحرقوها . وفي (۱۷۷۳) منح البرلمان البريطاني شركة الهند الشرقية ميزات خاصة في استيراد الشاي إلى أمريكا في استهانة تامة بنظام تجارة الشاي المستوطنون بعزم على رفض هذا الشاي ومقاطعته . ولما أن أظهر مستوردوا الشاي المستوطنون بعزم على رفض هذا الشاي ومقاطعته . ولما أن أظهر مستوردوا الشاي الثلاث في بوسطن إصراراً على إنزال بضائعهم إلى الشاطئ ، صعد إلى سفن الشاي الثلاث عصبة من الرجال متنكرين في زي الهنود الحمر ، وألقوا بالشاي في البحر على ملأ من جمهور عظيم من الناس (١٢ ديسمبر ١٧٧٣) :

وشغل الطرفان طيلة ١٧٧٤ بجمع الموارد والأموال استعداداً للمعركة المقبلة . وقرر البرلمان البريطانى فى ربيع (١٧٧٤) معاقبة بوسطن بإغلاق مينائها ، واتجهت النية إلى القضاء على تجارتها ما لم تقبل ذلك الشاى . وكان ذلك مثالا نموذجياً كاملا لذلك « الحزم » الأحمق الذى يمزق الامبراطوريات بدداً . ولكى يتم تنفيذ هذا التدبير بالقوة ، احتشدت الجيوش البريطانية فى بوسطن تحت قبادة الحبرال جاج (Oage) بالقوة ، احتشدت الجيوش البريطانية فى بوسطن تحت قبادة الحبرال جاج (Oage) فيلاد لفيا فى سنتمبر ، مثلت فيه اثنتا عشرة مستعمرة هى : ماساشوستس ، فيلاد لفيا فى سنتمبر ، مثلت فيه اثنتا عشرة مستعمرة هى : ماساشوستس ، وكونكتى كت ، ونيوهميشير ، ورود آيلاند ، ونيويورك ، ونيوچرسى وينسلفانيا ، وكونكتى كت ، وديلاوير ، وفرچينيا ، وكارولينا الشالية والجنوبية ، ولم تكن ومارى لاند ، وديلاوير ، وفرچينيا ، وكارولينا الشالية والجنوبية ، ولم تكن جورجيا حاضرة . وأصدر الكونجرس تمشياً مع خير التقاليد الإنجليزية وثبقة أبان خيما موقفه بأن أشهر « إعلان حقوق » . والواقع أن هذا الكونجرس كان حكومة فيها موقفه بأن أشهر « إعلان حقوق » . والواقع أن هذا الكونجرس كان حكومة تمرد وعصيان ، ولكن لم تضرب ضربة واحدة حتى ربيع (١٧٧٥) . يوم جاء أول سفك للدماء .

فإن اثنين من الزعماء الأمريكان ها هانكوك وصمويل آدامز ، قد اتجهت نية الحكومة الريطانية إلى اعتقالها ، ومحاكمتهما بنهمة الحيانة ، وكان معروفاً أنهما في لكسينجتن ، على مبعدة أحد عشر ميلا تقريباً من بوسطن ، وفي ليل ٨ إبريل ١٧٧٥ أصدر جاج أوامره بزحف قواته لاعتقالها .



(شکل ۱۷۹)

وكانت تلك الليلة من ليالى التاريخ العظيمة . فإن المستوطنين تنبهوا إلى حركة جيوش جاج ، فرفعت مصابيح الإشارة فوق برج كنيسة في بوسطن وانسل رجلان هما داوز وپول ريڤير في قارب عبر الخليج الحلقي حتى يستطيعا أن يحصلا على جوادين لكي يُحذَّرا المنطقة الريفية . كذلك نُقل البريطانيون بالمعدية عبر الخليج ؛ وفيها هم يزحفون تحت جنح الليل إلى لكسينجتن كانت تسبقهم أصوات مدافع الإنذار ورنين أجراس الكنائس . وبينها هم يدخلون لكسينجتن عند الفجر ، شاهدوا مجموعة صغيرة من الرجال مصطفين في تشكيلة عسكرية . والظاهر أن البريطانيين كانوا البادئين بإطلاق النار . فانطلقت طلقة وأحدة ثم سيل من الطلقات ، وتراجعت الثلة الصغيرة دون أن تجيب ــ فيما يظهر ــ على الطلقات تاركة في ظاهر القرية ثمانية من القتلي وتسعة من الجرحي .

وعند ذلك سار البريطانيون إلى قرية كونكورد ، وهي وراء ذلك بعشرة أميال ، فاحتلوا القرية واوقفوا ثلة من الجنود على الكوبرى القائم في ذلك الموضع . وفشلت الحملة في هدفها وهو اعتقال هانكوك وآدامز ، ويلوح أن القائله البريطاني تحير ماذا بفعل بعد ذلك . وفى نفس الوقت كان جند المستوطنين يتقاطرون من كل حدب وصوب وسرعان ما وجد الحرس المرابطون على الكوبرى أنفسهم غرضاً لنيران منزايدة انتهت بهجوم . وتقرر التقهقر إلى بوسطن . ولكنه كان تقهقراً مدمرا . فقد هبت المنطقة كلها من خلفهم ، وأخذ المستوطنون فى التجمع طول الصباح وعندئذ أصبح جانبا الطريق مز دحمن برماة حذاق يطلقون النار من وراء الصخور والسياجات والمبافى ، وكثيراً ما حدث أنهم هجموا حتى غدوا على مسافة دانية بلغت مرمى السونكى . وكان الجنود فى ثياب قرمزية وضاحة ، ذات واجهات صفراء وتزالك وأربطة رقبة بيضاء ، ولا بدأن هذه الألوان كانت تبدو وضاحة ساطعة بالقياس إلى الألوان الحادة فى أخريات ربيع نيو إنجلند ، كان ذلك اليوم مشرق بالقياس إلى الألوان الحادة فى أخريات ربيع نيو إنجلند ، كان ذلك اليوم مشرق وفى كل بضع ياردات يقع منهم رجل إما جريحاً أو قتيلا . على حين يسير الباقون وفى كل بضع ياردات يقع منهم رجل إما جريحاً أو قتيلا . على حين يسير الباقون أمداد بريطانية ومدفعان ، وبعد استراحة وجيزة تواصل التقهقر فى نظام أحسن . ولكن التعقب استمر حتى النهر ، وبعد أن عبره البريطانيون قافلين إلى بوسطن ، ولكن التعقب استمر حتى النهر ، وبعد أن عبره البريطانيون قافلين إلى بوسطن ،

٤ -حرب الاستقلال

بذا ابتدأت الحرب، ولم تكن حرباً تبشر بنهاية حاسمة . فلم تكن للمستوطنين عاصمة واحدة يخشون عليها عطباً ؛ بل كانوا منتشرين فوق ريف عظيم من خلفه برية لا آخر لها ، ولذا كانت لهم قوة مقاومة عظيمة . وكانوا في غالب أمرهم تعلموا فن الحرب عند الهنود . فكانوا يستطيعون أن يجيدوا القتال في نظام مكشوف وأن يشتتوا الحرب عند الهنود و يمزقوهم بحركاتهم . ولكن لم يكن لديهم جيش منظم يستطيع أن يلتي البريطانيين في معركة عظيمة ، ولم يكن لديهم إلا القليل من العتاد الحربى ؛ هذا إلى أن مجنديهم كان ينكم بهم نفاد ُ الصبر إذا طال بالحملة الأمد ، وينزعون إلى العودة إلى مزارعهم . وكان لدى الإنجليز من التاحية الأخرى جيش حسن التلويب ، كما أعارتهم سيادتهم وكان لدى الإنجليز من التاحية الأخرى جيش حسن التلويب ، كما أعارتهم سيادتهم

على البحر قدرة على نقل هجومهم شمالا وجنوباً في ذلك الساحل الأطلسي الطويل . وكانوا في سلام مع العالم أجمع . ولكن الملك كان غبيا شرهاً في تدخله في إدارة الأمور ، وكان القواد الذين يوثرهم بعطفه إما رجالا أغبياء «أقوياء الشكيمة» أو طائشين من أبناء البيوتات و والطبقة العالية ﴾ . ولم يكن فواد انجلبرة محبذاً لهذا الأمر. لذلك تركز جل اعتماد التاج على قلىرته على توقيع الحصار البحرىعلى المستوطنين والإغارة عليهم ومضايقتهم حتى يخضعوا ، أكثر منه على الفتح والاحتلال النهائى للبلاد . ولكن الوسائل التي استعملت وبوجه خاص استخدام الجنود الألمانية المأجورة التي كانت ما تزال تحتفظ بتقاليد القادة المأثورة عن حرب الثلاثين ، والجنود المساعدة الهندية الذين شتتوا سكان المستوطنات المنعزلة - لم تضجر الأمريكين من الحرب قدرما أضجرتهم من البريطانيين . فأما الكونجرس فإنه اجتمع لثاني مرة في ١٧٧٥ ، وأقرَّ التصرفات التي أتاها مستوطنو نيو إنجلند ، وعن چورج واشنجنون قائداً عاماً للجيش الأمريكي . وفي ١٧٧٧ بينها الحنرال برجوين يحاول أن ينحدر من كندا زاحفاً على نيويورك ، إذ الهزم عند « مزرعة قريمان » عند أعلى نهر الهدسون الأعلى ، وأحيط به واضطر إلى النسليم في ساراتوجا ومعه جيشه كله . وشجعت هذه الكارثة القرنسين والأسپان على الدخول إلى الحلبة في صف المستوطنين . وقام الأسطول الفرنسي بالشيء الكثير في سبيل تقليل منزة البريطانيين في البحار. وحصر الجارال كونواليس في شبه جزيرة يوركنون بڤرچينيا في ١٧٨١ ، فسلم بجيشه . وكانت موارد الحكومة البريطانية عند ذاك قد استنزفت ، إذ كانت ترزح نحت عبء ثقيل من الكفاح مع فرنسا وأسپانيا في أوربا .

ويلوح أن المستوطنين عامة كانوا فى البداية من قلة الميل إلى نبذ الملكية والمطالبة بالاستقلال التام بحيث ماثلوا حالة الهولنديين أثناء الدور الأول من اضطهادات فيليب الثانى وحماقاته. وأطلق اسم الراديكاليين على دعاة الانفصال(١) ؛ وكانوا قوما يغلب عليهم التطرف فى الديمقراطية ، كما قد نقول فى انجلترة فى أيامنا هذه ، وأدخلت

⁽١) اثر اديكاليون : كانت كلمة الراديكاليين تطلق في انجلترة في ذلك الزمان على أنصار الديمة والإصلاح البرلماني (المترجم)

آراؤهم التقدمية شيئاً من الخوف إلى قلوب كثير من المستوطنين الأكثر رزانة وثراء ، الله النابين كان لامتيازات الطبقات ومكانها سحر عظيم فى أعيهم . ولكن انجلزياً مقتدراً قوى الحجة هوتوماس پين Paine نشر فى زمن مبكر من (١٧٧٦) بحثا بفيلادلفيا نحت عنوان «حسن التصرف» ، كان لها أثر هائل فى الرأى العام . كان أسلومها أسلوباً بيانياً بليغاً إذا قيس بالمعايير العصرية . « إن دماء الفتلى وصوت الطبيعة الباكى تصبح ، أن قد حان وقت الافتراق» وهلم جرا . . . ولكن آثارها كانت بالغة القوة . فإنها حولت الآلاف إلى فكرة ضرورة الانفصال . وما كاد انقلاب الرأى يبدأ حتى أخذ مهدر مسرعاً .

ولم بتخذ الكونجوس إلا في صيف (١٧٧٦) الخطوة التي لا مرد لها : بإعلان طلب الانفصال و وإعلان الاستقلال و وهو مثال آخر من تلك الوثائق النموذجية التي يعود الفضل في انتاجها للبشرية للإنجليز بخاصة . وقد سطره توماس چفرسون . وما لبث بعد أن أدخلت عليه تصميمات وتعديلات متنوعة ، أن جمعل الوثيقة الأماسية للولايات المتحدة الأمريكية ، وأدخل تعديلان جديران بالذكر على مسودة چفرسون . فإنه شن حملة عنيفة على تجارة الرقيق ، وأيمي باللائمة على حكومة أرض الوطن بانجلترة لحيلولها دون المحاولات التي بذلها المستقرات (المستوطنات) لإيقاف تلك التجارة . فحذفت هذه الفقرة وكذلك حذفت جملة أخوى عن البريطانين تقول : و يجب أن نحاول أن ننسي حبنا السابق لم . . فقد كنا نستطيع أن نكون مجتمعين شعباً حراً عظيا و .

وفى قريب من نهاية (١٧٨٢) وقعت فى باريس البنود الأولية فى المعاهدة التى اعترفت فيها بريطانيا بالاستقلال التام للولايات المتحدة . وأعلن انتهاء الحرب فى ١٩ إبريل (١٧٨٣) أى بعد ثمانى سنين بالضبط من انطلاق پول ريشير بجواده وارتداد رجال جاچ (Gage) من كونكورد إلى بوسطن . ووقعت معاهدة الصلح نهائيا بباريس فى سبتمبر .

دستور الولايات المتحدة

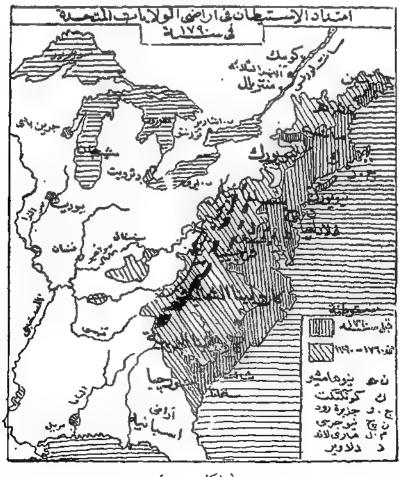
إن الطريقة التي أصبحت بها الولايات الثلاث عشرة مستقلة ، كانت من وجهة نظر التاريخ الإنساني ، أقل شأناً بكثير من استقلالها الفعلي نفسه . وظهر في العالم بتوطيد استقلالها ذاك ، نوع من المجتمع جديد . وكأنى به شيئاً فقست عنه بيضة . كان حضارة أوربية غربية انفصلت وتحررت من آخر آثارها الإمر اطورية والمسيحية ؛ ولم يكن بها أي أثر الملكية ولا دين رسمي للدولة . وما كان بها دوقات ولا أمراء ولا كونتات ، ولا أي ضرب من حلة الألقاب المدعن سمو القدر والرفعة بوصفها حقوقاً . بل إن وحدتها نفسها لم تكن آنداك إلا أتحاداً بقصد اللفاع والحرية . فكانت من هذه الوجوه بداية نظيفة في التنظيم السياسي لم ير العالم من قبل لما نظيراً . وإن غيبة أية رابطة دينية تربطهم بعضهم إلى بعض لجديرة بالتنويه . بوجه خاص . فقد كان بها أكثر من واحد من أشكال المسيحية ، ولا مجال للشك في أن روحها كانت مسيحية . ولكن الأمر كان كما صرحت بلك وثيقة رسمية في أن روحها كانت مسيحية . ولكن الأمر كان كما صرحت بلك وثيقة رسمية في مؤسسة على الديانة المسيحية ، إن المجتمع الجديد قد توخل بالفعل والواقع حتى مؤسسة على الديانة المسيحية الماهادية المجردة . وكان يبني نوعاً جديداً من الجاعة الإنسانية العادية المجردة . وكان يبني نوعاً جديداً من الجاعة الإنسانية العادية المجردة . وكان يبني نوعاً جديداً من الجاعة الإنسانية ونوعاً جديداً من الدولة على تلك الأصول .

هنا كان يعيش ما يقرب من أربعسة ملايين من الناس متناثرين فوق منطقة مترامية الأطراف ليس بينها من وسائل الاتصال إلاكل صعب شديد الصعوبة بطيء عظيم البطء ، وهم قوم لما يبرحوا فقراء ، وإن كان أمامهم إمكانيات تبشر بثروة لانهاية لها . وقد نشطوا يعملون في واقع الحقيقة على معيار ضمخ أعمالا إنشائية جليلة مثل تلك التي قام بها بالحيال والنظر الفلاسفة الأثينيون قبل ذلك باثنين وعشرين قرناً .

⁽١) نقلا عن معاهدة تريپولى ، انظر تشاننج البغر الثالث ، الفصل الثامن عشر .

وهذا الموقف يشير إلى مرحلة محددة فى فكاك الإنسان من السابقة والعرف ، وخطوة محددة إلى الأمام تتجه نحو إعادته بناء ظروفه إعادة واعية متعمدة حتى تتلاءم وحاجاته وغاياته . كانت طريقة جديدة أخذت تصبح شيئاً عملياً فى الشئون الإنسانية . فإن دول أوربا العصرية تطورت عما سبقها من أشياء ، نظاماً فى إثر نظام ، وعلى مهل وبطء ، بلا خطة مرسومة . فأما الولايات المتحدة فإنها خُططت تخطيطاً واصطنعت اصطناعاً .

ومع ذلك فإن حرية الشعب الجديد الحلاقة ، كانت محددة تحديداً خطيراً عداً من ناحية واحدة . فلم يكن هذا النوع الجديد من الدولة مبنياً على موقع ممهد



(المكل ١٨٠)

وهناك فكرات معينة كانت تبرز بروزاً واضحاً جداً من فوق هذا المجهود. فمن هذه الفكرات فكرة المساواة السياسية والاجتاعية . فهذه الفكرة التي رأيناها وهي تولد في العلم بوصفها فكرة متطرفة لا يكاد يصدقها عقل في العصر المحصور بين بوذا ويسوع الناصري ، _ قد توكدت الآن في أخريات القرن الثامن عشر بوصفها معياراً عملياً للملاقات الإنسانية . يقول البيان الأساسي في قرچينيا : « وإن كل الناس معياراً عملياً للملاقات الإنسانية . يقول البيان الأساسي في مرد « حقوقهم » والتوكيد بأن كل المأمورين والمحافظين ليسوا إلا « موتمنين على المصلحة العامة وخداماً لها » . ولكل الناس الحتي المتساوى في محارسة الديانة بملء حريبهم . فأما الملك بحكم الحق ، ولكل الناس الحتي المتساوى في محارسة الديانة بملء حريبهم . فأما الملك بحكم الحق ، هذه الخطة السياسية الأمريكية _ بقدر ما تذهب إليه هذه التصريحات . وقدمت معظم الولايات لنظام الحكم فيها بمقدمات شبيهة بهذه . وقال إعلان الاستقلال إن « كل الرجال قد ولدتهم أمهاتهم سواسية » . وإنك لترى في كل مكان توكيدات مصوغة الرجال قد ولدتهم أمهاتهم سواسية » . وإنك لترى في كل مكان توكيدات مصوغة في عبارات التون الثامن عشر تقول بأن المجتمع الحديد سوف يكون ... إذا استخدمنا التعبيرات التي أوردناها في فصل سابق (١) _ « مجتمع إرادة وليس مجتمع طاعة » . التعبيرات التي أوردناها في فصل سابق (١) _ « عجتمع إرادة وليس مجتمع طاعة » . غر أن مفكرى ذلك الزمان ، كانت لهم في صوغ عبارة ذلك الموضوع طريقة كادت

⁽١) انظر ص ص ٩٥٧ – ٩٦٣ من المعالم ح ٣ ط ٢ . ومجتمع الإرادة والطاعة من أهم النقاط التي يمنى المؤلف أيما عناية بإبرازها في كل أجزاء « المعالم » . (المترجم)

أن تبلغ حد السياجة والغلط ، فإنهم تصوروا أن المواطنية تنطوى على ضرب من الاختيار الفردى والقبول ، لم يحدث قط فى واقع الأمر ، وهو الشيء المتسمى باسم العقد الاجتماعى . ألا ترى إلى الديباجة التمهيدية فى دستور ماساشوستس مثلا ، كيف تذكر أن الدولة ترابط إختيارى ، « به تعاهد الشعب بأجمعه مع كل مواطن ، وكل مواطن مع الشعب بأجمعه بأن يحكم الجميع بقوانين معينة ترمى إلى الحير المشترك » .

ولسوف يتضح الآن أن معظم هذه البيانات الأساسية تقبل المناقشة . فالرجال لا يولدون سواسية ، ولا هم يولدون أحراراً ، بل هم يولدون حشدا أشد ما يكون تنوعًا ، وينشأون خليطا متورطا في شبكة اجتماعية عتيقة معقدة . ثم أين ذلك الرجل الذي يدعى للتوقيع على أي عقد ؟ . فإن فاته ذلك وجب عليه أن يهجر العالم وحيداً . فلو فسرت هذه البيانات تفسراً حرفياً ، لبلغت من الزيف والحطأ الظاهر ، حداً يجعل من المستحيل الاعتقاد بأن الناس الذين وضعوها ، كانوا يقصدون منها أن تفسر حرفياً . وإنما هم أنْشَنُوها للتعبير عن فكرات معينة خداعة ولكنها مهمة أعمَّى الأهمية ــ وهي فكرات أصبح العالم بعد انقضاء قرن ونصف من التفكير فيها ، في وضع يستطيع فيه أن يعبر عنها تعبيراً أحسن . والمدينة كما أوضحت هذه « المعالم » نشأت بوصفها مجتمع طاعة ، وكانت بالضرورة مجتمع طاعة . وكان الكهنة والحكام قد أساءوا إلى الروح جيلا بعد جيل . ثم حدث انثيال متواصل من الإرادة القوية جاء منحدرًا من الغابات والغياض والسهوب(١٦ . ذلك أن الروح الإنسانية ثارت في نهاية الأمر ثورة تامة على الطاعات العمياء في الحياة المشركة. كانت تبغي ـــ وكان ذلك بطريقة سمجة جداً في بداية الأمر ـ الحصول على طراز جديد من الحضارة أحدث جدة وأحسن صنعاً ، يكون في نفس الوقت ؛ مجتمع إرادة » . وكان من الضرورى للوصول إلى ثلث الغاية أن يُعامل كل إنسان بوصفه سلطاناً على نفسه ؛ وكان لا بد أن بكون مركزه مركز الزمالة لا العبودية . وكانت فائدته الحقيقية وأهميته الحقيقية

 ⁽١) النياش (Parklands) : مصطلح جنرائى ممناه الغابات الخفيفة المتباعدة الأشجار .
 والمجرب (Steppes) : هي الممهول الغميحة الجافة الخالية من الأشجار وإن نبتت بها الأعشاب ومعظمها في جنوب شرقي أوربا وجنوب غربي آميا .

تعتمد على صفته الفردية . والطريقة التى حاول بها هؤلاء الحالفون لأمريكا السياسية أن يحصلوا على و مجتمع الإرادة ، ذاك ، كانت طريفة مفرطة فى بساطتها وفجاجتها . فقد منحوا الناس شيئاً كان بالنسبة إلى الزمان وبالنظر إلى الأحوال الأمريكية ، حتى اقتراع واسع الحجال جداً . ولكن الأحوال كانت تختلف بين ولاية وأخرى ، وكان أوسع حتى للاقتراع فى پنسلفانيا ، حيث كان كل دافع ضرائب بالغ ذكر له الحق فى التصويت ، ولكن إذا قورن الحال ببريطانيا ، لتبين أن الولايات المتحدة بأجمعها كانت أقرب ما تكون من منح حتى التصويت لكل من بلغ مبلغ الرجال عند نهاية القرن الثامن عشر . وبذل مؤسسو أمريكا الجهود — وكانت جسيمة بالقياس إلى زمانها م الوسول إلى و تعليم ، بسيط واسع الانتشار . فأما زمانهم طفيفة بالقياس إلى زماننا – الوصول إلى و تعليم ، بسيط واسع الانتشار . فأما العامة والمطبعة الخاصة التي يملكها أى فرد ، دون أن تخالجهم — فيا يظهر — وخزة العامة والمطبعة الخاصة التي يملكها أى فرد ، دون أن تخالجهم — فيا يظهر — وخزة ارتياب في هذين العاملن .

وقصة دساتير الولايات المختلفة ودستور الولايات المتحدة على وجه العموم ، قصة معقدة جداً ، لسنا بمستطيعين أن نعالجها هنا إلا كأشد ما تكون المعالجة إجمالاً وأجدر الأمور بالذكر من وجهة النظر المصرية هي إغفال النساء بوصفهن محادنات (مواطنات) . وكان المجتمع الأمريكي مجتمعاً بسبطاً زراعياً في كبير أمره . وكانت معظم النساء متزوجات ؛ فلا غرو إذن أن يمثلهن بعولهن . على أن نيو چرسي سمحت لعدد قليل من النساء أن يعطين أصوائهن على أساس من المؤهلات العقارية . وهناك أيضاً نقطة أخرى ذات أهمية عظيمة ، هي القرار الذي كاد أن يكون إجماعياً بأن يتولى الحكم في البلاد مجلسان يقر كل منهما الآخر أو يكبحه على غرار مجلسي اللوردة والعموم في بريطانيا . وكان لينسلفانيا دون غيرها مجلس نيابي واحد ، الأمر الذي كان الناس يشعرون من أجله بأن تلك حالة شديدة الخطر مغالية في ديمقراطيبها . وعندى أنه فيا عدا الدفع الجدلي بأن التشريع يجب أن يكون بطيئاً كما يجب أن يتسم باشكن والتثبت ، فإن من العسير أن يجد المرء ضرورة لهذه الثنائية في المجالس . ويلوح بالثمن والتثبت ، فإن من العسير أن يجد المرء ضرورة لهذه الثنائية في المجالس . ويلوح أن المسألة كانت تقليداً جديداً أو (موضة) انتشرت لدى مؤسسي الدساتير في القرن النامن عشر أكثر منها حاجة ملحة معقولة . فإن الازدواج البريطاني كان تهسها قديماً .

فجلس اللوردة وهو البرلمان أصلا ، كان جميعة من «الكبراء» : وأعظم زعماء الملكة ؛ ثم جاء مجلس العموم بوصفه عاملا جديداً ، ويوصف أعضائه الفئة المنتجة المتحدثة بلسان سكان المدن وأصحاب الملكيات الزراعية الصغيرة . وكان مفروضاً في شيء من التعجل في القرن التامن عشر أن العامة ميالة إلى الاندفاع وراء الدوافع الضارية وأنها محتاجة ولا ربب إلى من يشكمها ؛ وكان الرأى متجهاً إلى الأخذ بالديمقراطية على أن تكون ديمقراطية عليها دائمًا شكائم (١) قوية سواء أكانت منطلقة إلى أعلى الجبل أو منحدرة إلى أسفل. وكانت فكرة النخبة المنتقاة هالة تحيط بتلك الحبالس العليا ؟ فإنهم كانوا يتتخبون على أساس من الاقتراع أضيق حدوداً . وهذه الفكرة الداهية إلى إنشاء مجلس أعلى يكون معقلا يعتصم به ذوو القيمة من الرجال لا تروق المفكرين العصريين بنفس القوة الى كانت تروق بها أمثالم فى القرن الثامن عشر . ولكن فكرة المجلس الثنائي مكوناً على صورة ما أخرى ، ما تُزال ولها أنصارها . فإنهم يرون بأن المجتمع يجوز له ــ مع رجوع ذلك بالخير عليه ــ أن ينظر في شئونه من زاويتي نظر ــ فينظر بواسطة أعبن هيئة منتخبة لتمتل الحرف والصناعات والمهن والخدمات العامة وما إلى ذلك ، وهي هيئة تمثل الوظيفة ، كما ينظر من خلال أعن هيئة ثانية تنتخبها الجهات المحلية لتمثل تلك المجتمعات. فلانتخاب أعضاء الهيئة الأولى يعطى الرجل صوته على أساس مهنته . وللثانية على أساس الحي الذي يسكنه . وهم يشيرون إلى أن مجلس اللوردة البريطاني إنما هو في الواقع ممثل للوظيفة ، تمثل فيه الأرض والقانون والكنيسة تمثيلا غير متناسب مطلقا ، على أن أصحاب الصناعات فيه وأرباب الأموال وكبار رجال الحدمات العامة وأهل القن والعلوم والطب يجدون مكانهم كذلك ؛ وأن مجلس العموم البريطاني جغرافي بحت في أصوله . بل لقد اقترح بعضهم في بريطانيا أنه يجب أن يكون هناك ﴿ تبلاء من العال ﴾ ينتخبون من بين زعماء نقابات العال العظيمة . على أن هذه تأملات تخرج عن نطاقنا الحالى .

وكانت الحكومة المركزية للولايات المتحدة هيئة واهنة القوة جداً بادئ الأمر ، مكونة من كونجرس ينتظم ممثلي الولايات الثلاث عشرة ، التي تضمها بعضها إلى

⁽١) شكائم : فرامل . (المترجم)

بعض عناصر اتحاد احتلاف^(۱) (كونفدرالي) بعينها . ولم يكن هذا الكونجرس إلا مجرد مؤتمر من مندوبين لولايات مستقلة ذات سيادة ؛ إذ لم يكن في يده مثلا أى هيمنة على التجارة الخارجية في كل ولاية على حدثها ، ولا كان بالمستطيع أن يسك النقود وبجمع الضرائب بناء على سلطانه هو . وقد حدث عند ما ذهب چون آدامز أول وزير للولايات المتحدة في إنجلترة لمناقشة معاهدة تجارية مع وزير الخارجية البريطاني أن قوبل بطلب ثلاثة عشر مندوبا ، يمثل كل واحد منهم ولايته الخنصة ، ثم اضطر أن يعترف بعدم قدرته على اتخاذ إجراءات ترتبط بها بلاده كلها . وعند ذلك شرع البريطانيون يتعاملون مع كل ولاية على حدة متخطن الكونجرس ، واحتفظوا بملكية عدد من المواقع على الأراضي الأمريكية حول البحرات العظيمة بسبب عدم مقدرة الكونجرس على الاحتفاظ بتلك الأقاليم احتفاظاً فعالاً . وأثبت المكونجرس على نفسه الضعف أيضًا في مسألة أخرى مستعجلة خطيرة . إذ أنه تحتد إلى الغرب من الولايات الثلاث عشرة أراض لانهاية لهاكان المستوطنون يتخذون سبيلهم إلها في أعداد متكاثرة أبدا. وكانت لكل من الولايات مدعيات غير محصورة للتوسع غرباً . فكان من الواضح لكل رجل بعيد النظر ، أن احتكاك هٰذه المدعيات مؤدّ على طول الزمان إلى الحرب ، ما لم تستطع الحكومة المركزية أنْ تتولى توزيع الأنصبة : وبلغ الضعف بالحكومة المركزية وحاجتها إلى التركز ، حدا أصبحا معه أمراً مزعجاً وخطراً بادياً ، حتى لقد جرت بعض مباحثات سرية ترمى إلى إنشاء نظام ملكى في البلاد ، وكلف ناثانيال جورهام نائب ماساشوستس ورثيس الكونجرس من يفاتح الأمىر هنرى البروسي شقيق فردريك الأكبر في هذا الصدد . وأخبراً دعي مؤتمر حستورى للاجتماع في (١٧٩٧) بفيلادلفيا ، وهنالك وضعت الأسس الإجمالية للدستور الحالى للولايات المتحدة . ذلك أنه حدث أثناء السنوات الأخيرة تغير عظيم في الروح ، إذ فشا في الناس جميعاً شعور بضرورة الوحدة .

⁽١) الاتحاد الاحتلاق أو الكونفدراى : أطلفا هذه الكلمة الدلالة على معنى Confederation وهو الامحاد بين الولايات اتحاداً مفككا تحفظ عه كل منها بساتها والشيء الكثير من استقلالها وذلك تمييز لها من كلمة الاتحاد الوحدوى أو العدرالى التي تدل على الانحاد النام بين الولايات . (المترجم)

وعند ما وضعت مواد دستور الاتحاد الاحتلافي (الكونفلرالي) ، كان الناس يفكرون في قرچينيا وشعب ماساشوستس وشعب روداً يلاند وما إلى ذلك ؛ فأما الآن فتظهر إلى الوجود فكرة جديدة ، هي « شعب الولايات المتحدة » . وصدر بيان أعلن أن الحكومة الجديدة بما لها من رئيس تنفيذي وأعضاء بمجلس شبوخ ورجال كونجرس وعكمة عليا (التي أنشئت عند ذاك) ، إنما هي حكومة « شعب الولايات إلمتحدة » . كانت هيئة منديجة ولم تكن مجرد جعية متجمعة . وكانت تقول « نحن الشعب » وليس « نحن الولايات » ، كما اشتكي ذلك بمرارة « لى » الفرچيني . إذ تقرر أن تكون حكومة اتحاد احتلافي Confederate . . .

وأقرت الدستور الجديد ولاية بعد ولاية ، وفى ربيع ١٧٨٨ اجتمع بنيويورك أول كونجرس قام على الأسس الجديدة ، تحت رياسة چورچ واشنجتون ، الذى كان القائد الأعلى الوطنى طوال حرب الاستقلال . وعند ذلك مر الدستور فى طور من المراجعة جسيم ، وبنيت مدينسة واشنجتون على نهر البوتوماك لتكون عاصمة الاتحاد .

٦ ـ المظاهر البدائية للستور الولايات المتحدة

أسلفنا إليك في فصل سابق وصفنا للجمهورية الرومانية ، وخليطها الجامع بين المظاهر العصرية المشوبة بالحرافات القاتمة والسمة الوحشية البدائية – بأنها الصورة النياندرنائية التي تؤذن بالدولة العصرية . وربما جاه وقت يعد فيه الناس مستحدثات النياندرنائية التي كانت لإنسان الدستور الأمريكي وأجهزته العديل السياسي للأدوات والمستحدثات التي كانت لإنسان العصر الحجرى الحديث . على أنها أدت الغرض المطلوب منها أداء صناً ، ونما شعب الولايات في ظل حمايتها حتى أصبح من أعظم المجتمعات التي ظهرت في العالم المن الآن ومن أشدها قوة وحضارة ؛ على أنه ليس في ذلك ما يدعو إلى اعتبار الدستور الأمريكي شيئاً أقرب إلى الغاية النهائية وأبعد من قبول التغيير من طراز سكك حديد الشوارع التي تعلو كثيراً من طرقات نيويورك العامة ، أو ذلك الطراز الممتاز البسيط من عمارة المنازل الذي ما يزال يع فيلادلفيا . فإن هذه الأشياء أيضا أدت الغرض من عمارة المنازل الذي ما يزال يع فيلادلفيا . فإن هذه الأشياء أيضا أدت الغرض

منها أداءً حسناً ، وفيها عيوبها على أن فى الإمكان إصلاحها وتحسينها » فإن مستحدثاتنا السياسية شأن مستحدثاتنا المنزلية والآلية بالضبط ، فى حاجة إلى أن تحتد إليها يد التعديل المتواصل كلما تما العرفان والتفهم .

ومنذ أن رسمت خطة الدصنور ، تعرضب فكرتنا عن التاريخ ومعرفتنا بسيكولوچيا الجاعة لتطور جسم جداً . فإنا أخذنا نرى في معضلة الحكم والحكومة أشياء كثيرة كان رجال القرن الثامن عشر عنها عمهين ؛ وإذ أنهم كانوا شجعاناً شجاعة تتجلي في نزعتهم الإنشائية تلقاء أي تكوين سياسي سابق لهم ، فإن تلك النزعة الإنشائية قصرت كثيراً عن حد تلك الحرأة التي تدرك الحاجة إليها في هذه الأيام للوصول إلى حل لهذه السَّالَة الإنسانية العظيمة ، مسألة إنشاء و مجتمع إرادة ، ممدن . فإنهم سلموا بأشياء كثيرة نعرف اليوم أنها بحاجة أن تكون موضع أشد الدراسات العلمية تدقيقاً وأن تلتى أشد ألوان الإحكام والتعديل . ذلك أنهم كانوا يظنون أن كل ما عليهم هو أن يقيموا المدارس والكليات ، مع منحها منحة من الأرض للقيام بنفقاتها ، وأنه من الجائز عند ذاك أن تترك وشأنها . ولكن التعليم ليس عشيا ينبت بقوة في أية تربة ، وإنما هو محصول ضرورى رقيق قد يذبل في مهولة ويضوى . وإنا لنعلم في هذا العصر أن النقص فى تطور الأجهزة الحامعية والتعليمية ، يشبه شيئاً من نقص التطور للمخ والأعصاب ، الذي يعوق نمو الكيان الاجتماعي كله . وإذا قيس مستوى التعليم العادي في أمريكا بالمعايير الأوروبية وبمعيارأية دولة ظهرت حتى الآن ، تجلى أنه مستوى عال ؛ ولكن إذا قيس إلى ما يمكن أن يكون عليه حاله ، فإن أمريكا تعد دولة غير متعلمة ، كذلك أيضاً زعم آباء أمريكا هؤلاء أنه ليس عليهم إلا إن يتركوا « الصحافة ؛ حرة ، وعند ذلك يعيش كل إنسان في أسطع نور . فلم يدركوا أن في إمكان الصحافة الحرة أن تطور نوعاً من الإرتشاء والفساد الدستورى بسبب علاقها بأصحاب الاعلانات ، وأن في مستطاع أصحاب الصحف الكبيرة أن يكونوا قراصنة يتقبلون كل رأى ومحطمين فاقدى الشعور للبدايات الحسنة . ويجيء في آخر الأمر أنه لم يكن لمؤسسي أمريكا أي معرفة بتعقيدات التلاعب بالأصوات . فإن ٥ علم الانتخابات، بأجمعه كان أبعد أن يتناوله وهمهم ، ولم يكونوا يعرفون شيئاً عن الحاجة إلى الصوت القابل

للنقل لمنع طبخ الانتخابات بواسطة المنظات المتخصصة ، وكانت نتيجة الطرائق الصلبة التي كانوا يستعملونها – أن أصبح نظامهم السياسي فريسة محققة لأجهزة الحزب الكبير التي سلبت الديمقراطية الأمريكية نصف حربتها ومعظم روحها السياسية . وأصبحت السياسة حرفة ، وحرفة وضيعة جداً . وانسحب كرام الرجال ومقتدروهم ، بعد الفترة العظيمة الأولى تاركين ميدان السياسة إلى الأعمال ، والحطت روح الشعور بالدولة . وتحكم « المسعى الخاص » في كثير من الشئون العامة ، لأن الفساد السياسي جعل « المسعى الجاعي» أمراً مستحيلا .

على أن نقائص النظام السياسي العظيم الذي خلفه أمريكيو فترة الثورة ، لم تظهر على الفور . فإن تاريخ الولايات المتحدة لبث أجيالا عدة ، تاريخ اتساع سريع وقدر من الحريه ، وسعادة ساذجه وعمل ناشط ، على حال لا نظير لها جميعاً في تاريخ العالم . وبالرغم من حدوث انحرافات كثيرة نحو عدم المساواة وبالرغم من الكثير من قلة الخبرة والكثير من الأخطاء ، فإن تاريخ أمريكا مع ذلك في المئة والحمسين السنة الأخيرة قصة تعادل في نصاعبها وشرفها قصة أي شعب معاصر آخو .

ولم يتهيأ لنا في هذا البيان الموجز الذي كتبناه عن إنشاء الولايات المتحدة الأمريكية أن تتجاوز إلا قلبلا مجرد الإشارة إلى أسماء جماعة العظاء اللين بدءوا هذه البداية الجديدة في التاريخ الإنساني . وقد ذكرنا أسماءهم عرضا ، أو قل إننا حتى لم نذكر رجالامن أمثال توماس بين وبنيامين فرانكلين وباتريك هنرى وتوماس چفرسون وأبناء العم من أسرة آدامز ومأديسون الكسندر هاملتون وچورج واشنجتون . ومن العسير على المرء أن يقيس رجال فترة مامن التاريخ برجال فترة أخرى . وقد يتأثر بعض الكتاب حتى الأمريكين منهم بالأبهة المصطنعة التي تجلت في البلاطات الملكية الأوروبية وبالأعمال المدمرة المليئة بالهرج والزيف التي قام بها أشخاص مثل فرد ريك الأكبر أو كاترين العظيمة ، فبيدون إزاء مؤسسي أمريكا هؤلاء ضربا مما قد يبديه عدثو النعمة من خجل إزاء شيء مصنوع بالمنزل . فإنهم يشعرون أن بنيامين فر انكلين المحار في بلاط لويس السادس عشر في شعره الطويل وثيابه البسيطة وخلقه الماكر شخصاً ينقصة ونقصة عزناً . ولكهم إن جردوا حتى بدت

شخصياتهم ، لم يكد لويس السادس عشر يبلغ من المواهب ولا من نبل العقل الحد الكافى بلعله وصيفاً لفرانكلن . فإذا كانت العظمة الإنسانية تقاس بالمستوى والمعيار والمريق ، فلا شك إذن أن الاسكندر الأكبر يتبوأ من العظمة الإنسانية ذروتها . ولكن هل العظمة هي ذلك الأمر ؟ ألا يكاد الرجل العظيم أن يكون من اذا تولى منصباً عظيماً أو تهيأت له فرص عظيمة – وما المواهب العظيمة إلا فرص عظيمة – عدم الله وخدم إخوانه بقلب ملؤه التواضع ؟ ولا ريب أنه يبدو أن عدداً جماً من أمريكي الزمن الثورى أولئك ، قد أظهروا الشيء الكثير من الاخلاص والتجرد من الأغراض . كانوا لا جرم رجالا محدودين ، رجالا غير معصومين من الزلل ، ولكنهم يبدون في جلهم وكأنما كانوا يعنون بالحكم الشعبي المتحرر الذي يخلقون ، ومن يعنون به في حد ذاته أكثر من عنايهم به كغاية شخصية أو غرور شخصي . ومن المستحيل علينا ألا نخولهم عظمة ذهنية ممتازة .

ولا ننكر أنهم كانوا محلودى المعارف ضيق أفق النظر إلى الأمور ؛ إذ كاد علموه محلد زمانهم وقيوده . كانوا – شأننا جميعاً – رجالا تتنازعهم دوافع محتلفة ؛ قد نشأت فى أذهانهم حوافز طيبة وسرت فى أجسادهم فكرات عظيمة . ومن الجائز كذلك أن تداخلهم نزعات الغيرة أو الكسل أو العنا أو الشر . فلو قلمر للمرء أن يكتب تاريخاً حقيقياً كاملا مدققاً لتكوين الولايات المتحاة ، لوجب أن يكتب فى ورح من السياحة والجذل كما تكتب ملهاة فاخرة ترتفع إلى أنبل الغايات . ولسنا نعثر علما على الروح الإنسانية الجزلة الملتوية المتجلية فى القصة الأمريكية ، قلم ما نعثر علما عمتازة رائعة إزاء تجارة الرقيق . وإذا نحن راعينا مسألة العال بصفة عامة – وجدنا الرق خير علمك لهذه الروح المحديدة فى التاريخ العالمي وأعنى بها الروح الأمريكية .

ابتدأت تجارة الرقيق في وقت مبكر جداً من تاريخ أمريكا الأوربي ، وما من شعب أوربي ذهب إلى أمريكا بمرأ براءة تامة من وزر ذلك الأمر . ومن الإنصاف أن نلحظ في وقت لما يزل فيه الألماني في أوربا من الناحية الحلقية كالمعاقب بجريرة غيره ــ أن سجل الألمان هنا خير السجلات وأنظفها من هذه الوجهة . وتكاد أول الأقوال الصريحة ضد استرقاق الزنوج تكون صادرة من مستوطنين ألمانيين في معالم تاريخ الإنسانية جه المعالم تاريخ المعالم تاريخ المعالم تاريخ المعالم تاريخ الوقع المعالم تاريخ المعالم تاريخ الإنسانية جه المعالم تاريخ الوقع المعالم تاريخ الإنسانية جه المعالم تاريخ الوقع الوقع المعالم تاريخ الوقع الوقع المعالم تاريخ المعالم تاريخ الوقع النام تاريخ الوقع المعالم تاريخ الوقع الوقع الوقع الوقع الوقع المعالم تاريخ الوقع الو

پنسلڤانيا . ولكن المستوطن الألمانى كان يشتغل بواسطة عمال أحرار فوق أرض معتدلة المناخ متوغلة كثيراً في الشمال عن منطقة المزارع الكبرى ؛ فلم يكن واقعاً إذن تحت تأثير مغريات خطيرة في هذا الشأن . ابتدأت تجارة الرقيق الأمريكية باسترقاق الهنود لتشغيلهم في مناسر العال بالمتاجم وفي المزارع الكبرى . ومن عجب أن يلحظ الإنسان أن لاس كاساس وهو الرجل الذي حض على استبراد الزنوج إلى أمريكا للحلول في العمل محل من تحت حمايته من الهنود المعذبين ، كان بالفعل رجلا طيباً جداً عطوفاً على الإنسانية . ذلك أن الحاجة إلى العال الذين يشتغلون في المزارع الكبرى بجزر الهند الغربية وفي مناطق الجنوب كانت حاجة حتمية ملحة . وعندما ثبت أن الوارد من الأسرى الهنود غير كاف ، شخص المزارعون لا إلى الزنوج فحسب بل إلى السجون وملاجئ الفقراء في أوربا لتزودهم بالعال الكادحين . ولسوف يعلم قارى كتاب مول فلاندرز من تأليف دانيال ديفو ، الرأى الذي كان يراه إنجلزي ذكى الفؤاد هند بواكير القرن الثامن عشر في عملية الرقيق الأبيض الفرچينية . على أن الزنجي جاء في وقت مبكر جداً فإن سنة ١٦٢٠ التي شهدت الآباء الحجاج ينزلون إلى البر في لميموث بنيوانجلند ، شهدت غليوناً هولندياً يُنْزِل إلى البر أول شحنة من الزنوج * في چيمس تاون بڤرچينيا . فكأن عمر تجارة الرقيق الزنوج يناهز عمر نيوانجلند . وكانت تلك التجارة نظاماً أمريكياً مضي عليه قبل حرب الاستقلال ما يربو على قرن وتصف من الزمان . وقدر لها أن تواصل حياتها في كفاح استمر الجزء الأكبر من قرن آخر .

على أن ضائر المفكرين من رجال المستعمرات لم ترتبع قط تمام الارتباح إلى هذه النقيصة ، وكانت إحدى الهم التي وجهها توماس حفرسون لتاج بريطانيا العظمى ولوردما ، أن كل محاولة تبلل لتحسن الحال أو الوقوف في سبيل تجارة الرقيق من جانب المستعمرين كانت تحول دوما مصالح أصحاب الملكيات الكبوى في أرض الوطن الأم (أى انجلترة). وفي سنة ١٧٧٦ كتب اللورد دارتموث إن المستوطنين لا عكن أن يباح لهم وأن يحولوا دون تجارة لها مثل ذلك النفع العمم على الشعب أو يثبطوها و وقفزت مسألة استرقاق الزنوج إلى منزلة الصدارة من الضمير العام

يفضل نشوء التخمر الأخلاق الذي حدث إبان الثورة . وظهر التبابن والتحاد واضحاً وهاجاً لعن العقل . فإن قانون الحقوق الفرچيني يقول «كل الرجال بطبيعتهم أحرار متساوون » ، ومع ذلك فإذا خرج الإنسان إلى العراء وجد العبد الزنجي يكدح في ضياء الشمس تحت سوط « ربس » العال !!! .

ومما يشهد بالتغيير العظيم في الفكرات الإنسانية منذ أن انحل النظام الإمبراطوري الروماني أمام هجات البرابرة أن أصبح في الإمكان أن يقوم الناس بمثل هذا البحث في زوايا قلوبهم وخبايا ضمائرهم . فإن ظروف الصناعة والإنتاج وحق ملكية الأراضي قد حالت زماناً طويلا دون حدوث إنتفاضة جديدة لنظام مناسر الأرقاء . ولكن الدورة ما لبثت أن دارت كرة أخرى ، وكانت هناك مزايا مباشرة هائلة تحصدها الطبقات المالكة والحاكمة من وراء انتعاش ذلك النظام القديم ، في المناجم والضياع الكرى والأشغال العامة الكبيرة . فبعث النظام ولكن قامت في وجهه معارضة عظيمة . وتعالمت الأصوات منذ بداية ذلك الابتعاث باحتجاجات لم تدح تئزايد وتشتد . إذ كان استحياء تلك العادة مضاداً لضمير البشرية الجديد . وكان النظام الجلديد لاسترقاق المناسر أسوأ ني بعض مناحيه من أي شيء في العالم القديم . ونما كان فظيماً مرعباً بوجه خاص ما كانت تؤججه تلك التجارة من حروب لاصطياد الرقيق ، وما كان يجرى من طراد الإنسان في إفريقيا الغربية ، ومن قساوات الرحلة الطويلة عبر المحيط الأطلسي . فإن هؤلاء المساكن كانوا يُعبأون في السفن وليس معهم في غالب الأمر ما يكفيهم من الماء والطعام ودون الرعاية الصحية الواجبة ودون أدرية على الإطلاق . حتى لقد كان الكثيرون بمن يستطيعون أن يتسامحوا مع الاسترقاق على أرض الضياع الكبرى يرون تجارة الرقيق شيئاً لا تستطيع أن تسيغه أخلاقهم . وكانت شعوب أوربية ثلاثة مشتغلة بوجه رئيسي مهذا العمل البشع ، وهي بريطانيا وأسپانيا والدرتغال لأنها كانت أكبر ملاك الأراضي الجديدة في أمريكا , فأما البراءة النسبيَّة للشعوب الأوربية الأخرى فترجع في الغالب إلى أن نصيبهم من المغريات كان أصغر . كانوا مجتمعات مماثلة لتلك ، فلو أتبحت لها ظروف مماثلة لتصرفت تصرفاً مماثلا .

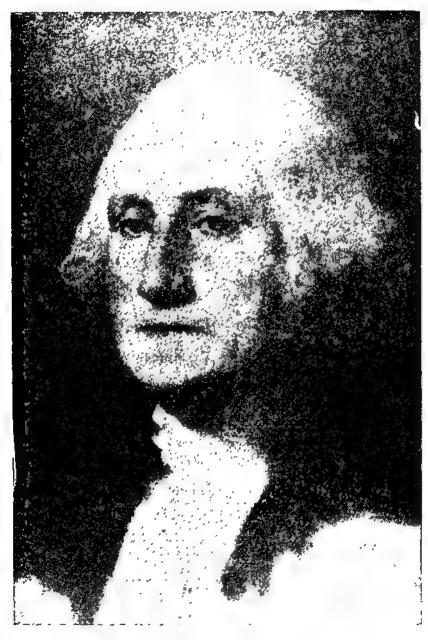
وقد ألم بالنفوس هياج ناشط طوال الجزء الأوسط من القرن الثامن عشر ضد استرقاق الزنوج في بريطانيا العظمى وفي الولايات على السواء . وقدر عدد الأرقاء في انجلترة في سنة ١٧٧٠ بخمسة عشر ألف عبد استجلب أصحابهم معظمهم من جزر الهند الغربية وقرچينيا . وفي سنة ١٧٧١ وصل الزاع إلى امتحان نهائي في بريطانيا أمام اللورد مانسفيلد . فإن زنجيا اسمه چيمس سومرست أحضره سيده من قرچينيا إلى انجلترة . ففر ثم قبض عليه وأخذ أخذاً عنيفاً إلى إحدى السفن لكي يعاد إلى فرچينيا . فاستخلص من السفينة بحكم نص في و قانون المثول Habeas Corpus » . وعند ذلك خرج سومرست من الحكمة رجلا حراً .

وكان دستور ١٧٨٠ لماساشوستس قد أعلن أن « الناس جميعاً يولدون أحراراً ومتساوين ». وقام زنجي بعينه اسمه كواكو بوضع هذا النص تحت الاختبار في ١٧٨٨، وفي تلك السنة أصبحت أرض ماساشوستس مثل أرض بريطانيا لاتتسمع مع الرق ؛ فكان عبرد الدخول إليها معناه الانتقال إلى الحرية . ولم تنح هذا النحو في ذلك الزمان ولاية أخرى من ولايات الاتحاد ، وفي تعداد ١٧٩٠ كانت ماساشوستس هي الولاية الوحدة التي لم تسجل وجود « عبد واحد بها » .

وآراء الناس في قرچينيا جديرة بالملاحظة ، لأنها تكشف القناع عن الصعوبات الحاصة التي كانت تواجه الولايات الجنوبية . فإن كبار رجال السياسة الفرچينين من أمثال واشنجتون وچيفرسون كانوا يطعنون في ذلك النظام ، ومع هذا فإن واشنجتون كان يمتلك العبيد إذ في يكن هناك أي شكل آخر للخدمة لم يكن هناك أي شكل آخر للخدمة المنزلية . ونشأ بفرچينيا حزب قوى يناصر اعتاق الرقيق ؛ على أنهم يناصر اعتاق الرقيق ؛ على أنهم



(تكل ۱۸۱) بنيامين فرانكليز



(سكل ۱۸۲) حررج واشنجتون

كانوا يطالبون بأن يغادر العبيد المعتقون الولاية فى مدى سنة من الزمان وإلا اعتبروا خارجين على الفانون . وكان من الطبيعي أن ينزعجوا من احمال وجود مجتمع همجي حر من السود ، الكثير من أفراده مولودون بإفريقيا ومتشبعون بتقاليد أكلة لحم البشر وشعائر دينية سرية مرعبة - يقوم إلى جوارهم على الأراضي الشرچينية . فلو أنا تأملنا وجهة النظر هذه استطعنا أن نفهم لماذا حدث أن عددا كبيراً من الفرچينيين مال إلى الاحتفاظ بكتلة السود فى البلاد تحت الرقابة بوصفهم عبيداً ، على حين كانوا فى نفس الوقت يعارضون تجارة الرقيق واستبراد أى دم جديد من أفريقيا معارضة مريرة . ومن البسر على الإنسان أن يدرك أن السود الأحرار قد يصبحون بسهولة شوكة مضايقة ؛ والواقع أن ولاية ماساشوستس الحرة أخلقت للوقت حدودها فى وجههم .

ومن هنا يتضبح أن مسألة الرق التي لم تكن في العالم القديم سوى مسألة ﴿ حالة ﴾ أو وضع لأفراد بينهم مماثلة عنصرية (١) ، قد انغمرت في أمريكا مع مسألة مخالفة لها وأشد منها عمقاً هي مسألة العلاقات بين عنصرين من السلالة الإنسانية على طرفي تقيض ، كما أنهما على أشد التباين في التقاليد والثقافة . فلو أن الرجل الأسود كان أبيض ، فلا مجال الشك في أن استرقاق الزنوج كان يمتنع من الولايات المتحدة في مدى جهل واحد من ساعة إعلان الاستقلال بوصفه نتيجة طبيعية للبيانات الواردة في ذلك الإعلان .

٧ - الفكرة الثورية في فرنسا

تكلمنا عن حرب استقلال أمريكا ووصفناها بأنها أول انفصال عظيم عن نظام الملوك الأوربيين ووزارات الخارجية الأوربية ، وبأنها رفض مجتمع جديد لصناعة السياسة المكيافليكة بوصفها الصورة المدبيَّرة للشئون الإنسانية . وما انقضت عشر سنوات حتى وافت ثورة ثانية أشد من الأولى إيذاناً بالشر ، ثورة قامت ضد هذه

⁽١) عنصرية (Racial) ؛ تقوم على العنصر الإنساني وفوارقه أو تماثلاته . (المترجم)

اللعبة العجيبة : لعبة الدول العظمى ، وأعنى بذلك التعاعل المعقد بين البلاطات والسباسات الذي أشربت به عقلية أوربا . على أنه لم يكن في هذه المرة حركة انفصال بعيدة الشقة . حدثت هذه الفتنة الثانية في فرنسا مهد الملكية العظمي وموطنها وقلب أوربا ومركزها . وعلى النقيض من المستوطنين الأمريكيين الذين اكتفوا بمجرد نبذ الملك ، قام الفرنسيون بقطع رأس ملكهم مترسمين خطى الثورة الإنجلنزية . والثورة الفرنسية شأن الثورة الىريطانية وشأن الثورة في الولايات المتحدة ، يمكن تعقما حتى مصادرها الأولى متمثلة في سحافات الملكية ومطامعها . فإن خطط التوسع وأغراض الملك الأعظم وتدبيراته ، استلزمت من الإنفاق على عتاد الحرب في كل أرجاء أوربا ما يتجاوز كل تناسب مع طاقة العصر في الضرائب. ناهيك بأن ترف الملكية ومظاهر بلخها كانت تتكلف نفقات باهظة بالقياس إلى الإنتاج في ذلك الوقت . وقد حدث في فرنسا كما حدث بالضبط في بريطانيا وأمريكا أنه لم تكن المقاومة الأولى موجهة ضد الملك بوصفة ملكآ ولا ضد سياسته الخارجية بوصفها سياسة خارجية بل إلى ما يتسبب عنها من مضابقات وتكاليف تلم بحياة الأفراد ، كذلك لم يميز الناس تمييزاً واضحاً أن أصل الشر بنحصر في تلك الأمور . وطاقة فرنسا الفعلية على دفع الضرائب كانت لا محالة أقل كثيراً نسبياً من طاقة إنجلترة بسبب الإعفاءات المتنوعة التي كان يستمتع بها النبلاء ورجال الكنيسة . ولذا كان العبء المللقي إلقاء" مباشرًا على عاتق عامة الشعب أثقل وأفدح . وهذا الإعفاء جعل الطبقات العليا أعراناً للبلاط ، بدل أن يناصبوا البلاط العداء شأتهم في إنجلترة ؛ وبذا ساعد على إطالة أمد الحراب ؛ حتى إذا ثناهي الأمر فعلا إلى درجة الإنفجار ، كان الإنفجار أشد عنفاً وتمزيقاً وتدميراً .

ولم تكن هناك أثناء سنوات حرب الاستقلال الأمريكية إلا أمارات قليلة تؤذن بأن انفجاراً يوشك أن يحدث في فرنسا . أجل كانت التعاسة متفشية بين الطبقات الدنيا ، وكان النقد ناشطاً والتهكم لذاعا . والتفكير المتحرر الصريح وفيراً ، ولكن لم يبد هناك إلا أقل النذر بأن الوضع في مجمله وبكل ما فيه من عرف وعادات واختلافات مألوفة ، قد لايستمر في طريقه زماناً لا آخر له . كانت فرنسا تتجاوز في

استهلاكها كل طاقة لها على الإنتاج . ولكن لم يكن هناك حتى ذلك الحين من يحس آلام الوخزة إلا الطبقات التي ليس لها لسان تأن به . وكان المؤرخ جيبون يعرف فرنسا خبر المعرفة ، فقد كان بصيراً بباريس يصره بلندن ؛ ولكن أحداً لا يستطيع أن يحس منه في الفقرة التي اقتبسناها خلجة ارتياب تنبي بأن أياماً من الإنحلال السياسي والإجهاعي وشيكة دانية . ولا ريب في أن العالم كان يزخر بالسخافات والمظالم ، ومع هذا فإنه من وجهة نظر المفكر العالم والحناليان كان على درجة لا بأس ما من الرفاهية كما كان يلوح في حال لا بأس ما من العلمانينة .

نعم ظهر فى فرنسا فى ذلك الزمان قدر كبير من التفكير الحر والحطابة الحرة والعاطفة الحرة . وقام فى فرنسا فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، مونتسكيو (١٦٨٩ -- ١٧٥٥) ضريبا لحون لوك فى إنجلترة وإن تأخر عنه يعض الزمان . فوضع النظم الاجتماعية والسياسية والدينية تحت نفس الفحص والتحليل الجوهرى وبخاصة فى كتابه وروح القوانين ، .

وقد جرد المذكية المطلقة يفرنسا من هيئها السحرية ، وهو يقاسم لوك فضل إزالة كثير من الفكرات المحاطئة التي كانت حتى حينذاك تحول دون المحاولات الواهية المقصودة لإهادة بناء الجماعة الإنسانية . ولئن سعدث في بداية الأمر أن أقيمت في الأرض البراح المتخلفة عن ذلك الهدم أكواخ هزيلة مفرطة في الضعف بالغة المعاية في عدم الاستقرار ، فإن ذلك لم يكن راجعا إلى خطئه هو . فإن ابليل الذي عقبه في أواسط القرن الثامن عشر وأخرياته ، كان يفكر تفكيراً جريئا فيا قام به ذهنيا وخلقيا من هدم وإزالة . وتألفت جماعة من أذكياء الكتاب هم المسوعيون » - ومعظمهم ذوو أرواح ثائرة ممن تخرجوا في مدارس اليسوعين الممنازة - ونهضت تحت قيادة ديدروه (Diderot) لوضع الخطط لعالم جديد الممنازة - ونهضت تحت قيادة ديدروه (Diderot) بوساطة مجموعة من المؤلفات . ويقول ماليه (Mallet) ، وإن مجد الموسوعيين ينحصر في كراهيتهم لكل جور وظلم وفي تشهيرهم بتجارة الرقيق ، وعدم التسوية بين الناس في الضرائب ، وفساد العدالة ، والدمار الذي تجره الحروب . . . وفيا كانوا يحلمون به من التقدم الإجباعي ، وما كان يخالهم من

عطف على و دولة والصناعة الناهضة التي شرعت تحول العالم تحويلا ». ويلوح أن غلطتهم الرئيسية تنحصر في مناصبهم الأديان عداوة عمياء . فإنهم كانوا يعتقدون أن الإنسان عادل بطبعه كفء من ناحية السياسة ، على أن اندفاعه نحو الحدمة الاجتاعية ونكران الذات لا يتطور في العادة إلا بطريق تعليم يكون بالضرورة تعليما دينياً ، ولا يدعمه إلا جو من التعاون الشريف . فأما المبتكرات الإنسانية غير المنسقة فإنها لا تؤدى إلى شيء سوى الفوضى الاجتاعية .

وقامت إلى جانب الموسوعين جماعة الإقتصاديين أو الفيزيوقراطيين ، اللين كانوا يقومون بأبحاث جريئة فجة فى شئون إنتاج الطعام والبضائع وتوزيعها ، وقله شهر مؤلف و قانون الطبيعة (١) ، بنظام الملكية الخاصة من الناحية الأخلاقية واقترح إنشاء تنظيم شيوعى للمجتمع . كان هو البشير المؤذن بظهور تلك المدرسة الكبيرة المنوعة ، مدرسة المفكرين الجاعيين (١) أو الحشديين فى القرن التاسع عشر وهم اللين يجمعهم الناس تحت اسم الإشتراكيين .

وكان كل من الموسوعين وغتلف فرق الاقتصادين أى الفيزيوقراطين يطلبون من تلاميدهم قدراً جسياً من التفكير الشديد العميق . وثمة زعيم ألين معطفاً وأقرب إلى قلوب الناس هو روسو (١٧١٢ – ١٧٧٨) . أظهر مزيجاً عجيباً من الصلابة المنطقية والحماسة العاطفية . وكان يبشر بالمبدأ الجداب القائل بأن حالة الإنسان البدائية كانت حالة فضيلة وسعادة ، انحدر عها نتيجة لنشاط القساوسة والملوك والمحامين ومن إليهم نشاطاً لايكاد يبدو له سبب يفسره . وكان تأثير روسو الدهني تأثيراً مفسداً للأخلاق على وجه العموم . إذ أنه لم يصب فقط بضرباته البناء الاجتماعي القائم بل مس كل تنظيمة اجتماعية ! والمظاهر أنه حين كتب عن والمعقد الاجتماعي كان يلتمس المعاذير لنقص ذلك العقد — الذي كتب عن والمعقد الاجتماعي كان يلتمس المعاذير لنقص ذلك العقد — الذي كتب عن والمعقد الاجتماعي كان يلتمس المعاذير لنقص ذلك العقد — الذي كتب عن والعقد الاجتماعي كان يلتمس المعاذير لنقص ذلك العقد — الذي كتب عنه — أكثر مما يوكاد ضرورته .

[.] Code de la Nature ؛ قانون الطبيعة (١)

⁽٢) الجاعيون : Collectivista . هم أنصار المذهب الجاعى الطابق للاشتراكية ، لولا أنهم لا يدخلون الدورة فى خططهم . ومذهبهم يقوم على الملكية الجاعية لوسائل الإنتاج والجادل تحت هيمنة الحكومة . (المترجم)

والإنسان بعيد كل البعد عن الكمال حتى أنه يعلى قدر كاتب يناصر مناصرة ظاهرة رأيا قائلا بأنه لا إثم ولا جناح على من ينكر ديونه ومن ينحرف في سلوكه الجنسي ، وسهرب من أعباء تعليم نفسه وغيره ويتحاشى ما يكلفه ذلك التعليم من نفقات ، ويقول إن ذلك السلوك ما هو إلا مظهر من مظاهر الفضيلة الطبيعية مع أن هذ هو الاتجاه الذي يكاد يكون عاما للأهواء ، والذي ينبغي علينا أن نحمى أنفسنا منه ونقاومه ، والإنسان كذلك بعيد عن الكمال حتى أن كاتبا كهذا يقدر له أن يكون صاحب مذهب يتبعه جهور كبير من الناس من كل الطبقات التي تستطيع قراءة ما يكتبه . وقد ساعلت بدعة روسو الخطيرة مساعدة كبرى على اشاعة طريقة عاطفية وشديدة الجرأة والحروج في معالحة المسائل السياسية والاجتماعية .

وقد لاحظنا من قبل أنه لم محدث حتى اليوم أن مجتمعاً إنسانياً واحداً بدأ يوماً عمله على أساس نظرى . فلا بد من أن يحدث أولا الهيار ما وحاجة إلى التوجيه تسمح للنظريات بأن تتبوأ مكانها : ولا بد أن كتابات وأحاديث المفكرين الفرنسين الجمهورية والفوضوية ، كانت حتى ١٧٨٨ تلوح أموراً لا تأثير لها ولا قيمة من الناحية السياسية شأن اشتراكية وليم موريس (١) الجمالية (الإسطيقية) فى إنجلترة فى نهاية القرن الناسع عشر . فهناك فى فرنسا ، كان النظام الاجماعي والسياسي يسر فى طريقه ثابتا قويا كأنما سيعيش أبداً ، فكان الملك الفرنسي يخرج المقنص أو يصلح ساعاته ، وكان البلاط وعالم العلبقة الراقية يواصلان ملذاتهما ، وكان الماليون لا ينون عن تدبير وسائل التوسع لمشروعاتهم فى الاثنان ؛ وكانت الأعمال النجارية تتردى فى الحطأ وهي تسير في سماجة على نفس امتداد طريقها القديم البالى ، النجارية تتردى فى الحكوس ، وكان الفلاحون يحملون الهموم ويكدحون ويقاسون تبظها الفراثب والمكوس ، وكان الفلاحون يحملون الهموم ويكدحون ويقاسون الويلات ، وتمتلى نفوسهم بكراهية يائسة لقصر النبيل . وكان الرجال يتكلمون ويحسون أنهم يتكلمون دون جلوى . وكان فى الإمكان أن يقال أى شيء إذ كان يبدو أن لن يحدث أى شيء إذ كان يبدو أن لن يعدث أى شيء .

⁽١) وليم موريس (١٨٣٤ – ١٨٩٦) : شاعر واشتراكى وفنان . تعلم فى أكسفورد وتأثر براسكن . أنشأ مصنعا للأثاث وورق الجلوان وزخارف الكنائس وأصدركتها شعرية عديدة . (المترجم)

وجاءت في ١٧٨٧ أول رجة أصابت هذا الاستمرار المطمئن للحياة في فرنسا . فإن لُوبِس السادس عشر (١٧٧٤ – ١٧٩٣) كان ملكاً غبياً سبيُّ التعليم . وكان من سوء طالعه أنه تزوج من إمرأة حقاء مبذرة ، هي ماري أنطوانيت شقيقة إمبراطور النمسا . ومسألة اتَّصافها بالفضيلة والعفة من المسائل التي ثثير اهتمام طراز معين من كتاب التاريخ ، على أنا في غير حاجة إلى مناقشها في هذا المكان . فكانت كما يقول پول ويرياث(١) و تعيش جنباً إلى جنب مع زوجها لا إلى جانبه ، وهي تكاد تكون غليظة القسمات ، ولكن وجهها لم بكن عاديًا إلى حد يمنع أن تتخذ وضع الملكة الجميلة الرومانسية المختالة . فلما أن استنفدت موارد وزارة المالية في الحرب في أمريكا ، وعند ما كانت البلاد بأسرها تتقلب على جمر التذمر والقلق ، نصبت كل سلطانها لغل أيدى وزراء الملك عن أية محاولة للاقتصاد ، ولتشجيع كل نوع من أنواع الإسراف الأرستقراطي ، ولإعادة الكنيسة والنبلاء إلى المركز اللي كانوا يتبوأونه في الأيام العظيمة أيام لويس الرابع عشر . وكانوا يريدون أن يخلعوا من الجيش الضباط غير الأرستقراطيين ؛ وأن يبسطوا من سلطة الكنيسة على الحياة الخاصة . ووجدت في موظف من الطبقة العليا هو كالوني المثل الأعلى لوزير ماليتها . فمنذ ١٧٨٣ إلى ١٧٨٧ ظل هذا الرجل العجيب ينتج النقود بطريقة تشبه السحر، ثم تُختَىٰ هذه النقود ثانية بطريقة تشبه السحر أيضاً عثم انهار في ١٧٨٧ . وكان قد طبق القرض لهوق القرض ، وعند ذلك أعلن أن الملكية ، أي الملكية العظيمة التي حكمت فرنسا منذ أيام لويس الرابع عشر — قد أفلست . ولم يعد في الطوق جمع أي نقود جديدة . ولا بد من عقد جمعية من ذوى الرأى والمكانة في المملكة للنظر في الموقف .

وقد م كالونى إلى اجتماع ذوى المكانة ذاك ، وهو جمعية من القادة والزعماء وجهت إليها الدعوة للإنعقاد ، مشروعا بأخذ ضريبة مالية على كل عقار من الأرض . فأثار ذلك الارستقراطين إلى درجة من الغضب عظيمة . فطالبوا بدعوة هيئة تعادل

^(1) الموسوعة البريطانية مادة (France) .

على وجه التقريب البرلمان الإنجليزى ــ وهى « مجلس الطبقات States General » الذى لم يجتمع منذ ١٦١٤ ، وأصر ذو و المكانة الفرنسيون على طلبهم ذاك دون أن يتنهوا إلى أنهم سينشئون بذلك لساناً يعبر عما يخالج من دونهم من الطبقات من تذمر ، لا يحفزهم على ذلك إلا محاربة الافتراح القائل بأنهم يجبأن يتحملوا نصيباً من أثقال البلاد المالية ، ومن ثم اجتمع شجلس الطبقات في مايو ١٧٨٩ .

وكان ذلك المجلس جمعية تضم ممثلي هيئات ثلاث: النبلاء ورجال الدين والطبقة الثالثة أي العامة. وكان حتى التصويت الطبقة الثالثة متسما جداً ، إذ كاد أن يكون لكل دافع ضرائب بلغ الخامسة والعشرين صوت. (وكان قساوسة الأبروشيات يعطون أصواتهم بوصفهم من رجال الدين ، والنبلاء الصفار بوصفهم نبلاء) . وكان هيلس الطبقات هيئة ليس لإجراءاتها أي تقاليد ولا سوابق . وأرسلت الاستفسارات في هذا الصدد إلى الخبراء بالشئون القديمة و بأكاديمية المخطوطات » . ودارت مناقشاته الأولى حول مسألة هل له أن يجتمع كهيئة واحدة أو كهيئات ثلاث ، يكون لكل طبقة فيها صوت معادل . ولما كان عدد رجال الدين ٢٠٨ والنبلاء ٥٥ والنواب ٢٢٢ ، فيها صوت معادل . ولما كان عدد رجال الدين ١٩٠٥ والنبلاء ٥٥ والنواب ٢٢٢ ، فيها صوت معادل . ولما كان عدد رجال الدين العامة ، ويعطيم التربيب الثاني صوتا فإن الدين أيدي العامة ، ويعطيم التربيب الثاني صوتا واحداً من ثلاثة . كذلك لم يكن غلم العبال العبقات مكان ينعقد فيه . فهل يجب أن يجتمع في باريس أو في إحدى مدن المقاطعات ؟ واختيرت فرساى « بسبب الصيد » . واضعيم في باريس أو في إحدى مدن المقاطعات ؟ واختيرت فرساى « بسبب الصيد » . القومية معابختهم لأي شيء ثقيل مزجع ، وأن يسمحا للمجلس بالتدخل في نظامهما الإجتماعي بأقلي قدر مستطاع ، وإنا لمرى الاجتماعات تتواصل في قاعات مهملة ليس بأحد إلها حاجة أو في صوبات البرتقال وملاعب التنس وما إلها .

وكان أخذ الصوت ، وهل هو بالطبقة أو بالشخص أمراً واضح الأهمية الحيوية : وتجادل القوم فيه مدة سنة أسابيع : حتى إذا اقتبست الطبقة الثالثة بضع صفحات من كتاب(١) مجلس العموم الإنجليزي ، راحت تعلن أنها وحدها هي الممثلة للشعب ، وأنه ينبغي ألا تجيى أية ضرائب من ذلك الحين إلا بعد إقرارها إياها . وعند ذلك

⁽¹⁾ أعنى أن الجمعية قلدته وحدَّث حاوه . . (المترجم)

أغلق الملك القاعه التي كان يجتمع فيها ، وأعلن أنه يحسن بالنواب أن ينصر فوا إلى منازلم . وبدلا من ذلك اجتمع النواب في ملعب التنس مناسب ، وهناك أفسموا يميناً هو يمين ملعب التنس : — ألا يتفرقوا حتى ينشئوا لفرنسا دستورا . واتخذ الملك مظهر القوة وحاول أن يفرق الطبقة الثائلة عنوة : ولكن الجنود رفضوا أن يطيعوا . وعند ذلك خضع الملك بشكل فجائى خطر وقبل المبدأ القائل بأن الطبقات الثلاث يجب أن تتناقش كلها وتعطى صوبها بصفتها جمية وطنية واحدة . وفي نفس الوقت نقلت إلى قرساى بتحريض ظاهر من الملكة ، فرق أجنية تعمل في خطمة الجيش الفرنسي ويمكن أن يعتمد عليها في العمل ضد الشعب ، إذ استقدمت تلك الجيش الفرنسي ويمكن أن يعتمد عليها في العمل ضد الشعب ، إذ استقدمت تلك الفرق من الأقالم تحت قيادة المارشال دى بروجلى ، وأعد الملك العدة للتراجع في منحته . وعندئذ تمردت باريس وفرنسا . وتردد بروجلى في إطلاق النار على الجماهير وأقيمت حكومة مدنية مؤقتة في باريس وفي معظم المدن الكبيرة الأخيرة ، وأنشأت تلك الحكومات البلدية قوة مسلحة جديدة هي الحرس الأهلى ، وهي قوة معدة أولا تلك الحكومات البلدية قوة مسلحة جديدة هي الحرس الأهلى ، وهي قوة معدة أولا وبشكل ظاهر لمقاومة قوات العرش :

وكان عصيان شهر يولية ١٧٨٩ هو فى الحقيقة الثورة الفرنسية الفعالة . وأخذ شعب باريس عنوة سجن الباستيل الجهم لقاء مقاومة ضعيغة جداً . وانتشر التمرد سريعاً إلى كل أرجاء فرنسا . وأحرق الفلاحون فى المقاطعات الشرقية والشهالية الغربية كثيراً من قصور النبلاء و دمروا صكوك القامهم ، وقتلوا أصحاب القصور أو طردوهم منها . وانتشر العصيان فى كل أرجاء فرنسا . ولم يمض شهر حتى كان نظام هيئة الاستقراطية البالى القديم قد انهار . وفر إلى الحارج كثير من كبار الأمراء ورجال البلاط من حزب الملكة . ووجدت الجمعية الوطنية نفسها تدعى لانشاء نظام جديد سباسي واجماعي لعصر جديد .

٩ – الجمهورية الفرنسية المتوجة ٨٩ – ٩١

كانت الجمعية الوطنية الفرنسية أقل توفيقاً بكثير فى ظروف عملها من الكونجرس الأمريكي . فقد كان ذلك الكونجرس يجد بين يديه نصف قارة يتصرف فيه بملء

حريته ، وليس أمامه من خصم يعارضه إلا الحكومة البريطانية . وكانت منظاته الدينية والتعليمية متنوعة ، وهى فى مجموعها غير ذات قوة كبيرة ولكنها تنطوى فى الحيلة على الود والصداقة تحوه . وكانت الشقة نائية بينه وبين الملك چورج فى الجليرة ، وقد أخذ بنحدر فى بعلمه نحو حالة من البلاهة . ولكن معالجة أحكام الدستور وجعله فعالا اقتضت من الولايات المتحدة سنوات كثيرة ، وكان الفرنسيون من الناحية الأخرى محوطين بجيران ميالين إلى العدوان لم فكرات مكيا لهلية ، ويجثم على معلورهم ملك وبلاط يصران على عمل الشر ، وكانت الكنيسة هيئة موحدة عظيمة ثرتبط بالنظام القديم ارتباطاً لا انفصام له . وكانت المكنيسة هيئة موحدة عظيمة الكونت دارتوا والدوق دى بربون والأمراء المبعلين الآخرين الذين كانوا يحاولون أن يحملوا النمسا وبروسيا على مهاجمة الشعب الفرنسي الجديد . هذا إلى أن فرنسا كانت من قبل ذلك قطراً مفلساً على حين كانت الولايات المتحدة موارد لانهاية لها لم تمتد إليها بد التنمية بعد ؛ وكانت الثورة بإقدامها على تغيير نظام ملكية الأراضي والعمل بالأسواق قد انتجت اضطراباً اقتصادياً ليس له مثيل في حالة أمريكا .

تلك هي صعوبات الموقف التي لم يكن إلى تجنبها سبيل . ولكن الجمعية خلقت لنفسها بالإضافة إلى ذلك صعوبات أخرى . فلم تكن هناك إجراءات منظمة . على حين كان لمجلس العموم الانجليزي ما يربو على خمسة قرون من خبرته في عمله . وعبئاً ما حاول مير ابو أحد كبار عظماء الثورة الأولى ، أن يحمل إخوانه على اقتباس القواعد الانجليزية المتبعة بمجلس العموم . ولكن شعور الزمان كان ميالا بكليته إلى الصباح والمقاطعات اللرامية ، وما شاكل ذلك من إظهار والفضيلة الطبيعية ع . وليت المفوضي اقتصرت على أعضاء الجمعية وحدهم . فقد كانت هناك شرفة كبرة للزوار – شرفة فاقت في كبرها كل حد مناسب ، فمن ذا الذي يمنع المراطنين الأحرار من أن يكون لم صوت في الرقابة القومية ؟ ومن ثم كانت هذه الشرفة تغص بجمهور من الناس تواق إلى الاستمتاع و بمشاهدة النهاتر والحصومات » ، المسعد النصفيق أو الصياح الإسكات الحطباء المتكلمين من تحته . اضطر الخطباء مستعد النصفيق أو الصياح الإسكات الخطباء المتكلمين من تحته . اضطر الخطباء الأوسع مقدرة أن يلعبوا الأصحاب الشرفة ، وأن يسلكوا سبلا عاطفية مثيرة

للحواس . وكان من السهل إبان الأزمات أن يُدخل كل من شاء جماعة من الغوغاء يقضون على المناقشة .

على هذه الشاكلة شرعت الجمعية وهي مغلولة الأيدى في القيام بواجها الإنشائي . وفى اليوم الرابع من أغسطس أحرزت نجاحاً أخاذاً عظماً . فأصدرت ــ يقودها كثيرٌ من أحرار النبلاء ــ سلسلة من القرارت ، تلغى نظم موالى الأرض (Serfa) والامتيازات والإعفاء من الضرائب ، والعشور ومحاكم الْإِقطاع . ﴿ وَمَعَ هَذَا فَإِنْ هذه القرارات لم تدخل حبر التنفيذ في أجزاء كثيرة من البلاد إلا بعد ذلك بثلاث سنوات أو أربع ﴾ . وذهبت الألقاب فيها ذهب . وقبل أن تصبح فرنسا جمهورية بزمن مديد كان من الجرائر أن يوقع النبيل باسمه مقروناً بلقبه . وحبست الجمعية نفسها طوال أسابيع ستة (استمتع فيها علم البيان بفرص ذهبية لا نهاية لها؟ !) ، على صوغ ؛ إعلان لحقوق الإنسان ، على غرار قوانين الحقوق التي كانت هي التوطئة الإنجليزية الممهدة للتغيير المنظم . وشرع البلاط في نفس الوقت يدبر المؤامرات لإحداث إنقلاب رجعي وشعر الناس أن البلاط يأتمر بهم . وتتعقد القصة ها هنا في خطط فيليپ دورليان ابن عم الملك وتدبيراته النذلة الحسيسة ، وكان يأمل أن يستخدم الحلافات للحلول على لويس على العرش الفرنسي . وفتحت حدائقه في الباليه رويال Palais-Royal للجمهور ، وأصبحت مركزاً عظيماً للمناقشات المتطرفة . وفعل وكلاؤه الشيء الكثير لإذكاء حدة شهات الشعب نحو الملك . وبلغت الأمور حداً لا يطاق يسبب نقص في المواد الغذائية اعتبرت حكومة الملك مسثولة عنه .

وسرعان ما ظهرت بشرساى الفرقة الفلاندرية (١) الموالية للملك . وكانت العائلة الملكية تدبر التدابير لتزداد بعدا عن باريس – لكى تتحلل من كل شيء أبرم وتستعيد الاستبداد والتبذير . فانزعج الملكيون الدستوريون أمثال الجفرال لافايبت أيما انزعاج ، وحدث في ذلك الوقت أن اندلع غضب الناس عامة لقلة الطعام ، وتحول في

⁽١) فلاندر Flanders هو الإسم الذي كان يطلق قديماً على المنطقة الثمالية الشرقية من فرنسا وعلى بعض أجزاء من بلجيكا وهواندة . (المترجم)

دور انتقال هين إلى غضبة قوية ضد ما يتهدد القوم من الحركة الرجعية الملكبة . إذكان الاعتقاد السائد أن قصر قرساى يضم قدراً وفيراً من المواد الغذائية ؛ وأن الأطعمة كانت نخترن هناك بعيدة عن أيدى الجمهور . وكان الإضطراب قد غلب على عقول الجمهور بسبب شاتعات لعلها كانت مبالغاً فيها ، عن إقامة مأدبة حديثاً في قرساى ، تجلى فيها العداء للشعب . وإليكم بعض المقتطفات من وصف كارليل لهذه المادية الناصة .

لا سمح بقاعة الأوپرا . وسوف تصبح قاعة هرقل حجرة استقبال . ولم يقف الأمر عند حد ضباط فلاندر . بل تعداه إلى الضباط السويسريين ، السويسريين المئة . كلا بل ضباط الحرس الوطني بقرساى ، فمن كان منهم يحمل في قلبه مسكة من الولاء يحضر المأدبة . ولسوف تكون وليمة قل نظيرها .

يا - يا - مليكى، إن العالم يتخلى - عنك. فهل يستطيع الإنسان أن يفعل أكثر من أن تتعالى به العواطف إلى أقصى حد شفقة وولاء وشجاعة ؟ وهل يستطيع الضباط الشبان خفاف الأحلام إلا أن يظهروا بواسطة قبعاتهم البوربونية البيضاء، التى سلمتها إليهم الأنامل الجميلة ؛ وبتلويح السيوف التى استلت للقسم على صحة الملكة ؛ والدوس على القبعات القومية بالأقدام ، وبتسلق المقاصير التى قد يصدر منها أصوات تدخل أو احتجاج ، وبالصياح بأنكر الأصوات وأشد الحنق وفقدان الرشد فى الداخل والخارج - مبلغ الحالة الجوفاء العاصفة التى هم عليها أثناء تناولهم النخب ؟ . ويعة طبيعية ؛ هى فى الأرقات العادية أكلة لا ضير فيها ولكنها الآن قتالة . . فإن مارى انطوانيت المسكينة قد تجمع حولها فصحاء السوء ، وحفلت بما فى المرأة من حدة الطباع ، وحرمت بمعد نظر الملوك ! فالأمر إذن طبيعى جداً بما فى المرأة من حدة الطباع ، وحرمت بمعد نظر الملوك ! فالأمر إذن طبيعى جداً أنها مبتهجة بيوم الحديس » . ولنضع مقابل هذا تصوير كارليل لحالة الشعب .

« تستيقظ « الأمومة » فى صبيحة الإثنين فى طوابق السطوح القذرة ، فتسمع أطفالها يبكون طالبين الحيز . ولا بد للأمومة من الإنطلاق إلى الشوارع وإنى صفوت (طوابير) باعة الحضر والحبازين . حيث تلتى بأمومة قد أضرت بها المخمصة ، وهى مليئة بالعطف عليها والإثارة لها . يا لنا من نساء تعسات ! ولكن بدلا من الوقوف فى صفوف الحبازين لماذا لا نذهب إلى قصور الارستقراطية التى هى الشر كله ؟ هيا بنا Alions . ولنجتمع . هيا إلى دار البلدية . . وإلى قوساى . . » .

وحدث في باريس الشيء الكثير من الصياح والهجيء والذهاب ، قبل أن تحقت هذه الفكرة الأخيرة . وظهر فرد اسمه مايار له قدرة على التنظيم ، واتحذ لنفسه نوعاً من الزعامة . وليس هناك أقل ريب في أن زعماء الثورة ، والحنرال لافاييت بوجه خاص ، قد استخدموا ونظموا هذا الإنفجار للحصول على الملك ، قبل أن يفلت من أيديهم - كما أقلت شارل الأول إلى أكسفورد - ليبدأ حرباً أهلية . وشرعت المظاهرة وقد تقدم الأصيل ، تسير رحلها المكونة من أحد عشر ميلا .

وها نحن نعود إلى الاقتباس من كارليل :

لا كان مايار Maillard قد أوقف من يقودهم من المشردين المشغين على قمة آخر تل ؛ وعند ذلك تبدو لعين الرائى المتعجب قرساى وقصر قرساى ومبراث الملكية المرابى الأطراف . ومن على بعد فى الناحية اليمنى فوق مارلى (وسان جرمين إن لاى) حتى الناحية الأخرى نحو رامبويية ، إلى اليسار ، مناظر كلها جمال ؛ وهى ترقد فى رفق ؛ كأنما يخيم عليها الحزن فى أحضان ذاك الجو المعتم الرطب ! وأمامنا تبدو عن كثب فرساى قديمها وجديدها . وبينهما ذلك الشارع العريض الظليل شارع قرساى ، وقد وهو شارع شجره فخم الإيراق رحيب يبلغ عرضه فها يقدرون ثلاثمئة قدم ، وقد امتدت به صفوفه الأربع من شجر الدردار ؛ ثم يبدو بعد ذلك قصر فرساى ، منتهبا بجنات ملكية ومروج غناء وبرك صغيرة متلألئة ، وعرائش عظيمة عدا بيوت منتهبا بجنات ملكية ومروج غناء وبرك صغيرة متلألئة ، وعرائش عظيمة عدا بيوت التيه (لا بيرانت) ومجموعة وحوش ضارية والتربانون الكبير والصغير ؛ ومساكن عالية الابراج ، وأماكن مورقة ممتعة ؛ يسكنها آلمة هذا العالم السفلي . ومع ذلك عالية الابراج ، وأماكن مورقة ممتعة ؛ يسكنها آلمة هذا العالم السفلي . ومع ذلك آنذاك ، مسلحاً بالقضبان ذات الرموس . » وسقط المطر عندما خم المساء .

فانظر تر الميدان كله وقد تغطت جميع جنباته الفسيحة ، بجاعات من نساء قدرات يقطر منهن ماء المطر ، ومن رجال من الدهماء الأسافل ناحلى الشعور وهم مسلحون بالبلط ، والحوازيق الصدئة والقرابينات القديمة ، والمراوات ذات الحدائد (Batons ferres) والعصى التي تنتهى بسكاكين أو نصال سيوف، ونوع من الحطاطيف التي اصطنعوها بأيديهم ارتجالا ، وليس يبدو عليهم إلا أنهم عصاة جياع . وينهمر المطر والحرس الخاص يتنقل مختالا بخيله وسط الجاهير التي تفح عليه كالأفعى ؛ المطر والحرس الخاص يتنقل مختالا بخيله وسط الجاهير التي تفح عليه كالأفعى ؛ وتسخر منه وهو يهيج ويستثير من أمامه من الجاعات ما يتفرق هاهنا لكي يتجمهر هناك .

ه ويحيط عدد لاحصر له من النساء القدرات بالرئيس والوفد ؛ ويصرون على الذهاب معه : ألم يرسل جلالته بنفسه بعد أن نظر من النافلة ، من خرج ليسأل عما نريد ؟ نريد الخيز . والكلام مع الملك ، ذلكم هو الجواب . ويضاف إلى الوفد

بين الصخب الشديد والجلبة اثنتا عشرة امرأة ؛ ثم يسرن معه مظفرات عبر الميدان . وبين جماعات متفرقة من الحشد ، ورجال من الحرس الحاص ، يتحركون بجيادهم تحت المطر المتهمر . »

و الحبر . . . ، مع عدم الإكثار من الكلام ! . . . ، طلبات طبيعية .

ويتردد على الأسماع أيضا أن العربات الملكية أخذت تشد إليها الحيول ، كأنما هي ذاهبة إلى مدينة متر , وقد ظهرت بالفعل عند البوابة الخلفية عربات سواء أكانت ملكية أم لم تكن . بل إنهم أبرزوا أو استشهدوا بأمر كتابى من بلدية فرساى مرساى مد وهي بلدية ملكية وليست ديمقراطية . ومع هذا فإن داوريات فرساى أدخلها ثانية ، بأمر مشدد إليهم من ليكوانتر اليقظ و وهكذا احلولكت أشباح الليل ، بن العجيج والمطر ؛ أصبحت كل الممرات معتمة مظلمة . وهي أعجب ليلة شوهدت في تلك الأماكن . وربما كان ذلك منذ ليلة بارثولوميو(١) عند ما كانت فرساى – كما كتب ذلك باسوميير – قصرا هزيلا ، و فأنالنا عند ما كانت فرساى – كما كتب ذلك باسوميير – قصرا هزيلا ، و فأنالنا الترام النظام! إذ كان يبدو أن كل شيء ها هنا قد تشتت وتبدد وخرج عن موضعه خروجا بعيداً . وأخد أعلى الناس قدراً في الدنيا – كأنما يجذبهم تيار إلى أسفل خروجا بعيداً . وأخد أعلى الناس قدراً في الدنيا – كأنما يجذبهم تيار إلى أسفل خروجا بعيداً . ورفعت الهراوات ذوات الرعوس الحديدية حول التاج لغاية أخرى غير مراسته ! وانطلقت مع السباب الموجه للحرض الخاص ترميه بالتعطش للدماء والمضادة والمنادة .

و ويحتمع البلاط مرتعدا لا يقدر على شيء : ويتقلب رأيا مع تقلب أهواء الميدان ،

⁽١) بارثولوميو : يشير الكاتب هنا إلى مذبحة الهوجنوت التى حدثت بباريس فى عيد القديس بارثولوميو فى ٢٤ أغسطس ٢٧٧ بأمر الملكة كاترين دى ماسيس . . . (المترجم)

⁽۲) أورفيوس : تمثله الأساطير في صورة أبرز شاعر قبل هوس ، وهو يحمل قيثارة كان يسهى بساحر أننامها لا الكائنات الحية وحدها بل إن الأنهار والصخور كانت تطرب بشجى أننامه وتخضع لأوامره . (للترجم)

ومع تنوع ألوان الشائعات الآتية من باريس. شائعات تأتى متكاثفة تنبىء آونة عن السلم وآنا عن الحرب. ويتشاور نبكو والوزراء كافة ، فلا يخرجون بنتيجة . والقاعات تجتاحها عاصفة هوجاء من همسات : لسوف نفر إلى متز ! بل لن نفر! وتحاول المركبات الملكية الحروج مرة ثانية . . . وإن كان ذلك لمجرد المحاولة . على أنها تدفع إلى الداخل مرة ثانية ، تدفعها دوريات ليكوانتر »

ولزام علينا أن نحيل القارئ إلى كارليل ليعلمه بقدوم الحرس الوطنى ليلا تحت قيادة الحير ال لافاييت نفسه ، وبالمساومة بين الجمعية والملك ، واندلاع نار القتال في الصباح بين الحرس الحاص والمحاصرين الجياع ، وكيف دخل الآخرون القصر عنوة وأوشكوا أن يعملوا في الأسرة المالكة ذبحاً . وجاء لافاييت وجنوده في الوقت المناسب فحالوا دون ذلك . ووصلت للجمهور الجائع من باريس في الوقت الملائم عربات محملة بالحيز ، وأخيراً استقر الرأى على وجوب ذهاب الملك إلى باريس .

و إن مسر المواكب الاحتفالية أمر لم يشهد عالمنا منه القليل ؛ فهناك مواكب النصر والترحيب بالأبطال لدى الرومان ، وهناك دق الصنوج الكابرية والحنازات الإرلندية ؛ ولكن هذا الركب المنطلق بالملكية الفرنسية والمواكب الملكية والجنازات الإرلندية ؛ ولكن هذا الركب المنطلق بالملكية الفرنسية وهي تسير إلى مهدها أمر ينتظرنا لنشهده . فعلى أمتداد أميال عديدة بعرض يتلاشي في زوايا الغموض والابهام — ذلك أن كل المنطقة المجاورة تتجمهر لتطلع . يسير الجمع في بطء ويركد في مضية حتى ليكاد يأسن ، كأنه بحيرة بلا شواطئ ، ولها مع ذلك لحب ضبعة تشبه ضبعة شلالات نياجارا ، أو تشبه بابل وبدلام (٢٠) . ويحدث ضرب بالأرجل في الماء ودوس بها على الأرض . ثم ارتفاع أصوات بالهناف فرب بالأرجل في الماء ودوس بها على الأرض . ثم ارتفاع أصوات بالهناف والعجيج وإطلاق وابل من طلقات القرابينات ؛ إنها أصدق قطعة من الفوضي شوهدت في تلك العصور الأخيرة ! حتى تصب نفسها رويداً رويداً ساعة عتمة

(٢) بدلام : أقدم مستشنى المسانين بأوربا . (المترجم)

⁽۱) الكابرى Cabirl : مجموعة من الآلمة كانت تعبد في الأزمنة القديمة بأسيا الصغرى وأجزاه من بلاد اليونان . وكانت قوى شيطانية في العالم السفلي كما كان يعتقد أنها المتحكمة في الخصوبة . (المترجم)

الغسق المتكاثفة ، فى باريس المنتظرة ، بين صف مزدوج من الوجوه يمتد من پاسى إلى دار البلدية .

« تأمل هذا : مقدمة من جند الحرس الوطنى ، من خلفها أرتال من المدفعية ؛ ورجال يحملون الرماح ونساء بالحراب ، بركبون المدافع والعربات والمركبات ، أو يسيرون على الأقدام . . أرغفة قد رشقت على سن السونكيات ، وغصون خضراء قد رفعت فى أنابيب البنادق . ثم يأتى بعد ذلك الموكب الرئيسى ، خسون عربة محملة بالقدم ، أقرضت لهم من مخازن قرساى التماساً للسلام . يسير من خلفها جماعة لا وجهة لهم من رجال الحرس الخاص ؛ وقد غلبت عليهم الذلة وهم فى قبعات الحرس المشاة (الجرينادير) . ومن خلف هؤلاء مناشرة تأتى المركبة الملكية . ثم تأتى مركبات ملكية . إن هناك مئة من النواب الوطنيين كذلك ، يجلس ن بينهم ميرابو وهو لا يبدى أية ملحوظة . ثم يأتى خليط من الحابل والنابل يسيرون كأنهم حرس المؤخرة ، من الفلاندريين ، والسويسريين والمئة سويسرى وآخرون من الحرس الخاص وقطاع طرق وكل من لا يستطيع أن يتقدم إلى الأمام .

وفيا بن أطواء هذه الجموع تفيض بغير حدود أهالى حى سانت أنطوان وكتيبة النشرد النسائية . ويسير النساء بوجه خاص حول المركبة الملكية . . متشحات بالألوان الثلاثة وهن يغنين أغانى كلها الهمز واللمز ، ويشرن بإحدى أيديهن إلى المركبة الملكية التي يقصدن بها ذلك اللمز ، ويشرن باليد الأخرى إلى عربات الأطعمة ، وتعلن هذه الألفاظ : تشجعوا أبها الإخوان! : فلن نحتاج بعد الآن إلى الحبر ، إنا محضرون لكم الخباز والخبازة وابن الحباز . .

لا ويلوث المطر الألوان المثلثة ، ولكن لهيب السرور متقد لايستطيع إطفاءه أى شيء . ألم يصبح كل شيء الآن على ما يرام ؟ قال بعض هوالاء النساء القويات بعد ذلك ببضع أيام — آه يامدام ياملكتنا الطيبة ، لا تعودى إلى الخيانة مرة أخرى حتى نحبك كلنا 1 » .

كان ذلك هو يوم ٦ أكتوبر ١٧٨٩ . وأقامت الأسرة المالكة فى التويلرى قرابة

سنتين لم يكدر صفوها أثناءهما مكدر. فلو أن البلاط حافظ على عهده العادى مع الشعب ، فلعل الملك كان يموت هناك وهو بعد ملك . حافظت الثورة الأولى على كيامها من ١٧٨٩ إلى ١٧٩١ ، وأصبحت فرنسا ملكية مقيدة ، واحتفظ الملك بسلطان منقوص فى قصر التوبلرى ، وطفقت الجمعية الوطنية تحكم قطراً شمله السلام . فلو أن القارئ رجع إلى خرائط بولندة التى قدمناها فى الفصل السائف ، لعرف ما كان يشغل الروسيا وبروسيا والنمسا فى ذلك الأوان . فعلى حين كانت فرنسا تنشىء النجارب فى جهورية متوجة فى الغرب ، كان يجرى آخر تقسيم للجمهورية المتوجة المتوجة الله العلا .

وإذا نحن تذكرنا عدم خبرة الجمعية ، والظروف التي كانت تعمل في كنفها ، والتغييرات المحيطة بكل شئونها ، وجب علينا أن نسلم بأنها قامت بقدر جسم جداً من العمل الإنشائي . وكان الشيء الكثير من ذلك العمل سليماً قوياً وما يزال باقياً إلى اليوم ، وكان كثير منه تجريبيا . فهدم ونقض . وكان في بعضه الكوارث . فتمت تنقية قانون العقوبات ؛ وألغى التعذيب ، والحبس التعسني ، والاضطهادات المدينية . وأخلت مقاطفات فرنسا القديمة : نورمانديا وبورغانديا وأشباههما مكانها لأمانين محافظة أو قسها إداريا وجعل باب الترقى إلى أقصى رتب الجيش مفتوحاً للرجال من كل الطبقات . وأقيم نظام بديع بسيط من المحاكم ، ولكن أفسده كثيراً أن القضاة كانوا يعينون بانتخاب شعبي ولأجل قصير . فكان هذا الأمر يجعل من الجمهور نوعا من عمكمة استثناف نهائية ، واضطر القضاة — شأن أعضاء الجمعية أن يمثلوا لأهل الشرقة (٢٠) . واستولت الدولة على جميع ما كان للكنيسة من أملاك هائلة وأخذت تديرها بنفسها . وقوضت كل المؤسسات الدينية التي لا تشتغل بالتعليم أو الإحسان ، وجعلت مرتبات رجال الدين فرضاً على الأمة . ولم يكن هذا في حد ذاته شيئاً تكرهه الطبقة الدنيا من رجال الدين بفرنسا ، الذين كانوا في غالب حد ذاته شيئاً تكرهه الطبقة الدنيا من رجال الدين بفرنسا ، الذين كانوا في غالب

⁽١) يريد بها المؤلف دولة يولندة التي اقتسمتها تلك الدول الثلاث. انظر المعالم ص ١١١٦ وما بعدها ج ٤ ط ٢. (المترجير)

 ⁽٢) وهو تمير مجازى : معناه محاولة الحصول على الشعبية باسترضاء وبمائاة أذواق الدهماء وتحيزاتها وأهوائها . (المترجم)

الأحيان يتناولون أجوراً بخسة بشكل فاضح بالموازنة إلى رؤسائهم الأكثر ثروة . ولكن أضيف إلى ذلك أن وظائف القسيسين والأساقفة جعلت بالانتخاب ، وهو أمر أصاب الفكرة الأساسية للكنيسة الكاثوليكية في الصميم ، وهي التي كانت تمركز كل شيء حول البابا ، والتي تأتى فيها السلطة من أعلى إلى أسفل . والواقع العملي أن الجمعية الوطنية أرادت أن تجعل الكنيسة الفرنسية بروتسنانتية بضربة واحدة ، بروتستانتية في التنظيم إن لم يكن في المبادئ . وحدثت في كل مكان مناقشات بومنازعات بين قسوس الدولة الذين أنشأتهم الجمعية العمومية وبين القسيسين المعاندين ومنازعات بين قسوس الدولة الذين أنشأتهم الجمعية العمومية وبين القسيسين المعاندين . والله المهون اليمين) ، الذين أخلصوا الولاء لمروما .

وهذاك شيء عجيب فعلته الجمعية الوطنية فكان من أثره أن أضعف من قبضها على زمام الأمور . إذ أنها أصدرت مرسوماً يقضى بأن لا يكون أى عضو من أعضائها وزيراً تنفيذباً . وكان ذلك محاكاة منهم للدستور الأمريكى ، حيث الوزراء هناك أيضاً منفصلون عن الهبئة التشريعية . وكانت الطريقة الانجليزية تقضى بأن يكون كل الوزراء أعضاء فى الهبئة التشريعية ، وأن يكونوا على استعداد للإجابة على الأسئلة وتقديم الحساب عن تفسيرهم للقوانين وإدارتهم لشئون الشعب . فإذاكانت المبئة التشريعية تمثل الشعب . فإذاكانت أوثق إنصال بسيدهم . وتسبب عن فصل الهيئة التشريعية عن التنفيذية بفرنسا حدوث كثير من سوء التفاهم وعدم الثقة . إذ كانت السلطة التشريعية تعوزها السيطرة والسلطة التنفيذية فقيرة فى القوة المعنوية . فأفضى هذا إلى أن أصبحت الحكومة المركزيه غير فعالة إلى حد أنه كانت تكتشف فى كثير من النواحى فى ذلك الزمان كوميونات (أحياء) ومدن يتبين أنها مجتمعات تمكم نفسها بنفسها أو تكاد ؟ كانوا يقبلون أوامر باريس أو يرفضونها حسها يمليه عليهم هواهم ، ويأبون دفع الضرائب ، ويقتسمون أرض الكنيسة طبقاً لمشهياتهم المحلية .

١٠ ـ ثورة اليعاقبة

من المحتمل جداً أنه لو أن الجمعية الوطنية حصلت على عون من التاج يتجلى فيه الإخلاص ووطنية يتبدى فيها التعقل من جانب النبلاء ، فعسى أن كانت تلك الجمعية

تتعبَّر في طريقها حتى تصل إلى شكل ثابت لحكومة برلمانية لفرنسا - بالزغم من شرفائها العالية العجيج وبالرغم من غلبة روح روسو عليها ومن ضؤولة خبرتها ــ وكان لما في مبرابو ربيل دولة له بصبرة نافذة باحتياجات العصر . وكان يعرف مواطن القرة والضعف في النظام البريطاني ، وكان جليا أنه قد نصب نفسه ليؤسس في فرنسا نظاماً سياسياً مماثلا للإنجلىزى على أساس اقتراع أفسح مجالا وأشد أمانة وشرفاً . حقاً إنه قد استمرأ نوعا من الغزل الروريتاني(١) مع الملكة وكان يلقاها خفية ، ويصرح عنها جاداً غير مازح أنها هي « الرجل الوحيد ، حول الملك ، ويكاد في هذا الأمر أن يصم نفسه بالغباء والحاقة . على أن خططه كانت تقوم على نطاق أوسع كثيراً من نطاق سلالم التويلري الخلفية : ولا شك أن فرنسا فقدت بموته ١٧٩١ واحداً من أشد سياسيها قدرة بناءة ، وكذلك فقدت الجمعية الوطنية آخر فرصة للتعاون مع الملك: وحيثًما وجد بلاط ملكي كان هناك في العادة التآمر ، وكانت تدبير ات الملكيين وبث الملكيين للشر آخر قشة يضعونها في كفة المزان ضد الجمعية الوطنية . ولم يكن الملكيون متمون بمبرابو ولا كانوا يهتمون بفرنسا ؛ وكل ماكانوا يريدونه هو الرجوع وكفَّى إلى فردوس أمتيازاتهم المفقود ، وإلى صلفهم ، وسرفهم الذي لاحد له . وحيل إليهم أنهم لو استطاعوا فقط أن يعقدوا الأمور على حكومة الجمعية الوطنية ليجعلوا إدارتها الشئون أمراً مستحيلا ، فإن العظام الرميم النخرة عظام الدولة القديمة لابد أن تبعث من جديد حية بمعجزة من المعجزات. ولم يخالجهم أى إدراك للاحيال الآخر وهو هوة الجمهوريين المتطرفين التي كانت فاغرة فاها تحت أقدامهم .

وفى إحدى ليالى شهر يونية من ١٧٩١ ، حدث بين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل ، أن الملك والملكة وطفلهما إنسلوا متنكرين من قصر التويلرى ثم اخترقوا باريس وجلن ، وداروا من شمال المدينة إلى الشرق ، حتى وصلوا

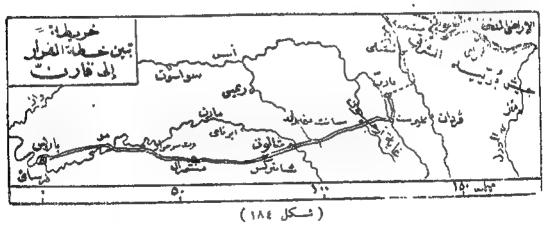
 ⁽١) أن ذلك إتمارة إلى رواية سجين زندا التي عشق الملكة فيها نبيل إنجليزي عشقا عذرياً .
 (المترجم)

آخر الأمر إلى عربة سفر كانت معدة لنقلهم إلى شالون . كانوا يفرون للانضام إلى جيش الشرق إذ كان جيش الشرق و مواليا و أى أن قائده وضباطه على الأقل كانوا على استعداد للتخلى عن فرنسا والإنضام إلى الملك وبلاطه . وهكذا وصلنا آخر الأمر إلى المغامرات التى تروق فؤاد الملكة ، ويستطيع الإنسان أن يتخيل ويفهم النشوة والسرور يعم الفئة الصغيرة والأميال تباعد بنيها وبن باريس . وكان ينتظرهم فوق التلال البعيدة ، التوقير والانحناء العميق وأثم الأيدى ثم تأتى العودة إلى فرساى . وإطلاق يسير للنار على دهاء باريس وبعض طلقات من المدافع إذا استلزم الأمر وإعدام بعض الناس وإن لم يكونوا من ذوى المكانة . وعهد إرهاب أبيض (١) يستمر أشهراً قلائل . ثم يعود كل شيء فيصبح على خير ما يرام . وربما عاد كالوني أيضاً ومعه تدبيرات مالية جديدة . وكان فى ذلك الوقت مشغولا بجمع المدد من بين ظهرانى الأمراء الألمان . وهناك عدد جم من القصور لا بد من إعادة بنائها ، ولن يكاد يكون فى مستطاع القوم الذين أحرقوها أن يتشكوا إن وقع عبء إعادة بنائها ثقيلا فادحاً مستطاع القوم الذين أحرقوها أن يتشكوا إن وقع عبء إعادة بنائها ثقيلا فادحاً فرعا ما على أعناقهم القذرة .

على أن كل هذه الأمانى الزاهية المرجوة ما لبثت حتى تحطمت فى تلك الليلة نحطماً قاسياً عند قارن ". فإن صاحب دار خيل البريد عرف الملك فى سانت مين هولد ، وبينها الليل يرخى سدوله كان ينطلق فى جو الطرق المؤدية شرقاً وقع سنابك خيول الرسل وهم يوقظون البلاد ويحاولون أن يقطعوا الطريق على الهاربين . وكان هناك خيل أخرى على أهبة الانتظار فى القرية العليا من قارن وكان الضابط الشاب المنوط بالنوبة قد انصرف عن الملك فترة الليل وآوى إلى فراشه مرتديا ثياب الخدم م مع الحوذى والسواس الذين كانوا يتوقعون أن يجدوا أبدالهم فى القرية السفلى وهو يتنازع فى القرية السفلى وهو يتنازع مرتديا ثياب الخدم م مع الحوذى والسواس الذين كانوا يتوقعون أن يجدوا أبدالهم فى القرية السفلى ويرفضون أن يتقدموا بالعربة خطوة واحدة . وأخيراً رضوا أن يواصلوا المسير . ولكن رضاءهم جاء بعد فوات الأوان . قإن الفئة القليلة

⁽١) كان اللون الأبيض شعار آل بوربون . (المترجم)

وجدت هناك ناظر البريد بسانت مين هولد - بعد أن سبقها والسواس في لجاجهم يجادلون - ومعه ثلة قد جمعها من الجمهوريين المحترمين في قارن ؛ وانتظر بها عند الجسر الموصل بين جزئي المدينة . وأقيمت على الجسر المتاريس . وصوبت القرابينات إلى المركبة ، وقيل لمن فيها : « جواز سفركم ! » عندئذ سلم الملك بدون مقاومة . وأخذت الفئة الصغيرة إلى منزل أحد موظني القرية . قال الملك ؛ حسناً ! ها أنا ذا بين أيديكم ! » ثم ذكر كذلك أنه جوعان . وأثني أثناء تناوله الطعام على النبيد وقال « نبيذ ممتاز جداً » ولم يسجل أحد لنا ما قالته الملكة . وكانت هناك جنود ملكية على مقربة من المكان ولكنهم لم يحاولوا أن ينقلوا الملك . وأخذ جرس الحطر يدق وأضاءت القرية نفسها تحرزا من المهاغنة .



لم بحدث إلا بعد هذه المغامرة الحمقاء أن استولت فكرة الجمهورية على أذهان الفرنسين . أجل كانت تخالج الناس لا ريب قبل هذا الفرار إلى قارن عاطفة مهمة نحو الجمهورية ، ولكن لم يكد أن يكون في فرنسا أحد من الناس يجهر برغبته في إلغاء الملكية . وقد حدث حتى في شهر يولية يوم لم ينقض على الفرار إلا شهر واحد ،

حين عقد اجتماع عظيم في شان دى مارس (Champ de Mars) : لتعضيد القيام بملتمس بعزل الملك - أن فرقت السلطات شمله ، وقتل فيه خلق كثير ، ولكن هذه مظاهر الحزم لم تحل بين الدرس المستفاد من ذلك الفرار وبين التغلل إلى أذهان الرجال . وكما حدث في انجلترة في أيام شارل الأول فكذلك حدث الآل في فرنسا ، أن أدرك الناس أن الملك لم يكن ليؤتمن - وأنه مصدر خطر . وقويت شوكة اليعاقبة بسرعة . وشرع زعماؤهم روبسهير ودانتون ومارا الذين كانوا يلوحون حتى آنذاك غلاة مستحيلين ، أن يتسلطوا على الشئون الفرنسية .

وكان هؤلاء اليعاقبة نظير الراديكاليين الأمريكيين ، وهم رجال ذوو فكرات تقدمية ضارية غير مروضة . وتقوم قوتهم على خلوهم مما يعوق الناس من مال أو سلطان وأن لهم مضاء واستقامة . كانوا رجالا فقراء ليس لديهم ما يخشون فقدانه . وكان حزب : \$ الاعتدال \$ والتفاهم مع بقايا النظام القديم يقوده رجال من ذوى المكانة الوطيدة أمثال الحنرال لافاييت، الذي ميز نفسه في شبابه بقتاله منطوعًا في صفوف المستوطنان الامريكيان ، ومرابو وهو أرستقراطي كان على استعداد أن يصوغ نفسه على غرار أرستقر اطية الانجلىز الأغنياء الواسعي النفوذ . بيد أن روبسهبر كان محاميًا شابًا فقيرًا ذكيًا من أراس ، كان أثمن ما يملكه هو إيمانه بروسو ؛ وكان دانتون محاميًا هو الآخر بباريس ، ولكنه لا يكاد يفوقه ثراء ، وكان شخصاً ضخماً كثير الإشارة بليغ العبارة ميالا إلى الأسلوب الحطابي ، فأما مارا فكان رجلا أسن منهما وكان سويسرياً على شيء من الامتياز العلمي وإن عادلها في انطلاق سراحه من كل ما يكبل الناس من الاموال والممتلكات. قضى سنوات عديدة في انجلترة وكان يحمل شهادة الدكتوراه الفخرية في الطب من جامعة سانت أندروز ، وله في علم الطب بعض مقالات قيمة نشرها بالانجليزية . وكان كتابه في علم الفوزيق موضع إعجاب كل من بنيامين فرانكلين وجيته . فهذا هو الذي يسميه كارليل « الكلب الكلب » و « الفظيع » و « القذر » و « مطبب الكلاب » . ولعل هذه الكنية الأخرة جاءت من قبيل الاعتراف بفضل علمه! ا

دعت الثورة مارا أن يخوض نحمار السياسة ، وكانت أقدم ثمار قريحته التي

أدلى بها فى معمعان جلطا العظيم تمتاز بالسداد وسلامة التفكير . وكانت تنتشر فى فرنسا فكرة خاطئة تقول بأن انجليرة أرض حرية . ولكن مقالته التى جعل عنوانها و عيوب اللستور الانجليزى ، تبن حقيقة الأوضاع الانجليزية . وقد جن جنونه فى سنيه الأخيرة لاصابته بمرض جلدى لا يكاد بطاق انتقل إليه عندما كان مختبئاً إبان الثورة فى مجارى باريس فراراً من عواقب الهامه الملك ووصفه إياه بالخيانة بعد فراره إلى قارن" . ولم يكن ليستطيع أن يجمع شوارد ذهنه الكتابة إلا وهو جالس في حمام حار . لقد لتى معاملة ولم يكن ليستطيع أن يجمع شوارد ذهنه الكتابة إلا وهو جالس في حمام حار . لقد لتى معاملة شديدة وقاسى الآلام ، فأصبح شديداً قاسى الفواد ، ومع هذا فإنه ببرزفى التاريخ بوصفه رجلا ذا نزاهة ممتازة . ويلوح أن فقرة بوجه خاص كان يستثير سخرية كارليل منه .

ويا لطول الطريق الذي يقطعه ! ! وها هو الآن يجلس عند قرابة الساعة السابعة والنصف ، وهو يسلق نفسه في جماعه ، متقرح الجسد ؛ مصاباً بالسقام ، مريضاً بحمى الثورة . . . رجلا عليلا مضي مفرطاً في العلة والضني ، فقيراً مملقاً معه من النقود ما يعادل بالضبط أربعة قروش وستة مليات من العملة الورقية ؛ مع حمام على صورة حداء ، ونضد للكتابة متين بثلاثة أرجل ، ومتاعب ، ومعه غسالة قدرة تقوم بمرافق بيته . . . ذلك هو مسكنه ومثواه في شارع مدرسة الطب . وإلى هذا المكان دون أي مكان آخر اقتاده سبيله . . . أنصت ! فإن هناك طرقاً ثانياً ، وإن هناك لصوتاً موسيقياً لامرأة ، وهي تأبي أن تحرم الدخول : إنها هي المواطنة وإن هناك لصوتاً موسيقياً لامرأة ، وهي تأبي أن تحرم الدخول : إنها هي المواطنة التي تريد أن تؤدي لفرنسا خدمة . وإذ يسمع ماراً الحوار من الداخل ، يصبح أن أدخلها . ويؤذن لشارئوت كورداي بالدخول » .

وقد عرضت البطلة الشاية أن تقدم إليه بعض المعلومات الضرورية حول الدورة التي قامت ضدهم في كاين ، وبينا هو مشغول في تدوين ما أدلت به من حقائق ، طعنته بسكن كبرة ذات تحد (١٧٩٢)...

تلك صفة معظم زعماء حزب اليعاقبة . فإنهم كانوا رجالاً لا أملاك لهم ، رجالاً لا قيد من ثم يغل أيلسهم . وكانوا أقل ترابطاً بعضهم ببعض وأقرب إلى الطبيعة الاصلية من أى حزب آخر . وكانوا على استعداد أن يدفعوا بفكرات الحرية والمساواة إلى غاية منطرفة منطقية . وكانت معايير الفضيلة الوطنية عندهم عالية وخشنة وكان

هناك شيء غير إنساني حتى في حميتهم لحب الحير ، وكانوا ممتعضين مما يرون من ميل المعتدلين إلى تلطيف الأمور وتسكينها ، وإلى إبقاء العامة في حالة احتباج هونا ما وإلزامهم أحترام للغير شيئاً ما ، وأن يجعلوا الملكية (وذوى الاعتبار من الرجال) موقرين قليلاما ، وقد أعمتهم عبارات مذهب روسو عن الحقيقة التاريخية القائلة بأن الإنسان يكون بطبعه إما ظالماً أو مظلوماً ، وأن الناس لن يجعلوا سعداء أحراراً إلا ببطء بواسطة القانون والتعليم وروح المحبة في العالم .

وبينها حدث في أمريكا أن صيغ ديمقراطية القرن الثامن عشر كانت في جملتها مستنهضة الناس معينة لهم ، لأنها كانت بالفعل أرض المساواة العملية في الهواء الطلق ما اختص الأمر بالبيض من الرجال ، فقد انتجت هذه المبادئ في فرنسا خليطا جنونيا خطراً على سكان المدن لأن أجزاء جسيمة من مدن فرنسا كانت أحياء فقيرة مليثة بأقوام ممن جردوا من أملاكهم وانحلت أخلاقهم وانحطت مرتبتهم وتمررت أرواحهم . وكانت جماهير باريس بوجه خاص في حالة يأس مخطرة ، لأن صناعات باريس كانت في معظمها صناعات ترف. وكان الشيء الكثير من أعمالها من النوع الطفيلي الذي يعيش على نقائص الطبقة الراقية ورذائلها . والآن وقد ولى عالم أهل النعيم وذهب إلى ما وراء الحدود ، وصار الحال إلى التضييق على المسافرين ، وداخل الاضطراب الأعمال ، أصبحت المدينة مليثة بأقوام عاطلين فاضبين . ولكن الملكيين بدل أن يدركوا حقيقة هولاء اليعاقبة وما هم عليه من أمانة خطرة وما لهم من سلطان خطر على خيال الدهماء ، قد بلغ من اغترارهم بأنفسهم أنهم ظنوا أن في إمكانهم أن يتخلوا مهم أداة يعملون مها. وكان موعد إحلال الجمعية التشريعية عحل الجمعية الوطنية تطبيقا لللستور الجديد قد قرب أوانه ، وعندما اقترح اليعاقبة بقصد تمزيق شمل المعتدلين ألا يكون لأحد من أعضاء الجمعية الوطنية الحق في عضوية الجمعية التشريعية ، انضم إليهم الملكيون في جلل عظيم وأنفلوا الاقتراح . ذلك أنهم أدركوا أن الجمعية النشريعية وقد اجتثت مها على تلك الشاكلة كل خبرة وتجربة ، سوف تكون ولامرية هيئة ذات كفاية من الناحية السياسية . وعند ذلك يعود علمهم

«الإفراط فى الشر بالخير العميم » ، وعند ذلك تعود فرنسا فهوى صريعة لا معين لها فى أيدى سادتها الشرعيين . هكذا دبروا وقدروا . بل لقد فعل الملكيون أكثر من هذا . فإنهم ناصروا انتخاب أحد اليعاقبة عمدة لباريس . وكأنى بهذا التصرف فى ذكاء من يجتلب إلى منزله نمراً جائعاً ليقنع زوجته بحاجها إليه . وهى هيئة أخرى تقف مستعدة عن كتب وإن لم يحسب هؤلاء الملكيون حسابها ، وكانت أحسن عدة من البلاط وأقدر على التقدم أماما والحلول عل جمعية نشريعية غير فعالة ، تلك هى كوميون باريس (أى هيئتها البلدية) القوى وهى هيئة قوية النزعات اليعقوبية مقرها دار البلدية .

وكانت فرنسا ما تزال حتى ذلك الحين تستظل السلام . فلم يهاجمها أحد من جيرانها ، لما بدا لهم من إضعافها نفسها بانقساماتها الداخلية . فأما الضحية التي قاست الآلام من جراء ارتباك الحالة في قرنسا فهي بولندة . ولكن لم يكن لدى جُيرانها مانع يحول دون إهانتها وتهديدها وتمهيد السبيل لاقتسام تام عند ما يحلو لهم ذلك . واجتمع ملك بروسيا وإمبراطور النمسا في پلنيتز ۱۷۹۱ Pilnitz ، وأصدرا تصريحا يقول إن إعادة النظام والملكية في فرنسا أمر له أهميته لدى كل وأصدرا تصريحا يقول إن إعادة النظام والملكية في فرنسا أمر له أهميته لدى كل الملوك . وسمح الجيش من المهاجرين ونبلاء الفرنسيين وسراتهم وهو جيش يتكون في معظمه من الضباط ـ بالتجمع على مسافة دانية من الحدود . و يتكون في معظمه من الضباط ـ بالتجمع على مسافة دانية من الحدود .

وكانت فرنسا هي البادئة بإعلان الحرب على النمسا . وكانت الدوافع الى خالجت نفوس من ناصروا هذه الحركة دوافع متنازعة . قإن كثيراً من الجمهورين كانوا برخبون في ذلك لأنهم كانوا يشهون أن يروا ذوى قرباهم سكان بلجيكا وقد تحرروا من النير النمسوى . وكان كثير من الملكيين يرغبون فها لأنهم كانوا برون في الحرب احبالا لإعادة هيبة الملكية وسلطانها . وعارضها مارا معارضة مريرة في صحيفته صديق الشعب (L' Ami du Peuple) لأنه لم يكن يرغب أن تتحول الحاسة للجمهورية إلى حمى حرب . وقد حذرته غريزته من نابليون . وف ٢٠ أبريل ١٧٩٧ جاء الملك إلى الجمعية واقترح بين مظاهر الاستحسان العظم إعلان الحرب :

وابتدأت الحرب بكارثة . فإن جيوشاً فرنسية ثلاث دخلت بلاد البلجيك ؛ فهزم اثنان منها هزيمة منكرة ، وتراجع الثالث وكان بقيادة لافاييت . وعند ذلك أعلنت بروسيا الحرب مؤازرة منها للنمسا ، واستعدت الجيوش المتحالفة لغزو فرنسا تحت قيادة اللوق يرنزويك . وأصلر اللوق إعلانا من أشد إعلانات التاريخ نزقا ؛ فإنه قال إنه يغزو فرنسا ليعيد سلطان الملكية إلى نصابه . وأن أية إهانة أخرى تلحق بالعرش الفرنسي سينتقم لها من الجمعية النشريعية وباريس و بالإعدام العسكرى رميا بالرصاص . » وكان هذا كافيا لتحويل أشد الفرنسين ملكية إلى المذهب الجمهورى - لمدة الحرب على الأقل .

وكان اللدور الجديد من أدوار الثورة ، وهو الثورة اليعقوبية ، هو الثمرة المباشرة لهذا الإعلان . ذلك أنه جعل من المحال استمرار جهود الجمعية التشريعية ، التي كان يتسلط عليها الجمهوريون النظاميون (الحيرونديون) والملكيون ، كما جعل من المحال بقاء الحكومة التي أخمدت ذلك الاجباع الجمهوري في الشان دي مارس وتعقبت مارا حتى اختبأ بالحجاري . واجتمع العصاة في دار البلدية ، وفي اغسطس قامت بلدية (كوميون) باريس بهجوم على قصر التويلري .

وتصرف الملك بغباء سمج ، وبذلك الإستخفاف بالغير الذى هو من امتيازات الملوك . وكان معه حرس سويسرى مكون من ألف رجل كما كان معه حرس أهلى ولاؤه غير مضمون . فصمد صموداً مهما حتى ابتدأ إطلاق النار ، ثم انتقل إلى دار الجمعية وهي الحجاورة له ليضع نفسه وعائلته تحت حمايتها ، تاركاً حرسه السويسرى يقاتل . ولا شك أنه كان يطمع في إلقاء الشقاق بين الجمعية وكوميون باريس ، ولكن لم يكن لدى الجمعية ذرة من روح المقاتلة التي كانت تستمع بها دار البلدية . ووضع اللاجئون الملكيون في مقصورة (لوچ) معدة للصحفيين (وكانت تتصل بها حجرة صغيرة) ، وهناك ظلوا ستة عشر ساعة بينها كانت الجمعية نتناقش في مصيرهم . وكانت تعلو في الحارج أصوات معركة ضخمة ؛ وكان يحدث بين الآونة والأخرى أن تنكسر إحدى النوافذ . وكان السويسريون التعساء يقاتلون وظهورهم إلى الجدران ، إذ لم يكن أمامهم من سبيل إلى غير ذلك .

ولم تجرو الجمعية على مناصرة الحكومة في تكرار ما عملته في شان دى مارس في شهر يولية ، إذ كانت قوة الكوميون الشرسة تنسلط عليها . ولم يجد الملك في الجمعية أية راحة لفواده فإنها عنفته وتناقشت في « إيقافه عن العمل » . وقاتل السويسريون حتى تلقوا من الملك أمراً بالكف عن القتال . وعند ذلك أعمل الجمهور فيهم قتلا حتى قضى على معظمهم ، أن كان الغضب قد بلغ به حد التوحش من إجراء سفك الدماء الذي لا ضرورة له ، وأن كان جنونه قد جن إلى حد لم يعد معه إلى ضبطه سييل .

وكانت المحاولة الطويلة المملة لصوغ لويس فى الغالب و الميروڤنجى ٥(١) ولاستخراج جمهورى شريف متوج من ملك مطلق غبى غير قابل للتكيف ، – قد قاربت آنذاك خاتمتها المحزنة . فإن كوميون باريس كان قد تسلم بالفعل مقاليد السلطان فى فرنسا . وأصدرت الجمعية التشريعية التي لحقها تغير ظاهر فى شجاعتها ، مرسوماً يقضى بإيقاف الملك عن القيام بمهام عمله ؛ وأودعته المعبد ، واستبدلت به لحنة تنفيذية ودعت موتمراً وطنياً لإنشاء دستور جديد .

وعنداند أخد توتر فرنسا الوطنية والجمهورية يصبح شيئاً لا يطاق . وكان كل ما تمتلك من جيوش يتدحرج منهزماً على الطريق المؤدية إلى باريس فى حالة يأس واستسلام (الخريطة ١٨٥) . وصقطت لونجوى (Longwy) ، وعقبتها قلعة فردان العظيمة ، ولم يكن ببدو هناك أى احيال لإيقاف تقدم الحلفاء على العاصمة . وارتفع الإحساس بالخيانة الملكية إلى حد ملأ الناس بقساوة الرعب . وكان لا بد على كل حال من إسكات الملكيين وغل أيديهم وإرهابهم حتى يختفوا عن الأنظار . ونصب كوميون باريس نفسه لمطاردة كل ملكي يمكن العثور عليه ، حتى اكتفلت بهم سجون باريس . ورأى مارا شبح المذبحة مقبلا . فحاول أن يفوز بإنشاء محاكم الطوارئ قبل أن يفوت الأوان بقصد نمييز البرىء من المذنب فى هذا الخليط العظيم العظام

^() أى ملكا بلا سلطان كلوك المير وقنجين الذي كان يتولى السلطة الفعلية دوئهم قاظر القصر . (انظر المالم ص ج ع ط ٢) . (المترجم)

من المتآمرين ، والمشتبه فيهم والسراة غير المذنبين. ولكنهم تجاهلوه ، وحدثت في أوائل سبتمبر المذبحة التي لا بدمنها .

ابتدأ الأمر على حين فجأة بأن عصابة من الرجال كانت تستولى على أحد السجون ثم على الآخر وهكذا . ثم تشكل ضرب من المحاكم المرتجلة الفجة . على حين يتجمع في الحارج صنف من الدهماء الضارية مسلحاً بالسيوف والحوازيق والبلط . وكان السجناء يقتادون من زنزاناتهم واحداً بعد الآخر لا فرق في ذلك بين رجل وامرأة ، ثم يستجوبون استجواباً وجيزاً ، ويعنى عهم بصيحة « لتحيا الأمة يتدافع ويتقاتل ليحدث في الضحية جرحاً أو يصيبها بطعنة . وكان المحكوم عليم يطعنون ، ويمزقون إرباً ويضربون حتى يقضوا نحهم ، وكانت رءوسهم تحز وترفع على الخوازيق وتحمل في أرجاء المدينة وتلتى أجسادهم الممزقة جانباً . وهلك فيمن قتل الأمرة دى لامبال التي تركها الملك والملكة في قصر التويلري . وحملت رأسها على رمح إلى المجد لتراها الملكة .

` وكان فى زنزانة الملكة إثنان من الحرس الوطنى ، رغب أحدهما فى أن يجعلها تنظر من النافذة لتبصر هذا المشهد الفظيع ، ولم يرغب زميله رحمة بها أن يسمح لها بفعل ذلك .

وفى نفس هذا الوقت الذى كانت هذه المأساة الدموية تجرى فيه فى باريس ، كان الحفرال الفرنسى دومورييه ينهرع بأحد الجيوش مسرعاً من فلاندر إلى غابة الأرجون ، ويرد جيوش الحلفاء إلى ما وراء قردان ، وحدثت عند قالمى فى ٢٠ سبتمبر معركة انطوت فى الغالب على تبادل إطلاق المدافع . وأوقف تقدم بروسى لم يكن مصحوباً بالعزم ، وثبتت المشاة الفرنسية فى مكانها ، مذ كانت مدفعيتهم خبراً من مدفعية الحلفاء : وظل دوق برنزويك بعد ذلك عشرة أيام وهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، ثم أخذ ينسحب إلى الراين . وكانت أعناب شامهانيا الحامضة قد، نشرت الدوسنتاريا فى الجيش الدوسى . ومعركة قالمي هذه --

ولم تكن لتعدو كثيراً تبادل إطلاق المدافع ــ إحدى معارك التاريخ الفاصلة . وتم إنقاذ التورة .

والتأم المؤتمر الوطني في ٢١ سبتمبر ١٧٩٢ ، وأعلن من فوره الجمهورية . ولم تكد تلك الأحداث تنهى حتى تحت محاكة الملك وإعدامه كنوع من الضرورة المنطقية . مات الملك بوصفه رمزاً لا بوصفه رجلا . إذ لم يجدوا أمامهم غير ذلك شيئاً يفعلونه به ، يا له من مسكين ، فإنه كان يسد مسالك الأرض . ولم تكن فرنسا لتستطيع أن تدعه يذهب ليشجع المهاجرين ، ولا هي بمستطيعة أن تمنعه من إحداث الشر في بلادها ، فكان وجوده مصدر تهديد لها . وكان ماراً قد حض في غير هوادة على القيام مهذه المحاكمة ، على أنه – بنظرته النفاذة – لم يكن يريد تقديم الملك على القيام مهذه المحاكمة ، على أنه بينون قبل ذلك ملكاً فعلياً ، ويكون فوق الله المحاكمة قبل أن يوقع الدستور ، لأنه يكون قبل ذلك ملكاً فعلياً ، ويكون فوق في محاى الملك . . . والواقع أن مارا قد لعب في الموضوع من أوله إلى آخره دوراً في محاى الملك . . . والواقع أن مارا قد لعب في الموضوع من أوله إلى آخره دوراً مريراً غير أنه دور عادل في الغالب ، كان رجلا عظيماً ، ذا ذكاء لطيف ممتاز ، في إهاب من نار ، يعصف به ذلك البغض العضوى المستقر في الدم ، واللي ليس من ثمار العقل بل الجمد .

وقطعت رأس لويس فى يناير ١٧٩٣ . احتزت بالمقصله لأن المقصلة (الجيلوتين) أصبحت منذ أغسطس السابق أداة الاعدام الرسمية فى فرنسا . وكان دانتون فيا اتخذ لنفسه من دور الأسد ممتازاً جداً فى هذه المناسبة . فلقد زأر بأجهر صوت قائلا : « يريد ملوك أوربا أن يتحدّونا ، وها نحن أولاء نلتى إليهم رأس أحد الملوك » .

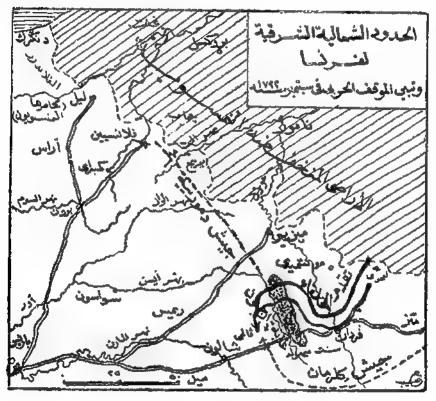
١١ – جمهورية اليعاقبة ١٧٩٢ – ١٧٩٤

ثم جاء بعد ذلك دور غريب فى تاريخ الشعب الفرنسى . فقد توقد وميض لهب عظيم من التحمس لفرنسا والجمهورية . وانعقدت العزائم على وضع حد لروح المسالمة داخل فرنسا وخارجها ، فنى الداخل أزمع القوم القضاء على الملكيين وكل شكل من أشكال عدم الولاء ؛ وفى الحارج ، صمموا أن تكون فرنسا حامية كل

الثوريين ومعينهم . ولايد أن تصبح أوريا كلها بل الدنيا الها جهورية في تكويها . وانثال شباب فرنسا إلى الجيوش الجمهورية انثيالا . وانتشرت في كل أرجاء البلاد أغنية جديدة مدهشة وهي أغنية لا تزال تعمل في إحماء الدم فعل الصهباء هي المارسيليين » . وتد حرجت إلى الوراء الجيوش الأجنبية تلقاء هذه الأنشودة وطوابين الوئابين من حملة السونكي الفرنسيين ومدافعهم المنطلقة في حماسة . وقبل أن تأتى خاتمة الرابع عشر ؛ وإذا هم يطأون في كل مكان أرضاً أجنبية . كانوا في بروكسل وكانوا الجتاحوا سافويا ، وأغاروا حتى مايانس Mayence ، واستولوا من هولندة على الشلد . وعند ذلك فعلت الحكومة الفرنسية فعلة خرقاء . إذ كان أسخطها طرد ممثلها من انجائرة عند إعدام لويس ، فأعلنت الحرب على انجلترة . كانت فعلة خرقاء لأن اللاورة التي أعطت فرنسا مشاة جديدة متحمسة ومدفعية زاكية متحررة من ضباطها الأرستقراطيين ومن كثير من التقاليد المعوقة ، قد أفسدت نظام بحريتها وكان للانجليز السيادة في البحر . ووحد هذا الاستفزاز كلمه انجلترة كلها ضد فرنسا ، بعد أن السيادة في المابية الأمر حركة متحررة كبيرة تعطف على الجمهورية .

ولسنا بمستطيعين أن ننبتك في أى تفصيل حديث القتال الذي قامت به فرنسا في السنوات القليلة التالية ضد تحالف أوربي. فأزاحت النسويين إلى الأبد من بلجيكا ، وحولت هولندة إلى جمهورية . وسلم الأسطول الهولندى وقد تجمد حوله الماء في نهر التبكسل ، لحفنة من الفرسان دون أن يطلق من مدافعه قذيفة واحدة . وتوقفت هجات الفرنسيين نحو إيطاليا ردحا من الزمان ، ولم يحدث إلا في عام ١٧٩٦ أن جر الاجديدا هو نابليون بونابرت ، إقتاد الجيوش الجمهورية المهلهلة الثياب مظفرة عر بيدمونت إلى مانتوا وقيرونا . ولا يستطيع كتاب معالم تاريخية أن بصور لك عرب بيدمونت بدقة ؛ غير أنه ملزم أن يلحظ الصفة الجديدة التي ظهرت في الحرب . كانت الجيوش المحبورة القديمة تحارب لا غاية لها إلا القتال ذاته ، وتسعى في بطء وتراخ ، كالعال الذين يشتغلون بالساعة ؛ وكانت هذه الجيوش المدهشة الجديدة تحارب من أجل النصر — وإن كان جائعة ظمئة . وكان أعداؤهم يسمونهم ه الفرنسيين

الحدد » . يقول س . ف أتكنسون (١) : « كان أشد ما أدهش الحلفاء هو عدد هو لاء الجمهوريس وسرعتهم . فالواقع أنه ما كان ليعوق هذه الجيوش المرتجلة أى عائق . فكان من المتعذر الحصول على الحيام بسبب انعدام المال . وكان في غر الامكان نقلها بسبب العدد الحائل من العربات التي لا مفر عندئذ من الاحتياج إلها ، وكانت كذلك غير ضرورية لأن المتاعب التي طالما سببت تسلل الجند زرافات لواذاً



(شبكل ١٨٤)

من الجبوش المحترفة ، كان يتحملها رجال ١٧٩٣ ــ ١٧٩٤ مسرورين مغتبطين . كما أن المدد لهذه الجيوش التي لم يسمع الناس حتى ذلك الحين بمثل حجمها لم يكن من المستطاع حمله في قوافل ، وسرعان ما تعلم الفرنسيون « فكرة العيش على حساب البلاد » . وبذا شهدت ١٧٩٣ مولد طريقة الحرب العصرية : سرعة الحركة والتطور

⁽¹⁾ في مقالته يه الحروب الفرنسية الثورية » بالموسوعة البريطانية الطبعة النائية عشرة .

الكامل القوة الوطنية ، والهجود (١) في العراء والاعتاد في الميرة على البلد المقهور وحشد القوات وإجبار الأهالي على تقديم ما يلزم للجيش ، وذلك كله مقابل المداورات الحنرة ، والجيوش الصغيرة المحترفة ، والحيام والجرايات الكاملة والألاعيب الدنيئة . وكان الأولون يمثلون روح الحسم في الأمور ، ويمثل الآخرون روح الحطار بالقليل للحصول على القليل » .

وبينها كانت هذه الجيوش (العرمرم) المتحمسة في أسمالها الباليه تنشد « المارسيلييز » وتقاتل من أجل ﴿ فرنسا » ، دون أن يتضح لها تمام الوضوح فيما يبدو ، هل كانت تنتهب الأقطار التي انثالوا إليها أو تحررها ، ــ كانت الحاسة الجمهورية في باريس تبدد نفسها بطريقة أقل مجداً وكرامة بكثير . وكان مارا وهو الرجل الوحيد ذو اللكاء القاهربين اليعاقبة قد أصابه الجنون بسبب دائة العضال ، وسرعان ما قتل . وكان دانتون سلسلة من الصواعق الوطنية ؛ فلم ينق عندثذ غير روبسبيير وتعصبه الراسخ الوطيد ، فتسيطر على الموقف . ومن العسير أن يفضى الإنسان في هذا الرجل برأى ، كان رجلا ضعيف البنية خوافاً بطبعه مغروراً صلفاً . ولكن كان فيه ألزم مواهب القرة وهي الإيمان . كان يعتقد لا في رب يألفه الناس ، بل في كاثن علي " بعينه ، وكان يرى روسونتَبيًّا لذلك الكاثن . فنصب نفسه لإنقاذ الجمهورية على الشاكلة التي يراها ، وكان يتوهم أنه ليس في مستطاع أحد إلا إياه أن ينقذها . وبذا أصبح بعتقد أن بقاءه في دست الحكم إنقاذ للجمهورية . وكان يشير إلى أن الروح الحية في الجمهورية قد نشأت عن مذبحة الملكيين وعن إعدام الملك . وحدثت ثورات كثيرة : شبت واحدة منها في الغرب في محافظة لا ڤاندية ، حيث ثار الأهالي ضد التجنيد وضد طرد رجال الدين الأصلين من مملتكاتهم ، وكان يقودهم فها بعض النبلاء والقسيسين ، وأخرى في الجنوب حيث ثارت ليون ومارسيليا وسمح ملكبو طولون لحامية إنجلزية وأسبانية بالنزول فيها . وكأنما ليس هناك أي جواب فعال على هذه الثورات إلا مواصلة قتل الملكيين . ولم يكن هناك شيء أحب من

⁽١) المجود ؛ أي منت الجنود على الأرض دون حيام ولا لوازم معتكرات . (المترحم)

هذا إلى قساوة أفئدة سكان أحياء باريس الوضيعة . واخذت محكمة الثورة تعمل بجد، ، وابتدآت عملية ذبح متواصلة .

وقد نفذ حكم الإعدام فى مدة الثلاثة عشر شهراً السابقة على يونية ١٧٩٦ فى ١٢٧٠ شخصاً ، ونفذ الاعدام فى الأسابيع السبعة التالية فى ١٣٧٦ شخصاً . وجاء اختراع المقصلة فى أنسب الأوقات لهذه الحالة التى ألمت بمزاج الناس . وقضت المقصلة على الملكة ، وكذلك قضت المقصلة على معظم خصوم روبسبيير ، وقضت المقصلة ال ... على الملحدين الذين أنكروا وجود أى كائن على أستمى ؛ وقضت المقصلة على دانتون لأنه رأى أن قد بولع فى استعال المقصلة ! ! . ؟ . . وكانت هذه الآلة الحديدة الجهنمية تحز يوما بعد يوم ، وأسبوعاً بعد أسبوع ، الرؤوس ثم المزيد من الرؤوس ثم المزيد من الرؤوس ثم المزيد من ويتطلب منه الأربد فالمزيد ، كما يتطلب ملمن الأفيون المزيد منه فالمزيد ! ! ؟ . .

وكان دانتون ما يزال هو دانتون ، إذ كان غضنفراً فوق المقصِلة وكان موقفه عليها مثالياً . قال 1 لا ضعف يا دانتون ! ١ .

وأعجب شيء وادعاه إلى الضحك أن روبسبير كان شريفاً شرفاً لا يتطرق إليه الشك . بل لقد كان أشرف بكثير من أى فرد من جماعة الرجال الذين خلفوه وكان يطيف به إلهام يبث فيه رغبة حارة فى إنشاء نظام جديد للحياة الإنسانية . وأخذت بلخنة الأمن العام وهي حكومة الإثنى عشر للطوارئ وهي التي كانت عند ذاك دفعت بالمؤتمر جانباً ، تقوم بعمل إنشائى بالقدر الذى استطاع أن يستنبطه لها روبسبير . وكان المعيار الذى حاولت أن تقيم عليه عملها البناء هائلا ضخماً . فإن كل المسائل المقدة التي لابد لنا اليوم من الكفاح وإياها قوبلت بملول سريعة سطحية ضحلة . وبذلت عاولات للتسوية بين الناس في العقار . قال القديس چوست * الثراء شنعة » . فضربت الضرائب على أملاك الأغنياء أو صودرت لتقسيمها بين الفقراء . وكان لابد فضربت الضرائب على أملاك الأغنياء أو صودر درق وزوجة وأولاد . وكان العامل من أن يحصل كل رجل على منزل آمن ومورد رزق وزوجة وأولاد . وكان العامل جديراً بأجره ، ولكن ليس له الحق في الحصول على منفعة من المنافع . وجرت عاولة لإلغاء الربح إلغاء تاماً ، وهو الحافز الحشن الفج لمعظم أعمال التجارة بين عاولة لإلغاء الربح إلغاء تاماً ، وهو الحافز الحشن الفج لمعظم أعمال التجارة بين

الناس منذ ابتداء الجاعة الانسانية . والربح هو اللغز الاقتصادي الذي ما يزال يشكل علينا إلى اليوم . وصدرت قوانين عنيفة ضد الاستغلال بالسوق السوداء بفرنسا في ١٧٩٣ . وجدير بالذكر أن انجلترة وجدت نفسها في ١٩١٩ مضطرة أن تصدر قوانين أشبه ما تكون بنلك . ولم يقتصر هم محكومة اليعاقبة فقط على مجرد إعادة تخطيط النظام الاقتصادي ــ في معالم صريحة ــ بل تجاوزته إلى النظام الاجتماعي كذلك . فجعل الطلاق فى نفس سهولة الزواج ، وألغى التمييز بين الأطفال الشرعيين وغير الشرعيين . واستحدث تقويم جديد ، مع أسماء جديدة للشهور وأسابيع مكونة من عشرة أيام وما إلى ذلك ــ وقد أزيل كل ذلك منذ زمن بعيد ؛ وكذلك أخلت العملة السمجة والموازين والمقاييس المعقدة بفرنسا القديمة مكائها للطريقة العشرية البسيطة الواضحة التي لا تزال موجودة . . . وتقدمت بعض الفئات المتطرفة تقدّر ح إلغاء « الله » فيما يلغي من النظم الأخرى تمام الالغاء ، واستبدال عبادة العقل به . وأقيمت بالفعل حفلة للعقل بكاندراثية نوتردام اتخذت فيها إحدى حسان الممثلات ربة للعقل. ولكن روبسييس وقف في وجه هذه الحركة إذ أنه لم يكن ملحداً . قال « إنما الإلحاد نزعة أرستقراطية » فأما الفكرة القائلة بذلك الكائن العلى" الذي يراقب البرئ المظلوم ويكلوه ويعاقب الحبرم الظافر ، إنما هي بالضرورة فكرة الشعب ، ولذا قضي بالمقصلة على هيبير . Hebert ، الذي احتفل بعيد العقل . كما قضي على كل أفراد جماعته .

وألم بروبسبير مع تقدم صيف ١٧٩٤ شيء ملحوظ من الاضطراب الذهني . كان مهتماً اعمق الاهتمام بديانته . (وكان اعتقال المشتبه فيهم وإعدامهم يجرى آنذاك على أثم نشاط . فكان و الارهاب ، يجلجل في شوارع باريس في كل يوم بعرباته المليئة بالمحكوم عليهم) . وقد حمل روبسبيير المؤتمر أن يصدر مرسوماً بأن فرنسا تؤمن بكائن على أسمى ، كما تؤمن بذلك المبدأ الباعث الطمأنينة في النفوس : مبدأ خلود الروح . وفي يونية أقام عيداً عظيماً هو عيد كائنه الأسمى ، وسار إلى الشان دىمارس موكب ترأسه وهو في ثياب زاهية يحمل باقة عظيمة من الأزهار وسنابل القمح . وأحرقت في مشهد وقور رهيب تماثيل من مادة قابلة للاحتراق عثل الإلحاد والرذيلة ؛ ثم نهض في مكانها بطريقة آلية ماهرة وبشيء قليل من

الصرير ، تمثال للحكمة غير قابل للاحتراق . وألقيت الخطب ــ وألتى منها روبسپير أهمها ــ ولكنظاهر أنه لم تجر أية عبادة

ومنذ ذلك الحين بدت على روبسيير بوادر الرغبة فى التأمل بمعزل عن شئون العالم . فظل شهراً كاملا بمنآة من إلمؤتمر . وحدث فى أحد أيام شهر بولبة أنه حضر وألتى خطبة عجيبة انذرت بشكل واضح بقرب حدوث محاكمات جديدة . قال : لا إنى وقد شخصت ببصرى متفكراً فى مجموع تلك الرذائل التى قوضها سيل الثورة الجارف ، كنت فى بعض الأحيان تأخذنى رعدة الحوف من أن أندنس من جيرة الشريرين النجسة . . . وإنى لأعرف أن من السهل على عصبة العلغاة فى العالم أن يتكاثروا على فرد بمفرده ، غير أنى أعرف كذلك ماهو واجب الرجل الذى يقدر أن يموت دفاعاً عن الانسانية » .

وهكذا استطرد حتى وصل إلى عبارات ميهمة كان يبدو أنها تهدد كل إنسان .

راستمع الموتمر هذه الخطبة في صمت وسكوت ، ثم حدث عندما قدم اقتراح بطبعهاو توزيعها ، أن جأر بصياح الغضب وأبي السياح بذلك وخرج روبسيير في استياء مرير وذهب إلى نادى أنصاره ، وأعاد تلاوة خطبته عليهم ! وامتلأت تلك اللبلة بالكلام والمقابلات والاستعداد للغد ؛ وفي اليوم التالى انقلب الموتمر على روبسيير . وهدده شخص اسمه تاليان بمنجره . ولما حاول أن يتكلم صاح به الأعضاء حيى أسكتوه ، ودق الرئيس الجرس في وجهه . وقال روبسيير « يا رئيس السفحين إنى أطلب الكلمة ! » وأبيت عليه الكلمة . وخانه صوته . فأخذ يسعل ويصخب وصاح بعضهم « إن دم دانتون يختقه » . فوجهت إليه الهمة . واعتقل هناك للوقت ومعه أهم أعوانه شأناً .

وعند ذلك ثارت ضد المؤتمر ثائرة دار البلدية وكانت لا تزال قوية النزعة البعقوبية. وأخذ روبسيير ورفقاؤه عنوة من أيدى آسريهم. ومرت ليلة حدث فيها التجمع والزحف ثم الزحف المضاد، وأخيراً التقت قرابة الساعة الثالثة قوات المؤتمر بقوات بلدية باريس خارج دار البلدية .

وكان هنريو ، قائد اليعقابة يرقد مخموراً في الطابق الأعلى إثر يوم قضاه منهمكاً في العمل ؛ وعقبت ذلك مفاوضات ، ثم انحازت جنود الكوميون بعد تردد قلبل إلى صف الحكومة . وتصابح القوم في انفعال وطني وأطل أحدهم من نافذة بدار البلدية . ووجد روبسپير وآخر من بني معه من إخوانه أن جنودهم انفضوا من حولهم وخانوهم وأوقعوهم في الفخ . وألتي إثنان أو ثلاثة من هؤلاء الرجال بأنفسهم من إحدى النوافذ ، وأحدثوا بأنفسهم إصابات مروعة على الأسوار الحديدية دون أن المقتلوا أنفسهم . وحاول آخرون الانتحار . والظاهر أن أحد الجنود أصاب روبسبير برصاصة في الفك الأسفل فقد وجدوه يحملق بعينين شاخصتين وسط وجه شاحب كان نصفه الأسفل من الدم .

وأعقب ذلك سبع عشرة ساعة قضاها فى الألم المرح قبل أن تحين نهايته ولم ينبس بكلمة طوال تلك المدة ، إذ كان فكه مربوطاً ربطاً خشناً بقطعه قلرة من القاش ، واقتيد هو ورفاقه ، والأجسام المهشمة المحتضرة لأولئك الرجال الذين قفزوا من النوافل وكانو فى مجموعهم اثنين وعشرين رجلا للقصلة بدل الذين قضى بإعدامهم فى ذلك اليوم . وكانت عيناة مغمضتين معظم الوقت ، ويقول كارليل إنه فتحهما قرأى السكين العظيمة ترتفع من فوقه وأخذ يقاوم ويتملص . كذلك حدث فيا يظهر أنه صرخ عندما رفع الجلاد عنه ضهادته . ثم هوت السكين سريعة رحيمة . وانتهى عهد الارهاب . ومنذ البداية حتى النهاية كان عدد المحكوم عليهم والمعدومين أربعة آلاف إنسان .

١٢ ــ حكومة الإدارة

مما يشهد بالحيوية الهائلة والحير العميم في طوفان المثل العليا والمقاصد الجديدة التي أطلقت النورة الفرنسية أسارها إلى علم الجهود العملية ، أنها كانت لا تزال تستطيع أن تفيض بسيل خلاق بعد أن رأى الناس لها صورة ممسوخة وسخروا منها حين تمثلت في شخصية روبسيير وحياته العجبيتين المضحكتين . وروبسيير صاحب الفضل في الكشف عن أعمق أفكارها ، وهو الذي أبدى المتوقع من طرائقها وتمارها ،

خلال العدسات الغريرة المشوّهة التي صيغت منها كبرياوه وأنانيته الخارجة عن كل معقول ؛ وهو الذي سود ولطخ بالدم والرعب كل آمافا وما ينتظر منها ؛ ومع ذلك فإن قوة هذه الفكرات لم تتدمر . إذ أنها تحملت الاختبارات القاسية التي ألمت بها أنناء عرضها على تلك الصورة المضحكة البشعة . وظلت الجمهورية بعد سقوطه تعكم حرة لا بهاجمها مهاجم منيعة لا بنال منها أحد منالا . ولكن لم يكن لها من زعيم يقودها ، وذلك أن تعلقاءه كانوا جماعات من رجال مكرة أو عاديين ، وواصلت بلحمهورية الأوربية كفاحها مدة من الزمان ، ثم لم تلبث حتى سقطت ثم نهضت المنية لا تقهر .

ومن الحير أن نذكر القارئ في هذا المقام بالحجم الحقيق لدور الإرهاب هذا ، الذي يروع الأخيلة أيما ترويع ، والذي بولغ فيه بناء على هذا مبالغة هائلة بالقباس إلى بقية الثورة . فمنذ صيف ١٧٩٩ كانت الجمهورية دولة منتظمة مظفرة . ولم يكن منتظمة ، ومنذ صيف ١٧٩٤ كانت الجمهورية دولة منتظمة مظفرة . ولم يكن الإرهاب من عمل البلاد بأجمها ، بل مما جنته أيدي رعاع المدينة اللين كانوا مدينن بوجودهم ووحشيتهم إلى سوء الحكم والظلم الاجتماعي في الدولة البائدة ؛ وما كان انفجار حكم الإرهاب لميحدث لولا إصرار الملكيين على خيانتهم وعدم ولاتهم ، إصراراً أثار المتطرفين إلى درجة الجنون ، وحل كتلة الجمهوريين المعتدلين على عدم التدخل . وكان خيرة الرجال مشغولين بقتال النسويين والملكيين على الحدود . وينبغي لنا أن تتذكر أن عجموع من قتلوا في حكم الإرهاب وصل في غاية جملته إلى بضع آلاف قليلة ، وكان بين هولاء الأعداد ولا ريب عدد كبر من خصوم بغمم الجمهورية العاملين ، الذين كان يحق لها أن تقتلهم قياسا على معاير ذلك الزمان . وكان من بينهم من الحونة وصناع الشر أمثال فيليب دوق أورليان ، صاحب قصر وكان من بينهم من الحونة وصناع الشر أمثال فيليب دوق أورليان ، صاحب قصر وكان من بينهم من الحونة وصناع الشر أمثال فيليب دوق أورليان ، صاحب قصر وكان من بينهم من الحونة وصناع الشر أمثال فيليب دوق أورليان ، صاحب قصر دالهاليد رويال ، الذي أعطى صوته مجداً موت لويس السادس عشر .

ولقد ضاع من الأرواح على بد القواد الإنجليز وحدهم فى يوم افتتاح ما يسمى بإسم هجوم السوم فى يولية ١٩١٦ ، أكثر مما ضاع فى الثورة الفريسية كلها منذ بدايتها . الماتمنها .

وإنا لنسمع كثيراً عن شهداء حكم الإرهاب لأنهم كانوا قوما من ذوى المكانة والمصاهرة والقرابة الطبية ، ولأنه أثير ضرب من الدعاية حول ما قاسوا من عذاب . ولكن علينا أن نوازن في أذهاننا بين ذلك وبين ما كان يجرى في سجون العالم عامة في ذلك الزمان . فعندما كانت مقاليد الحكم في فرنسا بيد الإرهاب ، كان يفتل في انجلترة وأمر بكا بخرائر ارتكبت ضد الممتلكات – وغالباً ما كانت جرائر تافهة جداً – عدد يفوق كثيراً عدد من حكمت عليهم محاكم الثورة في فرنسا بسبب الحيانة للدولة . وبديهي أنهم كانوا في الواقع أناساً عاديين جداً ، ولكنهم قاسوا آلاما على طريقتهم الحشنة . فقد حدث مرة أن شنقت فتاة في ماساشوستس ١٧٨٩ لأنها أخذت بالإكراه تعبد أن حوكماء ومشابك من فتاة أخرى لقيتها في الطريق . كذلك وجد هوارد محب الإنسانية (قرابة ١٧٧٣) عدداً من الأفراد الأبرياء محجوزين في السجون الإنجليزية بعد أن حوكموا وحكم براءتهم ولكنهم لم بستطيعوا أن يدفعوا أجرة السجان . وكان استعمل بعد أن حوكموا أماكن قذرة لا تخضع لأية رقابة فعالة . وكان التعذيب لا يزال بستعمل في الممتلكات الهانوڤرية لصاحب الجلالة البريطانية الملك جورج الثائث . وظل يستخدم في فرنسا حتى عهد الجمعية الوطنية . فالحق أن هذه الأمور كلها تشير إلى مستوى العص عامة .

وليس فيا سجل ما يدل على أن أى امرىء قد هذبه عمداً رجال النورة الفرنسية أثناء حكم الإرهاب. فإن هولاء المثات القلائل من السراة الفرنسيين قد تردّوا فى حفرة كان يطيب معظمهم نفساً بأن تحفر للآخرين. كان الأمر فاجعاً لاجرم، ولكن لم يكن فيه فاجعة عظيمة إذا قيس بمعيار التاريخ العام. فإن الرجل العامى فى فرنسا كان أوسع حرية وأوسع رزقاً، وأشد سعادة إبان حكم و الإرهاب » مما كان فى ١٧٨٧.

وإذا استعرضنا قصة الجمهورية بعد صيف ١٧٩٤ وجدناها قصة معقدة لمجموعة من الطوائف النساسية التي اتخذت لنفسها برامج وأهدافاً لا حصر لها ، منها ما هو جمهورى راديكالى ومنها ما هو ملكى رجعى ، غير أنها كانت تظللها رغبة عامة في إقامة نظام ما محدد فعال وإن كلفها ذلك قلراً جسياً من الإذعان والتساهل . وأحدث

اليعاقبة والملكيون سلسلة من الفتن ، إذ يلوح أنه كان هناك في باريس ما عسانا أن نسميه اليوم باسم طبقة مشاغبي الشوارع ، وهي على أتم الإستعداد للخروج للقتال والنهب في صف أي من الطرفين . ومع هذا فإن المؤتمر أنتج حكومة ، هي حكومة الإدارة المكونة من خسة أعضاء ، والتي حافظت لفرنسا على تماسكها أمد خس سنوات . وقضى على آخر فتنة وأشدها خطراً في أكتوبر ١٧٩٥ ، بمهارة فائقة وحزم نافذ عن يد چنرال شاب ناهض هو نابليون بونابرت .

كانت الإدارة مظفرة فى الحارج ، غير انها كانت حاملة غير خلاقة فى الداخل ، إذ كان أعضاؤها أحرص على الاستمساك بحلاوة الوظيفة وأعبادها ، من أن يعدوا دستوراً يخليهم من العمل ويحل غيرهم علهم ، وكانوا أخون من أن يسلموا لغيرهم مقاليد عملية إعادة الإنشاء الاقتصادية والمالية التى تنطلها حالة فرنسا . ولسنا بحاجة أن نذكر إلا إسمى رجلين منهم - أحدهما كارنوه (Carnot) الذي كان جمهوريا شريفا ، وبارًا (Barras) الذي كان جمهوريا شريفا ، وبارًا (Barras) الذي كان جمهوريا شريفا ، وبارًا (المقدة عجيبة مثلت بين فصول هذا التاريخ الحافل بالتغييرات العظيمة . فإنهم تناولوا الأمور كما وجدوها . وتعبت حماسة الدعاة للثورة دوراً عظيا في حمل الجيوش الفرنسية إلى هولندة وبلجيكا ، وسويسرا وجنوب ألمانيا ، وشمال إيطائيا . كان الملوك يطردون في كل مكان وتقام في أما كنهم الجمهوريات .

ولكن حماسة تلك الدعاية التي أثارتها حكومة الإدارة لم تحل دون انتهاب كنوز الشعوب المحررة بغية تخفيف ما تلقاه الحكومة الفرنسية من الإضطراب والعسر المالى. وأخلت حروبهم تنحدر رويداً رويداً عن صفتها كحرب حرية مقدسة ، وتقترب أكثر فأكثر من حروب الحكم البائد العدوانية . وكانت السياسة الخارجية آخر ما كانت فرنسا ترغب في التجرد منه من مظاهر الملكية العظمى . وإنا لنستطيع أن نتين أن تلك السياسة ظلت على نفس قوتها الأولى أثناء حكم حكومة الإدارة كأنما لم يحدث هناك أية ثورة .

١٣ – توقف التعمير وفجر الإشتراكية العصرية

لقد أقتربت الآن ساعة انحسار هذا الفيض الدافق من الثورة في العالم ؛ ذلك الفيض الذي خلق جمهورية أمريكا العظيمة وهدد بأن يغمر بطوفانه كل الملكليات الأوربية . وكأن شيئاً قد اندفع إلى أعلى من دون سطح الشئون الإنسانية ؛ وبذل جهداً جباراً ، نم ما لبث أن تلاشي بددا إلى حن . وجرف أمامه كثيراً من الأشياء المهجورة والضارة ، ولكن بقيت من بعده أمور كثيرة ضارة غير عادلة . نم إنه حل مسائل كثيرة ، ولكنه ترك الرغبة في الزمالة والنظام تواجه مسائل أكثر ضخامة لم يبد عليه أنه تجاوز حد هتك السر صها . وذهبت أشكال معينة من الامتيازات ، كما ذهب الكثير من ألوان الاستبداد والاضطهاد الديني . وعندما اختفت أشياء الحكم كما ذهب الكثير من ألوان الاستبداد والاضطهاد الديني . وعندما اختفت أشياء الحكم البائد هذه ، بدت كأنما لم تكن لها أبداً أية أهمية ، وكل ما كان يهم فعلا هو أن الرجال العادين بالرغم من تمتعهم بالأصوات الانتخابية وحق الاقتراع ، وبالرغم من كل العادين بالرغم من تمتعهم بالأصوات الانتخابية وحق الاقتراع ، وبالرغم من كل دفعات نفوسهم وجهودهم ، كانوا ما يزالون لا هم بالأحرارولا هم بالمستمتعين بقسط متعادل من السعادة ، وأن الوعد الهائل الموعود والأمل في تفيؤ أكناف عالم جديد متعادل من السعادة ، وأن الوعد الهائل الموعود والأمل في تفيؤ أكناف عالم جديد وها الأمران اللذان جاءت الثورة بهما ، ظلا وهما الاطل علم من الحقيقة .

ومع هذا فإن موجة النورة هذه قد حققت تقريباً كل شيء فكر فيه الناس تفكيراً واضحا قبل مجيئها . ولم تكن تفشل الآن بسبب امتناع الدافع ، بل بسبب إمتناع الفكرات المدروسة المصقولة . فقد جرفت إلى الأبدكثير من الأشياء التي طالما أوقعت الظلم بالإنسانية . والآن وقد جرفت وانتهى أمرها ، بأت واضحاً لكل ذي عينين ، الظلم بالإنسانية . والآن وقد جرفت وانتهى أمرها ، بأت واضحاً لم هذه الإزالة . وما كم كان الرجال غير متأهبين لتلقى النهزات الحلاقة التي أتاحتها لهم هذه الإزالة . وما فترات الثورة إلا فترات عمل ؛ وفيها يحصد الرجال ثمار الفكرات التي نمت أثناء أدوار فترات الفدوء بين النورات . إنها لتترك الحقول نظيفة مستعدة لموسم جديد من مواسم النماء ، ولكنها لا تستطيع أن تنتج على الفجاءة فكرات جديدة منضجة لنقابل مواسم الغاء ، ولكنها لا تستطيع أن تنتج على الفجاءة فكرات جديدة منضجة لنقابل مها لغزاً غير متوقع .

وكان طرد الملك والنبيل ، والقسيس وقاضي محكمة التفتيش ، وصاحب الأراضي

وجابى الضرائب وملاحظ الأشغال ، قد غادر كتلة الناس يواجهون لأول مرة بعض نواحي معينة جوهرية جداً للتركيب الاجتماعي ، وهي العلاقات التي سلموا بها من قبل ولم يدركوا البتة ضرورة التفكير الشديد وإطالة النظر فيها . وظهر أن النظم التي كانت تبدو قطعة من طبيعة الأشياء ، والأمور التي كان يبدو أنها تحدث نتيجة لذلك النوع من الضرورة التي تطلع الفجر وتأتى بالربيع - ظهر أنها كانت أموراً إصطناعية يمكن ضبطها والتحكم فيها ، لولا ما هي عليه من التعقيد المربك ، كما ظهر أنها الآن وقد ألغت الروتينات القديمة وتخلص الناس منها ، - أصبحت في أمس الحاجة إلى يد تضبطها وتهيمن عليها . ووجد النظام الجديد نفسه تلقاء ألغاز ثلاثة ، كان غير مستعد مطلقا لحلها : وهي الملكية والعملة والعلاقات الدولية .

وسنتناول هذه المسائل الثلاثة بالترتيب ، ونسأل عن ما هيتها وكيف نشأت في الشئون الإنسانية ؟ فإن كل حياة انسانية تنصل بها اتصالا عيقاً ، كما أن حلها يمسها مساً مباشراً . والحق إن البقية الباقية من هذا التاريخ ستصبح من الآن بشكل واضح يتزايد وضوحاً كل يوم ، تطوراً للمجهودات المبذولة لحل هذه المسائل ، أو بمعنى آخر أن هذا التاريخ » سيصبح من الآن جهداً غايته « تفسير الملكية ، وتأسيس العملة ، وإدارة دولاب العلاقات الدولية » ، حلى شاكلة تجعل في الامكان إنشاء « مجتمع من الإرادة على أن يكون سعيداً وتقدمياً ، يعم العالم أجمع . فهن الألغاز الثلاثة التي يرمز لها صحت « أبي هول » القدر ، والتي يجب على الدولة الانسانية أن تجد لها جوابا وإلا كان مآلها الهلاك .

وتنشأ فكرة الملشكية من غرائز المقاتلة فى النوع البشرى . فقبل أن كان الانسان إنساناً بزمان مديد كان القرد الجد مالكا . والملكية البدائية هى ما يقاتل الوحش من أجله . فالكلب والعظمة ، والبرة ووجارها ، والغزال الهادر وسربه ، كل هذه . ميلكيات يتوهج أوارها . وليس ثمة تعبير أسخف فى علم الاجتاع من عبارة «الشيوعية البدائية » . فإن الرجل المسن فى قبيلة العائلة فى الأزمان المبكرة من العصر الحجرى القديم (الباليوليثى) كان يصر على ملكيته فى زوجاته وبناته وأدواته ولعالمه المرئى المحيط به لقاتله ، ولذبحه ولعالمه المرئى المحيط به لقاتله ، ولذبحه

إن استطاع . وتحت القبيلة على مر العصور ، كما بين ذلك أتكنسون تبياناً مقنعاً في كتابه « القانون البدائي » (1) . وكان نحوها نتيجة للتسامح التدريجي الذي أبداه الرجل المسن نحو وجود الشبان الأصغر منه سناً ، ونحو ملكيتهم للزوجات اللائي يوسرن من خارج القبيلة ، والآلات والحلي التي كانوا يصنعونها والصيله الذي كانوا يقتلون . ونحت الجهاعة الانسانية بفضل التوفيق بين ملكية هذا الفرد وملكية ذاك . كان ذلك التوفيق في أكبر شأنه توفيقاً وتحالفاً اضطر الرجال إليه اضطراراً بسبب ضرورة دفع قبيلة أخرى إلى خارج عالمهم المرئى المحيط مهم . فلن لم تكن التلال والغابات والأنهار أرضك أو أرضى ، فذلك لأنه كان لزاماً أن تكون أرضنا . وإن كلا منا ليوائر أنها كانت « أرضه هو » ، ولكن هذا لا يمكن العمل به . فني تلك الحالة يقوم الرجال الآخرون بتدمير نا . فكأن الجهاعة الإنسانية إذن ، إنما هي منذ بدايتها تحفيف لغلواء الملاكية . والملاكية في الوحش الضارى وفي المتوحش البدائي كانت أشد حدة منها في العالم المدن اليوم . فهي في غرائز نا أقوى مغرساً منها في عقولنا

وليس هناك اليوم تحديد لنطاق الملنكية عند المتوحش الفطرى ولا الرجل غير المتعلم . ومن الحير لذا أن نتذكر دوما أنه ما من إنسان يزيد بعده اليوم على أربعمثة جبل من جده المتوحش البدائى وكل ما تستطيع أن تقاتل من أجله إنما هو شيء أنت قادر على امتلاكه : - من النساء وممن تبقى عليهم من الأصرى ومن الفعوارى المصيدة . ومن مسالك الغابة ومن مآخذ الحجر إلى غير ذلك . ومع نمو المجتمع ، وتولئي ضرب بدائى من القانون الحد من الفتال الفتاك ، طور الناس طرائق خشنة وسريعة لإقامة الملئكية . فصار الرجل يقدر أن يملك ما كان أول من صنعه أو وضع يده عليه أو ادعاه . وكان يبدو طبيعياً أن كل مدين لا يستطيع تسديد دينه لا بد أن يغدو ملكاً لدائنه ، ويعادل هذا في جريانه على الطبيعة أن الرجل بعد ادعائه امتلاك رقعة من الأرض ، لابد له من تحتيم دفعات مائية على كل رجل آخر بريد استعالها . ولم يحدث إلا مع البطء الشديد ، ومع بزوغ فجر احيالات الحياة المنظمة وظهور بوادرها على الناس ، أن ابتدأ الناس يرون في هذه الملكية غير المحدودة لأى شيء كان -

Atkinson Primai Law ())

مصدر إزعاج ومضايقة لمم . وألنى الرجال أنفسهم يولدون إلى عالم مملوك كله ومدعى ملكيته كله - لا يل وجدوا أنفسهم مملوكين أو مدعى ملكيتهم . ومن العسير الآن علينا أن نقفو أثر الكفاحات الاجتماعية فى المدنيات الأشد قيدما ، غير أن التاريخ الذى حدثناك به عن الجمهورية الرومانية يكشف لك مجتمعاً يستيقظ على فكرة أنه ربما غدا الدّين مضايقة عامة ، ولا بد عند ذاك من إنكاره والامتناع عن أدائه ، وأن الملئكية غير المحدودة للأرض إنما هى كذلك مضايقة من المضايقات . وإنا لنجد أن مملكة بابل (بابلونيا) عمدت فى عهدها المتأخر إلى تحديد حقوق الفرد فى امتلاك الأرقاء تحديداً شديداً . وأخيراً نجد فى رسالة ذلك الثورى العظيم ، يسوع الناصرى ، هجوماً وطعناً فى الملئكية لم يوجد مثله قبل ذلك أبداً . قال « أيسر أن يمر الجمل من ثقب الإبرة من أن يدخل غنى (مالك العقارات العظيمة) ملكوت السموات » .

ويلوح أن العالم ظل طوال الحمسة والعشرين أو الثلاثين قرناً الأخيرة يوجه سهام النقد بلا انقطاع للمقدار الذي يمكن السياح به من الملكية . وها نحن بعد انقضاء تسع عشرة مئة من السنين على يسوع الناصرى ، نجد كل العالم المستظل بالتعالم المسيحية مقتنعاً بأن الملكية في الأشخاص أمر لا يمكن أن يكون ، إذ حدث من ناحية هذا الأمر انقلاب في الضمير العام . وكذلك الفكرة القائلة « بأن الرجل يستطيع أن يفعل ما يشاء فيها يملك » قد هرنت هزاً واضحاً كبيراً وضعفت ضعفاً ملموساً بالعلاقة إلى أنواع أخرى من الملكية . على أن هذا العالم الذي نشهده في نهاية القرن الثامن عشر ، لم يبلغ بعد في هذه المسألة إلا مرحلة الشك والإستفسار . ذلك أنه لم يكن لديه شيء واضع وضوحاً كافياً يستطيع أن يتخده أساساً يعمل عليه ، فضلا عن شيء مستقر استقراراً كافياً . وكان من أو ائل دوافعه حفظ الممتلكات من أن يعبث بها جشع الملوك وتبذيرهم وحمايتها من استغلال النبلاء المغامرين . وقد شبت يعبث بها جشع الملوك وتبذيرهم وحمايتها من استغلال النبلاء المغامرين . وقد شبت الثورة من أجل الحفاظ على الملكية الحاصة . ولكن مبادئ المساواة التي اتخذت ، الموسا في محمرات النقد والتجريح للملكية التي نهضت لحايتها . إذ كيف يستطيع الرجال أن مكونوا أحراراً متساوين بينها العدد الحم منهم ليس لديهم أرض يعيشون الرجال أن مكونوا أحراراً متساوين بينها العدد الحم منهم ليس لديهم أرض يعيشون

عليها ولا شيء يطعمونه ، كما أن الملاك لا يرضون بإطعامهم ولا بإيوائهم ما لم يكلحوا كدحاً شديداً مسرفاً – تلك هي شكوى الفقراء .

وكان رد اليعاقبة على ذلك اللغز أن أكبوا على « التقسيم » . فإنهم أرادوا أن يشلوا أزر الملئكية ويعمموها . وكان هناك من قبل في القرن الثامن عشر قوم يرمون إلى نفس الغاية وإن كان ذلك بطريق آخر ، هم جماعة بدائية بعينها من الاشراكيين _ أو بمعنى أدق من الشيوعيين _ كانوا يريدون أن يلغوا المذكية الْمَاصِةِ إِلَمَاءً تَامًا . وكان على الدولة في رأْسِم أن تملك كل الممتلكات . ولم يشرع الناس إلا بعد مضى فترة كبيرة من القرن الناسع عشر ، يدركون أن الممتلكات ليست شيئاً واحداً بسيطاً . بل هي مركب عظيم من الملكيات ذرات القيم والأهمياب والدرجات المختلفة . وأن كثيراً من الأشياء ﴿ من أمثال بدن الإنسان وأدوات الفنان والثياب وفرش الأسنان ﴾ إنما هي ممتلكات شخصية بصورة عميقة جداً ولا علاج لها أبداً . وأن هناك نطاقاً عظيا من الأشياء أمثال السكك الحديدية والآلات ذوات الأنواع المختلفة والمنازل والحدائق المزروعة وزوارق المتعة وكل منها بحاجة أن يلني منا تاملا خاصاً جداً لنقدر إلى أي درجة وتحت أي حدود يمكن وصعها تحت اسم الملكية الحاصة ، وإلى أي مدى تقع في نطاق اللَّكية العامة ويمكن أن تديرها وتؤجرها الدولة خدمة للمصلحة الجاعية . ونحن نمتاز البوم على الجيل الثورى الأول بلخر كبير من الأبحاث التي دارت في مدى السنوات المئة والثلاثين الأخيرة ، ولكن حتى هذا : الأدب ، المسطر في الملككية والنقد الموجه إليها لا يزال إلى اليوم الحيَّارًا هائلًا حامى الوطيس أكثر منه علماً مقرراً . وكان من المستحيل والحالة هذه أن تستطيع فرنسا القرن الثامن عشر أن تنتج أى مشهد اخر عدا تلك الحركات الشعبية الغامضة المرتبكة الراغبة في حرمان الملاك من أعلاكهم ، وعدا مشهد طبقات من الملاك الصغار والكبار الذين يستمسكون بما لديهم استمساك الغاضب المنجهم مطالبن قبل كل شيء بضان الملكية .

ومما يتصل أوثق اتصال يغموض فكرة الملكية في أذهان الناس نحوض فكراتهم عن « العملة » . فإن كلا من الجمهوريتين الأمريكية والفرنسية أصيبت من جراء هذا

معالم تاريخ الإنسانية جــــ ــــ

الأمر بمناعب خطيرة . وإنا لنعالج هنا أيضاً أمراً ليس بالهين اليسير ، بل هو غيرة من العرف المتبع والأوضاع التقليدية والقوانين والعادات العقلية الفاشية ، التي تنشأ عنها مسائل تسمح بأى حل يقوم على أسس بسيطة ، والتي هي مع ذلك صاحبة أهمية حيوية في حياة المجتمع اليومية . وصحة الاعتراف الذي يتناوله الرجل مقابل اشتغاله يومياً ، ذات أهمية أولية تماماً ، كاهوبين ، في عمل الجهاز الاجتماعي . وهناك نوعان من النمو تما بالتدريج على كر التاريخ الإنساني ، هما نمو الثقة في المعادن النفيسة ونمو العملة نمواً اقتنع به الناس عملياً أن العملة الجيدة يمكن الاطمئنان إلى امتلاكها قوتها الشرائية في أي مكان .

ولما كان استقرار ذلك الاطمئنان متوسطا ، فإنه تعرض لتأزمات وارتباكات جسيمة جداً ، نتجت عما كانت تعمد إليه الحكومات من خفض العملة ومن استبدال النقود المعدنية الفعلية بالوعود الورقية بالدفع . فما كادت تحدث زلزلات سياسية واجهاعية خطرة ، حتى أخذ نظام النقود يعمل بصورة متأزمة غير مضبوطة .

وقد ابتدأت كل من الولايات المتحدة والجمهورية الفرنسية حياتها في دور عسر مالى . وكانت كل من الحكومتين تقترض النقود وتصدر وعوداً ورقية بدفع الفوائد ، وهي فوائد تفوق ما كانتا تستطيعان جبايته في غير مشقة . وأفضت كل من الثورتين إلى الشيء الكثير من الإنفاق والإقتراض العام المستيئس ، وأدت في نفس الرقت إلى انقطاع في عملية الزراعة والإنتاج زاد في إنقاص الثروة الحقيقية التي يستطاع فرض الضرائب عليها . وإذ أن كلا من الحكومتين لم تستطع أن تواصل الدفع بالذهب ، فقد لجأت إلى إصدار العملة الورقية (البنكنوت) ، التي تعد فيها بأن تدفع بضهان الأراضي غير المتطورة (في أمريكا) أو أراضي الكنيسة المصادرة المحديثاً (فرنسا) . وتجاوز القدر الصادر في كل من الحالتين حد ثقة الناس في الفيهان الجديد تجاوزاً بعيداً . وهرب الذهب من الأسواق حيث أخفاه مكرة الناس ، المحديد تجاوزاً بعيداً . وهرب الذهب من الأسواق حيث أخفاه مكرة الناس أنفسهم يحملون أو أرسل إلى الحارج تسديداً لأثمان البضائع المستوردة ، ووجد الناس أنفسهم يحملون غير عقفة من الصكوك وورق البنكنوت بدل العملة وكلها ذات قيمة متناقصة غير عقفة .

ومهما يكن شأن أصول العملة من التعقيد ، فإن آثارها العملية والغاية التي لا بدلها من خلعتها في المجتمع يمكن أن تذكر هنا بطريقة إجمالية . فإن النقود التي يتلقاها الرجل عن عمله (عقلياً كان أم جسهانياً) ، أو عن التخلى عن ملكينه مقابل منفعة إستهلاكية لا بد أن تستطيع في النهاية أن تشترى له ولاستعاله قدراً يعادل ذلك بالتقريب من السلع المستهلكة . (ولفظة و السلع المستهلكة و عبارة نحب أن تفهم على أوسع معانيها بحيث تمثل حتى إحدى الرحلات ، أو الاستماع إلى محاضرة أو حضور إحدى المسرحيات أو السكن أو الاستشارة الطبية وما إليها من الأشياء) . فإذا ضمن كل فرد من المجتمع توفر هذه الأشياء له ، وضمن أن النقود لن تنحط قوتها الشرائية – فإن العملة وتوزيع البضائع بالتجارة تكون عندئذ في حالة سليمة مرضية . فعند ذلك ، وعند ذلك فقط ، يشتغل الرجال مسرورين راضين .

والحاجة الحتمية إلى ذلك الاستقرار وذلك الفيان في العملة ، إنما تقوم بناءً على هذا في الحفائق الثابتة (Datum) التي منها يجب أن تبدأ الدراسة العملية للعملة والرقابة عليها . ولكن لابد دائماً من وجود التقلبات في قيمة العملة ولو في ظلال أثبت الأحوال وأرسخها . فإن صافي جلة السلع القابلة للشراء والاستهلاك في العالم وفي أقطار متنوعة ، تختلف من سنة إلى أخرى ومن فصل إلى فصل ولعل الخريف زمن خيرات ووفرة بالموازنة إلى الربيع ؛ فإذا حدثت زيادة في السلع التي يمكن الحصول عليها في العالم تزداد القوة الشرائية للعملة ، ما لم يرافق ذلك زيادة في مقدار العملة ، فإن كان هناك من الناحية الأخرى نقص في إنتاج السلع الاستهلاكية أو تدمير عظيم غير مربح في السلع الاستهلاكية ، شأن ما يحدث في الحروب ، نقص تصيب جملة السلع الاستهلاكية ممثلا في مبلغ من ما يحدث في الحروب العصرية أن ما يعادل لدى أحد الرجال بالتقريب أجرة منزل ريني ظريف أو نفقة عطلة النعادل لدى أحد الرجال بالتقريب أجرة منزل ريني ظريف أو نفقة عطلة سنوية . فإن أصابت القنبلة شيئاً ما ، وجبت إضافة ذلك التامير الآخر إلى النقص في الدم الاستهلاكية . ولقد كانت كل قنبلة تنفجر في الحرب العظمى النقص في الدم الاستهلاكية . ولقد كانت كل قنبلة تنفجر في الحرب العظمى النقص في الدم الاستهلاكية . ولقد كانت كل قنبلة تنفجر في الحرب العظمى النقص في الدم الاستهلاكية . ولقد كانت كل قنبلة تنفجر في الحرب العظمى النقص في الدم الاستهلاكية . ولقد كانت كل قنبلة تنفجر في الحرب العظمى النقص في الدم الاستهلاكية . ولقد كانت كل قنبلة تنفجر في الحرب العظمى المناه النقص في الدم الاستهلاكية . ولقد كانت كل قنبلة تنفجر في الحرب العظمى العظمى الاستهلاكية . ولقد كانت كل قنبلة تنفجر في الحرب العظمى المتهلاكية .

تنقص جزءاً يسيراً من القوة الشرائية لكل عملة فى العالم بأجمعه . فإن كان هناك أيضاً زيادة فى العملة أثناء فترة تستنفد فيها السلع الاستهلاكية ولا تستبدل تمام الاستبدال بغيرها — وضرورات الحكومة الثورية والعاملة على الحرب تكاد تتطلب فلك على الدوام — نكون الزيادة عند ذلك فى الأسعار والهبوط فى قيمة العملة المدفوعة أجوراً ، أكبر وأكبر .

وقد جرت العادة كذلك بأن الحكومات تضطر مدفوعة بتلك الشدائد إلى اقتراض المان ، أعنى أنها تصدر أوراقاً تحمل الفائدة بضان رغبة المجتمع العام ومقدرته على تحمل الضرائب .

وتكون مثل هذه العمليات على درجة كبيرة من الصعوبة إن كان من يقوم بها رجالا على تمام الشرف يقومون بها فى صراحة ، تحت كامل ضياء العلائية والمعرفة العلمية . ولكن هذا الأمر لم يحدث البتة حتى يومنا هذا ؛ فنى كل آن ومكان تجد الأنانى البارع أى الصنف الشرير من الرجل الغنى ، يحاول أن ينحرف بالأمور قلبلا نحو مصلحته الحاصة . كذلك يحد الإنسان فى كل مكان الأنانى الغبى ، على أهبة الاستعداد التشرب بالحوف والتخاذل ذعراً . ومن ثم تنكشف لنا الدولة على الفور وقد فدحها وفرة فى العملة ، التى هى فى واقع الأمر بمثابة لنا الدولة على الفور وقد فدحها وفرة فى العملة ، التى هى فى واقع الأمر بمثابة دين لا يدفع الفوائد ، كما يهظها كذلك عبء فوائد القروض . ويبدأ كل من وقد نستطيع أن نقول عنهما عندئذ إنهما فى حالة انحلال معنوى خلتى .

والعاقبة النهائية لعملة أصيبت بنهام الانحلال المعنوى هي إيقاف كل عمل وكل تجارة لا يستطاع مواصلتها بالدفع عيناً أو مقايضة . فإن الرجال يرفضون عند ذلك أن يعملوا ، اللهم إلا مقابل الطعام والثياب والمسكن والدفع عيناً . والنتيجة المباشرة لعملة منحلة انحلالا معنوياً جزئياً هي رفع الاسعار وجعل التجارة أمراً مخيفاً مخطراً ، وملء نفوس العمال بالربيب والشكوك والنهيو الهياج . فني مثل هذه الظروف يميل الرجل الذكي إلى إيقاء النقود في حوزته إلى أقصر أمد ممكن ؛ فهو يطلب أقصى ما يستطيع في مقابل حقيقته التي بين يديه ، ويشترى مرة ثانية

حقيقة أخرى بأسرع مستطاعه لكى يباعد ما بينه وبين ثلك المادة القابلة للهلاك، وأعنى بها العملة الورقية . ويكابد كل أرباب الدخل الثابت والرصيد المدخو ويقاسون من غلاء الأسعار ، ويجد الأجراء ولهيب غضبهم يزداد فى كل آن أوارا ، أن القيمة الحقيقية لأجورهم فى تناقص مطرد.

ومن الواضح أن تلك حالة يحمّ فيها الواجب على كل شخص ذكى أن يبذل العون ويقوم بجهد في سبيل إعادة الأمور إلى نصاحا وبث الطمأنينة في نفوس الناس . على أن كل تقاليد المسعى الحاص ، وكل فكرات الجزء الأخير من القرن الثامن عشر ، اتجهت إلى تبرير أعمال ذوى الذكاء الشديد والمهرة من الناس الذين نصبوا أنفسهم لتجميع الإدعاءات ، والألقاب والأملاك المحسوسة في ظلال العواصف والنزلزلات والتقلقلات التي تحدث أثناء الهيار هذه العملة . ومن عجب أن الرجال المدركين للحقائق في العالم والذين كانوا ينصبون أنفسهم في إخلاص وبساطة لإعادة ما للعملة والاثبان من أحوال شريفة يمكن التعامل فى ظلالها ، كانوا رجالا قليلي العدد ، عديمي الأثر . فإن معظم رجال المال والمضاربات في ذلك الزمان كانوا يلعبون دور رجال كورنوال (١٦ دون وعي منهم إلى ما في ذلك من قلة الشرف، بل يفعلونه فيا يبدو بأتم أنواع الاستحسان الذاتي وأكمل مظاهر رضي زملائهم . لقد كان هدف كل شخص ذكي ماهر أن يجمع أكثر ما يستطيع من الثروة القابلة للتدوال ، وعند ذلك ، وعند ذلك فقط ، يعمد إلى تدبير وسيلة تؤدى إلى التوطيد السياسي ، وتغادر له ملكية ما جمع أعود ما تكون عليه نفعاً . فهذه هي عوامل جو اقتصادي رديء مليء بالشكوك والعصبية المحمومة والجشع والمضاربات...

فأما الانجاه الثالث الذى انجهته الثورة دون أن تستعد له بفكرات نيرة واضحة ، وهو مسألة العلاقات الدولية ، فقد قدر عليها فيه تطورات تفاعلت أسوأ التفاعل وأجلبه للكوارث مع هذه الحالة ، حالة المغامرة المالية والاقتصادية

^(1) يشير الكانب هنا إلى ما كان يفعله سكان كورنوال بغرب انجلترة ؛ إذ يستدرجون السفن ويخدعونها بالأثوار لتتدمر على شاطئهم فينهبوها . (المترجم)

وهذا التخاطف والارتباك وانشغال بالمم بما أصاب ملكيتهم الخاصة ومركزهم النقدى في بلادهم ، من انزلاق محير للعقول . فقد وجدت الجمهورية نفسها يوم ميلادها مشتبكة في حرب. وقد ظل المجندون الجدد ردحاً من الزمن يخوضون محمار هذه الحرب بوطنية وحماسة لم يرالعالم لهما في تاريخه نظيراً . ولكن لم يكن في الإمكان أن يستمر هذا الحال إلى الأبد . ووجدت حكومة الإدارة نفسها على رأس بلاد فاتحة ، ولكنها كانت من الناحية الداخلية في عسر ماني واضطراب لايطاقان ، ووجدت نفسها تحتل أراضي أجنبية غنية مليئة بثروة يمكن الاستيلاء علمها ، عامرة بالفرص المادية والمالية . ويحمل كل منا في طباته طبيعة مزدوجة . ويلوح أن الفرنسين بوجه خاص قد تطوروا بشكل منطفى متناسق (سيمثرى) فى حمل كلتا الطبيعتين. فقد جاءت فرنسا إلى هذه الأقاليم المغزوّة مُـحرِّراً ومعلماً وكانت أستاذة الإنسانية فى الروح الجمهورية. ومن أثم أصبحت هولندة وبلچيكا تسميان الجمهورية الباتائية ، وأصبحت چنوا وملحقتها الرثميرا الجمهورية الليجورية ، وغدا شمال إيطاليا الجمهورية السيزالبينية ، وغير اسم سويسرا إلى الجمهورية الهلثاتية (Halvatian Republic) ، وسميت روما وميلوز (Mulhausen) وتابوني جمهوريات . فإذا تجمعت هذه الجمهوريات حول فرنسا فإنها كانت على أن تكون مجموعة من كواكب الحرية اللوامع تقود العالم وتهديه . تلك هي الناحية المثالية في الموضوع. وفي نفس الوقت تقدمت الحكومة الفرنسية، والأفراد الفرنسيون مجتمعين مع الحكومة للقيام باستفلال كامل استنفادى لموارد تلك البلاد المحررة.

وبذا تبدأ فرنسا الجديدة في مدى عشر سنوات من اجهاع مجلس الطبقات أن تتخذ لها شبها عجيباً بفرنسا القديمة . بل هي أشد عنفواناً وأنشط قوة ؛ وهي ترتدى فوق رأسها قلنصوة الحرية في مكان التاج ؛ ولديها جيش جديد غير أن لديها أسطولا محطا ؛ وإن فيها لأناساً أغنياء جدداً مكان الأغنياء القدماء ، وفيها فلاحون جدد يكادون يكدحون أكثر من سابقيهم ويدفعون ضرائب أفدح ؛ وفيها سياسة خارجية جديدة عجيبة الشبه بالسياسة الخارجية القديمة الملغاة ؛ ولم يظهر فيها العهد الذهبي عهد المسيح المنتظر .

لفصِاللَّنَارُسُِواليَّلَاثُونَ سيرة ناپليون بوناپرت

۱ – أسرة بونايرت في كورسيكا .

۲ – بولايرت قائداً جمهورياً .

٣ - نابليون قنصلا أول ١٧٩٩ - ١٨٠٤ .

ة – نابليون الأول إمبراطوراً من ١٨٠٤ – ١٨١٤ .

١ ــ أسرة بوناپرت في كورسيكا

اللة يرم .

٣ - غريطة أوربا في ١٨١٥ .

٧ - طراز الإمبراطورية .

ها نحن أولاء نصل الآن إلى شخصية من أشد شخصيات التاريخ إشراقاً وسطوعاً ، هى شخصية مغامر مُحطّم ، يبدو أن قصته تظهر فى نصاعة خارقة للعادة النضال العام الخنى الدقيق بين الأنانية والكبرياء والشخصية ، وبين مرعيات المصلحة المشتركة الأشد ضعفاً والأكثر اتساعاً . وإنك لتلحظ قبالة هذه الخلفية المكونة من الارتباك وانحنة والأمل ، أى قبالة هذه القارة الأوربية واللولة الفرنسية المنهكتين اللاهنتين ، وهذا الفجر العاصف الضغم ، ظهور هذه الشخصية الفيئيلة القديمة الطراز بمالها من الصلابة والتماسك والكفاية وعدم الاستمساك بمبادئ الشرف مع الميل إلى التقليد والسوقية المتقنة . ولد فى ١٧٦٩ بجزيرة كورسيكا الى كانت ما نزال نصف همجية . وكان ابناً لرجل غير ذى شأن تقريباً ، وهو محام كان فى بادئ أمره وطنياً يناضل الملكية الفرنسية ، الى كانت تعاول أن تخضع كورسيكا ، بادئ أمره وطنياً يناضل الملكية الفرنسية ، الى كانت تعاول أن تخضع كورسيكا ، طبيعة أقرى ، محتدمة الوطنية ولها قوة شكمية ومقدرة فى الكياسة وتدبير الأمور . كانت تضرب أولادها بالمقرعة ، حتى لقد ضربت نابليون ذات مرة وهو فى السادسة عشرة) . وكان هناك إخوة وأخوات كثير ، وظلت العائلة تلاحق الحكومة الفرنسية بالالحاف فى طلب المكافآت والوظائف . وفيا عدا نابليون فإن العائلة تلاحق الحكومة الفرنسية بالالحاف فى طلب المكافآت والوظائف . وفيا عدا نابليون فإن العائلة تبدو

عائلة « جائمة » عادية تماماً . كان ماهراً ذكياً سيئ الحلق متكبراً غطريسا . اكتسب من أمه وطنية (رومانسية) كورسيكية .

حصل بفضل رعاية محافظ كورسيكا الفرنسي على تعليم ابتدأ بمدرسة برين Brienne العسكرية ثم بالمدرسة الحربية بياريس ، ومنها انتقل إلى المدفعية في ١٧٨٥ . كان دارساً عبهداً لكل من الرياضيات والتاريخ ، وكانت ذاكرته قوية قوة خارقة ، وكان يدون ملحوظاته في دفاتر ضخمة ما تزال موجودة . ودفاتر الملاكرات تلك لا تظهر فيه أي ذكاء استئنائي ، كما أنها تحتوى كذلك على قطع صغيرة من الانشاء الأصبل – حول الانتحار وما يماثله من موضوعات المراهقين . وقد وقع في حبائل سحر روسو منذ زمن مبكر ، ثم تنامدت حساسيته رهفاً وتطور في نفسه الاحتقار لمفاسد المدنية . وكتب في ١٧٨٦ نشرة ضد قسيس سويسرى هاجم روسو ، وكان يمحلم بكورسيكا المستقلة المتحررة من نير الفرنسيين . ثم أصبح مع شبوب الثورة بمهورياً متحمساً ونصيراً للنظام الجديد في كورسيكا ، وظل يعقوبياً بضع سنوات حتى مقوط روبسيسر .

٢ ــ بونايرت قائداً جمهورياً

وسرعان ما ذاع صيته بأنه ضابط نافع مقتدر ، وقد استطاع بوساطة شقيق روبسبير الأصغر أن يحصل على أول فرصة يبر بها أقرانه فى طولون . وكان الملكيون قد سلموا طولون للبريطانيين والأسبان ، واحتل أسطول متحالف مينامها . وأعطيت لبوناپرت قيادة المدفعية ، واستطاع الفرنسيون بقيادته أن يرتموا الحلفاء على مغادرة المبناء والمدينة .

ثم عين بعد ذلك قائداً للمدفعية في إيطاليا ، ولكنه قبل أن يتسلم مقاليد عمله اكفهر الجو وبدا في الأفق أن موت روبسيير قد يجر مصرعه أيضاً ؛ فوضع تحت الاعتقال بوصفه يعقوبياً، وظل خطر المقصلة محدقاً برقبته ردحاً من الزمان . ثم انقشع ذلك الخطر . وعين قائداً للمدفعية في غارة على كورسيكا لم تأت بفائدة ، ثم ذهب إلى باريس (١٧٩٥) وهو في حال رثة ، وتصف مدام جونو في مذكر اتها وجهه الهزيل

ومظهره الرث فى ذلك الزمان ، وشعره « الأشعث سىء التدوير يتدلى فوق معطفه الرمادى » ، ويداه العاطلتين عن القفاز وحذاءه السىء المدهان . كان ذلك زمان إجهاد وإنتكاس أعقبا قساوات الجمهورية اليعوقبية . يقول هولاند روز « كان نجم الحرية قد أخذ يأفل فى باريس تلقاء إشراق عطارد (Mare) والمريخ (Mare) والمريخ وكان خيرة والزهرة (Venus) » أى المالية والثياب العسكرية والبهاء الاجتماعى . وكان خيرة الرجال العاديين يعملون فى الجيوش وراء الحدود . ولقد سبق أن ذكرنا من قبل الرجال العاديين يعملون فى المحيوش وراء الحدود . ولقد سبق أن ذكرنا من قبل الرجال العاديين في مده المسألة نهزته الثانية . فأنقذ جمهورية الإدارة .

وأثرت كفايته في كارنو أيما تأثير ، وهو.أشد المديرين استقامة فأعجب به . زد على ذلك أنه تزوج من أرملة شابة حسناء ، هي مدام چوزفين دى بوهارنية ، وكان لها سلطان عظيم على باراه (Barras) . والرجح أن هذين الامرين هما اللذان ساعداه على الحصول على القيادة في إيطاليا .

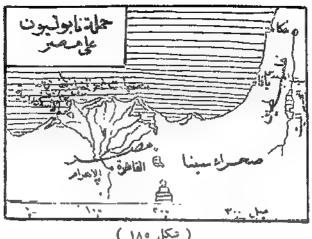
وليس أمامنا هنا متسع لقصة حملاته الزاكبة في إيطاليا (١٧٩٦ – ١٧٩٧) ، ولكن لابد ثنا من كلمة أو اثنتين عن الروح الني تمت بها تلك الحملات على إيطاليا ؛ لأنها تبين أنصع تبيان، تلك الروح المزدوجة لفرنسا وناپيون، وكيف أخلت الفكرة المثالية الجمهورية في الشحوب تلقاء الظروف العملية القاهرة . فإنه أعلن على الإيطاليين أن الفرنسيين إنما يقدمون لتحطيم أغلالهم - وكانوا عند قولهم ! ؟ . . . على أنه يكتب إلى حكومة الإدارة يقول : « لسوف نجي عشرين مليوناً من الفرنكات ، فيم على الأهالي دفعها في هذه البلاد ؛ فإنها من أغنى بلاد العالم » . فأما جنوده فإنه خاطبهم بقوله : « إنكم جياع وتكادون تكونون عراة . . . وإني لأقودكم إلى أخصب سهل في العالم . ولسوف تجدون هناك مدناً عظيمة وولايات غنية وشرفاً وهوا وهوا ، . . »

ونحن البشر مفطورون لاجرم ـ على طبيعة مخلطة كهذه ؛ بيد أن هذه الفقرات التي كتبها شاب فى السابعة والعشرين ، يلوح أنها تظهر الطلاء الذهبي المموه للمثالية العليا الشريفة وقد زال عنها ونصل فى سن مبكرة تبكيرا غير عادى .

وكان نجاحه في إيطاليا زاكياً كاملا . وكانت رغبته في الذهاب إلى إيطاليا راجعة إلى أنه كان يتوقع أن يجد فيها أشد الأعمال اجتذابا له ؛ فخاطر بوظيفته في الجيش برفضه أن يقبل العمل المضي في قيادة حملة على العصاة في لالمنديه . وكان قد أكب طويلا على قراءة تراجم بلوتارك (۱) والتاريخ الروماني ، فكان غياله البالغ النشاط ملتهباً صند ذاك بالأحلام ، أحلام إنبعاث الفنوح الشرقية للإمبراطورية الرومانية . تخلص نابليون من جمهورية البندقية بأن مزقها بين فرنسا والفسا ، محتفظ لفرنسا بالجزائر الأيونية والأسطول البندقي . وقد أنبتت الأيام فيا بعد أن هذا الصلح المسمى صلح كامهو فورميو كان صفقة خاسرة لكل من الطرفين . فقد اشتركت جمهورية قديمة — وأنفذ نابليون رأيه مخالفاً بللك صبحة سخط وإنكار تعالت في فرنسا — وحصلت النسا على مقاطعة فينيتيا ، وحيد الشرفي التي قدر عليها في فرنسا — وحصلت النسا على مقاطعة فينيتيا ، كذلك فقرات سرية اتفقت فيها فرنسا والنسا على الحصول فيا بعد على الأراضي كذلك فقرات سرية اتفقت فيها فرنسا والنسا على الحصول فيا بعد على الأراضي كذلك فقرات سرية اتفقت فيها فرنسا والنسا على الحصول فيا بعد على الأراضي كان كذلك بعمل عمله في عقل نابليون ، فهذه هي أرض قيصر نفسها ، وكان قبصر مثالا سيئاً لذلك الجنرال الموفق في جمهورية غير وطيدة .

وكان قيصر قد عاد إلى روما من بلاد الغال بطلا وفاتحاً . فكان مقلده يريد أن يعود من مصر والهند مظفراً كذلك ، ومن ثم تكون مصر والهند هي بلاد الغال بالنسبة إلى نابليون . وكانت عناصر الفشل تحملق بعينها في وجهه . إذ كان الطريق إلى مصر والهند بحرياً ، وكان البريطانيون بالرخم من حدوث تمردين بحريين قريبي العهد ، أقوى مُنتَة في البحر من الفرنسين . زد على ذلك أن مصر كانت جزءاً من الإمبر اطورية العثمانية ، ولم تكن هذه بأى حال دولة يستهان بها في تلك الأيام . ولكنه مع ذلك أقنع حكومة الإدارة ، التي كانت بهرتها في إيطاليا أعماله العظيمة

⁽١) ثراجم بلوتارك وهوكاتب إغريقى ولد فى خيرونيا ، وكان يلق المحاضرات بروما فى هم مادريان . وكتابه « التراجم المماثلة » يتكون من أزواج متقابلة من سير القادة والسياسيين الإغريق والرومان تعقبها مقارنات بين كل اثنين . (المترجم)



بالسهاح له بالذهاب . وخرجت أرماداً (١) من طولون في مايو ١٧٩٨ واستولت على مالطه ، ومن يمن طالعها أن تجنبت الأسطول البريطاني ووصلت إلى الإسكندرية . فأنزل جنوده على عجل ، ولم تلبث معركة الأهرام أن جعلته سيداً على مصر .

وكان الأسطول الريطاني الرئيسي في ذلك الوقت في ظاهر المحيط الأطلسي قبالة قادس ، ولكن أمير البحر كان أفرد قوة من خيرة سفنه ، بقيادة القيس أميرال نلسون _ وهو نابغة عظم في الشئون البحرية نبوغ ناپليون في الأمور العسكرية البرية _ أرسله ليتعقب العارة الفرنسية الصغيرة وينازلها . وطفق ناسون حيناً من الزمان يبحث عن الأسطول الفرنسي بلا جدوى ؛ حتى وجده أخراً في مساء يوم أول أغسطس راسياً في خليج ۽ أبي قبر ۽ فأخذه على غرة ؛ إذ كان كثير من الرجال على البر وكان ثمة مجلس منعقداً في سفينة القيادة . ولم تكن لديه خرائط ، وكانت قيادة السفن في مياه ضحلة تحت أنوار الأصيل الكابية أمراً محفوفاً بالمخاطر . ومن ثم استنتج الأمرال الفرنسي أن البريطانيين لن يهاجموه قبل طلوع الصبح ، ولذا لم يتعجل في استدعاء رجاله الموجودين على البر إلى سفنهم حتى فات الأوان . ومهما يكن من شيء ، فإن نلسون أخذ يضرب من فوره مخالفاً بذلك نصيحة كثير من قواده . ولم تشحط منه إلا سفينة واحدة فقط . فدلت بذلك بقية الأسطول على

⁽١) عارة محرية من سفن الحرب ، (اللَّرجم)

المنطقة الضحلة . وتحرك الأميرال بسقنه هاجماً فى خط مزدوج قرب غروب الشمس ، فوضع الفرنسين بين نارين . وأرخى الليل سدوله وقد التحم الطرفان فى المعركة ؛ وكان القتال بهدر وبهزم تحت جنع الظلام حتى أضاء المكان من فوره بلهيب السفن الفرنسية المحترقة ، ثم بوميض سفينة القيادة الفرنسية الأورينت بلهيب السفن الفرنسية المحترقة ، ثم بوميض سفينة القيادة الفرنسية الأورينت المحركة النيل قد انتها . . . ولم ينتصف الليل حتى كانت معركة النيل قد انتها ، وكان أسطول نابليون قد تدمر . وبذلك انقطع الطريق على نابليون إلى فرنسا .

ويقول هولاندروز نقلا عن تير Thiers ، إن هذه الحملة المصدة كانت المسلط المحاولات التي سجلها التاريخ هوجا وتسرعاً ، فقد غودر ناپليون في مصر والرس يتجمعون عليه والطاعون يفتك برجاله: ومع هذا فإنه استمر ردحاً من الزمان بواصل القيام مهذه الحطة الشرقية . فأحرز في يافا نصراً ، وإذ كانت تعوزه الميرة فإنه أعمل الذبح في كل أسراه . ثم حاول أن يستولى على عكا ، حيث استعملت ضده مدفعية الحصار الحاصة به ، وكان البريطانيون استولوا عليها في البحر قبل ذلك بزمن يسر . حتى إذا عاد إلى مصر خائب المسعى قد أسقط في. يده ، فإنه أحرز فوزاً عظيماً على جيش تركى عند أبي قر ، ثم تخلى بعد ذلك عن جيشه في مصر حولكن عظيماً على جيش بتركى عند أبي قر ، ثم تخلى بعد ذلك عن جيشه في مصر حولكن ذلك الحيش بقى يقاوم حتى عام ١٨٠١ ، حتى استسلم لقوة بريطانية – وفر ناپليون بجلده إلى فرنسا ١٧٩٩ ، وقد نجا بأعجوبة من أن تأسره طرادة بريطانية بالقرب من صقيلة .

ولقد لقى فى هذه المشروع من الاخفاق ما يسقط كل ثقة بأى قائد – لو أن أمر ذلك الاخفاق حرف . بيد أن الطرادات البريطانية التى أوشكت أن تلتى عليه القبض هى التى أعانته على إخفاء خيبته إذ منعت تسرب أى علم بحقيقة الموقف فى مصر إلى مسامع الشعب الفرنسى . فاستطاع أن يقيم ضجة عظيمة حول معركة أفي قبر وأن يخنى فشله فى عكا . ولم تكن الأمور فى فرنسا فى ذلك الحين على ما يرام . إذ منيت بالهزائم العسكرية فى مواطن عدة ؛ فضاع منها أكثر إيطاليا ؛ وإيطاليا مما غرسته يدا بونابرت ، فأدى هذا إلى اتجاه الأنظار إليه بوصفه المنقذ الطبيعى

للموقف ، هذا إلى أنه حدث الشيئ الكثير من الاختلاس ، وأن أخبار بعضها أخذت تتسرب إلى الناس . فكانت فرنسا في أحد أدوار فضائحها المالية ، ولم يكن ناپليون قد امتدت يده إلى أي مال ، فكان الجمهور من ثم في تلك الحالة الكليلة حالة التعب المعنوى التي يطلب عندها الرجل القوى المتين ، الرجل المدهش الفذ المستحيل المثال ، الذي ينزل على قلب الأمة نزول البلسم والترياق ، ويقوم بكل شيء لكل إنسان . وأخذ الناس يقذفون في روع أنفسهم أن هذا الفي الحسن الظواهر ذا الوجه الجامد ، الذي أعادته العناية الإلهية من مصر — إنما هو الرجل القوى الأمين المنشود — وأنه واشنجتون آخر .

واستجاب ناپلبون لمطلب زمانه وفى مؤخرة ذهنه صورة بوليوس قيصر أكثر منها صورة واشنجتون . ودبرت مؤامرة محكمة لاستبدال حكومة الإدارة بثلاثة لا قناصل لا يكون نابليون كبيرهم — وكأنى بكل إنسان فى ذلك الزمان يتلو أكثر مما ينبغى فى صفحات التاريخ الرومانى يقرأها ويستوعب ما فيها . والقيام بهذه المؤامرة عمل أعقد من أن ينسع له هذا المكان : وقد تضمن على طريقة كرومويل تشتيت المجلس الأدنى (أى مجلس الحمسمئة) ، وفى هذا الأمر فقد نابليون رباطة جأشه . فإن النواب صاحوا به ودفعوه ، حتى ليلوح أن الحوف داخله . فكاد أن يغمى عليه وأخذ يتمتم ويلجلج وأرتج عليه فلم يحر كلاماً ، ولكن أخاه لوسيان أنقذ الموقف ، بأن استقدم الجنود وفرق المجلس . على أن هذه الورطة الصغيرة لم تؤثر فى نجاح الحطة النهائى . ونزل القناصل الثلاثة فى بناء قصر لوكسميرج ، ومعهم قوميسيران إننان لإعادة وضع الدستور .

وأخذ ناپليون يعمل حيال زميليه والقوميسرين بمنهى الحرأة والصلف بعد أن عادت إليه كل ثقته بنفسه وبعد أن تحقق من نصرة الشعب له . وأنشىء دستور جعله الموظف التنفيذى الأكبر ولقبه القنصل الأول ، وخوله سلطات هاثلة . وكان لزاماً أن يكون هو نايليون ، إذ كان ذلك منصوصاً عليه في صلب الدستور . وكان على أن يعاد انتخابه أو يستبدل بغيره بعد إنقضاء عشر سنوات .

وكان على أن يساعده مجلس الدولة ، يعينه هو ينفسه ، ويكون من حقه أن ينشىء التشريعات وأن يرسل مقترحاته إلى هيئتين ، ها الحيئة التشريعية (التي كانت تستطيع أن تعطى أصواتها في الموضوعات دون أن تناقشها) وهيئة التربيون كانت تستطيع أن تناقش المسائل دون أن تعطى فيها صوتا) ، وينتخب الهيئتين مجلس شيوخ أعضاؤه معينون من بين أفراد طبقة خاصة هي « ذوو المكانة » في فرنسا ، الذين كان ينتخبهم « ذوو المكانة في المديرية أو المحافظة » الذين كان ينتخبهم « ذوو المكانة ألكوميون » الذين كان ينتخبهم الناخبون العاديون ؟ وكان الإقتراع على انتخاب ذوى المكانة في المكرميون حقاً مباحاً للجميع ، فكان هذا هو المظهر الوحيد للديمقراطية في هذا المحرم الملهل المحير ال المدين المديرة المرم الملهل المحير ال المديرة المرم الملهل المحير ال

وكان هذا الدستور في معظم أمره النمرة المشتركة لفيلسوف جليل هو « سيايس Siéyès » (أحد القناصل الثلاثة) – بالإشتراك مع بوناپرت . على أن فرنسا بلغ بها الإعياء من متاعبها وجهودها ، وبلغ من ثقة الناس في فضيلة واقتدار هذا الرجل مبعوث المقادير ، أنه عندما حدث في مستهل القرن التاسع عشر أن قدم هذا الدستور إلى البلاد أقره ٣٠٠١١،٠٠٧ صوتاً ضد ٢٥٦٢ . لقد وضعت فرنسا نفسها بين يدى بوناپرت وضعاً مطلقاً وأعدت العدة لأن تعيش في سلام وسعادة ومجد .

٣ ـ ناپليون قنصلا أول ١٧٩٩ ــ ١٨٠٤

وليس هناك من وجه للسك في أنه سنحت هنا فرصة لم تسنح قط لرجل في العالم من قبل . فهنا منصب قد يتقوس له ظهر أي امرئ إشفاقاً من نفسه على نفسه ، وأن يخدم الله والإنسان بأقصى مستطاعه . إن النظام القديم قد قضى أو كاد ؛ وأخذت قوى عجيبة جديدة تندفع في أرجاء العالم تبحث عن شكل تصوغ فيه نفسها وقائد يوجهها . وكان الوعد المنتظر والأمل المعقود بجمهورية عالمية وبسلام عالمي دائم يداعبان أفئدة جمهور غفير من ذوى الأذهان المنزعجة . وكانت فرنسا بين يديه وكانت أداة طيعة له يفعل بها ما يشاء وهي أرغب

ما تكون في السلام ، غير أنها شاحة المحرب شحوذ مهند بمتاز . ولم يكن بعوز هذه الفرصة العظيمة إلا ألحيال النبيل . وإذ فات ناپليون ذلك فإنه لم يكن ليستطيع إلا أن يتبختر بخيلاء على قنة جبل النهزات ذاك العظيم ، كما يتبختر الديك الفرخ فوق تل من الروث . فإن الشخصية التي يكونها لنفسه في الناريخ شخصية بها ما لا يكاد يصدقه عقل من الغرور بالنفس والاحتقار الوقاح لكل من وثقوا به وعدم الاكتراث بهم . وجنون عظمة يقلد به قيصر والإسكندر وشرلمان تقليد القردة ، لولا أنه مخضب بالدماء الإنسانية الزكية لكان مبعث السخرية والاستهزاء . حتى لولا أنه مخضب بالدماء الإنسانية الزكية لكان مبعث السخرية والاستهزاء . حتى فقدف به ركلا بالأرجل ليختم أيامه في ركن منعزل يشرح ويشرح كم كانت أشنع أخطائه مسرحاً للذكاء والمهارة وهو يتربص في أرجاء جزيرته الحارة الموحشة متصيداً الطيور ويتشاجر شجاراً وضيعاً مع سجان منحط التربية لم يكن بوليه متصيداً الطيور ويتشاجر شجاراً وضيعاً مع سجان منحط التربية لم يكن بوليه والإحترام » اللائق .

ولعل عمله كفنصل أول أقل أدوار حياته معرة . فإنه تناول في يده الشئون العسكرية التي تقوضت أثناء حكم الإدارة . وبعد حملة معقدة في شمال إيطاليا ، بلغ بالأمور إلى نصر حاسم عند مارينجو قرب اليسانلديا في (١٨٠٠) . وكان نصراً قارب في بعض أوقاته أن يكون كارثة كبرة . وفي ديسمبر من السنة نفسها أوقع الحنرال مورو (Moreau) هزيمة ساحقة منكرة بالجيش النمسوى قرب هوهنليندن ، في ظروف تكنفته فيها عوامل الثلج والوحل والجو الفظيع الرهيب فلو أن نابليون فاز بهذه المعركة لاحتسبت من بين أبرز مآثره وأعلاها كعباً . وبهذه الأمور صار السلم المرجو أمراً ممكناً . وفي ١٨٠١ تم التوقيع على الخطوة الأولى الممهدة للصلح مع انجلترة والعسا . وانتهى الصلح مع انجلترة بمعاهدة أميان في المهدة للصلح مع انجلترة والغيسا . وانتهى الصلح مع انجلترة بمعاهدة أميان في الملاق المدين يستطيع أن يتفرغ لفن السياسة والتدبير الحلاق المبدع الذي كانت فرنسا — وأوربا بأجمها من وراء فرنسا — في أشاء الحاجة إليه . لقد أتاحت الحرب لفرنسا أن تمد رقعة أرضها وتوسع حدودها ، ومقتضى المعاهدة مع انجلترة استرجعت فرنسا إمبراطوريتها في المستعمرات وأصبحت

ف حالة أمن تتجاوز أقصى ما كان يحلم به الملك لويس الرابع عشر . وكان الباب مفتوحاً أمام ناپليون لكى ينتج ويدعم نظام الأمور ويصنع دولة عصرية تكون نبراساً ومصدر وحى وإلهام على كل أوربا والعالم قاطبة .

على أنه لم يحاول أن يعمل شيئاً من هذا القبيل . إذ كان خياله الهزيل المقلّد مليئاً بحلم أن يكون هو قيصر من جديد . فكان يدبر الخطط بلعل نفسه إمراطوراً حقيقباً ، يضع على رأسه التاج ويجعل منافسيه وزملاءه في المدرسة وأصدقاءه عند موطى، قدميه . ولم يكن هذا ليمنحه أية قوة جديدة ليست في يدبه حتى آنذاك ، على أن ذلك يكون شيئاً أعظم أهة وأشد فخامة ، يكون شيئاً يدهش أمه . فيالها من استجابة يستجيب بها رأس من هذا النوع للتحدى الرائع الحلاق في ذلك الزمان ؟!!

ولكن لا يد أن تدرج فرنسا قبل كل شيء في مدارج الرخاء . إذ من المحقق أن فرنسا الجائعة لا تطبق وجود إمبراطور . فنصب نفسه لتنفيذ مشروع قديم للطرق كان لويس الحامس عشر أقره ؛ وأنشأ الترع تقليداً منه للترع الإنجلزية ؛ ثم أعاد تنظيم البوليس ووطد شئون الأمن في البلاد . وتمهيداً لمشهد درامته الشخصية ، نصب نفسه لجعل باريس تبدو في شكل روما بمالها من عقود كلاسبكية وعمد كلاسيكية . ونشأت في تنظيم البنوك خطط جديدة تستدعى الإعجاب ، فاستعملها . وكان في كل هذه الأمور مسايراً لزمانه ؛ فإنها أمور كانت لا بد آتية مع قدر من الإستبداد أقل ـ وقدر من التمركز أضأل ، ولو لم يولد نابليون تط . ونصب نفسه لإضعاف الجمهوريين الذين كان يدبر الخطط للعدوان على معتقداتهم الجمورية . فسمح بعودة المهاجرين على شريطة أن يقدموا التوكيدات المرضية على المسروط وأن يدعوث آل بوربون وشأنهم ويعدوهم في خبر كان . ثم توصل إلى الشروط وأن يدعوث آل بوربون وشأنهم ويعدوهم في خبر كان . ثم توصل إلى صلح عظيم أبرم به ه ميثاقا Concordat ه مع روما . تعهدت به أن تناصره وتعهد الن يعدد سلطانها في الأبروشيات . إذ كان يرى أن فرنسا لا يمكن أن تكون طبعة سلسلة القياد ، وأنها ئن تسطيع أن تطيق ملكية جديدة من غير الدين . قال :

و كيف تستطيع أن تجد في دولة نظاماً من غير الدين ؟ فالجاعة الإنسانية لا تستطيع أن تعيش من غير النفاوت في الثراء ، الأمر الذي لا يمكن أن تقوم له قائمة مستديمة بمعزل عن الديانة . فعندما يوشك أحد الرجال أن يقصي نحبه جوعاً إلى جوار آخر مريض بالكظة والبشم ، فإنه لا يستطيع أن يرضي بهذا الفارق ما لم تكن هناك سلطة تعلن أن الله إنما يريد ذلك كدلك ؛ ولا بد للعالم من أن يحوى الفقير والغني ؛ ولكن تقسيم الأشياء في العالم الآخر وفي كل الأبدية الخائدة سبكون على أساس مخالف » . وكانت الديانة في رأيه وبخاصة الديانة من الصنف الكاثولبكي المتأخر ، مادة ممتازة يستطاع بها تسكين العامة . وكان في أيامه اليعقوبية الأولى قد طعن في الدين لنفس ذلك السبب .

وثمة عمل جليل آخر يدل على مجال خياله وتقديره للطبيعة الانسانية وذلك هو نظام به جوقة الشرف Legion of Honour ، وهى خطة للانعام على الفرسيين بقطع من الشريط ، خطة دبرت تدبيراً محكماً معجباً بقصد تحويل نظر ذوى الطموح من الرجال عن القيام بتصرفات هدامة .

كذلك اهم ناپليون بالدعاية المسيحية . وها هي ذي فكرة ناپليون عن فوائد المسيح السياسية ، وهي فكرة تلطخت بها كل العثات الدينية الفرنسية منذ ذلك الحين . قال : وقد اتجهت رختي إلى إعادة إنشاء مؤسسة الارساليات التبشيرية الأجنبية ؟ إذ أن المبشرين الدينيين ربما كانوا ذوى نفع كبير لى في آسيا وإفريقيا وأمريكا ، وذلك أني سأكلفهم بتعرف كل الأراضي التي يزورونها . ولن تقف قداسة ثيابهم عند حد حمايتهم بل سوف تخني وراءها أبحائهم السياسية والتجارية . ولن تكون روما بعد اليوم مستقر رئاسة مؤسسة المرسلين ، بل باريس » .

ألا ترى فى هذا فكرات تاجر لص لافكرات رجل دولة ؟ وعلاجه لمسألة التعليم المنظهر فى وضوح عمايته عن حقائق الفجر الجديد المنبئق من حوله . فأما التعليم الأولى فإنه أهمله إهمالا يكاد يكون تاماً ؛ فتركه لضمير السلطات المحلية ، كذلك قرر أن المعلمين يجب أن تدفع رواتهم من مصروفات التلامية ، وواضح أنه لم يكن يرغب فى أن يتعلم عامة الناس العلم ؛ إذ لم تكن لديه أية بارقة إدراك ولو خاطفة عن فى أن يتعلم عامة الناس العلم ؛ إذ لم تكن لديه أية بارقة إدراك ولو حاطفة عن

السبب الذي من أجله يجب أن يتعلموا ؛ ولكنه كان يهم بتزويد المدارس الفنية والعليا بالمال ، لأن دولته كانت في حاجة إلى خدمات رجال أذكياء واسعى الاطلاع يسعون وراء مصالحهم الذاتية . وكان هذا تراجعاً يبعث الذهول ، عن الحطة العظيمة التي كتب مسودتها للجمهورية كوندورسيه (۱) في ۱۷۹۲ ، محبذا إقامة نظام كامل من التعليم الحجاني للشعب بأكمه . وتحقق الايام في بطء ولكن بثبات واستمرار مشروع كوندورسيه ؛ فإن الامم العظيمة في العالم تضطر أن تضعه موضع التنفيذ والتحقيق رويداً رويداً ، وتخرج وسائل ناپليون من نطاق إهتامنا . أما تعليم زوجات وأمهات جنسنا فلونكم حكمة ناپليون فيه : ه لست ممن يعتقدون أن بنا حاجة إلى أن نتعب أنفسنا بعمل خطة لتعليم الإناث الصغيرات ، فليس في المستطاع أن يربين أحد خيراً من امهاتهن . ولبس التعليم العام مناسباً لهن ؛ المستطاع أن يربين أحد خيراً من امهاتهن . ولبس التعليم العام مناسباً لهن ؛ والزواج كل غايتهن » .

ولم يكن القنصل الأول أعطف على النساء فى قوانين نابليون (Code Napoléon). إذ لم يكن يباح للزوجة مثلا أن تتصرف فى أملاكها ، بل كانت (أى الزوجة) فى يد زوجها . وكان هذا القانون فى معظمه من عمل مجلس الدولة . ويلوح أن نابليون كان يعطل مناقشات ذلك المجلس ويعناقها أكثر مما يساعدها . وإنه ليجتاح الجلسات غازياً بلا سابق إخطار ، ويتكرم على أعضائه بإلقاء محاضرات طويلة مسهبة ، كثيراً ما كانت تخرج عن الموضوع فيد الدرس خروجاً ناماً . وكان المجلس يستمع إليه باحترام عميق ؛ إذ كان ذلك هو كل ما يستطيع المجلس أن يفعله . وإنه ليستبق مستشارية إلى ساعات متأخرة من اللهل ، مخالفة لكل معقول ، ويظهراً افتخاراً مساذحاً بقدرته الفائقة على السهر . وقد تذكر تلك المناقشات بارتياح عجيب إبان

⁽¹⁾ كوندورسيه (١٧٤٣ – ١٧٩٤) : فيلسوف ورحل دولة فرنسي . اشترك في إنشاء الموسيعة وأكسبته مقالته في نظرية الإمكانيات شهرة واسعة ، انضم إلى الثورة وانتخب عضواً في الجمعية النتريعية (١٧٩١ – ١٧٩٢) ، وكانت حطته التي كتبها عن واجب الدولة في التعليم أساساً لخطة فرنسا التعليمية . هارض وإن كان من رحال التورة في قتل الملك ، فأهدر دمه . ولما قبض عليه في النهاية وجد ميتاً ، ولملة تحرع السم . (المترحم)

سنبه الأخبرة ، ولاحظ في إحدى المناسبات أن مجده وفخاره لا يقوم على كسبه ما ذهب بالمعميات القانونية العسرة القديمة ، وأحل محلها الواضح البين من البيانات ، فإنه جمع شتات مجموعة هائلة غير منتظمة من القوانين القديمة والجديدة ثم نقحها ووضحها . والقانون شأن كل عمله الإنشائى ، كان مهدف إلى الكفاية المباشرة ، فإنه وضع التعاريف للأشياء والعلاقات ، حتى يشرع الناس فى العمل علمها بلا مناقشة جديدة . ومما يقللمن أهميته المباشرة العملية أنه كثيراً ما كان يُعرِّف ثلث الأشياء تعريفاً" خاطئاً . ولم يكن وراء عملية التقنين هذه أية قوة ذهنية تنهض كشيء متممز عن النشاط الذهني . إذ أنها سلمت بكل شيء قامٍّ : • إن جلالته لا يعتقد إلا في الموجود(١٦ ه . والواقع أن الفكرات الجوهرية الأساسية للمجتمع الممدن ، وقواعد التعاون الإنساني كانت تمر في مرحلة إعادة تشكيل قطها ومدارها نابليون ــ ولكنه لم يشعر بذلك الأمر أبداً . وكل ما فعله أنه قبل دوراً من أدوار التعبر . وحاول أنه يثبته إلى الأبد . ولا تزال فرنسا إلى يومنا هذا مُتَّمَمُّكَة مشدودة الوثاق مهذا الصُّديرى المضيق الذي يرجع به العهد إلى أو اثل القرن التاسع عشر ، والذي حشرها فيه ناپليون . ذلك بأنه ثبت أحوال النساء وثبت أحوال العمال وأحوال الفلاحين ، ولا يزالون جميعاً يكافحون إلى يومنا هذا بن خيوط شبكة تعريفاته الجامدة . وتقدم ناپليون في نشاط وقوة فنصب ذهنه الحامد الصافى الضيق الأفق لكي يستنهض قوة فرنسا ويشد من عزمها . ولم يكن ذلك الاستنهاض إلا جزءاً من الخطط الأعظم همولا التي كانت تملأ جوانب نفسه وتتسلط علمها . فقد اتجه خياله اتجاه الاصرار والعزم إلى « قيصبرية « Caesarism جديدة . وفي ١٨٠٢ جعلهم يعينونه قنصلا أول مدى الحياة مع إعطائه حق تعيين خلف له ، وترتب على مراميه الواضحة إلى إلحاق هولندة وإيطاليا بفرنسا بالرغم من التزاماته في المعاهدات بأن يتركهما منفصلتين ، أن أخذت معاهدة أميان تَشْرَنْحَ نُرْنِحاً سَدِيداً منذ البداية بذائها . ولما كان من الضرورى أن تشر عليه خططه حرباً مع انجلمَرة ، فقد كان يجدر به أن يتريث بأى غمن حتى يرتفع ببحريته

⁽١) من انساس لهولاند روز عن جورجو "Sa Majesté ne croit que ce qui est:"

إلى حد التفوق على البحرية البريطانية . فإنه كان مطلق اليد يتحكم في موارد عظيمة لبناء السفن ، وكانت سنوات ثلاث أو لبناء السفن ، وكانت سنوات ثلاث أو أربع كفيلة بتحويل كفة الميزان . ولكنه بالرغم عما لتى في مصر من تجربة شاقة قاسية ، لم يدرك قط أهمية القوة البحرية . وفي ١٨٠٣ عجل احتلاله لسويسرا بالأزمة ؛ ونسبت الحرب من جديد مع انجلترة . فقد حدث أن الوزير الضعيف أدينجتون أخلى مكانه في انجلترة لوليم پت الأعظم منه مقدرة . ومنذ تلك الساعة أصبحت بقية قصة نابليون تدور حول تلك الحرب .

وقد ظل القنصل الأول أثناء مدة القنصلية يعمل ناشطاً على زيادة ثروات إخوته وأخواته . وهو أمر يتصل إلى النفس البشرية بسبب قوى وبمت إلى حب العشيرة وإلى المزاج الكورسيكي كما أنه ينفعنا في أن نفهم بالضبط كيف كان الرجل يقدر منصبه والنهزات الماثلة بين يديه . وهناك عامل ضخم في تكوين نابليون هو الرغبة في أن يذهل ويدهش ويروع أذهان آل بوناپرت وجبرانهم ويخضعها لسلطانه . فكان يرقى إخوته بشكل يثير الضحك إذ أنهم كانوا رجالا عاديين جداً ولكن شخصاً واحداً كان يعرفه حق المعرفة لم تخالجه الدهشة ولا داخلته الروعة ولا الخضوع . وكان ذلك الشخص هو أمه . كان يرسل إليها المال لتنفقه وتدهش به جبرانها ، وكان يخضها على أن تتخذ لنفسها مظهراً عظيماً ، وأن تعيش العيش الذي يتناسب وأم مثل هذا الإبن العجيب الذي يهز العالم هزاً .

غير أن السيدة الوقور التي قرعت بالمقرعة رجل الأقدار وهو في سن السادسة عشرة ، لأنه لعبّ وجهه لجدته ، لم تنهر ولم تنخدع له عند سن التانية والثلاتين . قد تستطيع فرنسا كلها أن تعبده ولكن الأم لم يساورها أي وهم خادع من قبله . فكانت تضع الفود التي يرسلها جانياً ؛ وتواصل المضي على اقتصادها المعتاد . قالت : « عند ماينهي كل شيء سيكون إدخاري هذا موضع سرورك » .

٤ - ناپليون الأول ، إمراطوراً ١٨٠٤ - ١٨١٤

لن نفصل لك القول في الخطوات التي غدا بها ناپليون إمبراطوراً . وكان تتويجه ابتعاثاً للقديم هو أشد ماقد يتصوره العقل من ابتعاث القديم خرقاً للمعتاد . ولم يعد قيصر هو نموذجه المحتذى ؛ بل كان ناپليون عند ذاك هو شرلمان . فإنه توج إمبراطوراً ، حقاً إنه لم يتوج في روما ، بل في كاتلرائية نوتردام بباريس ، واستحضر البابا بيوس السابع من روما للقيام بطقوس الاحتفال ؛ ولما بلغ الأمر أوجه أخذ ناپليون الأول التاج بيده و دفع البابا جانباً ، وتوج نفسه بنفسه . وبذلك تكون نصيحة شرلمان للويس⁽¹⁾ قد أوتيت آخر الدهر تمارها . وفي سنة (١٨٠٦) ابتعث ناپليون قطعة أخرى وقورة من الماضي السحيق ، إذ أنه لما كان ما يزال يتعقب خطي شرلمان ، فانه توج نفسه بتاج لوماردى الحديدى في كاتدرائية ميلان . وعندئذ صار لزاما على الجهوريات بنات فرنسا الأربع أن يصبحن ممالك : فني الماك التابعة التي خلقها في أوربا ، قصة أعقد وأقصر عرا من آن تتحملها المالك التابعة التي خلقها في أوربا ، قصة أعقد وأقصر عرا من آن تتحملها هذه المعالم ، وإن كان هذا العبث بالحدود عونا على ما تلا ذلك من توحيد إيطاليا وألمانيا .

ولم يعمر هذا الحلف الذي تم بين شرلمان الجديد وليو الجديد ، زمنا طويلا جداً . فني ١٨١٧ شرع متحدى البابا ويضغط عليه . وف ١٨١١ جعل منه أسيراً مضيقاً عليه في فونتنبلو . ولا يبلو أن هذه الإجراءات تنطوى على حكمة كبيرة . فإنها نفرت منه الرأى العام الكاثوليكي ، كما نفر منه تتويجه الرأى العام المتحرر . وبذلك كن عن أن يكون نصيراً وممثلا للقديم والجديد على السواء . فأما الجديد فقد خان ، وأما القديم فقد فشل في اكتسابه . وأخيراً لم يعد يمثل أحدا إلا نفسه .

ويبدر أن سياسته الحارجية لم تكن تنطوى إلا على متل ذلك القدر الضئيل من التعقل ؛ فإنها زجت آنذاك أوربا فى نجمرة دورة جديدة من دورات الحرب ولما كان قد اختلف مع بريطانيا العظمى فى أوان مبكر جدا فإنه حشد جيشا عرمرما فى بولونية (Boulogne) ليغزو به إنجلترة ، غير ناظر إلى الموقف البحرى . بل لقد بلغ به الأمر أن صك مدالية وأقام عموداً فى بولونية تخليداً لذكرى نصره فى غزوته

⁽١) هو لوبس الورع ابن سرلمان . الطر المعالم ص ١٥٤ حـ٣ ط ٢ . (المترحم)

المنتظرة . وكان دبر بطريقة ناپليونية محضة أن يخدع الأسطول البريطانى ويستدرجه بعيداً ، وأن بهرب جيش بولونية ذاك غير مضيق المانش على أسطول صغير من الأرماث والزوارق ، وأن تؤخذ لندن قبل أن يعود الأسطول . وفى نفس الوقت اضطرت النما والروسيا إزاء اعتداءاته فى جنوب ألمانيا ، إلى عقد تحالف وطيد مع بريطانيا ضده . وفى ١٨٠٥ وقعت ضربتان قاتلتان على كل أمل له فى النصر النهائى ، أنزلهما به أميرا البحر البريطانيان كالدر ونلسون . فإن الأول أنزل فى يولية هزيمة منكرة بالأسطول الفرنسى فى خلج بسكى ؛ وفى أكتوبر دمر الثانى أسطول فرنسا وأسبانيا المشترك فى معركة الطرف الأغر . ومات نلسون مبتة رائعة وهو مظفر فوق سفينته « النصر » . ومنذ تلك اللحظة استحكم العداء مريرا بين ناپليون وبريطانيا ، وهى فى منعة لا تستطيع أن يصل إليها ولا أن يقهرها ، بينها كانت هى تستطيع أن تضربه هنا أو هناك على امتداد كل شواطىء أوربا .

وتكتم نايليون الحبر وأخفى أنباء ذلك الجرح القاتل الذى أصابه فى « الطرف الأغر » بضع سنوات عن مسامع الفرنسيين . وكل ما سمعوه هو أن « العواصف قد سببت لنا خسارة بعض السفن الحربية بعد قتال أخرق . » وبعد انتصار كالدر سحب ناپليون جيشه من مدينة بولونية على عجل ، والدفع به عبر أوربا وهزم النمسويين فى لا أولم » « وأوسترلتز » . ودخلت بروسيا الحرب ضده فى هذه الظروف المشئومة . هفزمت هزيمة تامة وحطمت قواها فى معركة ييبا (١٨٠٦) (١٨٠٦) . ومع أن النمسا وبروسيا قد كسرتا فإن الروسيا كانت ما نزال قوة مقاتلة ، وخصصت السنة التالية لذلك الخصم الأصعب مراساً الأبعد منالا الأعسر مدخلا . ولسنا بقادرين أن نعقب فى أى تفصيل صعوبات الحملة البولندية على الروسيا ، ولتى ناپليون شرآ كبيراً فى بدئتسك حالى أعلن فى باريس أنها نصر عظيم وكذلك لتى مثل هذا الشر فى إيلاو (Eylau) . ثم دحر الروس فى فريد لاند ١٨٠٧ . ولم يكن حتى ذاك الشر فى إيلاو (الوسية بقدمة ، وكان الروسيون لا يزالون غير مقهورين الوقت قد مس الأرض الروسية بقدمة ، وكان الروسيون لا يزالون غير مقهورين الحقن من الحظ كالبريطانيين سواء بسواء ؛ ولكن سنحت عند ذلك لناپليون بارقة عجيبة من الحظ الحسن . فإنه استطاع بواسطة خليط من التفاخر والخداع والمداهنة ، أن يضم إلى



(شكل ١٨٦) نابليون إمير الموراً

جانبه قيصر الروسيا الشاب الطموح اسكندر الأول ـ إذكان سنه لايتجاوز الثلاثين ـ وأن يحمله على عقد تحالف معه . وتلاقى الامير اطوران على عوامة فى وسط بهر النيمن قرب تلست (Tilsit) . حيث تفاهما .

وكان الاسكندر تشرب بالنبيء الكثير من النزعة التحررية أتناء تلقبه العلم في بلاط كانرين الثانية . وكان يناصر بكل قواه الحرية والتعليم ونظام العالم الجديد للمربطة خضوعها لاستعلائه هو . قال أحد خلطائه في مستهل شبابه « إنه يسره أن يرى كل إنسان حرآ ، على شريطة أن يكون كل إنسان مستعداً أن يفعل بحرية ما يريده بالضط » . وقد أعلن أنه مستعد أن يلغى نظام « موالى الأرض Serfdom » وإن كلفه ذلك رأسه ثمنا لل حدث فقط أن تقدمت نتيجة لذلك أسباب الحضارة ، وقال إنه يخوض الحرب مع فرنسا لكي يحرر الشعب الفرنسي للأن نابليون كان طاغية مستبداً . وبعد معركة فريد لاند أخذ يبصر نابليون ثمت ضياء جديد . تلاقى هدان الرجلان بعد تلك الهزيمة بأحد عشريوما ، وكان الاسكندر يمر ولا ريب في حالة من التعظيم التبريري الموافق لطبيعة أبناء طرازه حين يكونون في حالة مزاجية من التغير .

ولا بدأن المقابلة كانت مرضية تمام الارضاء لناپليون. فقد كان ذلك أول لقاء له مع أحد الأباطرة على أساس من التكافؤ. وحلق في الجو خيالان من فوق ظهر تلك العوامة في تلست . قال الاسكندر : «ما هي أوربا ؟ إنما نحن أوربا ، تناقشا في شئون بروسيا والنمسا متأثر أين بهذه الروح ، وتقاسما تركيا مقدماً ، ودبرا أمر غزو بلاد الهند ، بل الواقع أنهما دبرا غزو معظم آسيا وأن تأخذ الروسيا فنلدة من السويديين ؛ على أنهما أغفلا ثلك الحقيقة المرة وهي أن القسم الأكر من العالم مكون من بحر ، وأن الأسطول البريطاني كان عند ذاله ببسط قلوعه في البحار غير منازع . وكانت بولندة قاب قوسين أو أدنى ، وهي على أنم استعداد لأن تتور وتكون حليف فرنسا المتحمس لو أن ناپليون رغب قط في هذا . على أنه كان عن بولندة في علية تامة . كان يومه يوم روى لا روية فيه . وقد أخنى ناپليون في نفسه فيا يبدو حتى في ذلك اليوم ، تلك الفكرة الجريئة بأن يتزوج يوما ما أميرة روسية ، أميرة

حقیقیة . علی أنه ما لبث حتی تعلم بعد ذلك فی ۱۸۱۰ – أن فی هذا تجاوز لحدوده بعض الشیء . . .

(شكل ١٨٧) القيصر اسكندر الأول

وحدث بعد تلسّت تقوض ملحوظ في صفات ناپليون ؟ فإنه أصبح أكثر اندفاعا وأقل صبراً على العقبات، واشتد به استبداد فكرة سيد العالم الذي هيأته الأقدار، وتزايدت مضايقته لكل من لقيه. وفي (١٨٠٨) ارتكب غلطة خطيرة جداً. فإن أسبانيا كانت حليفه الذليل ، وكانت تحت مطلق تصرفه تماما ،

ولكنه رأى من المناسب أن يخلع ملكها البوربونى لكى يرقى إلى عرشه أخاه جوزيف من عرش الصقليتين (١). وقد أثم فتح البر تغال من قبل على نية أن يوحد تحت تاج أخيه كلا من المملكتين البر تغالية والأسبانية . ومن ثم ثار الأسبان عليه في حنق وطنى متأجج ، وأحاطوا يحيش فرنسى في بايلن ، وأجبروه على التسليم . وكان ذلك ثلمة مدهشة في سيرة النصر الفرنسى المتواصل .

ولم يتباطأ البريطانيون عن التقاط موطىء القدم الذى أتاحته لهم تلك الثورة . فقد نزل فى أرض البرتغال جيش بريطانى بقيادة السر آرثر ولزلى (المسمى بعد ذلك بإسم الدوق ولينجتون) وهزم الفرنسيين فى قيميرو ، وأجبرهم على الإنسحاب إلى أسبانيا . وأثارت أخبار هذه الهزائم هياجا عظيما جداً فى الحواطر فى ألمانيا والنسا ، وعاد القيصر فأظهر ازاء حليفة قدرا أكبر من الغطرسة .

⁽١) الصقليتين : علكة كانت تتكون من صقلية وجنوبي إيطاليا (نابول) . (المترجم)



م تمت مقابلة أخرى بن هذين العاهلين في « إرفورت Erfurt » كان فيها القيصر أقل تأثراً وانهارا بخطط نابليون الوهاجة . وأعقبت ذلك أربع سنوات قضها فرنسا في رفعة مُقلَقلة غير ثابتة ، على حين كانت الحدود ترفرف على خريطة أوربا وفرفة الثياب على حبل الغسيل في يوم رائح . ونمت إمبراطورية نابليون الشخصية بما ألحق بها صراحة من أقطار ، حتى تضمنت هولندة وشطرا كبيرا من ألمانيا الغربية وكثيراً من إيطاليا وكثيراً من الشاطىء الأدرياتي الشرقي . ولكن المستعمرات الفرنسية كانت تسقط في أيدى البريطانيين واحدة تلو أخرى ، وأخذت الجيوش البريطانية في شبه الجزيرة الأسبانية تدفع بالفرنسيين في بطء نحو الشهال الجيوش البريطانية في شبه الجزيرة الأسبانية تدفع بالفرنسيين في بطء نحو الشهال المساعدها في ذلك المتطوعون الأسبان . وكانت أوربا بأجمعها قد أخذت تمل نايليون أشد الملل ؛ ولم يعد خصومه عند ذلك مجرد الملوك والوزراء ، بل شعوباً بأكلها كذلك . وكان البروسيون بعد كارثة « بينا Jena » قي ١٨٠١ قد هبوا للعمل على تنظيم بيهم . فإنهم قاموا بقيادة الفراهر فون شتن وأطرحوا نظامهم الإقطاعي تنظيم بيهم . فإنهم قاموا بقيادة الفراهر فون شتن وأطرحوا نظامهم الإقطاعي

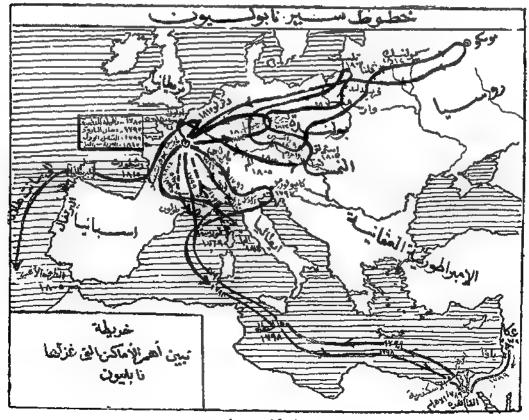
جانباً ، وألغوا الامتيازات ونظام موالى الأرض ، ونظموا التعليم الشعبى ، والوطنية الشعبية ، وأتموا تقريباً — وكان هذا فى واقع الأمر بلا نزاع داخلى — كل شىء حصلت عليه فرنسا فى ۱۷۸۹ . ولما وافت ۱۸۱۰ كانت هناك بروسيا جديدة ، هى النواة لألمانيا الجديدة . وعند ذلك أخذ الإسكندر وقد قُلفت فى روعه فيا يبدو أحلام السيادة العالمية — يتخذ من جديد وضع صديق الحربة . وفى ۱۸۱۰ حدث احتكاك جديد بسبب إعتراض الاسكندر على مطامع ناپليون فى الزواج . ذلك أن نابليون كان قد أخذ عند ذلك بأسباب الطلاق من معينته القديمة جوزفين ، لأنها لم تعقب ولما يضمن استمرار الملك فى أسرته . والآن وقد أبيت على ناپليون أميرة روسية بلى الواقع أن الإسكندر حقره وذكره بضعة مولده ، فإنه اتجه شطر النمسا وتزوج الأرشيدوقة مارى لويز . ذلك أن رجال السياسة النمسويين قرأوه قراءة صادقة . وكانوا على أشد الاستعداد لالقاء أميرتهم إليه . وجذا الزواج أوقع ناپليون نفسه فى أيديهم من أجل نظام الأسرة المالكة . وربما كان يستطيع أن يكون مكون عالم جديد ، ولكنه آثر أن يكون صهرا للعالم القديم .

وفى السنتين التاليتين داخل الوهن والانحطاط شئونه . فلم يعد بعد قائد النورة ومكمل ما ماتها ؛ ولم يعد بعد ذلك هو الروح المجسد لعالم مولود من جديد ؛ بلكان مجرد صنف جديد من أصناف الأوتواقراطى أشد فجاجة . وقد باعد ما بينه وبين كل ذوى النفوس الحرة من الرجال ، كما استدعى عداوة الكنيسة له . فكان الملوك واليعاقبة فيه على رأى واحد متفق ضده عند ما بلغ الرأى حد القضاء عليه . وكانت بربطانيا عند ذلك هي خصمه اللدود ، على حين كانت تتأجج في أسبانيا روح لا بد أنها ميسورة الفهم لكل كورسيكى ؛ ولم يكن الأمر بحاجة إلا إلى شيء واحد هو الانفصال عن الاسكندر الأول لكى تدفع هذه الامر اطورية امراطورية المداع والمناظر المسرحية دفعا يدعثرها ويسقطها . وجاء الحلاف . وكانت مشاعر الاسكندر نحو ناپليون على الدوام مهمة مخلطة جداً ، فإنه كان يحسد ناپليون بوصفه منافساً ويحتقره بوصفه عصامياً وضيع المنبت . زد على ذلك أن الاسكندر كان يتكنفه نوع من العطمة المهمة العاطفية ؛ وقد غلبت عليه نزعة تدين صوفية ،

وأخذت تساوره فكرة رسالة تدعوه والروسيا معا إلى اجتلاب السلام إلى العالم بتحطيم ناپليون . على أن اجتلاب السلام إلى أوريا ، لم يكن يتناقض فى رأيه مطلقاً مع ضم بولندة إليه ، واستلحاقه معظم بولندة واستيلائه على أجزاء عظيمة من الامبر اطورية التركية ! ؟ وكان يرغب بوجه خاص أن يعيد التجارة مع بريطانيا ، وأن التي كان نابليون مصراً على انقطاعها . وذلك أن تجارة ألمانيا جمعاء تقلقلت ، وأن طهقات التجار الألمان كانت فى غيظ شديد من « النظام القارى النابليونى » ، الذى يرمى إلى القضاء على بربطانيا بطرد كل البضائع البريطانية من أقطار أوربا أجع . يرمى إلى القضاء على بربطانيا بطرد كل البضائع البريطانية من أقطار أوربا أجع .

وجاء الشقاق في ١٨١١ ، عندما انسحب الإسكندر من « النظام القارى » . وفي ١٨١٢ اجتمعت جموع هائلة من الحنود تبلغ في عجموعها ٢٠٠٠، مواتل ، وأخذت تتحرك نحوالروسيا تحت القيادة العليا للأمبر اطور الجديد . وكان نصف هذه القوة تقريباً من الفرنسين على حين جمع الباقون من حلفاء فرنسا والشعوب الخاضعة لها . كان جيشاً مخلطاً أشبه شيء بجيش دارا أو جيش قباذ . وكانت الحرب الأسبانية ما تزال على قدم ؛ ولم يقم ناپليون بأىجهد لإنهائها . وقد اقتطعت من فرنسا قوة يبلغ مجموعها ربع مليون رجل . فشق طريقه مقاتلاً عبر بولندة والروسيا إلى موسكو قبل حلول الشتاء ـــ وظلت الحيرش الروسية تمتنع في جل شأنها عن قتاله ــ وأصبح مركزه خطرآ خطورة واضحة حتى قبل أن يطبق عليه الشتاء . فاستولى على موسكو متوقعاً أن يضطر ذلك الاسكندر إلى عقد الصلح . ولكن الاسكندر لم يرغب في عقد الصلح ، ووجد نابلیون نفسه فی مرکز هو أشبه شیء بمرکز دارا نی جنوب الروسیا ، قبل ذلك بألفين وثلاثمنة من السنين . وكان الروسيون وهم ما يزالون بعد غير مغلوبين بهاجمون مواصلاته ويفنون أفراد جيشه ــ يساعدهم في ذلك المرض ، فهلك من رجاله خمسة عشر ألفاً حتى قبل أن يصل إلى موسكو : ولكن كانت تعوزه حكمة دارا فلم يرغب في التقهقر . وظل الشتاء معتدلا مدة طويلة طولا غير عادي_ فكان في في مقدوره أن ينجو . ولكنه بدلا من ذلك أقام في موسكو يدبر الحطط المستحيلة . فقد كان قبل ذاك سعيد الحظ سعادة عجيبة في كل مقامراته السابقة مع القدر ؟ وقد نجا من مصر نجاة لا يستحقها ، وأنقذه من التحطيم في بريطانيا الانتصارات البحرية البريطانية ؛ ولكن ها هو ذا قد وقع فى الفخ مرة أخرى ، وما كان لينجو هذه المرة . ولعله كان يغى أن يقصى الشتاء فى موسكو ، ولكن الروسين طردوه بسحب اللخان طرد النحل من أكواره ، إذ أضرموا النار فى المدينة وأحرقوا معظمها .

تأخر به الأوان فى أكتوبر ، بل تأخر به أكثر مما ينبغى ، قبل أن صع عزمه على العودة . فحاول محاولة غير مجدية أن يخترق طريقه إلى خط تراجع جديد إلى الجنوب الغربى ، ثم حول وجهة من تبقى له من جيشه اللجب نحو القطر الذى عائوا فيه فساداً أثناء تفدمهم . وكانت المسافات الشاسعة تفصلهم عن كل أرض موالية . ولم يكن الشتاء متعجلا . وظل الجيش العرمرم أسبوعاً وهو يكافح بين الوحول ، ثم جاء الصقيع الشديد ألواناً ، ثم تهاطلت أوائل ندف الثلج ، ثم الثلج فالثلج



(شکل ۱۸۹)

وأخد النظام ينحل رويداً رويداً . وانتشر الجيش الجائع يبحث عن المبرة حتى أصبح عبرد ثلل من المغيرين . وقام الفلاحون عليهم دفاعاً عن النفس على أقل نقدير وأخذوا يكنون لهم في الطرقات ويقتلونهم . وكانت نمامة من الراكبة الخفيفة ما تنفك تلاحقهم وتصيب منهم على الشاكلة الإسكيذية (١) . وهذا التقهقر من أكبر مآسى التاريخ .

وأخيراً ظهر ناپليون في ألمانيا ومعه هيئة قيادته وثلة من الحرس والأتباع ، ولم يحضر معه جيشه ، وإنما كانت تتبعه فقط شراذم تجرسيقانها جراً ، وقد فقلت كل معنوياتهم . ولكن الجيش العظيم المتقهقر بقيادة موراه وصل إلى كونجسبرج في حالة انتظام ، بعد أن لم يتبتى منه إلا ألف من الرجال من قرابة الستمئة ألف . وثراجع موراه من كونجسبرج إلى پوزن . وكانت الفصيلة البروسية قد استسلمت للروس ، وانفصل عنه النمسويون واتجهوا جنوباً نحو وطنهم . وفي كل مكان كان اللاجئون المتناثرون والرثو الثياب الهزيلو الأجساد الذين عضهم الصقيع ينشرون أخبار الكارثة .

لقد تبدد سحر ناپلیون أو کاد . ففر مهرولا إلى باریس . وشرع ینظم مجندین جدداً ویجمع جیوشاً جدیده بین حطام إمبراطوریته العالمیة . وانقلبت علیه النمسا ۱۸۱۳ ، وکانت أوربا با کملها تواقة إلى الثورة علی مؤتمن الحریة اللی قصر فی حقوقها و فرط فی أمانتها ، ولم یخرج عن مجرد مغتصب عض . لقد تخلی عن النظام الجدید ، فالآن دمره النظام القدیم ، الذی أنقذه وابتعثه . وثارت بروسیا ، وابتدأت و حرب التحربر » الألمانیة وانضمت السوید إلى زمرة أعدائه . وثارت هولندة بعید ذلك وکان موراه جمع فی پوزن حول نواته المنظمة أربعة عشر ألف فرنسی . وثراجعت هذه القوه خطال ألمانیا ، هما قد یتراجع رجل تجرأ علی الرور وسط قضص ملی ، بالسباع المخدرة فوجد آثار التخدیر قد أخذت تنبخر . وفی الربیع تناول ناپلیون القیادة العلیا علی چیوش جدیدة ، ثم کسب معرکة عظیمة عند درسدن ، ثم یلوح أنه قد أصیب ردحاً من الزمان بتشتت وانهیار فی قواه الفکریة والمعنویة . فاصبع صربع التأثر بشکل جنونی ، ثم أخذت تلم به أحیاناً حالات

⁽¹⁾ الإسكيلية أو الانتقوذية أنظر ص ٣٤٣ ح ٢ من المعالم ط ٢ . (المترجم)

من الجمود . فإنه لم يفعل إلا القليل ، أو لم يفعل شيئاً على الإطلاق يشفع به معركة درسدن . وفي سبتمبر نشيت ، معركة الأثم ، حول لينزج وبالقرب منها ، وانضم السكسون في أعقاب ذلك إلى الحنفاء وكانوا حتى ذلك اليوم يتبعون نجمه . ولم تنته السنة حتى كان الفرنسيون يتراجعون إلى فرنسا مندحرين .

وكانت ١٨١٤ هي حملة الحتام . فاجتيحت فرنسا من الشرق والجنوب . فعبر الراين السويديون والألمان والنمسويون والروسيون ، وجاء البريطانيون والأسبان من فوق جبال البرانس . وأخذ نابليون يقاتل مرة أخرى قتالا زاكباً رائعاً ، ولكنه قتال غير عجد ، على أن الجيوش الشرقية لم يستطع أن تهزمه قلر ما استطاعت أن تشق طريقها إلى جواره ، واستسلمت باريس في مارس . ولم يمض طويل حتى تنازل الإمبراطور في فونتنبلو عن العرش وكادت تقضى على حياته جماعة من الرعاع الملكيين في بروقانس وهو في طريقه إلى الحارج .

ه ــ المئة يوم

تلك هي الحائمة الطبيعية الصائبة لحياة نابليون (١). وها قد قضي عليه آخر الأمر ، فلو كانت هناك حكمة حقيقية في تصريف الشئون الانسانية ، لوجب علينا الآن أن أله الحدالك عن تمركز العلم الإنساني والإرادة الإنسانية ، وتوفرها على أداء الواجب الذي قطعت حياته حبل أدائه وأعنى به واجب إنشاء نظام عالمي للعدالة والجهد الحر بدل النظام القديم المفلس . ولكنا لسنا بمحدثيك عن شيء من هذا القبيل . فقد كان العلم والحكمة غائبين غياباً طاهراً ملموساً عن مجلس الحلفاء العظيم . ووافت إليه النزعة الإنسانية المبهمة والغرور الحالم عنسد القيصر الإسكندر ، ووافاه آل هابسبرج النمسويون الضعفاء ، وآل هوهنزولرن البروسيون المغضبون ، ووفدت عليه تقاليد بريطانيا الأرستقراطية وهي ما تزال وجلة الروع من الثورة ،

⁽١) الملاحظ هنا أن المؤلف يشتد في أحكامه على فابليون ويقسو عليه ويقلل من أهميته وينتقص قدر فتوحه ، بل ويكاد يشمت فيه عنه ما مقط ، وما أدرى هلخرج ولز هنا عن نزعة الانصاف الله امتاز بها ، أم غلث عليه النزعات البريطانية ؟ . (المدرج)

وضميرها لا يبرح منحرفا متقلا بما يبهظه من أراضي عامة مغتصبة وأطفال مصانع مكدودين عملاً . ولم يحضر المؤتمر أى شعب من الشعوب بل توانى له الملوك ووزراء الحارجية دون غيرهم . ولم يكد المؤتمر يجتمع حتى أقبل الدبلوماسيون على العمل على عقد الصفقات والمعاهدات السرية كل من وراء ظهر أخيه . وبين مظاهر الفخامة والجلال التي لا يعلو عليها شيء ، اجتمع المؤتمر في ثيينا بعد زيارة شرف فخمة أداها ملوك الحلفاء للندن . وكانت الناحية الاجتماعية من المؤتمر قوية جداً ، فقد كثرت فيه السيدات الحسان ، وتألقت به مجموعة زاهرة من النجوم وأصحاب المدلات الرسمية ، وأقيمت به ما لا نهاية له من المآدب وحفلات الرقص ، وروى فيه فيض جارف من النوادر والمكات المشرقة الللألاءة . وكان أذكي أفراد المجتمعين روحاً شخص بعينه اسمه تاليران ، وهو أحد « أمراء » نايليون ، كان حقاً رجلا ذكياً معلى قسيسا قبل عهد الثورة ، وهو الذي اقترح ما قامت به الثورة من مصادرة أملاك الكنيسة ، وهو الذي كان الآن داعية إلى إعادة آل بوربون ! ؟

وأضاع الحلفاء النمين من الزمان في منازعات تجلى فيها الطمع والجلسع مترايدين وعاد آل بوربون إلى فرنسا . وعاد معهم بقية « المهاجرين Émigrés » وهم أشوق ما يكونون إلى التشنى والانتقام . وكأنما دفعت أنانية عظيمة جانبا لل لشيء الا لكي تكشف الستر عن حشد من الأنانيين الأكثر دناءة وخصة . كان الملك الجديد أبحا للويس السادس عشر ، وما كأن أشد تلهفه إلى التسمى باسم لويس الثامن عشر بمجرد أن علم بوفاة ابن أخيه (لويس السابع عشر) في المعبد . كان المثمن عشر ، وبليداً . ولعله لم يكن من ذوى المقاصد السيئة ، غير أنه كان رمزاً بمثل النظام القديم البالى ، فأحس كل ما هو جديد في فرنسا بنذير الرجعية النفيل الذي لازم مجيئه . لم يكن ذاك تحريراً ، بل استبداداً وطفيانا جديداً ليس غير — بل هو طغيان ثقيل وضيع بدلا من آخر نشيط رائع .

أليس أمام فرنسا من أمل غير هذا ؟ وأظهر آل بربون حقداً خاصا إزاء كبار ضباط الجيش العظيم ، وكانت فرنسا فى ذلك الحين غاصة بأسرى الحرب العائدين ، الذين وجدوا أنفسهم فى ظل محمامة قاتمة . وقد أرسل نابليون إلى إمبراطورية

صغيرة في جزيرة إلبا يتعزى بها عما أصابه . وكان على أن يظل ملقبا باللقب الإمبر اطورى وأن تكون له دولة بعينها . فإن فروسية الإسكندر . أو هوائيته أ . . أيت إلا أن يعامل منافسه المخلوع هذه المعاملة . وانتزع آل هابسبرج منه إمبر اطورته الهابسبرجية ــ فذهبت راضية قريرة العين إلى ثبينا ، ولم يرها نابليون بعد ذلك أبداً .

وبعد أن قضى ناپليون فى إليا أحد عشر شهراً قدر أن فرنسا ضافت ذرعا بال بوربون ، فاحتال حتى أفلت من السفن البريطانية التى كانت تراقب جزيرته وظهر فى كان بفرنسا ليقوم باخر لعبة له مع القدر . وكان مسيره إلى باريس موكب نصر عظم ؛ وطأ فيه بقدميه القبعات البوربونية البيضاء . ثم غدا ، أمد مثة يوم « وهى فثرة المئة يوم » سيداً على فرنسا من جديد .

وأثارت عودته حالة ارتباك لمدى كل فرنسى شريف . فن تاحية كان ثمة هذا المفامر الذى خان الجمهورية ، وكان هناك من الناحية الأخرى ذلك العبء السمج الذى جلبته عودة الملكية القديمة . ولم يكن الحلفاء ليقبلوا أن تحدث أى تجارب جديدة فى موضوع الجمهورية . ومن ثم كان الإختيار عندهم بين أمرين : إما ناپليون وإما آل بوربون . أحجيب إذن أن تكون فرنسا على الإجمال في صف تاپليون ؟ وها هو ذا قد عاد معترفا بأنه تغير وأصبح رجلا آخر ؛ فلن يكون ثمة أى طغبان ؛ ولسوف يحترم النظام المستورى .

جمع جيشا ، وبذل بعض المحاولات في سبيل السلام مع الحلفاء ؛ على أنه ما لبث عندما وجد هذه الجمهود غير مجدية ، أن تقدم فضرب البريطانيين والهولنديين والروسيين في بلاد البلجيك ضربة سريعة ، مؤملا أن جزمهم قبل أن ينضم إلهم النمسريون والروس . فأوشك أن يصل إلى غرضه هذا تقريبا ، فإنه كسر البروسيين عند بذي (Ligny) ، وإن لم يكسرهم بالقدر الكافى ؛ وعند ذلك هزم هزيمة لا أمل له بعدها نتيجة لصلابة عود البريطانيين بقيادة ولنجن عند وتُرك (١٨١٥) ، على حين وصل البروسيون بقيادة يلوخر وأطبقوا على جناحه الأيمن وقد تقدم النهار ، وانتهت معركة وتُرك يتشتيت شمل جيشه ؛ وغادرت نابليون بلا معين النهار ، وانتهت معركة وتُرك يتشتيت شمل جيشه ؛ وغادرت نابليون بلا معين

وبلا أملى. وأعرضت عنه فرنسا مرة ثانية وكان كل إنسان انضم إليه تواقا عند ذاك إلى مهاجمته والتبرؤ منه حتى يمحو الغلطة التى ارتكب. وأمرته حكومة موقتة فى باريس أن يغادر البلاد ، وأمهلته أربعا وعشرين ساعة يتم فيها ذلك .

فحاول أن يذهب إلى أمريكا ، ولكن ميناه روشفور التي وصل إليها كانت تراقبه الطردات البريطانية . والآن وقد رفعت عن أعين فرنسا غشاوة الأوهام ، وعادت فأصبحت على مضض ملكية من جديد ، فإنها قامت تلاحقه في حرارة ، فاعتلي ظهر مدمرة بريطانية ، هي البلمروفون طالباً أن يقبل لاجناً لائداً ، ولكنه في الواقع عومل كأسير . فأنعذ إلى بليموث ثم حمل من بليموث مباشرة إلى جزيرة سائت عيلينا المدارية الموحشة .

وهناك بني حتى وافته منيته بالسرطان في ١٨٢١ ، بعد أن كرّس نفسه بوجه رئيسي لتحضير مذكراته ، التي كانت خطته فيها أن يعرض كبريات أحداث حياته تحت ضياء ساطع جذاب ، وكان رجلان ممن معه يسجلان محادثاته ، ويثبتان الطباعاتهما عنه .

وراجت هذه المؤلفات رواجاً عظيا في فرنسا وأوربا . وظل الحلف المقدس بين ملوك الروسيا والنمسا وبروسيا (الذي دعى ملوك آخرون للإنضام إليه) يعمل عمله بمشقة كبيرة في ظلال وهم باطل يث في روعهم أنهم يوم هزموا ناپليون قد هزموا اللورة ، وأرجعوا ساعة القدر أدراجها ، وأعادوا الملكية العظمى إلى أبد الآبدين . ويقال إن الوثيقة الرئيسية لحطة الحلف المقدس رسمت بوحى من البارونة فون كرودنر ، التي يبدو أنها كانت نوعاً من المدبر المروحي للإمبراطور الروسي وكانت بداينها كما يأتي : و باسم الثالوث المقدس الذي لا تنفيم عراه ، وكانت تلزم الملوك المشتركين فيها ، و بأن يعدوا أنفسهم نحو رعاياهم وجيوشهم في مكان الوائد من العائلة ، وأنهم و إذ يتعد أحدهم الآخر مواطنا له ، ، يشد أحدهم أزر الآخر ، ويحمون الدين الحق ويحضون رعاياهم على تقوية أنفسهم وتدريبها على القيام بالواجبات المسيحية . ويصرح الحلف رعاياهم على تقوية أنفسهم وتدريبها على القيام بالواجبات المسيحية . ويصرح الحلف بأن المسيح هو الملك الحق لكل الشعوب المسيحية ، وعسانا نستطيع أن نلاحظ أنه بأن المسيح هو الملك الحق لكل الشعوب المسيحية ، وعسانا نستطيع أن نلاحظ أنه بأن المسيح هو الملك الحق لكل الشعوب المسيحية ، وعسانا نستطيع أن نلاحظ أنه

كان بناء على هذا ملكاً ميروڤنجيا بكل معانى الكلمة ولا سلطان له إزاء هؤلاء الملوك المتربعين في دست الأحكام والذين هم لديه بمابة محافظين (١) القصر ؟ . . ولم يكن لملك بريطانيا أي سلطة تحول له أن يوقع هذه الوثيقة ، ولم يطلب أحد إلى البابا ولا السلطان أن يوقعاها ، وانضم إليها سائر ملوك أوربا بما فيهم ملك فرنسا . على أن ملك بولندة لم يوقع لأنه لم يكن تمة ملك لبولندة ! ! ،وذلك لأن الإسكندر قام وهو في حالة من حالات الذهول الورع فالحق ببلاده معظم بولندة ! . ولم يصبح الحلف المقدس أبداً محالفة قانونية بين الدول ، بل حلت معلم عصبة أمم حقيقية ، هي « اتحاد أوربا » الذي انضمت إليه فرنسا في ١٨١٨ ، والذي انسحبت منه بريطانيا في ١٨١٧ . وعتبت ذلك فترة سلام وعسف في أوربا . وكان كثير من الناس يميلون في تلك الأيام التي انقطع فيها حبل الأمل أن يرمقوا حتى نابليون في الناس عميلون في تلك الأيام التي انقطع فيها حبل الأمل أن يرمقوا حتى نابليون عقسه بنظرة إحسان ، وأن يقبلوا منه إدعاءه بأنه عندما كان يؤيد حقه ، كان يؤيد حق الجمهورية وفرنسا ، على طريقة لا يمكن تفسيرها . ونمت بعد وفاته نحلة تعده شيئا ذا يطولة صوفية ديئية .

٣ – خريطة أوربا في ١٨١٥

ظلت فكرة الحلف المقدس ، والاتحاد الأوربي الذي تمخض عنه ذلك الحلف، وسلسلة المؤتمرات والاجتماعات التي عقبت الاتحاد ، محافظة مدة أربعين عاما على سلام مرعزع الأركان في أوربا التي خرجت من الحروب مهوكة القوى . وهناك أمران رئيسيان حالا بين هذه الفترة وبين أن تكون سلاماً اجتماعياً ودولياً كاملا ، ومهدا السبيل للورة الحرب التي وافت بين ١٨٥٤ ، ١٨٧١ . وكان أول هذين الأمرين هو ميل البلاطات الملكية المختصة إلى استرداد الامتيازات غير العادلة ، والتدخل في حرية الفكر والكتابة والتعليم . وكان الثاني هو مجموعة الحدود المستحيلة التي رسمها الديبلوماسيون في ثبينا .

⁽١) محاء ذ القصر ؛ فى ذلك إشارة إلى ماريخ پيين وشارل مارتل فليرجع إليها القارئ ص ٨٣٦ ج ٣ من المعالم ٢ . حيث كان الملك اسما للأسرة الميروڤنجية ومقاليد الحكم كلها بيد محافظ القصر الذي يتولاها باسم الملك . (المترجم)

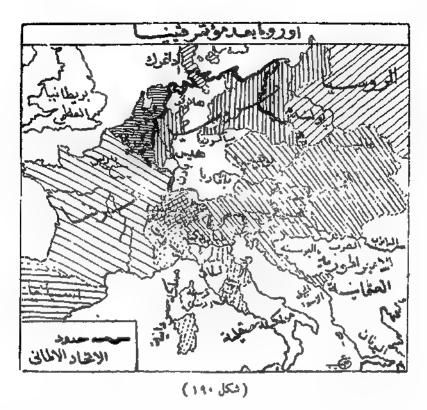
وكان ميل الملكية إلى الرجوع إلى الأحوال القديمة البائدة واضحاً أولا وبوجه خاص في أسبانيا . حتى لقد بلغ الأمر هناك أن أعيدت محاكم التفتيش . فأما عبر المحيط الأطلسي ، فإن المستعمرات الأسبانية حذت حذو الولايات المتحدة وثارت على نظام الدول الكبرى الأوربي ، عندما نصب ناپليون أخاه چوزيف ملكاً على أسبانيا في (١٨١٠) . وكان زعيم الاستقلال وواشنجتون أمريكا الجنوبية هو الحَمْرِ ال بوليقار . ولم تستطع أسبانيا أن تقمع هذا العصيان ، فطال به الأمد مثلما طَّال بحرب استقلال الولايات المتحدة ، وأخيراً تقدمت النمسا باقتراح يتسق وروح الحلف المقدس ، تذكر فيه أن من واجب ملوك أوربا أن يساعدوا أسبانيا في كفاحها ذاك . فعارضت في ذلك بريطانيا في أوربا ، فأما في أمريكا فإن العمل السريع الذي قام به رئیس الولایات المتحدة الرئیس مونرو فی (۱۸۲۳) ، هو الذی قضی علی مشروع هذا الاسترداد لسلطان الملوك قضاء نهائياً . فإنه أعلن أن الولايات المتحدة تعد" أي بسط للنظام الأورى في نصف الكرة الغربي عملا عدائيا . ويذا نشأ « مبدأ مونرو ، ، الذي ضد نظام الدول الكبرى عن أمريكا قرابة مئة من السنن ، وسمح للدول الحديدة في أمريكا الأسبانية بأنُّ تكوَّن مقدراتها على الشاكلة التي ترضيها . ولئن فقدت الملكية الأسبانية مستعمراتها ، فقد كانت على الأقل تستطيع تحت حماية الإتحاد الأوربي أن تفعل ماتشاء في أوربا . وأخمد جيش فرنسي فتنة شعبية قامت في أسبانيا في (١٨٨٣) ، بانتداب من أحد المؤتمرات الأوربية ، وفي الوقت ذاته قمعت النمسا ثورة شبت في نابلي .

وفى (١٨٢٤) مات لويس الثامن عشر ، وخلفه كونت أرتوا الذى رأيناه مهاجراً يرفرف ويحوم من فوق الحدود الفرنسية فى (١٧٨٩) فاتخذ لقب شارل العاشر . ونصب شارل نفسه لتدمير حرية الصحافة والجامعات وإعادة الحكم المطلق ، وأخذ الصوت بالموافقة على اعتاد بليون فرنك لتعويض النبلاء عن إحراق قصورهم ومصادرة أملاكهم فى (١٧٨٩) . وفى (١٨٣٠) ثارت باريس ضد هذا الملك الذى يتمثل فيه النظام العهيد (١٧٨٩) ، وتبدل به لويس فيليب ابن فيليب دوق أور لبان

 ⁽١) ورد في معجم الوسيط ما نصه : والمهيد : القديم العتيق الذي مر عليه عهد طويل ه .
 (المترحم)

المعروف ، الذي حكم عليه بالإعدام أثناء حكم الإرهاب . ولم تتدخل في هذا الشأن بقية الملكيات الأخرى بأوربا ، إذ واجهها استحسان على من بريطانيا العظمي واختمار تحريري قوى في ألمانيا والنمسا . ومهما يكن من شيء فإن فرنسا كانت ما تزال معتفظة .بالنظام الملكي . وظل هذا الملك الشاب لويس فيليب (١٨٣٠ – ١٨٤٨) هو ملك فرنسا الدستوري أمد تمانية عشر عاماً . ولكنه سقط في (١٨٤٨) وهي سنة عظيمة الأعداث في أوربا ، وسنحدثك عنها في الفصل التالي .

تلك هي التأرجحات القلقة التي ألمت بصلح مؤتمر ڤيينا ، والتي آثارتها التصرفات الرجعية الأنصار الملكية . فإن التأزمات التي نشأت عن خريطة الديبلوماسيين غير الملدروسة دراسة علمية تسببت في تجمع القوى بتعمد أكثر ، ولكنها كانت أشد خطراً على سلام البشرية . فإن من أكثر الأمور عسراً ومضايقة أن يدير السياسي شئون أقوام مختلفين عنصراً يتكلمون لغات مختلفة ويقرءون من ثم أدباً مختلفاً ولهم. فكرات عامة محتلفة ، وخاصة إذا بلغت هذه الفروق والإختلافات حد السخط بسبب المنازعات الدينية . وليس في طوق أي شيء اللهم إلا بعض المصالح القوية المتبادلة (من أمثال إحتياجات الدفاع المشترك لدى سكان سويسرا الجبليين) ، أن يبرر إقامة ترابط وثبق بين شعوب متباينة في لغاتها وعقائدها ، بل إن سويسرا ذاتها بقوم مها أقصى درجات الحكم الذاتى المحلى استقلالاً . وعندما تموت في النهاية تقاليد الدولة الكبرى وتوارى التراب فعسى هؤلاء السكان السويسريون أن ينجلبوا نحو وشائجهم الطبيعية في ألمانيا وفرنسا وإيطاليا . وعندما يكون الحال كشأنه في مقدونيا حيث يختلط السكان تخلطاً موزعا إلى رقاع صغيرة من القرى والنواحي ، فمندئذ تختم الظروف قيام نظام الكانتونات . ولكن إذا نظر القارئ إلى خريطة أوربا كما رسمها موتمر ڤيينا ، رأى أن هذا المجلس كان كمن يرسم خطة الوصول بالسخط المحلى إلى أقصاه . فإنه دمر الجمهورية المولندية ، ثم راح بغير ما داع ، فجمع بين المولنديين الدوتستانت وبين الكاثوليك المتكلمين بالفرنسية الذين كانوا في الأراض المنخفضة الأسبانية (النسوية) . وأقام بهما مملكة للأراضي المنخفضة . ولم يكتف بأن يسلم جمهورية البندقية القديمة فقط ، بل كل شمال إيطاليا حتى ميلان

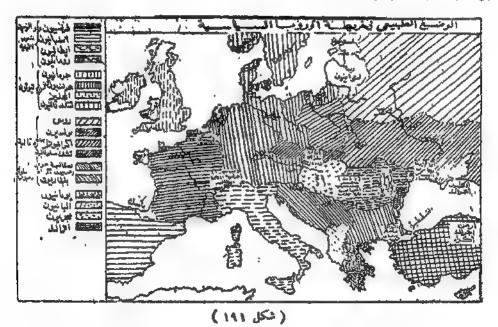


للنمسويين الناطقين بالألمانية . وأدمج منطقة السافويا الناطقة بالفرنسية مع أجزاء من إيطاليا بغية إرجاع مملكة سردينيا . وكانت امبراطورية النمسا والمجر من قبل ذلك خليطاً به ما يكفيه من عوامل التفجر من الجنسيات المتنافرة غير المتسقة ما بين ألمانيين وعبريين وتشيكوسلوڤاك ويوغوسلاڤ ورومانيين وانضم إليهم الآن الإيطاليون ، ثم جعلها أحداث (١٧٧٢ ، ١٧٩٥) أكثر استحالة مما كانت . فأما البولنديون الكاثوليك ذوو الروح الجمهورية فقد أسلموا بصفة رئيسية إلى حكم القيصر الأقل حضارة وصاحب الدين اليوناني الأرثوذكسي ، عدا أن أجزاء هامة منها ذهبت إلى بروسيا البروتستانية . كذلك ثبت قدم القيصر فيا احتازه من بلاد الفنلنديين المختلفين عنه اختلافاً كليا . وربط الشعبان غير المتشامين النرويجي والسويدي تحت حكم ملك اختلافاً كليا . وربط الشعبان غير المتشامين النرويجي والسويدي تحت حكم ملك واحد . وتركت ألمانيا – كما سبري القارئ – في حالة ارتباك خطرة بوجه خاص . فقد كانت كل من بروسيا والنمسا داخلتين جزئياً وخارجتين جزئياً في اتحاد كنفدراني

الدائمارك على مائدة الاتحاد الكنفدوالى يسبب وجود ممتلكات له فى ذلك الاتحاد الدائمارك على مائدة الاتحاد الكنفدوالى يسبب وجود ممتلكات له فى ذلك الاتحاد التكلم الألمانية فى هولشتن . وأدخلت لكسمبورج فى ذلك الاتحاد الكنفدوالى الألمانى ، مع أن حاكمها كان كذلك هو ملك الأراضى المنخفضة ، ومع أن كثيراً من سكانها كانوا يتكلمون الفرنسية . وهنا تلمس افغالا تاماً لحقيقة واقعة هى أن القوم الدين يتكلمون الألمانية ويبنون فكراتهم على الأدب الإيطانى ، وأن القوم الذين يتكلمون البولندية ويبنون فكراتهم على الأدب الإيطانى ، وأن القوم الذين يتكلمون البولندية من أعود الناس على سائر الإنسانية نفعاً ومعونة وأقلهم بها شراً وضراً ، إذا هم أداروا شفونهم على تراكيب لغتهم داخل قطعون أطاق لسانهم الخاص . أعجيب إذن أن تكون من بين أشد الأغنيات ذيوعاً فى الناس فى ألمانيا أثناء تلك الفترة ، أغنية تصرح بأنه حيثاً كان اللسان الألمانى يتكلم ، كانت أرض الأجلاد الألمانية .

ولا يزال الناس حتى في يومنا هذا كارهين أن يعترفوا بأن مناطق الحكم ليست من الشئون التي يجوز فيها المساومات والتفاعلات بين القياصرة والملوك ووزارات الخارجية . وهناك لا خرطة ضرورية سياسة للمالم » تتعالى فوق كل هذه الأمور . وثمة طريقة أخرى هي و أحسن الطرق المستطاعة » يقسم بها أي جزء من أجزاء العالم إلى مناطق إدارية ، وذلك بالنظر إلى لغة وجنس سكانها ، وإنه لما يهمنا جميعاً أن نضمن وجود هذه الأقسام وأن تؤسس أشكال الحكومة تلك بصرف النظر تماماً من الديبلوماسيات والرايات و والمدعيات » و والولاءات » المبلودرامية الانفعالية ، وعن خريطة العالم السياسية الخوجودة اليوم . وخريطة العالم السياسية الخوطفة حسب الطبيعة تأي إلا أن تنفذ . وهي تضطرب وتتحرك تململا من دون الخريطة السياسية الملجيك الطبيعة تأي إلا أن تنفذ . وهي تضطرب وتتحرك تململا من دون الخريطة السياسية الملجيك الناطقة بالفرنسية — وقد حفزتها الثورة في فرنسا — فنارت على شريكتها المولندية في الناطقة بالفرنسية — وقد حفزتها الثول إلى تسكين هذا الموقف وقد أرعبها إمكان

قيام جمهورية بها أو إستلحاقها إلى قرنسا ومنحت البلجيكيين ملكا هوليوبولد الأول أمير ساكس كوبرج جوئا. وحلث كذلك في (١٨٣٠) ثورات لم يكتب لها النوفيق بإيطالها وألمانيا ، وفتنة أشد خطورة بكثير في بولندة الروسية . وقامت في وارسو حكومة جمهورية وصدت عاماً كاملا حيال نيقولا الأول (الذي خلف الإسكندر في ١٨٢٥) ، ثم قُنهي عليها عند ذاك بعنف وقساوة كبرين . وصدر قرار بنحريم اللغة البولندية ، واستبدلت بالكنيسة الكاثوليكية الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية بوصفها الديانة الرسمية للمولة . . .



وهناك انفجار فى خريطة العالم السياسية المطابقة للطبيعة حدث فى (١٨٢١)؛ وانهى بالحصول على مناصرة انجلترة وفرنسا والروسيا . وكان ذلك الانفجار هو ثورة اليونان ضد الاتراك . ذلك أن اليونانيين ظلوا يقاتلون قتال المستيئس أمدست سنوات ، على حين وقفت حكومات أوريا تنظر إليهم متفرجة . واحتج الرأى الحرعلى هذه الجمود ؛ وانضم إلى الثوار المتطوعون من كل دولة أوربية ، وانتهى الامر بأن قامت بريطانيا وفرنسا والروميا يعمل مشترك . فدمر الاسطولان الإنجليزى

والفرنسي الأسطول التركي في معركة نوارين (١٨٢٧) وغزا القيصر تركيا . وأعلنت حرية بلاد اليونان بمعاهدة أدرنة (١٨٢٩) ، ولكن لم يسمح لها بأن تواصل تقاليدها الجمهورية القديمة . واتخلت الدول لبلاد اليونان ملكاً ألمانيا هو أمير بالحارى اسمه أوتو -- فغلبت عليه أوهام اعترته حول حقه المقدس ، ونبذ في ١٨٦٧ -- وأقيم حكام مسيحيون في الولايات الدانوبية (التي هي الآن رومانيا) ، وسربيا (وهي جزء من منطقة يوغوسلافيا) . وكان هذا إذعانا جزئيا للخريطة السياسية الموافقة للطبيعة ، ولكن كان لا بد من سفك الدم الكثير قبل أن طرد التركي طرداً تاماً من هذه الأراضي ، وبعد ذلك بزمن يسير قامت الحريطة السياسية المطابقة للطبيعة تنادى بحقوقها في ألمانيا وإبطائيا .

٧ - طراز الإمبر اطورية

انعكست عاولة ناپليون إعادة الإمراطورية الرومانية إنعكاماً تبدت فيه الأمانة البالغة في فن العارة والثياب والأثاث وفن التصوير في تلك الفترة . وقد قاموا في كل هذه الأمور بمحاولة ابتعاث الأشكال والروح المطابقة لواقع روما الإمراطورية . وكانما أفلت من المتاحف ألبسة الرأس النسائية وثياب السيدات وخرجت تسمى في العطرقات . وأخلت عاميع الأعمدة وأقواس النصر تهادى وتتبخر في طريقها إلى أعظم مواقع المدن الكبرى كافة . وفازت باريس بقوس النصر وقلدتها لندن على الفوز فكان لها قوس الرخام (Marbie Arch) . واختفت من الوجود تطورات البتروق (الباروك)(١) والركوكو(٢) في مباني النهضة لأن الناس فضلوا علمها واجهات

 ⁽١) كلمة باروك مأخوذة من الكلمة البرتغالية Barroco ومعناها الجموعة غير المنتظمه الشكل ا وتدل في الاصطلاح الغني على طراز خاص شديد الزخوف شاع في أوربا أبين عامى ١٧٠٠ - ١٧٣٠ أو ١٧٩٠ والكلمة من أصل عربي هو لفظ « براق » . (ألمترجم)

 ⁽۲) روكوكر ؛ مأخوذة عن الكلمة الفرنسية Rocaille ومعناها الحصاة على شكل العمدنة وهو اصطلاح في الفنون الزخوفية يطلق على زخوف يتألف من الأصداف والأحجار وقد شاع منذ عام ١٨٣٠ عند ختام الطراز الهاروكي
 (المترجم)

أخرى أقسى وأعيس مظهراً . وكان كانوفا الإيطالي هو المثال العظيم لذلك الزمان . وكان دافيد يطرب لأشكال الأبطال العراة . وخلد إنجرس (Ingress) أميرات ناپليون على صورة ربات منازل رومانيات وربات رومانيات . وتماثيل لندن العامة تمثل ساسة تلك الفترة وملوكها الموقرين في أشكال أعضاء السناتو والأباطرة . وعندما اختارت الولايات المتحدة تصميماً لخاتمها الأعظم ، كان من الطبيعي أن تختار فيه النسر وأن تضع في مخالبه مهم المشترى(١) .

⁽١) المشترى : أكبر آلمة الرومان . (المترجم)

الفيطالبّاريحُ والبِّلا تُونَ حقائق القرن التاسع عشر وخيالاته

 إ - أغرب الروسية التركية ومعاهدة براين . إلانقلاب الآلي. ٣ – العلاقة بين الانقلابين الآلي و العسناعي . ١٢ - التدافع الثاني على الإمبر اطوريات ورأه ٣ - اخبار الفكرات في ١٨٤٨. أليحاز ع - تطور فكرة الإشراكية . ١٣٠ - السابقة الهندية في آسيا . ه – ميرب الاشراكية بوصفها خطة الجاعة ١٤ -- تاريخ اليابان . ١٥ - ختام فترة التوسع ورأه البحار . الإنسانية . ٣ – كيف أثر مذهب داروين في الفكرات ١٦ – الإمبراطورية البريطانية في ١٩١٤. ١٧ - التمسيوير والنحت. والعارة في القرن الدينية والسياسية . ٧ – فكرة القربية . التاسر عثى . ٨ - المرض الكبير أن ١٨٥١ ١٨ – الموسيقي في القرن التاسم هشر . ١٩ – تبوش القصة إلى المرتبة العليا في الأدب . ٩ - سيرة حياة فابليون الثالث . ١٠ – لنكولن والحرب الأهلية في أمريكا .

١ _ الانقلاب الآلي

تبدو حياة نابليون الأول وشخصيته في موافات القرن التاسع عشر التاريخية ضخمة لا تتناسب وأهميته . فإنه كان قليل الأهمية بالنسبة للحركة الرحيبة السائرة قدما بالشئون الإنسانية نحو الأمام . ولم يزد على أن كان مقاطعاً لتلك الحركة ومذكراً بالشرور الكمينة ، كما كان أشبه شيء بباكتريا بعض الأوبئة ولو نظرنا إليه حتى من زاوية الأوبئة واعتبرناه باكتريا ، فإنه لم يكن منها في المقام الأول ؛ فإنه قضى على عدد من الأنفس يقل عما قضى عليه وباء الأنفلونزا في سنة الأول ؛ فإنه قضى على عدد من الأنفس يقل عما قضى عليه وباء الأنفلونزا في سنة عصر چسننبان .

لم يكن بد من ظهور تمثيليته الصغيرة على المسرح بين فصول المسرحية الكبرى ، ولم يكن مندوحة من حدوث تلك التسوية الأوربية المرقعة التي تقبدى في الاتحاد الأوربي ، ذلك أنه لم يكن هناك مجموعة مدروسة من الفكرات يمكن أن يقام علما عالم جديد . وإن الاتحاد الأوربي نفسه كان ينطوى على عامل من هوامل التقدم . فإنه على الأقل أطرح جانباً روح « الفردية » الممثلة في الملكية المكيافلية وأعلن أنه توجد دولة إنسانية أو على الأقل دولة أوربية . فلئن قسم ذلك الاتحاد العالم بين الملوك ، فإنه أدى تحية التجلة والإكبار للوحدة الإنسانية وخدمة الله والإنسان .

والبواجب الدائم الأثر الذي كان على الإنسانية أداره ، قبل أن يكون في الإمكان إقامة أي بناء سياسي واجهاعي جديد مستديم ، وهو الواجب الذي ما تزال الفطنة الإنسانية منشغلة به رغم ما ألم به من فترات البوقف والمقاطعة وما أحاط به من مظاهر الغضب والشغب - كان وما يتقك هو واجب إنتاج وتطبيق : « ا » علم للميلكية يكون أساً تبني عليه الحرية والعدالة الاجهاعية ، « ب » علم للعملة يضمن وجود وسيط اقتصادي كفء ، « ح » علم لأصول الحكم والعمليات الجماعية ، يستطيع به الناس في كل مجتمع أن يتعلموا كيف يتولون مصلحتهم المشتركة بتوافق وانسجام ، « د » علم للسياسة العالمية يمكن أن يقضي على ما في الحروب بين الجنس والجنس ، والشعب والشعب ، والأمة والأمة ، من التدمير والإسراف الشديد والفساوات الفظيعة ، ويمكن به أن توضع بفضله مصالح البشرية المشتركة تحت رقاية مشتركة ، وفوق كل شيء ، « « » علم يكفل البشرية المشتركة تحت رقاية مشتركة ، وفوق كل شيء ، « « » علم يكفل قيام نظام للتعليم شامل للعالم قاطبة يدعم إرادة الناس ومصلحتهم في مغامرتهم قيام نظام للتعليم شامل للعالم قاطبة يدعم إرادة الناس ومصلحتهم في مغامرتهم الإنسانية المشتركة .

فأما صناع التاريخ الحقيقيون في القرن التاسع عشر ، وهم القوم الذين سوف تحد دعواقب أعمالهم الحياة الإنسانية مقدماً لمدة قرن كامل من الزمان ، فقد كانوا هم أولئك الذين روجوا لهذا الجهد الحجاسي البناء وأسهموا فيه . فلوقيس إليهم وزراء الحارجية ورجال الدولة والسياسيون في تلك الفترة لما زادوا عن فئة من النلاميذ المشاغبين الذين يصلون أحياناً إلى حد إضرام النار والإحراق ، أو

بضع نفر من سراق المعادن ، الذين يعبثون هنا وهناك ويحدثون شراً موقوتاً بين المواد الباقية على أرض بناء عظيم لم يفهموا كنهه .

وعلى حين أن عقل المدنية الغربية في القرن التاسع عشر بأكمله ، وهو العقل الذي أطلقته النهضة من عقاله ، ظل يُجمّع نفسه لأداء واجب التعمير الاجمّاعي والسياسي الحلاق الذي ما يزال عليه عبء القيام به - نقد نحمرت العالم موجة تغيير عام في القوة البشرية وفي أحوال الحياة المادية التي أباحت سبل وجودها الجهود العلمية الأولى لحذا العقل المتحرر.

وابتدأت نبوءات روجر باكون تعيش في عالم الحقيقة . فإن المعرفة والثقة المتجمعة لدى الأجيال القليلة المتعاقبة من الناس الذى علوا لواء التنمية العلمية ، قد أخذت عند ذاك توتى ثماراً كان في مستطاع العامة من الناس أن يفهموها . وكانت الإلة البخارية هي أشد تلك الثمار الأولى وضوحاً . وكانت أولى الآلات البخارية المستعملة في القرن الثامن عشر مضخات تستعمل في صرف المياه إلى خارج مناجم الفحم الحنفرة حديثا . وكانت مناجم الفحم هذه تشغل لاستخراج الكوك بغية استعاله في صهر الحديد الذي كان الفحم النبائي المتخذ من الحشب يستخدم فيه آنفا . وإلى جيمس وات وهو صانع آلات دقيقة في جلاسجو يرجع الفضل في تحسين تلك المضخة البخارية ، وجعل استعالها لدفع الماكينات أمراً ممكناً . وقد وضعت أول المضحفة البخارية ، وجعل استعالها لدفع الماكينات أمراً ممكناً . وقد وضعت أول

وفى (١٨٠٤) كيف ترقيثيك آلة وات وجعلها صالحة لأعمال النقل ، وأنشأ أول قاطرة . وفى (١٨٢٥) فتح للسفر أول خط حديدى بين ستوكنون ودارلنجنون . وما نزال الآلة الأصلية وهي (القاطرة رقم ١ ، ١٨٢٥) نزين رصيف محطة دارلنجنون . وما وافى منتصف القرن حتى كانت شبكة من الطرق الحديدية قلد عمت كل أرجاء أوربا .

هنا حدث انقلاب فجائى فيا ظلّ زمانا طويلا حالة ثابتة فى الحياة الإنسانية ، وأعنى بذلك أقصى سرعة للنقل البرى . وقد سافر ناپليون بعدكارثته الروسية من قرب ثيلنا إلى باريس فى ٣١٧ ساعة ، وهى رحلة تقارب الألف والأربعمئة من الأميال. كان يسافر مستمتعاً بكل ما تتصوره العقول من الميزات ، وكان معدل مسيره يقل عن خمسة أميال في الساعة . وذلك في حين أن الراكب العادي لم يكن ليستطيع أن يقطع هذه المسافة في ضعف هذا الوقت . وكانت هذه السرعة تقارب نفس سرعات السفر القصوى التي كانت ممكنة بين روما وبين بلاد الغال في القرن الأول الميلادي ، أوبين سارديس وسوسا في القرن الرابع ق . م .

ثم جاء على الفجاءة تغيير هائل. فإن السكك الحديدية خفضت هذه الرحلة لأى راكب عادى إلى ما يقل عن عانية وأربعن ساعة ، أى أنها خفضت المسافات الأوربية الرئيسية إلى ما يدانى عشر ماكانت عليه . وجعلت من الممكن الفيام بالعمل الإدارى فى مناطق تكبر بعشرة أضعاف ماكان فى الإمكان إدارته حتى ذلك الحن بواسطة إدارة واحدة . وما برح المغزى الكامل لهذا الاحيال فى أوربا ينتظر الأيام التي تحققه . فإن أوربا ما برحت تقسمها شبكة حدود رسمت فى عصر الحصان والسكة الزراعية ، وكانت آثار ذلك الحدث فى أمريكا سريعة مباشرة . وكان معنى ذلك لدى الولايات المتحدة الأمريكية الزاحقة غربا ، هو إمكان وجود إتصال مستمر بواشنجتون ، مهما تكن المسافة التى تنتقلها الحدود عبر القارة . وكان معنى ذلك هو الوحدة التى تصان على معيار كان لولاها من أضرب المستحيل .

وكان ظهور الزورق البخارى أسبق قليلا من الآلة البخارية في مراحلها الأولى . وكان هناك زورق بخارى هو (شارلوت ديداس) ، ينتقل في قناة (الفورت والكلايد بانجلترة) في (١٨٠٧) ، وفي (١٨٠٧) كان لأمريكي يدعى فالتون باخرة معدية ، هي الكلير مونت بها آلات مصنوعة ببريطانيا ، وكانت تسير في نهر الهدسون أعلى نيويورك . وكانت أول سفينة بخارية سارت في البحر أمريكية كذلك وهي والفينكس ، التي كانت تسير من نيويورك (هوبوكن) إلى فيلادلفيا . وكذلك كان شأن أول سفينة تستخدم البخار (وكان لها أيضا قلوع) عبرت الأطلسي ، وهي السافانا (١٨١٩) . وكانت كل هذه زوارق ذات عجلة رفاصة ، وطكن زوارق العجلة الرفاصة لا تصلح للعمل في عرض البحار الثقيلة . فإن الطارة الرفاصة سهلة الكسر ، وعند ذلك يصبح الزورق عاجزاً أشل".

وظهرت عقب ذلك السفينة البخارية ذات الداسر اللولبي (1). وكان لا بد من التغلب على كثير من الصعاب قبل أن أصبح الداسر اللولبي شيئاً عملياً يمكن الانتفاع به . ولم تشرع حمولة السفن النجارية في أن تزيد على حمولة السفن النبراعية إلا بعد أن بلغ الفرن منتصفه . وبعد ذلك أمسى التطور في النقل البحري سريعاً . وأخذ الناس لأول مرة يعبرون البحار والمحيطات وهم على شي من التحقق من موعد وصولم . وكان عبور الأطلسي قبل ذلك مغامرة غير محققة تمتد أسابيع كثيرة قد تترامي إلى الشهور ، فلم تزل السرعة فيه تزداد حتى خفضت مدنه في (١٩١٠) في حالة أسرع البواخر ، إلى أقل من خسة أيام ، مع إمكان تحديد ساعة الوصول على وجه التقريب . وشمل نفس هذا التخفيض في الزمن ونفس هذا التحقق من البراصلات العالم ومجاره .

وساير تطور البخار على صطح الأرض وفي عباب الماء ، ظهور أمر آخر جديد رائع أضيف إلى تسهيلات التواصل البشرى ، ونشأ عن أبحاث « فولتا » و « خالفانى » و « فارادى » فى الظواهر الكهربية المتنوعة . وظهر التلغراف الكهربي إلى عالم الوجود فى (١٨٣٥) ووضع أول سلك بحرى (كابل) تلغرافى تحت أطباق البحر فى (١٨٥١) بين انجلترة وفرنسا . ولم تمض بضع سنوات حتى كان نظام التعدن بأكمله ، وبذا أصبحت الأخبار التي كانت حتى ذلك اليوم ترحل متباطئة من موضع إلى موضع تنتشر فى كل أرجاء المعمورة فى وقت واحد تقريباً .

وقد كانت هذه الأشياء وأعنى مها السكك الحديدية البخارية والتلغراف الكهربي أشد" المستحدثات روعة وثورة لدى أذهان عامة الناس فى منتصف القرن التاسع عشر ، على أنهما لم يكونا إلا آبرز وأسمج تباشير عملية أشد منهما اتساعاً وعظماً . وأخذت المهارة والمعرفة الصناعية النكنيكية تتطوران فى سرعة غير مألوفة ، وإلى حد غير مألوف إذا قيس تقدم ذلك العصر بتقدم أى عصر سابق عليه .

⁽١) الداسر الموليي (Screw) أو الدانع اللوليي : هو مرواح (Propeller) ويستعمل في دام المغن أو الطائرات . (المرجم)

وانبسطت قدرة الإنسان على المواد الإنشائية المتنوعة وكان انبساطها فى البداءة أقل ظهوراً بكثير فى حياته اليومية ، ولكنه أصبح آخر الأمر على درجة عظيمة من الأهمية . وقبل أن ينتصف القرن الثامن عشر كان الحديد يستخلص من خامه بواسطة فحم الحشب ، وكان يتناول قطعاً صغيرة ثم يطرق ويصاغ فى الشكل المطلوب . كان مجرد مادة يعمل فيها صانع . وكانت جودة نوع الحديد وطريقة معالجته تعتمد اعباداً هاثلا على خبرة الصانع القرد وقطنته . وكانت أكبر كتل الحديد التي يستطاع معالجتها فى مثل تلك الظروف تصل فى أعظم شأنها (فى القرن المحديد التي يستطاع معالجتها فى مثل تلك الظروف تصل فى أعظم شأنها (فى القرن السادس عشر) إلى طنين أو ثلاثة . (فكان هناك إذن حد أعلى محدود جداً لحجم المدفع) . ونشأ الفرن العالى(١) فى القرن الثامن عشر وازداد تطوراً باستخدام فحم الكوك . ولمنا نجد قبل القرن الثامن عشر صفائح الحديد المسحوبة (بين الدرافيل) الكوك . ولا الأسياخ والقضبان المسحوبة (بين الدرافيل) . وجاءت مطرقة « نازميث » البخارية فى زمن متأخر هو (١٨٣٩) .

ولم يستطع العالم القديم أن يستعمل البخار بسبب تأخره في علوم المعادن والتعدين. فأما الآلة البخارية حتى المضخة البدائية ، فلم يكن في الإمكان تطويرها قبل أن تتيسر صفائح الحديد . وتبدو الآلات الأولى لعين الراثى العصرى قطعاً من الحديد الحردة سمجة مستوجبة لأشد الرثاء ، ولكنها كانت أقصى ما يستطيع علم المعدنيات أن يخرجه في ذلك الزمان . وجاءت طريقة و بيستمر » في زمن يقارب في تأخره (١٨٥٦) ، ثم تلنها على الفور (١٨٦٤) ، عملية الأتون المفتوح الذي كان في المستطاع إذابة الصلب وكل أنواع الحديد فيه ، وتنقيتها وصبها بحالة وعلى مقياس لم يسمع الناس بهما حتى آنذاك . ولقد يستطيع الإنسان الميوم أن يرى في الفرن الكهربائي .

ولبس فى مراحل التقدم الإنسانى العملية السابقة ما يعدل فى عواقبه ما بلغه الإنسان اليوم من تلك السيادة التامة على كتل هائلة من الصلب والحديد وعلى تكوينها ودرجة جودتها . وكانت السكك الحديدية الأولى والآلات المبكرة بجميع أصنافها

⁽١) الفرن العالى (Blast-Furnace) هو فرن لصير الحديد ينفخ فيه الهواء الساعن. (المترجم)

مجرد انتصارات الوسائل الجديدة لمعالجة الفلزات (١). وسرعان ما طهرت سفن الحديد والصلب والكبارى الضخمة ، وطريقة جديدة البناء بالفولاذ على معيار هائل . وأدرك الناس بعد فوات الزمن الطويل أنهم كانوا يصممون سككهم الحديدية على مقياس سعة (٢) يتجلى فيه الخوف المفرط ، وأنه كان في مستطاعهم أن ينظموا أسفارهم على أساس قدر أوفي من الثبات والراحة باستعال مقياس سعة أعظم كثيراً من الموجود .

ولم تكن هناك فى العالم قبل القرن التاسع عشر أية سفن تنجاوز حمولتها ألفين من الأطنان . وليس هناك اليوم أى عجب فى وجود باخرة ذات حسين ألف طن . ومن الناس من يهزءون بهذا التقدم راعمين إياه تقدماً فى « محرد الحجم » فقيط ، غير أن هذا النوع من الزراية إنما يدل على ضيق أفقهم .

فليست السفينة العظيمة ولا المبنى ذو الهيكل الفولاذى صورة مضخمة من سفينة الماضى الصغيرة أو بناء الماضى الصغير كما يتوهمون ، وإنما هى شيء مختلف فى نوعه ، يبنى بناءاً أخف وأقوى ، من مواد أجود وأمن . وبدل أن تكون شيئاً يعتمد على السوابق والحساب التقريبي ، إدا بها شيء يرجع إلى حسابات دقيقة معقدة . فنى المنزل أو السفينة القديمة ، كانت المادة هى المتسلطة - فكان الحال يقتضى أن تطاع المادة وما يلزمها طاعة العبيد ؛ فأما السفينة الحديثة أو المنزل الجديد فقد قبض فهما على ناصية المادة وغيرت معالمها وضبطت أحوالها . تصور ذلك الفحم والحديد والرمل المستخرجة من المحاجر والمناجم ، وهى توخف وتشغل ، وتصهر وتصب لكى نقام آخر الأمر برجا(١) رفيماً براقاً من الصلب والزجاج يعلو على المدينة المزدحة بستمثة قدم ! وهذه التفاصيل عن تقدم معرفة الإنسان بالحواص الفلزية للصلب ونتائيها قد

 ⁽١) علم الفلزات (Metallurgy) : هو العلم والغنول الطبقة على المعادن ، بما في ذلك استنزالها من خامها وتنقيتها وخلطها سبائك وتنتكيلها ومعالجتها ودراسة تكوينها وبغيتها وخواصها .
 (للترحم)

⁽ Y) مقياس سمة (Oarge) مسافة ما بين القضيان . (للترجي)

أدلينا بها على سبيل المثال والتوضيح . وفى إمكاننا أن نروى لك قصة مماثلة لهذه عن المحادث نجتزئ منها بذكر الخواص الفلزية للتحاس والقصدير وعن عدد غفير من المحادث نجتزئ منها بذكر اثنين هما النيكل والألومنيوم ، وهما معدنان لم يكونا معروفين قبل انبثاق فجر القرن التاسع عشر .

وإنما يعود إلى هذه السيادة العظيمة النامية على المواد ، أعنى على الأنواع المختلفة من الزجاج وعلى الصخور وأنواع (البياض) وما إليها ، وعلى الألوان والتكوين ، الفضل فى إحراز الإنسان أهم انتصاراته فى الثورة الميكانيكية حتى هذا الأوان . ومع هذا فإنا ما نزال فى مرحلة إجتناء أول بواكبر ذلك الأمر . لدينا القوة ، ولكن ما يزال علينا أن نتعلم كيف نستخدم قوتنا . وكثيراً ما كانت هبات العلم هذه تستخدم استخدامات سوقية أو قبيحة الذوق أو مهرجة أو سمجة حقاء أو شنيعة . ولم يكد الفنان ولا الفنى المنفذ (١) أن يشرعا حتى الآن فى العمل فى الأضرب اللا نهائية المواد التى هى الآن بن أيديهما .

ونما علم الكهرباء الجديد نموا مماثلا لهذا التوسع في الاحتمالات الميكانية . ولم يحدث إلا في العقد الئامن من القرن التاسع عشر أن شرعت هذه المجموعة من الأبحاث العلمية أن توثق ثماراً توثر في العقل السوقى . ثم جاء بغتة كل من النور الكهربائي والجر الكهربائي ، وشرعت عقول الناس العاديين تدرك أن في الإمكان تبديل والجر الكهربائي ، وشرعت عقول الناس العاديين تدرك أن في الإمكان تبديل مركة (Transmutation) القوى ، أعنى احتمال إرسال القوة التي يمكن تحويلها إلى حركة ميكانيكية أو ضوء أو حرارة حسما يختار الإنسان ، على امتداد سلك من النحاس ، كما ترسل المياه داخل الأنابيب .

وكان البريطانيون والفرنسيون في مبدأ الأمر هما الشعبان القائدان للعالم في مضهار هذا الإخصاب العرفاني العظيم . ولكن ما عتم الألمان الذين تعلموا الذلة في حكم ناپليون أن أظهروا الوقت من الحماسة والدأب في البحث العلمي ما جعلهم يدركون

⁽١) المنعذ العبي (Adapter) المعذ ألحلة المهندس . (المترجم)

هوًلاء القادة . وكان العلم البريطانى فى معظم أمره من خلق رجال من الإنجليز والاسكتلنديين^(١) الذين يشتغلون خارج مراكز الحذلقة العادية .

وقد أسلفنا إليك من قبل كيف أن الجامعات في إنجلترة قل عليها الإقبال المشعبي بعد الإصلاح الديني ، وكيف أنها أصبحت وقفاً على النبلاء والأعبان كما صارت الحصن المنيع للكنيسة الرسمية . وتغلبت عليها روح إدعاء كلاسيكية ران عليها الغباء والتفاخر بالفخامة ؛ كما أنها تسلطت على مدارس الطبقتين الوسطى والعليا . وكانت المعرفة الوحيدة التي تعترف بها هي الإلمام بنصوص لمختارات من الأدب الكلاسيكي اللاتيني والإغربق إلماماً لا ينطوى على نقد ولا تمحيص ، وكانت أمارة حسن الأسلوب هي وفرة ما فيه من اقتباسات وإشارات وعبارات متحجرة جامدة .

ومن ثم تواصل التطور المبكر للعلم البريطاني ، بالرغم من هيئة التعليم الرسمية ، ورغم أنف العداوة المريرة التي أبداها أصحاب مهنتي التعليم والكهنوت . كذلك تسلطت على التعليم الفرنسي تقاليد اليسوعين الكلاسيكية ، وترتب على ذلك أنه لم يعسر على الألمان أن ينظموا هيئة من البحاثة ، كانت صغيرة بالنسبة لاحتمالات الموضوع ، ولكنها كبيرة بالنسبة إلى الفئة القليلة من المخترعين والتجريبيين البريطانيين والفرنسين . ومع أن هذا العمل عمل البحث والتجريب كان آخذا بأسباب جعل بريطانيا وفرنسا أغنى بلاد العالم وأقواها ، فإنه لم يكن بجاعل رجال العلم والابتداع أغنياء ولا أقوياء . وهناك ضرب ضروري من الروح غير الدنيوية يحيط برجل العلم المخاص لعلمه . فإنه أشد انشغالا بمباحثه من أن يدبر ويخطط وسائل يستطيع أن يجر من ورائها المغانم .

وبناء على ذلك تقع عملية الاستغلال الاقتصادى لمكتشفاته بشكل مهل جداً وطبيعى خجداً فى أيدى طراز من الناس أكثر ميلا إلى الاقتناء والاحتياز . وكان كل دور جديد من أدوار التقدم العلمي والتكنيكي ينتج فى بريطانيا العظمى محصولا

⁽١) ولكن ليلاحظ القارئ بويل والسير و . م . هملتون بوصفهما من رجال العلم المبردين الإرانديين . (المؤلف)

جديداً من الأغنياء الذين كانوا من تمام الرضا عن أنفسهم بحيث بتركون الأوزة الذهبية البيض تموت جوعاً ، وإن لم يظهروا كما فعل العلماء المدرسانيون ورجال الأكليروس نفس الرغبة الجامحة في إهانة أوزة البيض الذهبي القوى وقتلها . كانوا يرون أن الختر عين والمكتشفين يجيئون بمكم الطبيعة لكي ينتفع من وراثهم من هم أشد منهم ذكاء ومهارة .

وكان الألمان أكثر منهم حكمة بقليل في هذا الأمر. فإن « العلماء » الألمان لم يظهروا نفس الكراهية العنيفة نحو العلم الجديد بل سمحوا له بالنطور . كذلك لم يكن يخالج الألماني صاحب الأعمال والمصنع تحو مواطنه العالم نفس ما كان يخالج منافسه البريطاني من احتقار للعلماء . كان هؤلاء الألمان يعتقدون أن المعرفة ربما أصبحت محصولا مزدرعاً يستجيب للمخصبات . لذلك سلموا للذهن العلمي بقدر معين من الفرصة ينتهزه ؛ فكانت مصروفاتهم العامة على أعمال البحث أكبر نسبياً ، وجوزى هذا الإنفاق أوفي الجزاء

وما بلغ القرن التاسع عشر نصفه الثانى حتى كان العالم الألمانى قد جعل اللعة الألمانية لغة ضرورية لكل طالب علوم يرغب فى أن يكون على الدوام فى الطليعة مماشياً آخر إنتاج فى فرع علمه ، وأحرزت ألمانيا فى فروع معينة من العلوم وفى الكيمياء بوجه خاص تفوقاً عظيا جداً على جيرانها الغربيين . وأخذ الجهد العلمي فى ألمانيا فى العقدين السابع والثامن يحدث آثاره فى ثمانينات القرن ، وأخذ الألمان يسبقون بربطانيا وفرنسا سقاً متواصلا فى النجاح التطبقي الفنى (التكنيكي) والصناعى . ومن المستحيل فى معالم للتاريخ مثل هذه أن نتعقب شبكة العمليات العقلية المركبة التى أدت إلى هذا التوسع المتواصل فى المعرفة والقوة الذي يجرى الآن فى العالم . وكل ما نستطيع فعله هنا أن نسترعى التفات القارئ إلى أبرز نقاط التحول فى العالم . وكل ما نستطيع فعله هنا أن نسترعى التفات القارئ إلى أبرز نقاط التحول التمانية الى ما هى عليه من حال التقدم السريع .

وقد حدثناك عن أول فكاك للتطلع الإنساني ، وعن بدايات البحث والتجريب -

المنتظم . كذلك حدثناك كيف حدث عند ما جاء النظام الروماني الباوتوقراطي (۱) وما ترتب عليه من روح استعارية ثم ذهب من العالم ثانية ـ أن تجددت عملية البحث هذه . وحدثناك عن إفلات البحث من الاستخفاء والاستفادة الشخصية إلى فكرة النشر وإلى الإخوة في المعرفة ، ولاحظنا تأسيس الجمعية الملكية البريطانية ، والجمعية الفلورنسية ، وأشباههما بوصفهما نتيجة لهذا التنظيم الفكر على أسس « الإشتراكية » . كانت هذه الأمور هي جدور الإنقلاب الميكانيكي ، وما دام جدر البحث العلمي الصرف حياً فلن يقف تقدم ذلك الإنقلاب عند حد . وربما جاز لنا أن نقول إن المورة الميكانية ذاتها ابتدأت باستهلاك ما في إنجلترة من الحشب في مصانع الحديد . وأفضى ذلك إلى استعمال الفحم ، وأدى منجم الفحم إلى المضخة البسيطة ، وأدى التحول بالمضخة على يد « وات » إلى آلة تدفع الماكينات ، إلى ظهور القاطرة والسفينة والميخارية . وكان دلك هو الدور الأول من أدوار توسع عظيم في استعمال البخار . وابتدأ دور ثان الثورة الميكانية بتطبيق العلم الكهربي على المسائل العملية وعلى تطوير الإضاءة الكهربية ونقل القوة والحر .

وثمة دور ثالث لا بد من تمييزه ، جاء عندما ظهر فى العقد التاسع طراز جديد من الآلات ، وهى آلات حلت فيها قوة التمدد فى خليط متفجر محل قوة التمدد فى المخار ، ولم تلبث الآلات الخفيفة العالية الكفاية التى أصبحت بذلك فى حيز الإمكان إن طبقت على السيارة ، وتطورت آخر الأمر حتى بلغت درجة عالية من الخفة والكفاية تجعل الطيران شيئاً عملياً ، والطيران فكرة كان معروفاً منذ زمن مديد أنها ممكنة .

وكان جهد إخوان رايت فى أمريكا ذا أهمية أولية فى هذا الميدان . وفضلا عن هذا فإن الأستاذ لانجلى التابع لمعهد سميشسون بنيويورك تمكن فى زمن يرجع إلى (١٨٩٧) من صنع آلة للطيران ، وإن لم تبلغ من السعة حد حمل جسم إنسانى . فأما مجهوده الثانى وهو طائرة كاملة الحجم ، فقد فشل فى محاولاته الأولى ، ولكن كوريس وفق بعد إدخال تغييرات عظيمة جداً عليها ، إلى الطيران بها بنجاح بعد

⁽١) البلوتوقراطي · القائم على حكم الأثرياء. (المترجرِ)

ذلك ببضع سنين. حتى إذا وافت (١٩٠٩) أصبح في إمكان الطائرة أن تعمل في النقل الإنساني . وكانت بوادر بعض التوقيُّف في زيادة السرعة الإنسانية قد لاحت في الأفق مع إحكام السكك الحديدية والانتقال بالسيارة في الطرق ؛ ولكن جاءت مع آلة الطيران تخفيضات جديدة في قيمة المسافة بين نقطة على سطح الأرض ونقطة أخرى . وقد كانت المسافة بين لندن وإدنبرة تستغرق ثمانية أيام في القرن الثامن عشر . وفي (١٩١٨) قدمت لجنة النقل الجوى البريطانية تقريراً تعول فيه إن الرحلة من لندن إلى ملبورن وهي نصف الدورة الكاملة حول الأرض ، يرجح أن .

وينبغى ألا نبالغ فى التشديد على هذه التخفيضات إلرائعة فى المسافة الرمنية بين مكان وآخر . فما هى إلا مجرد مطهر واحد من مظاهر تكبير الاحتمالات الإنسانية أعظم عمقاً وأشد ضخامة . فإن علم الزراعة والكيمياء الزراعية مثلا أصابا أطواراً من التقدم ممانلة لهذه تماماً إبان القرن التاسع عشر . وبلغ من تعلم الناس تخصيب الأرض أن أنتجوا أربعة أضعاف وخمسة أضعاف المحاصيل التي كانوا يحصلون علما من المساحة نفسها فى القرن السابع عشر . وكان هناك تقدم أشد خرقاً للمعتاد فى العلوم الطبية . فارتفع معدل متوسط المعمر وزادت الكفاية اليومية وتناقص صباع الحياة بدداً بسبب موء الصحة .

من أجل ذلك كله يجتمع لنا الآن تبدل نام في الحياة الإنسانية يبلغ من ضخامته أن يكون طوراً جدبداً في التاريخ. فقد أوجد الإنسان هذه الثورة الميكانية فيها يربي على القرن بقليل. وقام الإنسان إبان تلك المدة بخطوة في أحوال حياته المادية أسرع من كل ماخطاه في حميع الفترة الطويلة المحصورة بين المرحلة الباليوليئية (العصر المحجري القديم) وعصر الزراعة ، أو بين أيام بيبي في مصر وأيام چورج التالث. وظهر إلى عالم الوجود هيكل جديد هائل المشون الإنسانية . ومن الواضح أنه يتطلب إعادة تنسيق طرائقنا الاجتماعية والاقتصادية من جديد . بيد أن هذه المنسيقات الجديدة المطلوبة قد ترتبت بالضرورة على تطور الثورة الميكانيكية ، وهي ما تزال حتى اليوم في مراحلها الافتتاحية لما تتجاوزها .

٢ ـ العلاقة بين الإنقلابين الآلي والصناعي

تجنح كثير من كتب التاريخ إلى الحلط بن ما سميناه ها باسم الانقلاب الآلى ، الذى كان شيئاً جديداً تمام الحدة فى الحبرة الإنسانية ناشئاً عن تطور العلم المنظم ، وكان خطوة جديدة تشبه إختراع الزراعة أو اكتشاف المعادن ، وبن شيء آخر مختلف تمام الاختلاف فى مصادره وأصوله ، شيء كان له من قبل سابقة تاريخية ، هو التطور الاجتماعي و المالي الذي يسمى الانقلاب الصناعي أو الثورة الصناعية .

كانت العمليتان تسيران جنباً إلى جنب، وكانتا تتفاعلان بعضهما مع بعض تفاعلا مستمراً ، ولكنهما كانتا مختلفتين أساساً وروحاً وجوهراً . إذ لم يكن بد من أن يحدث إنقلاب صناعى من نوع ما ، ولو لم يوجد الفحم الحجرى ، ولو لم يوجد البخار ولا الماكينات ، ولعله كان سيقتنى فى هذه الحالة بدقة أشد ، خطى التطورات المالية والاجهاعية التى حدثت فى السنوات المتأخرة للجمهورية الرومانية ، ولعله كان يعبد قصة المزارعين الأحرار المشردين عن أملاكهم ، وقصـة مناسر العال ونظام المزارع الكبيرة والثورات المالية الكبرى ، وإحدى العمليات المالية المقوضة المحتمع .

والوافع أن طريقة المصنع ذاتها جاءت قبل ظهور القوة والماكينات. فكأن المصانع لم تكن تُحرة للآلات ، بل التقسيم العمل الله والمال المدرين المكدودين كانوا يصنعون أشياء من أمثال قبعات السيدات وصناديق الورق المقرى والأثاث ويقومون بتلوين الخرائط وصور الكتب وما إليها ، قبل أن تستعمل العجلات المائية نفسها في العمليات الصناعية . وكانت هناك مصانع في روما في أيام أوغسطس ، فإن الكتب الجديدة مثلا كانت تملى على صفوف من النساخ في مصانع الوراقين . وسوف يدرك كل لبيب من دارسي الكاتب الإنجليزي دانيال ديقو ونشرات فيلدنج السياسية ، أن فكرة جم الفقراء كالقطيع في أماكن ليشتغلوا أحشاداً في كسب رزقهم ، كانت أمراً سبقت معرفته في بريطانيا قبل نهاية القرن السابع عشر . وهناك من الإشارات ما يدل على هذا حتى في زمان يرجع في قدمه السابع عشر . وهناك من الإشارات ما يدل على هذا حتى في زمان يرجع في قدمه

إلى أيام اليوتوبيا^(١) التي ألفها السيرتوما**س مور (١٥١٦).** كان الانقلاب تطور**آ** اجتماعياً وليس ميكانياً.

وكان تاريخ أوربا الغربية الاجتماعي والسياسي إلى ما بعد منتصف القرن النامن عشر يترسم في الحقيقة نفس الطريق الذي سارت فيه الدولة الرومانية في القرون الثلاثة السابقة على ميلاد المسيح. وكانت أمريكا من نواح كثيرة أسپانيا جديدة . وكانت الهند والصين مصراً جديدة . على أن الإنقسامات السياسية في أوربا ، والفورات السياسية ضد الملكية ، وعناد العامة وربما أضيف كذلك قابلية الذكاء الأوربي الغربي العظيمة لتلتي الفكرات والمستحدثات الميكانيكية ، قد حولت العملية إلى وجهات جديدة تمام الجدة . وبفضل المسيحية بوجه خاص انتشرت فكرات الترابط الإنساني انتشاراً أعم وأعظم في هذا العالم الأوربي الأحدث جدة ، ولم يكن السلطان السياسي مركزاً إلى هذا الحد . ومن ثم سارع النشيط من الرجال التواق إلى الثراء ، فوجه كل همه عن طيب خاطر منصرفاً عن فكرة الرقيق ومناسر العال إلى فكرة فوجه كل همه عن طيب خاطر منصرفاً عن فكرة الرقيق ومناسر العال إلى فكرة المؤقة المبكانيكية والماكينة .

أما الثورة الآلية (الميكانيكية) أى عملية الإختراع والاكتشاف الآلى ، فكانت شيئاً جديداً في الحبرة الإنسانية ، وقد سارت في سبيلها غير عابئة بالعواقب الاجتاعية والسياسية والاقتصادية والصناعية التي عسى أن تترتب عليها . فأما الثورة الصناعية من الناحية الأخرى ، شأن معظم الشئون الإنسانية الأخرى ، فقد ألم بها وما يزال يلم بهاالعميق المتكاثر من التغير والإنحراف بسبب التغير المستمر في الأحوال الإنسانية الناشيء عن الثورة الميكانيكية . وينحصر الفاوق الضرورى بين اختران القناطير المقنطرة من الأموال ، وإبادة صغار المزارعين وصغار رجال الأعمال ، وطور المالية الكبيرة في القرون المتأخرة للجمهورية الرومانية من ناحية ، وبين الحالة الشديدة المائلة لتلك والتي قوامها تركز وعوس الأموال في القرن النامن عشر الشديدة المائلة لتلك والتي قوامها تركز وعوس الأموال في القرن النامن عشر

⁽١) اليوتربيا : جزيرة خيالية تصورها السير توماس مور حاوية لأكل النظم السياسية والدينية والتانونية والاقتصادية . واسمها الأصلى بالعربية الطوبى . (المانونية والاقتصادية . واسمها الأصلى بالعربية الطوبى .

والتاسع عشر من الناحية الأخرى ، ينحصر فى الفارق العميق فى خصائص العمل التي كانت الثورة الميكانيكية تحدثها .

كانت القوة فى العالم القديم هى قوة الإنسان ، فكان كل شىء يعتمد اعباداً مطلقاً على قوى الدفع فى العضل الإنسانى ؛ عضل الجهلة والمقهورين من الرحال ، وكان قليل من العضل الحيوانى قوامه ثيران وخيول الجر وما إليها يضاف إلى عمل الإنسان . فأنى كان هناك حيمتل لابد من رفعه فقد كان الرجال هم الذين يرفعونه ، وأنى وجب أن يقطع حجر ، كان الرجال يقد ونه ، وأنى لرم حرث حقل من الحقول ، كان الرجال المعادل الرومانى السفينة البخارية هو الغليون (Calley) أى السفينة القديمة بما فيها من صفوف المجدفين المكدودين .

وكانت نسبة ضخمة من أفراد البشرية تستخدم في المدنيات الأولى في العمل الشاق الآلى البحت ، والماكينات المدفوعة بالقوة لم يبد فيها عند البداية ما يبشر بأى أمل في فكاك الإنسان من ربقة مثل هدا العناء العضلي الذي لا زكاء فيه ، فكانت جماعات عظيمة من العبال تستخدم في حفر القنوات ، وفي عل قطوع السكك الحديدية وجسور (١) الأنهار وما إليها . تزايد عدد عمال المناجم تزايداً هائلا . ولكن اتساع التسهيلات وإنتاج السلع تزايد أكثر من دلك جداً . ومع مضى الزمن بالقرن التاسع عشر أخذ المنطق البسيط الواضح للموقف الجديد يثبت وجوده بشكل أشد وضوحاً . فقر داتها أحد . إذ كان ما يمكن صناعته آليا بواسطة الكائن الإنساني ممكناً صناعته أسرع وأجود بواسطة الآلة ، ولذا لم تعد هناك الحاجة إلى الكائن الإنساني الآن إلا يوسفها كائنات الإنساني الآن إلا بوسفها كائنات إنسانية لم تعد تطلب حيث يتطلب الأمر الاختيار والذكاء . فكأن الكائنات الإنسانية لم تعد تطلب الا بوصفها كائنات إنسانية لا غير . فأما ذلك العسيف (٢) المشتغل بالأعمال الشاقة الذلك العسيف (١) المشتغل بالأعمال الشاقة ، ذلك الكائن المكائن الخلوق لمجرد الطاعة ،

الجسور ليست هنا عمني الكبارى بل بالمنى الدى يقال عنه في مصطلح أمل مصر الكوز أيش .
 (المترحم)

⁽ ٢) السيف (Driadge) : فاعل تساه معاملته ويرهق بالباهظ الجفير من الأعمال . ﴿ الْمُتَرْجِمِ ﴾ `

ذلك الإنسان الذي كان عقله شيئاً لا لزوم له ـ فقد أصبح غير ضروري لرفاهة الإنسانية .

وصدق هذا على الصناعات العتيقة كالزراعة واستخراج المعادن صدقه على أحدث عمليات التجهيز في المعديات. فأما الحرث والبنير والحصاد فقد ظهرت لها آلات سريعة تعمل عمل عشرات الرجال. وفي هذا الميدان تزعمت أمريكا العالم القديم. وكانت الحضارة الرومانية تقوم على كائنات إنسانية رخيصة منحطة عن مكانبًا، والحضارة العصرية يعاد بناؤها على القوة الميكانيكية الرخيصة. إذ جاءت مئة من السنين اطرد فها رخص القوة وغلاء العامل. فلأن اضطرت الماكينات أمد جيل أو بعض حيل أن تنتظر دورها في المنجم، فإن ذلك كان لمجرد أن الرجال لبثوا ردحاً من الزمان أرخص من الماكينات. فكانوا يقدرون في نور ثمير لند وديرهام في أبام استخراج الفحم الأولى تقديراً يبلغ من الرخص والحطة أنه لم تجر العادة في أبام استخراج الفحم الأولى تقديراً يبلغ من الرخص والحطة أنه لم تجر العادة بإقامة التحقيق حول أجساد القتلى في كوارث المناجم. وكانت الحاجة إلى نقابات العالم ماسة لتغيير حالة الأمور هذه.

ولكن هذا الاتجاه العام نحو إكمال العمل اليدوى والقضاء عليه بواسطة الآلات ، كان انقلاباً ذا أهمية من الدوجة الأولى تماماً فى الشئون الإنسانية . وكان أهم ما يشغل بال الغنى والحاكم فى المدينة القديمة أن يحتفط بمدد متواصل من العسفاء المشتغلين بالأعمال الشاقة . إذ لم يكن هناك أى مصدر آخر للتراء . فلما تطاول العهد بالقرن التاسع عشر أخذت تزداد وضوحاً لدى القوم الأذكياء الموجبهين المتخدين ، الفكرة القائلة بأن الرجل العادى لا بد له الآن من أن يكون شيئاً آحسن من فاعل عسيف يكدح . فكان لا بد من تعليمه للحصول على « الكفاية الصناعية على الأقل ه . وكان لا بد له من أن يفهم ما عليه حال الدنيا .

وقد كان التعليم الشعبي منذ أيام الدعاية المسيحية الأولى ، نارآ تتقد تحت الرماد في أوربا ، كما كانت تتقد تحت الرماد في آسيا حيثًا وضع الإسلام قدمه ، بسبب الضرورة القاضية بجعل المؤمن على شيء من الفهم للعقيدة التي تنقذ روحه ، وتمكينه من قراءة ما تيسر من الكتب للقدسة التي تحمل إليه اعتقاده . وقد أدت الحصومات

١

بين الطوائف المسيحية وما صحبها من تنافس على الأنصار ، إلى حرث التربة وتمهيدها لبذر بذور التعليم الشعبى العام . فقد حدث فى انجلترة مثلا عندما ضرب القرن التاسع عشر فى عقديه الرابع والحامس ، أن أنتجت منازعات الطوائف وضرورة الإستحواذ على الأنصار صغاراً ، وفرة فى المدارس الليلية ، ومدارس الأحد وسلسلة من الهيئات التعليمية للأطهال ، والمدارس البريطانية غير المنتمية إلى أية طائفة دينية والمدارس القومية التابعة للكنيسة ، بل حتى المدارس الأولية الكاثوليكية .

وكان أصاب المصانع الأقدمون عهداً والأقل استنارة وعلماً يكرهون هذه المدارس ويعارضونها لضيق أفقهم حتى عن النظرة الحاصة إلى مصالحهم الحاصة . وفي هذا المجال أيضاً تزعمت ألمانيا الفقيرة الأكثر جيرانها منها ثروة . وسرعان ماوجد المعلم الديني في بريطانيا أن طالبي المكاسب قد انحازوا إليه ، وقد غلبهم شغف غير متوقع إلى تعليم عامة الناس ، وإلا فإلى « تدريبهم » إلى مستوى أعلى في الكفاية الاقتصادية والإنتاجية .

وكان النصف التانى من القرن التاسع عشر فترة تقدم سريع فى التعليم السعبى العام فى كل أرجاء العالم المصطبغ بالصباغ الغربى . ولم يصحب هذا تقدم مماثل فى تعليم الطبقات العليا – ولا ريب أن قد حصل سىء من التقدم ولكنه ليس سيئاً يعادل ذاك ويقابله – وبذا لم يعد ذلك الجول العظيم الذى كان حتى حين يقسم العالم إلى الطبقة المقارئه والمجموعة غير القارئة ، يزيد كثيراً عن فارق ضئيل جداً فى المستوى التعليمي . وكانت الثورة الميكانيكية تقف من وراء هذه العملية . وكانت تسبر غير عابئة فى الظاهر بالظروف الاجتماعية ، ولكنها مصرة فى الحقيقة إصراراً عنيداً على إلغاء كاملا .

ولم يستطع عامة سكان روما بأية حال فهم الثورة الإقتصادية فى الجمهورية الرومانية فهما واضحاً . فإن المواطن (المادن) الروماني العادى لم ير قط التغيرات التي كان يعيش فيها روية واضحة مفهومة كما نراها نحن الآن . على أن الثورة الصناعية وهي تمضى في سبيلها قرب نهاية القرن التاسع عشر ، كانت واضحة لأعين العامة الذين كانت توثر فيهم ، وكانوا يعرفون أنها عملية واحدة متاسكة .

لأنهم كانوا قد أخذوا للوقت يستطيعون القراءة والماقشة والتواصل ، ولأنهم كانوا يضربون في الأرض ويرون الدنيا على شاكلة لم تصل إليها فئة من العامة قبلا . ولقد حرصنا في هذه و معالم التاريخ ، أن توميء لك إلى الظهور الندريجي للعامة بوصفهم طبقة لها إرادة مشتركة وفكرات مشتركة . ومن رأى الكاتب أن الحركات الضخام لعامة الناس فوق مساحات جسيمة ، لم تصبح في الإمكان إلا سيجة لديانتي الدعاة : المسيحية والإسلام ، وإصرارهما على الاحترام الذاتي للفرد . وقد سقنا قصة حماسة العامة للحرب الصليبية بوصفها مميزاً لدور جديد من أدوار التاريخ الاجتماعي .

غير أن هذه الحركات الضخام بذاتها كانت قبل القرن التاسع عشر ، محدودة نسبياً . ولكن فتن الفلاحين للمطالبة بالمساواة ظلت ابتداءاً من زمان ويكليف فما عقبه ، مقصورة على مجتمعات للفلاحين في مواضع محلية محدودة ، ولم تنتشر إلا على بطء إلى نواح توثر فيها موثرات مشامة . أجل إن صناع المدن كثيراً ما كانوا يشغبون ، ولكن ذلك كان شيئاً محلياً بحتاً .

ولم يكن إحراق القصور فى النورة الفرنسية من عمل فلاحين قد قلبوا حكومتهم ، بل من عمل فلاحين أطلقهم من قيودهم قلب حكومتهم . وكان « كوميون » باريس أول ظهور فعال أصناع المدينة بوصفهم قوة سياسية ، وكان الجمهور الباريسي فى النورة الأولى جمهوراً شديد التخلط بدائى التفكير متوحشاً ، بالموازنة إلى أى جمهور أورى بعد (١٨٣٠) .

على أن الثورة الميكانيكية لم تقتصر على إدخال التعليم قسراً على السكان كافة ، بل كانت مؤدية إلى رأسمالية كبيرة وإلى إعادة تنظيم كبير المعيار الصناعة قدر له أن ينتج في العامة نظاماً من الفكرات جديداً مميزاً بدلا من مجرد العناد القلق والثورات الأولية التي تحدث من دهماء أمنيين .

ولقد سبق أن لاحظنا كيف شقت الثورة الصناعية الطبقة الصانعة ، التي كانت حتى حنن ضربا من طبقة متوسطة مخلطة ، ــ إلى نوعين من الطبقات ، هي أصحاب

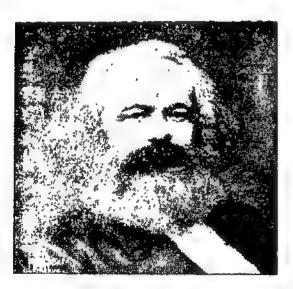
الأعمال الذين بلغوا من الثراء ما مكنهم من الإختلاط بالطبقات المالية والمنجرة وصاحة الأراضى ؛ والمستخدمين (العمال) الذين كانوا ينتقلون إلى حالة تقرب رويداً رويداً من حالة مجرد عمال المناسر والزراعة . وبينها كان العامل الصناعى بهبط ، كانت ترتفع قيمة العامل الزراعى بسبب إدخال الآلات الزراعية والزيادة في قوة إنتاجة الفردى .

وعند منتصف القرن التاسع عشر ، كان كارل ماركس (١٨١٨ – ١٨٨٨) وهو يهودى ألمانى بلغ بسطة عظيمة من العلم ، قد أخذ يشير إلى أن تنظيم الطبقات العامة على يد جماعة ملاك رأس المال المتزايدى التمركز تزايدا متواصلا مستمرا ، كان يطور تصنيفاً اجهاعياً جديدا يحل محل أنظمة طبقات الماضى الأكثر تعقيدا . ذلك أن الأملاك بالقدر الدى هي به قوة ، كانت تجمع بعضها إلى بعض فى أيد قليلة نسبياً ، هي أيدى كبار الأغنياء ، أى طبقة الرأسمالين ، على حين كان ينتج هناك إختلاط عطيم فى العمال الذين لديهم القليل أو ليس لديهم شيء من الأملاك ، هناك إختلاط عطيم فى العمال الذين لديهم القليل أو ليس لديهم شيء من الأملاك ، الذين كان يسميهم باسم و أصحاب الأملاك سابقاً و و البروليتارية (١) » – (وهو استعمال خاطئ لهذه الكلمة) – وهم الذين لا مناص لهم بسبب تنازع مصالحهم ومصالح الأغنياء من أن يطوروا و وعياً مشتركاً و بن أفراد طبقهم .

وقد جاء على الناس ردح من الزمان بدا لهم فيه أن الفوارق فى التعليم والتقاليد بين العناصر الاجتماعية المتنوعة الأقدم عهدا ، والتي كانت تمر في عملية الصهر والخلط بعضها ببعض لتصبح الطبقة الجديدة طبقة (أصحاب الأملاك سابقاً) ، - قد أخذت تناقض هذا التعميم الجارف . فكانت تقاليد أصحاب الحرف وصغار أصحاب العمل والمزارعين الفلاحين ومن إليهم تختلف جميعاً بعضها عن بعص وعن التقاليد الحرفية المتنوعة للعال . ولكن هذا التعميم و الماركسي » يصبح الآن مقبولا أكثر فأكثر مع انتشار التعليم ورخص ثمن الكتب .

⁽١) البروليتارية (roletariat): هي الطبقات الدنيا أو عامة الشعب أو العال وهي كلمة مشتقة من اللمطة اللاتينية (Proletarms)، ومعاها مواطن من أدى طبقة، يحدم الدولة لا بأملاكه بل بسلم (١٠٠٥ es) ومن تم يشير المؤلم، إلى العارق بين استخدام اللمط قديماً وحديثاً. (المترحم)

هذه الطبقات التي لم يكن يربطها في أول الأمر رابط غير فقر مشترك أصابهم جيعاً على السواء ، كانت ولا تزال تنخفض عن نفس مستوى الحياة أو ترتفع إليه وتجبر على قراءة نفس الكتب والاستراك في نفس المضايقات . ومن ثم فإن شعوراً من النماسك بين كل أنواع الرجال الفقراء الذين لا أملاك لهم ضد الطبقة التي تكدس الأرباح وتمركز الثروة ، قد أخذ يزداد وضوحاً أكثر فأكثر في عالمنا هذا . فإن الفوارق القديمة تذوى ، فيذهب الفارق بين رب الحرفة والعامل في العراء . وبين الموظف صاحب السرة (الجاكتة) السوداء والعامل صاحب معطف العمل الواقى الأومنيبونس ، وبين القسيس الفقير ومعلم المدرسة الأولية ، وبين رجل الشرطة وسائق الأومنيبونس . فلا بد لهم جميعاً من مشترى نفس الأثاث الرخيص ، ولا بد لهم من سكنى البيوت الرخيصة المتشابهة . ولا بد أن يختلط أبناؤهم وبناتهم جميعاً ويتزوجوا بعضهم من بعض . ويصبح النجاح في المستويات العليا أمراً ينقطع دونه أكثر فأكثر أمل



(شكل ۱۹۲ كارل ماركس)

عامة الناس . وتبرر الحوادث كل يوم أكثر فأكثر آراء ماركس الله في يدافع عن حرب الطبقات قدر ما تنبأ بها ؛ وهويعني بحرب الطبقات الحرب التي تشنها طبقة و أصحاب الأملاك سابقاً ، على الأقلية التي لا تبرح تمتلك الأملاك . وقد يدفع بعضهم أحياناً في جدله ضد ماركس بأن نسبة الناس ضد ماركس بأن نسبة الناس الذين لهم مدخرات مستثمرة قد تزايدت في كثير من المجتمعات

العصرية . فهذه المدخرات هي من الناحية الفنية التكنيكية « رأسمال » وأصحابها إنما هم « رأسماليون » على ذلك المنوال ، ويظن أولئك أن هذا يناقض بيانات ماركس القائلة بأن الملكية تتمركز في أيد تنتقل في عددها من القليل إلى الأقل .

وكان ماركس يستعمل كثيراً من مصطلحاته بلاعناية ويسىء إختيارها ، وكانت فكراته خيراً من ألفاطه . فقد كان عندما يكتب « الأملاك » يعنى « الأملاك إلى الحد الذى هي به قوة » . وللمستثمر الصغير قوة صغيرة صغراً ملحوظاً على رأس ماله المستثمر .

٣ ـ اختمار الفكرات في ١٨٤٨

لا شك أن من أعسر الأمور تعقب المعالم الإجمالية لاختيار الأنكار الذى كان يحدث أثناء الإنقلابين الآلى والصناعى فى القرن التاسع عشر. على أنه لزام علينا أن نحاول ذلك إن نحن شئنا أن نربط بين ما سبق حدوثه فى هذا التاريخ وبين حال عالمنا اليوم .

ومن المناسب أن نميز بين فترتين رئيسيتين في السنوات المئة المعدة بين (١٨١٤) القدر جاءت أولا الفترة بين (١٨١٤ –١٨٤٨) وفيها حدث قدر جسم جداً من التفكير المتحرر والكتابة الأسمحية المتحررة في دوائر محددة ، ولكن لم تحدث فيها أية تغيير الت عظيمة أو تطورات كبيرة في الفكر بين كتاة الشعب العامة . وكانت شئون العالم تلك الفترة تعبش – إن جاز لنا مثل هذه العبارة – على رأسمالها الذهني القديم ، فإنها كانت تمضى وفق الفكرات الرئيسية والثورة » والثورة « الرجعية » المضادة . وكانت الفكرات التحررية السائدة هي الحرية وضرب مهم بعينه من فكرة المساواة . وكانت فكرات الخافطين هي الملوكية ؛ والديانة المنظمة ، والامتيازات الإجماعية والطاعة .

وكانت روح المحالفة المقلسة حتى (١٨٤٨) ، وهى روح مترنيخ تكافح لمنع أى انتعاش للثورة الأوربية التى خانها ناپليون وأرجعها أدراجها . ومن الناحية الأخرى كانت الثورة فى أمريكا بجزئها الشهالى والجنوبى ، قد انتصرت . وكانت الروح التحررية فى القرن التاسع عشر تسودها لا ينازعها هناك منازع . وكانت بريطانيا قطراً قلقاً ، لا هى تميل بولاثها تمام الميل إلى الرجعية ولا تميل به تمام الميل إلى حركة التقدم ، ولا هى صادقة فى روحها الملكية ولا صادقة فى روحها الجمهورية فكانت أرض كرومويل وكذلك كانت أرض الملك المرح شارل ، وكانت مضادة النمسا ؛

ومضادة لآل بوربون ، ومضادة للبايا ، ومع ذلك فإن روح القمع فيها كانت ضعيفة . ولقد حدثناك عن أول سلسلة من عواصف التحرر في أوربا في (١٨٣٠) وحواليها . وصدر في بريطانيا في (١٨٣٠) مشروع قانون إصلاح يوسع حق الانتخاب توسيعاً عظيا ويعيد إلى مجلس العموم شيئاً كثيراً من خصيصته التمثيلية ، فخفف كثيراً من توتر الموقف .

وجاءت قرابة (٨٤٨) وحواليها مجموعة ثانية من الإنفجارات أشد من الأولى خطورة بكثير، أفضت إلى خلع ملكية آل الأورليان اله وتأسيس جمهورية تانية في فرنسا (١٨٤٨ – ٥٢) ، وأثارت شمال إيطاليا والمجر ضد النمسا، وأهاجت البولنديين في البورزن الألمان وجعلت البابا يفر من وجه الجمهوريين في روما . وعقد في براج ، وتمر شائل جداً هو مؤتمر الكتاة السلافية الذي تسلف مقدماً كثيراً من تلك التسويات والتعديلات الإقليمية التي تحت في (١٩١٩) . وانفض المؤتمر بعد أن قعت الجنود البمسوية عصياناً تنب في براج . فأما العصيان المنغاري فكان أشد قوة فواصل الكفاح سنتين . وكان زعيمه الأكبر هو لوبس كوسوث . ولم يبرح بعد أن دحر ونفي ، يواصل دعاية عظيمة في سبيل حربة وطنا وقومه .

وقد أخفقت كل هذه الفتن في النهاية إخفاقاً تاماً . وترنح النظام القائم ولكنه ظل واقفاً على قدميه . ولا ربب أن هذه الفتن كانت وراءها تذمرات اجتماعية خطيرة ، ولكن لم تكن لهذه النورات حتى آندالله ، اللهم إلا في حالة باريس ، أية صورة واضحة ملموسة . وأحسن ما يقال عن عاصفة (١٨٤٨) هذه - بقدر ماهم أوربا - أن تنعت في كلمة واحدة باسم و ثورة الحريطة السياسية الطبيعية ، على الترتيبات الإصطناعية لديبلوماسيي فيينا ، وعلى نظام القمع الدى ترتب على تلك الترتيبات .

ومن ثم یکون تاریخ أوربا من (۱۸۱۵ – ۱۸۶۸) علی وحه العموم ، لاحقا لتاریخ أوربا من (۱۷۸۹ – ۱۸۱۶) . ولم یکن ینطوی علی أیة فکرات جدیدة حقاً وما برح رأس المتاعب هو الکفاح بین مصالح الرجال العادیین وبین نظام الدولة العظمى التى أرهقت بالضغط حياة البشرية وقيلتها ــ وإن يكن فى الكثير من الأحاين كفاحاً أعمى سيء التوجيه .

ولكن حدث بعد (١٨٤٨) ، أى من (١٨٤٨ إلى ١٩١٤) أن علبة إعادة تسوية الخريطة إعادة تتجه إلى إيجاد إيطاليا حرة موحدة ، وأاانيا موحدة ، تواصلت ولم تقف عند حد . فقد بدأ دور جديد في عملية التكيف الذهني والسياسي وفق ما بلغته البشرية من المعرفة الجديدة والقوى المادية الجديدة . ثم حدث انفجار عظيم الفكرات الجديدة الإجتماعية والدينية والسياسية ، تغلغل بها في العقل الأوربي العام . ولسوف نتأمل في الأقسام الثلاثة التالية مصادر هذه الإنفجارات ونوعها ذلك بأنها وضعت لذا الأسس التي تبني عليها اليوم فكرنا السياسي ، غير أنها ظلت زمناً طويلا وليس لها أثر كبير على السياسة المعاصرة . فاستمرت السياسة المعاصرة تجرى على السياسة المعاصرة . فاستمرت السياسة المعاصرة تجرى على السن القديمة . وإن داخل الوهن المتواصل ما لها من دعامة في ضمائر الناس واعتقاداتهم الفكرية .

ولقد وصفنا لك آنفاً الطريقة التي قوضت بها إحدى العمليات الذهنية القوية نظام الملكية العظمى بفرنسا قبل (١٧٨٩) . وثمة عملية تقويض مماثلة كانت تجرى في أرجاء أوربا إبان فترة الدول الكبرى من (١٨٤٨ – ١٩١٤) . إذ انتشرت في كل أرجاء الهيئة الاجهاعية شكوك عيقة حول نظام الحكومة وحول مدى الحريات التي لكتير من أشكال الملكية في النظام الاقتصادى . ثم جاءت حوب هي أعظم حروب التاريخ وأشدها تدميراً ، ومن ثم استحال على الذين عاشوا بعدها مباشرة أن يقلروا قوة وبجال الفكرات الخديدة التي تجمعت في هذه السنوات الست والستن . فلقد مرت الدنيا في ملمة كبرى أعظم كثيراً ، حتى من الكارثة النابليونية نفسها ، وما غن إلا في فترة راكنة بين المدوالجزر تقابل فترة (١٨١٥ - ١٨٤٨) الحاصتن بنا وبالقرن العشرين فتكشفان لنا أين نحن وقوف .

٤ ـ تطور فكرة الإشتراكية

قفونا في كل أرجاء هذا الكتاب التضييق التدريجي الذي حاق بفكرة الملكية منذ الإدعاء الأولى غير المحدود الرجل القوى على ملكية كلي شيء ، ومنذ إدراك الناس تدريجيا الفكرة الأخوية بوصفها شبئاً يسمو على البحث الشخصي عن الذات. وقد بدأ الأمر بأن أخضع الناس بدافع الحوف من الملك والله ، لسلطان شيء أعظم من المجتمعات القبلية . ولم يحدث إلا في خلال الآلاف الثلاثة أو على الأكثر الآلاف الأربعة الأخيرة من السنين ، أن تبياً لنا برهان واضح يدل على أن نكران الذات الإختياري في سبيل غاية أعظم ، وبغير أجر يرجى أو ثواب ينتظر ، كان فكرة مقبولة لدى الناس ، أو أن أي إنسان قد قام بطرحها على الناس .

ثم إننا نجد شيئاً ينتشر على وجه الشئون الإنسانية ، كما تنتشر رقاع من ضياء الشمس ثم تمر فوق جوانب التلال في يوم ربح من أيام الربيع ، هو الفكرة القائلة بأن في التضحية بالنفس سعادة أعظم من أي إرضاء ذاتي أو انتصار شخصي ، وحياة للبشرية مختلفة وأعطم قدراً وأكثر أهمية من صافي مجموع حياة الأفراد اللين يوجدون في نطاقها ؛ ورأينا هده الفكرة تصبح وهاجة كالنبراس ، ناصعة نصاعة ضياء الشمس حين تلتقطة إحدى النوافذ وتعكسه على منظر طبيعي فتهر به الأبصار، ضياء الشمس حين تلتقطة إحدى النوافذ وتعكسه على منظر طبيعي فتهر به الأبصار، رأيناها في تعاليم و بوذا » ، و ولاوتسي و وبوجه أشد ما يكون وضوحاً في تعاليم و يسوع » الناصري .

ولم تفقد المسيحية قط أثناء كل ما ألم بها من التغيير وللفاسد بارقة إخلاص للكوت الرب تجعل بذخ الملوك والحكام الشخصي أشبه الأشياء بوقاحة خادم أقرط في أناقة ثيابه ، وتجعل أبه الأثرياء وإشباعهم لشهواتهم أشبه شيء بتبذير اللصوص ، وما من رجل يعيش في مجتمع مسته أنامل دياقة مثل المسيحية أو الإسلام ، بمستطيع أن يكون عبداً تام العبودية . فإن في هاتين الديانتين صفة لا تمحي تجبر الرجال على إصدار الأحكام على سادتهم وعلى تحقيق مسئوليتهم الخاصة تحو العالم .

وبينما كان الناس يتلمسون طريقهم تحو حالتهم الفكرية الجديدة منتقلين إليها

من حالة الشرهالأنانى العنيف وروح القتال الغريزية الشرسة فى جماعة العائلة البالبوليثية الأولى ، فإنهم جهدوا أن يعبروا عن اتجاه أفكارهم وضرورياتهم تعبراً متخالفاً جداً . ووجدوا أنفسهم على خلاف وقى نزاع مع الفكرات القديمة المقررة . وكانت بهم نزعة طبيعية لمناقضة هذه الفكرات مناقضة صريحة ، والوثوب من فوقها إلى عكسها المطلق .

وقد قامت الحركة الأولى متسرّعة نافدة الصبر ، فأعلنت أنها تهدف إلى مساواة شاملة ، ولكن غلبتها والحق يقال الفوضى الشاملة ، خاصة وقد واجهها عالم ، الحكم فيه والطبقات والنظام تبدو جميعاً وكأنما لاهم لها إلا إبناء الفرص للأنانية الشخصية والظلم الفاجر ، وواجهها عالم تبدو فيه الملكية أنها لا تزيد كثيراً عن وقاية للأنانية ووسيلة إلى الإستعباد ، وكان من الطبيعي أيضاً أن نجحد كل ملكية .

وبين لنا تاريخنا أن هناك على الدوام دافعاً متزايداً يدفع الماس إلى الثورة على الحكام وعلى الملكية . وقد تعقبنا ذلك الدافع في القرون الوسطى ، وهو يحرق قصور الأغنياء ويجرب التجاريب في الثيوقراطية (١) والشيوعية . وكان هذا التحرد المزدوج واضحاً جلياً في الثورات الفرنسية . فإنا نجد في فرنساً رجالا يصرحون وأعينهم مسلطة على ضرائب الحكام ، بأن الأملاك حرمة يجب ألا تنتهك ، كما نجد آخرين يصرحون وأبصارهم شاخصة إلى مساومات صاحب العمل القاسية أنه يجب أن تلفى الملكية . وهم يعيشون جنباً إلى جنب ويستلهمون جمعاً نفس الروح الواحدة ، كما أنهم أعضاء طبيعيون في الحركة الثورية نفسها . ولكن ما كانا في كلا الحائن ثائرين علية إنما هو أن الحكام وصاحب العمل ، لا يزالون كغيرهم من البشر أفراداً أنانيين يبحثون عن خير أنفسهم ويظلمون الباس بدل أن يكونوا غداماً المجتمع .

وإنا لنجد هذا الاعتقاد ينمو فى أذهان الناس على مر العصور : وهو أن فى الإمكان قيام ذلك التنظيم الجديد للقوانين والسلطات قياماً يقدم للناس الحكم

^(1) الثيوقراطية (Theocracy) : حكومة تسوس ندمى أن الله مصدر سلطنها . (المترجم)

والنظام ، بينا هو لا يبرح يصد أنانية أى حاكم وأية طبقة حاكمة قد تكون ضرورية ، ويزود الناس بذلك النعريف للملكية الذى يمنح الحرية من غبر قوة ظللة . وقد شرعنا ندرك فى أيامنا هذه أنه ليس فى المستطاع بلوغ هذه الغابات إلا بمجهود إنشائى مركب ، فإنها تنشأ بسبب منازعات الحاجات الإنسانية الجديدة ضد الجهائة والطبيعة الإنسانية القديمة ؛ بيد أنه شاع طوال القرن التاسع عشر ميل مستمر ثابت إلى حل المسألة ببعض الحلول البسيطة . (ليكون الناس سعداء إلى أبد الآبدين ، وذلك بغض النظر عن أن الحياة الإنسانية كلها ، بل والحياة عامة ، ليست على مر العصور إلا محاولة متواصلة لإيجاد حل لمشكلة معقدة مستمرة) .

وقد شهد الصف الأول من القرن الناسع عشر عدداً من التجارب في تكوين جماعات إنسانية تجريبية ذات نوع جديد . ومن أهم تلك التجارب من الناحية التاريخية ، نجاريب وفكرات روبرت أوين (١٧٧١ – ١٨٥٨) ، وهو غزال قطن من مانشستر هو بعد يوجه عام المؤسس للاشتراكية العصرية . ونشوه كلمة و الاشتراكية » لأول مرة إنما كان بالعلاقة إلى عمله حوالي (١٨٣٥) . ويلوح أنه كان رجلا من رجال الأعمال على غاية من الكفاية . فإنه ابتكر عدداً من المستحدثات في صناعة غزل القطن ، وجع ثروة لا بأس بها في سن مبكرة . وقد أحزنه ضياع ما في عماله من احمالات بشرية بددا ؛ فنصب نفسه لتحسين حالم وتحسين العلاقات بين صاحب العمل والعال . فجهد أن ينفذ ذلك أولا في مصنعه عانشستر ثم في نيولانارك بعد ذلك ، حيث ألفي نفسه متصرفاً بالفعل في مصانع تستخدم ألفين من الأفراد .

وتوصل بين (١٨٠٠ ، ١٨٢٨) إلى أمور ضخمة جداً . فإنه أنقص ساعات العمل ، وجعل مصنعه صحياً مقبولا ، وألغى استخدام الأطفال صغار السن جداً ، وحسن تدريب عماله وزود العمال بأجور البطالة أثناء فترة كساد فى التجارة ، وأسس مجموعة من المدارس ، وجعسل من نيولانارك مثالا يحتذى لحركة عمالية صناعية أحسن وأطيب ، على حين كانت فى نفس الوقت . تحافظ على رخائها التجارى . كتب كتابات قوية مدافعاً عما كانت تهم به أغلبية البشرية من

الإفراط في المسكرات وعدم التبصر في العواقب ، التي كان أعل العصر يتخذون



(شکل ۱۹۳) دوبرت أوين

منها مبرراً يبررون به مظالم الزمان . وكان يرى أن الرجال والنساء هم فى أكبر شأنهم ثمرة لبيئتهم التعلمية ، وهى مسألة لا تحتاج فكرتها اليوم إلى من يعلى عنها . ثم نصب نفسه للقيام بالدعاية للنظريات التي أثبتت معتها تجربة نيولانارك .

وهاجم ما عليه إخوانه أصحاب المصانع من تكاسل أنانى ، ونى ١٨١٩ صدر أول د قانون

للمصانع ؛ بناء على إلحاحه فى غالب الشأن ، وهو أول محاولة للحد من استغلال أصحاب المصانع باجتناء أفدح الفوائد بكل غباء وجر المغانم من وراء فقر عمالهم . وإن من بين قيود ذلك و القانون ، ما يدخل اليوم إلى أذهاننا أعظم اللهول . إذ يكاد يكون مما لا يصدق به عقل أن تقوم يوماً ما ضرورة تدعو إلى حماية الأحداث الذين فى التاسعة من العمل فى المصانع ، أو تحديد ساعات العمل الإسمية

لمثل أولئك العمال باثنتي عشرة ساعة .

وربما أخطأ بعض الناس فجنع إلى الكتابة عن الانقلاب الصناعي (الثورة الصناعية) كأنما كانت هي السبيل إلى استرقاق الأطفال المساكين وتشغيلهم فوق طاقتهم . وأنهم كانوا حتى ذلك الحين سعداء أحراراً . على أن هذا أمر يفسر التاريخ تفسيراً خاطئاً . إذ أن الأطفال الققراء الصغار ظلوا منذ بدايات المدنية ذاتها يجبرون دائماً على القيام بأى عمل يستطيعون أداءه . ولكن نظام المصنع جمع عناء الأطفال هذا كله في صعيد واحد وجعله شيئاً نظامياً واضحا للعيان يجر من ورائه العار والشنار . وتحدى نظام المصنع في هذه النقطة ضمير الإنسانية الناهض الآخد

بأسباب الانتعاش . وكان ، قانون المصانع البريطانى ، فى ١٨١٩ ، وإن بدا لأعيننا ضميفاً هزيلاً ، هو « العهد الأعظم Magna Charta ، الطفولة . ومن بعدها ابتدأت عملية حماية أطفال الفقراء ، من الكد فى أول الأهر ثم من الجوع الجثماني الشديد ومن الجهل .

ولسنا بمستطيعين أن نفصل لك فى هذا المقام القصة الكاملة لحياة أوين وأفكاره . فإنه كأن يحس أن عمله فى نيولانارك لا يتجاوز مجرد محاولة فى حدرد نموذج صغير . كان يذهب إلى أن ما يستطاع عمله لمجتمع صناعى ، يمكن أن ينسحب على كل مجتمع صناعى آخر فى البلاد . وكان يدافع مطالباً بإعادة إسكان السكان الصناعيين فى مدن على غرار ما حدث فى نيولانارك .

ومضت فترة من الزمان مخيل للناس أثناءها أنه استولى على خيال العالم . فناصرت صحيفتا التيمس والمورننج بوست مقترحاته . وكان من بين زوار نيولانارك الغراندوق نقولا ، الذي خلف الإسكندر الأول على عرش الروسيا ؛ وكان دوق كنت ابن چورج الثالث ووالد الملكة فكتوريا صديقاً حميا له . ولكن كل أعداء التغيير وكل من يوسوس له الشيطان حسد الفقراء – وقلما خلا زمان من عدد وفير من هؤلاء – وكل أصحاب المصانع الذين كانوا عرضة للمقبايقة بسبب مقترحاته كانوا يتلمسون ذريعة بهاجمونه بها ، وقد وجدوها في تعبيره عن آرائه الدينية ، كانوا يتلمسون ذريعة بهاجمونه بها ، وقد وجدوها في تعبيره عن آرائه الدينية ، ولهذا المأخذ نجح أعداؤه في الكيد له وتحقيره . ولكنه واصل عمله في تطوير مشروعاته وتجاريبه ، التي كان أهمها مجتمعاً في نيوهارموني بولاية إنديانا بالولايات المتحدة ، أضاع فيه معظم رأسماله . فاشترى منه شركاؤه نصيبه في مصنع نيولانارك وأخرجوه في ١٨٧٨ .

وقد ذاعت تجارب أوين ومقترحاته ذيوعاً مترامياً جداً ، وهي لا نقع نحت مبدأ معن بمفرده . ولم يكن يحيط به شيء من جو الرجل النظرى غير العملى . وكانت تجربته في نيولانارك أول تجربة في عدد من « الأعمال الخيرية » في العالم . وإنما تجيء مدينة اللورد ليڤرهولم المسهاة بورت سائلايت ، ومدينة كاد بورى المسهاة بورنشيل ومصانع فورد في أمريكا أمثلة عصرية واقتراباً من الشيوعية . وكانت

مقترحاته المتعلقة بالتسويات التي تقوم بها الدولة هي ما قد نسميه البوم باسم اشتراكية اللاخيرة إلى شكل للاستراكية أكثر كمالا فيه مزيد من التقدم عن حالة الأمور الراهنة.

وواضح أن لغز « العملة » قد شغل بال أوين . فإنه أدرك أننا لا نستطيع أن نأمل في العدالة الاقتصادية الحقة ، بينها نحن ندفع مقابل العمل نقوداً ذات قيمة متارجحة ، – إلا بمقدار ما نرجو وجود عالم منتظم المواعيد إذا كان طول الساعة الزمني تتغير في كل آن . ومن التجارب التي قام بها أنه حاول نشر أوراق للعمل تمثل ساعة واحدة أو خس ساعات أو عشرين ساعة من ساعات العمل . وقد نشأت الجمعيات التعاونية لهذا الزمان – وهي جعيات أناس فقراء تتحد للشراء والتوزيع الجمعيات التعاونية لهذا الزمان العسناعة الجاعية أو صنع الألبان أو أشكال أخرى من أشكال الزراعة ذات اللون الجاعي ، – نشأت مباشرة عن ابتداهاته ، وإن انتهت الجمعيات التعاونية الرائدة في زمانه إلى الفشل . على أن الجمعيات التي خلفتها انتشرت في كل أرجاء العالم ، ويبلغ عدد أنصارها اليوم ثلاثين وأربعين مليوناً .

وهناك نقطة جديرة بالملاحظة في شأن اشتراكية أوين المبكرة هذه ، هي أنها لم تكن في البداية و ديمقراطية » بأى حال ، بل مزجت بها الفكرة الديمقراطية فيها بعد . وكانت دوافعها الأولى خبرية ، وكانت صورتها المبكرة قائمة على نظام الأبوة . كانت شيئاً يرتفع إليه العهال بالتعليم ، على يد ذوى السهاحة من أصحاب المصانع والزعماء . وإذن فلم تكن الإشتراكية الأولى حركة عمال . بل حركة سادة . وقد كانت المباحث المذهبية في الاشتراكية في كل تاريخها بأجمعه ، من عمل رجال ليسوا من العالم في شيء . ويصف بير (Beer) كارل ماركس بأنه و ارستقراطي » ؛ وكان أن بالتجار ، وأما لينن فكان عضواً منفياً من عائلة من أصحاب الأراضي .

وقد سايرت عمل و أوين ، هذا صلسلة أخرى من التطورات مستقلة تمام الاستقلال بكل من أمريكا وبريطانيا ، وقدر لها آخر الأمر أن تتصل بفكراته الاشتراكية . فقد كان القانون الإنجلزى يحظر من أمد يعيد اندماج الجاعات بقصد حصر التجارة واحتكارها ، ويحظر الاندماجات الهادفة لرفع الأسعار أو الأجور

بوساطة العمل الجاعي . ولم تكن هناك أى صعوبات كبيرة فى هذه المحظورات قبل أن تطلق التغيرات الزراعية والصناعية فى القرن الثامن عشر فكاك أسراب عظيمة من العال يشتغلون و من اليد إلى القم و ويتنافسون على قلر من الأعال غير كاف . وكان العال يجدون أنفسهم تحت هذه الظروف الجديدة فى حال من الضيق والضغط لا تطاق . وكان أرباب الأعمال يلعبون بأحدهم ضد الآخر ، وكان كل مهم يقضى أيامه بل ساعاته فى قلق لا يدرى ما يكون من زميل له من الإذعان والتنازل ، وما قد يترتب على ذلك من التنقيص الجديد فى الأجور أو الزيادة فى الشقاء .

فأصبح من الضرورات الحيوية للعال أن يعقدوا إنفاقات وإن تكن غير قانونية ضد مثل هذا التخفيض في الأجور . وكان لا بد لهذه الاتفاقات في مبدأ الأمر من أن تتم وتصان على يد جعيات صرية ، أو نواد مؤسسة في الظاهر لأغراض عتلفة تماماً ، أمثال النوادي الاجتماعية وجعيات الجنائز وما إلها ، التي كانت تقوم بستر الاندماجات الواقية للإجور . وكان عدم قانونية هذه الجمعيات بجعل أعضاءها ينزعون إلى العنف . كانوا كالوحوش على « المتسللين(١) والفيران ، من إخوانهم الذين لا ينضمون إلهم ، وكانوا أكثر وحشية مع الحونة .

وفى (١٨٢٤) اعترف مجلس العموم بأن من المرغوب فيه تخفيف النوتر فى هذه الأمور بتسليمه بحق العمال فى تكوين انفماجات و للمساومة الجماعية ، مع السادة . ومكن هذا نقابات العمال (Trade Unions) من النطور على مجال كبير من الحرية . وقد ارتقت نقابات العمال بالندريج – وكانت فى مبدأ الأمر تنظيمات سمجة شديدة البدائية ذات حرية محدودة جداً ، حتى أصبحت و طبقة رابعة حقيقية ، فى البلاد ، أى مجموعة عظيمة من الهيئات نمثل كتلة العمال الصناعين .

نشأت تلك النقابات فى بريطانيا وأمريكا أولا ، ولكنها ما لبئت ـــ مع تعديلات قومية منوعة ، وتحت أحوال قانونية مختلفة متغيرة ـــ أن انتشرت إلى فرنسا وألمانيا وكل الهبتمعات الغربية الصبغة .

⁽١) المتسلمين والفيران : العال الذين يقبلون العمل وإخوائهم في إضراب رسبي أو يقبلون أجوراً أقل من إخوائهم . (المترجم)

وقد نظمت حركة نقابات العال فى الأصل للحقاظ على الأجور ودعمها ومنع عدد الساعات الذى لا يطاق ، وكانت فى البداية شيئاً مميزاً تام النميز عن الاشتراكية . فكان العضو فى نقابة العال يحاول أن يستخلص لنفسه أحسن الغُم من الرأسمالية الموجودة ومن أحوال العمل الموجودة . على حين كان الاشتراكى برمى إلى تغير النظام .

وإلى خيال العارل ماركس الوقدرته على التعميم يرجع الفضل في ربط هانين الحركتين برباط العلاقة والاتصال . كان رجلا تميزت فيه قوة الإحساس بالناريح الحكان من أوائل من أدرك أن الطبقات الاجهاعية القديمة التي استدامت منذ بداية المدنية ، كانت تعبرها عملية حل وعودة إلى التجمع . وقد جعلت منه الروح التجارية المستقرة في عنصره الهودي خير من يدرك العداء بين الملكية والعمل أوضح إدراك . وجعلته تنشئته في ألمانيا - (وهي بلد كان نطام انفصال الطبقات فها أوضح منه في أي قطر أوربي آخر حتى أنها كانت أميل إلى التجمد والتحول إلى طوائف) - يتخيل العامل شخصاً يصبح من فوره ذا وعي طبق (١) معادياً عداء عماياً للطبقات التي تركز الملكية في يدها . وكان يعتقد أن حركة نقابات العمال التي كانت تنتشر في العالم أجع - هي تطور خاص بالعامل صاحب الوغي الطبق .

كان يتساءل قائلاً : ماذا تكون نتيجة و حرب الطبقات و بين الرأسماليين والبروليتارية ؟ فقد كان يدفع بأن مغامرات الرأسماليين المغامرين بسبب ما افتنطروا عليه من الشراهة وحب المقاتلة ، لا يلبث حتى يجمع التسلط على رأس المال في أيد لا تبرح تقل وتقل ، حتى ينتهى الأمر جم إلى تركيز كل وسائل الإنتاج والترانسيت (Transit) وما إليها إلى شكل يستطيع العال أن يقبضوا عليه ، أولئك العال الذين يتطور بالمثل وعيهم الطبقى وتماسكهم بوساطة عملية تنظيم الصناعة وتركيزها .

وإنهم ليستولون على ذلك الرأسمال ويستشمرونه لحساب أنفسهم . ويكون ذلك

^() النوعى الطبقى (Class Consciousness) : تسعور الإنسان بطبقته في المجتمع وتعصبه لما مع العدا. الشديد الطبقات الأخرى . (المترجم)

هو النورة الاجتماعية : وعند ذلك تُسترجع الملكية الفردية والحرية الفردية ، موسستين على الملكية المشتركة للأرض وقيام المجتمع كمجموع بإدارة الحلمات الإنتاجية الكبيرة التي سبق أن نظمها وركزها الرأسمالي الحاص . وتكون ثلك هي نهاية نظام الفرد و الرأسمالي ، ولكنها لا تكون نهاية النظام الرأسمالي . إذ عند ذلك تحل رأسمالية المالك الحاص .

وفي هذا انحراف كبير عن اشتراكية و أوين ، وكان و أوين ، — شأن أفلاطون — يشخص ببصره إلى حسن تمييز الرجال وسداد بصرهم بالأمور في أى طبقة أو في كل الطبقات، راجياً أن تكون تلك الخلة وسيلتهم إلى إعادة تنظيم البناء السياسي الاقتصادى الاجتماعي العرضي الخاطئ . واكتشف و ماركس ، شيئاً آخر شبه بالقوة الدافعة في العداوة بين الطبقات يقوم على انتزاع الأملاك وعلى الظلم . على أنه لم يكن عبرد نظرى متنبي بل كان كذلك من دعاة ثورة العال ، ثورة من يقال لهم و العروليتارية ، وقد أدرك أن للعال مصلحة مشتركة ضد الرأسمالي في يقال لهم و العروب تحرير إيطاليا ، أنه قد فاته أن يفهم أن العال في كل مكان لم مصلحة مشتركة في سلام العالم ، ولكنه نحج فعلا — والثورة الاجتماعية نصب عينيه — مصلحة مشتركة في سلام العالم ، ولكنه نحج فعلا — والثورة الاجتماعية نصب عينيه — (The First في الإيجاء بفكرة إنشاء عصبة دولية العالم ، هي الدولية الأولى International)

وكان ما عقب ذلك من تاريخ الإشتراكية بترجح بين ظلال تقاليد « أوين » البريطانية وبين « الشعور الطبقي » الألماني عند « ماركس » . وقد لتي ما يسمى باسم الاشتراكية الفابية (۱) وهو تفسير الاشتراكية الذي قامت بوضعه الجمعية الفابية بلندن سالاشتراكية الفابية بندن سالم عند الرجال المعقولين في كل الطبقات . ثم إن ما كان يسمى باسم « مذهب التنقيح Revisionism » في الاشتراكية الألمانية ، كان يميل صوب نفس ذلك

⁽١) الاشتراكية الفابية أو العابيانية : مذهب اشتراكى ظهر بانجلترا في القرن التاسع عشر ، وهو يعتمد على وسائل التطور للتي يأمل أن يبلع بها إقرار الاشتراكية بوساطة مجموعة متعاقبة من الإسلاحات التدريجية . (المترجي)

الاتجاه غير أنه يمكن القول على الجملة أن « ماركس » هو الذى فاز على « أوبن » . فكانت النزعة المعامة للاشتر اكيين في كل العالم هي الاعتباد على تنظيم العبال ، والعبال دون أى شيء آخر ، ليكونوا مصدراً للقوى المقاتلة التي سوف تقول بإخلاء سبيل التنظيم السيامي والاقتصادي للشئون الإنسانية من أيدى الملاك والمفامرين الحصوصيين الذين هم على درجة ما من عدم المسئولية والذين كانوا يتصرفون فيها .

تلكم هي المظاهر الإجالية للمشروع المسمى ياسم الاشتراكية وسوف ننافش في قسمنا التالى ما فيها من نقص وعدم كفاية . وربما كان أمراً لا مندوحة منه أن تضطرب الاشتراكية إضطراباً كبيراً وأن تنقسم وتنفرع ، إذ تتناولها يد الشكوك والمنازعات والشيع والمدارس . وما هذه إلا أعراض النمو شأن البقع على وجه يافع من الشبان . وما نحن بمستطيعين هنا إلا أن ننظر نظرة لاعمة إلى الفارق بين اشتراكية الدولة ، التي تنزع إلى إدارة الجهد الإقتصادى في البلاد بوساطة حكومتها السياسية ، وبين مدارسها الأخرى المتأخرة ، مدارس و إشتراكية إتحادات المهال Gyndicalism وبين مدارسها الأخرى المتأخرة ، مدارس و إشتراكية إتحادات المهال الديرين والمراقبين . و واشتراكية نقاباتهم الحرفية Guilds » التي تكل نصيباً كبيراً من إدارة كل صناعة بالمهال المشتغلين في تلك الصناعة أيا كانت درجتهم بما في ذلك المديرين والمراقبين . فهذه و الإشتراكية النقابية » إنما هي في الحقيقة نوع جديد من الرأسمالية ، تحل فيها بلخة من العال والموظفين في كل صناعة على الرأسمالين الخصوصيين الأحرار في بلخنة من العال والموظفين في كل صناعة هي الرأسالي الجاعى .

٥ ـ عيوب الاشتراكية بوصفها خطة للجاعة الإنسانية

قال السير و وليم هاركورت ، منذ سنوات عدة : إننا جميعًا الآن اشتراكيون ، وهذا القول يصدق اليوم صدقاً مرسلاً غير محكم . فقلها وجد أمرو يفوته أن يدرك الطبيعة الموقونة والتقلقل الحطر اللذين يتسم بهما نظامنا السياسي والاقتصادى الحاضر ، وأقل منهم كذلك من يعتقدون اعتقاد « الفرديين » النظريين غير العمليين ، القائلين إن اقتناص المربح أو سياسة « اذهب كيفها شئت واصنع ما شئت » سوف تقود البشرية . إلى مرفأ من مرافى ع الرغد والسعادة . والواقع أنه ينبغي للأمور أن يعاد تنسية

تنسيقاً عظيماً وأن يتم لها بسند منهجى منظم من القانون إخضاع التماس المصلحة الشخصية لأهداف المصلحة العامة.

ومعظم الرجال المعقولين إنما هم إلى هذا الحد اشتراكيون. على أن هذه ما هي الا مقترحات تمهيدية. فإلى أى حد وصلت الاشتراكية والفكر العصرى بوجه عام إلى إنتاج الفكرة الذهنية لهذا النظام السياسي والاجتهاعي الجديد، الذي يقف عالمنا باعتراف الجميع وهو في أمّس الحاجة إليه ؟ ونحن مضطرون أن نجيب أنه ليس هناك تصور واضح للحالة الجديدة التي نكافح نحوها كفاحاً مهما، وأن علمنا بالعلاقات الإنسانية ما يزال بالمعا من الفجاجة والإمعان في النظرية إلى حد لا نجد فيه هداية محدودة, في عشرات من النقاط السياسية الهامة. ولسنا اليوم في مركز يجملنا نقيم في العالم نظاماً سياسياً متصوراً تصوراً علمياً إلا بقدر ما كان الناس يستطيعون أن يقيموا محطة كهربائية في (١٨٢٥). فإنهم لم يكونوا عند ذلك ليستطيعوا ذلك ولو كانت فيه نجاة حياتهم.

وتشر الطريقة الماركسية إلى أن القوى الثورية تتراكم فى العالم العصرى . فإن هذه القوى لن تبرح تنزع باستمرار نحو الثورة . ولكن ماركس افترض بغاية التعجل أن الدافع الثورى ينتج بالضرورة دولة منظمة ذات نوع أحدث وأحسن . إذ الواقع أن الثورة قد تقف فى منتصف الطريق عند مجرد التدمير . ولم تقم أية شيعة اشتر اكية حتى الآن بتعريف حكومتها المقترحة تعريفاً واضحاً . ويلوح أن البلاشفة كانوا يسترشدون فى تجربتهم الروسية بعبارة و ديكتاتورية البروليتارية و ، ومن الناحية العملية أثبت و تروتسكى و و لينين و فيا يقال أنهما يعدلان فى أوتوقر اطيتهما القيصر اسكندر الأولى الأقل منهما ذكاء والمعادل لها فى حسن المقاصد .

وقد حرصناكل الحرص أن نبين لك أثناء دراستنا الموجزة للثورة الفرنسية ، أن ليس في مستطاع ثورة من الثورات أن تؤسس أى شيء ثابت لم يُقتل تفكيراً قبل ذلك ولم يكن مفهوما للرأى العام . فالجمهورية الفرنسية ، لم تلبث وقد واجهتها صعوبات غير متوقعة في الاقتصاديات والعملة والعلاقات الدولية _ حتى انهارت إلى يد أبانيات رجال الإدارة الحديثي الثراء ، ثم انهاوت آخر الأمر تلقاء

أنانية نابليون . والمحافظة فى ثبات على القانون وعلى خطة مرسومة ، أشد ضرورة فى أزمان الثورات منها فى أيام الهدوء العادية ، لأن الجماعة الإنسانية تتدهور منحلة بغاية السرعة فى أزمنة الثورات إلى مجرد عملية تخاطف مشوشة تحت سيادة الأقوياء العنيفين والمكرة والمحتالين .

فلو أننا نظرنا بصوره عامة إلى ما فى عصرنا من علوم سياسية واجتماعية وقدرناها قدرها ، لكنا بهذا نقدر شيئاً من العمل الفكرى التمهيدى الذى لا يزال على البشرية اتمامه قبل إمكان نشوء أية مجرزات بناءة دائمة تنبئق من الروح النقليدية والجنوح إلى المغامرة اللذين يتسلطان على شئوننا الجاعية فى زماننا هذا .

فهذه الاشتراكية التي تزعم أنها نظرية كاملة لنظام اجتماعي جديد ، يتبن لنا ونحن نتفحصها أنها شيء لا يتجاوز نظرية جزئية -- مرشدة لنا جهد اتساع مجالها في شئون الملكية .

وقد بحثنا قبل الآن علاقة التطور الاجتماعي بتقبيد فكرة الملكية . فإن هناك مداهب متنوعة للفكر تتفاوت في تقبيد الملكية قوة وضعفاً . فالشيوعية إنما هي الاقتراح بإلغاء الملكية إلغاء تاماً ، أو بعبارة أخرى جعل كل شيء مشاعاً . وتميز الإشتراكية العصرية – أو قل و الجماعية (١) Collectivism المن اسماً أدق وأضبط – تميزاً فعلباً واضحاً بين الملكية الشخصية والملكية الجماعية ، وزبدة مقترحات الاشتراكين هي أن الأرض ، وكل وسائل الإنتاج الطبيعية ، والترانسيت والتوزيع يجب أن تملكها الجماعة ملكاً جماعيا . ولسوف يكون هناك داخل هذه الحدود كثير من الملكية الخصوصية والحرية الشخصية غير المقيدة . فلو أتبح لهذا المقترح إدارة ذات كفاية ، فلعل من المشكوك فيه أن كثيراً من الناس ينازعون فيه . بيد أن الإشتراكية لم تدخل قط في امتحان كامل لذلك الشرط القاضي بوجود فيه . بيد أن الإشتراكية لم تدخل قط في امتحان كامل لذلك الشرط القاضي بوجود

ومن وجه آخر ، ما هو ذلك المجتمع الذي سوف يحرز اللكية الجماعية –

⁽¹⁾ انظر الحاش ص ۱۱۸۷ .

أهو الحاكم أو المدينة أو المقاطعة أو الأمة أو البشرية ؟ إن الاشراكية لا تعطيك أية إجابة واضحة . والاشـــــراكيون يسرفون في استخدام كلمة « تأميم Nationaliztion » ولكنا دأينا على جعل كلمتى « الأم Nationalism » و هدفاً لشيء من النقد المدمر في هذا الكتاب . فلو اعترض الاشتراكيون على إدعاء فردى لشخص واحد بأن منجماً أو متسعاً عظيماً من الأرض الزراعية إنما هو ملكه الفردى الذي يحق له أن يقبل أو يرفض المبادلة على استعمال الآخرين له أو كسبهم من ورائه ، فلماذا يسمحون لأمة واحدة أن تحتكر المناجم أو الطرق التجارية أو التروة المعدنية في الأراضي التي تعيش فيها ، مضادة في ذلك البشرية جعاء ؟ .

ويلوح أن النظرية الاشتراكية في هذه المسألة على اضطراب عظيم . وما لم تصبح الحياة الإنسانية اجتماعاً عظيما للجنس البشرى ينعقد في دورة مستمرة ، فكيف يستطيع المجتمع أن يعين موظفيه الذين بقومون بتنفيذ شئونه الجاعية ؟ وفضلا عن ذلك فليس المالك الخاص للأرض أو للعمل أو ما أشبه إلا ضرباً من الموظف العام بالقدر الذي يسمح فيه المجتمع بوجود ملكيته وحمايته لها . فبدل أن تدفع إليه المرتبات أو الأجور ، يسمع له بأن ينال ربحاً .

والسبب الصحيح الوحيد لطرده من ملكيته هو أن الهيمنة الجديدة التي ستحل على الأولى سوف تكون أكثر كفاية وأعود نفعاً وأدعى لرضى المجتمع . وبعد أن بطرد يكون له على أقل تقدير نفس الحق في المطالبة بنفس رعاية المجتمع التي أظهرها هو نفسه من قبل للعامل المطرود من العمل بسبب اختراع ميكانيكي .

وهذه المسألة مسألة الإدارة ، وهي العائق السليم الصحيح لكثير من ألوان النشريك التوى (١) ، توصلنا إلى تلك المسألة التي لم تبرح غير محلولة إلى حد كبير ، وهي مسألة الترابط الإنساني . فكيف نستطيع أن نحصل على خير توجيه الشنون الإنسانية وأن نحصل على ذلك التوجيه على النهاية القصوى من التعاون المتطوع ؟

⁽١) التشريك التوى (Immediate Socialization) : الصبح المباشر بالمسبنة الاشتراكية . وقد صبغت الفظة على غرار لفظتى التأميم والتصفيع . (المترجم)

فهذه مسألة سيكولوچية بلغت غاية التعقيد ، ولكن من السخف أن بدعى المرء أنها مسألة عويصة لاحل لها . ولابد من أن توجد حالة يمكن تعريفها وتحديدها هي خير الحالات وهي الشيء الصحيح في هذه الأمور . ولكنها إن كانت لاحل لها ؛ فإن الإدعاء بأنها قد حلت لا يقل عن ذلك سخفاً فالمسألة وهي في أتم صورها تنطوى على إنتاج أحسن الطرائق في النواحي الآتية وعلى ترابطها التام :

١ - التعليم : وهو إعداد الفرد ليتعاون في شئون العالم تعاون الفاهم وعن طيب خاطر .

٢ - الإعلام: عرض الشئون العامة عرضاً صادقاً ومستمراً على الأفراد ليصدروا حكمهم فيها ويوافقوا عليها. ومما يتصل اتصالا وثيقاً بهذه الحاجة إلى الإعلام المتواتر أمر جمع القوانين وتنسيقها ، وهي مسألة جعل القانون على الدوام صريحاً واضحاً هن الملخل على الجميع.

٣ - التمثيل النيابي: وهو اختيار المناوبين والوكلاء الذين يعملون في المصلحة الجاعية ، في انسجام مع الإدارة العامة المبنية على ذلك التعليم وذلك الإعلام الصريح البسيط.

٤ ــ الهيئة التنفيذية : تعيين الوكلاء التنفيذيين والاحتفاظ بالوسائل الى تجعلهم على الدوام مسپولين أمام المجتمع - دون أن يعوق ذلك فى نفس الوقت ابتداهات ذوى الذكاء وعملهم الابتكارى .

هـ الفكر والبحث: وهو النقد المنظم للمسائل والقوانين لتكوين مادة علمية
 (Data) تكون موضع الحكم العام الشعبي ، وضمان التحسين الدنيوى المنظيمة
 الإنسانية عن طريق هذه الأحكام .

تلك هي الرءوس الحمسة التي تتجلى فيها أمامنا المسألة الإجمالية للجهاعة البشرية فانظر حولك ماذا ترى؟ . إنا لنرى فيما يحيط بنا من العالم وسائل يقصد بها إلى مجرد و سدخانة ، أو إيجاد بديل مؤقت ، وهي تعمل عملها في كل هذه الفروع ، وكلها وسائل سيئة التناسق إحداها مع الآخرى ، كما أبها فى ذاتها غير مرضية . وإنا لنرى نظاما للتعليم يتجلى فى تمويله وتجهيزه الشع والدناءة ، وفى تنظيمه سوء الإدارة ، ويعقده تدخل الهيئات الدينية وعداوتها ، ونرى الإعلام الشعبى العام تقدمه بوجه رئيسي صحافة مرتشية تعتمد على الإعلانات والإعانات المالية . وإنا لنشهد طرائق للانتخاب هزلية تعيد إلى السلطان سياسين يبلغون فى عدم تمثيلهم للشعب مبلغ أى حاكم ورائى أو أى فاتح عرضى . وإنك لترى القوة التنفيذية فى كل مكان تتأثر نوعا ما أو تتحكم فيها بدرجة متفاوتة جماهات من الأغنياء المغامرين ، وترى الاشتغال بالعلوم السياسية والاجهاعية والنقد العام ما يزال من عمل أفراد متكرسين ذوى أطواز غريبة بدل أن يكون عملا من أعمال الدولة مكرماً معترفاً به .

وإن هناك لواجبًا ضخمًا يننظر الرجال ذوى التفكير الصحيح لكى يقوموا يتنظيف وتجميل حظيرة السياسين. فحتى تتحقق هذه الغاية فإن من المستحيل أن يتم فهم الاشتراكية فهمًا تامًا . وما دام المغامرون الحصوصيون بهيمنون على حياة الدولة السياسية ، فإن من المضحك أن يفكر الناس فى أن تضطلع الدولة بالمصالح الاقتصادية الجاعية منتزعة إياها من بد المغامرين الحصوصيين .

والحركة الاشتراكية لم تقف حتى الآن فقط عند الفشل فى إنتاج خطة مدروسة على أساس علمى لإيجاد الترابط فى التعليم والقانون وممارسة السلطة العامة ، بل إنه حتى فى الميدان الافتصادى كما سبق أن بينا لك ، ما تزال هناك قوة خلاقة تنتظر فكرة يصمم بها تنظيم صحيح للاثبان (Credit) وتستنبط منها طريقة صحيحة للدفع والتبادل (Interchange). ومن البديهات الأولية أن رغبة العامل وإقباله تتوقف فيا تتوقف عليه من أمور على ثقته التامة فى القوة الشرائية للعملة التى يقبض أجره منها . ومتى ذهبت تلك النقة بطل العمل اللهم إلا فى الحالة التى يمكن فنها أن يكافأ العامل بدفع الأجور عيناً . ولكن ليس هناك القدر الكافى من علم العملة ولا من علم نفس، الأعمال لرد الحكومات عن التدخل فى الاثبان العام وفى التداول .

تدخلاً يزعج الناس أيما إزعاج. ويؤدى مثل هذا التلخل مباشرة إلى النوقف عن العمل أى التوقف عن العمل أى التوقف عن إنتاج الأشياء الضرورية.

فنى مثل هذه المسائل الحيوية العملية لا يكاد يكون من المبالغة أن يقال إن أغلبية هولاء الاشتراكيين الذين يرغبون فى إعادة صوغ العالم ليست لديهم أية فكرات محددة إصالة . ولكن الناس سواءً كانوا فى عالم اشتراكي أم فى أى نوع آخر من العوالم ، يجب أن يقبضوا نقوداً مقابل عملهم بدل أن يقبضوا أجورهم عيناً ، إن كان يجب أن يستمر شيء اسمه الحرية الفردية . وهنا أيضاً ينبغي أن يكون هناك شيء محقق صحيح يجب على الناس أن يعملوه . فحتى يتحدد ذلك ، فلن يظل التاريخ فى هذه الأمور سجلا للتجاريب قدر ما يكون سجلا للتخبطات .

وهناك اتجاه آخر كان فية التفكير الاجتماعي والسياسي في القرن التاسع عشر ، يواجه ما عليه الثورة الميكانيكية من ضخامة ، وجيلا خالفاً محدوداً غير كاف ، وكان ذلك بالنظر إلى العلاقات الدولية . وسوف يجد قارئ الأدب (۱) الاشتراكي ، الاشتراكين وهم يكتبون ويتكلمون عن والدولة و بلا انقطاع ، دون أن يبدو عابهم الاشتراكين وهم يكتبون ويتكلمون عن والدولة و بلا انقطاع ، دون أن يبدو عابهم أنهم يدركون أن و الدولة و قد تكون أى نوع من أنواع التنظيات وأنها تحددها جميع المساحات ، ابتداء من جمهورية سان مارينو إلى الإمبراطورية البريطانية . حقاً إن كارل ماركس كانت لدبه فكرة عن تماسك المصالح بين العمال في كل الأفطار المصنعة ، ولكن لا تكاد اشتراكية ماركس تحوى إشارة إلى النتيجة في كل الأفطار المصنعة ، ولكن لا تكاد اشتراكية ماركس تحوى إشارة إلى النتيجة المنطقية لحسفا ، وهي تأسيس حكومة ديمقراطية عالمية اتحادية (Federal) المناعية المقترحة .

ومِهِما عظم الأمر ، فليس هناك أكثر من أمل مبهم . ولكن إذا كان الماركسي على أي قدر من المنطق ، وجب أن يكون ذلك هو غايته السياسية الصريحة العلنية

⁽١) كلمة الأدب هنا مستعملة بمعناها العام ، الذي يشمل ما كتب في تلك المادة من كسب وصحف ومجلات ونشرات . (المترجم)

التى يجب أن يعمل من أجلها بلا انقطاع . غير أن اشتراكي معظم الأقطار الأوربية تق يباً قد أظهروا يوم عجمت عودهم حرب (١٩١٤) ، أن ما لديهم من الوعى الطبقى بالدولية كان لعمرى ضئيل الحظ من التوقير والكرامة ومن الإيثار الجلاى على مشاعرهم الوطنية القومية ، وأن ذلك الوعى لم يحل بأى حال محلها . فقد كان الاشتراكيون في كل مكان أثناء الحرب الألمانية ينعون على تلك الحرب أمها من عمل حكومات رأسمالية . ولكن طعن الناس في حكومة أو نظام عالمي لن يكون له إلا أثر ضئيل ما لم تكن لديهم فكرة عملية عن حكومة من طراز أحسن ونظام أحسن تحل محلها .

ونحن إنما نذكر هذه الأمور هنا لأنها حقائق ، ولأنها جزء حي ضروري من نظرة شاملة معاصرة إلى التاريخ الإنساني . وليس من واجبنا الآن أن ندافع عن الاشتراكية ولا أن نختصمها . ولكن مما يدخل في الصورة القائمة بين أيدينا أن نلسط أن الحياة السياسية والاجتماعية إنما هما – ولا يد لهما من أن تظلا – في حال من الفوضي واستجلاب الكوارث ما لم يحدث تطور لبعض الحطط الإنشائية من أضراب ما تخططه الاشتراكية ، فضلا عن أن نوضح مقدار بعد العالم في الوقت الحاضر عن أي خطة من هذا النوع .

ولا يد من أن يمدث قدر هائل من العناء الله في والبحث والمناقشة والتعليم ، ولا يد من انقضاء السنوات العديدة ، التي قد تصل إلى العشرات أو القرون ، إذ لا يستطيع أحد أن يعرف مدى ذلك — قبل أن يعم الأرض بأكلها نظام جديد مصم كما تصمم السفن والسكك الحديدية ، وأن يجرى كما تجرى خطوط التلغراف البحرى وأعمال التوزيع في البريد . فحتى يستطيع مثل هذا النظام أن يضم بشبكته شتات البشرية بعضها إلى بعض ، فلا بد للحياة الإنسانية كما سنعرضها عليك من قورنا بقصة الحروب الأوربية منذ (١٨٥٤) ، من أن تصبح عرضية خطرة تعدمة ، وقلقة مليثة بالكوارث بسبب هذه الوسائل الحربية التي لا تبرح تشتد قوة وتدميراً كل يوم ، تتيجة لتواصل الثورة الميكانيكية .

٦ ـ كيف أثر مذهب دارون في الفكرات الدينية والسياسية(١)

بيها كانت التورة الميكانيكية (٢) التي نتجت عن نمو علم الفوزيقا (الطبيعة) آخذة بأسباب تدمير التصنيف الاجهاعي القديم للدولة الممدنة التي تطورت على مر آلاف من السنين ، وشارعة في إنتاج احهالات جديدة ومثل عليا جديدة لمجتمع إنساني بر صالح ، ونظام عالمي بر صالح – كان يجرى في حقل الفكر الديني تغيير هو على أقل تقدير معادل لتلك الثورة في العظم والجدة . وكان نفس هذا النمو في المعارف العلمية الذي نشأت عنه الثورة الميكانيكية هو الدافع المحرك لهذه الاضطرابات الدينية .

ولقد قدمنا إليك في الفصول الافتتاحية الأولى من هذا الكتاب القصة الرئيسية لسجل الصخور ؛ وصورنا الحياة على حقيقتها إدهى بداية وعي صغيرة ، مظهرين إياها وهي لا تزال تسبح في ضخامة ما أمامها من فراغ ينتظرها بين الفضاء والزمان . ولكن قبل أن يشارف القرن الثامن عشر نهايته كان هذا مشهد الماضي الضخم الذي يملأ الذهن العصرى بالمذلة وبما لا حد له من الأمل ، - شيئاً خافيا مستتراً على الوعي العام لجنسنا . إذا كان يستره عن الأعين سجن (٣) من أسطورة سومرية ، فإن السياوات لم تكن لتزيد على خلفية مسرح من المسارح تقوم من وراء تمثيلية أبطالها الملوك . وكان الناس أشد إنشغالا بشهواتهم الخاصة وشئونهم الشخصية من أن يأهوا بما يلوح لهم من كل ناحية .

ولقد علموا مركزهم الحقيقي في « المكان » قبل أن يضعوا أنفسهم في الزمان بأمد يعبد . وسبق لنا أن سمَيَّنَا لك الفلكيين الأقدمين ، وأخبرناك كيف أجبر « جاليليو » على إنكار قوله أن الأرض تدور حول الشمس ، حيث أجبرته الكنيسة على أن

 ⁽١) إن نشت وجهة نظر دينية دقيقة رئيقة الماثلة لحذه المذكورة ها هنا ، فانظر كتاب Outspoken Essays الأسقف إنح » ، المقالات رقم ٨ و » عن القديس بولس وعن التسلك بالنظم واقدين (Istitutionalism & Myst ism) .

⁽ ٢) الدرة الميكانيكية والانقلاب الآل بمنى واحد . (المترجم)

⁽٣) السجف : الستار ، (الدّرجم)

يفعل ذلك ، مدفوعة بإعتقادها أن أى شك يحيط بأن الأرض مركز العالم ضربة قاتلة تزلز ل سلطان المسيحية .

ولعمرى إن من يقص التاريخ العصرى مضطر فى هذا الموضوع أن يصطنع الحذر والجرأة فى آن واحد . ولا بد له من أن يتحسس موطئ قدميه ، بين التملص الجبان من ناحية والتعصب من ناحية أخرى . ولا بد له من أن يقصر نفسه جهد طاقته على الحقائق وأن يحتفظ لنفسه بما يرى من آراء . ومع ذلك فن الحير أن نتذكر أن الاحتفاظ المطلق بالآراء أمر ليس فى الإمكان . ولكاتب هذه السطور إقتناعاته وآراؤه القوية المحددة و هو أمر لا بد للقارىء أن يعيه فى ذاكرته .

ومن الحقائق المقررة في التاريخ أن تعاليم يسوع الناصرى كان فيها شيء جديد عيق الجدة خلاق قوى الحلق . فإنه بشر بمملكة جديدة للساوات في قلوب الناس ودنياهم . ولم يكن في تعاليمه شيء به يقدر ما نستطيع أن نحكم عليها من هذا البعد الزمني بيتعارض أو يتدخل مع أى اكتشاف أو توسع في تاريخ العالم والبشرية . ولكن من الحقائق التاريخية أيضاً أن القديس بولس وخلفاءه قد أضافوا إلى تعاليم يسوع الصريحة الممعنة في الثورية ، أو أكلوها أو فرضوا عليها أو تبدلوا بها مبادىء أخرى بير واختر لنفسك من هذه الألفاظ ما تشهى) به وذلك ببسطهم نظرية للخلاص دقيقة معقدة ، وهو خلاص يمكن الحصول عليه في معظم الأمر بالإيمان والشكليات ، دون دخول أى تغير جدى في مألوف عادات المومن وأعماله العادية ، وأن تلك التعاليم البولسية كانت تحتوى فعلا على معتقدات عددة جداً حول تاريخ العالم والإنسان .

وليس من شأن المؤلف أن يجادل في هذه الأمور أو يشرحها . فإن مرد قيمتها النهائية إلى علماء اللاهوت . أما اختصاص المؤرخ فينحصر في أن المسيحية الرسمية في جميع أبحاء العالم تبنت وجهة نظر القديس بولس ، التي عبر عنها في رسائله بأجلى بيان ، والتي يستطاع قص آثارها في الأناجيل ، وهي وجهة النظر القائلة بأن معنى الديانة لا يقع في المستقبل وإنما يقع في الماضي ، وأن يسوع لم يكن معلماً لأشياء جديدة رائعة ، قدر ماكان قرباناً دموياً مقدساً عامراً بالخفايا العميقة والقدسية

البالغة ، هيأه القدركفارة عن حدث تاريخى خاص من أحداث عصيان الخالق إقترفه والدانا الأولان ، آدم وحواء إستجابة لإغراء أفعى فى جنة عدن . وقد بنت المسيحية المذهبية مبادئها على هذا الاعتقاد فى تلك « الخطيئة » بإعتبارها حقيقة ، لا على شخصية بسوع الناصرى ، وقامت على نظريات بولس لا على وصايا يسوع .

وقد لاحظنا آنفاً أن هذه القصة ، قصة الخلق الحاص للعالم وآدم وحواء والأفعى ،كانت كذلك قصة بابلية قديمة ، ولعلها أيضاً قصة سومرية أقدم عهداً وأبعد أمداً ، وأن الكتب البهودية المقدسة كانت الوسيط الذي أدخل إلى المسيحية أسطورة الأفعى العتيقة هذه البدائية « الهليوليثية »(١) الأصل - وقد حملت المسيحية الرسمية هذه القصة معها حيثا حلت . ذلك أنها ربطت نفسها بتلك القصة .

وكان العالم المصطبغ بالمسيحية يشعر إلى قرن سلف أو أقل من ذلك ، بأنه ملزم أن يعتقد ، بل كان يعتقد فعلا ، أن الكون خُلق خلقا خاصاً فى ستة أيام بكلمة من الله صدرت قبل بضعة آلاف من السنين أى سنة ٤٠٠٤ ق . م . – كما يقول الأسقف « أشر Bishop ussher » (وكتاب « التاريخ العام » الصادر فى اثنين وأربعين سفراً الذى نشر ته فى (1۷۷٩) جماعة من تجار الكتب فى لندن يبحث هل كان التاريخ الدقيق للخلق هو ٢١ مارس أو ٢١ سبتمبر سنة ٤٠٠٤ ق . م ، ويميل إلى ترجيح التاريخ الثاني) .

وعلى مذا الفرض التاريخي كان ينهض الصرح الديني للمدنية الغربية أصلا والغربية صباعاً ، ومع دلك فإن العالم بأجمعه كانت تزحمه الأدلة ، فإن التلال والحبال والدلتاوات والبحار كانت تنفجر صائحة بالسخافة المطلقة لهذه النظرية . وكانت الحياة الدينية لدى كبريات الأمم وهي ما تزال حياة دينية جادة جداً عامرة بالإخلاص ، تجرى في دار للتاريخ بنيت على أس من الرمل .

وإن الأدب الكلاسيكي ليحوى من الشواهد الكثيرة الورود فيه ، ما يدل على

⁽١) الهليوليثية : عصر الحضارة الحجرية الشمسية . انظر ص ١٣٥ - ١٣٧ ج ١ ط ٢ من المعالم . (المعرج)

وجود مباحث فى بدء الحليقة أصح وأسلم . فإن أرسطو تنبة للمبادئ الإجمالية للجيولوجيا العصرية ، وإنها لتلمع فى ثنايا تأملات لوكريشيوس ، كذلك لاحظنا التفسير النير الذى فسر به ليوناردو داڤنشى (١٤٥٧ – ١٥١٩) الحفريات . وقد ارتأى الفرنسي العظيم ديكارت (١٥٩٦ – ١٦٥٠) الآراء الجريئة حول بدايات كرتنا الأرضية ، وأنها كانت فى أول أمرها كرة متوهجة نارية ، وبدأ دانحاركى اسمه ستينو (١٦٣١ – ١٦٨٩) العمل فى جمع الحفريات ووصف الطبقات الأرضية . ولكن حدث – وقد أشرف القرن الثامن عشر على نهايته – أن خطت الدراسة المنظمة للجيولوجيا خطوات فساح أثرت بقوة فى الاعتاد العام على رواية الكناب المقدس التي هى صورة من القصة السومرية العتيقة .

و ممن عاصر « كتاب التاريخ العام » الذى اقتبسنا منه آنفاً . عالم فرنسى بالتاريخ الطبيعى هو يوفون (Buffon) ، وكان يكتب عن « حقب الطبيعة » (١٧٧٨) ، ويمد عمر العالم فى جرأة إلى سبعن ألفا أو خمسة وسبعين ألفا من السنين . وقد قسم قصته إلى ستة أحقاب تقابل الآيام الستة فى قصة الحليقة . وقد ذهب الرجل إلى أن هذه الأيام الستة إنما هى أيام مجازية ؛ كانت فى حقيقها عصوراً . وحاولت الحيولوجيا بهذه الحيلة المريحة أن تعقد صلحاً مع التعاليم الدينية المسيحية إستمر إلى منتصف القرن الثامن عشر .

ولسنا نستطيع هنا أن نقص ما أداه رجال من أمثال هاتون وپلايفير وسير شارل ليال ، والفرنسين لامارك وكوڤيه من جليل الحدمات في كشف اللثام عن سجل الصخور (١) وفي تطويره والنهوص به . ولم يحدث إلا ببطء أن أخذ الذكاء العام في العالم الغربي يستيقظ على حقيقتين أقضتا مضجعه! أولاهما ، أن تعاقب الحياة في السجل الجيولوچي لم يكن يقابل الأعمال التي جرت في أيام الخليقة الستة ؛ وثانيهما ، أن السجل في اتساق منه مع مجموعة كبيرة من الحقائق البيولوچية ه وثانيهما ، أن السجل في اتساق منه مع مجموعة كبيرة من الحقائق البيولوچية ه بشير إلى عكس ما يقرره الكتاب المقدس من أن كل نوع خلق خلق منفصلا ويشير إلى عكس ما يقرره الكتاب المقدس من أن كل نوع خلق خلق منفصلا ويشير إلى عكس ما يقرره الكتاب المقدس من أن كل نوع خلق خلق علاقة كانت تضم

⁽¹⁾ سيل الصخور ؛ راجع المجلد الأول من المعالم ص ٢٣ طـ٢٠ . (المترجم)

الإنسان نفسه »!! وكانت أهمية هذه النقطة الأخيرة لدى النظام المذهبي الموجود بيئة واضحة . فلو أن كل الحيوانات والإنسان كان نصيبها النشوء والإرتقاء على تلك الشاكلة المتصاعدة ، ترتب على ذلك أن لم يكن هناك أبوان أولان ، ولا عدن ولا دخطيئة » . وإذا لم تكن ثمة خطيئة فإن كل الصرح التاريخي للمسيحية ، وقصة الحطيئة الأولى وهي السبب الداعي إلى الكفارة ، التي أسس على أركانها التعليم الساري للعواطف المسيحية والأخلاق المسيحية ، فإن ذلك كله ينهار كبيت من ورق اللعب .

فلا عجب إذن أن تتبع جماهير عظيمة من الرجال الشرقاء ذوى النفوس المتدينة في شيء يماثل الرعب عمل علم التاريخ الطبيعي الإنجليزي تشارلز دارون (١٨٠٩ – ١٨٨٧) . فني ١٨٥٩ نشر كتابه وأصل الأنواع بوساطة الإنتخاب الطبيعي » وهو عرض قوى لا تبلي قيمته لهذه الفكرة الخاصة بتغير الأنواع وتطورها التي رسمناها لك في إيجاز في الفصل الثاني . وفي ١٨٧١ أتم معالم عمله بكتابه وأصل الإنسان » ، الذي أدخل الإنسان إدخالا محدداً في خطة التطور نفسها مع سائر الحياة والأحياء .

ولا يزال على قيد الحياة بن ظهرانينا رجال ونساء كثيرون يستطيعون أن يتذكروا الرعب والحزن الذى استولى على الأذكياء العاديين في المجتمعات الغربية عندما أخلت تتكشف للناس القضية التي لا تقهر، قضية البيولوچين والحيولوچين ضد ه مبحث بدء الخليقة ، في المسيحية السلفية (١) . وقاومت عقول كثير منهم المعرفة الجديدة مدفوعين بالغريزة وعدم التعقل . ذلك لأن صرحهم الخلني كله كان مشيداً على دعامة من التاريخ الزائف ، وقد كانوا أكبر سنا وأشد جموداً من أن يرفعوا بناءه مرة أخرى ؛ وخالوا هذه الحقيقة الجديدة لا تتمشى مع ما كانوا يحسونه من الصدق العملي في معتقداتهم الخلقية . واعتقدوا أن في التسليم بها تحهيدا لسبيل تقوض العالم من الناحية الخلقية . ومن ثم أحدثوا انهياراً خلقياً بعدم موافقتهم علما .

ولما كانت الجامعات في إنجلترة بخاصة هيئات دينية في تكوينها قبل كل شيء ،

⁽١) المسيحية السافية Orthodox Christianity : أي المحافظة على التقاليد المافية المسجيحة (١)

فإنها قاومت العلم الجديد مقاومة جد مريرة . فكانت أرجاء العالم الممدن تغلى بالخصومة العاصفة إبان السبعينات والثمانينات . ولعل أدل شيء على نوع المناقشات وعلى الحهالة الفتالة للكنيسة إبراد وصف جاء في كتاب « الأمور العادية » بقلم هاكت ، لجلسة للجمعية البريطانية في ١٨٦٦ ، هاجم فيه الأسقف ويلبر فورس العلامة هكسلي (Huxley) ، النصير العظيم لآراء دارون ، على هذه الشاكلة .

انجه الأسقف نحو هكسلى وعلى فه ابتسامة وقحة ورجاه أن يعرفه و هل كان ادعاؤه الإنحدار عن أحد القرود عن طريق جدته أو جده » ؟ والتفت هكسلى إلى جاره وقال و إن الرب قد أسلمه لى فى يدى » . ثم وقف أمامنا ونطق سده الكلمات الهادثة و إنه ليس يخجله أن يكون جده قرداً ، ولكن يخجله أن تكون له صلة برجل يستعمل المواهب الكبيرة فى تعمية الصدق » . (وثمة رواية ثانية تنقل القصة على هذا النحو : و من الهفق أنى قلت : إنه ليس هناك ما يدعو رجلا من الرجال أن يخجل أن يكون جده قرداً . فلئن كان هناك جد أخجل من تذكره ، فأحر بذلك أن يكون رجلا ذا ذهنية قلقة قلابة يخوض نحار مسائل علمية ليست فأحر بذلك أن يكون رجلا ذا ذهنية قلقة قلابة يخوض نحار مسائل علمية ليست له بها دراية صحيحة ، لا لشيء إلا لإدخال الخفاء والغموض عليها باستعال بلاغة لا تستهدف غرضاً ، وأن يحول إلتفات سامعيه عن النقطة الحقيقية التي هي مدار النزاع بواسطة الانحراف عن الموضوع بفصاحته واللجوء الماهر إلى روح التحامل والتحز ») . ولا شك أن هذه الكلمات قد نطقت في حدة . إذ كان المشهد مشهد انفعال عظم . فأعمى على إحدى السيدات كما يقول هاكت . . . وذلك هو طراز الخلق العنيف في هذه الخصومة .

وقد أخلت الحركة الداروينية ، المسيحية الرسمية بغتة وعلى غرة . فووجهت المسيحية الرسمية بغلطة فى بياناتها اللاهوتية يمكن إثباتها والعرهنة عليها . ولم يؤت اللاهوتيون المسيحيون حظاً كافياً من العقل والحكمة ولا من نشاط النهن يحملهم على قبول الصدق الجديد ، وعلى تعديل قانون الإيمان الذى لديهم ، وأن يصروا على الحيوية الحالدة التامة التى لم ينقص شيء منها . حيوية الحقيقة الدينية التى كائت قوانين الإيمان حتى ذلك الحين كافية للتعبير عنها . فإن اكتشاف انحدار الإنسان عن قوانين الإيمان حتى ذلك الحين كافية للتعبير عنها . فإن اكتشاف انحدار الإنسان عن

أشكال شبه إنسانية لا يمسوإنمن بعيد تعاليم ملكوت السهاوات. ومع هذا فإن القساوسة والأساقفة ثاروا بدارون ثورة عنيفة ؛ وقام بعضهم بمحاولات حمقاء لمصادرة مؤلفاته وإهانة أنصار الأراء الجديدة وشراحها . وتبادل القوم قدراً كبيرا من جارح القول في « الخصومة بين الدين والعلم » .

والحق أنه لم يخل عصر من العصور من متشككة في المسيحية . فإن الإمبراطور فرديك الثاني كان على وجه التحقيق أحد المتشككين ؛ وفي القرن الثامن عشر كان جيبون وقولتير ينكران المسيحية صراحاً وجهاراً ، وأثرت كتاباتهما في عدد من القراء مبعثرين هنا وهناك . على أن هولاء كانوا أناساً غير عاديين فأما الآن فقد أصبحت كل المسيحية بوجه الإجمال متشككة . إذ مست هذه الحصومة الجديدة كل أسان قرأ كتاباً أو سمع محاورة بين أذكياء . ونما جيل جديد من الشباب ، نظر حوله فوجد المدافعين عن المسيحية في حالة من الشراسة الحادة ، يحاربون من أجل قضيتهم بلا كرامة ، ولا إنصاف . وكان الذي زُج في مأزق الحطر بسبب تقدم العلم الحديث هو اللاهوت التقليدي الفلسني ، غير أن اللاهوتيين الغضاب كانوا يصرحون بأن الخطر إنما بحدق بالدين .

وقد بكتشف الناس فى النهاية أن الدين سوف بزيد من بربق صقاله عندما بزول منه كل ما هو ملفف به من مبادئ مذهبية ، فأما الشباب فخيل إليهم أنه كان هناك نزاع فعلا بين العلم والدين ، وأن العلم كان المظفر فى ذلك النزاع الكبير فى فكرات الناس وطرائقهم فى طبقات الموسرين وذوى النفوذ فى كل أرجاء العالم الغربى الصبغة ، أثرا هداما بالغا فى الواقع . ولم يأت العلم البيولوچى الجديد حتى ذلك الحين بشيء إنشائى يحل محل الأشياء القديمة التى طرحت جانبا . وتلا ذلك إنحلال خلتى حقيق .

وكان المستوى العام للحياة الإجمّاعية فى تلك الطبقات أعلى كثيراً فى بداية القرن العشرين منه فى بداية القرن السابع عشر ، ولكن هناك منحى واحداً لعل النغم فيه فى العصر الأحدث هو منحى إمتناع المصلحة الذاتية ومراعات الضمير فى تلك الطبقات . ويرجح أنه كان فى طبقات الملاك وأرباد النشاط فى القرن السابع عشر - بالرغم من وجود عدد قليل من « الكفرة » حقاً.

نسبة مثوية أعلى كثيراً منها فى سنوات ملخل القرن العشرين من الرجال والنساء الذين كانو يصلون بإخلاص ، والذين كانوا يبحثون فى زوايا نفوسهم ليعرفوا هل أحدثوا شرآ ، كما كانوا على إستعداد لتحمل الآلام والقيام بتضحيات عظيمة فى سبيل ما يظنونه الحق .

وقد أصبب العالم بنقص حقيق في الإيمان بعد ١٨٥٩ . وكثيراً ما كان ذهب الدين الإبريز ينبذ ويطرح مع الكيس البالي الذي صفه بين دفيّتيه زمنا طويلا ، ولكن أحداً لم يسترجعه بعد ذلك . حيى إذا شارف القرن التاسع عشر نهايته كانت صورة مسوخة فجة لمذهب دارون قد خلت المادة العقلية الجوهرية عند جماهير غفيرة من « المتعلمين » في كل مكان . وكانت عند ملوك القرن السابع عشر وملاكه وحكامه وزعمائه نكرة في موخرة أذهانهم توحى إليهم بأنهم إنما يتولون ما يتولون بإرادة من الله . وكانوا يخشونه حقا وكانوا بطلبون القسرس لكي يصلحوا الأمور بينهم وبينه . فإن كانو من الأشرار اجتهدوا ألا فكروا فيه ولكن العقيدة القديمة عقيدة ملوك فإن كانو من الأشرار اجتهدوا ألا فكروا فيه ولكن العقيدة القديمة عقيدة ملوك مفتتح القرن العشرين وملاكه وحكامه اصفحلت تحت ذلك الشعاع النورائي الذي يلقيه النقد العلمي .

وكانت الشعوب المتغلبة عند ختام القرن التاسع عشر يعتقدون أنهم إنما يسودون بحكم و تنازع البقاء ، الذى يتغلب فيه القوى الماكر على الضعيف الواثق المخدوع . وكانوا يعتقدون فضلا عن ذلك بأنه لا بد لمم من أن يكونوا أقوياء ناشطين قُساة ، عملين أنانين ، لأن الله قد مات ، وكان على الدوام فيا يخالون ميتاً ... وهذا شيء يتجاوز تماما ما تبرره المعارف الجديدة .

وسرعان ما تجاوزوا مرحلة الفهم الحاطئ الفج الشعبي الأول لمذهب دارون. وهو الفكرة الفائلة بأن كل إنسان يعيش من أبحل نفسه وحدها . ولكنهم تردروا فها هو أسوأ . ذلك بأنهم قطعوا بأن الإنسان حيوان اجتماعي مثل كلب الصيد الهندى . هو أكثر كثيراً من كمب عادى ، ولكنهم لم يبصروا تلك الحقيقة . وكما يحدث بالضبط في سرب الكلاب من ضرورة إخضاع الأصغرين والأضعفين وإرهامهم في سبيل الصالح العام ، فكللك بدا في أعينهم أن من الصواب أن تقوم الكلاب الكبرة سبيل الصالح العام ، فكللك بدا في أعينهم أن من الصواب أن تقوم الكلاب الكبرة

فى السرب الإنسانى بإرهاب الغير وإخضاعه . ومن ثم نشأت زراية جديدة بفكرات الديموقراطية التى رانت على العقول فى أوائل القرن التاسع عشر ، وانبعثت من جديد مشاعر الإعجاب بالمتبجحين والقساة .

وكان مما يوافق خصيصة ذلك الزمان تمام الموافقة أن يقتاد المستر كبلنج (١) أطفال الطبقتان الوسطى والعليا فى الجمهور الإنجليزى عائداً مهم إلى الغاب ليتعلموا القانون ، فهو فى كتابه استوكى وشركاه ، بقدم وصفاً كله التقدير للتعذيب الذى ناله ولدان على يد ثلاثة آخرين ، كانوا قد اختدعوا ضحاياهم حتى ربطوهم ربطاً موالماً لافكاك فم منه ، - قبل إظهارهم مقاصدهم العدائية .

ويجدر بنا أن نوجه شيئاً من الإلتفات إلى هذه الحادثة في كتاب « ستوكي وشركاه » ، لإنها تنبر لنا غوامض السيكولوچيا السياسية للإمبر اطورية البريطانية عند نهاية القرن التاسع عشر إنارة ناصعة جداً . وليس في المستطاع فهم تاريخ نصف القرن الأخبر دون تفهم للإلتواء الذهني الذي تعد هذه القصة مثلا من أمثلته . والولدان اللذان يعذ بان و مشاغبان شريران » ، وذلك هو العذر الذي يعتذر به معذبوها ، هذا فضلا عن أن الذي حرّض هؤلاء الأخبرين على هذا العمل الفاضح هو أحد القساوسة . وما يستطيع شيء أن يقلل من المرح الذي شرعوا ينفذون به عملهم . ويلوح أن التعليات كانت تقضى بأنه قبل اللجوء إلى التعذيب ، يجب عليهم أن يستدرجوهم في الحديث حتى يزل لسانهم زلة تستثير شيئاً من الغيرة الأخلاقية التي يستدرجوهم في الحديث حتى يزل لسانهم زلة تستثير شيئاً من الغيرة الأخلاقية التي ككن تبريرها ، وعندئذ يصبح كل شيء على ما يرام « فإنكم إذا صنتم أن تكون السلطات إلى جانبكم ، لم يكن هناك وجه لتوجيه اللوم إليكم » . وواضح أن ذلك هو المبدأ البسيط لهذا الإستعارى الموذجي . على أن كل معتد أثيم قد اتبع ذلك المبدأ على أحسن ما تنبحه له مقدرته ، منذ أن تطور في الحيوان البشرى الذكاء الكافي الحداة قاسياً قساوة واعية .

وهناك نقطة أخرى في القصة ذات مغزى كبير جداً في الواقع . فان كلا من

⁽۱) کبلنج ؛ هو چوزبف ردیارد کبلنج (۱۸۳۰ – ۱۹۳۹) شاعر وکاتب استعاری شهیر راد بالهند وله مؤلفات کثیرة وحصل علی جائزة نوپل (۱۹۰۷) . (المترجم)

الناظر ومساعده الكتانى يُمتلان بوصفهما عاملين خفيين . فإنهما ليرغبان فى حدوث هذا الشجار والتعدى . وبدلامن أن يستعملا ما فى أيديهما من سلطان ، تراهما يستعملان هولاء انصبيان أبطال المستر كبلنج ليعاقبوا الضحيتين وإن الناظر والقسيس ليعران شكاة الأم الغاضية أذناً صماء . ويعرض المستر كبلنج هذا كله بوصفه أقصى المرغوب من الأحوال .

وإنا لنملس في هذا مفتاح أقبح فكرة للاستعار العصرى (Imperialism) وأشدها رجعية وأعظمها في النهاية خطراً عليه وقتلا له . وهي فكرة « مؤامرة ضميم بين القانون والعنف غير الشرعي » . وكما أن القيصرية الروسية دمرت نفسها آخر الأمر بتشجيعها سراً سفاحي المثات السوداء الذين كانوا يذبّحون اليهود وأقواما آخرين ممن زعم القيصر أنهم معادون له ، فكذلك تلطخ الاسم الطيب المحكومة الإمبراطورية البريطانية » - وما يزال ملطخاً - بغارة غير مشروعة قام بها الدكتور چيمسون () ، على الرنسقال قبل « حرب البوير » ، وبما سوف نصف لك من فورنا من مغامرات السير إدوارد كارسون () (المعروف فيا بعد باسم اللورد كارسون) في إرلندة ، وبإغضاء الحكومة البريطانية الضمني في إرلندة عما يسمونه المؤخذ الثار » الذي قام به الموالون للحكومة ضد مرتكبي (أو من يزعمونهم مرتكبي) اعتداءات السن فن ())

وإنما تدمر الإمبراطوريات نفسها بمثل هذه الحيانات التي ترتكها ضد رعاياها . فإن القوة الحقة للحكام والإمبراطوريات تقوم لاعلى أساس الجيوش والبحريات ، بل على اعتقاد الرجال بأنهم صُرحاء صادقون قانونيون لا تلين قناتهم في الصراحة

⁽¹⁾ للدكور چيمسون (١٨٥٣ - ١٩١٧) : سياسي بالمستممر ات ولد بإدنبره . وكان طببها بكبرنى حيث أصبح صديقاً لسمل رودس . وفي أوائل ١٨٩٦ قاد حملة چيمسون من ميفكنج إلى الترنسفال .
(المترجم)

⁽٢) عن السير إدوارد كارسون ؛ أنظر المالم الغمسل ٣٨ القسم الثالث (المترجم)

⁽٣) السين فين ؛ الحزب الوطنى الإرائدي أسمه آرائر جريفث ١٩٠٥، وسياسته مقاومة الحكم البريطانى . وانتقلت زعامته عنه ١٩١٨ إلى ديڤائير اكبر الحركة الجمهورية ، وقد تغلب في ١٩١٨ على الحزب الفديم الدامى إلى الحكم الذاتى ، وزال من الوجود بعد ١٩٣٧ . (المترجم)

والحق والقانون . فلا تكاد حكومة تخرج عن ذلك المعيار ، حتى تكف عن أن تكون شيئاً يتجاوز مجرد « منسر يتولى الحكم » وتصبح أيامها معدودة .

٧ - فكرة القومية

سبق أن أشرنا إلى أنه لا بد من وجود خريطة سياسية طبيعية للعالم تقدم خير ما في المستطاع من التقسيم الجغرافي للإرادة الإنسانية . فأما أي تقسيم سياسي آخر للعالم غير هذه الحريطة السياسية المطابقة للطبيعة ، فسوف يكون بحكم الضرورة شيئاً مقلقلا حرم نعمة التوافق ، ولا بد أن يفضي إلى العداوات والفتن التي تنتزع إلى محربك الحدود في الاتجاه الذي تشر إليه الحريطة السياسية الطبيعية .

وقد ثلوح هذه المقترحات واضحة من تلقاء نفسها لولا أن الديبلوماسيين في قيينا لم يكونوا يعتقدون ولا يفهمون شيئاً من ذلك القبيل كما هو واضح من تصرفاتهم ، وظنوا أنفسهم أحراراً في أن يقطعوا أوصال العالم ، حرية من يقطع مادة لمينة كالجين لاعظم فيها . ومعظم الثورات والمنازعات التي ابتدأت في أوربا عندما أفاق العالم هما فشيه من إحياء بسبب حروب نابليون ، كانت كما هو واضح تمام الوضوح ، محاولات يبدلها الرجال العاديون التخلص من الحكومات التي هي من عدم المطابقة لرغباتهم بدرجة تجعلها في كثير من الأحايين شيئاً لا يطاق . وعلى وجه العموم كانت الحكومات القائمة في كل أرجاء أوربا كالشجي في حلوق الناس ، لأنها لم تكن تمثل الناس تمثيلا اجتماعياً ، وبذا كانت تعوق الإنتاج وتضيع الاحتمالات الإنسانية بدداً . حتى إذا أضيف إلى ثلث المضايقات العامة ، الإختلاف في الدين وفي النقافة العنصرية بين الحكام والحكومن (كما في معظم إرلندة) ، والفوارق في العنصر واللغة (كما هو الحال في إيطاليا الشمالية النمسوية وفي معظم أرجاء الإمبر اطورية المنسوية) ، أو الفوارق في كل هذه النواحي مجتمعة (كما في بولندة والإمبر اطورية التركية في أوربا) ، فقد بلغ السخط حداً دفع الناس إلى سقك الدماء .

كانت أوربا مجموعة من الأجهزة الحكومية بشعة النركيب والتوافق . وعن ضغط سوء التركيب هذا ، إستقت الحركات 1 القومية ، المنوعة التي لعبت ذلك الدور الكبير في تاريخ القرن التاسع عشر ، قوتها المحركة . ما هي الأمة ؟ (Nation) . وما هي القومية ؟ (Nation) ؟ فلئن نجحت قصتنا عن العالم في التدليل على شيء ، فلقد أظهرت نماذج الأجناس والشعوب وعدم ثبات التقسيات الإنسانية ، وتنوع المجموعات البشرية والفكرات الحاصة بالنرابط الإنساني تنوعاً سريع التقلب والدوران . فلقد قيل إن الأمة إنما هي تجمع من الكائنات الإنسانية يظنون أنهم شعب واحد . ولكن يخبروننا أن إرلندة أمة ، ومن المحقق أن « آلستر البروتستانية » لا تشاطر أصحاب هذا الرأى رأيهم . وكذلك لم تكن إيطاليا تعتقد أنها شعب واحد حتى مضى على تحقيق وحدثها زمن طويل . وعندما كان المؤلف في إيطاليا في (١٩١٦) سمع الناس يقولون « ستجعلنا هذه الحرب شعباً واحداً » .

وكذلك هل الإنجلز أمة ؟ أم هم قد انغمروا في « قومية بريطانية » ؟ الظاهر أن الاسكتلندين لايعتقدون كثيراً في هذه القومية البريطانية . وليس في إمكان محتمع للجنس أو اللغة أن يكون أمة ، وذلك لأن الجيلين (١) (Gaels) واللولندين للجنس في الإمكان أن يكون أساس هذا المجتمع هو الديانة المشركة ، لأن بانجلترة عشرات من الديانات ؛ ولا أدبا عاماً ، وإلا فلهاذا ترى بريطانيا منفصلة عن الولايات المتحدة ؟ وجهورية الأرجنتين منفصلة عن أسهانيا ؟ وربما ذهبنا إلى أن الأمة إنما هي في الواقع أية جماعة أو خليط أو حشد مضطرب من الناس إما أن يكون منكوباً بوزارة خارجية أو يرغب في أن يكون منكوباً بوزارة خارجية أو يرغب في أن يكون منكوباً بوزارة خارجية أو يرغب في أن ساجتها ورغباتها وكبرياؤها أشد أهمية من المصلحة العامة للإنسانية بوجه لا مجال المقارئة فيه .

وقد سبق أن تعقبنا من قبل تطور الملكيات المكياقلية حتى انتقلت إلى حكم وزارات خارجيتها وهي تلعب دور ۽ اللمول (Powers) ، ولم تكن ۽ القومية ، التي تسلطت على الفكر السياسي في القرن التاسع عشر لتزيد في حقيقتها عن المبالغات

⁽١) الجيليين : هم السكان المسمون في إسكتلندا باسم الهايلنديين ولفتهم هي الجيلية وهي فرع من الكلتية . (المترجم)

الرومانسية والعاطفية فى التأزمات الناتجة عن الخلافات بين الخريطة السياسية الطبيعية وبن التنظيمات السياسية غير المناسبة داخل مصالح مثل تلك « الدول » .

وقد كان يجرى فى آناء القرن التاسع عشر كله ، وفى نصفه الثانى بوجه خاص ، إنضاج عظيم لهذه القومية فى العالم . أجل إن كل الناس إنما هم بحكم الطبيعة متعصبون محبون لأوطانهم ، ولكن الروح القبلية الطبيعية للناس فى القرن التاسم عشر ، كانت روحاً مبالغاً فيها مبالغة غير طبيعية . كانت روحاً مغيظة مغضبة منبسّهة فوق ما ينبغى كما كانت ملهسّبة ومضغوطة قسراً فى قالب القومية .

كانت القومية تعلم فى المدارس ، وتؤكدها الصحف وتُثبّت فى نفوس الناس بالتبشير والسخرية والغناء ، حتى غدت أغنية فظيعة سودت وجه كل الشئون الإنسانية . حتى لقد دُفع الناس إلى الشعور بأنهم من غير قومية يكونون من عدم اللياقة على حال من يخرج عارياً على زحمة الناس . وأولعت بالقومية الشعوب الشرقية التي لم تسمع بها أبداً ، مثلها أولعت بسجائر الغرب وقبعائه المستديرة السوداء . حتى لقد أصبحت الهند أمة _ وهي ذلك الحليط المكون من متباين الأجناس والديانات والثقافات ما بين در افيدية ومغولية وآرية ؟؟ وبديهي أنه كانت هناك حالات مربكة كما يحدث عندما يضطر أحد الشبان الهود بحي هوايت شابل(١) أن يقرر لنفسه هل هو يتنمي إلى الأمة البريطانية أو الهودية .

ولعبت الصور الساخرة الكاريكاتورية والرسوم المتحسركة (Cartoons) السباسية دوراً كبيراً في هذا الإعلاء الذي رفع نحلة تلك الأرباب القبلية الأحدث عهداً والأكبر حبيماً ـ. وما الأيم العصرية إلا أرباب قبلية ـ إلى ما وصلت إليه من عزة وتلسط على خيال القرن التاسع عشر . فلو تصفح أحدنا مجلة و بنش ه من عزة وتلسط على خيال القرن التاسع عشر . فلو تصفح أحدنا مجلة و بنش ه (Punch) تلك السجل العجيب المعاصر للنفس البريطانية ، التي تعيش إلى اليوم منذ (١٨٤١) ، لوجد أشكال بريطانيا وهيبرنيا(٢) وفرنسا وجرمانيا وهي تتعانق

[.] نادن يقوم به برج لتدن (White Chapel) : حي من أحياء شرق لندن يقوم به برج لندن (المترجم)

⁽ ٢) Hibernla : الاسم القديم الذي كان الرومان يطلقونه على إير لندة .

وتتنازع وتتعاتب وتفرح وتحزن . ومما ساعد الدبلوماسيين مساعدة عظيمة على مواصلة لعبة الدول الكبرى حملهم السياسة في شكلها هذا إلى الفطنة العامة للبشرية المرتابة .



(شكل ١٩٤) الأرباب القبليون في القرن التاسم عشر

فإذا غضب الرجل العلى لإن ابنه أرسل إلى الخارج لكيا يقتل ، أخلوا يوضحون له أن ذلك كان في الحقيقة جزءاً ضرورياً من كفاح هائل يستهدف البر والحير ، ولا مندوحة منه بين اثنتين من هذه الذوات القلسية المهمة الضخمة بدل أن يقولوا له إن ذلك نتيجة لعناد اثنتين من وزارات الحارجية وشراههما . لقد أساءت چرمانيا إلى فرنسا ، أو كانت إيطاليا تظهر للنمسا الروح الواجبة .

ولم يعد مقتل الإبن بُعد انتهاكاً للعقل والحكمة ؛ بل دارت حوله هالة أسطورية من الكرامة . وكان العصيان يستطيع أن يتشح بنفس الثوب الرومانسي الذي تكتسى به الدبلوماسية . فأصبحت إرلندة ربة تشبه « سندرلاً » هي كاثلين في هولهان (Cathleen ni Houlihan) ، المنكوبة بالإساءات التي تمزق القلوب والتي لا يمكن اغتفارها . وسمت • الحند الفتاة » مرتفعة فوق حقائقها بعبادتها باندي ماتارام (Bande Mataram)

وقد كانت الفكرة الجوهرية لقومية القرن التاسع عشر هي « المطلب المشروع » . لكل أمة بالسيادة التامة ، وهو ادعاء كل أمة بأن لها الحق في إدارة شئونها الخاصة داخل حدود أراضها الحاصة بصرف النظر عن أية أمة أشوى . وكان عيب هذه الفكرة هو أن شئون كل مجتمع عصرى ومصالحه إنما تمتد إلى أقصى أجزاء الأرض. فإن الجريمة التى حدثت فى سراجيڤو فى ١٩١٤ مثلا ، والتى نسببت عنها الحرب العظمى ، قد ترتب عليها نزول أشد المحن بهنود لبرادور ، لأن تلك الحرب أوقفت الانجار بالفراء ، الذى يعتمدون عليه فى الحصول على الضروريات من أمثال الذخيرة ، التى لم يكونوا يستطيعون بدونها أن يحصلوا على القدر الكافى من القوت.

وإن عالماً من الأم المستقلة ذات السيادة ليعني إذاً عالماً من الإساءات المسندية عالماً من دول مستعدة على الدوام للحرب أو مشعلة نارها أبداً . على أنه كان يساير التبشير بتلك القومية ويناقضها في الوقت نفسه ، دعاية قوية انتشرت بين الشعوب الكبيرة الأقوى منه خجموعة أخرى من الفكرات : — هي فكرات الاستعار (الامربائية) الذي يُسلم فيه لأمة قوية ومتقدمة ، بالحق في التسلط على أم أخرى أقل تقدما أو أم أو شعوب أقل حظاً من التطور السياسي ، ولما تتطور قوميما بعد ، وتتوقع منها الشعوب الكبيرة أن تشكر لها صنيعها في حمايتها إياها وتسلطها علمها

وواضح أن هذا الإستمال لكلمة الإمبراطورية إنما هو إستمال مختلف عن معناها العام السابق . فإن الإمبراطوريات الجديدة لم تدع أنها استمرار لإمبراطورية روما العالمية . بل هي فقدت آخر الصلات التي تربط بين فكرة الإمبراطورية وبين سلام العالم .

وهاتان الفكرتان فكرتا القومية ، ثم « الإمبراطورية » بوصفها تاجاً على مفرق النجاح القوى – غلبتا على الفكر السياسي الأورث ، بل غلبتا في الواقع على الفكر السياسي للعالم في كل آناء النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وغلبتا عليه حتى نبذتا نبذاً عملياً كل فكرة ذهنية أوسع منهما أفقاً تدور حول موضوع الحير الإنساني المشترك . كانتا فكرتين عمليتين غير سليمتين بشكل خطر . ولم تكونا لتمثلا أي شيء جوهري أو ثابت دوماً في الطبيعة البشرية ، كما أنهما فشلتا في أن توجها الحياة الجديدة للهيمنة العالمية والأمن العالمي اللدين لم تفتأ التورة الميكانيكية تجعلهما كل يوم أنزم وأحتم .

وقد قبلت هاتان الفكرتان لأن الناس عامة لم تكن لليهم الآراء الجارفة الى تتبحها دراسة التاريخ العالمي ، كما لم يعد لليهم الحير الشامل الذي تتبحه ديانة عالمية . ولم يدرك الناس خطرهما على جميع روتينات الحياة اليومية العادية إلا بعد فوات الأوان .

۸ – المعرض الكبير ١٨٥١

بعد أن تخطى القرن التاسع عشر منتصفه ، انفجر هذا العالم ، عالم الدول الجديدة والفكرات القديمة ، هذا النبيذ⁽¹⁾ الجديد الآخذ في الاختبار والموضوع في الزجاجات القديمة للديبلوماسيين – مفلتاً من القيود الركيكة الهزيلة التي أنشأتها معاهدة قيينا – ومنقلباً إلى سلسلة من الحروب . بيد أنه كان من سفرية المصادفات أن سبق مجموعة الإضطرابات الجديدة احتفال سلمي أقيم في لندن هو المعرض العظيم في ١٨٥١ . وهذا المعرض يستحق منا فقرة أو ما إلها .

كان الروح الحرك في هـذا المعرض هو ألبرت أمير ساكس كوبرج جوثا ، وهو ابن أخى ليوبولد الأول ، الملك الألماني الذي وضع على العرش البلجيكي في ١٨٣١ ، والذي كان كذلك خال الملكة الصغيرة فيكتوريا الإنجلزية . وكانت اعتلت العرش في ١٨٣٧ وعمرها ثمانية عشر عاماً . وما لبث الأميران الشابان – وكانا في سن واحدة – حتى تزوجا في ١٨٤٠ تحت رعاية خالها . وكان الأمير ألبرت يعرف عند البريطانيين باسم ١ الأمير الزوج Prince Consort » . الأمير ألبرت يعرف عند البريطانيين باسم ١ الأمير الزوج كان صدم صدمة كبيرة كان شاباً ذا ذكاء موفور وتعليم ممتاز غير عادى ، ويلوح أنه صدم صدمة كبيرة بسبب ذلك الركود الله في الذي انجلس تانجلس قاليه .

وكانت أكسفورد وكامبردج ، هذان المركزان المؤتلقان ما تزالان تفيقان على مهل من ذلك الانخفاض والهبوط الذهني الذي أصابهما في أواخر القرن الثامن عشر . ولم يكن عدد الناجحين سنوياً في امتحانات القبول ليزيد في أي من الجامعتين عن

⁽١) يقولُ المثل الإنجليزى : «نبية» (أو غر) قديم في زجاجات جديدة : كناية عمن لا يأتى بجديد وقد قلب المؤلف منطوق المثل وعكس معناه . (المترجر)

أربعمئة عدًا . وكانت الامتحانات في معظم أمرها رسميات شفوية ، وإذا استثنينا كليتين في لندن (جامعة لندن) ، وكلية في ديرهام ، فإن ذلك كان كل التعليم الذي تقدمه إنجلترة في المستوى الجامعي .

وقد كان لابتداهات هذا الأمير الألماني الشاب المظلوم ، الذي تزوج الملكة المربطانية ، الأثر الأكبر في تشكيل لجنة الجامعات ١٨٥٠ ، كما أنه قصد إلى زيادة وعى إنجلترة بأن شجع على إقامة المعرض الدولي الأول كيا تتاح الفرصة لعمل موازئة بن المنتجات الفنية والصناعية لدى الأمم الأوربية المختلفة .

على أن المشروع لتى فى انجلترة اعتراضاً مريراً . وتنبأ بعضهم فى مجلس العموم بأن يجتاح الأفاقون والثوريون الأجانب إنجلترة ثم يفسلوا أخلاق الناس ويحطموا كل عميدة وولاء فى البلاد .

وعقد المعرض في هابد پارك داخل مبنى جديد من الحديد والزجاج ، بنى فيا بعد مرة ثانية تحت اسم قصر البلور . فأوتى من الناحية المالية تجاحاً عظيماً و إذ جعل كثيراً من الإنجليز يدركون أن بلادهم ليست القطر الصناعي الوحيد في العالم ، وأن الرخاء التجاري ليس احتكاراً بريطانياً أمرت به العناية الإلهية . كما تجلت أمام العيون أوضح الشواهد على أن أوربا تتعافى باطراد بما ألم بها من دمار الحروب النابليونية ، وأنها أخذت تتغلب سريعاً على زعامة البريطانيين في التجارة والصناعة . وبعد ذلك المعرض مباشرة أنشئت إدارة للفنون والعلوم (١٨٥٣) ، للدارك ما فات بريطانيا من تأخر في التعليم ، إن كان إلى إدراكه سبيل .

ه بسرة حياة نابليون الثالث

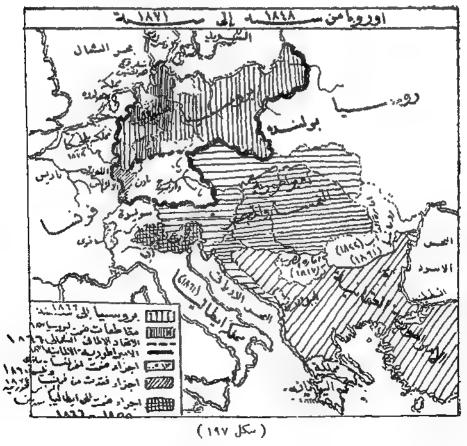
أطلق المعرص الكبير في ١٨٥١ أسار قدر جسيم من الأحاديث والمشاعر الدولية . وكان قبل ذلك قد وجد لساناً يترجم عنه في شعر الشعراء الشبان من أمثال تنيسون الذي ألتي نظرة نحو آفاق المستقبل حين قال :

1 حتى لا تعود طبول الحرب إلى اللـق مرة أخرى

وحتى تلفف رايات القتال وتطوى ،

في برلمان الإنسان وفي دولة العالم المتحدة ۽ .

على أن تلك الرؤيا كانت سابقة لأوانها . فمن دون السلام الظاهرى فى تلك الفترة ، فترة الأسمحية التحررية والاستنارة السطحية ، كانت تنبت بذور محصول جديد من المنازعات الدولية . فكانت فرنسا جمهورية تحررية إسماً . ولكن رئيسها كان من أسرة بوناپرت وابن أخى ناپليون الأول ، وكان شخصاً ذا دهاء عظم وإقدام كبير ، وكان مقدراً له أن يجلب على فرنسا وأوربا نوازل كانت أشد وأنكر مما نزل مها من قبل حتى مما أوقعه عمه قبل ذلك بنصف قرن .



ذلك بأنه تهيأ للجمهورية الفرنسية التي حلت محل ملكية آل أورليان في ١٨٤٨ ،

حياة وجيزة مضطربة . وكان يثقلها منذ البداية مقترحات اشتراكية فجت ثرتب عليها قدر كبير من الاضطراب الاقتصادى وقدر أكبر من القلق في الأعمال . فأما نابلبون بوناپرت الجديد ـ وقد ليس مسوح و الأمين و على التحرر والملاذ الذي يعيد الثقة ويتبت أركان الأمور ـ فإنه استطاع أن يفوز بالانتخاب لمنصب الرياسة في أكتوبر من تلك السنة . وأقسم اليمين باعتباره رئيساً بأن يظل مخلصاً وفياً للجمهورية الديمقراطية ، وأن يعد كل من يحاول تغيير شكل الحكومة عدواً له . ولم تمض سنتان (ديسمبر ١٨٥٧) حتى غدا إمبراطوراً على الفرنسين .

وقد نظرت إليه الملكة فيكتوريا أول الأمر نظرة بخالطها كثير من الارتباب ، أو قل نظر إليه تلك النظرة البارون ستوك مار ، صديق الملك اليوبولد البلجيكى وخادمه ، والحفيظ على الضمير الدولى للملكة البريطانية وزوجها الملكى . وكانت هذه المجموعة من آل ساكس كوبرج جوثا كلها حماسة معقولة كريمة لوحدة ألمانيا ورفاهيتها على أسس من التحرر . وقد جنحوا إلى الانزعاج من انتعاش آل بوناپرت من جديد . غير أن اللورد بلمرستون كان من الجهة الأخرى يعطف على المغتصب منذ البداية ؛ فاستوجب إسنياء الملكة بإرساله الرسائل الودية للرئيس الفرنسي ، دون أن يعرضها عليها لتفحصها ، وأن يعطيها بذلك المهلة الكافية لاستشارة ستوك مار فيها ، فأجر على التخلى عن منصبه . على أن البلاط البريطاني ما عم بعد ذلك أن دار دورة جعلته في وضع أدنى إلى المودة نحو المغامر الجديد .

وبشرت السنوات الأولى لحكمه بملكية تحورية أكثر منها بسيرة ناپليونية ، وبحكومة تقوم على « الحيز الرخيص والأشغال العامة العظيمة والأجازات (١) » ، وقد عبر بحرارة عن عطفه الشديد على فكرة القومية ، التى كانت بحكم الطبيعة فكرة مقبولة جداً لدى أى ألمانى ذكى متحرر . وحدث أن برلماناً وجيز الأمد ، يمثل ألمانيا كلها التأم فى فرانكفورت فى ١٨٤٨ ، وفضه ملك بروسيا فى ١٨٤٩ ، وقبل ١٨٤٨ كانت كل البلاطات الأوربية الكبيرة صاحبة تسوية قيينا تجتمع وقبل ١٨٤٨ كانت كل البلاطات الأوربية الكبيرة صاحبة تسوية قيينا تجتمع

⁽١) نقلا عن ألبرت توماس في الموسوعة البريطانية .

على نوع من المحالفة خشية الدلاع ثورة ثانية ديمقراطية أوسع التشارآ . وبعد إخفاق الحركات الثورية في ١٨٤٨ وعودة الملكية إلى فرنسا ، ارتفع هذا الحوف ، وأصبح الجميع أحرارا في أن يرجعوا إلى ماكانوا فيه من تدبير الحطط وتخطيط أضدادها شأنهم في الأيام السابقة على ١٧٨٩ – خاصة وقد صارت تحت تصرفهم الجبوش والأساطيل الأكثر قوة والأضخم عدداً وهي التي أتاحها لهم الطور النابلبوني . وبعد فترة دامت ستين عاماً ، ابتدأت من جديد لعبة و الدول الكبرى و في هية ونشاط ، واستمرت حتى أنتجت كارثة ١٩١٤ .

وانتهج تاپليون الجديد خطة الحذر ردحاً من الزمن . وكان نقولا الأول قيصر الروسيا هو الذي قام بالخطوة الأولى تحو الحرب. فإنه عاد إلى توجيه الضربة التقليدية ، وهي طعنة بطرس الأكبر تحو القسطنطينية . واخترع نقولا عبارة «رجل أوربا المريض» التي أطلقها على السلطان ، وإذ وجد عذراً يتكئ عليه في سوء إدارة الدولة حيال السكان المسيحيين في الإمبر اطورية التركية ، فإنه احتـــل الإمارات الدانوبية في ١٨٥٧ .

كان ذلك نكسة دولية حقيقية . فإن الدبلوماسيين الأوربيين وجدوا أنفسهم حيال « مسألة » من طراز القرن الثامن عشر نفسه . وكان مفهوماً أن خطط روسيا تصطك بخطط فرنسا في سوريا » وتهدد طريق بربطانيا العظمى إلى الهند عبر البحر الأبيض ، وتمخض الموقف عن قيام محالفة بين فرنسا وإنجلترة تعضيدا لتركيا وشبوب حرب هي حرب القرم التي انتهت بطرد الروسيا . وربما زعم المرء أن الحد من تصرفات الروسيا كان أحرى به أن يكون من عمل ألمانيا والخسا ، ولكن شهوة وزارتي الحارجية في فرنسا وانجلترة إلى إحراق أصابعهم في الشئون الروسية كانت على الدوام شهوة لاسبيل إلى كبح جماحها . ووجد نابليون الجديد في هذه الحرب فرصة يقوى بها روابط صداقته غير الوطيدة مع بريطانيا والبلاط البريطاني ، الذي كان حتى ذلك الحن يترفع عليه .

والطور الهام النانى من أطوار هذا الانتعاش فى مسرحية الدول الكبرى ، كان استغلال الامبراطور ناپليون الثالث وملك مملكة سردينيا الصغيرة بشمال

إبطاليا ، لما تنطوى عليه حالة إيطاليا الممزقة من متاعب وشقاوات ، وبوجه خاص المحكم النسوى فى الشهال . وقام ملك سردينيا فيكتور عمانويل بصفقة من صفقات العهد الماضى للحصول على مساعدة ناپليون مقابل ولاينى نيس وساڤوى ، اللتين تأخذهما فرنسا ، على أن تعوض سردينيا عن ذلك فى إيطاليا . وما لبثت الحرب حتى شبت بين فرنسا وسردينيا منجهة والنمسا من جهة أخرى فى ١٨٥٩ ، وانتهت فى بضعة أسابيع . فهزم النمساويون هزيمة منكرة فى ماچنتا وسلفرينو . وعمل فى بضعة أسابيع . فهزم النمساويون هزيمة منكرة فى ماچنتا وسلفرينو . وعمل فى بضعة أسابيع . فهزم النمساويون هزيمة على نهر الرين ، وبللك ترك لسردينيا غنيمة عظيمة هى لومباردى .

وكانت الحركة الثانية في لعبة ڤيكتور عمانوبل ووزيره الأول كاڤور حركة

ثورية في صقلية بقودها الوطني الإيطالي العظيم غاريبالدي وحررت صقلية ونابولي وانتقلت إيطاليا بأجمها إلى يد ملك سردينيا في عدا روما (التي ظلت على والله البابا) وسقطت البندقية (التي كانت في يد الفسويين) في قبضه ملك سردينيا . واجتمع في تورينو برلمان إيطالي عام ١٨٦١ ؛ وبلالك أصبح فيكتور عمانويل أول ملك الإيطاليا .



(تكل ١٩٦) غاريبالدي

ولكن انتقل حينداك مركز الاهتهام فى لعبة هذه الدبلوماسية الأوربية إلى ألمانيا . وكان قبول الناس لفكرة وحدة إيطاليا فى حدودها الجغرافية الطبيعية قد صار عقيدة ثابتة . فنى ١٨٤٨ إتحدت كل ألمانيا بما فى ذلك بالطبع النمسا الألمانية ردحاً من الزمان تحت ظلال برلمان فرانكفورت . ولكن هذا النوع من الاتحاد أثار بنوع خاص إستياء كل البلاطات ووزارات الخارجية الألمانية ؛ فإنهم لم يكونوا يرغبون



(سكل ۱۹۹) قابليون البالب

فى قيام ألمانيا متحدة بإرادة أهلها ، بل يريدون أن تتحد آلمانيا بواسطة جهود الملوك والديبلوماسين كما انحدت إيطاليا .

وفى (١٨٤٨) أصر البرلمان الألماني على أن ولايني شلزويج وهولستين الألمانيتين في معظم أمرهما ، اللتين كانتا عضوين في الحلف الألماني ، لابد أن تنتميا إلى ألمانيا ، وأمر الجيش البروسي باحتلالها ، فأبي ملك پروسيا أن يتلني الأوامر من بر لمان ألمانيا ، وبذلك عجل بسقوط تلك الهيئة . وعدئذ أقبل ملك اللاانيارك كريستيان الناسع لا لسبب معقول سوى ما فطر عليه الملوك من حماقة ، فأقدم على حملة معكرة لصفو الألمان في هاتين المدوقيتين . وكانت شئون بروسيا آنداك موكولة في غالب الشأن إلى وزير من طراز القرن السابع عشر ، هو فون بسيارك (لقبّب كونتاً في ١٨٦٥) فرأى في هذا الخلاف فرصة ذهبية يجب انتهازها . فأصبح وأميراً في ١٨٧١) فرأى في هذا الخلاف فرصة ذهبية يجب انتهازها . فأصبح

نصير القومية الألمانية في هاتين الدوقيتين ﴿ وَلَوْ امْ عَلَيْكُ أَنْ تَتَذَكُّر أَنْ مَاكَ بروسيا رفض أن يقوم عنا الدور لحساب ألمانيا الديمقراطية في ١٨٤٨) وأقنع النسا بأن تنحاز إلى بروسيا وتتدخل معها تدخلا عسكرياً .

ولم تكن أمام الدانيارك أية فرصة إزاء هاتين القوتين الكبرتين. فهزمت في سهولة وأجرت على التخلي عن هائن الدوقيتين .

وعند ذلك تلمس بسهارك خلافاً مع النمسا في شأن امتلاك هاتين المقاطعتين الصغيرتين. وبذا أحدث حرباً لا ضرورة لها ، يقتل فيها الألماني أخاه ، ولم يكن

يرمى بها إلا استجلاب المجد العظم إلى بروسيا فضلا عن رفعة آل هوهنزولرن في ألمانيا ثم وحد بين أجزاء ألمانيابزعامة آل موهنزولرن البروسين . ولقد يذهب الكتاب الأَلْمَانَ ذُووَ النَّزَعَةِ الرَّوْمَانْسِيَّةً ﴾ إلى تمثيل بسارك علىصورة رجل دولة عظيم يدبر خططوحدة ألمانيا ؛ ولكنه لم يكن في الواقع يقوم بأي شيء من ذلك . فإن وحدة ألمانيا كانت حميقة واقعة في ١٨٤٨ . كانت وما تزال جزءاً من طبيعة الأشياء . ولم تكن الملكبة الىروسية تفعل شيئأ إلا مجرد ثأخير مالا مندوحة منه ، لكي تبدو صاحبة الفضل في إحرازه على



(شکل ۱۹۸) بیارك

الطريقة البروسية . ولهذا حدثأنه عندما توحدت ألمانيا آخر الأمر . فإنها بدلا من أن تتخذ هيئة شعب عصرى مملمن ، قدمت نفسها للعالم بوجه ذلك البسمارك العتيق البالى ذى الشارب المخيف المزعج والحذاء الطويل الضخم والسيف والخوذة ذات الأسلة(١) .

⁽١) الأملة ، طرف مستدق يركب في أعل الحوذة . (المترجم) *

وفى هذه الحرب بين بروسيا والنمسا كانت إيطاليا ظهيرة لبروسيا ، على حين كان غالب الولايات الألمانية الأدنى شأناً ، والتي تخاف خطط بروسيا تقاتل فى صفوف النمسا . وطبيعى أن يرغب القارئ فى أن يعرف لماذا لم ينهز ناپليون الثالث لمصالحه الحاص هذه الماسبة البديعة المواتية لصناعة السياسة ، ويدخل الحرب ؟ وكانت كل قواعد لعبة والدول الكرى وتنادى بضرورة دخوله . فإنه كان يسمح بذلك لمنافس خطر لفرنسا أن بنهض فى أوربا على صورة بروسيا . وكان ينبغى له أن يقوم بشيء ما للحيلولة دون ذلك . ولكن ناپليون كان لسوء حظه واضعاً أصابعه فى مصيدة على الجانب الآخر من الأطلسي ، ولم يكن فى مركز يسمح له أن يتدخل فى ملك الساعة . .



(شكل ١٩٩) بايليون الثالث

فقد أغرته أمريكا إغراء موثاً فإن الشقاق بين مصالح ولايات الجنوب والشهال انحاد أمريكا الشهالية ، دلك الخلاف الراجع إلى الفوارق الإقتصادية القائمة على الرقيق ، أدى آخر الأمر إلى تشرب الحرب الأهلية الصريحة . وسنعالج في قسمنا التالى موضوع هذه الحرب الأهلية بديان أوفى . ولن تزبد هنا عن القول بأنها دامت أربع سنوات ، وانتهت آخر الأمر بالولإيات المتحدة وقد عاد إلها اتحادها . وشمل الفرح

كل عناصر الرجعية فى أوربا أثناء سنوات الحلاف الأربع هذه . وانضت الأرسنقراطية البريطانية صراحة مع الولايات الجنوبية الكنفدرالية ، وسمحت الحكومة البريطانية لعدة سفن حربية خصوصية ، نخص بالذكر مها السفينة و ألاباما ؛ بأن تصنع وتنزل إلى البحر فى انجلرا لمهاجمة سفن القيدراليين .

وكان ناپليون الثالث أشد هوجاً واندفاعاً بزعمه أنه مها يكن من شيء ، فإن العالم الجديد قد سقط أمام القديم . وكانت الولايات المتحدة حظرت حتى ذلك الحين كل تدخل أوربى في قارة أمريكا . وبعد ذلك الحظر على وجه الإجمال قاحدة ثابتة للسياسة الأمريكية . ولكن تلك الدرع الواقية التي هي « مبدأ مونروه ، قد ألقيت آنذاك جانبا وإلى الأبد فيا خاله ناپليون ! وبذا جاز للدول الكبرى الآن أن تتدخل مرة ثانية في أمريكا ، وأن تعود بركات الملكية المغامرة سير "بها الأولى هناك ! . .

والتمست المعاذير التدخل . . . فوجدت في يعض التصرفات المتخذة حيال أملاك الأجانب من رئيس جمهورية المكسيك . واحتلت حملة عسكرية مشتركة من الفرنسين والبريطانيين والأسبان ثغر قبراكروز ، على أن مشروعات ناپليون كانت أجرأ من أن يطيقها حلفاؤه ، فإنسجبوا عندما اتضح لهم أنه لم يكن يدبر شيئا يقل عن تأسيس إمبراطورية مكسيكية . وفد وفق إلى ذلك فعلا بعد الشيء الكثير من القتال المنيف ، وعين الأرشيدوق ماكسمليان النمسوى إمبراطوراً على المكسيك في ١٨٦٤ . على أن القوات الفرنسية تملكت البلاد مع ذلك تملكا فعلياً ، وأنهال إلى بلاد المكسيك حشد من المغامرين الفرنسين بغية استغلال مناجمها ومواردها .

إلا أن الحرب الأهلية انتهت في الولايات المتحدة في أبريل ١٨٦٥ ، ووجدت الفئة القليلة من الأوربين المتملكين بلهفة المنكسيك ، نفسها تواجه حكومة الولايات المتحدة المظفرة وهي في حالة تجهم وعبوس تام ، وبين يديها جيش عظيم بنذر منظره بالشر . وُخير الاستعاريون الفرنسيون تخييراً صريحاً بن الحرب مع الولايات المتحدة أو الانسحاب من أمريكا . والواقع أن هذه كانت إشارة تلوح له بالرحيل . تلك هي الورطة البي حالت بين نابليون الثالث وبين التدخل فها شجر

بين بروسيا والنمسا في ١٨٦٦ ، وكان هذا هو السبب الذي من أجله عجل بسمارك بنزاعه مع النمسا .

وعلى حين كانت بروسيا تقاتل النمسا كان تاپليون الثالت يحاول أن يخرج بكرامته من مآزق للكسيك الشائكة . فاخترع خلافاً حقيراً على مسائل مالية مع ما كسمليان وسحب الجنود الفرنسية . وكان الواجب يقضى على ما كسمليان حسب قواعد الملوكية أن يتنارل عن العرش . ولكنه بدلا من ذلك أخذ بقاتل من أجل امير اطوريته . فهزمه رعاياه المعاندون وقبضوا عليه ، وأعدموه في ١٨٦٧ رمياً بالرصاص بوصفه مصدراً للقلق العام . وبذا أعيد سلام الرئيس مونرو إلى العالم الجديد .

وبينها كان ناپليون مشغولا في مغامرته الأمريكية الفاشلة ، كانت بروسيا وإيطاليا تختطفان النصر على النمسويين (١٨٦٦) . حقا إن إيطاليا أصيبت بهزيمة شديدة في كاستوزًا وفي معركة ليسًّا البحرية ، ولكن الجيش النمسوى بلغ من هزيمته الساحقة على يد البروسيين في معركة سادُوا أن سلمت النمسا تسليا ذليلا . وكسبت إيطاليا مقاطعة البندقية ، وبذلك خطت خطوة أخرى جديدة نحو الوحدة – ولم ببق مخارج المملكة إلاروما وتريستا ومدن قليلة صغيرة على الحدود النهائية والشهالية الغربية – وأصبحت بروسيا رأساً لاتحاد احتلافي ألماني شهالي ، أخرجت منه بافاريا وورتنبرج وبادن وهيس والنمسا .

وترتب على انتصار بروسيا هذا وعلى قم النمسا الذى ترى ، بوصفها على الأقل الرأس الإسمى للشئون الألمانية ، وعلى هذه الرجعة لسلطان مملكة فردريك الكبير – أن أصبحت بروسيا وفرنسا وجها لوجه . وأصبح من الأمور الواضحة أنهما ستشتبكان في منافسة عظيمة ، وهي منافسة قدر لها أن تنتج آخر الأمر أعظم الحروب وأشدها تدميرا وإفسادا على مر التاريخ . لم يكن الأمر إلا أمر زمن لابد أن تصطك بعده ألمانيا وفرنسا . وكان كل من الطرفين يعد العتاد الحربي ،

ولكن بروسيا تفوقت على فرنسا فى أن للسها مدرسين خيرا من مدرسيها ومستوى من الطاعة والكفاية أعلى مما لدى فرنسا .

وكادت الحرب أن تنشب في ١٨٦٧ ، يوم حاول ناپليون بمجرد أن أهلت من المكسيك أن يثير مع بروسيا خلافا على مسألة لوكسمبرج . ثم وافت الحرب في ١٨٧٠ على أسس تحت إلى القرن النامن عشر بأوثق الأسباب ، بسبب منازعة حول المرشحين لعرش أسبانيا الشاخر . وكانت تساور عقل ناپليون فكرة بأن النسا وبالخاريا وورتمبرج والولايات الأخرى في خارج الاتحاد الكنفدرالي الألماني الشهالي سوف تنحاز إليه ضد بروسيا . ولعله ظن أن ذلك لا بد أن يحدث لأنه أراده أن يحدث . ولكن الألمان مند ١٨٤٨ ، كانوا مني تعرضت بلادهم للتدخل الأجنبي يصبحون شعبا متحداً . وكل ماعمله بسهارك أنه فرض ملكية أسرة هوهنزولرن ، في جو من الفخامة والرسميات وسفك الدماء ، على حقائق قد تحققت . وانحازت ألمانيا كلها إلى بروسيا ضد فرنسا .

وفى أواثل أغسطس ١٨٧٠ إجتاحت القوات الألمانية المتحدة فرنسا . وأظهرت أنها خير من القوات الفرنسية فى عددها ونظامها وعتادها وقيادتها . وكان انهزام فرنسا سريعا تاما .

وبعد معركتي ورث (Wcrth) وجراڤيلوت ، اضطر جيش فرنسي بقيادة بازان (Bazaine) أن يرتد إلى داخل متر ثم أحيط به هناك . وفي أول سبتمبر اضطر جيش آخر كان معه ناپليون ، أن يسلم بعد أن هزم في سيدان ، وأخد ناپليون أسيرا . ووجدت باريس نفسها مكشوفة أمام الغزاة . وللمرة الثانية خذلت الوعود النابليونية فرنسا خللانا ماحقا .

وفى اليوم الرابع من سبتمبر أعلنت فرنسا نفسها جمهورية من جديد ، وإذ عادت إليها فترتها على هذه الشاكلة ، فإنها استعدت القتال من أجل البقاء ضد البروسية المظفرة . ذلك أنه ، مع أن ألمانيا التي تغلبت على الروح الإمراطورية الفرنسية كانت ألمانيا المتحدة ، فقد كانت بروسيا منها على صهوة السرج . وا يلبث الجيش المحصور في متر حتى استسلم في أكتوبر . وخضعت باريس بعد أد فرض عليها الحصار وضربت بالقنابل فسلمت فى ينابر ١٨٧١ ، والتمست فرنسا الصلح . وهناك فى قاعة المرايا بقصر قرساى بين مظاهر الأبهة والاحتفال الرسمى ووسط تشكيلة عظيمة من الحلل العسكرية نودى بملك بروسيا إمبراطورا لألمانيا ، ووقف بسهارك وسيف آل هوهنزولرن يدعيان الفضل فى تلك الوحدة الألمانية التى طالما أكدها منذ زمن مديد لغة مشتركة وأدب مشترك .

وكان صلح فرانكفورت الذى أعقب ذلك صلحا لآل هوهنزولرن . وكان بسيارك قد أفاد من شعور ألمانيا القوى واستغله فى الحصول على عون الولات الألمانية الجنوبية ، ولكن أنى له أن يدرك القوى الجوهرية التى حبته وحبت سبده الملكى بالنصر . فإن القوى التى دفعت ألمانيا إلى النصر كانت قوة خريطة أوربا السياسية الطبيعية التى تحتم وحدة الشعوب الناطقة بالألمانية . وكانت ألمانيا فى الناحية الشرقية ترتكب بالفعل الحطايا ضد الجريطة الطبيعية بإدارتها ليوزن ولنواح پولندية أخرى . والآن وقد أعماها الشره إلى الأراضى وبوجه خاص إلى مناجم الحديد ، فإنها ألحقت بها قدراً جسيا من اللورين الناطقة بالفرنسية بما فى ذلك متز ، والألزاس التى كانت بالرغم من لغنها الألمانية فرنسية الميول فى غالب شأنها .

ولم يكن ثمة مندوحة من أن يحدث التصادم بين الحكام الألمان والرعايا الفرنسيين في هذه الولايات المستلحقة . وكان لا مندوحة من أن تتردد للإهانات والمرارة التي مست فرنسا المقهورة في اللورين أصداء مدوية في باريس وأن تجعل غضب فرنسا الشديد مضطرما محتوما على الدوام . وسوف نقص عليك ميا بعد كيف تأجيج هذا الحقد متسعرا في لهيب انتقام عظيم . . . وأخنى ناپليون رأسه المتداعية في إنجلترة ، ومات هناك بعد انهياره بسنة أو مايقاربها ، وهكذا انتهت الدولة المونايرتية الثانية بفرنسا .

١٠ ــ لنكولن والحرب الأهلية في أمريكا

مما يربح الفؤاد أن ينتقل الإنسان من هذا المغامر البوناپرتى ومن أعماله التى الحلبت الكوارث على فرنسا ، ومن النصر المؤقت الذى أحرزه آل هوهنز ولرن

على الحركة الشعبية فى ألمانيا ، ــ إلى شخص أعظم تماماً وأكبر أهمية وأبلغ قيمة ، هو شخص أبراهام لنكولن الذى يمكن أن تجمع حوله بغاية اليسر والراحة حوادث الحرب الكبرى الأهلبة فى أمريكا .

وقد كان النصف الأول من القرن التاسع عشر الذى هو عصر رجعية وانتعاش في أوربا ، كان في أمريكا فترة من فترات النمو الباذخ المسرف . فإن وسائل المواصلات الجديدة وأعنى بها الزورق البخارى والسكة الجديدية ثم التلغراف الكهربائي الذى أعقبهما من فوره ، جاءت في أنسب الأوقات لدفع حركة السكان قدماً عبر القارة . ولولا هده الوسائل الميكانيكية المساعدة ، فلربما لم تصل الولايات المتحدة غرباً حتى في يومنا هذا إلى ما يتجاوز جبال روكى ، وربما كان شعب يخالف من نرى تمام الخالفة يكون هو المتملك على الشاطئ الغربي .

ولا يزال أمرا لا يفهمه السياسيون إلا فهما أبتر قاضرا ، مسألة إلى أى حد تبلغ درجة اعباد المساحات المحوطة بالحدود الحكومية والإدارية على وسائل المواصلات المستعملة وعلى طبيعة البلاد من حيث علاقتها بالنقل . فإن الوديان المفتوحة إذا اتيحت لها الطرق والكتابة ، تنزع إلى الارتباط في ظل حكومة واحدة . فأما الحواجز الجبلية فا كانت لتفصل الشعوب فحسب بل الحكام أيضاً ، وكانت الإمبر اطورية الروماس أمبر اطورية ه طريق سلطاني م(١) وعجلة ، وكان تقسمها وتفرقها وسقوطها راجعة إلى استحالة إقامة مواصلات سريعة بن الجزء منها والجزء . وكانت أوربا الغربية التي خرجت من عمرة العاصفة الناپليونية ، مقسمة إلى دولات قومية ، لعلها وصلت إلى أقصى انساع تستطيع أن تبلغه دون فقدان التماسك ، على حين كانت قوة جر الحصان على الطريق السلطاني أسرع وسائل الارتباط للمها .

فلو أن سكان الولايات المتحدة انتشروا فوق القارة الأمريكية وليس لديهم لا جر الحصان ، والطريق الحشن الوعر وكتابة الرسائل ، وسيلة لترابطهم بعضهم ببعض ، فإنه يلوح أمراً لا مندوحة منه أن الفوارق فى الأحوال الأقتصادية المحلية

⁽١) طريق ملطاني (High-road) : أي طريق كبير يمته بين المهان والأقطار .

كانت لا بد متطورة فنتحة طرزاً إجباعية مختلفة ، وأن الافتراق الفسيح كان لا بد له من أن يقوى فروقا فى اللهجات وأن يزبل التعاطف ، وأن العناء الذى يقاسه من بريد حضور جلسات الكونجرس بواشنطون ، كان لا بد مزداداً مع كل تقدم



(تكل ٢٠٠) لىكول وحمده

للحدود صوب الغرب ، حتى يترامى الأمر بالولايات إلى التفرق في عصبة منحلة العرى مكونة من أم متباعدة مستقلة تقريباً . وإذن لكانت الحروب على التروة المعدنية والمنفذ إلى البحر وما إليها ، تعقب ذلك ولا مناص ، وكانت أمريكا تغدو أوربا أخرى .

غير أن الزورق البرغارى الهرى والسكة الحديدية والتلفراف ، وصلت في أوانها لمنع هذا التفرق . وأصبحت الولايات المتحدة هي الأولى في طراز جديد من الدولة ذات النقل العصرى ، وهي أكبر تماما وأشد قوة وأبلغ إدراكا لوحدتها من أية دولة رآها العلم من قبل . إذ أن النزعة السائدة اليوم في أمريكا ليست إلى التفرق والتباعد بل التمثل والامتصاص، حتى ليزداد المواطنون في الأجزاء المختلفة من الولايات ، لا اختلافا بعضهم عن بعض بل اتفاقا في الحديث والفكر والعادة . حقاً إن الولايات المتحدة لا تقارن بدولة أوربية مثل فرنسا وإيطاليا ، بل إنها طراز من التنظيمة السياسية أجد عهدا وأكبر حجا .

وقد قامت في العالم إمبر اطوريات تضاهي الولايات المتحدة في المساحة وعدد السكان ، ولكنها كانت مجرد تجمع من شعوب دافعة للجزية لا يوحدهم شيء إلا حكومة من الحكومات . فأما وحدة الولايات المتحدة ففطرية فهي مجتمع قائم على اتجاه ذهبي لشعب يربي على مئة مليون من الناس فالسكك الحديدية التي زادت منازعات أوربا ومشاحناتها حدة ، والخترعات التي أنقصت مسافة الضربة التي تضربها الجيوش الأوربية ، وأتاحت لهم قوى مدمرة تزداد على مر الأيام ، إلى حد أنه يلوح الآن أنه لا اختيار أمام أوربا الغربية بين التوحيد طوعاً أو التوحيد كرها تحت سلطان إحدى الدول الغالبة ، وبين الفوضي والدمار ، - هذه السكك الحديدية ، وهذه المخترعات قد مكنت ورسخت الوحدة الحرة لأمريكا الجمهورية .

ولكن الشعب الأمريكي مرَّ وهو في طريقه إلى هذه العظمة الراهنة والأمنة الحاضرة في دور من أدوار الصراع الرهيب . ذلك أن الزوارق البخارية النهرية والسكك الحديدية والتلغراف ، وما أشبهها من تسهيلات ، لم تصل بالسرعة التي تمكنها من تجنب النزاع المتزايد عمقاً في المصالح والفكرات بين الولابات الجنوبية

المالكة للرقيق وبين الشهال الصناعي الحر سبل الواقع أن الزوارق البخارية والسكك الحديدية لم تقم في مبدأ الأمر إلا بزيادة أوار وعنف الفارق الثابت من قبل والراسخ من قبل . كان هناك فارق عميق في الروح بين قسمي الولايات المتحدة ، وترتب على تزايد توحيد البلاد الناجم عن وسائل النقل الجديدة ، أن أصبحت مسألة المفاضلة بين سيادة روح الشهال أو روح الجنوب ، ذات خطورة تزداد حدة على اللوام . وكان الأمل في التقارب والصلح ضئيلا . فإن الروح الشهالية كانت روحاً حرة فردية واتجهت الروح الجنوبية إلى الضباع الكبرة وإلى سادة ذوى وعي قوى بأنفسهم يحكمون حشداً من الرعايا أسمر البشرة خاضعاً . وكانت عواطف الراديكاليين والأحرار الريطانيين منضمة إلى أهل الشهال ؛ بينها كانت عواطف أصحاب الأملاك البريطانيين والطبقة الحاكة البريطانية منحازة إلى أهل الجنوب .

وأصبحت كل قطعة من الأرض تنظم في شكل ولاية ، وكل إضافة جديدة إلى الهجموعة الأمريكية السريعة الفو ، — تصبح ميداناً للنزاع بين الفكرتين . فهل يجب أن تكون الولاية الجديدة ولاية من المواطنين الأحرار أم ينبغي أن يشملها نظام الضياع الكبيرة ذاك ؟ ولم تزل هذه نقطة النزاع تتدرج ببطء حتى تسلطت على الشئون الأمريكية بعد تأسيس ولاية مسورى في ١٨٢١ وأركنساس في ١٨٣٦ برصفها ولايتين تملكان الرقيق . ومنذ ١٧٣٣ كانت هناك جعية لمنع الرقيق لم يقتصر أمرها على مقاومة التوسع في ذلك النظام ، بل كانت تحرك البلاد من أقصاها إلى أقصاها بفية إلغائه إلغاء تاماً . وتأجيج الحلاف صراعاً حول إدخال تكساس ولكن كان معظم من يستعمرها أمريكين من الولايات المتملكة للرقيق ، فانفصلت ولكن كان معظم من يستعمرها أمريكين من الولايات المتملكة للرقيق ، فانفصلت من المكسيك وأسعت استقلالها في ١٨٣٦ . وأعقب ذلك اضطراب قوى من أجل استلحاق تكساس ، وألحقت تكساس في ظل القانون المكسيكي ، ولكن المنتج عظوراً في تكساس في ظل القانون المكسيكي ، ولكن المغنوب طالب الآن بتكساس من أجل المرقيق وحصل علها .

زد على ذلك أن الحرب التي شبت بينهم وبن المكسيك بسبب استلحاق

نكساس ، أدت إلى إضافة نيومكسيكو ومساحات أخرى إلى الولايات المتحدة وفي هذه المناطق كذلك كان الرقيق مباحاً ، وجاء مشروع قانون العبدان الآبقين فزاد في كفاية وسائل القبض على العبدان اللين جربون إلى الولايات الحرة لإعادتهم إلى أرباهم . وفي نفس الوقت كان تطور فن الملاحة في الهيطات بجنل أفواجاً منزايدة من المهاجرين من أور با يزيدون في عدد سكان الولايات الشيالية الآخذين في الانتشار ، وأدى رفع إيروا وويسكونسين ومينيسوتا وأريجون ، وهي كلها أراضي مزارع شائلية ، إلى مرتبة الولايات إلى منع الشمال المعارض الرقيق أغلبية تمكنه من التسلط في كل من عبلسي الشيوخ والنواب . وإذ ثارت ثائرة الجنوب الزارع القطن النسلط الشمائي في الكونجرس ، فإنه راح يتحدث في الانفصال عن الإتحاد . وشرع المنال المعارف في بلاد المكسيك وجزائر أهل الجنوب يعلمون بضم ما يقع جنوبهم من أراضي في بلاد المكسيك وجزائر الهند الغربية ، وبدولة عظيمة العبدان منفصلة عن الشيال وممتلة من خط ماسون وديكسون إلى يناما .

وأصبحت كنساس مسرح البت الهائى فى الأمر ، فإن الكفاح على الرقيق هم منطقة كنساس فيا أوشك أن يكون حرباً أهلية بين المستقرين فيا من أهل الولايات المرة والمهاجرين إليا من أهل ولايات الرقيق ، وهي حرب استمرت حيى ١٨٥٧ وانتهت بفوز آنصار منع الرقيق من المستوطنين . ولكن كنساس أم ترفع لمل درجة ولاية حتى ١٨٦٦ . وكانت توسعة مجال الرقيق هي نقطة الحلاف الرئيسية المطروحة على البلاد في انتخابات الرياسة في ١٨٦٠ . وتعتبر دهوة أبراهام لنكولمن بوصفه رئيساً مناهضاً التوسع ، عاملا حاماً سفز الجنوب على أن يقرد قصم عرى الوحدة .

فأصدرت كازولينا الجنوبية (مرسوماً بالانقصال () واستعدت لخوض خماد الحرب وانضمت إليها في أوائل ١٨٦١ ولايات المسيسي وظوريدا وألاياما وجورچيا وقريزيانا وتكساس . واجتمع مؤتمر في مونتجمري بولاية ألاياما ، واختار چيفرسون دائميز رئيساً و قولايات الكنفدرالية (الأمريكية ، وتبني دستوراً

يشابه دستور ألولايات المتحدة ولكنه كان يؤيد بنوع خاص « نظام استرقاق الزنوج » .

ذلك هو الموقف ألسياسي الذي دعى أبراهام لنكولن لمعالجته بوصفه رئيساً للاتحاد . وكان بمحض المصادفة رجلا نموذجياً في تمثيله للشعب الجديد الذي ظهر بعد حرب الاستقلال . وكان أهله أناساً لا يزيدون على العاديين من عامة الناس ، علم يكن أبوه ليعرف القراءة أو الكتابة إلا بعد زواجه ، وكانت أمه فيما يقال ابنة غير شرعية , وكانت امرأة أوتيت عقلا راجحاً وخلقاً ممتازاً .

وقد قضى سنيه الأولى بوصفه جزيئاً صغيراً يتنقل مع فيض السكان العام المتجه غرباً. ولد فى كنتكى فى ١٨٠٩ ، وحمل إلى إنديانا وهو غلام ، ثم أخذ بعد ذلك إلى إللينوى . وكانت الحياة خشنة فى تلك الأيام فى غابات إنديانا البعيدة عن العمران ، فكان المنزل لا يزيد على كوخ من الكتل الحشيبة مقام فى البرية ، وكان حظه من التعليم المدرسي ضئيلا وعارضاً . على أن أمه علمته القراءة منذ بواكبر حداثته ، ثم أصبح قارئاً هائلا يلتهم كل ما تقع عليه يده من كتب .

وعندما بلغ السابعة عشرة أصبح شاباً رياضياً ضخم الجثة ، مصارعاً عظيا وعد"اء" قوياً . ولما بلغ الناسعة عشرة انحدو في النهر إلى نيوأورليان أجراً في زورق . واشتعل حيناً كاتباً في أحد المتاجر ، وعمل متطوعاً في الجيش في حرب ضد الهنود ، ودخل ميدان الأعمال فأنشأ متجراً مع شريك سكبر ، فوقع في ديون لم يستطع أن يسددها تماماً إلا على مدى خسة عشر عاماً . ثم حصل أخبراً عندما قارب الرابعة والعشرين على عمل يشتغل فيه وكيلا لمساح مقاطعة سانجامون وهو عمل قال عنه إنه ه أمسك رمقه بالجهد الجهيد »

وكان مكباً على القراءة كل ذلك الزمان . وكانت الكتب الأولى التى قرأ س تلك التى تكوّن الذهن خوليلة ولكن من الصنف الجيد فيا يلوح ؛ كان يقرأ كل ما تصل إليه يده ؛ وكان يعرف شيكسير وبيرنز جيد المعرفة ، وحياة واشنجتون وتاريخ الولايات المتحدة الخ . وكان التعير لديه غريزة فطرية ، فكان منذ بفاعته يكنب مثلا يدرس ، منتجاً الشعر والمقالات وما أشبهها . ولكن : الكثير من إنتاجه هذا مادة خشنة متواضعة . وسرعان ما اجتذبته السياسة إليها . فني ١٨٣٤ يوم كانت سنه لا تزيد على خسة وعشرين من السنين انتخب عضواً في مجلس النواب عن ولاية إللينوى ؛ ودرس الحقوق وانتظم في سلك المحاماة في مجلس النواب عن ولاية إللينوى ؛ ودرس الحقوق وانتظم في سلك المحاماة في ١٨٣٩ . وانقضى عليه زمان اشتغل فيه بالقانون أكثر من السياسة .

ولكن المسألة العظمى المطروحة أمام شعب الولايات المتحدة كانت تصر على شغل إنتباه كل رجل أوتى الاقتدار . والحق أن هذا الرجل الضخم المقتدر المعلم نفسه بنفسه ، والذى كان مثالا نموذجاً بالغاً لرجل الغرب الأوسط ، لم يسعه إلا أن يتأثر تأثراً عبقاً بالتطور المستمر فى الحلافات على الرق والانفصال . وكانت المسألة ملهمة الأوار فى إللينوى بوجه خاص لأن الزعم العظم فى الكونجرس لحزب التوسع فى الرقيق كان هو السناتور دوجلاس وهو من إللينوى . وكانت هناك منافسة شخصية بين الرجلين . إذ كان كلاهما قد خطب السيدة التى أصبحت المسز لنكولن . وكان دوجلاس رجلا ذا اقتدار ومقام عظيمين ، وظل لنكولن بضع سنين بحاربه بالخطابة والنشرات فى إللينوى يادئ الأمر ثم فى الولايات الشرقية برمها ، وهو يرتفع فى ثبات إلى مركز خصمه القوى والمنتصر آخر الأمر . وبلغ برمها ، وهو يرتفع فى ثبات إلى مركز خصمه القوى والمنتصر آخر الأمر . وبلغ بلنكولن رئيساً ، والولايات الجنوبية فى حالة انفصال فعال وهى ترتك أعمالا حربية .

وكان أول إجراء قام به الإنفصاليون هو استيلاوهم على جميع حبصون الاتحاد الفدرالي ومخازنه الموجودة داخل حدودهم . وكانت هذه المراكز التابعة للاتحاد مبنية على أراض تملكها الولايات التي كانت فيها ، وادعت هذه الولايات لنفسها الحق في راسرجاع ممتلكاتها » . وقاومت حامية فورت ستمبر في شارلستوند ، وابتدأت الحرب بإطلاق القنابل على هذه القلعة في ٢ أبريل ١٨٦١ . ولم يكن لهني أمريكا في ذلك الوقت سوى جيش نظاى صغير جداً ، أقام على ولائه للرئيس ، ومن ثم فإن الذين قاموا بهذه العمليات الافتتاحية الأولى للإتحاد الكنفلوالي لولايات الجنوب كانوا مجندين جدداً جمعوا من الولايات . واستدعى الرئيس لنكولن على الجنوب كانوا مجندين جدداً جمعوا من الولايات . واستدعى الرئيس لنكولن على

الفور السة وصبعين ألفاً من الرجال ، وانضمت تنسى وأركنساس وكارولينا الشيالية وقرجينيا مباشرة إلى الاتعاد الإحتلاق(1) اللي كان آنذاك قد رفع علمه الخاص به المكون من و النجوم والخطوط الرأسية و مقابل النجوم والشقق الأفقية .

وبذلك ابتدأت الحرب الأهلية في أمريكا . وكان يقوم بالقتال فيها جيوش مرتجلة أخلت تنمو نمواً مطرداً من عشرات قليلة من الآلاف إلى مئات الآلاف السحى أربت قوات الانحاد القدراني آخر الأمر على مليون من الرجال ؛ وكانت الحرب تتقلب قوق مساحات هائلة تمتد بين نيومكسيكو والبحر الشرق . وكانت واشتجتون وريتشموند هما الهدفان الرئيسيان . وإنه لمما يتجاوز تجالنا الراهن أن نحدثك عن تلك الممنة المتزايدة لذلك الكفاح الحافل بالبطولة والذي كان بهد متدحرجاً ذهاباً وجيئة عبر التلال والآجام في تنسى وقرچينيا وينحدر من وادي المسيمي . وجرت الحرب في أذيالها كل فظيع من القتال والامار . وكانت الطمئة تلفيادة ؛ وكان اليأس يمل على الرجاء ، ثم يعود الأمل فيتُفرخ ثم يعود الأمل فيتُفرخ ثم يعود الأمل فيتُفرخ بعود القنوط فيشم . وكانت واشتجتون تبدو في بعض الأحايين في متناول بد الاتحاد الكفدراني ف تنسوب نحو ريتشموند .

وكان المعطفون رجال الجنوب الكنفدرالى وهم أقل هدداً وأفتر كثيراً في الموارد ، فائلون بقياهة قائد ذى كفاية فائقة اسمه الجنرال لى . وكانت قيادة الاتحاد الشبائي أدنى كثيراً من فلك كفاية وإقتدارا . وظل لنكولن متعلقا زمنا طويلا بالجنرال ماك كيلان و نابليون العبغير و ، وهو قائد مدع ميال للتسويف غيب لمسا كان يعقد عليه من آمال . وطفق الرئيس يطرد القواد ويعين آخرين جددا ، حتى انهى الأمر بأن جاء الفوز على يد شرمان وجرانت على الجنوب الرث الناهك القوى . وفي أكتوبر جاء الفوز على يد شرمان وجرانت على الجنوب الرث الناهك القوى . وفي أكتوبر عدم

⁽١) يلاحظ القارئ أننا سينا (Contederacy) باسم الاتحاد الاحتلاق (الكنفدوال) أى الولايات فات الرابلة المفككة ، م على حين جعلنا الاتحاد (أو الاتحاد الفدوالي) مقابلا كا هو معلوم لكلس (Pederacy) * (Union) * (Pederacy)

انظر ص ١١٧٥ من المالم . (المترجم)

من تنسى عبر چورچيا إلى الشاطئ ، محترقا بلك أرض الجنوب الكنفدوالى أكل اختراق ، ثم عرج خلال الكارولينتين الشالية والجنوبية حتى أطبق على مؤخرة جبوش الجنوب. وفى نفس الوقت كان جرانت يوقف لى أمام ويتشموند حتى أطبق عليه شرمان .

وفى البوم الثانى من ابريل ١٨٦٥ أخلت جيوش الكنفلواليين مدينة ريتشموند ؛ وفى البوم التاسع من ابريل ، سلم لى وجيشه عند أبوماتوكس كورت هاوس ، ولم يمض شهر حى كانت جيوش الانفصاليين الباقية قد وضعت السلاح جميعاً وحمى كانت دولة الاتحاد الكنفدرالي قد انهت .

ولكن هذا الكفاح الذى دام أربع سنوات أصاب شعب الولايات المتحدة بإجهاد هائل جبانى وخلتى . فكان الراى منقسها انقساماً حاراً فى شأن الحرب كثير من الولايات من أمثال مارى لاند وكتنكى . وذلك بأن مبدأ الحكم الذاتى فى الولاية كان مبدأ عزيزاً جداً على أذهان كثيرة ، والحق أن الشهال كان يبدو فى زى من يقيسر الجنوب على إلغاء الرقيق كرها . ولذا كان الكثير من الرجال يعارضون فكرة الرقيق ، الجنوب على إلغاء الرقيق كرها . ولذا كان الكثير من الرجال يعارضون فكرة الرقيق ، ولكنهم كانوا كذلك ضد الندخل فى شأن السلطان الحر لكل ولاية على سكانها ، فأما الولايات التى على الحدود فإن الأخوة وأبناء العم ، بل حتى الآباء والأبناء ، ربحا كانوا ينضوون تحت ألوية متصادة ويجدون أنفسهم فى جيوش متقائلة متعادية . وكان الشيال يشعر بأن قضيته قضية بروخير ، ولكن هذا المير والخير لم يكن فى رأى عدد عظم من الناس براً كاملا غير منقوص ولم يكن مكينا لا يمكن تحديد .

ولكن لنكولن لم تساوره خلجة شك . فإنه بتى صافى الذهن وهو فى محمرات هذا الارتباك . وكان الاتحاد مبدأه الذى يؤمن به ويناضل من أجله ؛ وكان سلام أمريكا العظيم عقيدته الراسخة . كان يعارض الرق ، ولكنه يرى أن الرق إنما هو مسألة خلاف ثانوى . وكان غرضه الأول هو ألا تتمزق الولايات المتحدة إلى قسمن متباينين متناحرين . ولذا فإنه ظل طوال سنوات الكفاح الأربع المديدة ، صامدا كأنما هو عقيدة راسخة لا تلين وعزيمة ثابتة لا تهن .

وعندما حدث في مراحل الحرب الأولى أن الكونجوس وقواد الاتحاد شرعوا

فى إصدار قرار بإعتاق الرقيق عليه طابع العجلة والتسرع ، اعترض لنكولن على ذلك وخفف من حدة حماسهم . فإنه كان يرى وجوب تحرير الرقيق على مراحل ومع التعويض . ولم يصل الموقف إلا فى يناير (١٨٦٥) إلى درجة النضج التى تسمح للكونجرس بأن يقترح إلغاء الرقيق إلغاء أبدياً بتعديل دستورى ؛ حتى لقد انتهت الحرب فعلا قبل أن تم تصديق الدولة على التعديل .

وبينها كانت الحرب تسير متثاقلة أثناء سنتى ١٨٦٧ ، ١٨٦٣ ، خبت الحدة الأولى والحاسات السابقة ، وتعلمت أمريكا علم كل أدوار سآمة الحرب والاشمئز از من الحرب . وحل التجنيد الإجبارى محل التطوع وبدل من روح القتال في كل من الحرب والشمال . وأصبحت الحرب كفاحا مديدا عبوساً يقتل فيه الأخ أخاه .

وشهد شهر يوليو ١٨٦٣ مدينة نيويورك تشغب على مشروع التدابير الحربية المقدم إلى الكونجرس ، وحاول الحزب الديموقراطى فى الشهال أن يفوز فى انتخابات الرياسة بحجة أن الحرب قد فشلت وأنها يجب أن توقف ، وكان معنى هذا بالبديه نصرا عليا للجنوب ، ونظمت المؤامرات لهزيمة المشروع بالكونجرس ، وألنى الرجل النحيف الطويل صاحب البيت الأبيض نفسه إزاء دعاة هزيمة وتردد ، وخونة وقواد معزولين ، ووجد من ورائه سياسين حزبيين لولوبيين ، وشعباً متشككا متعباً ، وشهد أمامه قوادا غير ملهمين وجنوداً منحطة الروح المعنوية . ولا بد أن أكبر سلوته كانت في شعوره بأن چيفرسون دافيز في ريتشموند لا يمكن أن يكون أحسن منه حالا .

وأساءت , الحكومة البريطانية السيلوك ، فسمحت لوكلاء الجنوب الكنفدرالى في انجلترة أن ينزلوا إلى البحر ثلاث سفن حربية خاصة سريعة ويمونوها بالرجال – كانت ألاباما أشهر ما يتذكره الناس مها – وطفقت تلك السفن تتعقب سفن الولايات المتحدة وتطاردها في البحار وكان الجيش الفرنسي في المكسيك يُمرغ مبدأ مونرو في الوحل . ثم جاءت من ريتشموند مقترحات خبيثة : أن تجاوزوا عن الحرب ، وأن دعوا الخلافات المؤدية إلى الحرب إلى مناقشات تالية ، وانقلبوا جميعاً من فدراليين وكتعدر اليين إلى التحالف على الفرنسيين في المكسيك .

ولكن لنكولن أبي أن يصغى إلى مثل هذه المقرحات ما لم يحافظ الكل على سلامة الاتحاد . فقد يستطيع الأمريكيون أن يفعلوا ذلك كشعب واحد لا كشعبين .

وقد شد لنكولن الولايات المتحدة بعضها إلى بعض خلال شهور طويلة مضية ، شهور من الهزائم والمجهود غير المثمر ، وخلال أدوار سوداء حالكة من الفرقة والشجاعة المتداعية . وليس هناك أى سجل يسجل أنه تردد يوماً فى القصد إلى أهدافه . ومرت به أزمان لا يستطاع فها عمل شيء ، وعندثذ كان يجلس فى البيت الأبيض صامتاً جامدا لا يتحرك ، وكأنما هو تمثال متجهم للعزم والإصرار ، وأزمان كان يُجيم فيها فهنه بالمزاح والنوادر غير اللائقة . كان عامر النفس بالفكاهة الساخرة ، لكنه كان شديد رقة الاحساس لآلام الآخرين . وعندما جاءه بعض أعداء جرانت ليخروه أن ذلك الحرال يشرب الحمر ، سأل من فوره عن ماركة الويسكى الذي يشرب - و خدمة للآخرين ، فأما هو فى حد ذاته فكان رجلا متقشفاً فى كل عاداته ، يتحمل كلا من الجهد الهائل فى العمل والصبر الهائل من المكاره .

وأخيراً أصبح من الجلى فى الشهور الأولى من عام ١٨٦٥ أن بوادر النصر أخذت تقبل عليه ، فنصب نفسه بكل قواه ليجعل التسليم سهلا ومعاملة المقهورين بداية للتراضى . فإن مذهبه وعقيدته كانت هى « الاتحاد » . وسرعان ما اشتبك فى نزاع مع المنطرفين من أعضاء حزبه هو ، الذين كانوا يرغبون فى صلح انتقامى .

وشهد و الاتحاد ، منصوراً مظفراً . ودخل ريتشموند في اليوم التالي لتسليمها وسمع بتسليم «لى» . ثم عاد إلى واشنطون ، وفي اليوم الحادى عشر من إبريل ألتي خطبته العامة الأخيرة . وكان محور فكرته فيها هو الصلح والتراضي ثم إعادة إنشاء الحكومات الموالية في الولايات المهزومة . وفي مساء ١٥ ابريل ذهب إلى مسرح فورد بواشنطون ، وبينها هو جالس ينظر إلى التمثيل أصيب برصاصة في مؤخر الرأس ، وقتل على الفود من يد ممثل اسمه و بوت ، كان يحمل في قلبه شيئاً من الضغن عليه ، وكان قد تسلل إلى المقصورة دون أن يشعر به أحه .

فلُن تعطل التئام الجراح ، ولأن أصيبت الولايات المتحدة بالمزيد من المتاعب

والمرارات فى السنوات التى أعقبت الحرب أكثر مما كانت الأمور تقتضيه ، فإن ذلك راجع إلى أن لنكولن قد مات. ولكن محله كان قد تم ، وكان الاتحاد أُنقذ ، وأُنقذ إلى أبد الآبدين . ولم تكن هناك عند بداية الحرب سكة حديدية تمتد إلى ساحل الياسفيكي (الهادى) . فأما الآن فقد انتشرت السكك الحديدية وتفرعت تفرع نبات سريع الناء حتى أمسكت كل أراضي الولايات المتحدة المترامية وربطها ونسجها فيا هو اليوم وحدة ذهنية ومادية لا يمكن أن تنفصم عراها .

ومنذ ذلك الزمان تواصل تماسك بنيان الولايات المتحدة تواصلا راسخا مستموا ه ولم يمض عليها نصف قرن حى كان سكانها قد تجاوزوا حد المئة مليون عدًا. وليس هناك أى دلالة تدل على أن النماء والتطور بلغا حتى الآن أوجهما . فهذه الديموقر اطية الجبارة التي لا ملك لها ، ولا سياسة خارجية تفصيلية محكمة ، إنما هي سونكرر هذا القول — شيء جديد في خيرة العالم . وهي ليست « دولة عظمي » بالمعني الذي تستعمل فيه تلك الكلمة في أوربا . وإنما هي شيء أكثر عصرية في طبيعته ، وأضخ حجماً ، وله مقد رات أعظم وأبلغ .

١١ -- الحرب الروسية التركية ومعاهدة برلين

ابتدأت في ١٨٧٥ ثورة جديدة ، لما سميناه في هذا الكتاب باسم الخريطة الطبيعية ، ضد الترتبات الديبلوماسية التي وضعتها معاهدة ڤيينا ، عندما دب دبيب الاضطراب والعصيان بين الأجناس المسيحية في البلقان وبخاصة البلغار . واتخذ الأتراك حيالهم تداير قع عنيفة ، ثم بلمأوا إلى إعمال التقتيل في البلغاريين على نطاق هائل .

وعند ذلك تدخلت الروسيا في (١٨٧٧) ، وأجبرت الأتراك بعد عام قضى في حرب باهظة النفقة على توقيع معاهدة سان استفانو ، التي كانت في مجملها معاهدة معقولة ، ثمزق الدولة التركية المصطنعة ، وتوسس الحريطة الطبيعية إلى حد كبير ، ولكن كان قد أصبح من تقاليد السياسة البريطانية أن تعترض و خطط الروسيا » لسبب لا يعلمه إلا الله وحده ! - كلما بدا أن الروسيا خطة . فتدخلت وزارة الخارجية البريطانية وكان رئيس الوزراء آنذاك هو اللورد بيكونزفيلد - مهددة بالحرب إن لم تسترجع تركيا إلى حد كبير ما كانت تحظى به من ليتزاز الأموال

والاضطهاد والتغيل ! ؟ ! . . . وانقضى زمن أوشكت فيه الحرب أن نقع بين الطرفين . وأخلت قاعات الموسيق الريطانية ، وهي المصابيح المضيئة المسياسة الريطانية ، توقد وتنار بنيران الوطنية ، حتى لقد بلغ الأمر أن الغلام الساعى فى لغدن كان يتغنى وهو يسير في جولاته ، مرددا في غنائه معانى كرامة شعب عظم . ولمنا نريد القتال ، ولكنى أقسم بجنجو⁽¹⁾ لأن قاتلنا ، فلدينا السفن ، ولدينا الرجال ، ولدينا الخضرة أيضاً » .

وهكله : حتى تصل الأمور إلى ذروتها في قوله ، ــ

و أن يأخذ الروس القسطنطينية ۽ .

وكانت نتيجة تلك المعارضة البريطانية ، أن اجتمع في ١٨٧٨ مؤتمر في بران لتنظيع المعاهدة سان إستفانو ، تنقيحا يتجه بصفة رئيسية إلى مصالح ملوك الركيا



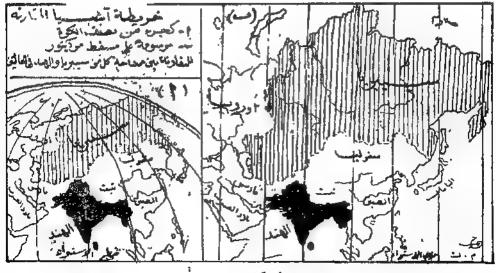
(دکل ۲۰۱)

⁽١) چنيبو هو قسم ساعر في هذه الأغنية الحربية ومن ثمّ أطلقت چنجو أيضاً عل أي وطني مهووس يدعو إلى الحرب... (المؤلف)

والنمسا . وحصل البريطانيون على جزيرة قبرص ، التى لم يكن لهم فيها أى حق مطلقاً ، والنمسا . وحصل البريطانيون على جزيرة قبرص ، التى لم يكن لهم فيها أى حق مطلقاً ، والتى لم تعد عليهم أبدا بأقل فائدة ؛ وعاد اللورد بيكونزفيلد مظفراً من موتمر برلين ، يحمل ما جعل البريطانيين فى ذلك الزمان يزعمون بأنه « السلام مع الشرف» . وكانت معاهدة برلين هذه هى العامل الرئيسي الثاني - (إذ كانت معاهدة فرانكفورت هي العامل الأول) - الذي أدى إلى الحرب العظمي حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ .

١٢ - التدافع الثاني على الإمبر اطوزيات وراء البحار

ألمعنا أن الثورة الميكانيكية لم تنتج أى تغير ات جد ثورية فى تاريخ أوربا السياسي سن سنتي ١٨٤٨ ، ١٨٧٨ . فإن و الدول الكبرى و التي أعقبت الثورة كانت فى الواقع ما تزال داخل حدود لا تزيد على اتساع رقعتها الأولى وما تزال محتفظة بكثير من الشكليات التي كانت عليها فى الأزمة السابقة على ألثورة . ولكن الذي حدث هو أن زيادة السرعة والثقة بوسائل النقل والمواصلات التلغرافية أحدثت تغير ات جسيمة فى الأحوال والمناهج ، وقامت وراء البحار مشروعات مالية وتجارية لمريطانيا وغيرها من الدول الأوربية الآخرى ، كما نشأت صلات شتى أبين آسيا وأفريقيا من جهة وأوربا من جهة أخرى .



(شکل ۲۰۲)

وكانت بهاية القرن الثامن عشر ق ف تمزيق للإسر اطوريات ورفع لغشاوة الحداع عن أبصار دعاة التوسع العدواتي . فإن الرحلة الطويلة الشاقة بين بريطانيا وأسبانيا وبين مستعمراتهما في أمريكا كانت تحول دون كثرة الذهاب والغدو بين أرض الوطن الأم وبين بناتها التوابع ، وبذا انفصلت المستعمرات وتحولت إلى مجتمعات جديدة مميزة ، ذات فكرات ومصالح مميزة بل محتلفة في أساليب كلامها . وكلما نمت المستعمرات زادت شدا ورهقا لتلك الرابطة الواهنة ضر المحققة رابطة السفن نمت المستعمرات زادت شدا ورهقا لتلك الرابطة الواهنة ضر المحققة وابطة السفن ما كان لفرنسا في كندا) ، أو المؤسسات التجارية في المجتمعات الأجنبية الكبيرة ، والأمة التي تمد لها يد العون وتقم لها سبب الوجود . ذلك على الأكثر دون أي شيء بالأمة التي تمد لها يد العون وتقم لها سبب الوجود . ذلك على الأكثر دون أي شيء عشر ، الحد الذي يحد الحكم وراء البحار

وفى ١٨٢٠ كانت المعالم غير البينة الالإمبر اطوريات الأوربية العظمى خارج أوربا ، التي طالما ظهرت على صورة ضخمة لافئة النظر فى خرائط منتصف القرن الثامن عشر ، قد تقلصت أبعادها تقلصا بالغا جداً . وكانت الإمبر اطورية الروسية هي وحدها التي تزحف كأوسع ما يكون الزحف عبر آسيا ، ولكنها كانت تزحف فى أخيلة كثيرين من الأوربين أكثر مما تزحف فى حقيقة الأمر ، بسبب ما جرت به عادتهم من دراسة جغرافية العالم على أساس مشروع مركاتور (١) الذي يبالغ مبالغة هائلة فى حجم سبريا .

وكانت الإمبراطورية البريطانية في ١٨١٥ تتكون من أقاليم النهر والبحيرات الساحلية القليلة السكان بكندا ، ومن أرض عظيمة داخلية مكونة من برية لم يكن فيها من المستقرات في ذلك الحين سوى محطات تجارة الفراء التابعة لشركة خليج هدسن ؛ وكانت قرابة ثلث شبه الحزيرة الهندية تحت حكم شركة الهند الشرقية ؛ وكانت تضم النواحي الساحلية عند رأس الرجاء الصالح ، التي يسكنها السود والمستوطنون

⁽۱) مشروع مركاتور : طريقة لرمم الخرائط تنسب إلى الجنراني ورسام الحرائط الفلمنكي چيرارديوس مركاتور (١٥١٢ -١٥٩٤) . (المترجم)

الهولنديون ذوو الطبع الثائر ، وبضع محطات تجارية على ساحل إفريقيا الفرية وصحرة جبل طارق وجزيرة مالطة وحايكا وممتلكات صغرى قليلة عمالها من العبيد فى جزائر الهند الغربية وغيانا البريطانية بأمريكا الجنوبية ، وأما فى الجهة الأخرى من العالم فلم يكن ثم غير محطى تفريغ للمجرمين عند خليج بوتائى باستراليا وفى تسيانيا .

وكانت أسبانيا محتفظة بكوبا ومستقرات قليلة فى جزائر الفلبين . وكانت للبرتغال فى أفريقيا بعض آثار تدل على مزاعمها القديمة . وكانت لهولندة جزائر وممتلكات عنلفة بجزائر الهند الشرقية وبغيانا الهولندية ، كما كان للدانموك جزيرة أو ما إليها من جزائر الهند الفربية . فأما فرنسا فكان لها جزيرة أو الثنان من جزائر الهند الغربية وغيانا الفرنسية . وكان هذا فيا يلوح هو القدر الذى تحتاج إليه الدول الأوربية أو القدر الذى يحتمل أن تحرزه من بقية العالم . ولم يكن أحد هذا شركة الهند الشرقية يظهر أى نزوع لتوسع .

وكانت إمراطورية ذات همة خاصة حجيبة تتكون في بلاد الهند كما أسلفنا ، لا يكونها الشعب البريطاني ولا الحكومة البريطانية ، بل تكونها تلك الشركة ، شركة المغامرين الحصوصيين بما لديهم من احتكار وموسوم ملكي . وقد اضطرت الشركة أن تصبح قوة حربية وسياسية أثناء سنى الانقسام الهندى وغدم الأمنة الذي أحقب تجزؤ الهند بعد وفاة أورا نغزيب في ١٧٠٧ . وكانت الشركة تعلمت أن تتجر في الولايات والشعوب أثناء القرن الثامن عشر . فأسس كلايف هذا النوع المجيب من الإمراطورية وتولى وارن هاستنجس تنظيمها ؛ وقهرت المنافسة الفرنسية كما سبق أن أخير ناك ؛ ولما وافت ١٧٩٨ عين اللورد مورنجتون حاكماً على الهند ؛ وهو الذي أصبح فيا بعد المركز ولزلى ، وهو الأخ الأكبر للمك الحفرال ولزلى الذي أصبح دوق ولنجتون ، فأقام سياسة الشركة بصورة نهائية على أساس إقامة حكمها هي في مكان إمراطورية المغولى العظم المغاربة .

وكانت حملة ناپليون على مصر هجمة مباشرة على إمبر اطورية هذه الشركة البريطانية . وبينها كانت أوربا مشغولة بالحروب الناپليونية ، راحت شركة الهند الشرقية تحت فئة متعاقبة من المديريين العامين ، تلعب في الهند نفس المدور اللي

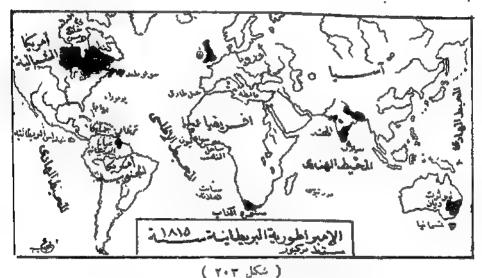
كان يلعبه من قبل التركمان ومن إليهم من الغزاة النازحين من الشهال ، ولكنها كانت تلعبه على مرتبة من الكفاية أعظم وفى عنف وقساوة أقل وأدنى كثيراً . واستمرت فى عملها بعد معاهدة قيينا تجمع إيراداتها ، وتشن الحروب وتبعث بالسفراء إلى الدول الأسبوية ، كانت دولة شبه مستقلة ، وهي مع ذلك دولة ذات ميل ملحوظ إلى إرسال الثروة نحو الغرب .

وقد سبق فى فصل مضى ، أن لحصنا لك سيرة تحطم إمبراطورية المغولى العظيم وظهور ولايات المهرانا والإمارات الرجبونية ، ومملكتى أوده والبنغال الإسلاميتين ونشوء طائفة السيخ . ولسنا بقادرين أن نخبرك هنا فى أى تفصيل ، كيف شقت الشركة البريطانية طريقها نحو السيادة ، تارة بوصفها حليفاً لتلك اللولة وتارة لتلك الأخرى ، وأخيراً بوصفها قاهرة للجميع . وامتد سلطانها إلى أسام والسند وأوده . وأخذت خريطة الهند تتخذ صورة المعالم المألوقة لدى التلاميذ الإنجليز اليوم ، وهى رقاع كثيرة من الولايات الوطنية تضمها وتربطها بعضها إلى بعض الولايات الكبيرة التي تحت الحكم البريطانى المباشر .

والآن ، وبينها كانت هذه الإمراطورية العجيبة التي لم يسبق لها مثيل في التاريخ ، إمراطورية الشركة تنمو في المدة بين ١٨٠٠ ، ١٨٥٨ ، كان الانقلاب الميكانيكي يلغي في غير ضجيج المسافة العظيمة التي كانت يوماً ما تفصل الهند عن بريطانيا ، وكان حكم الشركة في الأيام القديمة قليل التدخل في الحياة الداخلية للولابات الهندية ؛ وكل الذي فعلته أنها منحت الهند سادة أعلين أجانب ، ولكن الهند طالما تعودت حكم السادة الأعلين الأجانب ، ولطالما تمثلتهم حتى ذلك الحن ؛ فأما هؤلاء الإنجليز فكانوا ينزلون البلاد شباباً ويعيشون فها معظم حياتهم ، ويصبحون جزءاً من نظامها ، ولكن الانقلاب الميكانيكي كان قد أخذ في تغيير حالة الأمور هذه . فأصبح أيسر على الموظفين البريطانيين أن يجتلبوا زوجاتهم وعائلاتهم ، وكفوا عن أن يصطبغوا بالصبغة الهندية ؛ وظلوا بشكل أوضح أجانب وغربيين وزاد عددهم . ثم أيهم شرعوا يتدخلون في العادات الهندية تدخلا أقوى وأشد . ووصلت إلى البلاد أشياء سعرية فظيعة من أمثال التلغراف والسكك الحديدية . وأقبلت البعثات التبشرية تعمل

بصورة مكدرة للنفوس. فلئن لم يتيسر لهم تحويل عدد وافر من الرجال عن دينهم ، لقد أوجدوا على الأقل المتشككة بين أتباع الديانات الأقدم عهدآ. وشرع شبان المدن يصطغون بالصبغة الأوربية - ويا لرعب آبائهم العظيم!!...

ولطالما تحملت الهند من قبل تغييرات كثيرة أو حكاماً كثيرين . ولكن لم تتعرص أسائيبها قط لمنل هذا النوع من التغيير الذي كانت تؤذن به الأمور .



واستولى الجزع على كل من العلماء المسلمين والكهنة البراهمة على السواء ، وليم البريطانيون على تقدم الإنسانية . وأخذت المنازعات على المصالح الاقتصادية نزداد حدة مع ازباد قرب أوربا ، ولقيت الصناعة الهندية وبخاصة الصناعة القطنية العهيدة كل الشر من النشريعات التي كانت توضع لمؤازرة أصحاب المصانع البريطانيين .

وارنكبت السركة قطعة لا يصدقها عقل من الحاقة ، عجلت باندلاع انفجار شديد . فإن البقرة لدى البرهمي مقدسة ؛ والخنزير عند المسلمين نجس . وقد صرفت الشركة لجنودها الحنود بندقية جديدة تحتاج إلى خرطوشات مدهونة بالدهن ولا بد للرجال من قضمها قبل إطلاقها ؛ واكتشف الجنود أن الحراطيش مطلية يعدهن البقر والحنازير . وأدى هذا الاكتشاف إلى التعجيل بتمرد جيش الشركة

الهندى ، وهي الحركة المسهاة « الفتنة الهندية » (١٨٥٧) . فتمرد الجنود أولا في ميرو ت . ثم ثارت دلهي تبغي استعادة إمبراطورية المعولي العظيم .

وعلى حن بغتة اكتشف الجمهور البريطانى بلاد الهيد . فتنهوا إلى تلك الحامية الصغيرة من الرعايا البريطانيين ، المقيمين على تلك المسافة الشاسعة في تلك الأرض العجيبة ذات الغبار النارى والشمس المحرقة المهكة ، وهم يقاتلون في سبيل الحياة جاهير غفيرة سوداء تهاجمهم . فكيف بلغوا دلك المكان ؟ وأى حق لهم هناك ؟ لم يسأل الجمهور البريطاني هذين السؤالين . فإن العطف على بني الجلدة المعرضين للخطر يتغلب على مثل تلك الأسله. وكانت ثمة مذابع وقساوات. وكانت (١٨٥٧) سنة قلق عظيم في بريطانيا العظمي . واستطاع الزعماء البريطانيون ، وعلى الأخص لورنس ونيكولسون أن يقوموا بالعجب العجاب على يد فئات من الجنود قليلة لا تكاد تني بشيء . فإنهم لم يكونوا يظلون جامدين في أماكهم حتى يحاصرهم العدو على حين ينظم المتمردون صفوفهم ويقوون نفوذهم ، فلو أنهم فعلوا ذلك لأدى بهم إلى فقد الهند فقداناً أبدياً . وكانوا كثيراً ما يغيرون على عدو هائل ترجحهم كفته رجحاناً جارفاً . قال لورانس : « إن ورقة الإسباتي هنا هي الرابحة لا البستوني !! ... ورب فئة قليلة . . . »

ولزم جنود السيخ والجركا والبنجاب جانب البريطانيين . وظل الجنوب هادئاً . وإنا لنحيل القارئ على كتب تاريخية أخرى لتنبئه بمذابح كونيور ولكنو في أوده ، وكيف استطاعت قوة بريطانية صغيرة يتفوق عليها العدو في العدد تفوقاً عظيماً أن تحاصر دلهي وتأخذها عنوة . وما حل أبريل (١٨٥٩) حتى كانت آخر جمرات في ذلك اللهيب قد أطفئت وديست بالأقدام ، وأصبح البريط نبون سادة على الهند من جديد ، ولم تكن ثلك الفتنة بأى حال ثورة شعبية ، بل كانت مجرد تمرد في الجيش البنغالى ، يرجع في معظم شأنه إلى سوء تصرف موظني الشركة صغار الأحلام . وقصة تلك يرجع في معظم شأنه إلى سوء تصرف موظني الشركة صغار الأحلام . وقصة تلك الفتن مليئة بالأمثلة التي تشهد بما أحيط به اللاجئون البريطانيون من رعاية الهنود ورفقهم . غير أنها كانت تحذيراً ونذيراً .

وكانت النتيجة المباشرة للفتنة هي إلحاق الإمبراطورية الهندية بالتاج البريطاني .

وبم قتضى القانون المرسوم « قانور إصلاح مكوم الهند » ، أصبح الحاكم العام نائب ملك بمثل الملك ، و حل محل الشركة وزير الهند مسئول أمام البرلمان المبربطاني . واستكمالا لحذا العسل حمل اللورد بيكونز فيلد ، الملكة فكتوريا على أن ينادي بها إسراطورة الهند في ١٨٧٧ .

وعلى هذه الأسس الحارقة للعادة ترتبط الهند وبريطانيا في هذا الزمان. وما تزال الهند هي إمبراطورية المغولي العظيم بعد أن وسعت أطرافها ، غير أن المغولي العظيم حلت محله جمهورية بريطانيا العظمي المتوجة . وأصبحت الهند دولة استبدادية مطلقة من غير عاهل مطلق . ويجمع الحكم فيها بين أضرار الملكية المطلقة وبين اللاشخصية وعدم المسئولية اللذين ناسم بهما الإدارة الديمقراطية فإن الهندي الذي له ظلامة لم يكن أمامه ملك ظائر دلما أليه ، إذ أن إمبراطوره ليس إلا رمزاً ذهبياً . ولا بدله من أن يديع النشرات في البائرة أو يوسمي إلى من يقدم له في مجلس العموم سؤالا . وكاما زادت مشانة البراان بالشئون البريطانية ، نقص حظ الهند من التفاته ورعايته ، وزاد وقومها تحت رحمة فشها الصغيرة من كبار الموظفين .

وواضع أن دوام عنل هذا الحال كان من المحال . فإن الحياة الهندية أيا كانت عوامل التذبيق علما لم يكن بد من أن تتحرك أماماً مع بقبة العالم . وكانت للهند صحافة أخامة في النمي وعدد متزايد من المتعلمين المتأثرين بالأفكار الأوربية ، وإحساس متزايد بالألم الم ترك ضد حكومتها . ولم يقابل هذا الوضع الجديد أي تقدم في نرع الموطف الريطاني في الهند وأساليب إعداده وتعليمه أثناء ذلك القرن . أجل إن نقاليده أنان مالية ؛ وكثيراً ماكان رجلا ذا صفات غير عادية ، ولكن النقاام كان نقادا احتى علميم الحيال جامداً لا لين فيه . زد على ذلك ، أن القوة العسكرية التي كانت تفف من خلف هؤلاء الموظفين لم تتطور في خلقها ولا في العسكرية التي كانت تفف من خلف هؤلاء الموظفين لم تتطور في خلقها ولا في العسكرية الريطانية .

فالرجل المسكرى البريطاني عندما واجهته الهند الجديدة الأكثر تعلما ،

وعندما أدرك في قلق نقائصه التعليمية ودام يخثمي النزوُّ به ، ـــ أظهر مبلا منزايا أ إلى العنف التشنجي الذي كانت له بعض النتائج المستوجبة لشديد الأسي .

وقد نجلي في تعاليم المستر كبلنج الداعية إلى العنف والتي سبق أن أشرنا إليها ، نوع من الإستصواب لقلة المعرفة وانعدام القدرة وضبط النفس .

ولم يكن نمو الامراطورية البريطانية في اتجاهات أخرى عدا الهند سريماً إلى هذا الحد بأى حال أثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر وكانت فئة كبيرة من المفكر بن السياسيين في بريطانيا ميالة إلى اعتبار الممتلكات وراء البحار مصادراً لضعف المملكة . وتتطورت المستوطنات الأسترالية تطوراً بطيئاً ضعفاً إلى أن عادت النجا الأهمية بعد اكتشاف مناجم غنية للنحاس في ١٨٤٧ ومناجم اللهمب في ١٨٥١ اليها الأهمية بعد اكتشاف مناجم غنية للنحاس في ١٨٤٧ ومناجم اللهمب في ١٨٥١ السوق الأوربية كذلك كندا فإنها لم تتقدم تقدماً ملحوظاً حتى ١٨٤٩ اإذ كانت تعوق المعلمها الجلافان من سكانها الفرنسيين والبريطانيين ، وحدثت فيها ثورات خطيرة عديد أنشى عليدة ، ولم نتاما الاتحادي . وكانت السكك الحديدية هي صاحبة الفضل في عدير مستقبل كندا . فإنها مكنت كندا ، كما مكنت الولايات المتحدة من أن تمتد غيراً ، وأن تبتى بالرغم من نمامها الحديدية والسفينة البخارية والدخل التلغوافي والبحرى تنغيس في الواقع كل أحوال التطور الإستماري .

وكانت مستقرات إنجليزية قد ابتدأت قبل ١٨٤٠ فى نيوزيلندة ، فتأسست شركة لأراضى نيوزيلندة لإستغلال ما قد يكون فى الجزيرة من إمكانيات . وفى ١٨٤٠ أضيفت نيوزيلندة أيضاً إلى الممتلكات الاستعارية للتاج البريطاني ، وكانت كندا كما لاحظنا أول الممتلكات البريطانية استجابة كريمة خصيبة للمحتملات الإقتصادية الجديدة التي فتحت أبواجا وسائل النقل الجديد . وصرعان ما أخذت جمهوريات أمريكا الجنوبية وبخاصة الأرجنتين تشعر فى تجارة ماشيئها وفى زراعة البن

فيها بترايد قربها من السوق الأوربية . وكان رأس السلع التي تجدب دول أوربا حتى الآن إلى الأقاليم الهمجية (البربرية) غير المسكونة هي الذهب أو العادن الأخرى ، والتوابل والعاج أو العبدان . ولكن تزايد السكان في أوربا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر أخذ يجبر الحكومات على الرمى ببصرها في الخارج بمئاً عن مواد الطعام الأساسية ، كما أن نمو الصناعة القائمة على العلم كان يخلق الطلب على مواد خام جديدة ، أمثال الشحوم والدهون بجميع أنواعها ، والمطاط ، ومواد أخرى كان الناس يغفلون شأنها حتى آنذاك . وكان جلياً أن بريطانيا العظمي وهولاندة أخرى كان الناس يغفلون شأنها حتى آنذاك . وكان جلياً أن بريطانيا العظمي وهولاندة والبرتغال كن بحصدن ثمار مزية تجارية عظيمة متزايدة نامية من سيطرتهن الجسبمة الفسخمة على المنتجات المدارية ودون المداريه . وبعد ١٨٧١ شرعت ألمانيا ثم فرنسا وإيطاليا فيا بعد في البحث عن مناطق للمواد الحام ثم تلحق بأحد ، أو عن أقطار شرقية تستطيع أن تعود بالربح من وراء صبغها بالصبغة العصرية .

وبذلك ابتدأ تدافع جديد شمل الآرض قاطبة لامتلاك البلاد التي لم ترزق حابة سياسية واقية ، ولم ينج منه إلا البلاد الأمريكية حيث كان مبدأ مونرو يحول عند ذلك دون مثل هذه المغامرات . وكانت قارة إفريقيا تقع على مقربة من أوربا ، وهي مليئة بإمكانيات يشوبها الغموض . وكانت في ١٨٥٠ قارة خفايا سوداء ، ولم يكن معروفاً منها إلا مصر والمناطق الساحلية . ولابد أن تظهرك إحدى الحرائط على ضخامة الجهالة الأوربية في ذلك الزمان . ولابد لنا من كتاب يقارب في الطول هده ، المعالم ، حتى يني بحق التقدير الواجب للقصة المذهلة التي يقارب في الطول هده ، المعالم ، حتى يني بحق التقدير الواجب للقصة المذهلة التي تسرد ما أسداه المكتشفون والمغامرون من فضل على البشرية حين اخترقوا لأول مرة غبابة الظلماء هذه ، وتذكر كذلك الوكلاء السياسيين والمديرين والمتجربن والمستوطنين ورجال العلم الذين ترسموا خطاهم . وكشف القناع عن أجناس من والمستوطنين ورجال العلم الذين ترسموا خطاهم . وكشف القناع عن أجناس من المنال الأقرام ودواب غريبة كالأوكالي (okabi) (1) . وثمار وردار وحشرات مدهشة وأمراض وبيلة ومناظر للغابات والجبال تذهب بالألباب

الأوكابي أو الأقاب : حيوان من ذوات الأربع يشابه الزرافة يميش في أفريقيا الغربية .
 المترجم)

وبحار داخلية ضخمة وأنهار هاثلة ومساقط مائية عظيمة كشف الستر عنها حميعاً ــ وهى وحدها عالم جديد بأكمله . بل لقد كشفت فى زمبابوى آثار لحضارة بائدة غير معروفة ، وهى ثمرة جهود قام بها فى نصف الكرة الجنوبي شعب قديم .

وإلى هذا العالم الجديد هبط الأوربيون ، فوجدوا البنادق موجودة من قبل فى أيدى تجار الرقيق العرب ، ووجلوا حياة الزنوج فى اضطراب وخلل . وعند ١٩٠٥ كانت كل إفريقيا قد رسمت خريطتها وارتيدت أرضها وقدرت قيمها وقسمت بين الدول الأوربية ؛ أجل قسمت ، ولكن فى كثير من الزمجرة والشحناء إلى أجزاء تركت كل دولة قلقة أو متذمرة غير راضية ، ولكن التقسيم ظل على حاله تقريباً حتى ١٩١٤ . ولم يراع أحد إلا قليلا مصالح الأهالي الوطنيين أثناء هذا التدافع . نعم إن النخاس العربي قد أبيد أكثر مما طرد ، ولكن الجشع في طلب المطاط الذي كان منتجاً طبعياً يجمعه الوطنيون قهراً في الكنغو البلجيكية – وهو جشع بلغ حد التسخط بشح ملك البلجيك الذي لا رحمة فيه – والتصادم بين المديرين الأفربيين الأغمار غير المحنكين و بين السكان الوطنيين ، كانا أمرين أفضيا إلى فظائع شنيعة . وليست هناك دولة أوربية واحدة تستطيع أن تقول إن يدمها طاهرتان تماماً من هذه الجرائم .

ولسنا بقادرين أن نذكر لك هنا في أى تفصيل كيف استطاعت بريطانيا أن تستولى على مصر ' ١٨٨٣ (١) ، وظلت فيها بالرغم من أن مصر كانت من الناحية الرسمية (التكنيكية) جزءاً من الإمبر اطورية التركية – ولا كيف أوشك هذا التخاطف أن يؤدى إلى الحرب بين فرنسا وبين بريطانيا العظمى في ١٨٩٨ ، عندما حاول كولونيل فرنسي بعينه اسمه مارشان وهو يعبر إفريقيا الوسطى من الساحل الغربي أن يستولى عند فاشودة على النيل الأعلى . فأما في أوغندة فإن البعوث الكاثوليكية الفرنسية والأنجليكانية الانجليزية نشرت صورة للمسيحية مثقلة بأعباء الروح النابليونية ، وملحة في النياية على أدق أنواع الفروق في العقيدة ، إلى حد أن

⁽١) الصحيح هو ١٨٨٢ . (المترجم)



(شکل ۲۰۶)

مدينة مينجو عاصمة أوغندا بعد سنوات قلائل من ظهور أول بصيص للحضارة الأوربية فيها ، قد ملئت شوارعها بالقتلى من والبروتستانت و و الكاثوليك ، الذوربية فيها ، قد ملئت شوارعها بالقتلى من وبين المقاتلة غير الروحانيين في الذين يعسر عليك أعظم العسر أن تميز بينهم وبين المقاتلة غير الروحانيين في النظام القدم .

كذلك لا نستطيع أن نخبرك كيف ممحت الحكومة البريطانية في البداية للبوير أو المستقرين المولنديين بمنطقة نهر الأورانج وفي بلاد البرنسقال ، بأن يقيموا جمهوريتين مستقلتين بالمناطق الداخلية بجنوب إفريقيا ، ثم عادت فندمت على ذلك وضمت إليها جمهورية البرنسقال في ۱۸۷۷ ، ولا كيف قاتل بوير البرنسقال من أجل الحرية وفازوا بها بعد معركة تل ماچوبا ۱۸۸۱ . ولا كيف تسببت حلة صفية ملحة في جعل معركة تل ماچوبا تتقرح في ذا كرة الشعب الإنجليزي . ونشبت حرب

مع كل من الجمهوريتين في ١٨٩٩ ، وهي حرب ثلاث سنرات باهظة النفقة على الشعب البريطاني ، إنتهت آخر الأمر بتسلم الجمهوريتن كلتيهما لبريطانيا .



ولكن فترة إخضاعهما لم تطل. فقد حدث في ١٩٠٧ بعد سقوط الحكومة الاستعارية التي قهرتهما ، أن تناول الأحرار مسألة جنوب إفريقيا ، وأصبحت هانان الجمهوريتان السابقتان حرتين وصارتا برغبتهما تقريباً أختين (صنوين) لمستعمرة الرأس وناتال في اتحاد احتلافي (كنفلرالي) يضم كل ولايات جنوب إفريقيا بوصفها جميعاً جمهورية واحدة تحكم نفسها بنفسها تحت التاج البريطانى .

وانهى العمل في تجزئة إفريقيا واقتسامها في مدى ربع قرن . وظلت أقطار ثلاثة صغيرة نسبيًا غير ملحقة بأحد هي : ليبريا ، وهي مستقرة على الساحل الغربي للرقيق الزنوج المعتقن ؛ ومراكش ويحكمها سلطان مسلم ؛ والحبشة وهي قطر همجي ، به نوع من المسيحية قديم عجيب ، وقد نجحت في الاحتفاظ باستقلالها سلبماً من يد إيطاليا في معركة عدوة في ١٨٩٦ .

- السابقة الهندية في آسيا

من العسير أن يعتقد الإنسان أن أية جهرة عظيمة من الناس قد قبلت حقا هذا الصبغ المتعجل لخريطة إفريقيا بالألوان الأوربية ، باعتباره تسوية مستديمة جديدة لشتون العالم ، على أن من واجب المؤرخ أن يسجل أن التقسيم قبل على ذلك الوجه .

وكانت عاقبة هذا الجنون هي أن وزارات الحارجية الأوربية المختلفة نصبت نفسها لا لحجرد منافسة البريطانيين في التدافع إلى الأقاليم الهمجية غير المتطورة على سطح الكرة الأرضية ، بل نشطوا كذلك لتقطيع أقطار آسيا الممدنة الآهلة بالسكان ، كأنما لم تكن هذه الشعوب أيضاً لنزيد على مواد خام تنتظر الاستغلال الأوربي !!.. فإن استعار الطبقة البريطانية الحاكمة الهند ، ذلك الاستعار المقلقل في داخله الباذخ

فى ظاهره ، فضلا عن أملاك الهولنديين الواسعة المربحة فى جزائر الهند الشرقية ملأت قلوب الطبقات الحاكمة والتجارية فى الدول الأوربية المنافسة بأحلام عظمة مماثلة للسيادة فى بلاد أخرى مثل فارس ، والإمبر اطورية العثمانية المفككة ، وفيا بقى من الهند وفى الصن واليابان .

وفى أثناء السنوات الختامية للقرن التاسع عشر مد كما يستطيع القارئ أن يحقق ذلك بفحصه أدب (: مؤلفات) تلك الفترة المتداول مد كان الناس يفترضون أن من الطبيعي الذي لا مفر منه أن يقع العالم بأجعه تحت السيطرة الأوربية . وأعد الذهن الأوربي نفسه مد في شيء من روح الخير المتكرهة مد لتناول ما سماه المستر رديارد كبلنج واجب الرجل الأبيض ه وأعنى به السيادة على الأرض . وتصبت الدول نفسها لهذا المشروع وهي في حالة منافسة متدافعة بالمتاكب مع أن سكانها بأرض الوطن متعلمون نصف تعلم أو جهلة أميون ، وليس في جعبتها غير فئة قليلة من الرجال لا تزيد على الحثوة عداً أولا تتجاوز في أقصاها بضعة آلاف ، مشتغلين بالبحث العلمي ، بينا نظمها السياسية الداخلية في حالة توتر أو تغير تشنجي ، ونظامها الاقتصادي ضعيف متداع ، كما أنه وقي طارئ غير مستقر إلى أقصى حد ، وبينها دياناتها قد بلغت من التصدع والانحلال كل مبلغ . كانوا يعتقدون اعتقاداً حقيقياً أن في الإمكان من التصدع والانحلال كل مبلغ . كانوا يعتقدون اعتقاداً حقيقياً أن في الإمكان أخضاع سكان آسيا الشرقية الهائلي العدد إخضاعاً مستديماً لمثل أوربا هذه ...!...

ولا يزال يوجد فى العالم حتى هذه الأيام رجال كثيرون يفوتهم أن يدركوا الحقائق الضرورية فى هذا الموقف . فإنهم لا يدركون أن معدل الذكاء فى آسيا لا يقل فى نوعه ذرة واحدة عن معدل ذكاء العقل الأوربي . وأن التاريخ يظهر الآسيويين وهم من الجرأة والقوة والكرم والتضحية بالذات والاقتدار على العمل الحشدى القوى كالأوربيين سواء بواء ؛ وأنه يوجد فى هذا العالم — وسيظل يوجد — من الأسيويين عدد عظيم يفوق كثيراً عدد الأوربيين.

وقديماً كان من العسير على الدوام الحيلولة دون تسرب العرفان من شعب إلى آخر ، فأما اليوم فذلك من أعظم المحال . فالمطروف العصرية الراهنة تجعل المساواة الشاملة بين أجزاء العالم عامة في الشئون الاقتصادية والتعليمية أمراً لا مندوحة منه على

ممر الزمان . وإن هناك لدعوة فكرية وخلقية لاستنهاض الآسيويين في هذا الزمان . فإن ما أفسدته فترة الانحراف اليسيرة التي امتدت قرنا أو ما يقارب القرن ، تصلحه عشرات قليلة من السنن . إذ يوجد في العصر الحاضر مثلا ، مقابل كل إنجليزي يعرف الصينية معرفة تامة ، أو له أي إلمام وثيق بالحياة الصينية والفكر الصيني ، مئات من الصينيين يعلمون كل شيء يعلمه الإنجليز .

وربما كان رجحان ميزان العرفان فى تاحية الهند أكبر من هذا كثيراً. فالهند تبعث الطلاب إلى بريطانيا ؛ على حين ترسل بريطانيا إلى الهند الموظفين ــ وهم فى معظم الحالات رجال غير مدربين على الملاحظة العلمية . وليس هناك منظمة أباً كانت لإرسال الطلاب الأوربيين بوصفهم طلاباً ــ للتعمق فى تاريخ الهند ودراسة آثارها وثقافتها القديمة وشئونها الجارية وللقيام فيها بالأبحاث ؛ ولإيجاد وسيلة يتصل بها العلاء الهنود بالطلاب البريطانيين فى بريطانيا .

ومنذ (۱۸۹۸) وهي سنة استيلاء ألمانيا على كياوتشاو واستيلاء بربطانيا على واى هاى واى وتأجير بورت آرئر الروسيا - تحركت الأحداث في الصين أسرع هما تحركت في أى قطر آخر فيا عدا اليابان . فإن كرها عظيماً للأوربين قد سرى في الصين سريان النار ، ونحت جمعية سياسية ترمى إلى طرد الأوربين ، هي جمعية المبوكسر (۱) ، التي تحولت إلى العنف في ۱۹۰۰ . وكان هذا اندلاعاً للهيب الغضب والشر على صورة قديمة الطراز تماماً . فني سنة ۱۹۰۰ قتل البوكسر ۲۰۰ أوربياً كما قتلوا فيا يقال ما يقارب ۲۰۰۰ مسيحي . وكانت الصين ، ولم يكن ذلك لأول مرة في التاريخ ، تحت نفوذ إميراطورة أرملة . وكانت امرأة جاهلة ، ولكنها كانت على درجة عظيمة من قوة الحلق كما كانت تعطف على البوكسر عطفاً وثيق العرى . فناصرتهم وحمت من تسببوا في الاعتداء على الأوربين . وكان كل ذلك هو ما عسى أن يحدث إزاء الهون في ۲۰۰ ق . م أو ما يقاربها .

ووصلت الأمور إلى أزمة في ١٩٠٠ . فإن البوكسر تزايد خطرهم وتهديدهم

⁽١) عن البوكسر وجميع شئون آسيا والصين انظر للمترجم : «آسيا والسيطرة الغربية » تأليف السردار پانيكار طبع دار المعارف لوزارة الثقافة والإرشاد . (المترجم)

للأوربيين في الصين . واتخذت محاولات ترمى إلى إرسال حراس إضافيين إلى السفارات الأوربية في بيكين ، ولكن لم تكن لذلك من نتيجة إلا التعجيل بتفاقم الامور . فإن الوزير الألماني (۱) قد قتله بالرصاص في شوارع بيكين جندى من الحرس الإمبراطوري . واجتمع بقية الممثلين الدبلوماسيين الأوربيين ، وجعلوا من السفارات التي كانت ذات موقع أنسب وأحسن من غيرها - حصناً وقاوموا حصاراً دام شهرين . ومن ثم سيرت على بيكين قوة متحدة متحالفة بقيادة چنرال ألمانى ، وخلصت السفارات مما كانت فيه ، وفرت الإمبراطورة إلى سيان فو ، وهي عاصمة تاى تسونج القديمة في شانسي . وارتكب بعض الجنود الأوربيين فظافع عاصمة تاى تسونج القديمة في شانسي . وارتكب بعض الجنود الأوربيين فظافع خطرة في السكان المدنيين الصينيين وهذا برجعنا إلى قرابة مستوى ١٨٥٠ ، على وجه التقريب .

ثم قامت الروسيا عقب ذلك بضم منشوريا إليها ... ثم نشب نزاع بين الدول . ثم غزو بريطانى فى ١٩٠٤ لبلاد النبت ، وكانت حتى ذلك الحين قطراً محرماً . ولكن الشيء الذي لم يظهر على سطح هذه الأحداث ، والذي جعل كل هذه الأحداث مختلفة اختلافاً جوهرياً ، إنما هو أن الصين كانت تحتوى آنذاك على عدد ضمخم من الناس المقتدرين الذين تعلموا تعليماً أوربياً وألموا بالعرفان الأوربي .

وهدأت فتنة البوكسر ، ثم أخذ سلطان هذا العامل الجديد يظهر في الحديث عن إنشاء دستور ١٩٠٦ ، وفي منع تدخين الأفيون ، وفي الاصلاحات التعليمية ، وظهر إلى عالم الوجود في ١٩٠٩ دستور على الطراز الياباني ، يجعل الحكم في الصين ملكياً مقيداً . ولكن الشعب يأبي أن تُصب الصين في قالب ياباني ، ومن ثم فقد استمرت الحركة الثورية . وكانت اليابان قد عمدت أثناء معاودتها تنظيم شئونها تمشياً منها مع مزاجها الخاص ، إلى تحويل وجهها إلى الغرب ذي النظام الملكي ، ولكن الصين كانت تنظر عبر المحيط الهادي . وفي ١٩١١ انتدأت الثورة الصينية الجوهرية . وفي ١٩١١ تنازل الإمبراطور عن العرش وأصبح أكبر مجتمع في العالم جمهورية . وكان خلع الإمبراطور هو في الوقت ذاته خلع أسرة مانشو ، ولم تعد

⁽٢) والوزير الألماني هو البارون فون كتلر وقتل معه أيضاً مستشار السفارة اليابائية . (المترحم)

الضفيرة المغولية التي كان يرسلها الصينيون منذ ١٦٤٤ شيئًا إلزاميًا على الناس .

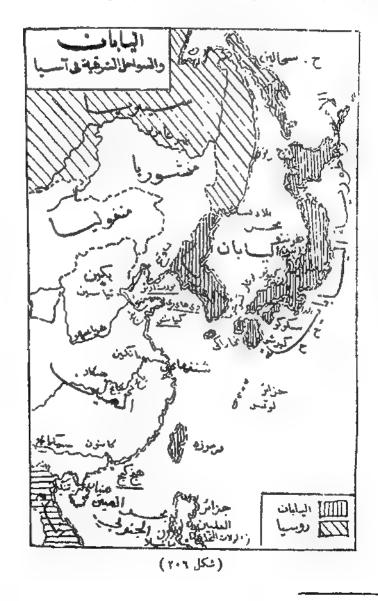
ومن الراجع أنه فى هذا الزمن الراهن يوجد ببلاد الصين من المادة الذهنية المتعقلة الجيدة ومن الرجال المخلصين الذين يشتغلون فى صبغ الحضارة الصينية بالصبغة العصرية وإعادة تنظيم تلك الحضارة عدد أكبر مما قد نراه موجها لمصلحة أى شعب أوربى بمفرده . وسوف يكون للصين للفور كتابة عصرية عملية وصحافة وجامعات عصرية جديدة عفية ، ونظام صناعى قد أعيد تنظيمه ، ثم هيئة نامية من البحائين فى العلم والاقتصاد ، وسوف يطلق سراح ما ركب فى شعبها الهائل من الاجتهاد الطبيعى والمهارة الفطرية حتى يتعاون على قدم المساواة مع العالم الفربى .

نعم ما يزال أمامها بعد صعاب داخلية عظيمة ؛ وهو أمر لا يستطيع إنسان أن يقضى فيه برأى . ولا مندوحة من مرورها فى دور حرب أهلية وفتنة . ومع هذا فقد لا يكون بعيداً ذلك الزمان الذى تصبح فيه « الولايات الصينية المتحدة » يداً واحدة مع الولايات المتحدة الأمريكية ومع أوربا المتسالمة المتصالحة ، وتكون معواناً فى إقامة صرح السلام المنظم فى العالم .

١٤ -- تاريخ اليابان

غير أن القطر السباق الى الانتعاش بين الشعوب الأسيوية لم يكن مع ذلك هو العبين بل اليابان . وقد تعجلنا مسير قصتنا حين تحدثنا عن الصين . ولم تلعب اليابان حيى الآن إلا دوراً صغيراً في هذا التاريخ ؛ فإن حضارتها المنعزلة لم يتهيأ لها أن نقرم بنصيب كبير في الصوغ العام لمصائر البشرية ؛ وقد تلقت من الدنيا الشيء الكثير ، ولكنها لم تعطها إلا قليلا . ولعل السكان الأصليين في الجزائر اليابانية كانوا شعباً شهالياً له وشائح نوردية بعيدة ، وهم الأينو (Aimu) المشعرون . ولكن اليابانين الأقحاح إنما ينتسبون إلى العنصر المغولي . وإنهم ليشهون من الناحية الجمانية الأمرندين الأقحاح إنما ينتسبون إلى العنصر المغولي . وإنهم ليشهون من الناحية الجمانية الأمرندين المنود الأمريكين) ، وهناك أوجه شبه غريبة بين خزف اليابان قبل التاريخي وكثير غيره من الأشياء وبين ما يماثلها من المنتجات المصنوعة في

يبرو. وليس من المستبعد أنهم يمثلون انسبابا إلى الحلف متراجعاً عن تبار ثقافة العصر الحجرى الحديث (النبوليني) في مسيرها عبر المحبط الهادى ، ولعلهم امتصوا كذلك من الجنوب عنصراً من الملابو أو حتى عنصراً من النجريتو(١).



 ⁽١) النجريتو : أو النجريلو : ثعب متأخر من الأقزام يمكن شبه جزيرة الملايو وجزائر الفيلبين .
 (المترج)

ومهما يكن أصل اليابانين ، فليس ثمة شك في أن مدنيهم ، وأن كتابهم وأن ثقاليدهم الأدبية والفنية مشتقة من الصينية . كانوا أخذوا ينفضون عهم غبار الهمجية في قرني الحقية المسيحية الثاني والثالث ، وكان من أقدم أعمالهم — بوصفهم شعباً بخارج يلادهم ، غزوهم لبلاد كوريا تحت حكم ملكة متطرفة التعصب في وطنيها ، يلوح أنها لعبت دوراً كبراً في تأميس حضارتهم . وتاريخهم تاريخ شائق رومانسي ؛ فإنهم طوروا نظاماً إقطاعياً وتقاليد للفروسية ، وما هجماتهم على كوريا والصين إلا معادل شرقي لحروب الإنجليز في فرنسا .

وقد حُملت اليابان لأول مرة على الاتصال بأوريا فى القرن السادس عشر . إذ حدث فى ١٥٤٢ أن بعض البر تغالبين وصلوا إلى برها فى سفينة صينية ، وفى ١٥٤٩ شرع مبشر يسوعى اسمه فرانسيسس زافيير يقوم بالتبشير هناك . وتقول بيانات اليسوعيين فى ذلك الزمان أن بلادهم بلاد خربتها الحروب الإقطاعية المستديمة تخريباً كبيرا . وظلت اليابان ردحا من الزمان ترحب بالعلاقات مع أوربا ، واستطاعت الإرساليات المسيحية أن تدخل فى الدين المسيحى عدداً كبيراً من الناس . وأصبح شخص بعينة اسمه وليم آدمز من جلنجهام فى كنث ، أوثق مستشار أوربى تطمئن لمه نفس اليابانين ، وهو الذى علمهم كيف يبنون السفن الكبيرة . وقام اليابانيون بسفن مبنية فى اليابان برحلات إلى الهند وبيرو .

ثم نشأ شقاق معقد بين الدومينيكين الأسبان واليسوعين البرتغالين . وبين المروتستانت الإنجليز والهولندين ، وكان كل يحدر اليابانين من خطط الآخرين السياسية الحبيثة . وابتسم الحظ يوماً لليسوعين وأتاح لهم دوراً من أدوار النسلط والفوز على منافسيم فعمدوا إلى اضطهاد البوذيين وإهانهم في شيء كثر من الشراسة . واشتبكت هذه الفتن مع منازعات الزمان الإقطاعية . وانهى اليابانيون إلى الحكم بأن الأوربيين ومسيحيهم آفة لا تطاق ، وأن المسيحية الكاثوليكية بوجه خاص ليست إلا مجرد ستار يخيى وراءه أحلام البابا السياسية وأحلام ملك أسباليا السياسية وأحلام ملك أسباليا السياسية — الذي كان يملك من قبل جزائر الفليين ، وحدث اضطهاد حاسم عظم المسيحيين ؛ وفي ١٩٣٨ أصبحت اليابان مقفلة إقفالا تاماً في وجوه الأوربين المسيحيين ؛ وفي ١٩٣٨ أصبحت اليابان مقفلة إقفالا تاماً في وجوه الأوربين

باستثناء مصنع هولاندى تعس على جزيرة ديشيا الضئيلة فى ميناء نجازاكى ، وظلت مقفلة زماناً يربى على مثنى سنة .

وتعرض الهولنديون القاطنون ديشيا لإهانات لا تكاد تطاق ولم يكونوا يتصلون بأى يابانى اللهم إلا الموظفين المختصن المعينين للتعامل معهم . وظل اليابانيون قرنين من الزمان منقطعين تمام الانقطاع عن بقية العالم كأنما كانوا يعيشون على ظهر كوكب آخر . وكان محظوراً عليهم أن يبتنوا فلكا يكبر عن محض زورق ساحلى . ولم يكن في مستطاع أى ياباني أن يسافر إلى الحارج ، ولا أى أوربي أن يدخل البلاد .

وظلت اليابان قرنين وهي بمنآة عن تبار التاريخ ومجراه الأكبر. وقد واصلت الميش في حال من الإقطاع الجذاب تنعشها المنازعات الدموية. وكان فيها جماعة من السكان يقاربون الحمسة في المئة هم الساموراي (أعني رجال الحرب) والنبلاء وعائلاتهم ، يظلمون سائر السكان ظلما فاحثاً لاحد له . وكان العامة جميعاً بمغون كلما مربهم أحد من النبلاء ؛ فإن إبداء الرجل أيسر قدر من عدم الاحترام النبيل معناه أن يضربه وساموراي وأي جنود ذلك النبيل بالسياط إلى أن يقضي نجه . وكانت الطبقات الممتازة تعيش عيش المغامرات الرومانسية التي لا يتسرب إلها أي شماع من الجلة ينقذها مما هي فه من إملال ؛ كانو يعشقون ويتقاتلون ويتمسكون بضروب من فعال الشرف الممتازة - ولعل ذلك كان يدخل أشد السامة إلى أذهان الأذكياء منهم . ومن اليسر علينا أن نتصور تعاسة الذهن الطناعة ، حمن بعذبه الشوق إلى الرحلة والمعرفة وهو مصفد بالأغلال في تلك جزائر حمن بغذبه الشوق إلى الرحلة والمعرفة وهو مصفد بالأغلال في تلك جزائر

وفى نفس الحين كان العالم الكبير فى الخارج يسير قُدُمُا نحو رُوى أرحب وقوى أحدث . وتكاثر عدد السفن العجبية التى تمر برؤوس الأراضى البابانية الممتدة فى البحر ، وكانت بعض السفن تتحطم فى بعض الأحايين ويحمل ملاحوها إلى الشاطئ . وعن طريق ديشيا الحلقة الوحيدة التى تصلهم بالعالم الخارجي ، جاءتهم الندر تقول إن اليابان لا تساير قوة العالم الغربي . وفى ١٨٣٧ دخلت خليج يدو سفينة رافعة علماً غريباً من الحطوط والنجوم ، تحمل بعض يحارة يابانين التقطهم

وقد قلف بهم التيار بعيداً في المحيط الهادى . وأطلق الساحل على السفينة قذيفة مدفع طردتها خارج الميناء .

وسرعان ما عادت هذه الرابة إلى الظهور على سوارى سفن أخرى . جاءت إحداها في ١٨٤٩ للمطالبة بإخلاء سبيل ثمانية عشر ملاحاً أمريكياً تحطمت بهم سفينهم . ثم وصلت في ١٨٥٣ أربع سفن أمريكية بقيادة القومودور برى perry ، ورفضت أن تنسحب وألتى القومودور مراسيه في مياه محظورة ، وأرسل الرسائل إلى الحاكمن اللذبن كانا آنذاك يشتركان في حكم البابان . وفي ١٨٥٤ عاد ومعه عشر سفن مدهشة يدفعها البخار ، وهي مزودة بالمدافع الضخام ، فقدم مقترحات يطلب بها التجارة والتبادل والتواصل ، ولم يكن للبابانيين قبل بمقاومتها . ونزل إلى البر يحف به حرس مكون من خسمة رجل لكي يوقع المعاهدة . واصطفت المجاهر وهي بين مصدق ومكذب ووقفت ترقب هذه البعثة الواقدة من العالم الحارجي وهي تشق الشوارع .

ثم قفت الروسيا وهولندة وبريطانيا خطوات أمريكا . ودخل الأجانب إلى الله البابان وتبع ذلك وقوع المنازعات بينهم وبين الأذكياء من سراة اليابان . فقتل أحد الرعايا البريطانيين في إحدى مشاجرات الشوارع ، وأطلق البريطانيون مدافعهم على إحدى المدن اليابانية في ١٨٦٣ . ورأى أحد كبار النبلاء الذى تستشرف أملاكه مضيق شيمونوسيكي ، أن من المناسب أن يطلق النار على السفن الأجنبية ، فكان عاقبة ذلك أن قام أسطول ثان مكون من سفن بريطانية وفرنسية وهولندية وأمريكية بقذف بطارياته بالقنابل وتدميرها وتشتيت شمل سائفته . وأخيراً جاءت عمارة بحرية متحالفة (١٨٦٥) فألقت مراسيا خارج أوساكا ، وفرضت على اليابان التصديق على المعاهدات التي فتحت أبوابها للمالم .

وكان تحقير هذه الأحداث وإذلالها لليابانين شديداً حاراً ، ويظهر أن خلاص الشعوب ينحصر إلى حد كبير في هذه الإهانات . فقام اليابانيون قومة نجلي فيها العجب العجاب من النشاط والذكاء ونصبوا أنفسهم لرفع ثقافتهم ونظامهم إلى مستوى الدول الأوربية . ولم يحدث قط في التاريخ الإنساني بأجمعه أن خطا شعب

خطوة كالتى خطاها الشعب اليابانى يوم ذائة . ذلك أنها كانت فى ١٨٦٦ شعباً ينتمى إلى القرون الوسطى ، وكانت صورة هزلية مضحكة النظام الإقطاعى الرومانسى المنطرف . وفى ١٨٩٩ كان شعبها قد أمسى شعباً تام الاصطباغ بالصبغة الغربية ، على فدم المساواة مع أشد الدول الأوربية تقدما ، بينها كانت تسبق الروسيا بمراحل كثيرة . فأزالت من الأذهان نماما ذلك الاعتقاد القائل بأن آسيا متأخرة عن أوربا بطريقة قاطعة ، تأخراً لارجاء فى إصلاحه . كما أن جهودها الجبارة جعلت التقدم الأوربي يبدو ـ بالمقايسة ـ متوانيا عارضاً .

ويضيق المقام هنا عن الاسهاب في ذكر وقائع حرب اليابان مع الصين في ١٨٩٤ ــ ١٨٩٥ . وبحسبك أن تعلم أنها كشفت عن مدى إصطباغها بالصبغة الغربية . فكان لها جيش غربي ذو كفاية وتدريب وأسطول سليم التكوين وإن يكن صغيراً . ولكن أهمية نهضها ، وإن كانت تقدرها بريطانيا والولايات المتحدة حق قدرها ، وهما الدولتان اللتان كانتا تعاملانها بالفعل كأنما هي دولة أوربية ، لم تفهمها الدول الكبرى الأخرى المشتغلة بالبحث عن و هند » عظيمة أخرى في قارة آسيا . فكانت الروسيا تشق طريقها دفعا خلال منشوريا إلى كوريا ، وكانت فرنسا قد وطدت بالفعل أقدامها في الجنوب الأقضى في تونكن وأنام ، وكانت ألمانيا تتربص تربص الجياع بحثا عن مستقر تركن إليه . واتحدت الدول الثلاث لمنع اليابان من اجتناء أية تمرة من الحرب الصينة ، ولمنعها بوجه خاص من توطيد أقدامها على أرض القارة والمناطق المطلة على بحر اليابان . وكانت الحرب مع الصين استنفدت قواها ، فهددوها بإعلان الحرب عليها

ونى ١٨٩٨ أطبقت ألمانيا على الصين ، متخذة من مقتل اثنين من المبشرين ذريعة ، وضمت إليها جزءاً من مقاطعة شان تونيج . وعند ذلك استولت الروسيا على شبه جزيرة لياوتونيج ، وانتزعت من الصين قسراً قبولها مد خط سكة حديد سيريا إلى بورت آرثر ؛ وفي ١٩٠٠ احتلت منشوريا . ولم تستطع بريطانيا أن تقاوم الذوع إلى المحاكاة ، فاستولت على ميناء واى هاى وأى ١٨٩٨ . وإن نظرة واحدة إلى الحريطة لتدلك كم كانت هذه الحركات مجلبة الفزع في قلب كل يابانى ذكى الفواد . ولم تلبث تلك الحركات حتى أدت إلى حرب مع الروسيا تأذنت بحقبة جديدة فى تاريخ آسيا ، هى حقبة انتهاء فترة العجرفة الأوربية . ومن البديه أن الشعب الروسي لم يكن له علم ولا جريرة فى هذه التدابير التى كانت تُصنع له فى تلك الشقة السحيقة من العالم ، وكان رجال السياسية الروسيون الأكثر حكمة واتزانا يناهضون هذه الضربات الحمقاء ، ولكن هصابة من المنامرين الماليين كانت تحيط بالقيصر ؛ من بينهم بعض الغرائدوقات من أبناء عمومته . وقد غرقوا حتى الأذقان فى مقامرتهم التى يرمون بها إلى نهب مشوريا والعين ، ومن ثم لم يسمحوا لأنفسهم بأن يتراجعوا عن خطتهم أدنى تراجع . ومن ثم شرعت اليابان فى إرسال الجيوش الجرارة من الجنود اليابانية عبر البحر إلى بورت آرثر وكوريا ، ونهضت الروسيا لإرسال عدد لاحصر له ولا نهاية من أحال بورت آرثر وكوريا ، ونهضت الروسيا لإرسال عدد لاحصر له ولا نهاية من أحال في ميادين القتال النائية هذه .

وهزم الروسيون في البر والبحر على السواء لماكانوا عليه من سوء القيادة وعدم الأمانة في القوين بالمبرة والمنحرة . ودار أسطول الروسيا بالبلطيق حول إفريقيا لكي يُسحطم عن آخره في مضيق تسوشيا . وقامت حركة ثورية بين العامة من سكان الروسيا الله في أحنقهم هذة المدابح الجسيمة التي لا مبرر لها ، فأجبرت القيصر أن ينهي الحرب في (١٩٠٥) ؛ فرد النصف الجنوبي من جزيرة سخالين التي استولت عليها الروسيا في ١٨٧٥ ؛ وأخلى منشوريا و تنازل عن كوريا لليابان . فالرجل الأبيض قد شرع بذلك ينفض عن نفسه عبأه وتبعته في آسيا الشرقية . وظلت ألمانيا مع هذا عملك كياوتشاو امتلاكا قلقاً غير مطمئن .

١٥ – ختام فترة التوسع وراء البحار

لاحظنا آنفاً كيف أن مغامرة إيطاليا في الحبشة صُدت في معركة عدوة الرهيبة في ١٨٩٦ ، التي قتل فيها ما يربي على ثلاثة آلاف إيطالي وأخذ فيها أكثر من أربعة

آلاف أسير. وكان دور التوسع الاستعارى على حساب الدول المنظمة غير الأوربية قد أخذ يدنو من خاتمته دنوا بيناً. وهو دور ورط الشئون السياسية والاحماعية لكل من بريطانيا العظمى وفرنسا وأسبانيا وإيطاليا وألمانيا والروسيا التي تحمل ما يكفيها من التعقيد والعسر، وشبكها بشئون أمم غرببة متكرهة غير قابلة للتمثيل، فاستولت بريطانيا على مصر (وإن لم تلحقها بها حتى ذلك الحين رسمياً)، والهند وبورما وعدداً من تلك المشاكل الصغرى أضراب مالطة وشنغهاى ؛ وأبهظت فرنسا نفسها بتونكين وأنام بالإضافة إلى الجزائر وتونس ؛ واشتبكت أسبانيا حديثاً في بلاد مراكش ؛ وخلقت إيطاليا لنفسها المناعب بطرابلس ؛ وكان الاستعار (الإمبريالية) الألماني ورأء البحار وإن بد مركزه ، تحت الشمس ، هزيلا — يعلل النفس بقدر جهده بفكرة القيام في المستقبل بحرب مع اليابان على تياوتشاو .

وكانت كل هذه الأراضى « المحكومة » تضم سكاناً على مستوى من الذكاء والتعليم لا يقل إلا قليلا جداً عن مستوى القطر المتملك ، وكان تطور الصحافة الوطنية والوعى الذاتى والحشدى والمطالبة بالحكم الذاتى ، أمراً لا محيص منه فى كل حالة من هذه الحالات ، وكان رجال السياسة والتدبير فى أوربا فى شغل شاغل بالحصول على هذه الإمبر اطوريات ، حتى لم تكن لديهم فكرة صحيحة عما ينتوون أن يفعلوه بها عند حصولم عليها .

إن الديمقراطيات الغربية اكتشفت أثناء استيقاظها إلى ضياء الحرية أنها دول و استعارية ، ، فأربكها ذلك الاكتشاف كل الارتباك . وكان الشرق يفد إلى عواصم الغرب حاملا طلبات محرة . فني لندن أخذ الرجل الانجليزى العادى وهو أشد ما يكون شغلا بالاضطرابات والألفاز الاقتصادية ومسائل التأميم الحكم الحلي والتأميات المحلية وإقامة اللا مركزية ، يجد من يقطع عليه الطريق ومن يغشى إجهاعاته العامة من عدد جم متزايد الكثرة من رجال ظاهرى الدماثة مهذبين ، رجال سمر يرتدون الطرابيش والعائم وأنواعاً أخرى عجيبة من لباس الرأس ، وكلهم يقول ما معناه الواقعى ه لقد استحوذتم علينا . والرجال الذين يمثلون حكومتكم قد حطموا حكومتنا ، وهم يحولون بيننا وبين إنشاء حكومة جديدة . فاذا أنتم فاعلون بنا ؟ . . . »

١٦ ــ الإمىراطورية البريطانية في ١٩١٤

ربما جازلنا الآن أن نلحظ في إيجاز تام الطبيعة الشديدة الاختلاف للاجزاء التي كانت تنكون منها الإمبراطورية البريطانية في ١٩١٤ . فإنها كانت وما تزال خليطاً سياسياً فريداً في نوعه تماماً . إذ لم يظهر على وجه البسيطة قط شيء من قبيلها . فهي شيء جديد في التاريخ السياسي ، كما أن الولايات المتحدة شيء جديد فيه أيضاً . وهي شيء أكبر وأشد تعقيداً من أي دولة من تلك الدول القومية المذهب أضراب فرنسا وهولندة والسويد .

وكانت الدولة الأولى والمركزية فى تلك المجموعة بأسرها هى « الجمهورية المتوجة » أى المملكة المتحدة البريطانية ، المحتوية على إرلندة (على غير إرادة فريق جسيم من الشعب الإرلندى) . وكانت الأغلبية فى البرلمان البريطانى ، وقوامه البرلمانات الثلاثة المتحدة لابجلترة واسكتلندة وإرلىدة ، هى التي تحدد رياسة الوزارة وصفتها وسياسها ، ويكون ذلك التحديد إلى حد كبر ، بناء على اعتبارات تنصل بالسياسة البريطانية الداخلية . وهذه الوزارة هى الحكومة العليا الفعالة ، وبن يدبها سلطات تخولها التصرف فى السلم والحرب على سائر أجزاء الإمبراطورية جميعاً .

وكان يلى هذه الولايات البريطانية فى الأهمية السياسية ، « الجمهوريات المتوجة » ، أسترائيا وكندا ونيوفوندلند (أقدم ممتلكة بريطانية ١٩٨٣) – ونيوزيلندة وجنوب إفريقيا ، وكلها دول مستقلة تقريباً تحكم نفسها بنفسها وهى متحالفة مع بريطانيا العظمى ، على أن بكل منها ممثلا للناج تعينه الحكومة التى فى الحكم . ثم تجىء بعد ذلك الإمبراطورية الهندية وهى امتداد لإمبراطورية المغولى الأعظم ، وتمتد الآن بما فيها من ولايات تابعة وعمية ، من بلوخستان إلى بورما كما تضم عدن ، ولكن التاج البريطاني فى كل أرجاء تلك الإمبراطورية ، ووزارة الهند (تحت الرقابة البرلمانية) يقومان فى كل هذه الإمبراطورية بدور الأسرة البركمانية الأصلية .

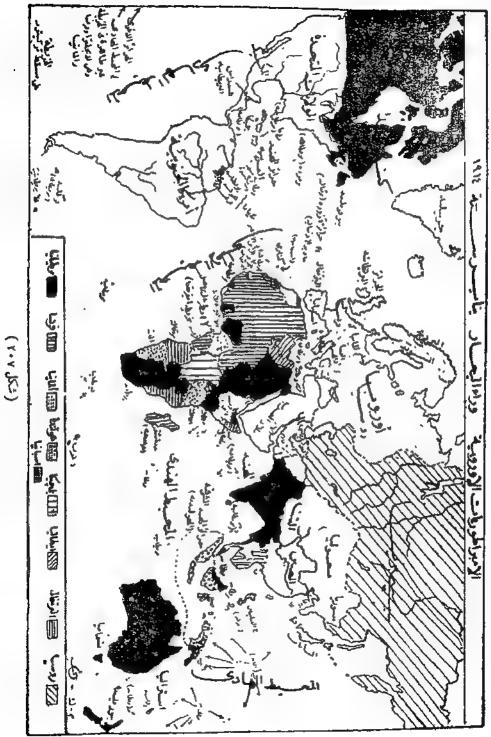
ثم تجيء ممثلكة مصر الغامضة الوضع ، وهي ما تزال من الناحية الإسمية جزءاً

من الإمبراطورية التركية ، وما تزال تحتفظ بعاهلها الخاص وهو الخديو ، ولكنها تحت حكم الموظفين البريطانيين الذي يكاد يكون استبدادياً . وليلحظ القارئ أن مصر جعلت مملكة شبه مستقلة و متحالفة ، مع بريطانيا في ١٩٢٧ . ثم تأتى ولاية السودان المصرى الانجليزي التي مركزها السياسي هو أشد محموضاً ، والتي يحتلها ويحكمها الحكومتان البريطانية والمصرية مشتركتين .

وثم عدد من المجتمعات التي تحكم نفسها حكماً جزئياً ، ومنها ما هو بريطاني الأرومة ومنها ما هو غير بريطاني ، ولها مجالس تشريعية منتخبة وهيئات تنفيذية معينة ، أمثال چايكا وجزائر الباهاما وبرمودا ومالطة . وقد أعلن في يونية ١٩٢٠ دستور مالطني جديد أكثر تحررية ، ويكاد يضع مالطة في مستوى مستعمرة تحكم نفسها بنفسها .

ثم إن هناك مستعمرات التاج ، التي يكاد فيها حكم الحكومة البريطانية الأصلية في بريطانيا (بواسطة وزارة المستعمرات) يقارب الحكم المطلق ، كما في سيلان وترينيداد وفيجي (وفيها مجلس يؤخذ أعضاؤه بالتعين) ، وجبل طارق وسانت هيلانه (ويحكمها حاكم) ؛ ثم مناطق عظيمة من أراض مدارية (في معظم الأمر) ، وهي مناطق تنتج المواد الخام ولها مجتمعات من الوطنيين ضعيفة سياسيا وناقصة في المدنية ، كانت من الناحية الأسمية محميات ، وكان يديرها إما مندوب سام ينصب فوق الرواساء الوطنيين كما هو الحال في باسوتولاند ، أو من فوق شركة ذات مرسوم كما هو الحال في روديسيا . وكانت وزارة الخارجية في بعض الحالات أو كانت وزارة المند في بعض الحالات ، هي الوزارة ذات الشأن في الاستحواذ على الممتلكات التي تقع تحت هذا الصنف الأخير الذي هو أقل الأصناف تحديداً ، ولكن وزارة المستعمرات كانت في معظم الشأن هي المسئولة مو أقل الأصناف تحديداً ، ولكن وزارة المستعمرات كانت في معظم الشأن هي المسئولة الآن عبها . .

وعلى هذا فمن الجلى أنه ما من وزارة بمفردها وما من عقل بمفرده قد نفهم قط الإمبراطورية البريطانية فى مجملها . كانت خليطا من النموّات والتجمعات يختلف إختلافاً كليا عن أى شيء سمى من قبل باسم إمبراطورية . وكانت تضمن للناس «سلماً » متراى الأطراف وأمنة شاملة ؛ فن أجل ذلك يعينها ويناصرها ويحتملها كثير



من رجال الشعوب « المحكومة ؛ - بالرغم مما يقاسون من استبداد الموظفين وإعوازهم في الكفاية وعظم النهاون والإهمال الذي يبديه جمهور بريطانيا في « أرض الوطن ؛ .

وشأن هذه الإمبر اطورية هو شأن و الإمبر اطورية الآثيثية ، قديما ، من حيث أنها إمبر اطورية تمتد وراء البحار ؛ طرقها هى الطرق البحرية ، ورابطتها المشركة هى الأسطول البريطانى . وتماسكها شأن كل الإمبر اطوريات يقوم من الناحية التكوينية على وسيلة من وسائل المواصلات . وقد أدى التطور فى فن الملاحة البحرية ويتاء السفن والسفينة البخارية فيا بين القرن السادس عشر والتاسع عشر إلى جعل ذلك السلم وأعنى به و السلم البريطانى Pax Britannica ، أمراً ميسوراً مريحاً ؛ وربما أدت التطورات الجديدة فى النقل الجوى أو البرى أو السريع أو فى فن الحوب بأعماق البحار إلى جعله أمراً غير مربح أو شيئاً معرضاً للخطر تعرضاً لا مود له .

١٧ ــ التصوير والنحت والعارة

كنا نكتب عبارة و القرن التاسع عشر و لأن ذلك لفظ متداول يسهل علينا استعاله ، ولكن لعل من الجلي لدى القارئ أن فترة هذا الفصل ليست في الحقيقة عصورة بين ١٨٠٠ ، ١٩٠٤ بل بين ١٨١٥ ، ١٩١٤ . ولم تحدث بين هذين التاريخين كوارث ساحقة ولا أزمات قلابة جائحة . أجل كانت التغيرات الجارية جسيمة جداً في واقع الأمر ، بيد أنها لم تكن تغيرات فجائية ولا هي كانت بأى حال نقضاً وعكساً للسبرة العامة للأمور .

وقبل أن نعالج تلك الفتنة العارمة التي ختم بها قرن التقدم والاعتراع هذا ، فإن من الحير أن نجرد ثلاثة أقسام للأشكال التي عبر بها القن عن نفسه . ولقد سبق أن عالجنا تطور معارفه العلمية وفلسفته السياسية ؛ وسننظر الآن أولا إلى فن التشكيل والتصوير فيه ، ثم نتجه بأبصارنا إلى حياته الموسيقية ؛ ثم نوجه التفاتنا إلى أدبه الحلاق المعر .

وتعكس لنا قصة التصوير الأوربي إبان النصف الأول من القرن التاسع عشر صورة التغيرات الإجباعية في ذلك الأوان . وهو زمان أخلت فيه الطبقة الوسطى

وأعبى مها الطراز التجارى الحاد من الناس تزداد نروة وأهمية بسرعة فاثقة . فكان ذاك زمان أصحاب مصانع أثروا واغتبوا وزمان ماليين جُدد أصابوا من التوفيق المالى حظاً كبراً . وسرعان ما ظهرب السكك الحديدية والسفن البخارية والتجارة الخارجية في مواد الطعام الرئيسية كما ظهرت النروان المكونة بالمضاربة الناتجة عن هذه الأمور بطريقة مباشرة أو غير مباشرة . وكان يساور البلاطات الأوربية الى أعيدت إلى الحكم نزوع إلى اسرضاء أصحاب هذه الثروة الجديدة والاختلاط سمم. وأمسى الموسرون من أرباب المصانع هم رعاة التصوير والعارة النموذجيون ، وكالوا يحاولون أن يدخلوا في عداد الحنتلمانية والسراة . فكانوا يرغبون في أن تكون لهم الصور التي يعملها الحنتلمان المجنتلمان ، أكثر مما تشخص أبصارهم إلى احتياز القوة الرائعة أو الجال المحير . وإن أحدهم ليرغب في إقتناء صور يستطيع أن يتناول بإزائها طعامه أو يحتسي شايه . وقد امتلاً قلبه بشعور الارتياح والرضا ، كما أنه كان على استعداد أن يبذِّل فيها المال بسخاء . ومضى عن هذا العالم الفنان الاسبانى المتقلب المدهش جويا (١٧٤٦ – ١٨٢٨) ومصوراً المناظر البرية الإنجليزية العظمان : كونستابل (۱۷۷٦ – ۱۸۳۷) وترنر (۱۷۷۰ – ۱۸۵۱) ثم داڤيد وانجرس" الللان حدثناك عن كونهما المعبرين عن روح الإمبراطورية الفرنسية ، مضوا جميعاً ولم يبق لهم على ظهر البسيطة من ضريب . على أن التصوير أصبح مهنة رائجة جداً وضخمة جداً . وكانت الأكاديمية الملكية البريطانية والصالون(١) الفرنسي يقيمان المعارض السنوية للصور المرسومة بغية إدخال اللذة والسرور على الأفئدة ، وكان الفنانون يشترون الدور الكبيرة الفخمة ويعيشون عيش الترف الكريم . بل لقد بلغ أمرهم في انجلترة أن أنعم على العديد منهم بلقب سير . وسار النحت في هذا الاتجاه . ولنن كف تقدير الناس للصبور عن أن يكون عميقاً شديد العمق ، فلقد أصبح منتشراً واسع الانتشار . وأوشك الرحيل السنوى إلى لندن « لمشاهدة معرض الأكاديمية ، أن يصبح أمراً إلزامياً على جموع كبيرة من الجمهور الإنجليزى .

⁽١) الأكاديمية البريطانية والصالون الفرنسي : جمعيتان تهمّان بالفتون الجميلة وتقيمان لها المعارض . (المترجم)

ولكن حدث مع نجاوز القرن لسنيه الوسطى ، أن ظهر فى عالم الفن نفس الميل الدلق وعدم الاستقرار ، ذلك الميل الذى كان السبب في حل بالنظام الديى والاجتماعى فى أوربا من اضطراب . فنى انجلترة شرع رسكن (١٨١٩ – ١٩٠٠) ووليم موريس (١٨١٩ – ١٨٩٦) ، ينتقدان خواء الأكاديمية وتفاهتها فى الفنون والزخارف المعاصرة انتقاداً كان له تأثير مزعج . وحدث بين رجال التصوير تصدع وانقسامات .

وظهرت مدارس جديدة ، تخص بالتنويه منها أصحاب مذهب و ماقبل رافائيل « Pre-Raphaelites » الذين يجدون في البحث عن السوابق والأساليب في عمل تلك الأيام القديمة أى قبل أن يصبح التصوير رسيقاً . فولوا وجوههم يظللهم استحسان رسكن وموريس شطر العصور الوسطى ، وأخذوا يصورون صوراً تمثل أبطال الملك آرثر^(۱) والعذارى المباركات (Blessed Damosels) . ووجّة آخرون منهم من ذوى النفوس الأكثر ثورة أنظارهم إلى العالم المحيط بهم . وظل كوروت (١٧٩٦ ١٨٧٥) محتفظاً بكل قوة بصبرته طوال سنى الركود تلك . وشهدت فرنسا بعد كارثة (١٨٧٠ – ١٨٧١) وفي عمل الأساتلة من أضراب ديجاز ومانيه ورنوار رجعة كبيرة إلى سوابق راميراندت وفلاسكوبز . ولابد لنا من أن نذكر مع هؤلاء الفرنسيين اسم هويسلر الأمريكي العظيم (١٨٣٤ –١٩٠٣) . ودت في الناس وهم لا يكادون يعون ــ دبيب البرم بالصورة المحتشمة ، ثم ظهر طراز من عمارة الدور لم يكن ليسمح بثرك فراغ من الجلىران للصورة الزبنية ذات الإطار . حتى إذا اقتربت تلك الفترة من نهايتها تناقص بشكل محسوس ما تنتجه يد المصور من صور تباع وتعلق على الجدران في أي موضع كان ، وأخذ المسئولون يوجهون ذلك السيل المنهمر من طلاب الفنون توجهاً مطرد النجاح - إلى طاب الفنون الزخرفية الأكثر تواضعاً والأقرب إلى النفوس

وظهرت عند محتم القرن التاسع عشر بوادر كتيرة تدل على أن طريقة التمثيل

⁽١) الملك آرثر: ملك بريطانى قديم وبطل فى الأساطير ، كتب عنه الدورد تنيسون قصة « موت آرثر « نقلا عن أساطير القرون الوسطى... (المترحر)

الدقيق المفبوط قد تخطاها الفن. فاختفت من البُسط والسُدف وأقشة النياب ، الصور التي تمثل الأزهار والأشكال الإنسانية ، وأصبح النمثيل صفة ثانوية خافتة في الصور والنحت. ولقد لاحظنا في سلف فترة سابقة تتجه إلى إظهار الواقع أثناء حكم أخناتون في مصر وأخرى في العهد الإغربتي الروماني ، كما لاحظنا كبف انصدر هذا الدور الأخير سربعاً إلى الجمود وقلة العمق والرمزية في الآثار البرنطية والقوطية كما تحول إلى الطريقة الشكلية والهندسية في الزخرفة الإسلامية . وقبل ذلك بكثير حدث أن الروح التأثرية (الانطباعية Impressionism) المشرقة التي ظهرت في العصر الحجرى القديم الثاني قد عقبها المذهب الشكلي الذي تجلي في فن العصر الحجرى الحديث الأبكر ، وهنا أيضاً نرى الفن في العقدين الأولين من القرن المحجري الخارجي إلى ترمم آثار الحركة ، عائداً من جديد إلى التحليل والرمز . ويبدو أن من الهتمل أن يطرد الفن في سبيله هذا . وتما يعينه الآن كذلك الزيادة في ويبدو أن من الهتمين قرعاً بالحقائق غير المهضومة .

وقد افتتح ذلك القرن بدور من أدوار الجمود في العارة. فإن التقاليد الكلاسيكية التي كان يدعمها غلبة الأدعياء الكلاسيكيين على المدارس ، قد تسلطت شيئاً فشيئاً على التطور الحر لطراز النهضة وصدت بالتدريج تياره ، وكأنى بمعظم العائر الجديدة وقد ران عليها مظهر الأسف على عصر مضى منذ ألفين من السنين !! . . . فقد كانت تظهر كل مكان واجهات من الزخارف الحصية (١) بيضاء معمدة . ثم ظهر حدم مع النهضة الرومانسية في الأدب ، التي سوف نبحثها من فورنا بإسهاب ، ومع محاولة نابليون ابتعاث روما الإمبراطورية حديد في التفات هذه الفترة الشديدة الكلف بالتقليد والحاكاة صوب العصور الوسطى . إذ حدث بعد الانتعاش الكلف بالتقليد والحاكاة صوب العصور الوسطى . إذ حدث بعد الانتعاش

⁽١) الزحارَف الجمسية (Stacco) : استميرت هذه الكلمة الدلالة على طراز مذاته أكثر منها على مادة بمينها ، وهي تطلق عادة على التقوش البارزة وأمثالها من زخارف البناء . وهي تصنع من الجبس أو الأسمنت أو لاصوق الجير . (المترجم)

الكلاسيكي انتعاش قوطي تبدت قوته بوجه خاص في بريطانيا ، وأنتج فيا أنتج من مآثر عظيمة باهرة كثيرة ، دارى البرلمان الحاليين . ثم استعيدت فترة الملكة آن ، التي تميزت بتطور خاص في طرائق عصر النهضة التي كانت لانزال قائمة . وإن المهندسين المعاريين في بريطانيا ليبنون لك قصراً أو داراً على الطراز الكلاسيكي أو القوطي أو الاسكتلندى الباروني أو طراز الملكة آن ؛ فأما الطراز الوحيد الذي لم يظهر على ظهر الأرض البتة فهو طراز القرن التاسع عشر . كان رجال الإنجليز يغدون ويذهبون في مراويل وقبعات عالية وثياب دكناء يحرصون فيها كل الحرص يغدون ويذهبون في مراويل وقبعات عالية وثياب دكناء يحرصون فيها كل الحرص على أن تكون عصرية محترمة إلى حد كبير ، ولكن بيوتهم ومبانهم العامة كانت تميأ لحفلة رقص تكسي في ثياب الماضي الموات الخالي من الروح ، كأنما كانت تميأ لحفلة رقص تذكرية تظللها الكآبة والمقت .

على أنه ظهر فى فرنسا وألمانيا قدر أوفى وأكثر من المبادهة والابتكار فى فن العارة ؛ فإن طراز و عصر النهضة ، كان ما يبرح يعيش ويتطور فى فرنسا . وهناك مسائل شائقة واجهها فن العارة فى أنواع المبانى الحديدة أضراب محطات السكك الحديدية والمخازن والمستودعات والمصانع وما إليها ، ومع ذلك لم يجرب فيها إنسان واحد مقدرته بصورة جدية فى أى مكان باستئناء ألمانيا فيا يحتمل . وكان القبح الدال على عدم الكفاية المهارية هو القاعدة فى إقامة ثلك المبانى . وكأنما كان اندفاع الاحتياجات الجديدة والمواد الجديدة والفرص الجديدة قد غلب المهندس المعارى على أمره وسلبه شجاعته فى ذلك العصر . ومن أعجب منتجات دور التخوف ذاك وأشدها دلالة على عصرها قنطرة برج لندن ، التى خلط فيها بن هيكل متن خفيف من الصلب المكسو بالجص وبين لمحات من النحت الحجرى بين هيكل متن خفيف من الصلب المكسو بالجص وبين لحات من النحت الحجرى الفلمنكى وبين ذكريات لقنطرة رافعة (ا) من قناطر العصور الوسطى . على أن جميع مبانى بريطانيا فى القرن التاسع عشر طافحة بذكريات تاريخ سقيم بالي .

وفضلا عن هذا فإن فن عمارة المنازل انحدر أكثر مما انحدر فن عمارة المبانى

⁽١) القنطرة الرافعة (Drawbridge) قنطرة كانت توضع على الخندق المحيط بإحدى القلاح ونقطة تحركها في نهايتها ، فإذا أريد إفلافها رفع . (المترجم)

العامة إبان شطر كبر من القرن . فإن الزيادة الضخمة في عدد السكان في دول أوربا وهي الزيادة التي استنفدت قلراً طائلا من موارد ذلك العصر المزيدة ، قد أدت إلى زيادة مخيفة في بناء البيوت المنحطة الرتبة حول المدن النامية ، فأقيمت صفوف لا حصر لها من البيوت الصغيرة الوضيعة في بريطانيا ، ومساكن قبيحة في معظم الأقطار الأوربية الأخرى . ولم يحدث إلا عندما قارب القرن غايته وهبطت نسبة المواليد وظهر أثر السيارة في إعادة توزيع السكان الذين كانوا يتوالدون ويتزاحمون حول محطات سكة الحديد ، - أن ابتعث اهيام عام بفن عمارة المنازل وأن ظهرت أنماط عصرية لطيفة من الدور الحلوية الصغيرة وبيوت الريف .

وكانت أمريكا قد أنتجت أيام الاستعار طرازاً من طرز البيوت الريفية ملائماً تمام الملاءمة ، نشأ بوجه أخص في قرچينيا وبلاد الجنوب ، وهو تكييف لفن عمارة البيت الريفي البريطاني نشأ متفرعاً من البيت الريفي البريطاني نشأ متفرعاً من جدع شجرة النهضة المشمرة . وقد سبق أن أشرنا إلى فضل السيركريستوفررن على هذا التطور . وفيا عدا هذا المنحي المئزلي لم يكن فن العارة الأمريكي يزيد في جل شأنه حتى أخريات القرن الناسع عشر عن تصميات أوربية منفوئة . مثال ذلك أن الكابيتول المقام في واشنجتون إنما هو من عمل الفرنسين . وربما كان من الممكن إقامته في باريس أو بروكسل . وكان الشيء الكبير من مباني المنازل هزيلا عادياً . وعندما اقتبست بريطانيا نافذة شرائح الزجاج (١٥ (Sash Window) احتفظت أمريكا بالنافذة العادية المستعملة في القارة الأوربية . على أنه حدث والقرن في عقديه بالناسع والعاشر ، أن الثروة المتزايدة والاعتماد النامي على الذات في العالم الجديد فجرا ابتكارات معارية جديدة قوية . فقد شرعت أمريكا في استمال مباني الفولاذ والزجاج والحرسانة ، استعالا تجلي فيه قدر متزايد من الجرأة والنجاح . وكان من أثر هذه المواد واختراع « الصعد » وإحكامه أن أصبح من الميسور بنا ، مبان منان مبان منابه منان مهان المور بنا ، مبان المور بنا ، مبان من المواد واختراع « الصعد » وإحكامه أن أصبح من الميسور بنا ، مبان من أثر هذه المواد واختراع « الصعد » وإحكامه أن أصبح من الميسور بنا ، مبان من أثر هذه المواد واختراع « المعد » وإحكامه أن أصبح من الميسور بنا ، مبان من أثر هذه المواد واختراع « المعد » وإحكامه أن أصبح من الميسور بنا ، مبان من أثر هذه المواد واختراع « المعد » وإحكامه أن أصبح من الميسور بنا ، مبان من أثر هذه المواد واختراع « المعد » وإحكامه أن أصبح من الميسور بنا ، مبان من أنه من أنه من الميسور بنا ، مبان من أنه من أنه من الميسور بنا ، مبان من أنه من أنه من الميشور بنا ، مبان من أنه من الميسور بنا ، مبان من الميسور بنا ، مبان من أنه من أنه من الميسور بنا ، مبان من أنه من أنه الميد و الميسور بنا ، مبان الميسور بنا ، مبان ميسور بنا ، مبان الميسور بنا ميسور بنا ، مبان الميسور بنا ، مبان الميسور بينا ميسور بنا ، مب

⁽١) نافلة سرائيم الزيماج : هى نافلة ذات فرواز بصمد وينزل تمييزاً لها عن المافلة المادية (Casement Window) التي تنفتح وتنغلق على مقصلات وهى الموجودة بجميع المنازل المصرية . (المدجم)

ذوات إرتفاع واتساع ليس لها مثيل سابق . فني ١٨٧٠ لم يكد يكون هناك شيء اسمه فن العارة الأمريكي ؛ ولكن عندما حلت ١٩١٠ كانت أمريكا قد سبقت كل فطر آخر في العالم بمراحل فيا تجلي بمبانها من جدة وجرأة . وبرزت ألمانيا فترة أثناء ذلك . وتبرز أسماء ريتشارد سون (١٨٣٨ – ١٨٨٣) وستانفورد ويت (١٨٥٣ – ١٨٨٦) بين أسماء المهندسين المعاربين الأمريكيين في هذا العهد الجديد .

فإلى أمريكا القرن العشرين يجب أن تشخص الأبصار لثرى التعبير التدريجي عن القوى والموارد الجديدة التي كشفها القرن التاسع عشر لأنظار الإنسانية ممثلا في البناء وإعداد المنازل. وربما جاز لنا بالعلاقة إلى هذا التطور في فن العارة أن نعتمد أيضاً على تطورات أخرى جديرة بالتنويه في النحت والتصوير والفسيفساء (الموزايكو Mesaic) وفي فنون الزخرفة عامة. ولسوف تكون في تلك القارة الفرصة الكبرى، والثروة الكبرى وحرية الفكر الكبرى.

١٨ ــ الموسيقي في القرن التاسع عشر

سار فيض الخلتى والإبداع الموسيهي الذي اطرد إبان القرن الثامن عشر في طريقه الطبيعي دون أن يلتي شيئاً يذكر من الموانع أو العراقيل طيلة فترة هذا الفصل. وقد سبق أن ذكرنا أسماء موزار وبيتهوڤن بوصفهما كوكبين بلغا الذروة بالقرن الثامن عشر . ويحملنا بيتهوڤن تُقدُماً إلى صميم القرن التاسع عشر ، ولا بد لنا من أن نذكر بإزائه معاصره ويبر (١٧٨٦ - ١٨٢٦) وهو رجل أخذ نفسه بالنجريب والابتكار وله فيهما صولات ذات أهمية جوهرية ، ثم خلف بعدهما بقليل شخصيات جليلة القدر منها شوبرت (١٧٩٧ - ١٨٢٨) ومندلسون بعدهما بقليل شخصيات جليلة القدر منها شوبرت (١٧٩٧ - ١٨٢٨) ومندلسون أن نغفل شأن و كاتدرائيات النغم ، لسيزار فرانك (١٨٥٧ - ١٨٩٠) .

وكانت الموسيقي قد أخذت تنتقل رويداً رويداً من موضعها الأول تحت رعاية الملوك والنبلاء إلى صالة العزف^(١) وإلى الاستقامة لأذواق جمهور مهذب تهذيباً

⁽١) صالة النزف (Concert Hell) قاعة تقام فيها الحفلات الموسيقية الجمهور . (المترج

خاصاً. وكان هناك إلى جوار الأوبرات عدد متزايد من قطع الغناء والبيانو أنشئت للمنازل المهذبة الأذواق وقطع من موسيق الرقص للحفلات الاجتاعية . ولم بكن تمة تقدم مقابل لهذا في الموسيقي الدينية بعد أيام هاندل وباخ . على أن الرعاية الملكية كانت ما تزال ذات أهمية كبرى لمؤلني ألحان الأوبرات ، وكان بلاطا باقاريا والروسيا بوجه خاص مثابة لنوع جديد من « دراما الأوبرا » ولمفهوم جديد عن رقص الباليه(١)

وإنك لتستطيع أن تتأثر فى موسيقى ذلك القرن مهيّات (٢) العصر ومصالحه المتزايدة الأفتى . فأخذ الملحنون يطلبون موضوعات جديدة وفكرات طريفة وروحاً جديدة يبتغونها فى موسيتى العامة من سكان أوربا الشرقية والثعوب الشرقية .

فاستعمل شوپان الموسيقي البولندية (١٨٠٩ – ١٨٤٩) ، واتخذ ليست (١٨١١ – ١٨٨٠) وچواكيم (١٨٣١ – ١٨٩٠) من المصادر الهنغارية موردا للوحي بردانه ، وتجاوز برامز (١٨٣٣ – ١٨٩٧) هذا الميدان حين عرّج على الهند يطلب مادة 'بدخلها على ألحانه التي هي بطبيعتها كلاسيكية . وولد فاجنر في ١٨١٣ وتوفي في ١٨٨٣ . فتأثر خطي ويبر ومزق تقاليد الأوبرا الراسخة . فأدخل الروح الدرامية على موسيقي الآلات ووسع مجالها إلى حد بعيد ، وحمّلها قوة جديدة وعاطفة جديدة . ثم أعقبه بعد ذلك في الروسيا تشايكوڤسكي (١٨٤٠ – ١٨٩٠) وموستوروچسكي (١٨٣٠ – ١٨٨١) ورمسسكي كورساكوڤ (١٨٩٠) وموستوروچسكي (١٨٣٠ – ١٨٨١) ورمسسكي كورساكوڤ (١٨٩٤) الفيتي الذي بين أيدينا لا يسمح لنا بأكثر من الاقتصار على ذكر اسم دافوراك الفيتي الذي بين أيدينا لا يسمح لنا بأكثر من الاقتصار على ذكر اسم دافوراك النشيكي (١٨٤١ – ١٩١٤) وأن ننوه بالإقدام الحيوي الذي كان عليه رينشارد شتراوس (الذي ولد في ١٨٦٤) والحال المهيج لدى ديبوسي (١٨٦١ – ١٩١٨) .

ولم تنتج أمريكا حتى اليوم إلا الشيء القليل من الموسيقي العظيمة المشهورة .

⁽١) وقص الباليه ؛ ملسلة متقنة من الرقصات تمّ على ننبات الموسيقي ، وتمثل فيها الأفدال والشخصيات والمشاعر النح . (المترجم)

⁽٢). المهتَمات : هي الموضوعات التي يهتم بها الناس . (المترجم)

ولكن كا أن الولات المتحدة وثبت فجأة من العدم فى العارة إلى فن العارة العظيم الذى تهيأ بظهور الأحوال الجديدة ، وأعنى بذلك المبنى الفولاذى والمواد الى المنبق تجربتها حتى تسعينات القرن الناسع عشر ، فمن المحتمل أن يبزغ عن الغرب (أمريكا) فى أى وقت فجر أشكال موسيقية جديدة وتحررات جديدة . ومنذ أمد غير بعيد و والضجيج ، ينتقل من أمريكا إلى أوربا بدرجة متزايدة الارتفاع ولكنه فى بعض الأحاين و ضجيج ، مرح كل المرح . وقد أثرت الروح الزنجية أثرها فى حجرة الرقص وفى قاعات الموسيقى . وليس بمستبعد أن يأتى ذلك اليوم اللهى بصبح فيه الأمريكي فى صالة الموسيقى . وليس بمستبعد أن يأتى ذلك اليوم اللهى بصبح فيه الأمريكي فى صالة الموسيقى – على الأقل – فخوراً سعيداً بهذا المينوع الأسود النابع فى الجنوب . على أنا لا نستطيع أن نتحدث ها هنا عن موسيقى الحاز (fazz) وما يتصل بها من تطورات .

ولسنا بمعاودين القول في الموسيقي في هذه « المعالم » . والفترة الحالية تتميز بانتشار فسيح المدى لشيء كان في قديم الزمان امتيازاً لطبقة مثقفة . فإن الحاكمي والبيانولا(١) وجهاز الراديو تجعل العالم بأجمعه ضرياً بخير الملحنين وأعظمهم .

١٩ -- نهوض القصة إلى مرتبة الصدارة في الأدب

إن المجال الذي نجده بين أيدينا الآن أضيق من أن يتسع لأكثر من بيان موجز في أضيق الحدود وأشدها تبسيطاً عن ذلك الفيض العظيم من المناشط الأدبية الى حاولت القوى الجديدة التي ظهرت في قرن التوسع ذاك أن تعبر بها عن نفسها . وقد سبق أن عالجنا الفكرات الرئيسية لمؤسسي الاشتراكية ومكونها وتأثير النظرة العلمية النامية على الفكرات الدينية والسياسية والاجتماعية . على أنه من المستحيل علينا أن نبي بكامل حقوق الأهمية الدائمة والتأثير المتواصل لمفكرين هملين عظاء من أضراب آدم مميث (١٧٦٧ – ١٧٩٠) ومالئوس ، (١٧٦٦ – ١٨٣٤) وخلفائهما ، أو لتلك التأملات العميقة النفاذة التي جاد بها شوينهور (١٧٨٨ – ١٧٨٠)

⁽١) البيانولا: هي البيانو الأوتوماتيكي اللي تشقّله البدالات ، ويجوب به بعض الناس في الطرقات. (المَرجم)

۱۸۹۰) ونیتشا (۱۸۹۶ – ۱۹۰۰) فی ألمانیا . ثم یجیء هیجل (۱۷۷۰ – ۱۸۳۱) و هو أشبه ما یکون بصنف جذاب مغر یرد فی أسفل قائمة أطعمة طویلة جداً . ولابد لما من ترکه . ولقد انحرف بثیار الفکر العصری انحرافاً عجیباً جداً ، ولکنه ینتمش من تأثیر انحرافه به .

كذلك ليس في طوقنا أن نناقش هامنا مصادفات الذوق وسخافات التأويل الني جعلت من اللورد بيرون (١٧٨٨ – ١٨٢٤) ذلك الهجاء الركيك الشعر الذي يضم بين جوانحه فلسفة متسكع من رجال المدن ولا يزيد ، – شخصية عظيمة في فكرة القرن التاسع عشر عن الأدب في كل أرجاء أوربا ، كذلك لسنا بواضعين جيته (١٧٤٩ – ١٨٣٢) في كفة الميزان ، وهو من ظل طوال سنين عديدة رب ألمانيا الذهبي والجهائي ، فلقد فقد تلك المنزلة الرفيعة من زمن بعيد بعد أن نثر على العقل الألماني ثروة عظيمة من الآداب والنزعات الكلاسيكية المنقولة . كان عظها رشيةاً عجتهداً . وكان هو المصنف النبيل في ميادين الأدب . كما كان بيرون فيها هو المثائر النبيل

يسبق كل معاصريه بمراحل عديدة . ثم اطرد الدافع الشعرى في انجلترة في الجيل التالى بقدر أعظم من الألحان والجمال وحظ أدنى من النضمينات قصية المرامى على يد تنيسون (١٨٠٩ – ١٨٩٧) ، الذي نال محبة عظيمة من الناس ، وتزلف الملكة فكتوريا ، وكان أول من نال لقب اللوردية من أجل شعره من الشعراء الإنجلنز وقصيدته « موت آرثر Morted' Arthur » خليقة أن تقف بازاء فن عمارة ذلك الزمان . ولم تكن شهرة لونجفيلو (١٨٠٧ – ١٨٨٧) راجعة إلى أنه كان الكفو الأمريكي لتنيسون قدر ما تعود إلى أنه الترجيع الأمريكي لصوته .

وارتقى الشكل المسمى بفن القصة النثري ــ متطوراً على درجة أعظم بطئاً وفي وجه معارضة وتثبيط من الهيئات المدرسانية (١) والأكاديمية (٢) والنقدية _ فسها شيئاً فشيئاً حتى أصبح والشعر بمنزلة سواء ثم ما لبث أن استعلى عليه . وكان ذلك الشكل هو ما كان الناس يقرأون حقاً وهو الشيء الذي يطلبه الزمان , وأخذ الكتاب النَّري العظيم المتحدث عن الحياة ، والذي بخالط التسلسل القصصي مادته ، والذي تسلفه من قبل رابليه ولهض به ما أنتجه فيلدنج وسترن من روايات غير مطردة السياق ، ـ يمرز في مهل إلى حال من الاكتَّال وإلى منزلة اعتراف الناس يه مع تقدم الزمن بالقرن . ومع اطراد نموه طولاً وقوة ظهرت إلى جواره الرواية القصيرة والأقصوصة(٣).

وكانت القصص الأولى حكايات تصف الحوادث والأخسلاق . وأرجع بنافانی برنی (۱۷۵۲ – ۱۸۶۰) إلى عالم اللكتور چونسون . وجاءت چين أوستن (١٧٧٥ – ١٨١٧) تعمل داخل حدود ضيقة ، فواصلت النهوض بتقاليد المرأة في دقة الملاحظة والمشاهدة معبرة عنها أبرع تعبير . ومن مثل هذا النوع من القصة المعنية بالأخلاق والإحساسات وما يكبلها من أغلال وحدود ، تمضى القصة الإنجليزية فتحطم أغلالها بالتدريج مع تحطيم ذهن ذلك العصر لما كان يحده من أصفاد .

⁽١) المدرسانية (Scholastic) هيئات التدريس المتحالفة بجاسات القرون الوسطى . (المترجم)

 ⁽٢) الأكاديمية : العلمية . (المترجم)
 (٣) الرواية القصيرة (Short Story) الأقصوصة أو القصة القصيرة (Short Story) .

وهناك شخصية عظيمة جداً كبرة الأثر في توسيع الرواية هي الكاتب الألماني چان پول ریختر (۱۷۲۳ – ۱۸۲۰) . فإن قصصه مجرد سمط تسالك فیه انحرافات عن السياق مزخرفة مرصعة بالحواهر . وثمة كاتب ألماني كبير هو هيني (١٧٩٧ --١٨٥٦) . وقد أثر ريختر في مؤلفات الكاتب الإنجليزي توماس كارليل أعمق التأثير . وعن طريق كارليل اتصل تأثير ريختر الجدّل غير المطرد السياق تشارلز دیکنز از ۱۸۱۲ ــ ۱۸۷۰) وچورج مردیث (۱۸۲۸ ــ ۱۹۰۹) . وکان تاکاری (١٨١١ -- ١٨٦٣) وهو المنافس الكبير لديكنز عمل "قراءه ومهم مهم في الأرض ويغمرهم بالتفلسف ممسكا بتلابيبهم على شاكلة أقرب إلى طريقة سترن منها إلى الألمان . وقد أمثل تشارلز ريد في روايته و الدير والبيت ، (١) النزاع الذي ما يزال قائمًا بين الدروتستانت والكاثوليك في أوربا في ثنايا قصة رومانسية عظيمة . واكتشف كل من ثاكارى وكارليل أن نزوعهما إلى مناقشة الحياة بكثرة قد اقتادهما عن أشكال الرواية الصريحة إلى التفسر والتعليق على الأدوار التاريخية . وإن هناك لرابطة طبيعية ضرورية من الرواية العظيمة ذات الطراز الإنجلنزى وبن التاريخ . وكانا كتابا كارليل « الثورة الفرنسية » و « فردريك الكبير » يقرآن كما تقرأ الروايات . وأحرز ماكوني (١٨٠ ــ ١٨٥٩) نجاحاً باهرآ بكتابه : « تاريخ الفترة الاستيوارتية -الأخررة ». والحق إن الذنب في عدم إقبال جمهرة الناس على قراءة التاريخ يقع على عاتق المؤرخين لا الجمهور . فإن أمثال ليتون واستراتشي وجود اللا وبيلوك من نوابغ كتاب التاريخ محبوبون فى إنجلترة وأمريكا كحب مؤلفي الروايات سواء بسواء.

فأما فى فرنسا فإن نفس الفهرورات والتطلعات التى وسعت الرواية الإنجليزية من مجرد حكاية إلى صورة للحياة وتفسير لها ، قد ألهبت بلزاك (١٧٩٧ -- ١٨٥٠) وبعد إلى القيام بذلك الجهد الجليل و الكوميديا الإنسانية Comédie Humaine . وبعد بلزاك وأدنى منه بمسافة بعيدة يجئ خليفته زولا (١٨٤٠ -- ١٩٠٢) ، ويكتب كتابه و طبقات عائلة روچون ماكار Rougon-Macquart cycle ، الشبيه بمؤلفات

⁽۱) والدير والبيت Cloister & the Hearth

بلزاك ، وهو مجموعة من الروايات تتأثر حظ أسرة فرنسية وفيرة العدد مدى أجيال عديدة . ويقف شخص فمكتور هوجو (١٨٠٢ – ١٨٨٥) فريداً في زمانه وهو صاحب ذهن فياض جرئ زاهر يبلغ في بعض الحين حد البهرجة المسرفة ، فيقذف بالتمثيليات والقصائد والروايات والبحوث السياسية . ولكن الواقع أنه حدث في فرنسا أن سلطان الأكاديمية والتقاليد الكلاسيكية وتقاليد النظام المدرساني ، قد روضت على الجملة فن الرواية وأخضعته رغم أنها لم تستطع أن تكبح هذه الحالات الاستثنائية . قال البيداجوجيون (١٠): ينبعي الرواية أن تتخذ و شكلا » ، ولا بد لها من أن تكون و صيحة » . ويجب ألا يكون فها استطراد إلى موضوعات خارجة عن موضوعها ، ويجب أن تكون مؤدبة غير شخصية في منوالها . وبدلك أعتيقت الرواية الفرنسية وهي في طريقها إلى حريات التجريب غير المحدودة ، التي كانت تنعم بها المدرسة الإنجليزية . وفلوبير (١٨٢١ – ١٨٨٠) وهو يكتب كانت تنعم بها المدرسة الإنجليزية . وفلوبير (١٨٢١ – ١٨٨٠) وهو يكتب مضيئةً عليه بهذه الحدود الثابتة – هو أشد الكتاب الفرنسيين لباقة وصقلاً وإتقاناً .

وينتمى توماس هاردى (١٨٤٠ – ١٩٢٨) آخر الروائيين العظام فى العصر الفيكتورى إلى هذه المدرسة الفرنسية الكلاسيكية أكثر مما ينتمى إلى تقاليد الرواية الإنجليزية . ولقد ثار فى أخريات أيامه على القيود التي غل نفسه بأغلالها ، ثم هجر الرواية هجراناً تاماً ، ثم بلغ أوج عظمته الفنية بكتابه الأمراء (٢٧)، وهو تمثيل وعرض للمغامرة النابليونية بأكلها فى صورة دراما ، وهو مثال جديد على الوشائح الوثية، التي تربط بن الروائي العظم وبن المؤرخ المفسر للتاريخ .

فالرغبة فى المعرفة بالحياة وما يحدث لها ، وهى النزوع إلى استعبواب الحياة استجواباً وثيقاً حاراً ، ثلث الرغبة التى جعلت البريطانيين يضيقون فرعاً بقيود الشعر وتضييقاته الشكلية ورفعت الرواية (: القصة) وأشكالها القريبة إلى مرتبة السيادة الأدبية ، ــ قد انتشرت فى كل الأقطار الأوربية . فأنتجت ألمانيا والروسيا

⁽١) وهم المصدّلة من العلم والمدرسين . (المبّرجم)

⁽٢) الأَسْرا، (Dynasts) : هي كا أشرقا ص ٥٩ من المالم (ط ٢) علمة ٠ شعرية درامية . (المترجم)

وإسكنديناوة بوجه خاص ، أدباً عظيماً صاغته فى شكل روايات . وأبرز اسم يبدو بين حشد حاشد من الروائيين المبدعين الألمان هو اسم چوستاف فرايتاج (١٨١٦ – ١٨٩٥) . وانتجت النرويج مؤلفها بيورنسون (١٨٣٢ – ١٩٩٠) ؛ وأشرقت فى الروسيا مجموعة كبيرة من النجوم المتألقة تبدأ بجوجول (١٨٠٩ – ١٨٥٠) وتمضى إلى دوستويقسكى (١٨٧١ – ١٨٨١) وتورچنيف (١٨١٨ – ١٨٨١) وتوليتوى (١٨١٨ – ١٨٨١) ، وتشيكوڤ (توفى ١٩٠٤) .

على أنه لا يمكن القول بأن جميع القراء فى القرن الناسع عشر كانوا تواقين إلى المعرفة مستطلعين – إذ كان يمازج الأنماط والطبقات المليثة الأذهان بالشكوك والتقدم ، أنماط وطبقات اجباعية أخرى غير ناشطة تقاوم الفكرات الداعية إلى التقدم مقاومة فعالة .

وإنى جوار ذلك ، وفى قدر عظيم نام متزايد من التآليف التى كانت تستثير العقول وتنبهها ، ظهر فى أوربا وأمريكا على السواء ، إنتاج ضخم من المادة المكتوبة فى كل مستوى من مستويات التقدم الفنى (التكنيكي) ، قصد به إلى الإمتاع والمصانعة والتطمين .

وكان الناس قد تعلموا القراءة ، إذ وجد لديهم الزمن الوفير والحاجة الكبيرة إلى القراءة ، وكانوا يقرأون رغبة منهم فى كبع تبارات أذهانهم لا فى تشجيمها على الفيض .

والسيروالترسكوت (١٧٧١ – ١٨٣٧) شخصية سوف يحير الأجيال المقبلة نفوذها الهاتل على معاصريها ، كما حيرهم نفوذ اللورد بيرون . فإنه بدأ حياته الأدبية شاعراً ، وكتب قصيدتين قصصيتين مسببتين مليئتين بالثرثرة وذلاقة اللسان ؛ ثم انقلب يكتب سلسلة من القصص الرومانسية التاريخية . يمجد فيها الماضي الرومانسي . ويُشيد بالولاء للملكيات ، وبثراء التقاليد وجذالتها .

ولشد ما راقت هذه النغمة الأثرياء والحتلمانية الثراة ، وقد ملأ الحزع نفوسهم بالشكوك وعدم الطمأنينة التي أثارها حاضرهم المتغير المرتاب .

كان أبا لموجة من الروايات الرومانسية المعبرة عن الأسف ، لا فى كل العالم المنكلم بالإنجليزية فقط ، بل فى كل أرجاء أوربا .

فأما فى قارة أوربا ، فإن هذين الكاتبين اللذين أقبل الناس بصورة عجيبة على ترجة أدبهما شعراً أو بعبارة نثرية ، قد اتخذا رمزاً لموجة عظيمة مهمة من التأثيرات ، موجة معقدة المصدر مفككة غير مترابطة من حيث هدفها وكنهها ، موجة قد تبددت اليوم لحسن الحظ ونفض الناس أيديهم منها : وأعنى بها الحركة الرومانسية . وكان معناها عودة روخ القرون الوسطى ، وكان معناها عودة الألوان النضرة الزاهية ، وكان معناها الإياء بالمجبة إلى المغامرة فى الدروع السوابغ وعدم الارتباح للأساليب والمصالح المعاصرة . وكان معناها قيام الغريزة ضد العقل والعاطفة ضد العلم . وكان يخفف من حدة نزوعها إلى اللغة العتيقة المهجورة ما كان عليه حملة لوائها من تراح وخمول . وكانت أقرب إلى حالة السكر التى تعقبها العربدة منها إلى دور من أدوار التقدم الفكرى والجالى . ولم يقف الأمر بها عبد تعارضها مع حقائق الزمن الحاضر بل تجاوزته إلى التصاد والماضى الكلاسيكى . كانت حركة كاثوليكية كما كانت تنزع منزع المذهب الفردى ، وكانت هى المتعثة للفيرى (١) كاثوليكية كما كانت تنزع منزع المذهب الفردى ، وكانت هى المتعثة للفيرى (١) والرائعة فى أساطير مفتعلة زائفة ؛ كانت أى شىء ، وكانت إذا قدرتها تقديرها النهائى بجرد لا شىء .

وقد كتب عنها الكانبون فى ألمانيا كتابات هائلة وفيرة ، ولكنها عمّت كل أوربا . وادعى بعضهم أن شكسير كاتب رومانسى ؛ وقامت كذلك « فلسفة رومانسية ه وه لاهوت رومانسى » تجلى فيهما السخف والغباء . وظهر فى الإنجليزية قلعر جسيم من الروايات فى أزياء القرون السالفة ، وهي القرين الفكرى لعملية ابتعاث فن العارة القوطية فى إنجلترة ، وكان مماسرة البورصة والمتعبون من رجال الأعمال يجلون فرجة ينسون بها مسئوليات أعمالهم التجارية ، وينسون بها الوجود

⁽١) الفيرى (Pairy) : كبير من الآداب الأوربيه عامرة بقصص الفيرى التي يمترضون أنها كائنات فوق انسافية صفيرة الحجم وبزغمونها على صورة الإنسان وأن في يديها قوة صعرية خارقة . أ (المترجم)

كله والمصير الذي يسيرون إليه - إن كان ثمة مصير يظنون أمهم يسيرون إليه - بأن يستغرقوا في أحلام يرون فيها أنفسهم في صورة الصليبين البواسل والجنود الكماة والقراصنة المخيفين والمنقذين الآنسات اللواتي ألمت بهن النوازل ، وهي الشخصيات التي كانت تلك القصص تتخذ منها أبطالها . ولم يكن هناك حتى من يدعى أنه بقوم بتحليل مظاهر ومغزى الزمان الذي ظهرت فيه تلك القصص المرتدية أزياء الماضي ، وكان ذلك هو موطن السحر فيها . فكانت هي الملجأ الذي تلتجيء إلية عقول ترغب بكل قوتها في ألا تفكر . وكانت عقلية أبطال تلك القصص هي عقلية الطبقة الوسطى الغنية ، بعد تصفيتها ورفعها إلى المثل العليا .

وقد اعترف روبرت لوبس ستيڤنسون (١٨٥٠ – ١٨٩٤) آخر من لف لف سكوت من الكتاب الرومانسين ، بأنه كان يستطيع أن يأتى بخير مما أتى ، ونعت نفسه بلقب و البغى العقلى ، وهو ما كان عليه شأنه فى واقع الأمر . وهذا القصص المرتدى للأزياء العتيقة كتب أيضاً فى قارة أوربا ، ولكنه لم يصبح هناك البتة صناعة جدبة كما أصبح فى بلاد المجموعة الناطقة بالإنجليزية ، لأن التطور السريع لطبقة متوسطة ثرية مبالة إلى القراءة ، حدث فى القارة الأوربية فى زمن متاخر وفى ظروف أشد استثارة للأذهان .

وهناك تطور حديث جداً جاء على فترة توقف فى نمو القصة ، ويشر إليه ظهور شىء من النزوع إلى تجميع الروايات فى ثلاثيات أو توسيعها بأجزاء متممة لها ، ثم ظهر توسيع آخر قشيب لهذا الشكل. يبدو محتملا بفضله أن تتحول القصة إلى صورة للعالم بأجمعه ترى خلال أعين فرد طرازى (١) . وأشد هذه الروايات الطويلة الجديدة جدارة بالإعجاب رواية و جان كريستوف ، من تأليف رومان رولاند (١) ، وقد نشرت فى عشرة مجلدات متعاقبة . ومما يتصل انصالا وثيقاً مهذا التوسيع ، ظهور

⁽١) الفردى الطرازى (Typical) : اهو الذي يمثلك أو يظهر خصائص طراز بعيته بشكل تام بحيث يصبح حثالاً له أو هيئة منه تمثل الطراز كله . (المترجم)

⁽۲) رومان رولاند (۱۸۹۹ – ۱۹۶۹) كاتب فرنسى قصصى ومسرحى وملوس تأريخ للمرسقى مجامعة السوربون . كتب كتباً عن بيتبوڤن وهاندل ، وحصل على جائزة نوبل ۱۹۱۵ مكانأة له على قصة جان كريستوف الفسخمة . (المترجم)

الكتب الهائلة التي لا شكل لها ولا نهاية ، كتب الذكرى والتعليق والوصف ، التي يمثل طراز كتابتها پروست (المتوفى ١٩٢٢) . وهناك شخص يكاد يقف وحيداً في الدس العالم أجمع في هذا العصر هو أناتول فرانس (١٩٤٤ – ١٩٢٤) – الذي تبدى روايته و قصص برجريه المسلسلة (Bergeret Series) نفس المزعة إلى أن يحل على الرواية (Roman) المعزولة بحوادثها عما حولها تعليق سيار على الأشياء عامة . والآنسة دوروئي ريكاردسون التي تكتب بغزارة مشرقة معرة عن جدول ضيق من الحمرية المقصرية المقصة المطولة .

وهناك تغير شائق يتداخل القصة مع انتقال الزمن بالقرن التاسع حشر إلى العشرين ، هو الزيادة المطردة فى الأبحاث الاجتماعية والسياسية والدينية . وذلك أن الروائيين من طراز ديكنز وثاكارى كاثوا يكتبون لجمهور فكراته وقيمه الاجتماعية مستقرة أتم استقرار . فإنهم لا يناقشون شيئاً ، بل يفتر ضون وجود خلفية من المناظر الأخلائية ويركزون الاهتمام على الصفات الخلقية أعنى على الجبلات والطباع الشخصية . ولم يكن ثاكارى بناقش بل يعظ ؛ والوعظ شيء والمناقشة شيء آخر تماماً . وكانت الشخصيات ومسلكها في رواية القرن التاسع عشر قوام المادة التي يتكون منها الموضوع كله . على أن حالة عدم الاستقرار الذهني في الزمن الحاضر تجد نفسها منعكسة في القصص العصرى على صورة مناقشة للفكرات . ولم تنج اللراما من ثلك الذعة حيث دخلتها الفكرات والنظريات . وهي وإن أشبحت ميول الناس ، ولا أنها أسدلت شيئاً من الغموض على ذلك الصنف من صوغ الشخصية صياغة مؤكدة قوية وبها قدر من الحياة يعظم مالها في الواقع ؛ وهو أعلى ما تمتاز به القصة في العهد المكتوري .

وليس هناك من يشك أن فى الإمكان أن يلمس الإنسان فى أدب العصور الحوالى إبتداء من « قصة الحار الذهبي » فما تلاها ، _ إرهاصات بكل هذه التطورات فى القصة العصرية تتجه نحو نقد جوّال سهل هين للحياة وما فيها من وجهات نظر . ولكن شيئاً من هذه الإرهاصات فى ناحيتى الشكل والحجم لم يظهر فى أى شىء

ظهوره فى التنوع الكبير والحجم الفخم اللذين تمتاز بهما كتابات القرن التاسع عشر مهما يكن مدى قربها أو بعدها من شكل الرواية ، ولا تكاد أى منها تحتوى تلك الصفة الحاصة : صفة الحكم الحر غير الموجه فى شئون الحياة جملة وتفصلا ، وهي الصفة التي تميز ذهن القرن التاسع عشر وبها يتفاضل عن كل الأدوار التي مبقته .

وكان قيام والدراما و(١) يعتمد حتى ذلك الحين على وجود مجتمع مستقر ، له عادات ومعتقدات ثابتة ، يستطيع أن يمدها بجمهور نظارة مستمر عامر الفلب بالعطف عليها . وكان من الطبيعى في عصر من الفوضى الاجتماعية وإعادة بناء الحبتمع ، أن يتقوض ما استقر في الناس من عادات الذهاب إلى المسارح . ومن ثم نقد انقضى نصف قرن أو يزيد تحولت فيه عن المسرح الحشود المنوعة الأشكال من الناس الذين كانوا يفكرون ويناقشون ويبحثون عن الجديد من الأشياء . ومر المسرح الأوربي في دور تفاهة وانحطاط وأخذ يدارج الروايات والقصص الرومانسية الشعبية في نزعها إلى تمكين الناس من قضاء الوقت في سمر لطيف .

وكانت والدراما والفرنسية رشيقة وإن كانت جوفاء وكذلك كان شأن الدراما في المجلترة . وإن لم تصل مطلقاً إلى درجة الرشاقة الفرنسية . والحق إن القوى العظيمة التي كانت تطالب بالمناقشة والفكرات أخفت تبدى أثرها في العالم الدرامي بغاية التدرج وفي وجه معارضة هاثلة من النقاد . وكان إبسين النرويجي (١٨٢٨ – ١٩٠٦) هو الشخصية الفعالة المركزية التي بفضلها عادت الدراما إلى الانجاه نحو مناقشة الحقيقة المعاصرة . وكان لنزوة بارى (Bairre) اللطيفة أثر كبير في تحطيم التقاليد الجامدة و المسرحية المحبوكة و كما كانوا يسمونها في انجلترة ، ثم شرع برناردشو (Shaw) المولود في (١٨٥٠ – ١٩٠١) يكافح في بطء مرتفعاً إلى أوج التفوق والنفوذ يا

⁽١) الدراما هي فن التأليف والتمثيل المسرسي . ﴿ المُعْرَجِمِ ﴾

 ⁽٢) چورج برناردشو ؛ المترفى فى نوفېر ١٩٤٠ وهو الكاتب القصعى والمسرحى العطيم .
 رلد بدللن وانتقل إلى ئندن حيت زاع صيه وراجت مؤلفاته التى تمه بالمثات وحصل على حائزة نربل ١٩٢٥ . (المترجم)

ومن أبرز الدراميين الألمان في هذا الدور الجديد دور الاخلاص والقوة ، هوبتمان المولود في (١٨٩٧) وقد أوقفت الحرب حركة النشاط الدرامي ردحاً من الزمن ، ولكن انتهاءها أطلق فيضاً عما من النشاط الحي المبشر بالحر على كل من جانبي المحيط الأطلسي . وبنعم المسرح في كل أوربا وأمريكا في الوقت الحاضر بظل وارف قوى من الاستحداث والتجديد .

فإذا حولنا أنظارنا إلى تطور الأدب الأمريكي ، وجب علينا أن نمز بين دورين متباينين أشدالتباين ، أولها دور السيادة الأوربية ، ما بين انجليزية وفرنسية، وثانيهما دور الفكاك وانطلاق السراح . وقد مضى على المناشط الأدبية الأمريكية حين طويل من الدهر تركزت أثناءه في نيوانجلند ، ولم تكن إلا محض فرع وإن يكن فرعاً عنياً عارماً من الأدب العام الإنجليزي والأوربي . وكان مركز ذلك مدينة بوسطن . وأكثر كتاب هذا الدور من الحديث في إعلان الاستقلال ، ولكنهم من حيث استمرار « الشكل والمنهج » كانوا كمن لم يدرك بعد أن الاستقلال قد وقع فعلا . وكانت لأمريكا أذواقها المميزة ؛ فإنها كانت أسرع من انجلترة إلى التقاط كارليل ؛ وأخذت ترسل نغمة من عندياتها تتجلى في مقالات إمرسون (١٨٠٣ - ١٨٨٢) ؛ على أن لونجفلو لم يكن إلا مجرد شاعر إنجليزي تصادف أن ولد في أمريكا وأن كتب في موضوعات أمريكية . وكان إدجار ألان پو (١٨٠٩ – ١٨٤٩) يتبع في كتابته مناهج أوربية أكثر منها إنجلبرية ، وأبدى هوثورن (١٨٠٤ – ١٨٦٤) أن به لمسة من شعوذة تيوتونية لما وعبها الذاتي . وكذلك كتب و . د . هاولز (۱۸۳۷ – ۱۹۲۰) سلسلة من الروايات المتزمتة الممتازة ، بطريقة تسلكه في سمط مع توماس هاردي تحت نوع المدرسة الفرنسية في تصنيف عام للرواية . وكان هنري چيمس (١٨٤٣ – ١٩١٦) أمريكياً ولكنه لم يكن يكتب على شاكلة الانجليز ولا شاكلة الأمريكان ، بل كأمريكي انتقل إلى بيئة أوربية ؛ وكانت مناظره على الدوام أوربية ، وكان موضوعه الأثير لدبه هو الاصطدام بين الأمريكي الساذج وبين معقدات المدنيات القدعة

ولعل أشد كتاب القرن التاسع عشر أصطباغاً بالروح الأمريكية مارك توين^(۱) (۱۸۳۵ – ۱۹۱۰) .

ولم يحدث إلا بعد بزوغ فجر القرن الجديد أن شرع الكتاب الأمريكيون بوصفهم هيئة في مهاجمة ظواهر الحياة الإجتماعية الجديدة ومشكلاتها في أمريكا ، مُهاجمة يتجلى فيها شيء يشبه القوة الطليقة التي يتحلى بها خير ما أثر عن أوربا من تقاليد . وإنما تظهر كتب من أمثال شارع مِن « Main Street » « وبابيت » لسنكلىر لويس (١٨٨٥ – ١٩٥١) والتراچيديا الأمريكية لدرايزر (١٨٧١ – ١٩٤٦) ، وقد أصبح الذكاء الأمريكي مهمّا بأمريكا اهتماماً مباشراً بحتاً غبر ناظر بعد ذلك أيداً صوب الشرق يطلب المنهاج والاستحسان من أوربا. والواقع أن الشعر ورسائل الغرام الأمريكية قد أصبحت مستقلة استقلالا توشك أن تبدو فيه روح العدوان . ويحاول أمثال مينكن (١٨٨٠ ـــ ١٩٥٦) من الكتاب الناقدين أن يروعوا العالم بما يمتازون به من القشاية وصفاء الرؤيا ، بمحاولات يتجلى فيها الجد والاجلاب والحدة . وكذلك يتكشف كتاب من أمثال شروود أندرسون (١٨٧٦ - . ١٩٤١) وچيمس برانش كابل (المولود ١٨٧٩) عن جدة وقوة ابتكار تبشر بكل خير . ومع أنه لا بوجد حتى الآن في عالم الأدب الأمريكي العصرى أسماء عظيمة ممتازة تلفت الأنظار (٣) ، ولا انتاج مثقن إتقاناً كبيراً ، فإنه من العسير على المرء إذا راعي ما عليه حال ذلك الجمهور الكبر الجديد الميال للقراءة ، من الثَّراء والوفرة والتطلع الضخم ، أن يعتقد أنه لن تظهر هناك للفور هيئة ضخمة لإنتاج أدبى من الطراز الأول تظهر استجابة لما تتطلبه الفرص الأمريكية السائحة .

ونيس من اليسير في الوقت الحاضر على كاتب أور أن يقدر درجة جودة الأدب الهندى إبان القرن الأخير . فإن الحكم البريطاني يجنح إلى تجاهل الجهد

⁽١) مارك توبن اسم القلم الذي أطلقه على نفسه الكاتب الأمريكي صمويل لا مجهورن كليمنز ، المولود في فلوريدا ، وكان كاتباً فكها مسلياً . (المترجم)

 ⁽٢) لقد ظهرت الأدب الأمريكي بعد وفاة المؤلف أمها، لا معة كثيرة منها إرتست همنج
 أي . (المترجم)

الفكرى الهندى أو التقليل من شأنه ، وليست توجد إلا ترجمات قليلة من بين العدد المضخم من الحكايات والقصص المكتوبة باللغات الوطنية حول الحياة المعاصرة والني أنتجت في السنوات الأخيرة . ولر ايندرانات طاغور (١١ (١٩٤١ – ١٩٤١) شهرة عظيمة في الغرب . على أنه معروف بوصفه شاعراً أكثر منه روائياً وكاتباً سياسياً ، ويلوح أن الشرق يتعقب خطى الغرب في تطوراته الاقتصادية والإجهاعية ويوم تصبح القوى الحديدة التي كونت القصة العظيمة والرواية القصيرة والأقصوصة والقصيدة الغنائية القصيرة ، وهي الأشكال القائمة للتعبير الأدبى في الغرب – ذات أثر فعال في آسيا ، فلعلها تنتج نتائج مماثلة . وتنطوى البابان والصين على حركة اختيار ذهني كبيرة جداً . وما يزال فن الترجمة والتأويل بين الشرق والغرب فجا غير متطور كما لا يزال بحاجة إلى التنظيم ، على أن هذه أمور لا يبرح بلحقها النحسين والتوسع السريع ، وقد لا يكون بعيداً ذلك الزمن الذي يصبح فيه كتاب النحسين والتوسع السريع ، وقد لا يكون بعيداً ذلك الزمن الذي يصبح فيه كتاب المنحس المناه تقريباً موضع المناه على أن هده أمور من القراء يعم أرجاء الهالم كلها .

فأما البحث العلمي والفكر الفلسفي والتشاط الأدبي العام في هذه المدة التي تأملناها ، فكانت أوفر كثيراً وأعلى كثيراً في كنهها عامة وتصل إلى يد عدد أوفر من الناس ، ونسبة أكبر من سكان العالم تفوق ما كان عليه الحال من قبل ، وليس هناك أبداً ما يدل على أي توقف جسم في هذا الفيض الفكرى اللهمي الطرد الاتساع .

⁽١) طاعور (١٨٦١ - ١٩٤١) شاعر وكاتب هندى ، ولد في كلكتا . وكان من أعظم رجال الهند الحديثة ، وكان كاتباً وتصحياً ومربياً ورطنياً عظيماً . وكانت مثله العليا تدعو إلى البساطة في الهند الحديثة ، وكان كاتباً وتصحياً ومربياً والفلمفة الشرقية . حصل على جائزة ثوبل سنة ١٩١٣ . العيش وإلى إيجاد علاقة بين التربية الغربية والفلمفة الشرقية . حصل على جائزة ثوبل سنة ١٩١٣ .

لفصرال أم والثلاثون كارثة الإستعاد العصرى (''

٣ – الولايات المتحدة والذكرة الاستعارية

٧ - الأسباب المباشرة الحرب العظمى

٨ – خلاصة للحرب العظمي حتى ١٩١٧ .

ه - الحرب العظمى منذ إلهيار الروسيا إلى ألهائة.

١ - السلام) السلم قبل الحرب العظمى

٧ - ألمانيا القيصرية

٣ - الروح الاستمارية في بريطانيا وإراسة

٤ - الله عات الاستمارية في فرنسا و إيطالياو البلغان

ه – الروسها تصبح ملكية عظمي

١ - السلام المسلح قبل الحرب العظمى

احتفظت أوربا طوال ستة وثلاثين عاماً بعد معاهدة سان استفانو وموتم برئين ، بسلم مقلقل داخل حدودها ولم ننشب أية حرب بين الدول الكبرى إبان تلك المدة . بل كانت إحداها تحتك بالأخوى وتخفها وتهددها ولكنها لا تصل إلى الحرب الفعلية وقد أدرك الناس عامة بعد ١٨٧١ أن الحرب العصرية أمر أشد خطورة بكثير من الحرب التي كان يقوم بها الجند المحترفون في القرن الثامن عشر ، وأنها جمهود الشعوب يكلياتها ربما حض على التكوين الاجتماعي عضاً عنيفاً ، وأنها معامرة يجدر بالناس ألا يتهوروا بالإقدام عليها . ذلك أن الانقلاب الميكانيكي ما برح يقدم أسلحة مطردة القوة منزايدة النفقة في المر والبحر ، ويستجدث وسائل للمواصلات أسرع ؛ كما كا يزيد كل يوم في تعذر مواصلة الحرب بدون إحداث زعزعة نامة لحياة المجتمع يزيد كل يوم في تعذر مواصلة الحرب بدون إحداث زعزعة نامة لحياة المجتمع

⁽١) أطلق المجمع اللغوى كلمة التسلطية لتكون مقابلا الفظة (imperialism) وهي المبدأ الداعي إلى توسيع رقمة الدولة بالاستمار والاستلحاق والإضافة كلما وكيفها أسكن خلك ، وإلى ربط الدولة أر الإمبراطورية مختلف ممتلكاتها حتى تصبح وحدة وثيقة الترابط ؛ وقد استعملنا لفظة الاستمار أحياناً حين رأينا المقام يقتضيها فصلا عن استخدامنا لفظة إمبريالية لنفس المني . (المترجم)

الاقتصادية . بل لقد بلغ الأمر أن وزارات الحارجية نفسها أخذت توجس من الحرب خيفة .

ومع أن الناس كانوا يخشون الحرب كما لم يخشوها قط في العالم فيا سلف ، لم يقم أحد بعمل يرمى إلى إقامة رقابة اتحادية لمنع الشئون الانسانية من أن تسير في طريق الحرب . حقاً إنه حدث في ١٨٩٨ أن القبصر الشاب نيقولا الثاني طريق الحرب . المحرب المحبا ملكياً يدعو به الدول الكبرى الأخرى إلى عقد موتمر دولى يرمى : وإلى تمكين المفكرة الكبرى فكرة السلام المام من النصر على عناصر الشغب والفرقة . ويذكرنا تصريحه هذا بالاعلان الذي أعلنه سلفه إسكندر الأول والذي كان يدعو فيه لفكرة المحالمة ، ولكن الشيء الذي أفسد التصريح القراض هؤلاء السادة بأن السلام يمكن أن يؤسس بين حكومات ذات سيادة ، لا باللجوء الشامل إلى حاجات وحقوق شعب البشرية الواحد . فأما المدرس المستفاد من الولايات المتحدة الأمريكية وعظها التي أظهرت أنه من الحال أن توجد وحدة في العمل أو سلام حتى تتغلب على النعرة القائلة و الشعب فرجينيا » — « وشعب ماساشوستس » فكرة و شعب الولايات المتحدة » جمعاء — فقد أغفل إغفالا ناماً في ما بذل من محاولات للسلام في أوربا .

وعقد مو تمران في لاهاى بهولندة ، أحدهما في ١٨٩٩ والثاني في ١٩٠٧ ، وكانت كل دول العالم ذات السيادة عملة تقريباً في ذلك المو تمر الثانى . على أن تمثيل تلك الدول كان تمثيلا ديبلوماسيا ، ولم يصدر أى توجيه يلفت الفطنة العالمية العامة إلى منافشات المؤتمر وأعماله . بل إن الرجل العادى لم يكن ليعرف حتى مجرد أن هذين المو تمرين كانا ينعقدان ، وكان الممثلون الحجتمعون يقومون في معظم أمرهم بمراوغات ثعلبانية حول نقط في القانون الدولي تمس الحرب ، مهملين موضوع إلغاء الحرب زعماً منهم أنها وهم مخيف لا ظل له من الحقيقة . ولم يسفر هذان المؤتمران عن ثمرة ما تبدد الفكرة القائلة بأن الحياة الدولية إنما هي حياة منافسة بحكم الضرورة . بل على العكس فإن المؤتمرين فيهماً سلموا بهذه الفكرة . ولم يقوموا بأى المضرورة . بل على العكس فإن المؤتمرين فيهماً سلموا بهذه الفكرة . ولم يقوموا بأى شيء بطورون به الوعى الحاص بالدولة العامة العالمية التي تعلو هامات الملوك

ووزارات الخارجية . وكان رجال السياسة والقانون الدولى الذين حضروا هذين الاجتماعين غير ميالين إلى الإسراع بإنشاء دولة عالمية على مثل هذا الأساس ، شأمم في ذلك شأن رجال السياسة البروسيين في ١٨٤٨ في عزوفهم عن الترحيب ببرلمان يمثل ألمانيا كلها ويسمو فوق حقوق وسياسة ملك بروسيا .

وفى أمريكا عقدت سلسلة من ثلاث مؤتمرات ترمى إلى إنشاء كتلة أمربكية فى المربك من المربك
ولن نناقش هنا فى أى إسهاب شخصية وحسن نية نيقولا الثانى الذى كان حليف صاحب الفضل فى عقد مو تمرى لاهاى هذين ، فلعله زعم أن الزمان كان حليف الروسيا . على أن الأمر الذى لا شك فيه أن الدول العظمى قد نفرت جميعاً من احمال تقيام قوة تغطى على الدول ذوات السيادة وتغمرها فى طياتها ، وهى القوة التى لا تكون مشروعات السلم الدائم بدوتها إلا سخفاً وهراء . ولم يكن ما يرغبون فيه هو إيقاف ائتنافس الدولى ومرحلته الحامية المنيغة وأعنى بها الحرب ، بل يبتغون تمفيض نفقات الحرب التى أخذت تصبح باهظة ثقيلة . وكانت كل من الدول ترغب فى الاقتصار فيا ينتج عن المنازعات والمشاحنات الصغرى من سرف ، وتشريع قوانين دولية تربك أقوى خصومها أثناء الحرب دون أن تضابق نفسها بشيء . تلك هى الغايات العملية التى يطلبون من مو تمر لاهاى . كان أجماعاً حضروه ليرضوا نيقولا الثانى على نفس الشاكلة التى اشترك بها ملوك أوربا فى المقرحات الدينية المسيحية الخاصة بالحلف القسدس لكى يرضوا إسكندر الأول ، ولما أن حضروه حاولوا جاهدين أن يحصلوا منه على ما ظنوه شيئاً من الإفادة به لأنفسهم .

٢ - ألمانيا القيصرية

غادر صلح قرانكفورت ألمانيا موحدة مصطبغة باللون البروسي ، وخلفها اشد دول أوربا الكيرى منة . وكانت فرنسا قد أصبحت ذليلة عاجزة وبات محتملا أن تحولها إلى النظام الجمهوى قد يفضى إلى تركها وحيدة بغير صديق فى أى من البلاطات الأوربية . وكانت إبطاليا حتى آنذاك مجرد دولة حديثة العهد . وأخذت النمسا تندهور سريعاً آنذاك إلى مرتبة الولاية التابعة فى السياسة الألمانية . وكانت الروسيا دولة ضخمة ولكنها غير مطورة ولا منظمة . ولم تكن الإمراطورية البريطانية ذات بأس إلا على صفحة البحر . فأما خارح أوربا فإن الدولة الوحيدة التي كانت المانيا تحسب حسابها فهى الولايات المتحدة ، وقد تنمو عند ذاك وتصبح أمة صناعية كبيرة ، وإن لم يكن لها جيش ولا أسطول جديران بأى اعتبار حسب المعابر الأوربية .

وكانت ألمانيا الجديدة التي ضميها الإمبراطورية التي خُلفت في فرساى ، مزيجاً مركباً مدهشاً من قشيب القوى اللهنية والمادية في العالم ، مع أضيق ما فى النظام الأوربي من تقاليد سياسية . اتجهت إلى التعليم بكل قوتها ، فكانت أشد دول العالم قاطبة اهماماً بالتعليم . فهي صاحبة السبق في التعليم والقائدة لكل جبرانها ومنافسها .

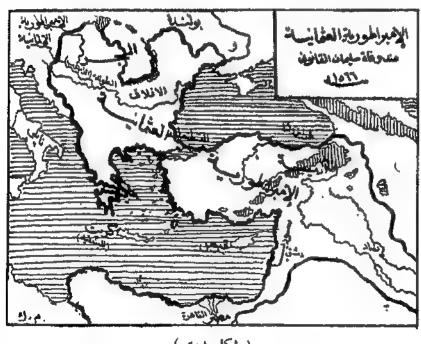
وفى هذا الوقت الذى نقدم فيه حساب ألمانيا ، ربما ساعد القارئ البريطانى على اتخاذ موقف متزن منها أن متذكر تلك الاستثارة التعليمية التى تدين بها بلاده للأمبر الألمانى زوج الملكة فكتوريا أولا ثم للمنافسة الألمانية . فإن تلك الغيرة الوضيعة التى كانت تخالج طبقة الحكام فى بريطانيا من الرجل العادى المتعلم ، والتى لم يستطع أى شعور بالكبرياء الوطنى أو بالدافع السمح الكريم أن يتغلب عليها أبداً ، تلك الغيرة قد تقوضت إزاء ذلك الحوف المتزايد من الكفاية الألمانية . وحملت ألمانيا نظام البحث العلمي ونظام تطبيق الطريقة العلمية فى التطورات الصناعية والاجتماعية ، على مستوى من الإيمان والنشاط والهمة لم يصل إليه مجتمع آخر من قبل قط

نكانت ألمانيا طيلة كل هذه فترة الهدنة المسلحة تحصدُّ وتبدّر من جديد ثم تعود وتحصد المحاصيل ، المحاصيل الثابتة المضمونة ، العائدة من العرفان المنثور نثراً طليقاً . وسارت ألمانيا بخطى سريعة حتى أصبحت دولة صناعية وتجارية كبرى ، وقد يز

إنتاجها في الصلب إنتاج بريطانيا ؛ وأصبحت ألمانيا قائدة العالم ورائده في مثات من الميادين الجديدة للانتاج والتجارة ، حيث المعول الأول على الذكاء والنظام أكثر منه على بجرد مكر التاجر ، من أمثال جسناعة زجاج العدسات ، والأصباغ وعدد كبير من المنتجات الكياوية ، وفيا لا محصى من العمليات المستحدثة . وقد اعتاد أصحاب المصانع البريطانيين أن يروا المخترعات تنحدر إلى مصانعهم مصحوبة برجاء قبولها واستعالها ، ودون أن يعرفوا من أبن جاست تلك المستحدثات ولا لماذا جاءت ، ولذا كانوا برون في هذا الأسلوب الألماني الجديد الذي يحتفظ برجال العلم ويدفع لم المرتبات ، معاملة ظالمة ظلماً بشعاً . وكانوا يشعرون بأن ذلك ضرب من اجتذاب الأموال قسراً . أو قل إن ذلك في نظرهم كان ضرباً من رص أوراق اللعب بقصد الغش والتدليس . وكان ذلك أمراً ينطوى على تشجيع طقة دنسة من العمليات الذكية أن يتدخلوا في شئون رجال الأعمال الشرعيين . ولذا فإن العلم غادر موطنه الأول إلى الخارج كما يغادر الطفل المكروه دار أبيه . إذ أن صناعة ألمانيا الكيائية الفاخرة كان الأصل فيها عمل السيروليم بركن ذلك الرجل الانجليزى ، الذي لم يجد من بين رجال الأعمال الانجليز رجلا « عملياً » يناصره .

كذلك قادت ألمانيا العالم في كثير من أشكال التشريعات الاجتماعية . إذ أدركت المانيا أن العامل و رصيد و و أن ذلك الرصيد تبليه العطالة ، وأنه لابد من أجل الحير المشرك من أن يعنى به خارج المصانع . وكان صاحب العمل البريطاني ما يزال متأثراً بالحدعة القائلة بأنه ليس من حتى العامل أن يعيش خارج المصنع ، وأنه كلما ساء حال عيشه الحارجي ذاك ، كان ذلك خيراً له على شاكله ما . زد على ذلك أن اصحاب الأعمال كانوا بسبب تفشى الأمية بينهم شديدى النزعة الفردية ، ولذا فإن المنافسة الشائعة بينهم كانت من الصنف الأحتى الذي يتمنز به العقل السوقى . وكان الواحد منهم يكره من يحيطون به من أصحاب المصانع كرهه عماله وزبائنه . فأما المنتجون الألمان فكانوا من الناحية الأخرى ، مقتنعين بالفوائد الكبرة التي تجنى من التضامن والدمائة . ولذا كانت مشروعاتهم تنزع إلى السركتلة واحدة وتتخذ رويداً رويداً سمة العمل القوى .

وكانت ألمانيا هذه المعلمة لشعها والعلمية الروح والمنظمة لأعمالها هي النطور الطبيمي لألمانيا التحررية في ١٨٤٨ ؛ وكانت جذورها ترجع إلى عهد قديم بعيد وإلى ذلك الجهد الناجع الذي كان يستمد الدافع من الحجل من الفتوح الناپليونية . فكل مانالها من خبر ، وكل ما أصابت من عظمة ، فألمانيا العصرية هذه تدين فيه لمدرسها بالفضل الكبير .



(شکل ۲۰۸)

على أن هذا الروح العلمي المنظم لم يكن إلا واحداً من العاملين اللذين كونا الإمبراطورية الألمانية الجديدة . فأما العامل الثاني فهو أسرة هوهنزولرن الى بقيت بعد معركة بينا ، والتي خدعت ثورة ١٨٤٨ وتغلبت علمها ، والتي ارتفعت الآن بقيادة بسمارك إلى مرتبة الرياسة الشرعية لألمانيا بأجمعها فيما عدا النمسا. وفيما عدا الروسيا القيصرية لم تحافظ دولة أوربية أخرى على تقاليد ملكية القرن الثامن عشر العظمي كما فعلت الدولة البروسية . فكان مكيافلي عند ذاك هو المسيطر على ألمانيا بطريق تقاليد فردريك الأكبر. وعلى ذلك فإنه لم يكن يجلس على عرش هذه

الدولة العصرية الجديدة الممتازة عقل عصرى ممتاز يقودها إلى السيادة العالمية في خدمة العالم ، بل كان يتولاها عنكبوت عجوز يتحرق شوقاً إلى القوة . فكانت ألمانها البروسية هي في نفس الوقت أحدث وأقدم شيء في أوربا الغربية . كانت خير الدول في زمانها وأشدها شراً .

ولم تزل سيكولوجية الأم على بدائياً ليس غير . فإن على النفس لم يكادوا يبدأون بعد في دراسة ناحية المواطن في الرجل الفرد . على أننا نرى من الفائدة القصوى لموضوعنا أن يوجه دارس التاريخ العام شيئاً من تفكيره إلى النمو العقلي في أجيال المتعلمين الألمان منذ انتصارات ١٨٧١ . فمن الطبيعي أن يداخلهم الغرور لما أصابوه من انتقال سريع من الفاقة النسبية إلى الثراء المطلق . ولعلنا نكلفهم ضد طبيعة الإنسان إذا توقعنا مهم ألا يغلب عليهم شيء من الإسراف في الغرور الوطني . ولكن هذا رد الفعل قد أمسك به قصداً وتُمهد وتُمتي بواسطة استغلال ينظمه ورقابة متحكمة للمدرسة والجامعة والآدب والصحافة لمصلحة آل هو هنزولرن .

فكل مدرس أو أستاذ فى الجامعة لا يدرس ولا يبشر بمناسبة وبغير مناسبة باستعلاء الألمانيين العنصرى والذهني والجاني والجثماني على بقية الشعوب جميعاً ، وتعلقهم غير العادى بالحرب وأسرتهم المالكة ، ومركزهم الذى لا محيص للأيام من أن تبوتهم إياه تحت هذه الأسرة في قيادة العالم ، — فشخص شاذ قد ند عن الجماعة وقدر عليه الفشل وضباع المستقبل . وأمسى تعليم التاريخ في ألمانيا تزييفاً هائلا منظا لماضى البشرية ، لا ينظر إلا إلا مستقبل آل هوهنزولرن . وكانت على الشعوب الأخرى تُمثل لأنظارهم في صورة المنحلة غير ذات الكفاية ؛ وأن البروسيين هم قادة الجنس البشرى ومجددو شبابه .

فيقرأ شباب ألمانيا هذا القول في المدرسة ويسمعونه في الكنيسة ، ويجدونه على صفحات كتب الأدب ، ثم يصبه فيهم بحمية ولمان وثيق أستاذهم ، ويبثه فيهم كل أساندتهم بلا استثناء . وإن المحاضرين في علم البيولوجيا والرياضيات لينفلتون من موضوعاتهم الأصلية لينعموا بفقرات طويلة من الهذر الوطني . ولم يكن

ليستطيع أن يقاوم مثل هذا السيل التهمر من الإيحاء إلا من أو توا عقولا قوية ذات أصالة غير عادية . وهكذا أقيمت في ذهن الألمان دون أن يشعروا فكرة تصور ألمانيا وقيصرها في صورة الشيء المستعلى الفاخر الفخم الذي لم ير العالم مثله من قبل ، صورة شعب صيغ على غرار الآلهة وألبس « دروعاً سابغات لامعة » وهو -بز « الحسام الألماني البتار » وسط عالم من شعوب أدنى مرتبة ذات نفوس ميالة للشر .

ولقد أسلفنا إليك قصة أوربا ، وفي إمكان القارئ أن يحكم هل كان بريق السيف الألماني يخطف الأبصار حقاً بشكل ليس له من ضربب ؟ . إن و جرمانيا » كانت تُعطى المخدر عداً ، ثم تُستبقى ثملة بطريقة مرتبة منظمة ، بواسطة هذا الضرب من البلاغة الوطنية . وإن أكبر جريمة اقترفها آل هو هنزولرن أن تاجهم كان يعبث بالتعليم عبثاً متواصلا ملحاحاً ، وبوجه خاص بتعليم التاريخ . ولم تقرف أية دولة عصرية أخرى مثل هذا الاسم فى حق التعليم ، أجل إن حكم القلة (الأوليجركية) فى الجمهورية البريطانية المتوجة ربما يكون عرقل التعليم ومنع عنه القوت ، ولكن آل هو هنزوارن قد أفسدوه واتخذوا منه بغياً .

ولسنا نغانى مهما بالفنا فى توضيح تلك الحقيقة -- التى هى أعظم حقائق تاريخ نصف القرن الأخير أهمية -- إذا قلنا إن الشعب الألمانى قد بثت فيه بطريقة مهاجية الفكرة القائلة بسيادة ألمانيا العالمية المؤسسة على القوة والجبروت ، والنظرية القائلة بأن الحرب ضرورة من ضرورات الحياة . وإنك لتعثر على مفتاح السياسة الألمانية فى تعليم التاريخ فيا أثر عن الكونت مولتكه من قوله : «إن السلام الدائم حلم من الأحلام بل إنه ليس حلا جميلا ، وإنما الحرب عنصر من عناصر نظام العالم أمر به الله . فلولا الحرب لأمن العالم وفقد نفسه فى الروح المادية . » كذلك وجد الفيلسوف الألمانى نيتشه نفسه متفقاً فى الآراء مع هذا الفيلد ماريشال الورع !! . . فيقول « إن من عض الرهم وجميل العاطفة ، أن يتوقع المرء شيئاً كثيراً ، بله أى شيء من البشرية إذا هى نسيت كيف تشب نار الحرب ولا يعرف الناس حتى يومنا هذا وسيلة تدعو كل شيء إلى الحركة والنشاط قدر ما تفعل إحدى الحروب الكبرى : تلك الطاقة

الحشنة التي يتخمض عنها المعسكر ، وذلك الضرب العميق من فناء الشخصية الذي يستقى وجوده من الكراهية ، وذلك الضمير المستى من القتل ورياطة الحاش ، وتلك الحمية الراجعة إلى الجهد المبلول في إبادة الأعداء ، وذلك الكبرياء الذي يوحى بعدم الاكتراث بالحسائر ، بل بوجود المرء نفسه ، بل بوجود زملائه أيضا ؛ وذلك الضرب من رج النفوس رج الزلزال الذي يحتاجه الشعب إذا هو فقد حيويته » .

وكان حيّا أن يلحظ الناس فى الخارج ذلك النوع من التعليم الذى كان يأخذ بأطراف الإمبراطورية الألمانية من أقصاها إلى أقصاها ، وكان حيّا أن تنزعج له كل دولة أخرى وكل شعب آخر فى العالم ، وكان حيّا أن يستثير تحالفاً ضد الألمان ، خاصة وقد محصبته مظاهرة من استعدادات القوة العسكرية ، سرعان ما عقبها استعدادات للقوة البحرية ، هددت فرنسا والروسيا وبربطانيا على السواء . وأثرت تلك التربية أيضاً فى أفكار الشعب الألماني وأعلاقه ومعنوياته .

فبعد ١٨٧١ كان الألماني في خارج بلاده يبرز صدره ويرفع عقيرته . فنزل العالم يحيط به جو من الدفع بالمناكب والدوس بالأقدام حتى في العمليات التجارية البحتة . وجاءت آلاته إلى أسواق العالم ونحرت سفنه البحار فكان لها رشاش من التحدى الوطني . بل لقد طالما استعمل مناقبه وعاسنه نفسها وسيلة لتكدير صفو من عداه . (والراجح أن معظم الشعوب الأخرى ، ما كانت لنسلك إلا مثل هذا السبيل ، لو أنها لقيت مثل تجاربهم وتلقت نفس تعليمهم .)

وقد حدث بسبب بعض ما يحدث في التاريخ من مصادفات تتقمص الكوارث وتعجل بها ، أن حاكم ألمانيا وأعنى به القيصر غليوم الثانى كان يقجسم فيه التعليم الجديد لشعبه والتقاليد الهوهنزولرنية بأكل أشكالها . تولى العرش في ١٨٨٨ وجو في التاسعة والعشرين ؛ وكان أبوه فر دربك الثالث قد حقب جده غليوم الأول في مارس ولكنه توفى في يونيه من تلك السنة نفسها . وكان غليوم الثانى حقيداً للملكة فكتوريا من ناحية أمه ، ولكن لم يبد على مزاجه أى أثر التقاليد الألمانية التحررية التي تمتاز مها عائلة ساكس كوبرج جوثا . بل كانت رأسه مليثة بذلك الزبد الأجوف عن والتسلطية ، الجديدة . وقد ميز توليته العرش بخطاب وجهه إلى جيشه وأسطوله ،

وجاء خطابه إلى شعبه بعد ذلك بثلاثة أيام . وبذلك ارتفعت في الجو نغمة عالمية من الإحتقار للديمقراطية : « إن الجندى والجيش وليس الأغلبيات البرلمانية هما اللذان التحمت على أيدسهما أجزاء الإمبراطورية الألمانية بعضها ببعض ، وإنى لأضع ثقني في الجيش ، وهكذا أنكر الإمبراطور عمل المدرسين الألمان الذي قاموا به بصبر براد ، وأسلن سايل آل دو درولون على الله الدرسين الألمان الذي قاموا به بصبر براد ، وأسلن سايل آل دو درولون على الله الدراد و المناف الدي قاموا به بصبر

وكنات تائية مائن اللك الدائم، أن يذماسو من مستشاره الشيخ بسيارك (١٨١٥ – ١٨٩٨) ولم ١٨٩٨) ، اللمان تبان الوشر اطورية الألمائية الجلميدة وأن عزله لد (١٨٣٠) ولم تكن مناك أية محلاقات مظيمة في الرأى بيثهما ، ولكن الأمركان كما عبر عنه بديادك . أن الإدراطة وقرر أن يكون ماتشاراً لنصاب.

و ماتان المادة ان الدساران الاستهلاليان الياة بالي فيها الساط والعادوان. وكان غايوم النان الذات بدر إلى إحداث صابة في العالم ، فسجة اعلى حموتاً عما أتاه أي المائ آمر في العالم . و مرعال العداث صابة في كل أوريا شديس الداهل الجديد ، وعدر على الدوام في ذي عدكري أثد ما يكم ن برية أوالناعا ، وبتفرس بعينيه تفرس الكلي الشجاع وقد فتل شارباه فتلا عسفاً ، كما أخفى بمنارة فراعه الأيسر الأكتع الصغير الحجم . وكان يضع على صدره لوحات من المعدن الفضى البراق وبرندى عباءات طويلة بيضاء . وتجلت في الأنق سحائب عظيمة من القلق . وكان واضحاً أنه يرى في نفسه شخصاً وضعت بن يديه مقدرات أمور عظيمة ، ولكن انقضى على الناس زمن لم يتبينوا فيه ما هي تلك المقدرات الخاصة العظيمة ، قلم يكن هناك أمانف بهنف في داني أنه لا بد عملم إمعراطورية عظيمة . ألم يكن هناك أمانف بهنف في داني أنه لا بد عملم إمعراطورية عظيمة .

وقد داخل الانزعاج كثيراً من رعاياه لما شهدوه عليه من مظاهر مسرحية أعقبها عزل بسارك ، ولكن اطمأنت قلومهم من نورهم إلى أنه إنما يستعمل نفوذه فى توطيد السلم وفى تمكن الروابط المتينة بن أجزاء ألمانيا . ولقد أكثر من السفر ، إلى لندن

⁽۱) يشير المؤلف هنا إلى النبوءة التي تلقاها كروسوس من وحى دلفى عندما استشاره في أمر مجاربة قورش (انظر ص ٣٤٣ ط ٢ المعالم) . (المترجم)

وفيينا وروما (حيث قام بمحادثات خاصة مع البابا) وإلى ألينا ، (حيث تزوجت شقيقته من الملك في ١٨٨٩) وإلى القسطنطينية . فكان أول عاهل مسيحي حل ضيفاً على سلطان . كذلك ذهب إلى فلسطين . ونقبت له في صور بيت المقدس القديم بواية خاصة حتى يستطيع أن يدخل المدينة راكباً ؛ إذ كان الدخول إليها على القدم أمراً لا يتناسب ومكانته . وحمل السلطان على البدء بإعادة تنظيم الجيش التركى على أسس ألمانية وبقيادة ضباط ألمان .

وفى ١٨٩٥ أعلن أن ألمانيا و دولة عالمية كبرى و أن و مستقبل ألمانيا يقوم فى صفحة البحر » سخير عابي إلى أن البريطانيين كانوا يعدون أنفسهم مستوين على سطحه من قبل وأصحاب الحق فيه . وأخذ يهم أكثر فأكثر ببناء بحرية عظيمة . كذلك وضع الفن الألماني والأدب والألماني تحت رعايته ؛ واستعمل نفوذه للاحتفاظ بالحروف الألمانية الحاصة السوداء المتعبة للبصر دون الحروف اللاتينية التي تستعملها بقية أوربا الغربية ، كذلك ناصر حركة الكتلة الألمسانية الكبرى التي تدعى انضواء الهولنديين والإسكندناويين وقلمنكي بلجبكا وألمان سويسرا في عضوية أخوة ألمانية عظيمة وهي في الواقع مادة طيبة يمكن تمثلها في إمير اطورية جاثمة صغيرة تريد أن تكبر وتنمو . وغطي ضياوه الباهر على ضياء كل عاهل في أوربا .

واستغل الشعور العدائى العام الذى فشا فى كل أوربا ضد بريطانيا بسبب الحرب بينها وبن جمهوريتى البوير ، لكى يواصل خططه الرامية إلى تكوين أسطول عظيم ، فأدى ذلك عدا الفو السريع والتحدى الظاهر فى اتساع مستعمرات الإمبراطورية الألمانية فى أفريقيا والهيط الهادى ، إلى غلبة الانزعاج على البريطانين وإثارة ثائرتهم . وألنى أحرار الرأى فى بريطانيا بوجه خاص أنفسهم تحت ضرورة تقذى لها نفوسهم حنقاً ، تضطرهم أن يناصروا فكرة الاستمرار فى زيادة أساطيلهم البحرية البريطانية زيادة متواصلة . قال : « لن بهدأ لى بال حتى أرفع بحريتى إلى نفس المستوى الذى يتبوأه جيشى » . ولم يكن أشد متى الناس فى الحزائر البريطانية حباً فى السلام ليستطيع أن يتجاهل هذا التهديد. وكان

قد أخد من بريطانيا في ١٨٩٠ جزيرة هليجولند الصغيرة ، فحولها إلى قلعة بحرية عظيمة .

وكان كلما كبرت بحويته كثرت مشروعاته ومطاعه . فأعلن أن الألمان هم ملح الأرض » وأنهم يجب « ألا يمسهم في خدمة المدنية لغوب ؛ وأن ألمانيا شأن روح روما الإمبراطورية يجب أن تتسع وتفرض على الناس نفسها » . وقد نطق بهذا التصريح في الأراضي البولئدية مناصراً به ما تبذله ألمانيا من مجهودات متواصلة للقضاء على اللغة البولندية والثقافة البولندية ، ولصبغ نصيب ألمانيا من بولندة بالصبغة الألمسانية . ولقد نعت الله بأنه « حليفه المقدس » . وكان الملك في الدول الاستبدادية القديمة إما هو الرب نفسه أو وكيل الرب المختار ؛ فأما القيصر فكان يعد الله تابعه الأمين . قال في كثير من مظاهر الهية والتردد « ربنا الشيخ » . وعندما إستولى على كياوتشاو انطلق يتكلم عن « القيضة القولاذية الألمانية » . وعندما المساطى الروسيا تكلم عن ألمانيا في « دروعها اللامعة » .

ولما أصيبت الروسيا بالكوارث في منشوريا في ١٩٠٥ إنطاقت الروح الاستعارية الألمانية من عقافا لتقوم باعتداءات أكرجراءة إذبداأن الحوف من قيام فرنسا والروسيا بهجوم مشترك أخذ خطره يزول . وقام الامراطور بشيء يشبه الرحلة الملكية في الأراضي المقلسة ، ونزل في طنجة ليؤكد لسلطان مراكش مناصرته له على الفرنسين ، ثم أنزل بفرنسا إهانة بليغة بإجبارها على عزل وزير خارجيها دلكاسيه محت الهديد بإعلان الحرب عليها . كذلك زاد في شد الروابط بين الفسا وألمانيا ، وفي (١٩٠٨) تحدت الفسا – بمناصرته – كل أوربا بأن أخذت من الترك الولايتين البوسنة والهرسك . ومهذا التحدي البحري ليزيطانيا ومهذه الاعتداءات على فرنسا والسلافيين أجبر بريطانيا وفرنسا والروسيا على إنشاء تفاهم دفاعي ضاده ، وكان نضم البوسنة أثر آخر هو إغضاب إبطائيا ، التي كانت حليفة له حتى ذلك الحن .

تلك هي الشخصية التي أبي شوم الطالع إلا أن يجلسها على عرش ألمانيا لكي يستثير العالم كله وينظمه في سمط واحد ويجعل من المستحيل عليه أن يُطيق الكبرياء الطبيعى والاعتداد بالذات من شعب عظم أفلت آخر الأمر بعد قرون طويلة من الفرقة والضعب ب من قبضة حكم متفرق لثلة من الأمراء . ثم اتخدت كلمته وحاز إحترام العالم . وكان طبيعياً أن قادة ألمانيا الجديدة هذه في ميادين التجارة والصناعة الذين أخلوا عند ذلك يثرون ، وأن المالين المهتمين بأعمال الاستغلال وراء البحار . وأن الموظنين والسوقة ، ب لا بد واجدون في هذا الزعم شخصاً يروقهم كثيراً ويتفق مع أذواقهم تماماً . والكثير من الذين كانوا يظنونه أهوج شديد التظاهر في قرارة تفوسهم ، كانوا ينصرونه في العلن لأنه كانت له نغمة شجاح أخاذة . ليحيا القيصر (Hoch der Kaiser) .

ومع هذا فإن ألمانيا لم تسلم نفسها دون مقاومة التبار الاستعارى المنهم . فإن عناصر هامة في الحياة الألمانية كانت تكافح ضد هذه الأوتوقراطية الحديدة الختالة . فرفضت الشعوب الألمانية القديمة والباقاريون بوجه خاص أن تبتلعهم الروح البروسية . وكذلك حدث مع انتشار التعليم وانتقال ألمانيا السريع إلى الصناعة ، أن طورت هيئات العال المنظمة فكراتها وأن ظهرت حركة عداء مطرد لشقشة عاملها في شئون العسكرية والوطنية . وأخذ ينمو في البلاد حزب سياسي جديد ، هو حزب اللايمقر اطبين الاشتراكيين الذي كان يقول بمبادئ ماركس . واطرد نمو هذا الحزب بالرخم من كل أنواع المعارضة التي صدرت من ناحية الهيئات الرسمية والدينية ، وبالرغم من قوانين القمع الصارمة التي صدرت ضد دعايته وضد كل اتحاد أو تكتل .

وراح القيصر بنوعده المرة بعد الأخرى . وسيق زعماؤه إلى السجون أو طردوا خارج ألمانيا . ومع هذا فإن الحزب تزايد ونما . فإن عدد ناخبيه عند ما تولى القيصر العرش لم يكن يتجاوز نصف المليون . وأربى ناخبوه في ١٩٠٧ على الثلاثة الملايين عدا . وحاول القيصر أن يقبل أشياء كثيرة كالتأمين ضد الشيخوخة والمرض متخذاً منها منحة يمن بها عليهم ، وهي أشياء كان الحزب يطالب بها للعال بوصفها حقاً أصيلا لم وكان اعتناقه مذهب الاشتراكية أمراً ملحوظاً ، ولكنه لم يكسب مذهب التسلطية المرا أطاعه البحرية تشهيراً مريراً

تجلت فيه الكفاية والاقتدار . وأخله هذا الحزب القائم على الرجل العادى وما ركب فيه من سداد البصر بالأمور ساجم مغامرات الرأسماليين الألمان المحدثين في بلاد المستعمرات مهاجمة متواصلة لا هوادة فيها . على أن الحزب الاشتراكي الديمقراطي كان يولى الحيش مناصرة متوسطة ، لأنهم مهما بلغ من كراهيتهم للأوتوقراطي المستبد الذي يتضخم في أرض الوطن ، فلشد عا كانوا بكر وقر دير ديون (١٩١٠) الأوتوقراطية الروسية الهمجية (المتبررة) الربيسية الرابضية عن من ديردين المستبدة الرابضية المستورات ال

وكان الخطر البارز أمام ناظرى ألمانيا هو أن ترجم هذه الروح الأستاب المانيا به بريطانيا والروسيا وفرنسا على القيام ضادها بهجوم متحله مشرقة عليه الله الله الله على القيام ضادها بهجوم متحله مشرقة عليه الشاء الله المنظة هجومية دفاعية . وكان القيصر بتأرجح بين القاد موقت الشعة حيال الهائلة وبين محاولات سمجة لا سترضائها ، على حين كان أمطوله ينسو ركان باهم أله الله الله الله مع الروسيا وفرنسا ، وعندما اقترجت الكورة المربطانية في الاعتمام المنظولة المنظولة المنظلة في الاعتمام المنظولة المنظلة المنظلة المنظلة المنظلة علم وأحاء ، وقان المنظرة المنظلة المنظلة المنظلة علم وأحاء ، وقان المنظرة المنظلة المنظلة علم وأحاء ، وقان المنظرة المنظلة المنظلة المنظلة المنظلة علم وأحاء ، وقان المنظرة المنظلة المنظلة المنظلة علم وأحاء ، وقان المنظرة المنظلة
ومن نكد طالع القيصر أن نكبته الأيام بولى عهد ووريث أند تعصباً ذأل هوهنزولرن ، وللاستعار والكتلة الألمانية من أبيه نفسه . تغذى بابان الدعابة الاستعارية . وكانت لعبه جنوداً وبنادق ومداً مع . فحاول أن يختطف قبل الأوان عبة شعبه بأن بنز أباه في إتخاذ مظاهر الوطنية والعدوان . وكان الناس يشعرون أن أباه قد دلف إلى الكهرئة والى ما يرافقها من زيادة حدر واحتراس . فجدد ولى العهد شباب أبيه . ولم تكى ألمانيا بلغت قط من قبل مثل هذه الدرجة من القوة ، ولا من الاستعداد لمغامرة جديدة كبيرة وله صول جديد من الانتصارات . وقد عكم أن الروس في أضمحلال وأن الفرنسيين في فساد وانحلال وأن الانجليز على شفير حرب أهلية .

ولم يكن هذا الولى العهد الشاب إلا نموذجاً لشباب الطبقة العلبا الألمانية الوثاب الوفير العدد في ربيع ١٩١٤ . إذ كانوا بأجمهم نهلوا من كأس واحدة . فكان أساتذتهم ومعلموهم وخطباؤهم وزعماؤهم وأمهاتهم وحبيباتهم ، يعدونهم للمناسبة العظيمة التي كانت عند ذاك وشيكة في متناول الأيدى . وكان يملأ نفوسهم شعور

فياض هنتلج بالصراع الدانى الوشيك ، وبالنفير يدعوهم إلى القيام بأعمال جسام هوائل ، وبالنصر على البشرية فى الحارج ، والفوز على العمال المعاندين فى الداخل . وكانت البلاد متوترة تتفزز للحرب كما يتوثب مُتبار رياضي عند نهاية تدريبه .

٣ ــ الروح الإستعارية في بريطانيا وإرلندة

كانت ألمانيا طيلة فترة الهدئة المسلحة هي البادئ بكل شيء والقدرة المحتداة في كل شيء في أوربا بأجعها . وكان تأثير مبادئها الجديدة الخاصة بالاستعار العدواني قوياً بوجه خاص في الذهن الريطاني (١) ، الذي كان واهن القدرة على مقاومة أية طعنة ذهنية قوية توجه إليه من خارج بلاده . وكان دافع النشاط التعليمي الذي بعثها إليه و الأمر الزوج ، قد ذهب بوفاته ، وحال بين جامعتي أوكسفورد وكمر دج وبين قيامهما بواجهما في تنقيح تعلم الطبقة العليا تنقيحاً فعالا ، ما قام في سبيلهما من ألوان المخاوف والتحيز التي ثارت بسبب ما يسمونه باسم و الكفاح بين العلم والدين » ـ في نفوس رجال الدين الذين كانوا يتسلطون عليما بوساطة المجامع الإكليروسية ، وأدت الحصومات الدينية إلى تعجيز التعلم العام وخلفته كسيحاً الإكليروسية ، وأدت الحصومات الدينية إلى تعجيز التعلم العام وخلفته كسيحاً هزيلا ، وزاد حاله سوءاً شدة تقتير السلطات العامة عليه في النفقات ، ورغبة أصحاب الأعمال في استخدام الأطفال ، واعتراض أصحاب مذهب الفردية على و تعلم أبناء الناس الآخرين ه .

وكانت تقاليد الانجليز القديمة ، وأعنى بها تقاليد الصراحة فى القول واحترام القانون والرغبة فى العدالة ، وقدر بعينه من الحرية الجمهورية ، قد ذوت ذوياً جسيماً أثناء ويلات الكفاح ضد نابليون . وكانت الروح الرومانسية ، التى كان بطلها الأكبر هو الروائى الكبر السيروالترسكوت ، قد دست فى الخيال القومى عدوى التلهف على الزاهى البراق والجميل الرائع . وكان المستر بريجز الشخصية

⁽١) يتحدث المؤلف عن قوة أثر ألمائيا وروحها الاستمارية العدوانية في الذهن البريطاني ، كأنما ذلك الذهن طفل ساذج غرير ليس له تاريخ القرون العلويلة من المكياثلية الماكرة والاستمار العدواني الأسود!! . (المترجم)

الكوميدية الانجلزية في عجلة بكش (Puncb) في ١٨٦٠ ، ١٨٦٠ بمثلا تمثيلالابأس به لروح الحركة الجلاية وترصده الغزلان .

وسرهان ما خطر ببالم المستربر يجز شيء عدّه حقيقة مشرقة جديرة بالتصديق لم يلحظها من قبل ، هو أن الشمس لا تغرب عن ممتلكاته أبداً ! ! . . . فالقطر الذي قدم للمحاكمة كلايف ووارن هاستنجس لمعاملتهما الآيمة لأهل الهند قد اقتنع الآن تمام الاقتناع بأن يعدهما شخصين من أهل الفروسية النامة والاخلاص المطلق . إذ أنهما من و بناة الإمبراطورية » . وحدث بتأثير صحر خيال دزرائيلي الشرقي الذي جعل من الملكة فكتوريا و إمبراطورة » ، أن التقت الرجل الانجليري راضياً مسروراً نحو الأبهات الغامضة التي تنطوى عليها و الإمبريالية » العصرية .

وشرع كل من علم السلالات البشرية (الإثنولوچيا) (١) المحرف والتاريخ المشوه اللذين كانا يصدد إقناع الخليط الألماني المكون من العناصر السلاقية والكلتية والتيوتونية بأنها جنس مدهش قائم بدائه، – أن يكون مثلا يحتليه الكتاب الانجليز اللين أنشأرا يفخمون اختراعاً إثنولوجياً جديداً هو والأنجلو ساكسون و. وقدم هذا المزيج العجيب إلى العالم بوصفه الأوج الذي بلفته الانسانية، والتاج والثواب الأوفى المجهود المتراكمة التي بفلها الإخريق والرومان والمصريون والأشوريون واليهود والمغول وأمنالم من السلف المنحط ، المؤذن بفخامته البيضاء . وكان للأسطورة السخيفة الحاصة بالفوق الألماني أثر كبير في إيفار صدور البولنديين في بوزن والفرنسين في المورين ، ولم يقتصر أمر الأسطورة الأشد مهزلة أسطورة تفوق الأنجلوساكسون ، في المورين ، ولم يقتصر أمر الأسطورة الأشد مهزلة أسطورة تفوق الأنجلوساكسون ، المحمد زيادة الحنق من الحكم الانجليزي في إدلندة ، بل حطت من روح على عبرد زيادة الحنق من الحكم الانجليزي في إدلندة ، بل حطت من روح المعاملات المربطانية مع الشعوب و الحكومة ، في كل أرجاء العالم قاطبة . ذلك أن إنقطاع حبل الاحترام والتوقيف عن ازدراع الفكرات الرقيعة ليس لها إلا معني واحد هو امتناع التأدب والعدالية .

ولم تقف محاكاة لملفاهم الألمانية الخاطئة في الوطنية عند حد هذه الخرافة

⁽١) الأثنولوچيا : 🛕 السلالات البشرية وتفرعاتها . (المترجم)

و الأنجلوساكسونية ع. فإن النامين من الشبان في الجامعات البريطانية إبان العقدين الناسع والعاشر عمدوا وقد برموا بما يتبدى في السياسة الداخلية من تفاهة وقلة إخلاص ، إلى تقليد ومنافسة هذه التعاليم الجديدة التي كان منشرها خصم إستعارى طومي النزعة صلف ، خبيث قوى وأعنى به ذلك المزيج بين مكيافللي وأتيلا الذي كان يفرص على فكر ومناشط ألمائيا التنية . فقد رأى شباب بريطانيا أونتك أن بلادهم كذلك يجب أن تكون منا دروعها اللوابع وأن تلبح بجسامها البتار

ومع هذا فإن الحركة الاستعارية فى بريطانيا العظمى لم تبلغ قط من السلطان والإجماع ما بلغته فى ألمانيا . فإنها لم تكن نتاجاً طبيعياً لأى من الشعوب البريطانية الثلاث المتحدة وإن تفارقت ، فلم تكن مما يشاكل طبائعهم (٢٠ . ولم تكن الملكة

⁽١) زولڤراين : تطلق هذه الكلمة على الاتحاد الجمركي الذي تم مجهود بروسيا في سنة ١٨٣٤ عدرجاً من إدماج إتحادات حركية صغرى يعضها بيمض إلى تكوين الاتحاد القوى الألماني . (المترجم) (٢) يشير الكاتب هنا إلى المترافيين الأحرار الذين كتبوا في إنجارة ضد الاستمار مثل برنارد شو وهيره . (المترجم)

فكتوريا وعلفاؤها إدوارد السابع وچورج الخامس بميالين لا بمكم الجنس (بين ذكر وأنثى) ولا يمكم الشخصية والمظنهر أو المزاج أو التقاليد ، أن يرلدوا « دروعاً لماعة » ولا أن يلوحوا « بقبضات من حديد » ولا أن يهزوا « سيوفاً بتارة » على طريقة آل هوهنزولرن . وكان لهم من الحكمة ما حملهم على الامتناع من القيام بأى تنخل صريح في الفكرات العامة . كذلك أثارت هذه الحركة الاستعارية البريطانية منذ أول نشوئها عناوة العديد الكبير من الكتاب الإنجليز



(شکل ۲۰۹)

والإرلنديين والاسكتلنديين الذين أبوا أن يعترفوا بهذه القومية البريطانية الجملايدة أو أن يقبلوا النظرية القائلة بأنهم هم الأنجلو ساكسون أصحاب مرتبة السوبرمان هذه . وفضلا عن ذلك كانت كثير من المصالح الكبيرة في بريطانيا ، نخص بالذكر منها شركات الملاحة ، قد أقيمت على أساس التجارة الحرة ، وكانت ترمق المقرحات المالية للاستجاريين الجدد ، والمغامرين الماليين والتجاريين الجدد النون كانوا يرتبطون بهم ، - بنظرة ارتباب لها ما يبررها .

على أن هاته الفكرات انتشرت انتشار النار في المشم في الطبقة العسكوية وهيئات الموظفين بالهند ومن إليها . وكان هناك حتى ذلك الحين جو من الهاس المعاذير يحيط برجال الجيش في إنجلترة . فإنهم كانوا غرباء عن تلك الأرض . وها قد حانت الفرصة في تلك الحركة التي تجعلهم على درجة من الأهمية الفاخرة تعادل ما لقريبهم حامل السلاح في بروسيا . كذلك وجدت فكرة الاستعار مناصرة بين صفوف أمصاب الصحف الشعبية الرخيصة التي أخلت عند ذلك في الظهور لكي تمون طبقة القراء الجديدة التي أوجدها التعليم الأولى . وكانت بهذه الصحافة حاجة إلى فكرات صريحة زاهية بسيطة مكيفة وفقاً لحاجات القراء الله في يكادوا بشرعون في عملية التفكير بعد .

وبالرغم من هذه المناصرة ومن مواءمها القوية للغرور القوى لم يستطع المذهب الاستعارى البريطاني أبداً أن يتشرب الشعوب البريطانية بكامل كتلها . فليس الإنجليز شعباً طيعاً من الناحية العقلية . وكان من أثر الحاسة الصاخبة التي تكاد تكون قسرية ، تلك الحاسة للمذهب الاستعارى وسياسة التعريفات الجمركية المرتفعة التي ينتهجها حزب التورى (٢) القديم ، وطبقة العسكريين ورجال الدبن في المناطق الريفية ، وصالات الموسيقي والأجنبي المتجفس والثرى السوقي وأصحاب الأعمال الجلد الكبار ، — أن مالت طبقات العامة البسطاء ، وبوجه خاص اللين تتظمهم الجاعات ، إلى اتخاذ وضع التشكك والارتباب . فلئن كانت القروح الأليمة التي مستنا من هزيمة ماجوبا دفعت البلاد إلى مواصلة القتال لفتح جمهوريتي البوير في جنوب إفريقيا ، ذلك الفتح الفادح النفقة الشديد المتاعب الذي لم تكن لنا به البوير في جنوب إفريقيا ، ذلك الفتح الفادرة ارتكاساً نحو الاعتدال والعدالة بلغ من حاجة ، فلفد أنتج الإعباء من هذه المغامرة ارتكاساً نحو الاعتدال والعدالة بلغ من القد جنوب أفريقيا الكنفدوالي .

واطرد التقدم الجمسيم في التعليم الشعبي وفي استرداد المصالح العمومية والنروة

⁽١) حزب التورى القايم : هو حزب المحافظين في الزمن الحاضر . (المترجم)

العامة من قبضة القلة المالكة لها . كذلك حدث فى سنوات الهدنة المسلحة تلك ، أن أصبحت الشعوب البريطانية الثلاثة أقرب ما تكون من تسوية ما يينها ، وبعن إراندة من سوء تفاهم طال أمده ، تسوية تقوم على أسس عادلة معقولة نوعاً ما . ومن سوء طالعهم أن الحرب العظمى فاجأتهم وهم فى غمرات أزمة هذا الجهد .

وإرلندة شأن اليابان لم تبرز شخصيتها إلا قليلا في هذه المعالم التاريخية ، وذلك لسبب واحد يجمع بين البلدين ، هو أن كلامهما أرض جزيرة متطرفة تتلقى الكثير ولا تعطى حتى يومذاك إلا الشيء القليل لحقل الدراما البشرية العامة . وسكاتها شعب مخلط جداً . فإن أساسه وربما مادته الكبرى أيضاً ، من نبعة البحر الأبيض الذكناء العيون والشعر ، السابقة على النور دين والآريين على السواء ، شأن شعب الباسك وسكان البرتغال وجنوب إيطاليا . وقد غمرت هذا الأساس الأصلى قرابة القرن السادس ق. م (بدرجة لا ندرى مداها) موجة من الشعوب الكلتية ، بلغت على أقل تقدير من القوة ما جعلها ترسى في البلاد أسس لغة كلتية ، هي اللغة « الإرلندية الجايلية قام بها هذا أو ذاك من الشعوب الكلتية والمصبوغة باللون الكلتي بين إرلندة واسكتلندة وويلز وإنجلترة . ودخلت الجزيرة في اللين المسيحي إبان القرن المامس . ثم حدث بعد ذلك أن أغار أهل الشهال على الساحل الشرقي واستوطنوه ، على أنا لا ندرى المدى المدى المدى الذي بلغوه في إحداث تغير عنصرى .

وجاء الإنجليز النورمان في ١٩٦٩ في زمان الملك هنرى الثانى وما تلاه. وربما كان العرق التبوتونى معادلا للكلّي في القوة أو أقوى منه في إرلندة العصرية . وقد كانت إرلندة حتى ذلك الحين قطراً قبلياً همجياً ليس به إلا القليل من مواطن الأمنة التي وجدت فيها الميول الفنية للعنصر القديم بجالا تبرز فيه نفسها في أشغال المعادن وتحلية الكنب المقلسة بالصور . وقد حدث في القرن الثاني عشر أن التاج البريطاني قام بفتح البلاد فتحاً غير تام ، وأنشأ الإنجليز والنورمان في نواح مختلفة من البلاد مستقرات متناثرة هنا وهناك . وكان جلياً منذ البداية أن هناك فوارق عيقة في المزاج بين الإرلنديين والإنجليز ، وهي قوارق زاد في شدة وطأتها عيقة في المزاج بين الإرلنديين والإنجليز ، وهي قوارق زاد في شدة وطأتها

الفوارق اللغوية ، وأصبحت هذه الفوارق أشد وضوحاً بعد الإصلاح الديني البروتستاني ، وتجمع الإرثنديون بحافز رد الفعل الطبيعي حول الكنيسة الكاثوليكية المضطهدة .

وكان الحكم الإنجليزى فى إرلندة منذ البداية حرباً أهلية متقطعة ترجع إلى ما بين الشعبين من الخلاف فى اللغة وإلى الاختلاف فى قوانين ملكية الأراضى والإرث. وما نحن بمستطعين أن نحدثك في هذا المقام عن الفين والمذابح والقهر التى حدثت بالجزيرة التعسة إبان عهدى إليزابث وجيمس الأول. على أنه حدث في عهد جيمس خلاف جديد بسبب مصادرة مساحات عظيمة من مقاطعة آلستروسكني مستوطنين اسكتلنديين من معتنى المذهب البرزبتيرى (Presbyterian). فكونوا بدلك مجتمعاً بروتستانتيا بتنازع بحكم الفرورة تنازعاً مستديماً مع سائر إرلندة الكاثوليكية.

ولما حدثت المنازعات السياسية في حكم شارل الأول والجمهورية وحكم جيمس الثانى ووليم ومارى ، كان الجانبان المتنازعان الإنجليزيان يجدان في الأحزاب الإرلندية من يعطف عليهما ومن يحالفهما . وهناك في إرلندية مثل سائر يقول إن مصائب إنجليرة فوائد عند إرلندة ، كذلك كان الشقاق الأهلى الإنجليزي الذي أفضى إلى إعدام سيرافورد ، مناسبة أخرى لإعمال الذبيح في الإنجليز بإرلندة (١٦٤١) . وحدث فيا بعد أن انتقم منهم كرومويل على هذه المذبحة بأن نكل تنكيلا شديداً بكل رجوا, وجده يحمل السلاح ، وهي قساوة لا تزال ذكراها الشديدة المرارة عالقة بأذهان الإردابين الكاثوليك . وعادت إرلندة فيا بين سنتي ١٦٨٩ ، ١٦٩١ فرقها الحرب الأهلية . فإن جيمس الثاني طلب عون الإرلندين الكاثوليك على ولم الثالث ، الحرب الأهلية . فإن جيمس الثاني طلب عون الإرلندين الكاثوليك على ولم الثائب ، فهزم أنصاره هزيمة منكرة في معركة يوين (١٦٩٠) وأوغريم (١٦٩١) .

ثم تمت بين الطرفين تسوية هي معاهدة ليمريك ، وهي تسوية كانت بدورها مثار نزاع ، وعدت فيها الحكومة الإنجليزية وعوداً كثيرة في شأن التسمح مع الكاثوليك ومن إليهم ، ولكنها لم تف يوعودها . وما برحت لمعاهدة ليمريك ذكرى مريرة في قصة الحزازات الإرلندية الطويلة الأمد . وليس بين الإنجليز من سمع قط باسم معاهدة

ربك هذه إلا أقلية نشيبة ؛ فأما في إرلندة فإنها الاتبي تُتُقرح النفوس الى يومنا هذا

وكان القرن الثامن عشر قرناً تجمعت فيه المظالم والإحن. فإن أنانية الإنجليز في الشئون التجارية أدت إلى فرض قيود ثقيلة على التجارة الإرلندية ، وقضت في المغنوب والغرب على تطور صناعة الصوف . وما كان أهالى آلستر البرونستانت يلقون معاملة أحسن مما كان يلقاه الكاثوليك ، ومن ثم كانوا في مقدمة العصاة .وقامت في القرن الثامن عشر فتن على توزيع الأراضي كان شبوبها في الشمال أشد منه في الجنوب .

سنوجز لك فيا يلى بقدر ما يتبح لنا ضيق هذا المقام من الوضوح وجوه التشابه والتباين بن موقعى الإنجليز والإرلنديين في هذا الزمان . كان لإرلندة برلمان ، ولكنه كان برلمانا برو تستانتيا ، تكوينه وسلطاته أضيق حدوداً ورجاله أشد فساداً من البرلمان الإنجليزى المعاصر له . وقامت في دبلن وما حولها حضارة جسيمة ، وقدر كبر من النشاط الأدبي والعلمي ، يدور باللغة الإنجليزية ويتمركز في جامعة نرينتي (Trinity) كولملج البروتستانتية . تلك هي إرلندة التي أنتجت سويعت وجولد سميث وبعرك وبعركلي وبنويل . وكانت في جوهرها شعبة من الثقافة الإنجليزية . ولم يكن فيها خصيصة إرلندية واحدة تميزها . ذلك أن الديانة الكاثوليكية واللغة الإرلندية كانت أشياء منبوذة مضطهدة منزوية في الظلمات في ذلك الزمان .

ومن إرنندة هذه التي تغشاها الظلبات نشأت إرلندة القرن العشرين المتكرهة المعاندة .وكان البرلمان الإرلندي وأدب إرلندة الرفيع وعلمها وثقافتها أموراً كان من الطبيعي أن تنجذب صوب لندن ، لأنها كانت جزءاً لا يتجزأ من العالم اللندني . وكان كبار أصحاب الأراضي يذهبون إلى انجلترة المعقام بها ويعلمون أبناءهم في ربوعها . وكان معني هذا هو استنزاف مستمر المثروة من إرلندة إلى انجلترة في شكل إيجار الأراضي ، الذي ينفق أو يستثمر خارج البلاد . وكان من أثر الزياد في سهولة المواصلات أن اطردت هذه الحركة از دياداً ، وأن استنفضت ما في دبلن واستنزفت دماء إرلندة . وفي (أول يناير ١٨٠١) صدر « قانون توحيد البرلمانين « فكان هو معلم ، الربانية الإنسانية عنات معلم تاريخ الإنسانية عنات معلم تاريخ الإنسانية عنات معلم تاريخ الإنسانية الإنسانية عنات معلم تاريخ الإنسانية الإنسانية عنات معلم تاريخ الإنسانية عنات معلم تاريخ الإنسانية عنات معلم تاريخ الإنسانية عنات معلى عائم تاريخ الإنسانية عنات معلم تاريخ الإنسانية عنات معلم تاريخ الإنسانية عنات معلى عائم تاريخ الإنسانية عنات معلى عائم تاريخ الإنسانية عنات معلم تاريخ الإنسانية عنات معلى عائم تاريخ الإنسانية عنات معلى عائم تاريخ المنات المنا

الائتلاف الطبيعي بين مجموعتين متقاربتين تقارباً تاما . أعنى بين البرلمان الأنجلو إرلندى والبرلمان البريطانى ، وكلاهما هيئة أوليجركية وكلاهما فاسد من الناحية السياسية فساداً متشاكلا . وقامت ضد الاتحاد معارضة قوية لم تصدر من جانب الإرلنديين الكاثوليك بنفس القوة التي صدرت بها عن البروتستانت المستقرين في إرلندة ، وحدث في ١٨٠٣ عصيان فاشل بقيادة روبرت إرمت . وبعد أن كانت دبلن مدينة أنجلو إرلندية رائعة في منتصف القرن النامن عشر ، غادرتها الحياة الذهنية والسياسية شيئاً فشيئاً ، وغز اها إرلنديو إرلندة الأقحاح . وذوت منها الطبقة الراقية رويداً رويداً وحلت محلها حياة طبقة الموظفين التي تتركز حول نائب الملك نزيل قلعة دبلن ، وخفقت حياتها الفكرية خفقة ثم همدت ردحاً من الزمان وهي بين الحياة والموت .

ولكن على حين كانت إرلندة فى عهد سويفت وجولد سمث جزءاً لا يتجزأ من انجلترة فى زمن پوب (PoPe) والدكتور جونسون والسير چوشوا رينولدس، وعلى حين لم يكن هناك مطلقا ولا يوجد حتى اليوم أى فارق محدد اللهم إلا الفارق الجغرافى بين الطبقتين الحاكمتين فى كل من انجلسترة وإرلندة ، فإن عالم العامة والدهماء الإرلندى وقرينه الإنجليزى كانا متباعدين فى الجوهر أشد التباعد .

كان كفاح الديمقراطية الإنجليزية الشاخص نحو التعليم ، والمتطلع إلى الاعتراف بحقوقه السياسية نحالفاً في كثير من الوجوه لكفاح الطبقات الدنيا الإرلندية . فإن بريطانيا كانت تنتج شعباً صناعياً عظيا من بروتستانت أو متشككين . حقاً إنه كان بها عمال زراعيون ولكن لم يكن بها فلاحون من صغار الملاك . وكانت إرلندة وهي بلاد خلو من القحم ولها تربة أضعف وأصحاب أملاك يعيشون في انجلترة ، قد أصبحت أرض فلاحين من صغار الملاك الذين يدفعون الإيجارات . وسمع المسئولون لزراعتها بأن تنحط المحطاطاً مطرداً حتى أصبحت قاصرة على زرع البطاطس وتربية الخنازير . وكان الناس يتز اوجون ويتعقبون . ولولا احتساء شيء من الويسكي المناسعاع إليه سبيلا وقليل من العراك ، فإن تسليتهم الوحيدة كانت منحصرة في لمن استطاع إليه سبيلا وقليل من العراك ، فإن تسليتهم الوحيدة كانت منحصرة في .

فی ۱۷۸۵ کان ۲٫۸٤۵,۹۳۲ نسمة نی ۱۸۰۳ بلغ ۱۸۰۳,۵۹۴ نسمة وبلغ ۱۸٤۵ ۱۸۲۹،۹۹۲۸ نسمة

وحدث فى تلك السنة أن البطاطس المسكين المكدود إنهار تحت حمله الضخم المتزايد من السكان ، فحدثت مجاعة رهيبة . فحات الكثيرون ، وهاجر الكثيرون ، إنتقلوا إلى الولايات المتحدة بوجه خاص ؛ وابتدأ سيل من الهجرة جعل إرلندة ردحاً من الزمان أرض شيوخ وبيوت خاوية .

وكان من نتائج توحيد البرلمانين ، أن الانتخابات كانت تجرى عند الانجليز والإرلنديين في وقت واحد . وكان معنى منح الكاثوليك حق الانتخاب في إنجليرة هو منحه للكاثوليك في إرلندة أيضاً . وكان الانجليز يحصلون على الأصوات لأنهم كانوا يرغبون فيها . أما العامة الإرلنديون فحصلوا على الأصوات لأن الانجليز حصلوا عليها . وكان تمثيل إرلندة في برلمان الاتحاد أكثر مما يجب ، لأن المقاعد الإرلندية كان التصرف فيها أمهل - منذ البداءة - على الطبقة الحاكمة منه في الإنجليزية ؛ وبذا حدث أن إرلندة هذه الإرلندية القحة والكاثوليكية التي لم يكن لها قبل ذلك أي جهاز سياسي مطلقاً ، وجدت نفسها صاحبة القوة على قذف هيئة متراصة من الأعضاء في قلب الهيئة التشريعية لبريطانيا العظمي .

وبعد الانتخابات العامة في ١٨٧٤ ، سقط الأعضاء الإرلنديون المأجورون السابقون ، ووقفت الديموقراطية الإنجليزية التي منحت عند ذاك حقوقها الوطنية حديثاً ، وجهاً لوجه أمام ديموقراطية إرلندية عجيبة محيرة ، مختلفة عنها في ديانتها وتقاليدها وحاجاتها ، متحدثة بقصة من المظالم لم يسمع بها عامة الإنجليز من قبل قط ، صاخبة تطالب في حدة بإنفصال لم يكن الإنجليز ليفهموا له معنى ، ولكنه أشعرهم بوجه خاص أنه تصرف عدائي لا ضرورة له .

والأنانية القومية لدى الإرلنديين حادة شاحلة ؛ لأن ظروفهم جعلتها كاللك ؛ فلم يكن في مستطاعهم أن يقدروا حالة الأمور في إجلترة ، وجاء الحرب الإرلندي الجديد إلى الرلمان الإنجليزى وقد عقد النية على عوقلة مصالح الإنجليز والمساد نظامهم إلى أن تفوز إرائدة بحريها ، وليجعلوا من أنفسهم شجى في حلوق الإنجليز ، وما كان هذا الروح إلا موضع الترحاب الشديد من الأوليجركية التي كانت ما تزال تمكم الإمبراطورية الريطانية ، فتحالفوا مع بروتستانت الثمال الموالين للحكومة الإمبراطورية بسبب خوفهم من تسلط الكاثوليك الإرلنديين عليهم في إرائدة للحكومة الإمبراطورية بسبب خوفهم من تسلط الكاثوليك الإرلنديين عليهم في إرائدة للخلوا يراقبون عن كثب ويزيلون في إذكاء نار التسخط الذي حل بالعامة الإنجليز على التدريج بسبب هذه العداوة العمياء التي يبديها عموم سكان إرائدة .

وقصة المعلاقة بين إرئندة وإنجلترة في نصف القرن الأخير من القصص التي تكسو الطبقة الحاكمة للإمبراطورية البريطانية أقصى غاية الخزى ، ولكنها ليست شيئاً يحتاج عامة الإنجليز أن يخجلوا منه . فإنهم أبدوا مراراً وتكراراً أعظم الشواهد على حسن النبة . والتشريع الإنجليزى بالعلاقة إلى إرلندة طيلة نصف قرن تقريباً ، يكشف لنا عن سلسلة من محاولات سمجة بذلها الأحرار رغبة في القضاء على أسباب شكوى الإرلنديين وإقامة العلاقة بين القطرين على قدم الزمالة والأخوة ، ولكن كانت تقوم في وجه تلك المحاولات معارضة قوية من جانب حزب المحافظين وسكان آلستر الإرلندين . وبيرز اسم پارنل وهو إرلندى بروتستاني بوصفه الزعيم الأكر لحرار العظم ، كارئة سياسية على نفسه بتقديمه إلى البرلمسان أول مشروع قانون للحكم الذاتي الإرلندي ، وهي محاولة صادقة من جانبه لتسلم شئون أرلندة لأولى مرة في التاريخ إلى أبدى الشعب الإرلندى . وانصدع حزب الأحرار شطرين بسبب مشروع هذا القانون ، وقامت حكومة ائتلافية ، هي حكومة التلافية ، هي حكومة الانكادين ، فحلت محل حكومة المشر جلادستون .

واستطرادنا هذا إلى تاريح إرلندة يبلغ بنا الآن إلى زمان تفشى عدوى المذهب الاستعارى في أوربا . فإن حكومة الاتحاديين التي خلفت المستر جلادستون كان يسودها عنصر المحافظين . وكانت ؛ إستعارية ، الروح بصورة لم تكن لأية حكومة

بريطانية سابقة قط. والتاريخ السياسي البريطاني فيا عقب ذلك من سنوات هو في جُل أمره تاريخ الصراع بين المذهب الإستماري الجديد ، الذي حاولت بواسطته نزعة قومية بريطانية صلفة أن تطأ بأقدامها بقية الإمبراطورية وبين ما ركب عليه المزاج الإنجليزي الميال بطبعه إلى التحررية والتعقل ، ذلك المزاج الذي كان بنزع إلى التطور بالإمبراطورية إلى انحساد احتلافي (كنفدرالي) مكون من أحرار راضين راغبين .

ومن الطبيعي أن أصحاب المذهب الإستعارى البريطانيين كانوا يريدون الشعب الإرلندى خاضعاً مقهوراً ، ومن الطبيعي أيضاً أن الأحرار الإنجليز كانوا يرغبون في شعب إرلندى حر مشارك لهم في العمل . وفي ١٨٩٢ كافح جلادستون حي عادت إليه مقاليد الحكم بأغلبية صغيرة تدين بالحكم الذاتي ، وفي ١٨٩٣ مر مشروع قانونه الناني للحكم الذاتي في مجلس العموم ، ولكن مجلس اللوردة رقضه ومع هذا نميز الحكم حكومة استعارية (امبريالية) إلا في ١٨٩٥ . ولم يكن الحزب الذي تستند إليه الحكومة ينعت بصفة الاستعار والاستعاريين بل يسمى حزب و الاتحاديين ، وهو اسم غريب عن مسهاه إذا راعينا الجهود الجهيدة التي واصلوا بذلحا لتحطيم كل احتمال يبشر بقيام دولة حكم شعبي متحرر (١) تضم أجزاء الإمبر اطورية . وظل السلطان في يد هؤلاء الإستعاريين عشر سنوات . وقد سبق أن أشرنا إلى غزوهم لجنوب افريقيا ، وقد خذلوا في عاولة قاموا بها لإنشاء حاجز من التعريفة الجمركية في بونه إفريقيا إلى رعايا زملاء راضين قريرى الأعين بإنشاء دومنيون جنوب في جنوب إفريقيا إلى رعايا زملاء راضين قريرى الأعين بإنشاء دومنيون جنوب إفريقيا الل رعايا زملاء راضين قريرى الأعين بإنشاء دومنيون جنوب افريقيا الذي يحكم نفسه بنفسه . ثم دخلت في أعقاب ذلك في غمرات نزاع طالما المددها شره ، هو النزاع مع مجلس اللوردة المصر دائماً على مبادئه الاستعارية .

. وكان هذا كفاحاً جوهرياً جداً فى الشئون البريطانية . وإنك لتجد فى ناحية أغلبية أهالى بريطانيا العظمى التحرريين وهم حريصون حرص الحكيم الشريف على

[.] Common Weal دولة الحكم الشعبي المتحرر هي ما يعبر عنه بالإنجليزية باسم الشعبي المتحرر هي ما يعبر عنه بالإنجليزية باسم الحكم الحكم المتحرر هي ما يعبر عنه بالإنجليزية باسم الحكم الحك

أن يضعوا هذه المسألة الإرلندية على أساس جديد يبشر بالأمل ، وأن يحيلوا إن استطاعوا عداوة الإرلنديين إلى مودة ؛ وتجد في الجانب الآخر كل عوامل هذا الاستعار البريطاني الجديد وقد صمت أن تعمل بأى ثمن وبالرغم من كل نتائج الانتخابات ــ وبطريقة قانونية إذا أمكن ، فإن تعذر فبطربقة غير قانونية ــ على أن تحتفظ بتسلطها على شئون الإنجليز والإسكتلنديين والإرلنديين وسائر أجزاء الإمبر اطورية على السواء.

والحق إن هذا الصراع هو الكفاح الداخلى الدائر في المجتمع البريطاني منذ أقدم العصور ؛ وهو نفس النزاع الذى سبق أن عالجناه في حديثنا عن تحرير أمريكا ، النزاع الدائر بين العامة الأحرار ذوى الروح التحررية وبين الأقوياء من الزعماء والمغامرين الكباروالأشخاص المستبدين . وكانت إرلندة كما كانت أمريكا من قبل محض مسرح للقنان . ومن عجب أن الطبقة الحاكمة ومن يرتبط بها من مغامر بن كانت في الهند وإرلندة وانجلترة تدين يميدا واحد . ولكن الشعب الإرلندى لم يكن له بفضل فوارقه الدينية ، أي إحساس بالقاسك مع الإنجليز . ومع هذا فإن من بين الزعماء الإرلنديين أمثال ردموند ، زعيم الحزب الإرلندى في مجلس العموم ، من تسامى عن هذه القومية الضيقة ردحاً من الزمان ، وأظهر من جانبه استجابة كريمة لنوايا الإنجليز الطببة . وانحذت العقبة المتمثلة في شخص مجلس اللوردة تتحطم تحطماً وثيداً أكيداً ، وتقدم المستر أسكويث رئيس الوزارة في ١٩١٧ بمشروع قانون ثالث للحكم الذاتي وتقدم المرائدي وظل هذا القانون طوال ١٩١٧ والقسم الأول من سنة ١٩١٤ يلتي هجات

وانحدت العقبة المتمثلة في شخص عجلس اللوردة لتخطم عظما وليدا الليدة وتقدم المستر أسكويث رئيس الوزارة في ١٩١٣ بمشروع قانون ثالث للحكم الذاتي الإرلندي. وظل هذا القانون طوال ١٩١٣ والقسم الأول من سنة ١٩١٤ يلتي هجمات وحملات متكررة ثوجه عليه عن طريق البرلمان . وكان المشروع باهئ الرأى يمنح الحكم الذاتي لإرلندة بأكلها . ولكن سرعان ما أعلنت الحكومة وعداً بإصدار قانون بعد ل القانون الأول ويستبعد آلستر بشروط خاصة . ودام هذا الكفاح في طريقه حتى شبوب نار الحرب الكبرى . وصدق الملك على القانون بعد ابتداء الحرب فعلا ، كما صدق أيضا على قانون يوقف تنفيذ الحكم الذاتي الإرلندي حتى تنهى الحرب .

على أن المعارضة لقانون الحكم الذاتى الثالث اتخذت منذ تقديمه شكلا عنيفاً شديد التطرف . فإن السير إدوارد كارسون وهو معام في دبلن أصبح من رجال المحاماة

الإنجليز ، وتولى منصباً قضائياً فى وزارة المستر جلادستون (قبل تصدعها بسبب الحكم الذاتى) ، وكان فى الحكومة الاستعارية التالية ، هو المنظم والزعيم لهذه الحركة الرامية إلى مقاومة الصلح بين الشعبين . ثم شرع بالرغم من أصله الدبليبي ينزعم أهالى آلستر البروتستانت ؛ وأدخل فى معمعان النزاع ذلك الاحتقار القانون الذي هو مميز خاص عادى جلماً لكل محام ناجع فى عمله ، كما أنزل فى المبدان تلك العداوة اللجوج المطلقة بلا قبود والصلبة بلا هوادة التى كان يمتاز بها طراز معين من الإرلنديين . كان أبعد الناس عن الإنجليز إذ كان أدكن العينين والشعر ، رومانسي النزعات عنيفاً ؛ وكان منذ مبتدأ الكفاح ، يتكلم فى جذل عن المقاومة المسلحة لهذا الاتحاد الحر بين الإنجليز والإرلنديين الذي كان يبشر به مشروع الحكم الذاتي الثالث .

وتألفت في آلستر ١٩١١ جماعة من المتطوعة ، وأخلت الأسلحة تهرب إلى داخل البلاد . وشرع السر إدوارد كارسون ومعه محام ناشئ اسمه ف . و . سمث يجوبان آلستر في زي شبه عسكرى ، ليفتئا على هوالاء المتطوعة ويلذكيا نار العداوة المحلية . وكان هوالاء العصاة المنتظرون أول إشارة للثورة ، يحصلون على السلاح من ألمانيا ، ولطالما للحت أقوال متنوعة صدرت من خططاء السير إدوارد كارسون إلى مناصرة و ملك بروتستانتي عظيم لهم ، وعلى التقيض من آلستر ، كان سائر إرلندة في ذلك الزمان أرض نظام واتزان ، تعتمد على زعيمها العظيم ردموند وعلى حسن نية الشعرب الريطانية الثلاثة .

ولم نكن هذه التهديدات المنفرة بالحرب الأهلية في إرلندة شيئاً استثنائياً ولا مستغرباً في تاريخ هذه الجزيرة التاعسة وسجلاتها ؛ ولكن الشيء الذي يجعلها ذات قيمة ودلالة في تاريخ العالم في ذلك الزمان هو ذلك التعضيد العبف الذي لقيته بين الطبقات الحاكمة والعسكرية في انجلترة ، وتمتع السير إدوارد كارسون وأتباعه بالحصانة من كل عقوبة أو تقيد .

ذلك أن جرثومة الفساد الذي ترتب على ما أصابه الاستعار الألماني من فخامة ونجاح قد انتشرت عدواها انتشاراً عظها ، بين كل الطبقات القوية الغنية في بريطانيا العظمى كما سبق أن أوضحنا لك . ونشأ جيل تناسى تقاليد أجداده العظيمة ، وتهيأ للتخلى عن عظمة العدالة والحرية الإنجليزية مقابل أشد أنواع الاستمار زيفاً وبهرجة سخيفة . واكتتب الناس فى بريطانيا وبخاصة انجلترة بتبرعات مالية قدرها مليون جنيه لمعاونة ثورة آلستر ، وتكونت لآلستر حكومة موقتة ، ونزل إلى الحومة رجال مبرزون من الإنجليز وأخلوا يجوبون بسياراتهم أرجاء آلستر ، وهم يعاونون فى تهريب البنادق ، وهناك من الشواهد ما يدل على أن فريقاً من الضباط والقواد الهريطانيين كانوا على استعداد للقيام بأعمال أشبه بأساليب أمريكا الجنوبية منها بالطاعة للقانون .

وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الحروج على النظام المتفشى فى الطبقات العلبا أن عم الانزعاج الجزء الرئيسى من إرلندة ، التى أم نقبل يوما ما على صداقة إنجلترة ؛ وأن شرعت إرلندة بدورها أيضاً فى تنظم المتطوعين الوطنيين وتهريب السلاح . وأظهرت السلطات المسكرية اهماماً بقمع الوطنيين أشد مما أظهرت فى قمع إستيراد السلاح لأهالى آلستر ، وفى يوليو ١٩١٤ أفضت إحدى المحاولات لتهريب السلاح فى هاوث بالقرب من دبلن إلى شبوب القتال وإراقة الدماء فى شوارع دبلن . وبلدا أصبحت الجزر البريطانية على شفير الحرب الأهلية .

تلك هي خلاصة موجزة لقصة حركة الاستهاريين الثورية في بريطانيا العظمي حتى ليلة الحرب الكبرى . ذلك أف حركة السير إدوارد كارسون وأشياعه هذه كانت ثورية لا جرم . إذ أنها كانت محاولة صريحة لدفع الحكومة البرلمانية جانباً وإزالة ما نالته الشعوب البريطانية من حريات ناقصة نمت في بطء ومهل ، والقيام بمساعدة الجيش بإحلال طواز من الحكم أقرب إلى البروسي ، مع استمال النزاع الإرلندي نقطة ارتحال تبدأ منها الحركة أعمالها . وكانت تلك حركة رجعية قام بها عشرات قلائل من آلاف الرجال لإيقاف حركة العالم المتجهة صوب القانون الديموقر اطي والعدالة الاجتماعية ، وهي أشد ما تكون مشابهة وأوثق ما تكون عطفاً على الخركة الاستعارية الجديدة التي قام بها الأشراف والأغنياء الألمان . على أن الاستعارين البريطاني والألماني كانا يتفارقان من وجهة واحدة هامة جداً . فإنه كان يتركز في ألمانيا حول التاج ؛ وكان أشد أنصاره ضجيجاً وبروزاً هو ولى العهد .

على حين أن الملك فى بريطانيا العظمى وقف موقف المتباعد فلم يحدث أن أبدى الملك چورج الحامس بأى عمل على أدنى موافقة على الحركة الجديدة ؛ كما أن سلوك ولى العهد البرنس أوف وبلز ابنه ووريثه بعدل سلوكه سلامة واستقامة .

وفي أغسطس ١٩١٤ هبت على العالم عاصفة الحرب الكبرى. وفي سبتمبر كان السير إدوارد كارسون يطعن في وضع قانون الحكم الذاتي الثالث في سجل القوانين. فأوقف العمل به حتى ينتهى الحرب ، وفي نفس اليوم كان المستر چون ردموند زعيم الأغلبية الإرلندية والممثل الحقيتي لإرلندة بهيب بالشعب الإيرلندي بأن يتحمل نصيبه الأوفى من عبء الحرب ومجهودها . واستمرت إرلندة ردحاً من الزمان تقوم بدورها في الحرب إلى جوار إنجلترة بإنعلاص واهمام ، حتى حلت في ١٩١٥ وزارة التلاف محل حكومة الأحرار ، فلخل الوزارة هذا السير إدوارد كارسون بسبب ضعف أعلاق المستر أسكويث ، وشغل منصب النائب العام (بمرتب قدره بسبب ضعف أعلاق المها الأتعاب) ، على أنه استبدل للوقت بالسير ف إسميث زميله في التغرير بالستر

وهي إهانة لم يصب بأبلغ منها شعب صديق ، وكانت نتيجة ذلك أن العمل على الصلح والراضي الذي ابتدأه جلادستون في ١٩٨٦ ، وأوشك أن يبلغ غايته في ١٩١٤ ، تحطم الآن تحطماً نهائياً تاماً . فني ربيع ١٩١٦ قامت في دبلن ثورة فاشلة ضد هذه الوزارة الجديدة . وأعدم رمياً بالرصاص جميع زعماء هذا العصيان وكان الكثيرون منهم مجرد غلمان ، ونفذ الحكم بقساوة سمجة متعمدة ، كان من أثرها وبالنظر إلى المعاملة المنهاونة التي لقيتها الثورة في آلسبر ، أن شعر الناس في إرلندة بأجمعها بأنها ظالمة ظلماً فظيماً بالغاً . وحدث أن أحد الحونة وهو السير روجر كاسمنت وكان قد نال لقب فارس لسابق عدماته للإمبر اطورية حوكم وأعدم بحق وعدل ، ولكن المدعى العام كان هو السير ف . إ . سميث أخو العصيان آلسر – وكان اجتماع هذين الشخصين مدعاة الغضب والانزعاج .

والواقع أن تمرد دبلن لم يلق الشيء الكثير من التعضيد من إرلندة بعامة ، ولكن الذي حدث أن حركة المطالبة بجمهورية مستقلة نمت من بعده نمواً هائلا وكان ينافع ضد هذا الاندفاع العاطني القوى أصحاب الفكرات المعتدلة بين رجال السياسة الإرلنديين من أمثال السير هوراس بلانكت ، الذى كان يتمنى أن يرى إرلندة وقد أصبحت دومنيونا ؛ أى و جمهورية متوجة ، داخل الإمبراطورية ، تعيش على قدم المساواة مع كندا واستراليا .

٤ – النزعات الاستعارية في فرنسا وإيطاليا والبلقان

تبرز لنا هراستنا للنزعات الاستعارية العصرية في ألمانيا وبريطانيا قوى بأعيانها مشتركة بين البلادين ، وسوف نجد تلك القوى نفسها وهي تعمل على درجات مختلفة ومع تعديلات متنوعة في حالة المجتمعات العظيمة العصرية الأخرى ألتي سوف ننظر الآن في شأنها . وليس هذا الاستعار العصرى بحركة توليفية ترمى إلى توحيد العالم شأن النظم الاستعارية القديمة ؛ بل هو في الجوهر ، روح قومية تنطوى على جنون العظمة ۽ ، وهي قومية أحالها الثراء عدوانية ؛ وإنها لتلقي على الدوام أقوى عضد لما بين طوائف الموظفين والجبش ، كما تجده من طبقة المجتمع المقدامة صاحبة المشروعات والميالة إلى الاحتياز ، أي في أصحاب الثراء الحديث والأشغال الكبيرة ؛ وتجد أشد نقادها بين جماهير المتعلمين الفقراء وأعظم خصومها بنن الفلاحين والعمال. وهي تقبل المُلكية حيث تجدها ، وإن لم تكن بالضرورة حركة ملكية . ومهما يكن من شيء فإن بها حاجة إلى وزارة خارجية من الطراز التقليدي لكي تهيُّ لها أسباب تطورها كاملة . ويبين تلك الحقيقة بأثم وضوح مصدرها الذي تأثرناه بغاية العناية في كتابنا هذا المؤرِّخ لِخَفْسنا . والاستعار العصرى إنما هو التطور الطبيعي لنظام الدول الكبرى الذي نشأ مع منهاج وزارة الخارجية في السياسية ، ناجأ عن الملوك المكياڤلين بعد تحطم عالم المسيحية . ولن ينهى أمره إلا عندما تحل جمعية إتحادية محل ما بين الأمم والشعوب من علاقات قوامها السفارات ووزارات الحارجية .

وكانت الإمبريالية (الاستعار) الفرنسية أثناء مدة ه الهدنة المسلحة » في أوربا يتجلى فها يطبيعة الحال قدر من الثقة والاطمئنان أقل مما لدى الألمان . وكانت تسمى نفسها « بالقومية » لابالإمبريالية ، فنصبت نفسها باللجوء إلى الكبرياء الوطني لإحباط جهود أولنك الاشتراكيين والعقليين (١) الذين كانوا يحاولون أن يتصلوا بالعناصر الرسمية في الحياة الألمانية . وكانت لاتبي عن التفكير في و الانتقام Revanche أي في الحولة التالية التي ترد بها الكيل لبروسيا . ولكنها بالرغم من انشغال بالها مهذا الحاطر نصبت نفسها لمغامرات الضم والاستغلال في الشرق الأقصى وفي إفريقيا ، حيث نجت بأعجوبة من الحرب مع بريطانيا في الخلاف على فاشودة (١٨٩٨) ، كذلك لم تتخل قط عن أحلامها في امتلاك سوريا .



(شكل ٢١٠)

وأصيبت إيطاليا كذلك بحمى الاستعار . على أن النزف !! ؟ . . . الذى أصيبت به في عدوة هدأ من ثائرتها بعض الزمان ، ثم عادت إليها السورة في ١٩١١

⁽١) المَليون (Latfonalists) : اللهن يتعبون إلى أن المثل عو مصدر المرقة الثابت المُركنة (المترجم)

بحرب أشبتها على تركيا انهت باستلحاق طرابلس . وكان الاستعاديون الإيطاليون يحضون أبناء وطنهم على نسيان مازيني والتعلق بذكرى يوليوس قيصر ؛ أليسوا ورثة الإمبراطورية الرومانية ؟ ومست يد الإمبريالية بلاد البلقان ؛ فإن دولا صغاراً لا تبعد عن الاستمباد أكثر من مئة عام أخذت تنبدى فيها بوادر الهمم الشاء والمقاصد العالية !! ؛ فإن فرديناند ملك بلغاريا اتحد لقب قيصر ، فكان بللك آخر قيصر "زائف ، وفي أثينا كان الطالب الطلعة يستطيع أن يدرس في نوافذ الدكاكين غرائط تبين الحلم بإمبراطورية بونانية ضخمة في أوربا وآسيا .

وفى ١٩١٢ انقضت دويلات سربيا وبلغاريا والبونان على تركيا ، وكانت واهنة القوى من قبل بسبب حربها مع إيطاليا ، وطردتها من كل ممتلكاتها الأوربية فها عدا الأراضى بين أدرنة والقسطنطينية ؛ وفى السنة التالية دب الحلاف فيا بينهم على تقسيم الغنائم . وأنضمت رومانيا إلى اللعبة وساعدت على سحق بلغاريا . واستردت تركيا أدرنة . وفى تلك الأثناء كان الاستعار الأكبر استعار النمسا والروسيا وإيطاليا يرقب هذا النزاع ويرقب بعضه بعضاً فى الوقت عينه . . .

ه ــ الروسيا تصبح دولة ملكية عظمى

بيها كان العالم بأجمعه إلى الغرب من الروسيا يتغير تغيراً سريعاً ، ظلت تلك الدولة تتغير طوال القرن التاسع عشر تغيراً بطيئاً جداً ولا جرم . فإنها كانت في نهاية القرن التاسع عشر ، كما كانت عند بدايته ما تزال ملكية عظمى ذات طراز يرجع إلى النصف الثانى من القرن السابع عشر ، تقوم على أسس همجية ، ولم تبرح قابعة بالمرحلة التي تستطيع فيها دسائس البلاط والمقربون إلى القيصر أن يتصرفوا في علاقاتها الدولية . وكانت مدت سكة حديدية عظيمة عبر سيبريا ، فلقيت في نهاينها كوارث الحرب اليابانية ، وكانت تستعمل الأساليب العصرية والأسلحة العصرية بالقدر الذي تسمح لها به صناعتها غير المتطورة وما لديها من عدد قليل من المتعلمين تعليماً كافياً ؛ وقد استحدث لها كتاب من آمثال دوستويقسكي ضربا من المذهب الاستعارى التصوفي يقوم على فكرة الروسيا المقلسة ورسالها ، ويصطبغ بألوان الحداع العنصرى

والمناهضة للسامية(١)؛ ولكن هذا المذهب، كما ستبدىلك الحوادث لم يتغلغل كثيراً إلى سويداء خيال الجماهير الروسية .

وكانت تسود حياة الفلاحين الأميين مسيحية مهمة بسيطة جداً ، يخالطها شيء كثير من الحرافات . وكانت حياتهم شبية بحياة فلاحي فرنسا وألمانيا قبل الاصلاح الله في . وكان مفروضاً أن الموجيك (Won)!لا) أعنى الفلاح الروسي بعبد فيصره ويوقره وأنه يحب أن يخدم أحد السادة السراة ؛ وكان الرجعيون من الكتاب الانجليز ما يزالون في ١٩٦٣ يثنون على ولائه البسيط غير المردد ولا المتشكك . ولكن كان يخالط هذا المتوقر المملكية فكرة تقول بأن المليك أو النبيل لا بد له من أن يكون طيباً نافعاً شأن ما حدث في حالة الفلاح الأوربي الغربي في أيام ثورات الفلاحين ؛ وكان من الميسور أن ينقلب هذا الولاء البسيط بن تهيأ له القدر الكافي من الاستفزاز إلى نفس التعصب القاسي ضد انعدام المدالة الاجتماعية ، ذلك التعصب الذي أدى إلى إحراق القصور أثناء فتنة الفلاحين (٢) ، وأقام الدولة الدينية في مونستر (٢) . وقد حدث مرة أن دب الغضب في العامة ، ولم يكن هناك روابط للتفاهم ونستر (٢) . وقد حدث مرة أن دب الغضب في العامة ، ولم يكن هناك روابط للتفاهم الطبقات العليا تبعد عن مناط عطف الطبقات الدنيا بعدها عن أي جنس آخر من الحيوان . وكانت هذه الجاهر الروسية متخلفة ثلاثة قرون عن تلك النرعات القومية المسلطية التي كانت تبديها ألمانيا .

كذلك اختلفت الروسيا من وجهة أخرى عن أوربا الغربية العصرية ، وماثلث حالة أوربا في القرون الوسطى ، وذلك أن جامعاتها كانت مثابة لكثير من الطلبة الفقراء المدقعين الذين لم تكن تربطهم بالحكومة البيروقراطية (١٠) الاستبدادية أية صلة

⁽۱) مناهضة السامية (Anti-aemitiom) مصطلح سياسي يطلق على كراهية اليهود أر كراهية التثار نفوذهم . (المترجم)

المائكرى (Jacquerie) : هي ثورة الفلاحين يقرنسا في سنة ١٣٥٨ .
 (٢) فينة الفلاحين أو الماكري (Jacquerie) : هي ثورة الفلاحين يقرنسا في سنة ١٣٥٨ .

⁽٣) الدولة الدينية بموتستر ، انظر للمالم (ج ٣ ط ١) ص ٧٨٧ ، أي ْس ٩٧٥ من العلمة الثانية ، (المترجم)

^() البير وقراطية : مَّى الحكومة المصدة على الموظفين (المُرجم)

ولا تعاطف . وقبل ١٩٨٧ لم يحس الفكر الأوربي بالدلائل المؤذنة باقتراب عاملي الثورات الأصليين هذين — وأعنى بهما وقود التذمر وثقاب الفكرات الحرة ، وقل من الناس من كان يدرك أنه كانت توجد في الروسيا أكثر منها في أية بلاد أخرى احتمالات نشوب ثورة جوهرية .

٣ - الولايات المتحدة والفكرة الاستعارية

إذا انصرفنا عن هذه الدول الكبرى الأوربية بما لها من إرث هو وزارات الحارجية والسياسات القومية ، والتفتنا إلى الولايات المتحدة الأمريكية التى انفصلت إنفصالا تاماً عن نظام الدول الكبرى في ١٧٧٦ ، لوجدنا حالة مناقضة على أعظم درجة من الإمتاع تتجلى في عمل القوى التى تمخصت عن نزعات التوسع الاستعارى في أوربا .

فقد جلبت الثورة الميكانيكية على أمريكا كما جلبت على أوربا ، قرباً أصبح معه العالم بأجمعه قيد رحلة لاتتجاوز بضعة أيام . وكانت الولايات المتحدة شأن الدول العظمى مصالح مالية وتجارية تغشى العالم بأجمعه ؛ ونشأت في البلاد حركة صناعية كبرى تضخمت وأمست بحاجة إلى أسواق خارجية وراء البحار ؛ وحدثت في العالم الأمريكي نفس الازمة التي ألمت بالمعتقدات والتي جلجلت أركان التماسك المعنوى الأوربي . وكان شعبها عالى الوطنية وثاب الروح كأى شعب آخر . فلم لم تطور الولايات المتحدة إذن الجيوش المسلحة والسياسة العدوانية ؟ ولماذا لا ترفرف النجوم والشقق (١) فوق بلاد المكسيك ؟ ولم لم تقم في بلاد الصين تحت تلك الراية شبه قارة هندية أخرى .

وكان للأمريكي فضل فتح مغاليق اليابان . حنى إذا تم له ذلك ترك هذه الدولة تُسبخ على نفسها اللون الأوربي وتصبح قوية جبارة دون أن يصدر منه أى احتجاج على ذلك . وكان هذا وحده كافاً بلحل ميكافلي أبى السياسية الحارجية العصرية يتقلب في رمسه .

 ⁽١) التجوم والشقق : في حذا إشارة إلى علم الولايات المسحدة المكون من نجوم مبضاء
 رمز سعت أفقيه من القاش ذى اللوئير الأبيش والساوى . (المترجم)

فلو أن دولة كبرى مصطبغة بالصباغ الأوربي كانت في مكان الولايات المتحدة ، لا ضطرت بريطانيا العظمى إلى تحصن الحدود الكندية من أقصاها إلى أقصاها — وهي الآن خالية من السلاح خلواً تاماً — ولا ضطرت إلى الاحتفاظ برسانة أسلحة عظيمة على نهر السانت لورنس . ولكانت دول أمريكا الوسطى والجنوبية المنقسمة على نفسها غيلت وأخضعت من زمن بعيد ووضعت تحت الرقابة النظامية لموظني الولايات المتحدة من وطبقة الحكام » . ولكانت تقوم حملة مستمرة تستهدف ضم استرائيا ونيوزيلندا إلى أمريكا ، هذا إلى مدع جديد بنصب في إفريقيا المدارية الاستوائية .

وقد حدث طوعاً لصدفة عجيبة أن أنتجت الولايات المتحدة في شخص الرئيس روزفلت (الذي تولى الرياسة من ١٩٠١ – ١٩٠٨) رجلاً ذا همة تعادل في عدم استقرارها حال القيصر الألماني ، كما يعدله في التشوق إلى جلائل الأمور وفي الفصاحة وذلاقة اللسان ، فهو رجل مغامر فيه انحياز إلى ناحية السياسة العالمية ، وفيه غريزة تدعوه إلى التسلح والجيوش المسلحة ، وهو الرجل عينه الذي نستطيع أن نتصور منه أن يقحم بلاده في التخاطف على الممتلكات واء البحار .

الأيدى من الناحية الدستورية ، عن القيام بنوع السياسة الخارجية التي جعلت أوريا طيلة زمان مديد على شفير الحرب باستمرار .

ومن الناحية الثانية : لم يوجد في الولايات المتحدة حتى الآن أية منظمة تدير شئون ما قد يسميه الناس باسم و الممتلكات غير القابلة التمثل و ولا أية تقاليد لمعالجة مثل هاته الممتلكات . وفضلا عن ذلك فحيث لا يوجد تاج لا يمكن أن توجد مستعمرات المتاج (۱) . وكانت الولايات المتحدة إبان امتداد رقعها عبر القارة الأمريكية قد طورت أسلوباً عمزاً لما تماماً في معالجة شئون الأراضي الجديدة ، وهو مكيف تكيفاً بديعاً للأراضي غير المسكونة ، ولكنه غير ملائم تماما إذا هو طبق بمل الحرية على مناطق تحوى من قبل سكاناً أجانب . وكان هذا الأسلوب يقوم على فكرة أنه لا يمكن أن يوجد في مجموعة الولايات المتحدة شعب تابع تبعية أبدية .

وكانت أول مراحل عملية النمثل العادية هي إنشاء «منطقة » تحت حكم حكومة الانحاد ، يكون لها قدر جسم من الحكم الذاتي ، وترسل إلى الكونجرس مندوباً (ليس له أن يعطى صوته) ولا بدلها إن سارت أمورها سيراً طبيعياً ومع استقرار الناس فيها وزيادة عدد سكانها ، أن تزدهر آخر الأمر فتنال كل حقوق الولاية تلك هي عملية التطور في كل ولايات الاتحاد الأحدث عهداً ؛ وكانت آخر مناطق بلغت مرتبة الولاية هي آريزونا ونيومكسيكو في ١٩٩٢(٢) . على أن برية ألاسكا المتجمدة المشتراة من الروسيا ، ظلت غير متطورة من الناحية السياسية لمجرد أنها لم تحو عدداً من السكان يكني القيام بإنشاء ولاية .

ولما كان ما ضمته ألمانيا وانجلترة من أراض فى المحيط الهادى هدد البحرية الأمريكية بالحرمان من محطات الفحم فى ذلك المحيط ، فقد ضمت الولايات المتحدة إليها جزءاً من جزائر ساموا (١٩٠٠) كما ألحقت جزائر سندوتش (هواى)

⁽١) في هذه الفقرة يذكر المؤلف القراء مجميع أنواع المستعمرات البريطانية ويطرق الحكم التي تتبعها بريطانيا في حكها لها . (المترجم)

⁽ ٢) لقد حدث فعلا ما تقبأ به للتولُّف ، فإن الولايتين وهما ألامكا وهواى قد أنشتنا قعلا وضمتا إلى الاتحاد . وبذلك أصبح عدد الولايات للتحدة خسين . (للترجم)

(١٨٩٨). وهنا وجدت الولايات المتحدة لأول مرة شعوباً محكومة تتعامل وإياها ولكن أمريكا اتبعت فيها نفس أسلوبها في معالجة المناطق الجديدة في بلادها ، وذلك لعدم وجود أية طبقة تماثل الموظفين الإنجليز في الهند الذين يتسلطون على الرأى العام البريطاني . وقد بذل كل مجهود أرفع المستوى التعليمي في هواى إلى نفس مستواه في أمريكا ، ونظم مجلس تشريعي داخلي على غرار مجالس الولايات حتى ليخيل إلينا أن من المحتم أن ينال هولاء الجزريون السمر القاتمون في النهاية كامل الحقوق المدنية للولايات المتحدة . (وجيمن على جزائر ساموان الصغيرة مدير من قبل الولايات المتحدة تابع للبحرية) .

وفى ١٨٩٥ نشب بين الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى خلاف حول فنزويلا، واستمسك الرئيس كليفلند بغاية الشجاعة بمبدأ مونرو. وعند ذلك صرح المسر أولني (١) مهذا التصريح الهام: اليوم تصبح الولايات المتحدة صاحبة السيادة الفعلية على هذه القارة، كما أن أوامرها قانون في الموضوعات التي تقصر علما تلخلها ». ويشر هذا مجتمعاً مع ما عقد من المؤتمرات المنوعة التي تدعو إلى اتحاد الأمريكتين، إلى السياسة خارجية » حقيقية علنية تقوم على التحالف والمساعدة المتبادلة في كل أرجاء أمريكا . ومعاهدات التحكيم نافذة المفعول في كل أرجاء تلك القارة، وكاني بالمستقبل مشراً إلى الاتجاه إلى تطور تدريجي نحو إنشاء منظمة دولية أي السلم أمريكي مهداله الأولى بمثابة الأخ الأكبر . وهنا نرى شيئاً لسنا بمسطيعين حتى أن نسميه إمراطورية ، وهو شيء يتجاوز كثيراً المتحالف الكبير في بمسطيعين حتى أن نسميه إمراطورية ، وهو شيء يتجاوز كثيراً المتحالف الكبير في الإمراطورية الربطانية من ناحية المساواة الصريحة بين أجزائه .

⁽۱) ربتشارد أو تني (Olney) : (۱۹۱۷ – ۱۹۱۷) سياسي ومحام أمريكي . أسبح وزيراً > كتب في سنة ۱۸۹۵ رسالته الشهيرة طالب فيها بضرورة تحضوع بريطانيا للتحكيم في خلافها مم أنثرويلا . (المترحم)

 ⁽٢) فى ذلك وفى « السلم البريطانى » إشارة السلم الروحانى (Pax Rowana) الذي كان يغرض الأمن والسلام بالعالم إبان عظمة روحا (المترحم)

ومما يتسق مع هذه الفكرة الحادفة إلى الصالح الأمريكي المشترك ، أن تدخلت الولايات المتحدة في ١٨٩٨ في شئون كوبا ، التي ظلت في حالة من العصيان المزمن على أسبانيا طيلة سنوات عديدة . ثم عقب ذلك حرب وجيزة الأمد انتهت بالاستيلاء على كوبا ويورتوريكو وجزائر الفلبيين . وكوبا الآن جمهورية مستقلة تدير شئونها بنفسها . وأعطيت بورتوريكو وجزائر الفلبين نوعاً خاصاً من الحكم فيه مجلس نواب ينتخب الشعب أفراده ومجلس أعلى يحتوى على أعضاء عينهم بادئ الرأى مجلس الشيوخ بالولايات المتحدة . ومن البعيد أن تصبح أى من بورتوريكو والفلبين يوما ما ولايات في الاتحاد الأمريكي . والأرجح أن تصبحا دولا حرة على أساس تحالف شامل مع كل من أمريكا الناطقة بالإنجليزية وأختها اللائينية .

ولقد استقبلت كل من كوبا وبورتوريكو التلخل الأمريكي في شئونها بالترحاب النام ، ولكن ظهرت في جزائز الفلين حركة مطالبة بالحرية النامة الناجزة بعد الحرب الأسبانية ، كما نشبت مقاومة جسيمة للإدارة العسكرية الأمريكية . هنالك اقتربت الولايات المتحدة أشد اقتراب من طراز استعار الدول الكبرى ، وأصبح سجلها في هذا المضهار أبعث ما يكون على الريبة على أن الشعب الأمريكي أبدى شيئاً كثيراً من العطف على العصاة . وهاكم الآن وجهة نظر الرئيس روز قلت كما كتبا في ترجمته الذائية ١٩١٣ .

و فأما عن الفلين فقد كان اعتقادى أنه يجب علينا أن ندرب أهاليها على المكم الدائى بأسرع ما بستطاع ، ثم نتركهم أحواراً فى تقرير مصيرهم . ولم أكن ممن يؤمنون بتجديد الموعد الذى يجب أن نعطيهم فيه الاستقلال ، لأنى لم أكن أرى من الحكمة أن يتنبأ المرء بمقدار السرعة التى يصبحون فيها أهلا للحكم الذائى ؛ فإذا قطعت ذلك الوعد فإنى أشعر بأنه من المحتم على أن أبر به . ولم تحض بضعة أشهر على توليى مهام عمل حتى قضينا فى جزائر الفلين على آخر مقاومة مسلحة وهى مقاومة لم تكن بجرد حركة متفرقة ولا متناثرة ، وما أن توطد السلام فى البلاد حتى مقاومة كل همتنا إلى تطوير الجزر الصلحة أهل البلاد ، فأسسنا المدارس فى كل

مكان ؛ وأنشأنا الطرق ؛ وأقمنا عدالة نزيهة ؛ وفعلنا كل ما فى مستطاعنا لتشجيع الزراعة والصناعة ؛ وأخذنا نزيد باطراد فى استخدامنا لأهل البلاد للقيام بحكم أنفسهم وأخيراً زودناهم بمجلس تشريعى . . .

و لقد كنا وما زلنا نحكم جزر الفليين لمصلحة أهلها أنفسهم . فلو قرر الفليبيون في الوقت المناسب أنهم لا يرغبون أن يحكموا على هاته الشاكلة ، فإنى موقن بأننا سنفادر بلادهم عند ذلك . على أننا إذا غادرناهم بالفعل فيجب أن يكون مفهوماً فهما بيناً أننا لا نحتفظ بأى حماية على الجزر ، وأننا فوق كل شيء لن نساهم في أية حماية مشتركة ـ ولا نمنحهم أى ضمان بالحياد أو عدم الحياد ، وأننا بالايجاز خلو خلواً تاماً من كل تبعة ، من أى نوع ووصف قبلهم .

تلك وجهة نظر مخالفة أتم المخالفة لوحهة نظر وزارة للخارجية بريطانية أو فرنسية أو موظف في وزارة المستعمرات . على أنها لا تبتعد كثيراً عن تلك الروح الني خلفت الممتلكات المستقلة في كندا وجنوب أفريقيا وأستراليا ، وقدمت مشروعات قوانين الحكم الذاتي الثلاثة لإرلندة . وهي شيء يتمشى والتقاليد الإنجليزية القديمة التي اختصصنا بها والتي انتهل منها إعلان الاستقلال . وهي تنبذ بلا مناقشة تلك الفكرة الممقوتة . فكرة و الشعوب الحكومة و . وأن ندخل هنا في المعقدات السياسة التي صعبت إنشاء قناة بناما ، لأنها لا تلتي أي ضياء جديد على هذا الموضوع الشائق موضوع منهج أمريكا في السياسة العالمية . وتاريخ بنما تاريخ أمريكي بحت . ولكن من الواضح أنه كما كان التركيب السياسي الداخلي للاتحاد الأمريكي شيئاً جديداً في العالم ، فكذلك كانت علاقاته بالعالم خارج حدوده .

٧ _ الأسباب المباشرة للحرب العظمى

لقينا بعض المشقة فى الفحص عن حالة أوربا وأمريكا العقلية بالنظر إلى العلاقات الدولية فى السنوات التى انتهت بمأساة ١٩١٤ العالمية ، لأن تلك الحرب الكبرى وأمثالها _ كما أخذ عدد متزايد من الناس يشعر بذلك _ كانت نتيجة ضرورية لعقلبة الزمان . فإن جميع الأشياء التى تصدر عن الأقراد والأمم إنما هى نتيجة

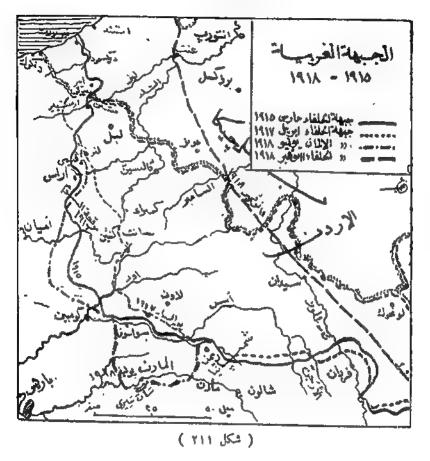
للوافع غريزية لها رد فعل على الفكرات التي وضعها في رءوس الناس الخطابة والكتب والمصحف والمدرسون إلى غير ذلك من وسائل الإعلام وربما أخرجت نمو التاريخ الإنساني عن جادته واتحرفت به وشوهت معلله أشياء من أمثال الضرورات الطبيعية والأوبئة وتغيرات المناخ وما إليها من أشياء أخر ، ولكن الفكر هو الجاذر الحي لذلك التاريخ .

فالتاريخ البشرى بأجمعه إنما هو فى جوهره تاريخ فكرات . فإن ما بين إنسان هذا الزمان ورجل الكرومانيون من فروق جنّانية وعقلية طفيف جداً ؛ وينحصر الفارق الأساسى بينهما فى سعة ومحتويات 1 الحلفية العقلية 1 التى اكتسبناها فى الأجيال الحمسمئة أو الستمئة التى تفصلنا عنهم .

ونحن من الحرب العظمى على مقربة بلغ من شدتها ألا نستطيع أن ندعى أن في إمكان هذا الكتاب أن يسجل حكم التاريخ عليها ، على أنا ربما خاطرنا بأن نزكن أنه عندما تخف انفعالات النزاع ، فستكون ألمانيا صاحبة القسط الأوفى من اللوم على التسبب فنها ، وإنها لتلام لا لأنها كانت من الناحية الذهنية والحلقية مختلفة جدا عن جبرانها ، بل لأنها كانت مصابة بما تشركها فيه اللول جميعاً من داء الاستعار ولكنه فيها على أتم صورة وأقواها نشاطاً . وليس هناك من مؤرخ يحترم نفسه ، مهما بلغت مراميه من السطحية والرغبة في استرضاء العامة ، يستطيع أن يقبل تلك مهما بلغت مراميه من السطحية والرغبة في استرضاء العامة ، يستطيع أن يقبل تلك الأسطورة التي أنتجها آلام الحرب وويلاتها ، والقائلة بأن الألمان نوع من الكائنات أول أوربا الكبيرة كافة كانت في ١٩٩٤ في حال من القومية العدوانية ، وكانت تنساق أوربا الكبيرة كافة كانت في ١٩٩٤ في حال من القومية العدوانية ، وكانت تنساق من وقع في الحفرة ، وهوت تتخبط في أعمق أعماقها . وأصبحت المثل الفظيع الذي استطاع وملاؤها في الإثم أن يشهروا به .

ذلك أن ألمانيا والنمسا ظلتا زمناً طويلا تبحثان عن متسع للنفوذ الألماني شرقاً خلال آسيا الصغرى إلى بلاد الشرق . وتبلورت الفكرة الألمانية في عبارة « برلين إلى بغداد » . وكانت أحلام الروسيا علوة لأجلام ألمانيا ، فالروسيا كانت تدبر

الخطط الرامية إلى إمتداد السيادة السلاڤية (الصقلبية) إلى القسطنطينية والوصول بطريق صربيا إلى البحر الأدرياتي . وكانت هذه الأطاع متضاربة متعارضة .



وكانت حالة الحمى المتسلطة على شئون البلقان نتيجة طبيعية جداً المؤامرات والدعايات التى تواصل القيام بها الخطط الألمانية والسلافية . ومدت تركيا يدها إلى ألمانيا تلتمس العون ، والتفتت صربياً صوب الروسيا . واتبعت رومانيا وإيطاليا وكلتاهما لاتينية التقاليد ، وكلتاهما حليف إسمى لألمانيا ، خططاً مشتركة بينهما أبعد عالا وأعمى غوراً . وكان فرديناند قبصر بلغارياً يطلب غايات أشد حلوكة وسواداً ؛ كما أن خفايا البلاط اليوناني الذي كان ملكه صهراً للقيصر الألماني تخرج عن مجال مقدرتنا الحائية على البحث والتقصى .

ولكن المعضلة لم تنته عند تربص ألمانيا في جانب والروسيا في الجانب المقابل. فإن جشع ألمانيا في المحال من فرنسا علواً للوداً لها . وأدرك الشعب الفرنسي عجزه عن أن يسترد بقوته وحده مقاطعاته المسلوبة ، وعلل النهس بفكرات مضخمة عن قوى الروسيا ومساعداتها . وأسهم الشعب الفرنسي في القروض الروسية إسهاماً هائلا . وكانت فرنسا حليفة للروسيا . فإذا اعتدت قوات الألمان على الروسيا فلامراء في أن فرنسا تهاجمهم .

وكانت الحدود الفرنسية الشرقية القصيرة محصنة تحصيناً قوياً جداً. وبفضل هذا الحاجز لم يعد أمام ألمانيا إلا أقل الاحتمالات فى تكرار تجاحها فى ١٨٧٠-١٨٧٠. على أن الحدود الفرنسية البلجيكية كانت أطول وأضعف تحصينا. فالقيام بهجوم على فرنسا بطريق بلجيكا بقوات جارفة لاقبل لأحد بمقاومتها ، قد يعيد ١٨٧٠ على درجة أكبر وأبلغ . وربما رُدت الميسرة الفرنسية نحو الجنوب الشرق إلى قردان جاعلة منها قطب دوران ، ثم تتزاحم متراجعة على الميمنة كما تطبق المدية أو الموسى .

وقد دبر الاستراتيجيون الألمان هذه الحطة بعناية وإحكام بالغين . وكان فى تنفيذها اعتداء على حرمة قانون الأم : (أعنى القانون الدولى) ، أبن بروسيا تعهدت بضيان حياد بلچيكا ولم يكن بين الفريقين خلاف ، كما أن فيه خطر إدخال بريطانيا العظمى فى الموضوع (وهى دولة كانت كذلك متعهدة بحابة بلچيكا) من ألمانيا . ومع هذا فإن الألمان اعتقدوا أن أسطولم بلغ من القوة مبلغاً يكنى لجمل بريطانيا تتردد فى التدخل ، وقاموا — ناظرين إلى الاحبالات التى قد تجى بها الأيام — بإنشاء مجموعة عظيمة من الحطوط الحديدية الاستراتيجية (١) تصل إلى حدود بلاد البلجيك ، وأعدوا كل عدة لتنفيذ هذه الحطة . لعلهم بذلك يستطيعون أن يقضوا على فرنسا بضربة واحدة ، ثم يلتفتون بعد ذلك إلى الروسيا وقيًا يمليه عليم هواهم .

وفى ١٩١٤ كان يلوح أن جميع الأمور متكافئة حسبا "بهوىاللمولتان الوسطيان. نعم إن الروسيا كانت تستعيد قواها منذ ١٩٠٦ ، ولكن ذلك لم يكن إلا ببطء

⁽١) الاستراتيجيا ؛ فن القيادة بصفة عامة وعلم أو فن جمع الموارد العسكرية بعضها إلى بعض أو القيام بمناورات الجيوش . (المترجم)

شدید. و کانت فرنسا مبلبلة الفکر لما أصابها من فضائح مالیة . ولم یلبث الحادث المله الذی صرع فیه المسیو کالمیت محرو جریدة الفیجارو علی ید زوجة المسیو کایتو^(۱) و زیر المالیة ، أن بلغ بهذه الفضائح أوجها فی مارس . فأما بریطانیا ، فإن المانیا بأجمعها کانت موقنة بأنها علی شفیر الحرب الأهلیة فی إرلندة . وبذلت جهود متکررة من أقوام أجانب و انجلیز علی السواء للحصول علی بیان محدد عما تنوی بریطانیا أن تفعله إذا هاجت ألمانیا و النمسا دولتی فرنسا و الروسیا . ولکن و زیر الخارجیة البریطانی السیر إدوارد جرای ظل محتفظاً بستار من الغموض حتی نفس الموم الذی دخلت فیه بریطانیا الحرب . و نتیجة لذلك ، کان یعم القارة الأوربیة إحساس بأن بریطانیا إما لا تنوی أن تحارب أو هی صوف ترجی الفتال . و ربما شجع مذا ألمانیا أن تواصل تهدیدها لفرنسا .

ومما تعجل سر الحوادث في ٢٨ يونيه اغتيال الأرشيدوق فرانسيس فرديناند ، وارث حرش الإمبراطورية النساوية وهو في زيارة رسمية لسراجيقو عاصمة مقاطعة البوسنة . وعند ذلك لاح أنسب الأعذار لدفع الجيوش إلى التحرك . قال إمبراطور الألمان «إما الآن وإلا فلا » . وأنهمت صربيا بالتحريض على القتل ، وبالرغم من أن المندوبين النمسويين قدموا تقريراً يتضمن أنه ليست هناك أدلة على أن للحكومة المسربية ضلماً في الجريمة ، فإن حكومة النما والحجر دبرت التدابير لتوجيه هذا الاعتداء إلى ناحية الحرب . فني ٢٣ يوليو أرسلت النمسا إلى الصرب إنذاراً نهائيا ، وبالرغم من تقدم الصرب بالحضوع الفعلى ، ومن جهود السير إدوارد جراى وزير وبالرغم من تقدم الصرب بالحضوع الفعلى ، ومن جهود السير إدوارد جراى وزير الخارجية المريطانية لدعوة الدول إلى مؤثمر ، فإن النمسا أعلنت الحرب على صربيا في ٢٨ يوليو .

وعبأت الروسيا جيوشها في ٣٠ يوليو ، وفي أول أغسطس أعلنت عليها ألمانيا الحرب . وعبرت القوات الألمانية الحدود الفرنسية في اليوم التالى ، وابتدأت الحرب

⁽١) كايو (Calllaux) ، (١٩٤٤ – ١٩٦٣) : سياسى فرنسى . تولى المالية ورئاسة الوزارة . قتلت زوجته المحرر لأنه هددها بنشر رسائل من كايو إليها وهى زوحة لوجل آخر . (المترجم)

الكبيرة ، حركة الهجوم على الجناح الأيسر خلال لوكسمبرج وبليجيكا . وسارت إلى الغرب راكبة الكشافة وحرس الطليعة . وانطلقت إلى الغرب أرتال من السيارات المحملة بالجنود . وتبع ذلك طوابير هائلة من المشاة ذوى البذلات الرمادية ؛ وكان معظمهم شباناً المانيين جميلي العيون شقر الشعور ، وهم أحداث متعلمون ممن يطبعون القانون ويحترمونه وممن لم يحدث أن رأوا من قبل رصاصة تطلق غضباً . لقد أخبروهم وأن هذه هي الحرب » . وأمهم يجب أن يكونوا شجعاناً لا تجد الرحمة إلى قلومهم سبيلا . وبذل بعضهم قصاراه في تنفيذ تعليات سادته العسكريين هذه على حساب أهالي بلجيكا التعساء .

وقد أثيرت حول تفاصيل فظائع الآلمان في بلجيكا ضجة لا تتناسب في الحق مع الفعلة الجوهرية الشنعاء التي اقترفت في أغسطس ١٩١٤، وأعنى بها اجتياح بلاد البلجيك. فلو سلمنا بهذا فإن كل ما يقع بعد ذلك من قتل ونهب ، ومن تدمير طائش للممتلكات ، ومن نهب للفنادق والمطاعم والمشارب يقوم به رجال جياع مكدودون ، وما يترتب على ذلك من إغتصاب للنساء ومن حرائق ، فأمور تعقب ذلك بحكم طبيعة الأشياء . وليس إلا البسطاء من الناس من يعتقدون بأن جيشاً في ميدان القتال يقدر أن يحافظ على مستوى للأمانة واللياقة والعدالة ، كما يقدر أن يحافظ عليها مجتمع مستقر في وطنه . هذا إلى أن تقاليد حرب الثلاثين سنة كانت ما تزال تؤثر أثرها في الجيش البروسي (١) . فقد جرت العادة في البلاد المتحالفة ضد ألمانيا أن يعالجوا هذا الاتضاع وسفك الدماء أثناء شهور القتال برجعان إلى بنعة شريرة تتميز بها أخلاق الألمان .

فأطلقوا عليهم اسم ﴿ الهون ﴾ تشهيراً مهم . ولكن جرائم الألمان في بلجيكا أقل الأشياء شهاً بالتدميرات المنظمة التي ارتكبها هؤلاء المترحلون ﴿ الذين فكروا مرة

 ⁽١) يحلو لكتاب الإنجليز أن يصموا جيوش غيرهم بكل نقيصة وينسون ما قامت به جيوشهم البريطانية من قطائع وشناعات على مر الأيام بيندى لها جبين التاريخ وما مذابح الهند وبورما والعزيزية ببعيدة عن الأذهان . (المترجم)

في إبادة السكان الصينيين على بكرة أبهم لكى يعيدوا بلاد الصين إلى الرعى) وكان الشيء الكثير من هذه الجرائم وحشية تسبب عن سكر رجال صاروا لأول مرة في حياتهم أحراراً في استخدام أسلحة مهلكة ، وكان الكثير منها هو العنف الهستيري الذي يصدر عن رجال أزعجهم ما بدر منهم من تصرفات ، أو ألم بهم خوف قاتل من إنتقام الأهالي الذين وقع منهم الاعتداء على حرمة بلادهم ، وكان الكثير منها يحدث تحت ظروف من الاضطرار والفيق بسبب النظرية القائلة بأن الرجال يجب أن يكونوا في الحرب فظيعين وأن خير وسيلة لإخضاع الأمم هي الحوف . وقد بجع العامة الألمان من حالة طاعة نظامية وزجوا في هذه الحرب على صورة جعلت من الحمة أن يترتب عليها الفظائع . فإن أي شعب يجهز للحرب ويساق إلى نحرائها كما حدث للألمان فهو لابد متصرف على شاكلة بماثلة .

وفى ليلة ٤ أغسطس ، وبينما أوربا ما تبرح مستغرقة فى بحبوحة نصف قرن من السلم ، وما تبرح تستمتع الاستمتاع المعتاد بالحرية والرخص والوفرة الشاملة التى لن يراها أى حى مرة أخرى ، وتفكر فى إجازاتها الصيفية ؛ حسكانت قرية فميزيه (Visé) البلجيكية الصغيرة فى أتون من النيران ، ثم كان فلاحوها المشدوهون يو خذون ويعنمون رمياً بالرصاص بدعوى أن أحد الناس أطلق النار على الغزاة . ومن الموكد أن الضباط الذين أصدروا هذه الأوامر والجنود اللين نفذوها شعروا بالرعب لغرابة ما أتوا . إذ لم يسبق لمعظمهم أن شهد حتى ذلك اليوم موتة عنيفة . وكانوا قد أضرموا النار لا فى قرية بمفردها بل فى عالم بأجمعه . كانت تلك بداية نهاية لعصر من الاستجام والثقة والسلوك الرقيق اللائق فى أوربا .

وماكاد العالم بتحقق أن بلاد البليجيك سوف تغزى ، حتى كفت بريطانيا العظمى عن النردد ، وفى الساعة الحادية عشرة من مساء ٤ أغسطس أعلنت الحرب على ألمانيا . وفى اليوم التالى ضبطت سفينة ألمانية من ملقيات الألغام عند مصب نهر التيمز إذ اكتشفتها الطرادة (أمفيون Amphion) وأغرقتها — وهى أول مرة التتى فيها الألمان بالإنجليز فى حرب تحت راياتهما القومية سواء أكان ذلك فى البر أم فى البحر . وما تزال أوربا بأكملها تتذكر الجو الغريب لأيام أغسطس المشمسة المليئة

بالأحداث هذه ، وتتذكر نهاية السلم المسلح . وقد ظل العالم الغربي قرابة نصف قرن وهو ساكن تبدو عليه الأمنة . ولم يكن هناك في فرنسا إلا القليل من الكهول والشيوخ الذين شربوا لبان الحرب فعلا وتمرسوا بها عملياً . وطفقت الصحف تتحدث عن كارثة عالمية ، ولكن هذا الحديث لم يكن له إلا معنى ضئيل جداً لدى أولئك الذين كان العالم يبدو في نظرهم على الدوام في أمنة وسلام ، ومن كانوا في الواقع لا يستطيعون تصوره إلا مستظلا بظلال الأمنة والسلام .

وتواصلت فى بريطانيا بوجه خاص روتينات زمن السلم وأحواله العادية تواصلا لا يخلو من اهتزاز وتردد . كانت الحال تشبه حال رجل ما يزال يمشى فى هذا العالم غير مدرك أنه مصاب بداء عضال سوف يغير كل مجرى حياته وكل عادة فيها . فاستمر الناس فى إجازاتهم الصيفية ؛ وكانت الدكاكين تطمئن زبائنها بإعلانهم بأن «العمل يجرى كالمعتاد » . وكان الحديث يكثر والإنفعال يشتد عندما تظهر الصحف ، ولكنه كان حديثاً وكان انفعالا لنظارة ليس لديهم شعور واضح بالاشتراك فى هذه الكارثة التى أوشكت أن تغمرهم جميعاً على الفور .

٨ – خلاصة للحرب العظمي حتى ١٩١٧

سنستعرض الآن بمنتهى الإبجاز الأدوار الرئيسية للكفاح العالمى الذى ابتدأ كما رأيت . وكما دبرت ألمانيا الأمر ، بدأت الحرب بهجوم سريع يهدف إلى ضرب فرنسا « ضربة قاضية » ؛ بينا تكون الروسيا منهمكة بتجميع قواتها فى الشرق . وسارت الأمور على ما يرام ردحاً من الزمان . ومن المعروف أن العلم العسكرى ليس بالعلم المماشي لتقدم زمانه فى ظروفنا العصرية هذه ، لأن العسكريين من الرجال إنما هم بوصفهم طبقة – رجال واهنو الحيال ، فهناك فى كل آن تختر عات لم تتطور ، بحد الفطنة العسكرية قد رفضتها ، بينا هى تستطيع أن تحطم ما جرى عليه العرف فى فى التا كتيك (١) والاستراتيجيا .

 ⁽١) التاكتيك : فن قيادة الجند في إحدى المعارك وفق قواعد مقررة وخطة مرسومة .
 (المترجم)

وكانت الحطة الألمانية مديرة من صنوات عدة . فهى من ثم خطة عتيقة آسنة . ولعلها كانت تحبط منذ البداية لو أنها قوبلت باستعال الحناق والأسلاك الشائكة والمدافع الرشاشة استعالا صحيحاً ، ولكن الفرنسيين لم يكونوا بأى حال متقدمين في فهم العسكرى تقدم الألمان ، فركنوا إلى أساليب الحرب المكشوفة الى كانت متأخرة عن الزمان بما لا يقل عن أربعة عشر عاما . ولم يكن لديهم عتاد مناسب لامن الأسلاك الشائكة ولا من المدافع الرشاشة ، وكان هناك تقليد مضحك يقول بأن الفرنسي لا يحسن القتال وراء المتاريس .

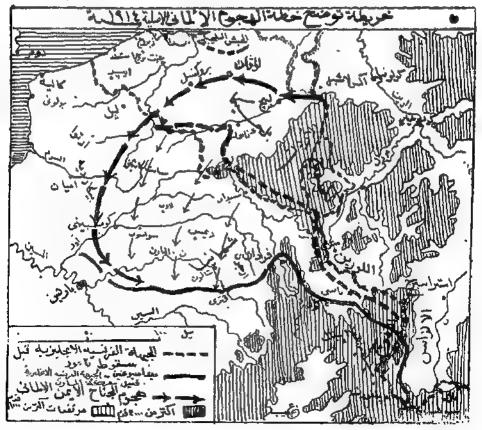
وكان الدفاع عن الحدود البلچيكية موكولا بحصون ليبج (Liége) ، وهي حصون قديمة الطراز عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة ، وفيها استحكامات زودها بالأسلحة وركبها في كثير من الحالات مقاولون من الألمان ، وكان العتاد في الحدود الفرنسية الثمالية الشرقية رديئاً جداً . وطبيعي أن شركة الأسلحة الألمانية المساة كروب أعدت لهذه الحصون الهزيلة معاول تتمثل في مدافع ذات ضخامة استثنائية تقذف بقنابل شديدة التفجر . وأثبت هذه الحصون أنها ليست إلا مجرد مصايد لحاتها المدافعين .

وقام الفرنسيون بهجمة فاشلة فى جبال الأردن الجنوبية . وتأرجحت الجيوش الألمانية حول الميسرة الفرنسية حتى أيقن الناس أنها جيوش لا قبل لأحد بمقاومتها ؛ وسقط آخر حصن فى لبيبج ف ١٦ أغسطس ، وبلغ الألمان بروكسل فى ٢٠ أغسطس ، وعند مونز (Mons) أصيب الجيش البريطانى الصغير المكون من سبعين ألفاً والذى وصل إلى بلجبكا ، بضربة قاضية من قوات ساحقة ، ودفع إلى الحلف بالرغم من درس تاكتيك البنادق المهلك الذى تلقاه فى خرب جنوب أفريقيا . ودفعت القوة البريطانية الصغيرة إلى الجنوب . وانحدرت الميمنة الألمانية بصورة تترك باربس فى الغرب وشهرس الجيش الفرنسي بعضه فى بعض .

وبلغ من شدة ثقة القيادة الألمانية فى هذه المرحلة بأنها كسبت الحرب ، أنه قبل نهاية أغسطس كانت الجيوش الألمانية تسحب وتنقل فعلا إلى الميدان الشرقى ، حيث كان الروسيون بهلكون الحرث والنسل فى بروسيا الشرقية والغربية . وعند ذلك

جاء هجوم الحلقاء المضاد . وأبرز الفرنسيون في ميسرتهم جيشاً غير منتظر ، وكان الجيش البريطاني الصغير الذي تزلزل في البداية ، قد أمد بالقوات وأصبح قادراً على أن يقوم بدور كريم في الضربة المضادة . ودأست بعض الميمنة الألمانية على بعض ، وقد ضلت تاتصالها ببعضها بعضا ، ثم دفعت عن المسارن إلى الأيسن (Aisne) (معركة المارن من ٦ سبتمبر إلى ١٠ سبتمبر) . ولعلها كانت ستدفع إلى الحلف أكثر من ذلك لولا أنها أعدت في جعبتها فكرة الالتجاء إلى الحنادق . ووقفت الميمنة عند نهر الأيسن واحتفرت لنفسها الحنادق . ولكن لم تكن المدافع الثقيلة ولا القنابل الشديدة النفجر ولا الدبابات التي يحتاج إليها الحلفاء لتحطيم هذه الخنادق ومعاقلها ، قد ظهرت إلى عالم الوجود بعد .

ومزقت معركة المارن الخطة الألمانية الأصلية . ونجت فرنسا إلى حين . ولكن



(شکل ۲۱۲)

الجيش الألمانى لم يهزم ؛ بل كان لا يزال لديه الفوق العدوانى العظيم فى المهارة العسكرية والعتاد . وكان خوفه من الجيش الروسى فى الشرق قد زال أو كاد بنصر هائل أحرزه فى تانترج . وكان الدور الثانى من أدوار الحرب حملة مدبرة تدبيراً أقل إحكاماً ترمى إلى تطويق ميسرة جيوش الحلقاء والاستيلاء على ثغور القنال الإنجليزى ومنع المدد الآتى من انجلترة إلى فرنسا . ومن ثم امتد كل من الجيشين غرباً وانطلقا إلى الساحل فيا يشبه السباق . ثم انطلق الألمان بما لهم من تفوق عظيم فى المدافع والعتاد محاولين إنزال ضربة بالإنجليز بالقرب من إير (Ypres) وكادوا أن يحدثوا ثغرة فى صفوفهم ، لولا أن صمد لهم الإنجليز .

ووكدت الحرب في الميدان الغربي متحولة إلى حرب خنادق. ولم يكن لدى أحد من الطرفين من العلم والعتاد ما يكفل حل مسألة اختر اق الحنادق العصرية وأحابيل المعوقات الحديثة ، وعند ذاك اضطر كل من الطرفين إلى الالتجاء إلى أهل العلم والاختراع ومن المهم من غير العسكريين يسألونهم النصح والمعونة فيا هم فيه من ورطة . وفي ذلك الوقت كانت المشكلة الجوهرية في حرب الخنادق قد حُلت فعلا ؛ إذ كان يوجد في انجلزة مثلا نموذج دبابة كانت تمنح الحلفاء ولا ربب نص آ سهلا سريعاً قبل الجليل ، ولكن العقل العسكرى المحترف إنما هو بحكم الضرور . قل منحط سقيم الخيال ؛ فليس هناك إنسان رزق مزية ذهنية عالية يرضي بمحص اختياره بحبس مواهبه في مثل هانه المهنة ؛ وجميع العسكريين المتفوق العظمة يكادون أن يكونوا إما من الشبان الأغمار الناضرى الأذهان أمتال الإسكندر ونابليون وهوش (۱) ، أو من المرحلين المنال تواد الهون والمغول أو هواة من أمثال يوليوس قيصر ، أو من المرحلين أمثال قواد الهون والمغول أو هواة من أمثال كرومويل وجورج واشتجتون . على أن هذه الحرب الناشبة بعد خسين سنة من التهيؤ العسكرى كانت حرب عترفين أنحاح ؛ وكان من المستحيل منذ بدايتها حتى نهايتها استخلاصها من يد القواد العادين ،

⁽۱) هوش (۱۷۹۸ – ۱۷۹۷) قائد فر عى قايغ ، دخل الجيش جندياً ورقى چغرالا ، رقى ۱۷۹۳ تولى القيادة فى اللورين وطرد منها لجيوش البروسية . وقام بمحاولة محققة لغزو إرانئة فى ۱۷۹۱ . (المترجم)

ولم يكن أى من قيادة الألمان أوقيادة الحلفاء بميالة إلى أن تنظر بعين التسمح إلى أى اختر اع يقضى على أساليهم التقليدية .

ومها يكن الأمر فإن الألمان استحدثوا بالفعل بضعة مستحدثات. فإنهم فى المرابر أنتجوا مستحدثة تكاد تكون غير ذات أثر ، هى قاذفة اللهب الى كان من يستعمها معرضاً على الدوام أن يحرق حياً ؛ وفى أدل وعند افتتاح هجوم عظيم ثان على البريطانين (معركة إيبر الثانية من ٢٧ أبريل إلى ٢٤ مايو) استخدموا سحابة من الغاز السام . وقد استعملت هذه الوسيلة الفظيعة ضد جيوش جزائرية وكندية ؛ فزلز لهم المداب الجسهاني الذي كان يصيبهم منها ، وآلام النزع التي بلقاها من يتسلمون الروح منهم ، ولكنها فشلت في إحداث ثغرة في صفوفهم . وجاءت بضعة أسابيع حتى كان الكياويون فيها أعظم أهمية من الجنود في جبهة الحلفاء ، وما مضت ستة أسابيع حتى كان بين يدى الجيوش المدافعة أساليب ومستحدثات وقائبة . وانقضت مدة عام ونصف حتى يوليو ١٩١٦ ، استمر فيها الميدان الغربي في حالة توتر غير حاسم . وقام كل من الطرفين بهجات شديدة كانت نذهبي بصدها بعد إراقة كتبر من الدماء . وقام الفرنسيون بطعنات غالية الثمن في آراس وفي شمبانيا في موس (١٩١٥)

وكان يمتد من سويسرا إلى بحر الشال خطان مستمران من الحنادق لا ينقطعان ، لا يفصل بينهما في بعض الأحايين إلا مسافة ميل أو يزيد ، وربما بلغت المسافة بينهما أحياناً بضعة أقدام (كما كان الحال في أراس مثلا) ، وفي داخل خطى الخنادق هذين ومن حولها كان ملايين الرجال يكدحون ويقاسون الويلات ، ويغيرون على أعدائهم ، ويعدون العدة لهجات دموية محتومة الفشل . ولو كانت هذه الجموع الآسنة في أي عصر سلف لأنتجت الأوبئة الوبيلة ولا مناص ، ولكن في هذا الموطن أيضاً استطاع العمري أن يغير ظروف الحرب . وظهرت أنواع بعينها من الأمراض الجديدة ، مثل مرض الأقدام الخندق (۱) من المترتب على الوقوف طويلا في المياه الباردة ، مثل مرض الأقدام الخندق (۱) من المترتب على الوقوف طويلا في المياه الباردة ،

^() مرض الأقدام الخندق أو عضة الصقيع للأقدام (Trench Feet) وهي حاله مرضية تصيب أقدام الجنود بالخبادق بسبب تعرضهم للبرد والرطوبة أثناء حرب الحنادف . (المترحم)

وأشكال جديدة من الدوسنتاريا وما أشبهها ، ولكن واحداً لم يتطور تطوراً يؤدى إلى تعجيز أي من القوّتين المتحاربتين .

ومن خلف هذه الجهة كانت كل حياة الأمم المتحاربة تُبحوّل أكثر فأكثر نحو القيام بإنتاج مدد مستمر من الطعام والمهات الحربية ، والقيام قبل كل شيء بتقديم رجال يحلون يوماً فيوماً محل من يقتلون أو يصابون . وكان من حسن حظ الألمان أن كان لديهم عدد ضخم من مدافع الحصار الكبيرة المعدة لحصون الحدود . فاستعملوا هذه في تحطيم الخنادق بالقنابل الشديدة الانفجار ، وهو استخدام لم يكن يتوقعه أحد . وكان الحلفاء طيلة السنوات الأولى أقل من الألمان بدرجة محسوسة فيا لديهم من المدافع الكبيرة والذخائر ، وكانت خسائرهم على الدوام أعظم من خسائر الألمان .

وشن الألمان على الفرنسيين هجوماً هائلا دام طيلة النصف الأول من ١٩١٦ حول ثردان. ولكن الألمان أصيبوا بخسائر فادحة ثم صدوا، بعد أن تقدموا في الحطوط الفرنسية بضعة أميال. وعدلت الحسائر الفرنسية خسائر الألمان أو أربت عليها. وكان المشاة الفرنسيون يرددون قولهم ولن يمروا -R lis ne Passerson pas وكان المشاة وقد بروا بكلمتهم.

وكان طول الجهة الألمانية الشرقية أكر وخنادقها أقل انتظاماً من الجبهة الغربية . وواصلت الجيوش الروسية حيناً من الدهر ضغطها غرباً بالرغم من كارثة تانسرج . فاستولوا من النمسويين على كل غاليسيا تقريباً ، وفتحوا لمرج فى ٢ سبتمبر ١٩١٤ ، وقلعة پرزيميل الكبيرة فى ٢٢ مارس ١٩١٥ . وبعد أن فشل الألمان فى اختراق جهة الحلفاء الغربية ، وبعد هجوم فاشل قام به الحلفاء دون الاستعداد له بما يلرمه من عتاد ومواد ، عاود الألمان التفاتهم إلى الروسيا . وأصابوا الروسيين بسلسلة من الضربات الفادحة استحدثوا فها طريقة جديدة من الحشد الشديد للمدفعية ، فهزموهم الفربات الفادحة الروسية أولا ثم فى شماطا . وفى ٣ يونية استردوا پرزيميل ، ما فى حنوب الحهة الروسية أولا ثم فى شماطا . وفى ٣ يونية استردوا پرزيميل ، ودفعوا بكل خط القتال الروسي إلى الخلف حتى وقعت ڤيلنا (في ١٨سبتمبر) في قبضة الألمان

وفى ٢٣ مايو ١٩١٥ انضمت إيطاليا إلى الحلفاء وأعلنت الحرب على النمسا. (ولكنها لم تُعلن الحرب على ألمانيا إلا بعد ذلك بأكثر من سنة). فلنعت حدودها الشرقية نحو جوريتزيا (التي سقطت في صيف ١٩١٦) ، ولكن تدخلها كان قليل الحدوى في ذلك الأوان لأى من الروسيا أو الدولتين الغربيتين . وكل ما فعلته أن أقامت خطأ آخر من حرب الحنادق بين الجبال العالبة الموجودة على حدودها الشهالية الشرقية الرائعة الجال .

وعلى حين كانت الجمهات المرئيسية المتقاتلين الكبار فيا رأيت من حال الجمود والتوقف المنهك القوى ، كان كل من الطرفين يحاول أن يكيل ضربة يلف بها حول خطوط خصمه . وقام الألمان بسلسلة من الغارات بمناطيد زبلن ، ثم بالطائرات فيا بعد على باريس وعلى شرق انجلرة ، وكان هدف هذه الغارات الظاهرى هو المستودعات ومصانع المهات الحربية وما اليها من أهداف ذات أهمية عسكرية ، ولكن الواقع أنهم كانوا يقذفون قذائفهم بلا تمييز على الأماكن المسكونة .

وكان المغيرون يسقطون بادئ الأمر قنابل غير كبيرة الأثر ، ولكن حجم ونوع القذائف أخذ يتزايد بعد ذلك شيئاً فشيئاً ، فأصيب من جراء ذلك عدد جسيم من الناس ما بين قتلي ومصابين ، وترتب عليه أيضاً أضرار كبيرة . وثار الشعب الإنجليزي ثورة غضب شديدة لهذه الإعتداءات . ومع أن الألمان كانوا يملكون مناطيد زبلن منذ بضع سنين ، فلم يفكر أحد من ذوى السلطان في إنجلترة في أمثل الطرق للقضاء عليها ، ولم يحدث إلا في مؤخرات ١٩١٦ أن أعدت مقادير كافية من المدافع المضادة للطائرات واستعملت إستمالا ناجماً ، وأن هاجمت الطائرات الإنجلزية هؤلاء المغيرين مهاجمة منظمة .

ثم أعقب ذلك سلسلة من الكوارث حلّت بمناطيد زبلن ، حتى أنها بعد ربيع ١٩١٧ لم تعد تستخدم لأى غرض إلا الاستطلاع البحرى . وحل محلها فى الإغارة الطائرات الكبيرة (من طراز جوئا) . وأصبحت غارات هذه الآلات على لندن وشرقى انجلترة زبارات منظمة بعد صيف ١٩١٧ . واعتادت لندن أن تسمع فى كل ليلة مقمرة من ليالى شتاء ١٩١٧ – ١٩١٨ دوى صواريخ الإنذار وصفير التحذير

عزيطة زمنية للحص الغظى في الشرق ١٩١٤ - ١٩١٨

عربطة زمنيدلا يحوب العصى في السرف ١٩١٤ - ١٩١٨						
المجمعة الثرفية المجمعية بالروسيا	1	1/	مسين المسين			
	صربيا	ترصحيا	لعبادی <i>أفریقیا</i>	_		
الماه	مقاومة ناجحة المحجمات المسوية	زد العراق موقيد البيطانيون يكون السجوة	مُ غَانَمُ أَوْا وَ الْإِلمَا فِيَ ثَنِي عَنْ مَا) كَمَانِهُمُ الْمُؤْمِدِ مُورَةً عِنْمُ الْمُؤْمِدِ مُورَةً عِنْمُ	آخد ساج ۱۹۱۹ استوا نامضا		
وی مارس الروس یا مندن باز مدیسل مدیره الالمان میبیرات مریزه بالمدهدی دریزه بالمدهدی المدیری ۱ الروسی المدیری ۱ الروسی المدیری سفوط فلما	و مالنسا	ه فبايد صدا المص من المسائل المسائ	ه ا يوليو . بوثاً مغزو عرب افيقياً الأخساه :	1910		
مُبدد کوی الروسیا مندوعی	الصرب خطر نماماً من ملفادرا والدول الوسطى روما نسا مثمان الحرب ٤٠٠ أغسام وكفان والمنسودين عصطهون رومانيا	معلاد الخرات به دستندیس	من و ملمن ان	411		
را سارس المتبعريت الأول المراد المتبعريت الأول المراد الأول المراد الأول المراد المراد المراد المراد المراد في عالمنسيا	المناعبة المناعبة المناطبة ال	م ج آ هرو آير به دستدده البعاد المتسطنط المتسطنط المتسطنط المتسطنط	الكورية الآراء الأورية والراء الأورية المنطسين المنطسين	الم		
به رزفیر . الفودة البولشقیة ۱۰ فلیمبر - هدنان فیست الیتوفسلة ۲ مارس - صلح برست ایتوفسله ۱۷ کال فر اوکانیا ۱۲ مارس بیستولون	مياليد. والمنسومية الالمالا	٧ نوفير- ١٧ نياينز وأعفد معنيا ١٩ مليسمي- ١ ألقادى •	القريد المالية	تعاد		
اود سا	معايد . دومانا توقع العسلع معتبد - همتهالعقاء ماد بلغادست به سيقيد بلغادياتستسا	شخص للبريطانية المعناء جناون الم المكرة مرسفق المكرة مرسفق	 بر ي معکلة بر ي أمريخي بر ي ولايا نامخدة بر طائدا بر طائدا بر طائدا بر المائدا فنده فالنسا 	أنر و.		

رمطية زمنية للحرب المعظمى في العرب ١٩١٤ - ١٩١٨ 16 1912 عى سېمېر. الغواسات تغيية في معطون (٢) ير بهر مأميان وسواتسون الا المارب و خوفید . نصر (چر) فی العادی تا ر હાર્ષ . اكذب نولمبر كلا إيانيالاولى عث پر دئیسبر پر جنائر فوکلاند 1910 ٨٥ فهاير وبين نيستعيلون فالمجتحال اللهب لأول عن ي مابر عنق لودينانيا ابن ا » ایسدانستانشسه مابر (این سینعان انهام لادل سرهٔ ، ما يو ريقان الحرب. على النسب يدليد . عجب ولى المعد في الارجين الخنادق 1911 و-العيم المسوى ۱۷ مایر X چیشلند على مسريلينو بوليد مدد مرم معلود ميرا السمام معلوالدا بات سبتم - مرم استعال الدا بات المنسطس-الطلبان كوادمث ماحفلون جودينا YIRI ۲۱ بناید چو بیلتون عروب العاصات عير المحلالة وفي دمنا الخت مارس - تراجع (چر) لخط هندنسوج مايو - فشل الهجيم اكتاب - المعين المائيليالا الجبر المسبوع : كان اليالا يرنقّ) ، المنسوبوت معددون المبلاقيّة 1411 الجيدتو(چر) ع توفيهر أشفر ضعيبه للغواصاً ي توقيع مرد المعادة (بعر) ÇĞ

الحاد من البوليس ، وإخلاء الشوارع سريعاً من المارة ، ودمدمة بعيدة تصدر عن عشرات ومثات من المدافع المضادة للطائرات تعلو بإطراد حتى تصبح عزيفاً فظيعاً من أصوات الاصطدام والهدة والتكسر ، وصفير القنابل المنطلقة ، وأخيراً دوى القنابل المكتوم الثقيل إن قدر لإحدى الطائرات أن تخترق نطاق الدفاع الجوى . ثم يحدث للوقت إبان تناقص هزيم المدافع أن يسمع صوت عدد المطافىء الذى لا بخطئه إنسان وإسراع عربات الإسعاف . . . لقد وصلت الحرب إلى دار كل لندنى بوساطة هذه المحن .

وبينها كان الألمان بهاجمون بهذه الطريقة أعصاب شعب أعدائهم في قرارة بلاده ، كانوا كذلك بهاجمون تجارة البريطانيين وراء البحار بكل ما في مستطاعهم من وسيلة . إذ كانت لم في بداية ألحرب مدمرات تجارية منوعة مبثوثة في كل أرجاء العالم ، وسرب من الطرادات القوية العصرية في المحيط الهادي ، نذكر منها الطراد شارنهرست وجينسناو وليترج ونورنبرج ودرسدن . واستطاعت بعض الطرادات المنعزلة وبخاصة الطراد إمدن أن تحطم قدراً جسيماً من السفن التجارية قبل أن أمكن القضاء علمها ، وأمسك السرب الرئيسي بقوة بريطانية أصغر منه بالقرب من ساحل شيلي وأغرق الطرادين جود هوب (Good Hope) ومونموث في أول نوفمبر المهفن الألمانية فأغرقها كلها (ما عدا الطراد درسدن) في معركة جزائر فوكلاند . وبعد ذلك القتال ظل الحلفاء سادة للبحر بغير منازع ، سيادة لم تزلز لها معركة جائلند وبعد ذلك القتال ظل الحلفاء سادة للبحر بغير منازع ، سيادة لم تزلز لها معركة جائلند البحرية الكبرى (٣١ مايو ١٩١٦) أدني زلزلة .

وأخذ الألمان منذ ذلك الحين يزيدون في تركيز التفاتهم على حرب الغواصات يوماً بعد يوم فأصابوا منذ بداية الحرب انتصارات ضخمة بواسطة الغواصات في يوم واحد هو ٢٢ سبتمبر ١٩١٤ أغرقوا ثلاث طرادات قوية هي أبو قير وهوج وكريسي (Cressy) ومعها ١٤٧٣ رجلا . وظلوا يصيبون من السفن البريطانية طوال الحرب ؛ وكانوا في البداية يستوقفون سفن الركاب والتجارة ويفتشونها ، ولكنهم أهملوا هذه العادة خشية الوقوع في الأحابيل ، وفي ربيع ١٩١٥ شرعوا بغرقون السفن بلا إنذار .

وفى مايو ١٩١٥ أغرقوا باخرة الركاب العظيمة لوزيتانيا بلا إندار ، فغرق بسبب ذلك عدد من الرعايا الأمريكان . فحز ذلك فى نفوس الأمريكين وأثار ثائرتهم عليهم ، ولكن احيال إيقاع الضرر بريطانيا وربما اخضاعها بحصر بحرى بواسطة الغواصات هدف كان لديهم من العظم بحيث دفعهم إلى الإلحاح فى حلة الغواصات هذه ومواصلة النزيد من النكير والعنف ، غير آبين بخطر جر الولايات المتحدة إلى صفوف أعدائهم .

وفى نفس الوقت كانت الجيوش التركية المزودة بأسوأ عناد تبدى نحو مصر حركات التهديد خلال شبه جزيرة سيناء . وعلى خين كان الألمان يكيلون الضربات لمريطانيا على ما رأيت بطريق الهواء ومن تحت أطباق الماء ، وهى خصمهم الأشد قوة والأبعد عن منال أيديهم ، كان الفرنسيون والإنجليز كذلك مقبلين على هجوم مدمر فى الشرق على جناح دول الوسط عنطريق تركيا . وقد دبرت حملة غاليبولى أبدع تدبير ولكنها نفذت بأكبر معرة . فلو أنها نجحت لاستولى الحلفاء على القسطنطينية فى ١٩١٥ . ولكن الأترك تلقوا إنذاراً قبل المشروع بشهرين وذلك عندما ضرب الدردنيل بالقنابل فى فبراير ، وربما كشف البلاط اليوناني كذلك سر الخطة ضرب الدردنيل بالقنابل فى فبراير ، وربما كشف البلاط اليوناني كذلك سر الخطة بخيانته ، وعندما نزلت القوات المربطانية والفرنسية آخر الأمر فى شبه جزيرة غاليهولى فى أبريل ، وجدوا الأتراك قد أعدوا الخنادق أحسن إعداد كما رأوهم مزودين بما يلزم لحرب الخنادق خيراً منهم .

واعتمد الحلفاء فى ناحية المدنعية التقيلة على مدافع السفن الضخمة ، التى كانت غير ذات جدوى نسبياً فى تحطيم تحصينات الحنادق ، ومن بين الأشياء الكثيرة الأخرى التى فاتهم أن يقدروا وجودها احيال ظهور الغواصات المعادية . فضاعت لذلك سفن حربية عظيمة عديدة ، هوت إلى نفس المياه الصافية التى مرت عليها سفن إجزرسيس يوماً ما إلى مصيرها المحتوم فى سلاميس(١) . وقصة حملة غالبيولى من ناحية الحلفاء تجمع بين ظواهر البطولة وعوامل الآسى ، فهى قصة

⁽¹⁾ ملاميس ؛ انظر المالم حـ ٢ ص ٣٠٨ (طـ ١) ، ص ٣٦٢ ، ٣٦٤ من الطبعة الثانية . (المترحم)

شجاعة وقلة اقتدار وقصة أنفس ذهبت بدداً وموارد أهلكت وهيبة ضاعت ، وبلغت حضيضها في انسحاب مهين تم في يناير ١٩١٦ .

ومما يتصل اتصالا وثيقاً بتذبذب بلاد اليونان طيلة ذلك الزمان دخول بلغاريا المرب (في ١٢ أكتوبر ١٩١٥) . وقد ظل ملك بلغاريا مردداً أكثر من سنة قبل أن يتخذ قراراً حاسماً في الانفهام إلى أحد الطرفين . ولكن دفعه إلى ناحية الدول الوسطى ما رأى عند ذاك من فشل البريطانيين في غاليبولى ، وقيام النسويين والألمان في الوقت نفسه بهجوم عنيف في بلاد العرب . وبينا الصربيون في شغل شديد بالمغيرين النمسويين والألمان على ديارهم الدانوبية ، هاجم الملك صربياً من المحلف ، وما مضت بضعة أسابيع حتى كانت البلاد قد غزيت تماماً . وتقهقر أبطيش الصربي قهقرة فظيعة عابراً جبال ألبانيا إلى الساحل ، حيث أنفذ فلوله أسطول للحلفاء .

ونزلت قوة متحالفة إلى مالونيك . والدفعت في البلاد نحو مناستر ، ولكنها عجزت عن تقديم أى مساعدة فعالة للصربين . وكانت عملية سالونيكا هي الى ختم بها مصير حملة غالبيولي . وإلى الشرق من ذلك في أرض الجزيرة (:العراق) قام البريطانيون مستخدمين في غالب الأمر جنوداً من الهنود مهجوم جناح جانبي أبعد من الأول على الدول الوسطى . فأنزل إلى البر في البصرة جيش كأسوأ ما تكون الجيوش عدة وعتاداً في نوفير ١٩١٤ تهيؤاً للحملة التي تنتظره ، ثم دفع نحو بغداد في السنة التالية . ففاز بنصر عند المدائن (كتيسيفون) عاصمة الأرشيكيين والساسانيين العتيقة وهي على مبعدة خمسة وعشرين ميلا من بغداد ، ولكن الأتراك تلقوا أمداداً عظيمة ، وتراجع البريطانيون إلى كوت الإمارة (ا) ، وهناك أحيط بالجيش البريطاني تحت قيادة الجنرال تاونشند حتى ألجأه الجوع إلى التسليم في ٢٩ أبريل ١٩١٦

وكانت كل هذه الحملات الدائرة في الجو وتحت أطباق البعار وفي الروسيا وتركيا وآسيا ثانوية بالنسبة للجبهة الرئيسية جبهة الفصل في الأمر ، الممتدة بين

⁽١) كوت الإمارة ؛ مدينة على نهر الدجلة بالعراق ، وهي مركز لتجارة الحبوب وصنع السجاجيد . (المترجم)

سويسرا والبحر . وهناك كانت حشود الملايين الرئيسية ترقد في خنادقها ، وتعلم في بطء الأساليب الضرورية للحرب العصرية العلمية . وحدث تقدم سريع في استخدام الطائرة . فني بداية الحرب كانت الطائرة تستخدم أغلب ما تستخدم الكشف بصفة رئيسية ، ثم استخدمها الألمان في إلقاء علامات تسترشد بها المدفعية . ولم يكن الناس قد سمعوا بعد بتيء اسمه النزال الجوي . ولكن في ١٩١٦ هلت الطائرات المدافع الرشاشة وأحدت تتقاتل في الهواء ؛ وكانت أهمية ضربهم الأعداء بالقنابل تتزايد وضوحا ، وقد طوروا فن التصوير الجموى وهو فن مدهش حقاً . كما أن جميع الجانب الجوي من أعمال المدفعية سواء أتم بواسطة الطائرات أم بالونات المراقبة ، قد ألم به تطور هائل . ولكن العقل العسكري لم يفتاً يقاوم استخدام الدبابة . التي هي السلاح الواضع الفصل في حرب الحنادق .

وكان الكثير من أذكياء الناس خارج الدائرة العسكرية يفهمون هذا الأمر فهما جلياً . فإن استخدام الدبابة ضد الحنادق كان تدبيرا واضحاً وضوحا مطلقاً . وقديما اخترع ليوناردو دافنشي دبابة مبكرة . وما أن انهت حرب جنوب أفريقيا في ١٩٠٣ حتى ثارت في المجلات قصص تصف معارك خيالية تظهر فيها الدبابات ، وعرض على السلطات العسكرية البريطانية نموذج كامل شغال لإحدى الدبابات قام بصنعه المسترج . ا . كرى (١٠ ٨ Corry) أحد أهالي ليلز ، ولكنها بالطبع رفضته في ١٩١١ . والواقع أن الدبابات اخترعت ثم أعيد اختراعها من جديد قبل أن تبدأ الحرب . ولو أن الأمر كان كله بيد العسكريين لما استخدمت الدبابات على الاطلاق .

وكان المستر ونستون تشرشل وزير البحرية في ١٩١٥ ــ ١٩١٦ هو الذي أصر على صنع أول الدبابات ، ولقى إرسالها إلى فرنسا أشد معارضة وأعنفها . فإلى البحرية البريطانية وليس إلى الجيش يدبن العلم العسكرى باستخدام هذه المستحدثات . وكان رأى السلطات العسكرية الألمانية مضاداً لها كذلك . وفي يوليو ١٩١٦ شرع السير دوجلاس هايج القائد البريطاني العام في القيام بهجوم عظم أخفق في اختراق صفوف الألمان . وقد تقدم في بعض الأماكن بضعة أميال ، وهزم في

البعض الآخر هزيمة تامة . وحدثت مذبحة هائلة فى الجيوش البريطانية الجديدة . ومع ذلك لم يستخدم القائد الدبابات .

وفى سبتمبر عندما أخذ الفصل يصبح غير مناسب القيام بهجوم متواصل ، ظهرت الدبابات لأول مرة فى الحرب . فقد استخدم القواد البريطانيون عدداً قليلا منها استخداما لا يتبدى فيه كثير من الذكاء . وكان مفعولها فى الألمان عيقا ، فإنها أحدثت فيهم أثراً أشبه ما يكون بالهلع البالغ ، وليس إلى الشك من سبيل أنها لو استعملت فى يوليه بأعداد كافية ، وأدار دفتها چنر ال ذو خيال رحيب وهمة عالية ، لأنهت الحرب على الفور . فنى ذلك الوقت كان الحلقاء أقوى من الألمان فى الميدان الغربي وكانت المسبة على وجه التقريب لا إلى ٤ . وكانت الروسيا وإن اقبربت سريعاً من مرحلة الإعياء – لا تبرح تقاتل ، وكانت إيطاليا تضغط على الفسويين ضغطاً شديداً ، ورومانيا قد دخلت من فورها الحرب فى صف الحلفاء . ولكن الإسراف فى إزهاق أرواح الرجال فى شهر يوليه الكارث ذاك أوقف الحلفاء على حافة الكارئة نفسها .

وما أن اطمأن الألمان لفشل البريطانيين في يوليه ، حتى انقضوا على الرومانيين . وشهد شتاء ١٩١٦ في رومانيا نفس المصير الذي حل بصربيا في ١٩١٥ . فالسنة التي ابتدأت بالتقهقر عن غاليهولي والتسليم في كوت انتهت بسحق رومانيا وبإطلاق مثات الطلقات من جمهور من الحزب الملكي في شوارع آثينا على فئة من البحارة الإنجليز والفرنسيين نزلوا إلى البر . فكأنما كان قسطنطين ملك البونان ينوي أن يقود شعبه في أثر الملك فرديناند البلغاري . ولكن الساحل البوناني أشد ما يكون تعرضاً للأعمال البحرية . فضرب الحصار البحري على بلاد البونان ، وانصلت قوة فرنسية من البحرية بقوة إيطالية آتية من قالونا لتقطعا على ملك البونان سبيل الاتصال بأصدقائه في أوربا الوسطى . (وفي يونية ١٩١٧ أجبر الحلفاء قسطنطين على التخلى عن العرش ، وتولى ابنه اسكندر العرش مكانه) .

وجملة القول أن بوادر الأمور كانت تبدو أقل خطراً على أمبريائية آل هوهنزولرن الهاية ١٩١٦ مما كانت عليه بعد إخفاق الاندفاع الأول العظيم فى المارن . وكان الحلفاء أضاعوا سنتن من الفرص الذهبية . وكانت بلاد البلجيك وصربيا ورومانيا

وأجزاء عظيمة من فرنسا والروسيا تحتلها قوات ألمانية نمساوية . وكانت المضربة المضادة تفشل تلو الفرية المضادة ، وأخذت الروسيا تترنح عند ذاك تهيؤاً للسقوط . فلو كان لدى حكام ألمانيا مسحة من حكمة لأبرموا معها صلحاً معقولا في تلك الآونة . ولكن لمسة النجاح كانت قد أسكرت استعاريها . فإنهم لم يريدوا السلامة بل النصر ولم يريدوا خير العالم بل إمبراطورية العالم . وكان شعارهم : و إما سيادة العالم وإما السقوط ، ولم يجد خصومهم إزاء شعارهم هذا بدا من مواصلة القتال حتى نهايته الفاصلة .

٩ ــ الحرب العظمي من انهبار الروسياحتي الهدنة

انهارت الروسيا في بواكبر ١٩١٧. وفي ذلك الوقت كانت شدة الحرب الحائلة توثر تأثيراً شديداً على كل الشعوب الأوربية . فقد فسد نظام المواصلات فساداً عظيا في كل مكان ، وانقطع الاصلاح العادى وتوقف استبدال وتجديد السفن والسكك الحديدية وما إليها ، واستنفدت المواد يجميع أنواعها وتدهور إنتاج الأطعمة وسحبت من الصناعات لجهاهير متزايدة من الرجال وتوقفت أعمال التعليم وتناقص باطراد ما اعتاده الناس من أمن الحياة ونزاها الها .

وكان يتزايد في كل يوم عدد السكان الأوربيين الذين ينقلون من بيئات وأحوال الفوها ، إلى ظروف جديدة كانت تولهم ، وتضيق عليهم وتستشرهم وتفسد أخلاقهم . ولكن الروسيا كانت أول الدول وأكثرها مكابدة وعناء من جراء ما أصاب المدنية من زعزعة عامة خلعها من جلورها . ذلك أن الأوتوقراطية الروسية لم تكن شريفة ولا ذات كفاية . وكان القيصر شأن كثير من أسلافه قد استسلم لحالة تقوى جنونية ، وتسلط على البلاط دجال ديني ، هو راسپوتين ، الذي كانت تعليم فضيحة صارخة في وجه العالم . ومن عليه ذات شنعة لا تستطيع التحدث عها فهي فضيحة صارخة في وجه العالم . ومن وراء حكم هذه التصوفية القذرة ، كانت الندالة والبلادة تسئ إدارة الحرب .

فكان الجنود الروس العاديون يرسلون إلى ميدانالقتال بغير مدفعية تعضدهم ، و يدون ذخائر للبنادق نفسها ، وكان ضباطهم وجنرالاتهم يضيعونهم و يلقون بهم فى حالة هذيان من الحماسة المسكرية . وظلوا زمناً ما يتألمون فى حمت كما تتألم الهائم ، ولكن هناك حدا لتحمل الناس ، حتى أشدهم جهلا. فكان يسرى فى هذه الجيوش النى يغدر برجالها كبراؤهم ويضيعونهم ، شعور عيق بالاشمئز از من القيصرية . ومنذ نهاية ١٩١٥ فا بعدها كانت الروسيا مصدراً للقلق المتزايد لدى حلقائها فى الغرب . وظلت طوال ١٩١٦ متخذة فى الغالب خطة الدفاع ، وراجت إشاعات تذكر صلحاً منفرداً مع ألمانيا . كما أن رومانيا لم تلق منها إلا مساعدة لا تذكر .

وفى ٢٩ ديسمبر ١٩١٦ قتل الراهب راسپوتين أثناء مأدبة غداء أقيمت فى بتروجراد، وبدلت محاولة متأخرة لإعادة تنظيم القيصرية. وما وافى مارس حمى أنعذت الأمور تتفاقم بسرعة ؛ فتطور الشغب على الطعام فى بتروجراد إلى عصيان ثورى ؛ وحاولت الحكومة إيقاف جلسات مجلس الدوما ، وهو الهيئة النيابية ، كما قامت محاولات للقبض على الزعماء الأحرار ، وتكونت حكومة موقتة تحت رياسة الأمير لثوف ، وتنازل القيصر عن العرش فى ١٩ مارس .

ومضى زمان لاح فيه أنه عسى أن تتمخض الأمور عن ثورة معندلة مقيدة غير جامعة ، وربماكان ذلك في ظل حكم قيصر جديد . ثم أصبح من الحلى أن ثقة الشعب الروسي قد دمرت تدميراً تجاوز كثيرا حدود مثل هاته التسويات . فإن الشعب الروسي استبدت به السآمة من النظام القديم لكل ما في أوربا من أشياء : من القياصرة والحروب والدول الكبرى ؛ وكل ما كان يطلبه هو الراحة ، والراحة السريعة مما كابد من شقاوات لا تطاق . ولم يستطع الحلقاء غهم ما في الروسيا من حقائق ، فإن رجال السياسية والديبلوماسية منهم كانوا أجهل الناس بالروسية ؛ فإنهم لما كانوا من المهذبين الذين يوجهون اهتامهم إلى البلاط الروسي لا الروسيا تفسها ، فقد وقعوا في الحطأ تلو الحطأ حيال الموقف الجديد . ولم تكن النزعة الجمهورية لتلتي كثيراً من رحابة الصدر من رجال السياسة والديبلوماسيين ، بل المحومة الجديدة بأكبر قدر مستطاع . وكان على رأس الحكومة الجمهورية الروسية زعيم بليغ جذاب اسمه كبرينسكي وجد نفسه هدفاً لهجات الحكومة الجديدة بأكبر قدر مستطاع . وكان على رأس قوى سرية لحركة ثورية أبعد غوراً ، هي ه الثورة الاشتراكية ، في أرض بلاده ، وموضع إعراض من الحكومات المتحالفة في الحارج . ولم يكن حلفاؤه ليسمحوا له

بأن يعطى الشعب الروسى مستقراً ولا سلاماً خارج حدودهم . فكانت الصحافة الفرنسية والبريطانية لاتنى تلاحق ذلك الحليف المهك بالمطالبة بهجوم قوى جديد ، ولكن عندما حدث للفور أن الألمان قاموا بهجوم قوى على ريجا بحراً وبرا ، هلعت وزارة البحوية البريطانية خوفا من احتمال الفيام بحملة في البلطيق لنجدة الروس .

وكان أن اضطرت الجمهورية الروسية الجديدة إلى القتال بلا معين . وبالرغم من تسلط الحلفاء البحري العظيم ومن الاحتجاجات المريرة التي نشرها الأميرال فيشر الانجليزي (١٨٤١ – ١٩٢٠) فإنا نسجل أن الحلفاء فيا عدا قيام غواصاتهم بعض الهجات ، تركوا للألمان السيادة المطلقة على بحر البلطيق طوال الحرب كلها .

وكانت الجماهير الروسية مصرة على إنهاء الحرب. وقد ظهر إلى عالم الوجود في بتروجراد هيئة تمثل العال والجنود العاديين ، هى السوڤييت ، وكانت هذه الهيئة تصخب مطالبة بمؤتمر دولى من الاشتراكيين يعقد في استوكهلم . وكثرت براين في ذلك الزمان حوادث الشغب من أجل الطعام ، واستبد السأم من الحرب بالألمان والنسويين على السواء ، وليس لدينا شك إذ نستضى الآن بنور ما أعقب ذلك من حقائق ، أن عقد ذلك المؤتمر كان لابد معجلا بصلح معقول على أسس ديمقراطية في ١٩١٧ و محدثاً ثورة ألمانية عاجلة .

وتوسل كبرينسكي إلى حلفائه في الغرب أن يسمحوا لهذا المؤتمر أن ينعقد ، ولكنهم خشوا أن يحدث انعقاده انفجاراً المذاهب الاشتراكية والجمهورية يعم العالم ، فرفضوا طلبه ، بالرغم من الاستجابة الحسنة التي أبدتها أغلبية صغيرة لحزب العال البريطاني . وظلت الجمهورية الروسية و المعتدلة » تحارب بلا معاونة مادية ولا معنوية من الحلفاء » ثم قامت في يوليه بجهد هجوى مستيئس أخير . ولكنه فشل بعد أن أصاب شيئاً من النجاح المبلئ ، ونزلت بالروسيين مذبحة أخرى كبيرة .

وكان احيّال الروس قد بلغ عندئذ أقصى مداه . فنشبت فى صفوف الجيوش الروسية حركات التمرد ، وبخاصة فى الميدان الشهالى . وفى ٧ نوفمبر ١٩١٧ ، مقطت حكومة كبرينسكى وتملكت السلطة هيئة السوڤييت التي يسيطر علمها

الاشتراكيون البلاشفة برياسة لينين ؛ وتعهدت بإبرام الصلح غير آبهة بالدول الغربية . وبذلك (خرجت) الروسيا من الحرب خروجاً قاطعاً .

وفى أبريل من ١٩١٧ قام الفرنسيون بهجوم فى شمبانيا أخفق دون الحتراق صفوف الألمان وكلف المغيرين أفدح الأثمان ولم يأت بأية ثمرة . وإذن فقد جاء فى نهاية ١٩١٧ دور من الحوادث أشد ما يكون مواممة لألمانيا . لو أن حكومتها كانت تحارب من أجل الطمأنينة وحسن الحال لا للفخار والانتصار . ولكن شعوب الدول الوسطى ظلت حتى النهاية نفسها وحتى بلغت أشد درجات الاعياء ، مقيدة بغاية ثابتة هي بذل الجهد للوصول إلى النصر النام .

وللوصول إلى تلك الناية لم يعد من الضرورى فقط مقاومة بريطانيا بل إخضاعها وإذلالها ، ولكي تبلغ ألمانيا تلك الغاية جرّت أمريكا إلى دائرة أعدائها . فإن حملة الغواصات ظلت تزداد حدة طوال ١٩١٦ ، ولكنها كانت حتى ذلك الحين تحترم السفن المحايدة . وفي يناير ١٩١٧ أعلنت ألمانيا أنها ستفرض على بريطانيا وفرنسا حصراً بحرياً أشد وأكل ، وحلوت جميع الدول المحايدة بأن تسحب سفنها من البحار البريطانية . وابتدأت عملية إغراق لسفن العالم بلا تمييز ، مما اضطر الولايات المتحدة أن تدخل الحرب في ٦ أبريل ١٩١٨ . وبينا الروسيا تتداعى طيلة ١٩١٧ وتصبح غير قادرة على شيء ، كان الشعب الأمريكي يتحول بسرعة وإطراد إلى أمة حربية عظيمة . ولم تؤت حملة الغواصات المتحللة من كل قيد التي من أجلها قبل الاستعاريون الألمان خطر خلق هذا الخصم الجديد لأنفسهم ، ــ ما كان متوقعاً لها من توفيق . إذ أظهرت البحرية البريطانية أنها أوسع حيلة وأكثر تفنناً من الجيش البريطاني ؛ وتحدث تطور سريع في الوسائل المضادة للغواصات تحت الماء، وعلىصفحته وفي الهواء ؛ وبعد أن انقضى شهر أو أكثر من التدميرات الخطيرة انخفض أثر الغواصات كثيرًا . ووجد البريطانيون أن من الضرورى أن يعيشوا على نظام جرايات الأطعمة ؛ ولكن القواعد وضعت وضعاً متيناً وأديرت بكفاية ، وأظهر الجمهور روحاً راثعة وذكاء كبراً ، وأبعد عن البلاد خطر المجاعة والفوضي الاجتماعية ، وإن على قيد بضع خطوات .

ومع ذلك فإن الحكومة الإمبراطورية الإلمانية واصلت القتال . فلنن لم تقم المغواصات بكل ما كان متوقعاً منها ، ولئن كانت جيوش أمريكا تتجمع تجمع السحاب الممطر الراعد ، فقد كان من المقطوع به أن الروسيا قد انهارت وزال كل خطر لها. وفي أكتوبر وجه الألمان نفس النوع من هجوم الحريف الذي أسقط صربياً في ١٩١٥ ورومانيا في ١٩١٦ إلى إيطاليا فسحقها سحقاً . فانهارت الجهة الإيطالية بعد معركة كابوريت ، وانثالت الجيوش النمسوية الألمانية في مقاطعة ثينينيا الميطالية بعد معركة كابوريت على مرمى المدافع من مدينة البندقية . ومن ثم شعرت ألمانيا بأن لها ما يبرر التشدد إزاء مقترحات الصلح الروسية ، وكان من أثر صلح برست ليتوقسك (٢ مارس ١٩١٨) أن أخذ الحلفاء في الغرب فكرة عن النصر الألماني ومغزاه ومعناه عليهم . ذلك أنه كان سلاماً ساحقاً فادحاً ، أملي مع أقصى ما قلد يبديه منتصر وائق مطمئن من الصلف والكبرياء .

وظلت الجيوش الألمانية تنتقل طوال الشتاء من الميدان الشرق إلى الغربي ، والآن في ربيع ١٩١٨ سيق ما تبقي لألمانيا الجمائعة المكدودة النازفة من الحياسة الكايلة الواهنة للقيام بالجهد النهائي العظيم الذي قدر له أن ينهى الحرب حقاً وفعلا . وبقيت القوات . الأمريكية بضعة أشهر في فرنسا ، ولكن كتلة الجيش الأمريكي كانت ما تزال وراء الأطلسي . فكان ذلك أنسب الأوقات لتسديد الضربة النهائية للجهة الغربية إن كانت هذه الضربة ستسدد يوماً ما .

فشنوا أول هجوم على البريطانيين فى منطقة السوم . فأخذوا على غرة قواد الحيالة غير الكبرى الذكاء الذين مازالوا يتولون القيادة فى جبهة لا شك أن الحيالة فيها عبء لاغناء فيه . وفى ٢١ مارس فى و كارثة جوغ Gough و د الحيش البريطاني الحامس فى غير نظام حتى وصلى إلى قريب من أميان . وكان التحاسد بين القواد البريطانيين والفرنسيين قد حال دون توحيد القيادة بحيوش الحلفاء فى فرنسا ، ولم يكن هناك أى احتياطى عام أيا كان نشأنه خلف جوغ . فقد الحلفاء قرابة ألف مدفع ، وعشرات من آلاف الأسرى . وظل الألمان طيلة شهرى أبريل ومايو عطرون الحبهة المتحالفة بالهجوم وراء الهجوم . وأوشكوا أن يحدثوا نغره

صفوف الحلفاء في الشيال ، ثم دفعوا كل ما أمامهم دفعاً إلى المارن الذي وصلوه في ٣٠ مايو ١٩١٨

وكان هذا أقصى غاية الجهد الألماني . ولم يكن من ورائه من شيء إلا وطن مهك . ووضع المارشال فوش في القيادة العليا لكل الجيوش المتحالفة . وكانت هناك جيوش جديدة تسرع من بريطانيا نحو الميدان عبر الفنال الانجليزي ، وكانت أمريكا تصب عند ذاك الرجال بمثات الألوف إلى فرنسا . وفي يونية قام النمسويون المتعبون بجهد نهائي في إيطاليا ، وانهاروا أمام هجوم إيطالي مضاد . وفي أوائل يونية بدأ فوش (١) يقوم مهجوم مضاد . ولما وافي يولية كان المد أخذ بنحسر وأخذ الألمان يرتدون إلى الوراء . وأظهرت معركة شاتوتيبري (١٨ يولية ١٩١٨) جودة صنف الجيوش الأمريكية الجديدة . وفي أغسطس افتتح البريطانيون طعنة عظيمة موفقة ، وتخادل الانبعاج في الحطوط الألمانية نحو أميان ثم انهار . قال لودندورف ه كان يوم ٨ أغسطس يوما أسود في تاريخ الجيش الألماني » . وأكد الهجوم البريطاني في سبتمبر على خط هندنبرج نصر الحلفاء .

إنهت ألمانيا وولت روح القتال من جيشها ، وكان أكتوبرشهر هزيمة وقهقرى على امتداد الجبهة الغربية بأكملها . وفي أوائل نوفير كانت الجيوش البريطانية في حالة قالنسية والأمريكيون في سيدان . وفي إيطاليا كذلك كانت الجيوش النمسوية في حالة تقهقر غير منتظم . ولكن قوات آل هوهنزولون وآل هابسبرج كانت تنهار آنذاك في كل مكان . وكان التحطم في النهاية سريعاً سرعة مدهشة . ولم يستطع الفرنسيون والانجليز أن يصدقوا محفهم وهي تنشر يوماً إثر يوم أخبار الاستيلاء على مئات أخرى من المدافع وألوف أخرى من الأسرى . وفي سبتمبر ترتب على هجوم المحافاء على بلغاريا اندلاع الثورة فيها وتقديم مقرحات الصلح . وأعقبتها تركيا بالتسليم بلا قيد في نهاية أكتوبر ، والنمسا والمجر ٣ نوفير . وحاولت ألمانيا أن تفرج بالتسليم بلا قيد في نهاية أكتوبر ، والنمسا والمجر ٣ نوفير . وحاولت ألمانيا أن تفرج

⁽¹⁾ الماريشال فوش (١٨٥١ – ١٩٢٩) هو ماريشال فرنسا ، وكان له الفَضل في صه الألمان وكيل الفرية المهائية لهم في أخريات الحرب . وشغل متصب رئيس هيئة أركان حرب جيوش الحلفاء ثم صار قائداً عاماً . (المترجم)

أسطولها ليقوم بآخر نزال ، ولكن البحارة تمردوا في ٧ توفير . وفر القيصر وولى العهد تحجلة وبلا أقل كرامة إلى هولندة . وفى ١١ نوفمبر وُقعت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها .

لقد دامت الحرب أربع سنوات وربعاً بعد أن جرت إلى أتونها بالتدريج كل إنسان تقريباً في العالم الغربي على الأقل . ويربي عدد من قتل فعلا أثناء القتال على ثمانية ملايين فرداً ، كما مات عشرون أو خسة وعشرون مليوناً آخرين بسبب المصاعب والفوضي التي ترتبت عليها . وقاس عشرات الملايين الأمرين أو ألم بهم الضعف والهزال بسبب سوء التغذية والشقاء . وكانت نسبة عظيمة من الأحياء تشتغل عند ذاك في أعمال الحرب ، في التدريب والتسليح وفي صنع المهات وفي المستشفيات وفي العمل بدلا من الرجال الذين انضموا إلى الحيش ، وما أشبه ذلك من أعمال . وراح رجال الأعمال يكيفون أنفسهم وفقاً للإساليب المعتلة التي لا بد منها لجمع الربح في عالم محوط بالأزمات . فلقد أصبحت الحرب بالفعل جواً وعادة من عادات الحياة ونظاماً اجتماعياً جديداً . ثم انتهت بغتة .

في لندن أعلنت الهدنة حوالى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم ١١ نوفمر . فأنتجت توقفاً عجيباً في كل عمل روتيني عادى من أعمال الحياة . فخرج الكتبة من مكاتبهم وأبوا أن يعودوا إليها ، وهجر عمال المحلات دكاكيبم ، وأخد سائقو سيارات الأومنيبوس وسيارات اللورى التابعة للجيش يقومون برحلات من تلقاء أنفسهم مع من يركب معهم من جهور ذاهل هاتف لا مقصد خاصاً له ولا بهمه أنى ذهب به . وسرعان ما ازدحت الشوارع بجهاهير غفيرة مندهشة ، ورفعت الأعلام من أعلى كل بيت وكل دكان له علم . ولما حل المساء أنبر بأسطع الأنوار عدد كبير من الشوارع الكبرى التي كانت تطفأ أنوارها خشية الغارات الليلة . وكان من العجيب جداً أن يرى الإنسان حشودا متزاحمة من الناس تحت الأنوار الصناعية من جديد . وشعر كل إنسان بأنه فقد الغاية في الحياة ، مع ضرب من شعور الارتباح المتأزم المؤلم . لقد انتهت الحرب آخر الأمر . لن يقتل بعد دلك أى إنسان في فرنسا ولن تحدث أية غارات جوية على لندن ، وسيصبح كل شيء على ما يرام .

وأراد الناس أن يضحكوا وأن يبكوا فلم يجلوا إلى الضحك ولا البكاء سبيلا . وأخذ الشباب الناهض والجنود الذين فى أجازات الراحة يكونون مواكب هزيلة صاخبة كانت تشتى طريقها خلال الجهاهير المتحركة ، وتبذل قصاراها للتعبير عن المراح والسرور . وجرت الجهاهير مدفعاً ألمانيا من الغنائم أخلته من الهول مول (١٠) ، حيث نصب للعيان عدد عظيم منها (أى الغنائم) ثم جرًّ إلى ميدان الطرف الأغر حيث أحرقت مركبته . وكانت الصواريخ ومفرقعات الأطفال تلتى فى كل مكان . ولكن مظاهر السرور المتجمع كانت قليلة . فإن كل إنسان تقريباً قد خسر كثيراً أو تألم كثيراً حتى لم يعد يستطيع أن يفرح بأى قدر من حماسة .

 ⁽١) البول مول : شارع عظيم بلندن بالقرب من حديقة سان چيمس وقصر بكنجهام .
 (المترجم)

الغي*صل لتاسعُ والثيلاثون* عشرون سنة مر ِ التردد

٢ -- دور إجهاد خاتى .
 ٧ -- الشرقان الأقصى والأدنى .
 ٧ -- الديون والتقود والتنبيت النقدى .
 ٣ -- دمتور عصبة الأم .
 ٩ -- الأجهاد العظيم في ١٩٢٩ .
 ٩ -- المأساة الأسبانية .
 ٥ -- اللشفية في الروسيا .
 ٢ -- قيام النازية .
 ٢ -- العالم ينزلق نحو الحرب .

۱ – دور إجهاد خلتي

كان هالم الحضارات الأوربية الغربية في السنوات التي أعقبت نهاية الحرب العظمي أشبه شيء برجل أجربت له عملية جراحية خطيرة الحيوية نحت كأسوأ وأخشن ما نجرى العمليات ، حتى لقد أضحى في شك أفي استطاعته أن يواصل الحياة أو أن كيانه بلغ من الترازل وبلغت إصابته من الخطورة الحد الذي يقرب بينه وبين منيته . كان عالماً ذاهلا مأخوذاً مهوناً . هزمت فيه الروح الاستعارية العسكرية ، ولكن بثمن باهظ فادح ، بعد أن أصبحت ذات يوم قاب قوسين أو أدنى من النصر ، وعاد كل شيء إلى مجراه بعد أن زال التأزم الشديد الذي ولده النزاع ، وإن كانت العودة في شيء من التراخي والوهن وبطريقة عاصفة متقلقلة . كان هناك ظماً عام إلى السلام ، وحنين عام إلى ما فقده الناس أثناء الحرب من حرية ورخاء ، دون وجود أي قوة عزيمة تحصل الناس على هذه الأشياء وتحنفط بها في أمان :

ولقد حل القساد بكثير من النواحى . وكما حدث فى حالة الجمهورية الرومانية إبان محنة الحروب البونية ، فقد انسايت الآن أيضاً مظاهر عارمة من العنف والقساوة . وأصيبت أخلاقيات الشئون المالية والاقتصادية بانحلال كبر . فإن أرواحاً كريمة ضحت بنفسها رخيصة فى سبيل مطالب الحرب المستعجلة ، ولكن مكرة الرجال وسفلتهم عالى الأعمال والمال ظلوا يرقبون فرص الزمان العصيبة القلابة حتى استطاعوا أن يقبضوا بيد من حديد على موارد بلادهم وعلى مقاليد السلطان السياسي فها . إذ استحوذ على القوة والسلطان فى كل مكان رجال كانوا يعدون مغامرين مريبن مغموراً فى سمعتهم قبل ١٩١٤ على حين كدح من هم أفضل منهم بغير طائل . وكان من العسير إيقاف هذه الطبقة ، طبقة الأغنياء المحدثي الغنى والأقوياء الحديثي القوة عند حدهم في هذا الدور من الانهاك الذي أعقب الحرب .

وتمت أثناء الحرب في كل البلنان التجارية تقريباً تجارب خارقة في الإدارة الجاعية . إذ أدرك المسئولون أن الوسائل العادية لتجارة أوان السلم من أمثال الماحكة في السوق والتحسك انتظاراً لصفقة ملائمة ، أمور لا تستقيم مع حاجات الحرب السريعة . فوضعت تحت الرقابة العامة ، شئون النقل والوقود ومواد الغذاء وتوزيع المواد الخام التي لم يقف الأمر فها عند حد الثياب والإسكان وما أشبهها وحدها ، بل كل شيء لازم لمهات الحرب .

ولم يعد من حق الفلاحين أن يتركوا شبراً من أرضهم لا يستغلونه في الزراعة أيما استغلال ، ووضعت الماشية في حدائق الغزلان وحرثت أراضي الكلاً ، سواء برضاء صاحبها أو بغير رضاه . وقيدت عمليات مباني الترف وعمليات تحسين مراكز الشركات في ميدان المضاربة . والواقع أنه تأسس ضرب من دولة الطوارئ الاشتراكية في معظم دول أوربا المتحاربة . كانت عملية تنطوى على الارتجال والفجاجة والاسراف ولكنها كانت أجدى من معقدات اقتناص الربح الذي لا نهاية له ، وأصلح مما كان يأتيه أصحاب المشاريع و والمساعي الحاصة ، من احتكار ومن اختران المواد ومن إنتاج لا ترابط بين أجزائه .

كذلك عم الناس في سنوات الحرب الأولى في كل الدول المتحاربة شعور عميم بالأخوة وبالحاجة إلى تأدية الحدمة من أجل المصلحة المشتركة . وكان عامة الرجال بضحكون في كل مكان بالنفس والصحة من أجل ما اعتقدوا أنه خير الدولة العام . ولطالما تلقوا مقابل هذا وعوداً بأن الظلم الاجتماعي سوف يتناقص بعد الحرب ،

وسوف يزداد الإخلاص العام للمصلحة المشتركة ويصبح أعم وأشمل . فني انجلترة مثلا كان المستر لويد چورج مصراً بوجه خاص على جعل بريطانيا بعد الحرب وأرضاً تليق بالأبطال . وأخذ يتنبأ بدوام هذه الاشتراكية الجديدة التي أوجدتها الحرب وبقائها إلى زمان السلم بخطب ألقاها مليئة بالحاسة والروعة .

وأنشئت في بريطانيا وزارة للتعمير ، كان مفهوماً أنها تخطط نظاماً اجماعياً جديداً أحدث وأكرم ، وظروفاً للعال أحسن ، واسكاناً خيراً من الموجود ، وتوسعة لنشر التعليم ومراجعة كاملة وعلمية للنظام الاقتصادى . وكانت كلمة « التعمير » تضني على حياة الناس لموناً جميلا وتحي آمال الجماهير المحزونة في كل مكان . كذلك بذلت وعود جميلة كهذه تبشر بعالم أفضل فأحيت آمال عامة جنود غرنسا وألمانيا وإبطاليا وقوت من عزائمهم . ولكن ستار هذه الخديعة الكشف في الروسية مبكراً فأفضى إلى انهيارها . ولذا كان يسرى في أدمغة الناس في أوربا الغربية قرب نهاية الحرب تياران من الآمال المرتقبة كل منهما خطر على أخيه . فكان الأغنياء والمغامرون وبوجه خاص المستغلون لمظروف الحرب يدبرون خططهم لمنع تطورات من أمثال أن يصبح النقل الجموى ملكاً للدولة ، ولاختطاف الصناعات وإدارات السفن والمواصلات البرية وتجارة مواد ألغذاء الرئيسية والخدمة العامة على وجه العموم ، واستردادها من يد الدولة مرة ثانية إلى قبضة طلاب الأرباح الحصوصيين . ومن أجل بلوغ تلك الغاية أخذوا يُعنون مقدما باحتياز الصحف ويشغلون أنفسهم باللجان الحزببة وما إليها و على حين كانت جماهير الناس من الناحية الأخرى ، تشخص أماماً في سلاجة انتظاراً لحالة الجاعة الإنسانية يكون الرائد في تخطيطها هو مصلحتهم نقط وبكون الأساس فكرات عامة سخية . وتاريخ ١٩١٩ يغلب عليه الاصطدام بين ثيارى الآمال المرتقبة هذين . وسارعت حكومة « رجال الأعمال » التي في الحكم إلى بيع كل مشروع عام مربح إلى المضاربين الخصوصين.

وعند منتصف ١٩١٩ كانت جموع العال فى أرجاء العالم كافة خائبة الرجاء خيبة ظاهرية ومنفعلة غاضبة كل الغضب . ذلك بأن ٥ وزارة التعمير البريطانية ، وضريباتها فى البلدان الأجنبية اتَّخذت خدعة للعيون ترمى إلى تهدئة الأعصاب. وشعر الرجل العام بأنه قد خُدع . فلن يكون هناك تعمير ، بل استرداد للنظام القديم ليس غير - ولكن على صورة أشد كآبة وبشاعة تمليها ظروف الفقر المتفشى فى هذا الزمن الجذيد .

وقد ظلت مأساة الحرب أربع سنوات وهى تحجب المسألة ألاجتماعية التي كانت تتطور في الحضارات الغربية طوال القرن التاسع عشر . والآن وقد وضعت الحرب أوزارها ، فإن هذه المسألة ظهرت جهمة الشكل عارية مجردة ، على صورة لم يرها الناس من قبل .

وجما زاد تلك الاستثارات والصعاب شدة وزاد من أثر ما مم العالم من عدم طمأنينة في هذا الزمان الجديد، ظهور اضطراب عيق أصاب النقد والاثبان (١). فإن النقود وهي نمو معقد من الأوضاع والتقاليد أكثر منها نظام اللهم، أحرمت داخل الدول المتحاربة من سند معيار الذهب (٢٦). إذ احتفظ الناس بالذهب التجارة الدولية دون غيرها، وكانت كل حكومة أفرطت في إصدار ورق النقد لاستعاله داخلياً. حتى إذا تحطمت حواجز الحرب بات التداول الدولي ضربا من الاضطراب المتأرجح تأرجحات جنونية، ومصدر غم وكرب لكل الناس فيا عدا عدد قليل من المقامرين والمضاربين. فتصاعدت الأسعار وتصاعدت وكان لذلك أسوأ الأثر على كل كاسب أجر. فصاحب العمل يقاوم كل مطالبة له بزيادة الأجور؛ على حين كانت شئون الطعام والمسكن والثياب تحتكر لغير مصلحته وتبهظ على حين كانت شئون الطعام والمسكن والثياب تحتكر لغير مصلحته وتبهظ كاهله . أضف إلى ذلك أمراً هو أعطر ما في الموقف وهو أنه أخذ يفقد كل كاهله . أضف إلى ذلك الإعواذ وتلك المتاعب التي كان يقاسي من الى التخفيف حقا من ذلك الإعواذ وتلك المتاعب التي كان يقاسي من برائها ما يقاسي .

الإنتهان (Credit) . من في علم الاقتصاد الثقة بأن يدفع الشخص ثمن البضائع طرجلا .
 (المترجم)

⁽٢) معيار اللهب (Gold Standard) . التثنيت القانوني الإحدى العملات على ما يعادلها من اللهب . (المترجم)

وكانت الحاجة ماسة إلى المنازل في معظم الأقطار الأوربية . إذ توقف الناس طيلة الحرب لاعن البناء وحده بل عن الأصلاحات كذلك. وبلغ النقص في المنازل في ١٩١٩ إلى رقم يتراوح بين ٢٥٠,٠٠٠ إلى مليون منزل في بريطانيا وحدها . وتكاد الأحوال في ألمانيا وفرنسا أن تكون أسوأ وأنكي . فإن جماهير غفيرة من الناس كانوا يعيشون في حالة من النزاحم الشديد تُسخط النفوس ، وكان أوقع أنواع الاستغلال الجشع للشفق والبيوت يحدث فى كل مكان ، كان الموقف عسيرًا وإن لم يكن مستحيلًا . فلو اتبحت نفس الحاسة والهمة وتضحية الذات التي طوعت التغلب على الأزمة الهائلة في ١٩١٦ ، لأمكن القيام بالواجب الأكثر سهولة بكثير ، واجب إنشاء مليون من المنازل ، في مدى سنة أو أكثر قليلا . ولكن الاحتكارات كانت تضيق الحناق على مواد البناء ، وكان النقل في حالة غير منتظمة ، ولم يكن بناء المنازل يعود على أصحاب المشروعات الخاصة بالإيجار الذي يكون في متناول من يحتاجون إليها من الناس . ولذا فإن أصاب المشروعات الخاصة (١) ، وهم أبعد ما يكونون عن الاهتمام بالحاجة العامة إلى المبانى ، قصروا همهم على الاحتكار والمضاربة بالإيجارات وبالتأجير من الباطن . وكان الحال عند ذلك يستدعى أن تقدم الحكومة المنح للهوض بالمشروع لكي يكون بناء المنازل عملا مربحاً .

وثم مثال آخر نسوقه هنا دليلا على عدم كفاية نظام الاستغلال الجشع فى حل مشكلات ذلك الأوان ، فقد حدث تكلس شديد البضائع فى المستودعات وتزعزع فى أنظمتها ، بسبب نقص وسائل النقل على الطرق البرية عما يكنى . فكانت الحاجة ماسة إلى السيارات الرخيصة حتى تنقل البضائع والعمال من مكان إلى آخر . ولكن أصحاب المشروعات الحاصة فى صناعة السيارات تصوروا أنه مما يزيد فى أرباحهم كثيراً أن ينتجوا عربات فاخرة غالية المن من أجل أولئك الذين ملأت الحرب جيوبهم بالمال . وكان من أيسر الأمور أن تنحول مصانع

⁽١) أسماب المشروعات أو المساعى الخاصة (Private interprise) : هم الرأسماليون الذين يقومون باستثار أموالهم فى الصناعة وغيرها . (المترجم)

المهمات وهي مبنية بمال مدفوع نقدا إلى مصانع لإنتاج السيارات الرخيصة بالجملة ، ولكن الرأسمالين أصحاب المشروعات الخصوصية أصروا على أن تبيع الدولة تلك المصانع ؛ فلا هم لاقوا حاجة الجمهور بانفسهم ، ولا هم سمحوا للدولة بأن تفعل في ذلك . كذلك أيضاً أصر أصحاب المشروعات الخاصة ـ والعالم في أفظع المحن والمتاعب بسبب نقص السفن ـ على اغلاق مصانع السفن التي أنشأتها الدولة حديثا . وتزعزع النقد في كل مكان ، ولكن أصحاب المسعى الماص كانوا في شغل بشراء وبيع الفرنكات أو الماركات وزيادة الحال حرجاً .

تلك حقائق لا بد لمؤرخ الإنسانية أن يلحظها بأقل قدر مستطاع من التعليق . فإن صاحب المسعى الخاص فى أوريا ١٩١٩ و ١٩٢٠ لم يظهر رغبة ولا كفاية لمقابلة حاجات ذلك الزمان الماسة . ولم يكادوا يشعرون بانطلاق أيديهم من قبضة الرقابة حتى انسابوا انسياباً طبيعياً إلى المضاربة والاحتكار وإنتاج الترف . وساروا فى طريقهم طريق الحصول على أقصى ما يستطيعون من الأرياح . ولم يظهروا أى إدراك لما يتكنفهم من أخطار ؛ كما كانوا يقاومون كل محاولة للحد من أرباحهم أو جعلها معتدلة ، أو للتحول إلى طريق الحدمة والإفادة ولو كان ذلك فى مصلحتهم .

واستمر هذا في وجه أبلغ مظاهر التكره المفرط من جانب جهرة السكان الأوربين ، تلقاء ما يقاسونه من الحرمان والمتاعب المطولة الأمد . وكانت هذه الجماهير تعيش في ١٩١٣ كما عاشت منذ مولدها ؛ وكانوا يألفون نوع الحياة التي يعيشون . فأما جماهير ١٩١٩ فهم من الناحية الأعرى ، قوم انتزعوا من ديارهم في كل مكان لكي ينخرطوا في الجيوش ولكي يذهبوا إلى مصانع المهمات ، وهكذا فقدوا عادات الرضا والتسليم بالواقع ، وغدوا أشد جرأة وأقدر في التصرف تصرف اليائسين . وقد مرت جماهير عظيمة من الرجال في أدوار تدريب بنت فيهم الوحشية الصارخة ، كالتدريب على السونكي مثلا ؛ فتعلموا الفظاعة والشراسة ، وقلت مبالاتهم بارتكاب القتل والتعرض له على السواء . ومن ثم أصبح القلق الاجتماعي أشد خطراً بكثير .

ولم يكن الأمر أن الجاهر كان لها أو خالت أن لها خطة نظام جديد اجتاعي وسياسي واقتصادي. إذ الواقع أنه لم يكن لهم خطة ولم يكونوا يعتقدون بأن لهم خطة . ولم تكن النقائص التي أومأنا إلها في خطة الاشتراكيين خافية عليهم . بل كان الأمر يتعلق بشيء أشد خطرا من ذلك بكثير . ذلك أنهم بلغ من سفطهم على النظام الحاضر وما فيه من ترف وسرف وتعاسة عامة ، أن أصبحوا لا بأبهون بما يحدث من بعده ماداموا يستطيعون تدميره . كان هذا عودة إلى حال عقلية تقارن بتلك التي مهدت السبيل لتفكك الإميزاطورية الرومانية .

أعدت قوى الثورة تتحرك في كل مكان في أوربا ولاسيا في إيطاليا وألمانيا .
وابدت الشيوعية في إيطاليا روحا عدوانية غير عادية . فظهر محمد (() شيوعيون في نواح مختلفة من إيطاليا ، وجرت في بولونيا محاولة مشفوعة بالقوة لتنفيذ مبادئ الشيوعية عمليا . وفي يوليو ١٩٢٠ تولى جيوليني وهو من دعاة الحياد اللين عارضوا الحرب ، رئاسة الحكومة مكان السنيور نيني . نقام بتجارب متنوعة في هر التشارك » بن عمال الصناعات وأصحابها . وفي سبتمبر استولى العال على كثير من مصانع الصلب وغيرها من المصانع وأخذوا يديرونها على أسس اشتراكية ، ولقيت هذه النصرفات تعضيدا ومصادقة من الحكومة .

واستمر الانزلاق نحو الثيوعية طوال ١٩٢١ في وجه مقاومة متجمعة ، وشبت الفتن والأعمال العنيفة في فلورنسا وتريستا وبوجليا وببزا وأماكن أخرى كثيرة ؟ ذلك أن تدابير جوليتي الرامية إلى صبغ البلاد بالاشتراكية (: تشريكها) أفضت إلى رد فعل عنيف بين الطبقات التي تهمها الملكية الخاصة ، ونشأت منظمة للشباب هي جماعة الفاشست الذين جعلوا سمهم المميزة الشعر الكنيث والقمصان السود والقرمية المفرطة الشدة ومناهضة الاشتراكية (Antisocia ism) . كانوا يقابلون العنف بالعنف ، ويبلغون به درجات من التطرف لا عهد للناس بها ، فأقاموا عهد إرهاب مضاد للإشتراكية . ووجدوا لهم زعيا ذا همة عالية فأقاموا عهد إرهاب مضاد للإشتراكية . ووجدوا لهم زعيا ذا همة عالية

⁽١) عد جمع عدة وهو رئيس القرية أو للديئة كا هو سروف . (المترجم)

وروادع أخلاقية واهنة هو بنيتوموسوليني ، وكان فيا قبل ذلك صحفياً راديكالبا(۱) ، وسرعان ما تغلبت الفاشستية تحت إدارته الماهرة على اعتداءات الشيوعيين المتفرقة العاطفية . وكانوا يقطعون الطريق على الزعماء والكتاب المتحررين ثم يضربوهم بالهراوات . وكانت هناك طريقة حبيبة إلى الفاشستيين هي أن يعطوا جرعات كبيرة من زيت الحروع إلى من ينتقدون تصرفاتهم . وأصبح القتل والضرب والتعذيب وإحراق الأملاك الحاصة للمفكرين المتحررين هي وسائل الرقابة الاجتماعية في إيطاليا . فكأن حكم المناسر قد حل محل شبح الشيوعية البعيد .

وبلغ الفاشيون في أكتوبر ١٩٢٧ حداً من القوة أتاح لهم أن أصبحوا في الواقع جيشاً حقيقياً وأن استطاعوا الزحف على روما . وأعلنت الوزارة الأحكام العسكرية واستعدت للقتال ، ولكن الملك أبي التصديق على هذه التدابير ودعا موسوليني لتولى مقاليد الأمور . فلي الدعوة وأصبح رئيساً للحكومة ، ووافق على حل فرق القمصان السود – وهو وعد لم يبر به أبدا . ووضع الفاشيون موضع الهيمنة على البوليس وعلى قوات البلاد المسلحة ، وقضوا على حرية الصحافة وأصبحت الانتخابات مهزلة من المهازل ، وظل الفاشيون مهاجمون أعداءهم السياسين ، ويلقون في قلومهم الرعب ويغتالونهم . بينها أصبح موسوليني بلقب الدوتشي (٢) ديكتاتوراً حقيقياً ، على حين أخذت أهمية الملك ثقل نسبياً .

ومضى زمان استرجعت فيه إبطاليا ضرباً معيناً من الكفاية الاقتصادية الحشنة التى لقبت استحساناً عظيا فى بعض الدوائر الأوربية . ولكن موضع اهمام العالم بأسره بالمرقف فى إيطاليا ، كان منحصراً فى التجربة التى مرت بها إذ تجلى فيها على أخشن الأشكال وأشدها فجاجة ماهية اليسار المتطرف واليمين المتطرف فى الشئون الإنسانية المعاصرة . وفيها ظهرت قلة كفاية الأولين وانعدام السمة العملية للمهم ، كما تجلت المسرعة التى ينحدر بها إلى العنف وقطع الطرق أصحاب الملكيات والمشروعات الحاصة ،

⁽١) الراديكالي · حزب متطرف يدعو إلى التغيير التام في السياسة والإصلاح الشامل (١)

⁽٢) الدوتشي : معناها الزعيم . (المأرجم)

عندما يصطرون إلى إلتزام خطة الدفاع . وقد أصبحت إيطاليا كالروسيا سجناً لكل إنسان حر العقل..

وإنك تتجد ذلك المرض المتسلل وأعنى به مخالفة القوانين اللى سبق أن ذكرناه فى نقدنا لرواية ستوكى وشركاه لرديارد كبلنج ، - زاهياً زاهراً فى هذين القطرين . على أن إيطاليا لا تقف بمفردها فى هذا المضار ؛ وإنما هى أشد الأمثال اكبال تطور وسط نزعة عمت هذا الزمان كله . فإن الفاشية وجدت فى ألمانيا وفرنسا وبريطانيا العظمى مطاولين ومقلدين ، ولكن نشاطهم فى تلك البلاد وإن أصبح مضايقة أو إزعاجاً إلا أنه لم يصل إلى مرتبة الطغيان والاستبداد شأنه فى إيطاليا :

٢ ـ الرئيس ولسن في قرساي

أشرنا من قبل إلى تفشى الفوضى الاجتماعية والاقتصادية فى جميع المجتمعات الأوربية إبان السنوات التى أعقبت الحرب ، وذلك قبل أن ندنى إليك بأى بيان عن العمل الذى بذل فى التسوية العالمية التى كان مركزها مؤتمر الصلح فى باريس ، وكان مرد ذلك أن حالة إنشغال البال والقلق التى لحقت كل من يشتغلون بالمشاكل الحاصة من أمثال الدخل والأسعار والعمل وما إليها ، للهن علماً لتفسير جو الإنهاك الذى تقدم فيه ذلك المؤتمر نحو الواجب الفهخم الملتى عليه ، وليس يجوز للإنسان أن يتوقع حياة عامة قوية على حين يشمل الغم والارتباك حياة الأفراد .

وتدور معظم قصة المؤتمر حول مغامرة رجل بعينه ، وهو أحد أولئك الرجال الذين تنتخبم المصادفة أو الصفة الشخصية وتتخذ منهم طرازاً تقصد به إلى تخفيف العبء عن المؤرخ . ولقد أصبنا في كتابنا هذا شيئاً كثيراً من الراحة في تركيز انتهاهنا على شخص بعينه إما أن يكون بوذا ، أو الاسكندر الأكبر أو يوان تشوانج أو الإمراطور فردريك الثاني ، أو شارل الحامس ، أو نابليون الأول مثلا — وأن نتخذ منه نيراساً يعكس النور على الزمان الذي يعيش فيه . وأمهل زاوية ننظر منها خاتمة الحرب العظمي هي زاوية ارتقاء الرئيس الأمريكي ولمن مراقي الأهمية العليا في سهاء آمال العالم وانتباهه ، ثم فشله في تبرير تلك الرفعة .

وكان الرئيس ولسن (١٨٥٦ – ١٩٢٤) فيا سلف من أيامه عالماً مبرزاً ومدرساً خليماً للقانون الدستورى والعلوم السياسية عامة . وقد شغل مناصب جامعية كثيرة ، وتولى رثاسة جامعة برنستن (Princeton) بنيوچرسى . وإن هناك لقائمة طوبلة من الكتب تشهد له بالكفاية وتبدى فيه ذهنا متجها انجاها كلياً إلى التاريخ الأمريكي والسياسة الأمريكية . تقاعد عن العمل العلمي وانتخب حاكماً لولاية نبوچرسي في والسياسة الأمريكية . تقاعد عن العمل العلمي وانتخب حاكماً لولاية نبوچرسي في المتحدة نتيجة لحلاف عنيف شجر بين الرئيس السابق روزفلت والرئيس تافت ، تصدع بسببه الحزب الجمهوري صاحب السلطان .

وكأنما أخلت أحداث أغسطس 1918 الرئيس ولمسن ومواطنيه على غرة . فإنا نراه يرسل برقية في ٣ أغسطس يعبر فيها عن استعداد التوسط . ثم أخذ يراقب النزاع ردحاً من الزمان هو وأمريكا . وقد لاح بادئ الرأى أنه لا الشعب الأمريكي ولا رئيسه كانوا يفهمون فهما واضحاً ولا فهما عيقاً تلك الكارثة التي تجمعت قواها في زمن غير قصير . فقد أقاموا تقاليدهم قرناً من الزمان على عدم الاهتمام بأمور العالم القديم ، ولم يكن تغيير هذا الاتجاه بالأمر الهن . على أن الصلف الإستعاري الذي أبداه البلاط الألماني ، وما زعمه بعض الناس من ميل السلطات العسكرية إلى بث المذعر الميلودرامي ، وغزوهم لبلجيكا ، واستعالم الفاز السام ، ومضايقهم العالم بحملة الفواصات ، قد أوجدت في الولايات المتحدة عداء اللألمان لم يبرح يزداد حدة وعقاً مع تقدم الزمن بالحرب . ولكن ما درجوا عليه من تقاليد عدم التنبخل السياسي في شئون أوربا ، وذلك الاقتناع العميق الأسس القائل بأن لأمريكا من الخلق السياسي ما يسمو على خلافات أوربا كل السمو ، منعت المرئيس عن التلخل الفعلي . فاتخذ نغمة الترفع والتسامي . وصرح بأنه غير مستطيع أن يحكم على أسباب الحرب الكبرى وعدالها . واتخذ لنفسه موقف مسالة ودعوة إلى التهدة برجع إليه الفضل في إعادة انتخابه لرياسة الجمهورية .

ولكن حال العالم لا ينصلح بمجرد النظر إلى فعلة السوء نظرة عدم استحسان إ شاملة لا تكاد تميز بين هذا وذاك . وعند نهاية ١٩١٦ شجع الألمان على الاعتقاد بأن الولايات المتحدة ان تدخل الحرب بأى حال ، وفى ١٩١٧ ابتدأوا حملة الغواصات التى لا تتقيد بشىء وإغراق السفن الأمريكية بلا إنذار . وجرات هذه الحاقة الأكيدة الرئيس ولسن والشعب الأمريكي إلى الحرب جراً . كذلك دفعوا كرها إلى محاولة تحديد علاقتهم بسياسة العالم القديم على أسس أخرى غير مجرد التعالى والتباعد . وتغيرت أفكارهم وخلقهم بغاية السرعة . فلخلوا الحرب في صفوف الحلفاء وإن لم ينضموا معهم في أى حلف . خاضوا الحرب باسم مدنيتهم العصرية ، الحلفاء وإن لم ينضموا معهم في أى حلف . خاضوا الحرب باسم مدنيتهم العصرية ،



(شكل ۲۱۵) الرئيس ولس

والأحكام المتريثة المتأنية كثيراً ما تكون خير الأحكام. فإن آلرئيس ولسن حاول في سلسلة من « المذكرات » أطول وأكثر تنوعاً من أن تتحملها المعابخة التفصيلية في هذا الكتاب ، حاول وهو في حالة تشبه من يفكر بصوت مرتفع على مسمع من العالم قاطبة ، أن يبين الفروق الجوهرية بين الدولة الأمريكية وبين دول العالم

القديمة الكبرى . وبسط للناس فكرة للعلاقات بن الدول هبطت على نصف الكرة الشرفى بأجمعه هبوط التنزيل ، هبوط أمل فى نشوء عالم أفضل .

وكأن المأمول بمقتضى هذه الفكرة أن تتوقف الاتفاقيات السرية ؛ وتقرر والأم ، مصائرها بأنفسها ؛ ويكف الناس عن العدوان العسكرى وتصبح طرق البحار حرة مباحة للبشرية كافة . فهذه الأمور العادية المألوقة لدى الفكر الأمريكى ، هذه الرغبات الحفية المستقرة فى نفس كل سليم العقل ، هبطت على ماكان يخيم على أوربا من ظلمة الغضب والنزاع هبوط نور عظيم . وأخيراً شعر الناس أن صفوف الديبلوماسية قد تصدعت ، وأن أقنعة «سياسة» الدول العظمى قد تمزقت إرباً . فهنا عبر الرئيس بغاية الوضوح ويما له من سلطان وما وراءه من قوة شعب قوى جديد عن رغبة الرجل العادى في العالم بأجعه

وواضح أن الموقف كان يستلزم وجود هيئة حكومية ذات يد مطلقة لتقيم أركان القانون العالمي وتحافظ على سريان هذه القواعد العامة الإجمالية التحررية على علاقات الناس بعضهم ببعض . وكم من خطة حلق بها خيال الناس للوصول إلى تلك الغاية . وكانت هناك بوجه خاص حركة ترمى إلى إنشاء نوع ما من العصبة العالمية ، هي وعصبة الأمم » . فاستعمل الرئيس الامريكي هذه العبارة وحاول أن يحققها . فإنه صرح بأن الشرط الضروري للسلام الذي كان ينشد هو إقامة صرح هذه الأداة الاتحادية (الفدرالية) . كان المفروض آن تكون عصبة الأمم هذه محكمة الاستئتاف النهائية في الشئون الدولية . وكانت على أن تصبح الجسم المادي المحقق للسلام . وهنا كذلك أثار الرئيس صدى هائلا .

وأصبح الرئيس ولسن أمد ردح من الزمان الحطيب المتحدث باسم عضر جديد. واستمر محتفظاً بهذه المكانة الرفيعة في عين العالم القديم طوال الحرب وبعد انتهائها بزمن قصير . فأما في آمريكا حيث كانوا يعرفونه خيراً منا فكانت حوله محامة من الشكوك . ونحن إذ نكتب الآن وبين أيدينا عظمة الأحداث التالية ، نستطيع أن نفهم هذه الشكوك . فإن أمريكاطورت طوال قرن ونطنت قرن قصتها في الاعتزال والأمنة مُثلا علياً جديدة ومبادئ في الفكر السياسي مستحدثة ، دون أن تدرك

إدراكاً بعيداً أن هذه المثل العليا والمبادئ قد تستلزم تعضيداً حاراً صادقاً في حالات الشدائد والخطر . وكانت هناك أشياء عديدة تعد في نظر مجتمعها من السخافات بينها هي عند مجتمعات العالم القديم ، الذي كان لا يزال متورطاً في المعتقدات السياسية



(شكل ٢١٩) كليمصر

العهيدة ، بمثابة إنجيل يخرج الناس من الظلمات إلى النور . فكان الرئيس ولسن مستجيباً لفكر وأحوال قومه ووطنه هو ، ذلك الفكر المنبعث من تقاليد تحررية وجدت لأول مرة أوفى تعبير لها فى اللغة الإنجليزية . فأما فى رأى أوربا وآسيا فإنه بان كأنما يقول ويفكر لأول مرة فى التاريخ فى أشياء لم تتطور بعد وأسرار خى وجودها عنى الناس كل الحفاء . ولعله كان يشرك الناس فى هذا الرأى الحاطئ .

وإنا لنعالج هنا أستاذاً للعلوم السياسية ناجحاً مقتدراً ، لم يدرك تمام الإدراك ما يدين به لمعاصريه ، ولا عرف الجو الأدبي والسياسي الذي ظل يتنفسه طوال حياته ؛ كما أنه سرعان ما انتقل بعد إعادة انتخابه للرياسة من الحالات العقلية لزعيم سياسي إلى وضعة المسيح المخلص . وما و مذكراته » إلاعمليات ارتياد واستكشاف لعناصر الموقف العالمي . وعندما أبرز آخر الأمر في خطابه الذي ألقاه في الكونجرس"

فى بنايه ١٩١٨ نقاطه الأربع عشرة بوصفها بياناً محدداً لمقاصد أمريكا فى السلم ، كانت بوصفها بياناً أحسن كثيراً فى روحها منها فى ترتيبها ومادتها .

وكانت هذه الوثيقة تطالب بالاتفاقات الصريحة بين الأمم والكف عن السياسة السرية ، وحرية الملاحة في أعالى البحار وحرية التجارة ونزع السلاح وعدد من التسويات السياسية تقوم على الاستقلال القوى للشعوب . وهي تطالب في النقطة الرابعة عشرة بإنشاء و جمعية عامة للأمم و بغية ضان سلام العالم . كان ينشد و السلم بلا نصر » .



(نکل ۲۱۷) لوید چورج

وقد استقبلت هذه المواد الأربع عشرة استقبالا رائعا فى كل أرجاء العالم. فهنا لاح أخيراً شبح سلم يتقبله المعقولون من الناس فى كل مكان ، سلم طيب مقبول لدى خيار الألمان والروسيين وأكارمهم ، كما هو طيب مقبول لدى خيار الإنجلين والفرنسيين والبلچيك وأكرمهم . وظل العالم بأكله بضعة شهور ينبره نور الإيمان بولسن . فلو أمكن جعل هذه المواد أساساً لتسوية عالمية فى ١٩١٩ ، لفتحت منذ ذلك الحين حقبة جديدة للشئون الإنسانية عامرة بالآمال .

ولرام علينا أن تخبرك أن أحدا لم يقم بهذا الأمر . إذ كان يحبط بالرئيس ولسن

سماية بعينها من الأنانية الضيقة ؛ وكان جيل شعب الولايات المتحدة الذى وافته هذه النهزة العظيمة – وهو جيل ولد فى بجبوبة الأمنة ، وتربى فى ظلال الوفرة ، فهو لذلك جيل بمنآة عن المنازعات المؤلة التى أحزنت قلب أوربا ؛ – كان ينطوى على قدر بعينه من الطيش والنظرة السطحية للأمور . ولم يكن واقع الأمر أن الشعب الأمريكي كان سطحياً بحكم الطبيعة والضرورة ، بل إن حاسهم لم تحركها بالقدر العميق الكافى فكرة قيام مجتمع عالمي أكبر من مجتمعهم . كان لديهم فكرة ذهنية ولكنها لم تكن عقيدة روحية . فكنت تجد فى ناحية هذا الشعب الجديد نزيل العالم الجديد بمالم من فكرات بحديدة ، فكرات أسمى وأروع عن السلم والصلاح العالمي ، وتجد في الناحية الأخرى في العالم القديم ، شعوباً لدودة العداء متورطة أشد التورط في نظام الدول الكرى ؛ وكان الأولون أفجاجا أغمارا يدانون الأطفال في قلة خبرتهم المروعة ، وكان الآخرون مجربين مريرى المذاق معقدى التكوين .

وقد عالج الروائى الكبير هنرى جيمس منذ سنوات عديدة موضوع الاصطدام بين الشباب الغمر المثالى المنتمى لعصر جديد وبين نضج القديم المحنث فى قصة جد نموذجية تسمى و ديزى ميلر Miller و Daisy Miller و وهى قصة عزنة لفتاة أمريكية صريحة شديدة الثقة فى الناس رفيعة العقل ، ولكنها تكاد تبلغ حد البساطة ، وفيها ميل حقيق إلى الصلاح ورغبة عظيمة فى و الاستمتاع ، ، وكيف أنها وصلت إلى أوربا ووقعت فى الحبائل من فورها وتورطت فى الانحطاء ، ثم دفعت أخير ألى الترحيب بالموت بسبب ما فى العالم القديم من التواءات مركبة من قيود جامدة . وإن فى الحياة نفسها لآلافا منوعة من أضماب هذا الموضوع ، وآلافا من أمثال هذه المآسى التى تنحدر عبر الأطلسي ، وما قصة الرئيس ولسن إلا واحدة من هذه المآسى . ولكن ينبغى عبر الأطلسي ، وما قصة الرئيس ولسن إلا واحدة من هذه المآسى . ولكن ينبغى هو الحكم النهائي عليا بالقضاء الأخير .

ولعل أحداً من البشر المذنبين بفطرتهم لم يُصب وهو يبذل قصارى جهده وسط ظروف جارفة لا يقوى على إحبالها ــ بمثل هذا الفحص الدقيق والنقد القاسى الذى تعرض له الرئيس ولسن . وهو يلام لإنه أدار دفة الحرب وما تلاها من مفاوضات

الصلح على أسس حزبية محضة . وهم تهمونه بأنه ظل الرئيس الممثل للحزب الديموقراطي ، على حين كانت تأتمر به الظروف لتجعل منه ممثلا لمصالح البشرية عامة . ولم يقم بأية محاولة ليضم إلى جانبه بعض الزعماء الأمريكيين الكبار من أمثال الرئيس السابق روزفلت والرئيس السابق تافت ، ومن إليهما . وهو لم يستغل تماماً الموارد المعنوية والفكرية للولايات المتحدة ؛ بل جعل الموضوع كله أمراً شخصياً بمتا ، وأحاط نفسه بمن هم مجرد أنصار شخصيين له . وكان استقرار رأيه على حضور مؤتمر الصلح بنفسه غلطة خطيرة ، ويكاد رأى الناقدين المجربين بجمع على أنه كان يجي في أمريكا ، يمثل دور أمريكا وأن يتكلم بين الفينة والفينة كأنما كان الشعب يتكلم . فإنه استطاع طبلة السنوات الأخيرة من الحرب أن يحصل مهذه الطريقة على مكانة لا ضريب لها في العالم .

ويقول الدكتور ديلون (١): «كانت أوربا عندما لمست قدما الرئيس أرض ساحلها أشبه الأشياء بصلصال ينتظر لمسة الخزاف المبتدع. ولم يحدث قط من قبل أن كانت الأم على مثل هذا الشوق إلى اتباع نبي كموسى يأخذ بيدهم إلى الأرض الطيبة الموعودة حيث تمنيم الحروب ويجهل الحصر البحرى. وكانوا يرون فيه ذلك الزهيم العظيم. وكان الناس في فرنسا ينحنون أمامه محبة ورهبة. وأخبرني زعماء المهال في باريس أنهم سكبوا دموع الفرح بين يديه ، وأن إخوانهم كانوا على استعداد أن يخترقوا النار ويخوضوا اللجج لكي يساعدوه على تحقيق خططه النبيلة. وكان اسمه عن الطقة العاملة في إيطاليا بوقا سماوياً تتجدد الأرض حين يدوى صوته فيها. وكان اسمه الألمان بعدوته ومبادئه الإنسانية بمثاية الأمل الذي إليه يلوذون. وقال الهرموهلون الشجاع غير الهيابة: « لو أن الرئيس ولسن خطب في الألمان وحكم عليم حكما الشجاع غير الهيابة: « لو أن الرئيس ولسن خطب في الألمان وحكم عليم حكما قاسيا لقبلوه مذعنين دون أن يتفوهوا بكلمة ولأنشأوا يعملون من فورهم ». وكانت شهرته في الخما الألمانية شهرة مخلص منقذ ، وكان مجرد ذكر اسمه بلسها لآلام المنكوبين وترياقاً لأحزان المحزونين ».

Dr. Dillon: "The Peace Conference." ()

تلك هي الآمال الحارفة التي كانت تعتلج في صدور النظارة الذين استعد الرئيس ولسن للظهور آمامهم . وصل إلى فرنسا على ظهر الباخرة چورج واشنطن في ديسمبر ١٩١٨ . وأحضر معد زوجته . ولا شك أن هذا كان يبدو آمراً لا غبار عليه من وجهة النظر الآمريكية . وأحضر عدد جم من ممثلي أمريكا زوجاتهم . ومن سوء الطالع أنه دخلت إلى حظيرة التسوية العالمية بمقدم هؤلاء السيدات سمة اجتماعية لا بل سمة سياحية . فقد كانت وسائل المواصلات ضيقة الحدود في ذلك الزمان ، على أن معظمهن وصلن إلى أوربا يحيط بهن جوزاه من الامتيازات . وجنّن كن يريد أن يحضر مأدبة به فكن – كما نوه بعض الناس – يتفرجن على أوربا مستمتعات بظروف شائقة غير عادية . وإنهن لبرغن في زيارة آثار تشسر أو قلعة وارويك أو وندسور إذ قد لا تتاح لهن في المستقبل فرصة أخرى يرين بها هاته المواضع الشهيرة . ثم لقد تقطع بعض المقابلات الهامة لكي تزار دار ذات أهمية تاريخية .

وربما لاح هذا من الأمور التافهة التي لا يليق أن ندونها في تاريخ للبشرية . على أن مثل هذه الهنات الإنسانية الهينة هي التي ألقت على مؤتمر الصلح في ١٩١٩ ظلا من اليأس في ثمرته . إذ اكتشف الناس بعد برهة وجيزة أن ولسن أمل البشرية ومعقد الرجاء منها قد تلاشي ، ولم يبق منه إلا صور تنشرها صحف الطبقة الراقية لسائح يسير مبتهجاً مع زوجته ، يحيط بهما جو باسم من الرووس المترجة وما إليها من الصخب الذي يُحسد الناس عليه ومن أيسر الأمور أن يدعي الإنسان الحكمة بعد وقوع الاحداث وأن يشمر بخطئه بعد حدوثه وأن يعرف أنه كان ينبغي له ألا يحضر .

وكان الرجال الذين تعتم عليه أن يتصل بهم اتصالا خاصاً أمثال المسيو كلمنصو (فرنسا) ولويد چورچ وبالفور (بريطانيا) ، والبارون سونينو والسنيور أورلندو (إيطاليا) رجالا يتحدرون عن تقاليد تاريخية تخالف تقاليده مخالفة بعيدة . على أنهم كانوا يشابهونه من وجه واحد يروقون فيه لميوله وعواطفه . فإنهم كذلك كانوا سياسيين حزبين قادوا أممهم في الحرب . وقد فاتهم مثله أن يفهموا ضرورة أن يناط عمل النسوية العالمية برجال أكفاء أكثر منهم أهلية وتخصصا .

لغ يكونوا ليزيلوا عن مجرد صغار مبتدئين في الشئون اللولية . وكانت علوم

الجغرافيا والاثنولوچيا (علم السلالات البشرية) وعلم النفس والتاريخ السياسي صناديق مقفلة دونهم . وقديماً قبل إن مدير جامعة لوڤان حدّث أوليفرجولد سميث بأنه لما كان قد أصبح رئيساً لتلك المؤسسة دون أن يعرف اليونانية ، فإنه لايدرى لماذا يجب أن تُعلم فيها تلك اللغة ، وعلى نفس الشاكلة فإن رؤساء الدول - وقد حصلوا على أعلى المناصب في بلادهم دون أن يكون لديهم من العلم بالشئون الدولية ما يزيد على قلامة ظفر - لم يستطيعوا أن يدركوا أهمية الفكن منها ولا استحالة سد هذا النقص فيهم بالدراسة بينها هم ماضون في طريقهم » .

ولقد كان في المستطاع تدارك ما كان ينقصهم تداركاً محسوساً بضم مساعدين لم من الرجال الذين أسعدتهم الحال بمواهب خير من مواهبهم . ولكنهم عمدوا قصداً إلى اختيار رجال متوسطين غير أفذاذ . ومن الدلائل على الأرواح الأصيلة أن نجد المعاونين المخلصين . على أن المندوبين المفرضين فوق العادة في ذلك المؤتمر لم يختصهم القدر بهذه الحصيصة . ولا تنس عاملا في المؤخرة بعيداً عن الأنظار ، ذلك أنه كان لبعضهم عائلات أو محرضون يتصلون بهم أحيانا وقد اعتادوا أن يصغوا لنصائح هؤلاء وأولئك ، على أن كثيراً من الملحقين والمساعدين الذين سلطت عليهم الأضواء على المسرح العالمي كانوا أشباحاً لاروح فيها ولاشجاعة » .

« ولما كان رؤساء الحكومات الكبرى يدّعون لأنفسهم ضمنيا أنهم هم المتكلمون المفوضون عن الجنس البشرى ، وأن بين أيديهم سلطات لاحد لها ، فإن من الجدير بالملاحظة أن هذه الدعوة لقيت تحدياً جريئاً من الصحافة المعرة عن الشعوب. فإن جميع الصحف تقريباً التي تقرؤها جماهم الشعب اعترضت منذ البداية على ديكتانورية تلك الثلة من رؤساء الوزارات باستثناء الرئيس ولسن » .

ولن يسمح لنا ضيق المقام فى هذه المعالم أن نحدثك ها هنا كيف تقبض موتمر الصلح من مجلس عشرة إلى مجلس أربعة هم (ولسن وكلمنصو ولويد چورچ وأورلندو) ، وكيف أخذ يفقد بالتدريج سمته بوصفه مناقشة صريحة علنية لمستقبل البشرية ، وأصبح شيئاً فشيئاً أشبه ما يكون بمؤامرة دببلوماسية

قديمة الطراز . كانت الآمال التي انعقدت على باريس وتجمعت فيها عظيمة عجيبة . ويقول الدكتور ديلون « إن باريس إبان ذلك المؤتمر كفت عن أن تكون عاصمة فرنسا ، إذ أصبحت (مسافرخانة) أو دار ضيافة دولية هائلة تعج بمظاهر غير مألوفة من الحياة والاضطراب ، مليثة يأشكال غريبة من الشعوب والقبائل والألسن جاءوا من القارات الأربع ليرقبوا وينتظروا ما يخبثه لهم الغد الملقى .

«وقد أضيف إلى الصورة لمسة من لمسات ألف ليلة وليلة بظهور زوار عليهم طابع الغرابة وفدوا من بلاد التتار وكردستان وكوريا واذربيجان وأرسنيا وإبران وبلاد الحجاز ما بين رجال لهم لحي البطارقة وأنوف كالسيف الأحلب، وآخرين جاءوا من الصحراء والواحة، ومن سمرقند وبخارى. وما بين عمائم وطرابيش وقبعات مخروطية كأقماع السكر وأغطية روءس شبهة بقلانس الأساقفة وبدل عسكرية قديمة فعلت بليوش قامت كالجنين في دول جديدة نشأت ليلة السلام الأبدى، وبرانس بيضاء شاهقة البياض وجلابيب فضفاضة وثياب رشيقة تشبه التوجا الرومانية، اجتمع كل أولئك هناك وأسهموا في إيجاد جو من اللاحقيقة والوهم الحالم في المدينة التي كان بعض الناس يواجهون فيها ويصطرعون مع أشد الحقائق تجهما».

و هم جاء أهل الراء من الرجال ، وأهل الذكاء وأصحاب المشروعات وهملة بذور التنظيم الأخلافي الجديد، وأعضاء بامان اقتصادية في الولايات المتحدة وبريطانيا وإيطاليا وبولندة والروسيا والهند والدابان وممثلو صناعات النفط ومناجم الفحم البعيدة الشاسعة والحجاج والمجذوبون المتعصبون ، ومهرجون (شرلتانون) من جميع الأجواء ، وقساوسة من جميع الأديان ومبشرون بكل عقيدة ، مختلطين بالأمراء والفيلدمارشالات ورجال السياسة ، والفوضويين ودعاة الإنشاء والهدم ، وكان كل يتحرق شوقاً إلى أن يقترب من تلك البونقة التي ستصهر فيها نظم العالم السياسية والاجتماعية ثم تخلق خلقاً جديداً ه .

و كنت في كل يوم أثناء مرورى في الطرقات وفي شقني وفي المطاعم ألتي مبعوثين عن بلاد وشعوب لم يكد يسمع الناس في الغرب حتى بمجرد إسمها الانادراً . وزار في وقد من يونان منطقة البونت إيوكسين (١) ، وتحادثوا معي عن مدتهم القديمة طرابيزون وصامسون وطرابلس وكبراصوند ، التي أقت بها منذ سنوات هدة ، وأخبروني أنهم هم كذلك يرغبون في أن يكونوا من أنفسهم جيعاً جمهورية إغريقية مستقلة ، وأنهم جاءوا للحصول على طلبائهم ، وكان يمثل الألبانيين صديقي القديم طرخان باشا من ناحية وصديقي أسعد باشا من ناحية أخرى – وكان الأول يرغب في حاية إيطاليا ويطالب الثاني بالاستقلال التام . وكان الصيني واليابائي والكورى والهندوكي والقرغيزى واللسفيني (١٦٪ والحركسي والمنجريلي والبورياتي والملايي والزنجي وشبه الزنجي (النجرويدي) من أفريقيا وأمريكا من بين رجال القبائل والألسن التي اجتمعت في باريس لتلاحظ عن وأمريكا من بين رجال القبائل والألسن التي اجتمعت في باريس لتلاحظ عن كئب إعادة بناء نظام العالم السياسي وليعرفوا مكانهم فيه » .

وإلى باريس هذه المزدحة الرائعة التى بلغ بها الانذهال كل مبلغ والفاغرة فاها إرتقابا للعالم الجديد جاء الرئيس ولسن ووجد قواها المتجمعة ، تحت سلطان شخصية أضيق منه أفقا من كل وجه وأصغر حدوداً وأقوى منه منة حتى لامجال للمقايسة بينهما : وأعنى به رئيس الوزارة الفرنسية المسيو كلمنصو . وانتخب المسيو كلمنصو رئيساً للمؤتمر تلبية لرغبة الرئيس ولسن . قال الرئيس ولسن : المسيو كلمنصو رئيساً للمؤتمر تلبية لرغبة الرئيس ولسن . قال الرئيس ولسن : وكان ذلك اعتراقاً خاصاً وتقديراً لما لقيت فرنسا من آلام وبذلت من تضحيات » . ولسوء الحفظ أن ذلك القول كان النغمة الأساسية في المؤتمر ، الذي كان ينبغي ألا يشغل نفسه إلا بمستقبل البشرية .

وكان چورچ بنيامين كلمنصو (١٨٤١ -- ١٩٢٩) صحافياً وسياسياً عالى السن ،

⁽١) البونت إيوكسين (Pont Emxine) : منطقة الساحل الجنوبي البحر الأسود وهي التي كان يطلق عليها قديمًا اسم إقليم بنطش . (المترجم)

 ⁽٢) السنينيون (Lenghions) : شعب يسكن بلاد القوقائر . البوريات : إحدى الجمهوريات السرئينية وتقم بسيريا الشرقية . (المترجم)

وكان من أعظم المولعين بالتشهير بمثالب الناس وأخطائهم ، وممن لمم النصيب الأوفر في قلب الحكومات، وكان طبيبًا ظل وهو يشغل منصب الاستشارة في البلدية محتفظًا بعيادة مجانية ، كما كان مبارزاً عنيفاً ذا دربة وتجربة . ولم تنته واحدة من مبارزاته بالموت ولكنه كان يلقاها ثابت الجأش جم الإقدام . وقد انتقل من مهنة العلب إلى الصحافة على المذهب الجنمهوري في أيام الامبراطورية وكان في تلك الأيام « يساريا » متطرفاً . واشتغل بالتدريس في أمريكا ردحاً من الزمان ، وتزوج من زوجة أمريكية ثم انفصل عنها . وكان قد بلغ الثلاثين في عام ١٨٧١ الحافل بالأحداث الحسام . ثم إنه عاد إلى فرنسا بعد معركة سيدان ، وألتى نفسه قى المعمعان العاصف المضطرب لذلك الشعب المقهور مُظهرا حمية. عظيمة وقوة بالغة . ومنذ ذلك الحين أضحت فرنسا عالمه الخاص ، فرنسا صاحبة الصحافة القوية والخلافات للشخصية الجريئة الحادة والتحديات والمجامهات والخلافات العنيفة والتأثيرات النبرامية والنكات البارعة التي تكال مهما تكن النتائج . كأن ممن صيغ من « مادة حادة ملهبة » فلقبه الناس « بالنمر » ، ويلوح أنه كان يخالجه بعض الزهو بهذا اللقب . كان وطنياً محترفاً أكثر منه سياسياً مفكراً ؛ ذلكم هو الرجل الذي تهضت به الحرب إلى أعلى عليين ، وأتاحت له أن يمثل عقلية فرنسا الممتازة وروحها الكريمة أسوأ تمثيل .

وكان لضيتي أفقه أثر عميق في المؤتمر ، الذي زاد في تلونه باللون الدرامي اللجوء إلى حمل مكان التوقيع هو نفس قاعة المرايا بقرساى التي انتصرت فها ألمانها وأعلنت وحدثها في كبرياء الظافر ، هناك قضي على الألمان أن يوقعوا .

ولم تعد الحرب تبدو في هذا الجو في حين المسبو كلمنصو وعين فرنسا حرباً عالمية ؛ بل كانت مجرد فصل ثان للنزاع القديم الذي قام في « السنة الفظيعة ؛ (كما يسميها الفرنسيون) وكانت السقوط والنكال اللذين حلا بألمانيا الآئمة ، قال الرئسين ولمسن «كان من الضروري أن توطأ السبيل لأمن الديمقر اطية في العالم » . وكان هذا من وجهة نظر المسبو كلمنصو التي عبر عنها صراحة « ضربا من الكلام على طريقة يسوع المسبح » يلوح أمراً مضحكاً جداً في نظر العدد العديد من أولئك الديبلوماسين والسياسين الأذكياء ــ وخاشاى أن أيول المنزنين ــ

الذين جعلوا سنة ١٩١٩ سنة ممتازة فى تاريخ انعدام الكفاية الإنسانية. (ولعلنا نذكر هنا كذلك ومضة أخرى وهاجة لذكاء والغراء ونكاته اللاذعة ، هو قوله إن الرئيس ولسن ونقاطه الأربعة عشر كان وأسوأ ، من الله القادر على كل شيء إذ لم تكن فه الطيب Le bon Dieu إلا عشر وصايا فقط . . .)

قال كاينز (Keynes) ، كان المسيو كلمنصو يجلس هو والسنير أورلندو في المقاعد التي تتوسط نصف دائرة تتكون من أربعة أمام الموقدة . كان يرتدى بذلة فراك سوداء وقفازين رمادين من جلد الأروى لم يكن يخلعهما قط أثناء جلسات الموتمر . ويتبغى لنا أن نلحظ أنه كان ـ بين هولاء البناة الأربعة للعالم ـ الوحيد الذي يستطيع أن يفهم ويتكلم الإنجليزية والفرنسية كلتيما .

وكانت أهداف المسيو كلمنصو بسيطة كما كانت من بعض أوجهها مهلة المتناول. فإنه كان يطالب بنقض كل ما أبرم في تسوية ١٨٧١ . وكان يطلب معاقبة ألمانيا كأنما كانت شعباً آثماً إثماً فريداً في نوعه ، وكأنما كانت فرنسا شهيداً مطهرا . وكان يريد أن يفسد من حال ألمانيا ويبث فيه من اللمار ما يقعدها بعد ذلك عن أن تقف قبالة فرنسا أبدا . وكان يربد أن يوثم ألمانيا ويحقرها أكثر مما أولمت فرنسا وحفرت في ١٨٧١ . ولم يكن يعنيه إذا كانت أوربا تنحطم إذا المحطمت ألمانيا . فإن ذهنه لم يتجاوز نهر الراين التجاوز الذي يجعله يدرك هذا المحتمل . ولقد قبل عصبة الأمم التي ارتآها الرئيس ولسن بوصفها مقترحا عظيا إذا كانت تضمن لفرنسا الأمنة مهما لعلت ، على أنه كان يفضل محالفة ترتبط بها الولايات المتحدة وانجلترة وهرنسا المحافظة على فرنسا وتعضيدها وتمجيدها في أي ظرف كان . كان يريد فرسا أوسع وأشيل لاستغلال سوريا وشهال أفريقية وما إلها على يد بعض الجاهات المالية الباريسية .

كان يريد تعويضات يضمد بها جراح فرنسا ، وقروضاً وهبات وجزبات لفرنسا وجداً وتوقيراً لفرنسا . ذلك أن فرنسا قد قاست ولالد لفرنسا من أن تنال جزاءها الأوفى . وكانت البلجيك والروسيا وسربها وبولندة وأرمينيا وبريطانها وألمانها والفسا قد تعذبت كلها . كذلك تعذبت البشرية جعاء ،

ولكن ماذا يهم ؟ إن ذلك لم يكن شأنا يعنيه . وإن هذه الاكاثنات تافهة (أو كمالة عدد) في دراما تلعب فيها فرنسا في نظره دور النجمة البطلة . . . و بمثل هذه الروح حاول السنيور أورلندو فيها يلوح أن يتقصى صالح إيطاليا .

وأدخل المستر لويد چورچ معه إلى « مجلس الأربعة » الباقة وحبث الرجل الويلزى ، وتعقيد الرجل الأوربى ، وضرورة ملحة تقظى عليه بأن بحترم الأنانية القومية التي طبع عليها الأميرياليون والرآساليون البريطانيون الذين أعادوه إلى رياسة الوزارة . وإلى خفايا هذا المؤتمر السرى ذهب الرئيس ولسن بحمل بين جنبيه أنبل المقاصد من أجل ما وضعه للعالم من سياسة أمريكية اكتشفها حديثاً ، وأعنى بها نقاطه الأربع عشرة التي يكاد يطبعها طابع التسرع ، ومشروعاً عاماً أكثر منه خطة تفصيلية لإقامة د عصبة للأم » .

« وقلما وجد رجل دولة من الطراز الأول أكثر عجزاً وقلة كفاية من الرئيس وسط النشاط الجم المتجلى فى قاعة المجلس ه(١). ومن ذلك الهمس فى الفلام ومن المنازعات التى دارت حول الموقدة فى ذلك المجلس ، وبعد غدوات وروحات لابجال لوصفها فى هذا المقام ، خرج الرئيس آخر الأمر ومعه نقاطه الأربعة عشرة ممزقة مشعثة بحال يبعث على الأسى ، وهو يحمل بين يديه طفلا عليلا هو عصبة الأم ، التى ربما تموت والتى قد تعيش وتنمو - فما يستطيع إنسان أن يتنبأ لما بشىء ، ولكنه استطاع على أقل تقدير أن ينقذ هذه . . . ! !

٣ ــ دستور عصبة الأمم

إن هذه الفرمة الإنسانية الشوهاء الموضوعة فى قارورة حاضنة والتى ناط بها الناس الأمل فى أن تصبح آخر الأمر (إنسانا كاملا) يحكم الأرض ، هذه عصبة الأم كما تجسلت فى ميثاق ٢٨ أبريل ١٩١٩ ، ثم تكن البتة عصبة شعوب .

⁽١) تقلا عن كاينز (١٨٨٣ – ١٩٤٦) : وهو اقتصادى إنجليزى . كان عثل وزارة المالية البريطانية فى مفارضات الصلح ، واستقال احتجاجاً على الشروط المالية لمعاهدة قرساى . (المترجم)

بل كانت كما تبن العالم و عصبة دول وممتلكات مستقلة ومستعمرات و . وكان مشرطاً في هذه كلها أن تكون ممن و تحكم نفسها بنفسها تماماً و . ولكن لم يوضع لهذه العبارة أي تعريف مطلقاً . ولم يكن هناك أي قيد يستبعد البلاد ذوات الانتخابات المقيدة ولا أي تدبير من شأنه أن يضمن قيام أي رقابة مباشرة لشعب أي دولة من الدول . وقد شخصت فيها الهند على افترانس أنها دولة و تحكم نفسها بنفسها تماماً و الارب أن دولة استبدادية أوتوقراطية ما كانت إلا لتقبل في عضويتها بوصف كونها ديمقراطية و تستمتع بكامل حكم نفسها بنفسها ولها انتخابات وحقوق مدنية قاصرة على فرد واحد !! .. وكانت العصبة التي تألفت بمقتضى ميثاق ١٩١٩ في الواقع عصبة و ممثلين و لوزارات الخارجية ، وهي لم تستطع حتى أن تحل على السفارات في عاصمة كل دولة .

ظهرت فيها الإسراطورية البريطانية مرة بوصفها كلا موحداً ، ثم ظهرت المند (!!) والدومنيون الأربع (أى الممتلكات المستقلة كندا واستراليا وجنوب أفريقيا ونيوزيلندة) بوصفها دولا منفصلة ذات سيادة . ثم حصلت إرلندة فيا بعد على مكان منفصل . ومن المحقق أن ممثل الهند لم يكن إلا شخصاً يعينه البريطانيون . فأما ممثلو الدومنيون فينبغى أن يكونوا من رجال السياسة فيها . ولكن إذا كانت الإمراطورية البريطانية تتشرح على هذا النحو ، وجب أن ينبدل بممثل الإمراطورية من يمثل بربطانيا العظمى ، وكان لابد من أن تعطى مصر أيضاً حق العضوية . زد على ذلك أن كلا من ولايتي نيويورك وقرچينيا كانت من الناحية التاريخية والقانونية دويلة ذات سيادة مثل نيوزيلندة وكندا سواء بسواء . وترتب على إدخال الهند مطالبات منطقية بدخول أفريقيا الفرنسية وآميا الفرنسية وآميا الفرنسية . بل إن أحد المندوين الفرنسيين قد اقترح بالفعل منع صوت لإمارة موناكو الصغرة .

وكان مقرراً أن تلتئم للعصبة جمعية تمثّل فيها كل دولة عضو وتكون أصواتها سواسية ، ولكن الإدارة القائمة بالعمل فى العصبة كانت على أن تتحول إلى مجلس يضم مندوى الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا واليابان ومعهم

أربعة أعضاء آخرين تنتخبهم الجمعية . ويجتمع المجلس مرة فى كل عام ؟ وتكون اجتماعات الجمعية على و فترات مسهاة » ولكن لم تتم تلك الفترات .

وفيا عدا حالات نوعية خاصة لم تكن قرارات عصبة هذا الميثاق تصدر إلا بلاجماع الآراء. فإن ند فرد واحد ولم يوافق في المجلس تعطل أي مقترح – وهو وضع بجرى على نظام النقض المطلق (Liberum veto) البولندي القديم. وهو شرط أنزل أفلاح الضرر بكيان العصبة . فإنه جعل الكثيرين من المفكرين يرغبون في علم وجود العصبة أكتر مما يرغبون في عصبة الميثاق هذه . إذ أنه ينطوى على اعتراف تام بما للدول من سيادة لا يمكن التنازل عنها ، كما أنه رفض لفكرة قيام «دولة محررية مشتركة » (Commonweal) تظلل البشرية جعاء . والواقع العملي أن هذا الشرط كان يسد الطريق على كل إصلاح للمتزر العصبة في المستقبل إلا باللجوء إلى طريقة مرفولة هي أن ينسحب من العصبة في وقت واحد غالمية الأعضاء الراغبين في التغيير ، ليعيدوا تكوين العصبة على أسس جديدة . وقد جعل الميثاق إيجاد مثل هذه التسوية المهائية للعصبة التي أنشأ أمراً لامندوحة منه . ولعل هذا خير ما فيه .

وقد اقترح آن تستبعد من العصبة الأصلية الدول الآتية : وهي ألمانيا والنمسا والروسيا وكل ما عسى أن يتني من الإمبراطورية العانية . على أن في الإمكان أن للخل أي واحدة من هذه اللول فيا بعد بموافقة ثلثي أعضاء الجمعية . وكانت العضوية الأصلية في العصبة كما يحددها مشروع الميثاق مقصورة على : الولايات المتحدة الأمريكية وبلچيكا وبوليفيا والبرازيل والإمبراطورية المريطانية (كندا واسترائيا وجنوب أفريقيا ونيوزيلندة والهند) ، والصين وكوبا وإكوادور وفرنسا واليونان وجوانيالا وهابتي والحجاز وهندوراس وإيطاليا واليابان وليبريا ونيكاراجوا وينا وبيرو وبولندا والبرتغال ورومانيا ودولة السرب والكروات والسلوفان وسيام نشيكوسلوفاكيا وأوروجواي . ويضم إليها بتوجية اللحوة الدول الآتية التي لزمت الحياد أتناء الحرب، وهي : جمهورية الأرجنين وشيلي وكولومبيا والدانمارك وهولندة والنروبج وباراجواي وإيران وسلقادور وأسبانيا والسويد وسويسرا وفنزويلا.

وما دام ذلك هو دستور العصبة ، فلن يكون هناك مجال العجب من أن سلطانها كانت خاصة ومحلودة . وجمّعل مقرها مدينة چنيڤ وجمُعلت لها سكرتارية . ولم يكن لها أى قوة حتى فى التفتيش على الاستعدادات الحربية التى ينشها أعضاؤها المؤسسون ، ولا أن تعطى التعليات إلى هيئة عسكرية وبحرية لوضع خطة التعاون المسلح اللازم لحفظ السلام فى العالم .

وقد أصر المندوب الفرنسي في قوميسيون عصبة الأمم وهو المسيو ليون بورجواه في جلاء وتكرار على الضرورة المنطقية لوجود مثل هذه السلطات والقوى في يدها . على أنه كان كخطيب مسهباً مفيضاً وينقصه شيء من «حرافة » المسيو كلمنصو وإليك وصفاً محكماً للمنظر الحتامي لجلسة ٢٨ أبريل الكاملة التي سبقت تبنى الميثاق كما دبجه المستر ولسن هاريس . كانت قاعة الولائم المزدهة في الكاى دورساى (١) بما فيها من صفوف المناضد للمندوبين وما فيها من سكرتارين وموظفين مصطفين بجوار الجلسوان وكتلة متراصة من الصحفيين في الطرف الأدنى من القاعة . – « وجلس الأقطاب الثلاثة في صدر القاعة يُسكّون أنفسهم على حساب المسيو ليون بورجواه المحترم وقد أخذ – بمساعدة أكداس من المذكرات لا بد أنها كانت تبدو خير ضرورية بتاتاً ، يلتي لخامس مرة خطابه الذي يناصر به تعديلاته الشهيرة ٤ .

ولقد أكثروا من وتسلية أنفسهم بالتهامس وأعنى بهم هؤلاء الثلاثة اللدين كان من سخرية الأقدار أن ألقت بين أيدبهم مقاليد أعظم فرصة أتاحها التاريخ . ويعطينا كابنز أمثلة أخرى مما بدر في هذه الجلسات من صنوف الطيش والطابع السوق وعدم مراعاة الشعور وقلة الالتفات وانعدام الكفايات.

وعاد هذا الميثاق المسكن الذي وصلوا إليه على هذه الشاكلة إلى أمريكا بصحبة الرئيس ولسن ، وهناك لئي كل معارضة من الحزب الجمهوري المستاء وكل خصومة من الرجال الذين أهمل شأنهم في الرحلة إلى أوربا . وأبي مجلس الشيوخ أن يصادق على الميثاق ، وعلى ذلك فقد عقد أول اجتماع للعصبة من غير حضور ممثلي أمريكا .

⁽١) الكابي دورساي (Quai d'oresay) : هو مقر وزارة الخارجية الفرنسية . (المترجم)

وشهدت خاتمة ١٩١٩ وبداية ١٩٢٠ تغيراً عجيباً جداً في الشعور الأمريكي بعد التحمس للانجلير والفرنسيين إبان الحرب. ذلك بأن مفاوضات الصلح ذكرت الأمريكيين بطريقة مضطربة ومثيرة ، بما يفرق بينهم وبين اللول الأوربية منالفوارق العميقة في وجهة النظر اللولية ، وهي الفوارق التي ساعلت الحرب على نسيانهم إباها ردحاً من الزمان . إذ أحسوا أنهم « دفعوا دفعاً عاجلاً » إلى أمور كثيرة دون ما يكني من التروى وإعمال الفكر. ومر بهم تحول عنيف نحو سياسة العزلة التي تحطمت في ١٩١٧ . وشهدت خاتمة ١٩١٩ دوراً ؛ دوراً واضح الدلالة مفهوماً عاماً – من أدوار « التقوقع الأمريكي والتسك بالعزلة ، حاداً قاسياً يكاد يبلغ العنف ، دوراً كانت فيه الاشتراكية الأوربية (والاستجار) الأوربي بمنزلة سواء من النسخط واللعنة . وربما كان هناك عنصر من الحسة في ميل أمريكا إلى « قطع ، حبال التبعات واللعنة . وربما ألولايات المتحدة في شئون العالم المقديم ، وفي الحصول على المزايا الأدبية التي أثارتها الولايات المتحدة في شئون العالم الجديد . على أنه يلوح أن سليقة الأمريكين كانت في مجملها سليمة صحيحة في عدم ثقتهم بالتسوية المقترحة .

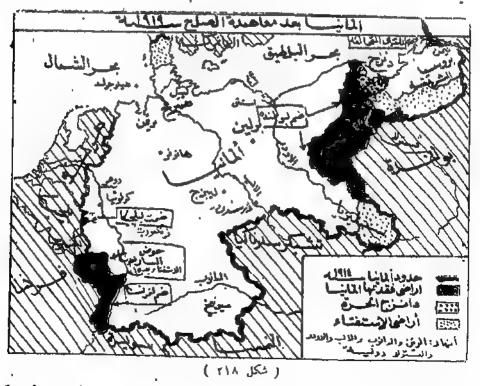
٤ -- معاهدات ١٩١٩ -- ١٩٢٠

تجسدت قرارات قرساى فى مجموعة من المعاهدات ، وإذا لنقدم إليك ها هنا أولا خريطة تمثل النفسيات الأرضية النى أوجدتها معاهدة الصلح مع ألمانيا ، ويعطيك قلم المستر هورابين الناطق الواضح ، الحقائق الضرورية بشكل أوضح مما يستطيع أن يبلغه أى شرح . زد على ذلك أن التسوية اشترطت تجريد ألمانيا من السلاح تجريداً تاماً ، وأنها يجب أن تسلم أسطولها وأن تدفع تعويضات حربية عظيمة ، وأن تدفع مبالغ طائلة لإصلاح ما دمرته الحرب . وانتدبت لجنة متحالفة للاشراف على عملية نزع السلاح . وكان مقرراً أن يسلم الأسطول للبريطانيين فى ٢١ يونية ١٩١٩ ، ولكن الضباط والنوتية لم يطيقوا تلك الفعلة ، وبدلا من أن يسلموه أفلتوا يه وأخرقوا سفتهم عند سكايا فلو(١) (Scapa Flow) على مرأى من البريطانيين.

⁽١) سكاپافلو : منسع مائى يقع جنوب جزر أوركنى باسكتلندة . (المترجم)

ومرزقت إمر اطورية النمسا والحجر تمزيقاً تاماً. وبي من وراثها دويلة صغيرة هي النمسا التي تعهدت بعدم الانضام إلى ألمانيا . ودويلة أخرى مشذبة مقطعة الأوصال هي الحجر ؛ وامتدت رومانيا امتداداً بالغاً وراء تخومها الشرعية حتى سويداء ترنسلفانيا . ومنحت بولندة معظم غاليسيا ، وعادت بوهيميا إلى الظهور بعد إضافة سلوقاكيا ومورائيا فظهرت تحت اسم تشيكوسلوقاكيا . وأصبح الصربيون والكروانيون وسكان الحبل الأسود (مع معارضة ضعيفة من الأخيرين) دولة يوجوسلائية جديدة ، وابتدأ بينها وبين إيطاليا الفور نزاع عنيف على مرفأ فيوى ، الذي ادعى الإيطاليون ملكبته دون أي وجه حق .

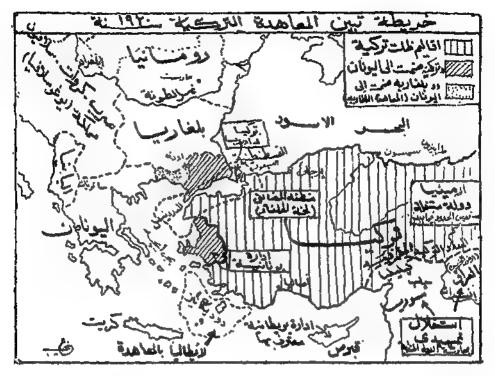
وبقيت بلغاريا على قيد الحياة بعد أن تنازلت لليونان عن الأراضى التى استولت عليها حديثاً في تراقياً. فأما بلاد اليونان فإنها بالرغم منخيانها لحملة غالبيولى ، ظلت



ردحاً من الزمان الطفل الذي يدلله الديبلوماسيون في ڤرساي . فأعطيت ارضاً مأخوذة من بلغاريا وسمح لها بأن تتقدم حتى تصبح على قيد خطوة من القسطنطينية ، وكان من نصيبها أيضاً قطعة كبيرة من الأرض حول مدينة أزمير . ومع هذا هإنها لم تسترد رودس وجزر الدوديكانيز ، بالرغم من أنها يونانية صيمة . إذ كانت هذه على أن تكون جزءاً من السلّب الإيطالى . وتحسك البريطانيون بقبرص .

وكانت المعاهدة التركية عسيرة الإنشاء مستحيلة التنفيذ. وقعت عليها حكومة تركية اسمية في القسطنطينية ، ولكن حكومة تركية حقيقية أخرى تكونت في أنقرة ورفضت التوقيع عليها . وغزا جيش روى منطقة أزمير ، وحلت معاهدة تركية هي معاهدة سيقر (أغسطس ١٩٢٠) على المعاهدة الأولى ، وجاءت في أعقاب ذلك تنقلات معقدة في الهيمنة على الأراضى . وأقيم في القسطنطينية رقابة مشركة للحلفاء (يناير في أنفرة علاقات سياسية مع البلاشفة في موسكو . وتواصل ازدياد عدوان اليونان ، في أنفرة علاقات سياسية مع البلاشفة في موسكو . وتواصل ازدياد عدوان اليونان ، يما كانوا يتلقونه في الحفاء من صنوف التشجيع المهم . وحاول اليونان في فترة تضخم يما كانوا يتلقونه في الحفاء من صنوف التشجيع المهم . وحاول اليونان في فترة تضخم من وراته إلى القضاء على الأتراك إلى الأبد . وتقدم هجومهم حتى اقترب من أنقرة من وراته إلى القضاء على الأتراك إلى الأبد . وتقدم هجومهم حتى اقترب من أنقرة أمام الأترك وقداعي . ومنذ أغسطس ١٩٢٧ ها عقبه لم يكن مهم إلا التقهقر والفرار أمام الأترك . وفر مع الجيوش حشود مذعورة من السكان اليونانين الأسيويين . ولم يبين لليونان شيء في آسيا . فأخليت أزمير قبل نهاية سبتمبر ، وغادر آسيا ما يقارب المليون عدًا من اللاجئين اليونان جنساً ولغة ولم يعودوا إليها بعد ذلك أبدا .

وحيوية الأثراك في هذا الدور رائعة جديرة بالإعجاب. فإن التركي لم يكن يقوم فحسب بدفع اليونان المعتدين عليه إلى الخلف ، بل كان جرياً على تقاليده التي ورسا أمد العصور يذبح الأرمن ، كما كان يدفع بالفرنسين خارج قيلقيا . ومن بين الآبات الكثيرة الدالة على اصطباغهم بالروح العصرية أن تخلص الأتراك من السلطان وأنشأوا حكومة جمهورية الطراز . وأظهروا الرغبة في القتال في منطقة المضايق واسترجعوا القسطنطينية . وواضح أنه كان من مصادر القوة لهم لا المضعف ، واسترجعوا القسطنطينية . وواضح أنه كان من مصادر القوة لهم لا المضعف ، انقطاعهم تمام الانقطاع عن النزاع الطويل الأمد غير المجدى مع العرب . وفصلت سوريا وأرض الجزيرة فصلا تاما عن الحكم التركي . وجعلت فلسطين ولاية منفضلة سوريا وأرض الجزيرة فصلا تاما عن الحكم التركي . وجعلت فلسطين ولاية منفضلة

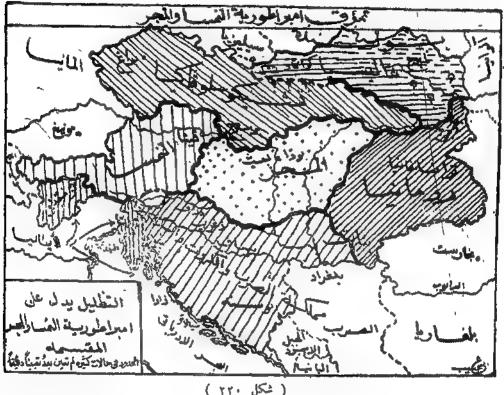


(شكل ٢١٩)

داخل الدائرة البريطانية ، وخصصت وطناً قومياً لليهود ، وأنهال إلى داخل الأرض الموعودة فيض من فقراء اليهود ما عتم أن وقع في كفاح خطار مع السكان العرب . وكان العرب قد تماسكوا ضد الأنواك وألهموا فكرة الوحدة القومية بفضل جهود عالم شاب من أكسفورد هو الكولونيل لورنس . فأما حلمه بقيام مملكة عربية تتخذ دمشق عاصمة لها فقد حطمه للفور تنافس الفرنسيان والإنجليز المسعور على مناطق الانتداب ، وانتهى الأمر بأن تقلصت مملكته العربية إلى مملكة الحجاز الصحراوية الجرداء ، وإلى إماميات وإمارات وسلطنات أخرى متنوعة ضعيفة . فلوحدث يوما ما المغربية مبسوط علمه كافحوا حتى بلغوا المدنية فلن يكون ذلك وظل الرعاية الغربية مبسوط علمه .

وإذا راعينا تلك السمة الوقنية التى تتسم بها النسويات التى أنجزها الديبلوماسيون ، راعنا على الفور وهن ديبلوماسيتهم وأدركنا القوى القاهرة الجبارة التى قضت على

مناوراتهم وترتيباتهم ويروعنا أكثر وأكثر ما باءت به المثل القومية العليا الجديدة الى أَدْخُلُهَا الرَّئِيسُ وَلَمْنَ فِي العَلَاقَاتِ الأُورِبِيَّةِ مَنْ قَلَةً تَأْثُمُر تَدُلُ عَلَى جَهُلُ الأُورِبِينَ



المطبق . فإن هذه المعاهدات تركت نقاطه الأربعة عشر كصف من المنازل الخربة المهدمة في قرية أصيبت بالقنابل . فذهب بعضها ذهابًا لا رجعة له ، وشوه البعض حتى لا يكاد الناس يمزونه . وضاعت أول محاولة لإنتاج قانون عالمي كما تضيع موجة من الضحك الصاخب في إحدى الحانات.

ومن أهم العقبات الدائمة التي أدت إلى فشل ذلك المشروع العظيم الهادف لوحدة العالم ــ ذلك المشروع المعبر عن الرغبة العالمية في إيجاد سلام منظم ــ ما أظهرته الامبر اطورية البريطانية من نفور تام وكراهية مطلقة للخضوع لأى تمزيق لنظامها وأى تكييف له ولا لأنية رقابة على تسليحها البحرى والجنوى . والامر اطورية البريطانية كما هو معلوم ، عصبة أمم قديمة سبقت ` الوجود عصبة الميثاق تلك وتكونت من أمم ودول محكومة ومناطق مستغلة . وثمة سبب يماثل هذا برجع إليه هذا الفشل هو عدم استعداد الذهن الأمريكي هو أيضاً لقبول أى تدخل في شأن سيادة الولايات المتحدة على العالم الجديد .

ولعل واحدة من هاتين الدولتين العظيمتين اللتين كانتا بالضرورة الدولتين المتسلطتين الزعيمتين في باريس ، لم تفكر تفكيراً صحيحاً فيا ينطوى عليه قيام عصبة للأم بالعلاقة إلى هذه التنظيات القديمة ، ولذا فإن معظم النظارة الأوربيين كانوا يوون أن تعضيدهما لهذا المشروع يخالطه جو عجيب من النفاق السافر . فكأنما كانتا تريدان الاحتفاظ والتمكين لسيادتهما وأمنتهما الحاصة الهائلة مع الحد في نفس الوقت من تقدم أى دولة أخرى إلى ميدان مثل هاته التوسعات والاستلحاقات والمحالفات تقدماً ربما ترتب عليه قيام استعار آخر منافس مناهض . وكان امتناعهما عن إقامة مثال من الثقة الدولية قاتلا لكل احيال في قيام الثقة الدولية في الدولية على طلب اليابان في باريس . وأنكي من هذا وأتعس ، رفض الأمريكيين الموافقة على طلب اليابان في باريس . وأنكي من هذا وأتعس ، رفض الأمريكيين الموافقة على طلب اليابان الاعتراف بالتساوى العنصرى بين الأجناس .

زد على ذلك أنه كان يخم على وزارات الخارجية البريطانية والفرنسية والإيطالية جو خانق من الخطط التقليدية القائمة على حدوان لا يتسق البنة مع الفكرات الجديدة . وكانت وجهة نظر الفرنسين والإيطالين متخلفة أشواطاً كثيرة عن وجهة نظر الإنجليز والأمريكين أنفسهم من حيث حدة الأنانية القومية . وغنى عن البيان أن أية عصبة أثم يراد أن تكون لها أية قيمة للإنسانية لابد لها من أن تقتلع الاستعار من أساسه وتحل عله ، فهى إما أن تكون دولة شاملة عليا أى إمراطورية عالمية تحرية مكونة من دول (ولايات) متحدة ، تشترك بعضها مع بعض أو يتولى الوصاية (الله بعضها على البعض والا فهى لاشيء . على أنه قل بين الرجال الذين حضروا مؤتمر باريس من كان فهى لاشيء . على أنه قل بين الرجال الذين حضروا مؤتمر باريس من كان

⁽١) إن هذا الرأى موضع ثقد كثير أثير على المؤلف ، إذ بأى حق وعلى أى أساس وبأية مؤهلات تنولى إحدى الدول الوصاية على أخرى ؟ فكأننا هدمنا الاستهار غير الشرعى ليرثه بهذا الرأى استهار شرعى . (المترجم)

له من قوة العقلية ما يهيئ له أن يعبر عن هذه العاقبة الواضحة المنعثة عن مشروع إنشاء العصبة .

ذلك بأنهم أرادوا أن يكونوا مقيدين وأحراراً في نفس الوقت ؛ وأن بضمنوا السلام إلى الأبد على أن يحتفظوا بأسلحهم في أيدهم . وبناء على هذا فإن المشروجات القديمة التي كانت تستهدف ضم الأراضي في أيام الدول العظمي قد سسترت في عجلة بستار رقيق من الحداع بأن وصفت بأنها من التصرفات التي يقترحها ذلك الطفل العليل المولود في ٢٨ أبريل . ومن ثم صورت هذه العصبة الحديثة الميلاد الحامدة الأنفاس صورة من يوزع - بكل ما يبديه بابا مأسور من دلائل السخاء الأهوج - والانتدابات ، (Mandates) على الدول الاستعارية القديمة ، إلى حد أنها لوكانت تمثلت هيئة هرقل الفتي الجبار الذي كنا نود لو انخلت صورته حقاً - لمات في مهاده اختناقاً . وتقرر أن تعطى بربطانيا « انتدابات » عظيمة في أرض الجزيرة وأفريقيا الشرقية ، وأن تعطى فرنسا مثل ذلك في سوريا . وأن تعطى إيطاليا كل ما بيدها في غرب مصر وجنوبها الشرق بعد أن يضم بعضه إلى بعض ليكون منطقة انتداب .

وواضح أنه لو كان ذلك العليل الضعيف الذي يمرضه سكرتيره في مهده بيجنيف ، آملا أن يدب فيه شيء يشبه دبيب الحياة ، قد قضى نحبه للفور بسبب ضمعف الطفولة الذي يصيب كل موسسة تولد بلاحاسة ويقضى عليا ، لأصبحت كل هذه الانتدابات أراضي مضمومة لتلك الدول ضها صريحاً . زد على ذلك أن جميع الدول أخذت تتدافع في الموثمر بالظفر والناب طلبا لحدود ذات قيمة المشراتيجية » - وهذا لعمري أقبح مظهر ظهروا به فلماذا تربد دولة من الدول الحصول على حدود استراتيجية ما لم تكن تضمر التفكير في الحرب؟ وعلى أساس هذه الحجة أصرت إيطاليا مثلا ، على ضرورة ضم منطقة التيرول الجنوبية وإن وجد بها سكان من الألمان الخاضعين للرعرية الإيطالية وعلى ضم دالماسيا وهي إقليم سكانه من اليوجسلافيين .

والأنكى من هذه التسويات الجغرافية السيئة والأشد خطورة على مر الزمان فرضهم على ألمانيا مبالغ و للتعويضات و تتجاوز كل قدراتها على اللفع ، مخالفين بذلك أسس التفام الصريحة التي سلمت بمقتضاها . فاضطرت إلى موقف من العبودية الاقتصادية وأبهظ كاهلها بديون تعويضية هائلة دورية مستحيلة التنفيذ ، ونزع منها السلاح وهو نقص كان يجعلها . معرضة فعلياً لأى اعتداء من ناحية دائنيها ولكن لم تستن تماما الإمكانيات الكاملة لهذه التسوية إلا بعد مرور سنة أو ما يزيد على السنة . ثم عجزت ألمانيا عن الدفع ، وفي يناير ١٩٢٣ تقدم الفرنسيون بجيوشهم إلى وادى الرور ، وظلوا فيه حتى أغسطس ١٩٢٥ ، وهم يستغلون المناجم بقدر ما يستطيعون ، ويديرون السكك الحديدية ، وينكأون (١) قروح الألمان المؤلمة بمثات لامحيص منها من صغار المظالم وأعمال العنف .

ولسنا مداخلين هنا في أى تفصيل هن عواقب أخرى معينة لما طبعت عليه معاهدة قرساى من العجلة والاطمئنان في التصرف – وكيف خضع الرئيس ولسن الليابانين وأقر حلولم محل الألمان في كياوتشاو ، وهي من خالص أملاك العبين . وكيف أن مدينة دانزج الألمانية الصميمة تقريباً ، قد ألحقت ببولندة إلحاقاً عملياً إن لم يكن قانونياً . وكيف تنازعت الدول حول إدهاء الاستماريين الإيطاليين ، ذلك الادعاء الذي قوته هذه التصرفات – في الاستبلاء على مرفأ فيومي اليوغسلافي وحرمانهم اليوغسلافي من ثغر جيد على البحر الادريائي . واحتل المدينة متطوعة من الإيطاليان بقيادة الشاعر دانو نزيو ، وأقاموا فها جمهورية من العصاة ، من ألحقت بإيطاليا نهائياً في يناير ١٩٢١ .

كذلك أن نتجاوز حد النظرة السريعة إلى الترتيبات والتبريرات المعقدة التي وضعت وادى السار في يد الفرنسيين ، وهو أرض ألمانية بحتة - ولا عن الاعتداء الصارخ على حتى و تقرير المصير، الذي منع النمسا الألمانية - منعاً فعلياً من الاتحاد مع سائر ألمانيا مع أن اتحادها وإياها أمر طبيعي صائب لاغبار عليه .

 ⁽١) ورد بمعم الوسيط ما نصه : و نكأ القرحة نكثاً قشرها قبل أن تبرأ فنديت ٤ .
 (المترج)

البلشفية في الروسيا

سبق أن لحظنا ثورتى الروسيا فى ١٩٦٧ . وقد آن لنا أن نعالج بإسهاب آو فى ذلك التغير الحارق الذى غير اتجاه الأمور فى الروسيا فى ذلك الزمان . ولم يكن خلك التغير إلا أبيار المدنية الغربية العصرية فى الروسيا . ولكن ما استولى على مقاليد الشعب الروسي كان أمراً يتجاوز كثيراً حدود تجربة اشتراكية . وكان له مظهر خداع ، يظهره كأنما هو امتحان قاطع ونهائى تبتلى به فكرة الاشتراكية الغربية بلاء عمليا . والواقع أن التجربة أظهرت بالفعل نفس نقائص النظرية الاشتراكية . كذلك أثبت صحة المبدأ القائل بأن أية ثورة لاتستطيع أن تخلق من المعدم شيئاً لم يناقش ولم تدبر خططه ، ولم يفكر الناس فيه مقدماً ولم يفسروه على أوفى وجه قبل شروعهم فيه وإلا لم يزد ما تعمله أية ثورة عن مجرد تحطيم حكومة أو أسرة مالكة أو منظمة من المنظمات — حسها يكون الحال . فالثورة إن هي إلا عملية طرد واستبعاد للنفايات وليست عملية خلق .

وقد أدلينا إليك ببيان عن نمو الفكرات الاشتراكية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وأوضحنا الدور الكبير الذي لعتبه في هذا التطور فكرات وحرب العلمقات التي ارتآها كارل ماركس . وكانت هذه الفكرات تداهن الكبرياء وتثير الأطاع لدى الأشخاص المتنمرين الأشد همة في كل مناطق العالم الصناعية . وأصبحت الماركسية في كل مكان عقيدة العامل الصناعي القلق . ولكن لما لم يكن في المبدأ الاشتراكي ما يروق الفلاح ، الذي يملك أو يريد أن يملك الأرض إلتي يزدرع ، ولما كانت المجتمعات الكبيرة في مدن أوربا الغربية وأمريكا تتكون من الناحية العقلية من أفراد من الطبقة الوسطى أكثر منهم من الطبقة الصناعية ، فإنه سرعان ما أدركت الماركسية أن الثورة الاجتماعية والاقتصادية التي يدبرون لم تكن لتستطيع أن تنتظر الأساليب البرلمانية وأصوات الأغلبيات ، فلا بد لها قبل كل شي من أن تكون ثمرة عمل أقلية ، أقلية من عمال الصناعة ، الذين يقبضون على معادة من أن تكون ثمرة عمل أقلية ، أقلية من عمال الصناعة ، الذين يقبضون على سعادة زمام السلطة ، ويؤسسون نُظما شبوعية ، وبذا يدربون بقية العالم على سعادة

العصر الذهبي (١) ، التي تعقب ذلك . وهذا الدور من حكم الأقلية المرجو منه أن ينتج العصر الذهبي المنتظر كان يسمى في مصطلح الماركسين باسم « دكتاتورية العروليتارية » .

فإن رجالا من المتعصبين كانوا فى كل مكان ، وبنشاط الداعية المتعصب ، يفنون حياتهم وطاقاتهم فى بث تلك الفكرة لا يبتغون على ذلك أجراً . وربما كان هناك فى العشرات الأولى من سنى القرن العشرين ما يقارب الملبون عداً من الرجال المقتنعين بأنه إن تم الأمر لهذه والدكتاتورية البروليتارية ، التى يفكرون فيها تفكيراً مبهماً غير واضح ، لأعقب ذلك نظاماً اجماعياً جديداً أحسن من سابقه يكاد ظهوره يتم تلقائياً بطريقة أوتومائيكية . وقد سبق أن أظهرنا لك أثناء مناقشتنا للاشتراكية كم كانت هذه الفكرة خيالية خداعه .

ولم يكن الدى الماركسين أى خطط واضحة مستقرة لا عن طريقة دام أجر العامل ولا عن المناقشة العلنية ولا عن كيفية الإدارة الاقتصادية – يوم يتم تحطيم والرأسمالية ، وقد دبر نظام الرأسمالية الفردية من الناحية الأخرى حلولا لكل هذه الأشياء على طريقة كانت ولا شك غير عادلة وتقوم على التجارب الشخصية دون الأسس العلمية ، ولكنها كانت مع هذا طريقة عملية . وذلك على حين لم ينتج الماركسيون أبداً أى بديل لهذه الطريقة ، التى تدار بها تلك المسائل ، ولم يبد عليهم أنهم أدركوا أن الناس بحاجة إلى طريقة جديدة بدل الأولى . والواقع أنهم قالوا العال : وسلمونا السلطة ، يتم كل شيء ، وغلب اليأس على الروسيا فاستسلمت إلى و دكناتوية البروليتارية ، بعد أن عليها ويدد مواردها وتخلى عنها الحلفاء الذين خدمتهم بغاية الإخلاص .

وقد تفاوت عدد أعضاء الحزب الشيوعي في الروسيا ؛ فإنه لم يدع حتى زمن قريب جداً أن له أكثر من ٠٠؛ ٨٠٠ تصير ، بل لقد كانوا في الزمان

 ⁽١) العصر الذهبي : يشير المؤلف إلى الألف السنه المذكورة في بعض أسفار الكتاب المقدس التي يعتقد أصحاب مذهب الألف عام السعيدة أن المسيح سوف يحكم الأرض فيها ومعه رسله .
 (المترجم)

الذي نتكلم الآن عنه يقلون فيا يرجع عن ربع مليون . ولكن هذه الهيئة الصغيرة نسبيًا ، استطاعت بما لها من عزم وإصرار وإخلاص ، ولأنه لم يكن هناك شيء غيرها يتصف بالعزم والإخلاص أو يتسم بالقدر الكافى من الاقتدار فى كل تلك البلاد غير المنتظمة ويستطيع أن يقف فى وجهها ، استطاعت أن ترسى أسسها فى بطرسبرج وموسكو ومعظم مدن الروسيا ، وأن تضم إلى صفها نوتية الأسطول (الذين قتلوا معظم ضباطهم واحتلوا قلاع سفاستبول وكرونستاد) ، وأن تصبح الحاكم الفعلى للروسيا .

ونشأ ثمة دور من حكم الإرهاب . إذ يدعى البلاشفة أنه لم تكن لم مندوحة من أن يحكموا البلاد بادئ بده بالرعب والإرهاب . إذ كان انحلال النظام الاجماعي في البلاد بالفا منهاه . فإن الفلاحين قد ثاروا في مناطق كبرة ضد أصحاب الأراضي، وقام بعض الناس بتقسم المزارع الكبرة . واطرد حرق القصور على شاكلة ما حدث في الثورة الفرنسية الأولى . واقترف الكثير من الفظائم اليشعة . واستولى الفلاحون على الأراضي وقسموها بين أنفسهم ، وذلك لجهلهم التام بتعاليم كارل ماركس في هذا الصدد . وفي نفس الوقت أخذ مثات الألوف من الجنود يضربون في الأرض عائدين من منطقة الحرب إلى قراهم وأسلحتهم في أيدهم . وكانت حكومة القبصر قلد جندت عددا بلغ الثمانية الملاين – وهو عدد يفوق بكثير عدد من كانت تستطيع أن تسلحه من الرجال أو تستخدمه في جهة القتال – وكانت اقتلعتهم من قراهم اقتلاع تسلحه من الرجال أو تستخدمه في جهة القتال – وكانت اقتلعتهم من قراهم اقتلاع على حساب المناطق الريفية . وقد غصت موسكو في أكتوبر ونوفير من ١٩١٧ بمثل على حساب المناطق الريفية . وقد غصت موسكو في أكتوبر ونوفير من ١٩١٧ بمثل على الأعراض فيها فلا يعترض أحد سديلهم . وتلاشي القانون والنظام وأداة الحكم من الوجود . وكان الرجال المسروقون والمقتولون يرقدون لقيمهملا في الشوارع أياماً متنالية .

تلك هي الحال يوم تقلد البلاشفة مقاليد الحكم وهو أمر لا بد لنا من تذكره . ولم يكن هذا الحال ناشئاً عن اغتصابهم للسلطان . ولقد قضوا زماناً يحاولون إعادة النظام . وكان كل من يضبط حاملا سلاحا يقتل رمياً بالرصاص . فقبض على آلاف

وأعدموا ، ومن المشكوك فيه أنه كان في الإمكان إعادة أي قدر من النظام في موسكو دون الالتجاء إلى مثل هذا الإجراء . وقد بلغ من تفكك عرى الروسيا القيصرية أنه تقوض صرح النظام العام في البلاد وأن فقد الناس ما ألفوه في ظله من عادات . «كانوا مضطرين أن يقتلوا الناس بالرصاص » ، وذلك ما قاله الرئيس مازاريك مرة لكاتب هذا الكتاب ثم أردف ذلك بقوله : «ثم تواصل القتل بقساوة وبغير تعقل » .

وفى ربيع ١٩١٨ كانت قبضة البلاشفة تمكنت من المدن الكبرى ومن السكك الحديدية والسفن فى معظم الروسيا . وتكونت جمعية تأسيسية ولكنها ما لمبثت أن حُلت وشقت أعضاؤها فى يناير ، ذلك أن البلاشفة لم يستطيعوا العمل معها . إذ كان فرط التفرق – فيها زعموا – رائدها فى مرامبها ومشوراتها بحيث يعوق كل عمل قوى . وفى مارس أبرموا مع ألمانيا. فى برست ليتوقسك صلحاً اتسم بالخضوع والذلة .

وكان على رأس الديكتاتورية البلشفية التى نصبت نفسها لحكم الروسيا آنداك لينين، وهو رجل عالى الهمة موفور النشاط متوقد الذكاء قضى معظم حياته منفياً في لندن وجنيف، مشتغلا بالنظريات السياسية وبالسياسة الغامضة الحفية التنظيات الماركسية الروسية. كان رجلا ثورياً شريفاً من أصحاب المبادئ النظرية البحتة، يعيش عيش البساطة ولا يكل مهما عمل ، ولم تكن لديه أى خبرة بالإدارة العملية للشئون. وكان بشترك معه في العمل تروتسكى وهو شخص مبعد عن نيويورك ، قدر له أن يظهر للفور اقتداراً عسكرياً عملياً جسيا . وكان راديك ولوناخارسكى وزينوڤييڤ وزورين وكامينييڤ وكراسين بين الأعضاء المبرزين في الفئة القليلة التي العبت نفسها آنذاك لإعادة تنظم الروسيا وإنهاضها من الكبوة الكارثة التي أوقعتها الحرب فها حتى وفقوا في النهاية إلى إعادة وحدثها الاجتماعية .

وفى بادئ الأمر كانت أطاع زعماء البلاشفة تتجاوز الروسيا كثيراً . إذ ليس العمل في الروسيا وحدها على درجة من الضخامة تستغرق نشاطهم . فأعلنوا الثورة الاجتاعية في أرجاء العالم قاطبة ، وأهابوا بالعال في كل مكان أن يتحدوا ، وأن

يقلبوا نظام الرأسمائية ، وبذلك يجلبون عصر الماركسية الدهبي ، الذى لا شكل منتظماً له ولا خطة مرسومة . وطبيعي أن يقذف بهم هذا الإجراء إلى معمعان الصراع مع كل الحكومات الفائمة . فأضاف إلى عبء إقرارهم الشيوعية في الروسيا عبثاً جديداً هو المحافظة عليها ضد سلسلة من الهجات المضادة التي تعرضت لها من جراء تشهيرها ذاك بالحكومات الأجنبية .

ولم تحض سنتان أو ثلاثة حتى تجلى فشل الروسيين في حاولوا أن يقيموا من شيوعية عامرة مشرة ، كما تجلى على أيديهم فى تلك السنين عقم المبادى، الماركسية وتجردها من كل خلق وابتكار عقماً تاماً بالغاً . لم يستطيعوا أن ينهضوا الروسيا على قدمها ثانية . ولقد صجزوا تمام العجز عن أن يعبلوا دولاب الصناعة الروسية المحطمة سيرته من اللوران ، وكان معظم زعائهم من الطراز الذي يحسن فقط أن يكتب ويتكلم ، دون أن تكون له أية خبرة في إدارة الأعمال وتنظيمها .

ولقد حلهم كرههم الأعمى الطبقات الأخرى في مبتدأ حكهم أن يقضوا على معظم من كان باقياً في الروسيا من أفراد طبقة مديرى المصانع والحبراء الفنيين ورؤساء العال ومن إليهم ، ولم يكن لدمهم أية معوفة منظمة ، كما دفعهم غرورهم كأصحاب المبادىء الماركسية النظرية البحتة ، إلى احتقار كل معرفة يجهلونها : - عن سيكولوچية العامل في عمله . بل لم يكن بين أيديهم ثلك المعرفة العملية التي تهيأت الرأسمالي القديم اللهي يحتقرون . وكل ما كانوا يعرفونه في ذلك الشأن هو سيكولوچية العامل أثناء الاجتماعات الحافلة . فحاولوا أن يسيروا بالروسيا بطريق الحث والتحضيض ، ولكن لم يستجب لهم لا العامل عندما عاد إلى مصنعه ولا الفلاح يوم رجع إلى محرائه . وأخذ النقل والإنتاج الميكانيكي في المدن بهيطان باطراد حتى تزعزعت أركانهما وهوى وأخذ النقل والإنتاج الميكانيكي في المدن بهيطان باطراد حتى تزعزعت أركانهما وهوى بنيانهما ، وشرع الفلاح ينتج لنفسه ما يكفيه ويخني ما زاد عن حاجته .

وعند ما زار كانب هذه السطور بطرسبرج فى ١٩٢٠ شهد منظراً مروعا من الدمار . كانت تلك هى أول مرة تهار فيها مدينة عصرية على هذا النحو . فإن شيئاً واحداً لم تمتد إليه يد الإصلاح فى مدى أربع سنوات . وكانت هناك حفر عظيمة فى الشوارع التى سقط سطحها فى الحجارى المهدمة من دونه ؛ وكانت أعمدة المصابيح

ملقاة حيث مقطت ؛ ولم تكن في المدينة دكانة واحدة مفتوحة ؛ وكان معظمها مقفلا بألواح خشبية تظهر نوافذها (فتريناتها) المكسورة . وكان المارة في الطريق على قلتهم يرتدون ثياباً رثة غير متجانسة ، إذ لم تكن هناك في الروسيا ثياب جديدة ولا أحذية جديدة . وكان كثير من الناس يرتدون لفائف من الليف حول أقدامهم . وكان الناس والمدينة وكل شيء رثا بالياً . بل إن (القوميسيرين) (١) البلاشفة أنفسهم كانوا يسيرون بذقون خشئة إذ لم تكن المواسى تصنع في البلاد ولا تستورد من الخارج . وكانت نسبة الوفيات هائلة ، وكان عدد سكان هذه المدينة التي جرى عليها القدر المحتوم يتناقص بمثات الآلاف كل عام .

وهناك أسباب كثيرة تدعو إلى الاعتقاد بأنه حتى فى ١٩١٨ ، ١٩١٩ كانت الدكتانورية البلشفية تدرك أخطاء طرائقها وأن تشرع فى تكييف نفسها طوعاً للعوامل غير المنتظرة فى الموقف الذى وجدت فيه نفسها . أجل إنهم كانوا ضيقى العطن محدودى الأفق مستمسكين بحرفية المبادىء ، على أن الكثيرين منهم كانوا ورجالا ذوى خيال فسيح ومرونة ذهنية ، ولا سبيل إلى المشاحة فى أنهم كانوا فى كل ما أنوا من شر ، شرفاء فى مقاصدهم متوفرين بإخلاص على منهجهم . وكان جلياً أنهم يقومون بتجربة ذات قيمة عظيمة للانسانية ، وكان ينبغى أن يتركوا وشأنهم . فلو حدث ذلك لاضطروا أن يصلوا ما بين نظامهم وبين تقاليد النظام النقلى البطيئة التطور ، ولوصلوا إلى التعامل مع الروح الفردية المستعصى علاجها روح الفلاح الزارع . ولكنهم لم يتركوا وأنفسهم . لأنهم أثاروا منذ مبتدأ حياتهم معارضة جنونية من ناحية أو ربا الفربية وأمريكا . ولم يبد أحد نحو المغامرين الماركسيين شيئا من ذلك التسمح الذى لقيته حكومة القيصر التى تعادلم تماما فى عدم الكفاية وجر الكوارث على البلاد . فقاطعتهم الدول مقاطعة شاملة ، وكانت الحكومات الرجعية فى فرنسا وبريطانيا العظمى تمول وتساعد كل مغامر داخل الروسيا وخارجها وتشجعه على مهاجمتهم .

 ⁽١) القوريرين : هم مندورو الشعب الروسى الذين يتولون الوظائف في الحكومة السوڤيتية .
 (المترجم)

وشرعت حملة صحفية تبلبل أفكار الجماهير بسلسلة من الترهات الحيالية السخيفة والآراء المرجفة عن البلاشفة . نعم إنهم كانوا رجالا عديمي الكفاية مستمسكين بحرفية المبادئ وناحيها النظرية البحتة ولهم نظرية اجتماعية واقتصادية ناقصة سبئة ، وم بخوضون في الأحوال وسط بلاد مهدمة . وكان بين أتباعهم رجال أدنى إلى الوحشية وسوء السريرة . وإن أية حكومة في الروسيا ما كانت لتجد في دارتها للأعمال الحكومية إلا مادة هزيلة وتحس في نفسها ضعف يدها عن الهيمنة عليها . ولكن الدعاية المضادة البلشفية كانت تمثل مغامري موسكوفي صورة شيء بشع لا ضريب له في تاريخ المهالم ، وتلوح بأن مجرد إزالة كابوسهم يكني لإعادة السعادة والرجاء إلى الروسيا . وكان الدعاة يقومون بين الناس ضد البلاشفة بما يشبه الحملة الصليبية ، ولكن تكون المصلحهم رد فعل مشرق في أذهان المفكرين المتحررين الذين ربما كانوا لولا هذا الحال يظلون أميل إلى جانب التروي في الحكم .

ونتيجة لهذه العداوة المنظمة ، اضطر البلاشفة فى الروسيا منذ البداية نفسها إلى التزام وضع دفاعى يحسهم من العدوان الأجني . وعادت عليهم العداوة الملحاحة التي كانت تبديها نحوهم الحكومات الغربية بأحظم القوة فى داخل الروسيا . وبالرغم من نظريات الماركسيين الدولية ، فإن الحكومة البلشفية فى موسكو أصبحت حكومة وطنية تدفع عن نفسها عدوان الأجانب ، وتدافع بوجه خاص عن الفلاحين ضد عودة ملاك الأراضى وجباة الديون . كان ذلك موقفاً فيه كثير من التناقض والشذوذ . فقد أنتجت الشيوعية فى الروسيا ملاكاً من الفلاحين . وكان تروتسكى بطبعه رجلا مسالماً ، ولكنه تمرس بفن الحرب حتى أصبح حير الا عظيا بالرغم منه .

على أن هذه الروح العسكرية وهذه الوطنية التي فرضت هكذا قسراً على حكومة لينن، وهذا الانتباه الكلى المركز على التخوم، كان بحول دون إعادة تكوين البوليس والقوى النظامية التأديبية في الداخل إعادة فعالة، حتى ولو كان البلاشفة قادرين على مثل هذ الإعادة. والواقع أن الحكومة الجديدة عاودت عمليا استخدام البوليس القيصرى القديم بكل ما فيه من جور وطرائق محاكم التغتيش. وتقلدت هيئة قبيحة

غتلة من البوليس السرى زمام سلطات تنفيذية عرقية ، واتخلت لنفسها نقالبد من سفك الدماء ثم أخذت تكافح الجواسيس الأجانب الواردين من الحارج وتناهض الإغراء والخوف والخيانة في الداخل ، وتشبع تبعا لذلك تلهفها القبيح إلى إنزال العقوبة بالناس . وفي يوليو ١٩١٨ أعدم القبصر وعائلته بأمر من موظف صغير حين علم بظهور بوادر تدل على أن قوة رجعية من الجنود يحتمل أن تنقذهم . وفي يناير ١٩١٩ أعدمت حكمدارية البوليس أربعة من المغراندوقين هم أعمام القبصر بمدينة بطرسبرج في تحدير صريح لما قرره لينين من إرجاء التنفيذ .

وظل الشعب الروسى زهاء خس سنوات قضاها فى ظلال هذا الحكم الغريب الدى ليس له من مثيل، وهو محتفظ بهاسكه مقاوم كل محاولة لنمزيق وحدته وإخضاعه. وفى أغسطس ١٩١٨ نزلت إلى البر فى أركانجل قوات بريطانية وفرنسية؛ ثم سحبت فى سبتمبر ١٩١٩. وبذل اليابانيون جهودا جبارة منذ ١٩١٨ فى تلاها ليقروا أنفسهم فى سيبريا الشرقية. وفى ١٩١٩ لم يكن الروس يحاربون البريطانيون فقط فى أركانچل واليابانيين فى سيبريا، بل كانت ضدهم أيضاً قوة رجعية فى سيبريا بقيادة الأمير ال كولنشاك ، كما كان جاجهم كذلك الرومانيون فى الجنوب ومعهم عندون فرنسيون ويونان ، ويقاتلهم فى بلاد القرم الحفرال دينيكين ومعه جبش من الرجعيين الروس مزود بكيات هائلة من المهات الحربية والذخائر ما بين بريطانية وفرنسية ويعاونه الأسطول الفرنسى .

وفى يوليه كان كولتشاك ودينيكين قد اتحدا وأصبح فى يديهما جنوب الروسيا الشرق من أودسا إلى يوفا ، وكذلك أخذ جيش أوستونى بقيادة الجنرال يودنيتش بتقدم نحو بطرسرج . وكأنما لم تكن خاتمة البلشفيك إلا رهن زمان بعد بالأسابيع أو الأيام . ومع هذا فإنه ما كاد الحول ينهى حتى كان جيش يودنيتش قد شُنت ونسى أمره ، وحتى أخذ كولتشاك بكل أسباب التراجع إلى سيريا وتقهقر دينيكين إلى البحر الأمود . وحملت السفن البريطانية والفرنسية دينيكين والبقية الباقية من جنوده في ميتكر ١٩٢٠ ، وقبض على كولتشاك وأعدم بالرصاص في سيريا .

ولكن أعداء الروسيا لم يكونوا ليعطوها أية مهلة ولاراحة . فإن البولندين قاموا بتحريض من الفرنسين بحملة جديدة عليهم في أبربل ١٩٢٠ ، وواصل مغير رجعي جديد هو الحنرال رانجل أعمال دينيكين في غزو بلاده وإهلاك الحرث والفسل فيها . ولم يلبث البولنديون بعد أن دفعوا إلى الخلف حيى وارسو أن استطاعوا أن ينتعشوا بمساعدة الفرنسيين وامدادهم وتقدموا ظافرين في الأراضي الروسية ، وعقدت في ريفا في أكتوبر ١٩٢٠ معاهدة يغلب فيها صالح بولندة انسعت بها رقعتها . ولتي رانجل بعد أن دمر الطعام والمحاصيل فوق مساحات شاسعة عظيمة نفس المصير الذي لقيه دينيكين ، ثم تقاعد في نهاية السنة وأخذ يعيش على حساب مكارم الدول الغربية . وفي مارس ١٩٢١ اضبطرت الحكومة البلشفية ـ واستطاعت بالفعل – أن تخمد عصيانا قام به البحارة في كرونستاد ، وهم البلشفية البرايتوزي ه(١) وركنها الذي كانت تعتمد عليه .

وأخذت المداوة البلاشفة في أوريا الغربية وأمريكا تُخلى مكانها في بطء طيلة المعربات الفكر في الموقف يغلب عليه طابع الحكمة والتبصر. وكانت هناك صعوبات كثيرة تعترض سبيل الاعتراف بالحكومة البلشفية كاملا تاماً ، وهي صعوبات ترجع في الكثير من شأنها إلى عدم التعقل الذي كان يسود الجانب البلشني أيضاً ، ولكن حدث عند نهاية ١٩٢٠ أن نوعا رديئاً من السلم الغليظ غير الأدبي ساد العلاقات بين الروسيا ومعظم بقية العالم ، وأصبح في إمكان الباحثين الأمريكيين والبريطانيين والفرنسيين أن يدخلوا تلك البلاد ويخرجوا منها . وفي مستهل ١٩٢١ عقدت كل من إنجلترة وإيطاليا اتفاقيات تجارية مع الروسيا . وأعاد مندوبون للروسيا جاءرا في هيئة «الوفود التجارية» فتح باب التواصل بين ذلك القطر المنبوذ وبين بقية العالم .

ولكن كارثة من أعظم الكوارث وأشدها هولاً كانت تهبأ آنذاك للانقضاض

⁽۱) الحرس البرأيتورى (Pretorian) : حرس خاص أنشأه أوضطوس قيصر لنفسه وتبهه في الاحتفاظ به أياطرة الرومان . (المترجم)

على هذا الشعب الروسى . فقد حل ببلاده فى ١٩٢١ قحط شديد لم يألف الناس له مثيلا . ولابد أن القارئ اللبيب لهذا الكتاب قد لاحظ فيا سلف مقدار تقلب المناخ فى المنبسطات الأرضية العظيمة المحيطة ببحر قزوين . فهذه الأراضى إنما هى بطبيعتها أرض قوم رُحل ؛ ومن المشكوك فيه أنها ستكون يوماً مستقرا مطمئناً لعدد كبير من السكان الزراعيين . والآن وقد حل القحط والجفاف فإن المحاصيل تلفت تلفاً تاماً فى مساحات هائلة من الجنوب الشرقى للروسيا ، وعقب ذلك ظهور أفظع مجاعة عرفها العالم فى سجل التاريخ المدون بأكمله . فهلك الملايين من الناس ، وهناك كانت جماهير غفيرة من الناس وقرى بأكمله . فهلك الملايين تجلس فى بيوتها تنتظر الهلاك ، ثم تهلك فعلا . وطعم الكثيرون الدريس والثرى وأقداراً ليس إلى وصفها من سبيل . وأخذ الناس ينبشون القبور عن المونى ويأكلون لحوم البشر . وخلت مناطق عظيمة من مكانها .

ومع هسذا كان هناك قمع فائض يحرق لا في أمريكا وحدها بل حتى في أوكرانيا ورومانيا وانجر . ولكن المواصلات في ثلث البلاد كانت متحطمة تمطماً لامطمع في إصلاحه بسبب حملات كوئتشاك ودينيكين ورانجل ، ولم يكن في يد الحكومة البلشفية من الموارد ولاالكفاية ما تستطيع به أن تواجه هذه الكارئة المهولة .

وتألفت بلحنة أمريكية ولجنة أخرى بقيادة الدكتور نانسن المكتشف القطبي العظيم ونظمتا وسائل المعونة بمساعدة الحكومة وموافقتها ، وأدركت الأمريكيين نوبة لابأس بها من الأريحية فأخذت مونهم تصب فى البلاد . ولكن الحكومات الأوربية الكبرى استجابت مستكرهة أو لم تستجب مطلقا لاستغاثات الموقف المتطرفة . فأما الحكومة البريطانية التى انفقت من قبل مئة مليون من الجنبهات فى عمليات عسكرية غير مشروعة ضد حليفتها السابقة ، فإنها لطخت اسم بريطانيا الناصع بالعار برفضها أن تشترك فى أعمال المساعدة . وبذا يكون الدرس - درس الماسك الإنساني الذي كان يجب أن تلقنه الحرب العظمى للبشرية - درساً بلغ حتى ذلك الحين منهى الضالة والصغر .

وعلى حين كانت الجاهير التعسة المتكودة "بلك في الروسيا ، كان القبيع يضيع بددا في أجرانه على بعد بضعة مثات من الأميال ، وكانت السفن في أوربا الغربية ملازمة للمرافئ لقلة المواد المشحونة ، وكانت مصانع الصلب حيث كان في الإمكان صنع القضبان والقاطرات - تقف جامدة لاحراك بها ، وكان الملايين من العال عاطلين من الأعمال ، لأن أصحاب الأعمال قالوا « إنه ليس لهم شيء يعملونه » . وذلك بينها أصبحت مثات من الأميال المربعة في الجنوب الشرق للروسيا صحراء" بلقعاً من الحقول المهجورة ومن بلدان الموتى وقراهم .

ومع ذلك فإن الحكومة البلشفية استمرت قائمة وسط هذا الحراب الماحق. وأخذت الضرورة الداهية إلى الاعتراف بهذا النوع الجديد الغريب من الدولة، والتعامل معه مهما خالفت طبيعها طبيعهم — تبدو بوادرها في الذهن الأوربي. ولما يزل العالم الغربي إلى يومنا هذا يصطرع وتلك الضرورة. ومسالة إيجاد الترابط بين نظام رأسمالي وبين نظام شيوعي يضمهما كوكب واحد أخذت فواصل المسافات الكبيرة تنعدم منه — لانزال مسألة غير محلولة حتى وقت كتابة هذه السطور.

وأخذت الدعاية البلشفية وقد أدارت وجهها عن الغرب المعادى لها ، تبدى قدراً متزايداً من الرغبة في إرضاء الجهاهير المدقعة في الهند والصين . وكان البلاشفة على الدوام ناحيتان ، ناحية المتجهين نحو الغرب وهي تجنح إلى استخدام العلم والماكينات والتنظيم الإنتاجي الكبير ، ويمثلها لينين وتروتسكي ، وناحية المتجهين صوب الشرق ، ولم ميول عسكرية وبدائية وتصوفية ، وعلى رأس هولاء زينوفييث . وكانت سياسة الحكومتين البريطانية والفرنسية تبعث الروسيا على توجيه دفة اتجاهها نحو الشرق على الدوام . ويلوح أن العالم الإسلامي قد أخذ متأثراً بمثال الروسيا يسترد تطوره الذي طال الأمد على اعتقاله . وأخذ موقف الحكم البلشي حيال مدنيات الأطلسي ، التي سادت العالم تيفاً وقرنين ونصفا من الزمان يشابه بالتبديج موقف الإسلام . فإن كلا مهما اتخذ موقف التشدد الصلب يشابه بالتبديج موقف الإسلام . فإن كلا مهما اتخذ موقف التشدد الصلب يشابه بالتبديج موقف الإسلام . فإن كلا مهما اتخذ موقف التشدد الصلب يشابه بالتبديج موقف الإسلام . فإن كلا مهما اتخذ موقف التشدد الصلب يشابه بالتبديج موقف الأسلام . فإن كلا مهما اتخذ موقف النصيا بما بينها والصمود الحاقد . ذلك بأن الدول الغربية المنقسمة على نفسها بما بينها

من منافسات ومصالح متناحرة ، لقيت كذلك مقاومة مطردة الزيادة الأساليها واستغلالاتها في الروسيا وتركيا وأفريقيا الشهالية وآسيا بأجمعها . فهذه المقاومة المجتمعة وهذه الطاقة المتداعية التي اتسمت بها الطعنة المضادة لها من جانب دول أوربا ، تعطيك المقياس الحقيقي لكارثة ١٩١٤ – ١٩١٨ . فإن أبام السبطرة الأوربية الغربية على العالم قد أوشكت على الزوال .

وفي ١٩٧٤ توفي لينن . وخلفه ستالين ، وهو رجل من أهل چورچيا قرى الروح طرد وأعدم الكثيرين من زملاته السابقين وبخاصة تروتسكي ذلك المنقذ المقتدر للجمهورية السوڤيتية في أحلك أوقات حاجتها . وتجلى أن ستالين شيوعي متمسك بالشيوعية لا تأخله فها هوادة ولا موادعة ، وأنه وطيد العزم على صد المجتمع الروسي عن الانزلاق نحو الرأممالية أو المسيحية سواء. وقد حدث في إبان زعامته أن هُدم العدد الكبير من الكنائس وأن قاربت معاملته اليهودية الرسمية والعبادات المسيحية حد الاضطهاد . وكان ليتين قد تساهل بعد ما أصاب البلاد ما أصابها من محن ١٩٢٠ - ١٩٢١ ، فاتجه إلى التسمح مع الملكية الخصوصية والمساعي الخصوصية وأوجدت « سياسته الاقتصادية الجديدة N. E. P. * حالة للأمور في الروسيا تكاد تشبه حال الأمور في الولايات المتحدة الأمريكية قبل ذلك بمثة سنة . وشرع بعض الفلاحين وهم يستمتعون بحرية التجارة الجديدة يزيدون في الثراء عن جبرانهم ويطلبون المنافع لعائلاتهم . ويسمى هولاء الفلاحون الأكثر ثراء باسم كولاك . وظهر التجار وصغار أصحاب المصانع وحالفهم اليسر والربح . وقد وقف ستالين مناهضاً لهذه العودة إلى عدم المساواة بين الناس . وتحاول الحكومة الروسية محاولة خشنة جداً أن تقضى على الكولاك الذين أنتجهم ﴿ سَبَاسُهَا الْاقْتَصَادِيَّةِ الجَدَيْدَةِ ﴾ السابقة . ولقد كان الأتحاد السوڤييتي بأكمله يعاني آلام تجربة عظيمة هي أوسع وأعجب تجربة لإعادة إنشاء الحياة الاقتصادية ظهرت فى العالم على مر تاريخه كله . وهي تسمى مشروع الحمس سنوات وقد ابتدأت في أكتوبر ١٩٢٨ . فإذا نجح المشروع فإن الروسيا تصبح في مدى خمس سنوات أرض مزارع ضخمة تديرها حكومة الشعب . وبها يصبح الفلاح عاملا أى زارعا أخلى

من ملكيته ، كما ظل شأنه فى إنجلترة مدة قرنين ، ولكنه عامل يعيش فى ظلال حكم شيوعى ولا بد من أن يُجعل بينه وبين العامل فى المدن الصناعية نشابه وتماثل . ولابد للاتحاد السوڤييتى من أن يصبح منظمة منتجة هاثلة تدير مزارعها من أجل الفائدة المشركة .

وهكُذا حدث أثناء السنوات السابقة للحرب العالمية الثانية ، أن اجتاحت الروسيا ثلاث ثورات ، وهي تعيش تحت هيمنة مجموعة واحدة من الزهماء ؛ فإنها حاولت على التوالى أن تحقق فكرات المذهب الشيوعي وفكرات الاشتراكية المتحررة وفكرات رأسمالية الدولة المنظمة تنظيماً صارماً .

٣ ــ دولة إرلندة الحرة

خرجت الإسراطورية البريطانية من الحرب العظمى مضعضعة مهوكة القوى مادياً ومعنوياً . فإن زهرة الشباب قد فنيت ، أو أضعفها الجروح وشوهها المعاناة الناء العمل العسكرى المذل . وأصببت روتينات الحكم فيها وعادات الحرية فى أرضها باختلال عظيم نشأ عن تشريع الطوارئ الضرورى أثناء الكفاح ، واختلت صحافتها أسوأ اختلال بسبب توجيها الدعاية . فإن الأخبار التي تروى عن المسائل الأجنبية قد داخلها فساد ملحوظ . وتعرض الجمهور العام لحملة من سوء الإعلام حول مسئولياته وفضلا عن ذلك فإن ما ألم بالأعمال من جوافح مزازلة شغله خي تعذر عليه أن يقسم المشؤن الإمر اطورية نصيباً من عنايته . كان ذلك زمان فرصة سنحت الموظف الأعمى المعتز بذاته ، وكان يستفيد في كل مكان أعظم الفائلة من شهراته .

فكانت هناك فى كل مكان ، اللهم إلا فى تلك الأجزاء التى تحكم نفسها من قبل بنفسها – عملية مهائلة تعمل عملها : وأعنى بها تسخطاً يكاد ينتشر بصورة منظمة صادراً عن الشعوب المحكومة لما لقيت من ألوان التضييقات والتنظيات غير المعقولة والإهانات والاعتقالات التعسفية وما شاكل ذلك من التدخل فى الحركات . فى كل مكان كانت طبقة العسكريين والموظفين خارجة على كل نظام وسلطان .

وفى كل مكان ظهر عنصر المحافظين (التورى) القديم بمظهر المكب على إحداث إنفجار.

وهذا الحال يصدق على كل من الهند ومصر وإرلندة على السواء . فني تلك السنوات ، سنوات الإمحال وضعف الرقابة المركزية أثارت سياسة القمع ونكث العهود المقطوعة لأهالي البلاد ، والاصلاحات الوهمية الحداعة التي تهدف إلى تسكن هياج الضهائر القلقة بأرض الوطن (إنجلترة) ، ثائرة الناس جميعاً ، (حتى السكان الهنود المسالمين أتفسهم) إلى درجة استشرفت العصيان . وجاءت فترة من الزمان كان التحذير واللوم يذهبان أدراج الرياح . وكانت الأساليب السمجة التي تستخدمها ف تجنيد الجنود إدارة الحكومة في الينجاب سببًا في انقلاب هذا الجزء من الهند من ولاية من أشد الولايات ولاءً إلى حال شديدة من القلق والاضطراب . وحدثت القلاتل ، وهوجم الأوربيون وقامت حالة تشبه حكم إرهاب الموظفين بلغت أوجها ى مذبحة أمريتسار (أبريل ١٩١٩) عندما أطلقت النار على جمهور كبير كان في معظم أمره غير نسلح فقتل ٣٧٩ شخصاً وجرح عدد يربو على الألف . ولم تبلغ أخبارُ هذا الاعتداء المنكر إلى ضائر الجمهور البريطاني في أرض الوطن حتى صدر تقرير هنثر في أخريات ١٩١٩ . وعند ذلك أظهرت العناصر الطيبة في الحياة البريطانية أثرها ردحاً من الزمان . ومع هذا فإن طوراً مجليداً من الحكم يرمى إلى الصلح والتراضي برئاسة اللورد ريدنج بوصفه نائب الملك قد أحبطته وأدّعت فساد آراته عناصر الرجعية في الحكومة البريطانية . وفي ١٩٣٧ حكم على المستر غاندي^(١) وهو مبشر بالمقاومة السلبية يشبه القديسين ، بالسجن ست سنوات ، وبذا صار أحد الشيداء

⁽¹⁾ المستر غانه في (١٨٦٩ – ١٩٤٨) : وياقب بالمهاتما أي الحكيم الأعظم ، وشهرته أعظم من أن تحتاج إلى بيان ، فيو زعيم الهند الإجباعي والسياسي ، وله بالحث ودرس الفانون بندن راشتغل بالحلماة سنة ١٨٨٩ وفي سنة ١٨٩٣ أصبح محاميًا بجوهانسبرج ، وهناك قاد حملة المقاومة السلبية ضد التفريق في المعاملة بين الملوثين والبيص ، وعاد إلى الهند سنة ١٩١٥ واستمسل طريقت تلك في الكفاح ضد الحكم البريطاني . وضل يكافح ويقيم المصيان تلو العصيان لا يرتد عند حتى وراء أخذ ينحول إلى العنف سحق وقق في فيهاده وظفرت الهند باستقلالها في ١٩٤٧ . ح

وتواصل نزاع مماثل لهذا في مصر. وكان يعوق النزوع إلى التفاهم ويحبطه. دافع غريب متسلط ينزع إلى القمع . ولكن أشد القصص إبلاما وأدعاها إلى الآسى في كل هذا الثبت المحزن الذي يسجل على البريطانيين العجز وعدم الاقتدار في زمان سنحت فيه الفرص البديعة ، هي قصة الثغرة المتزايدة المفرقة بين الشعبين الإنجليزي والإرلندي .

فني أيام السياسيين الإرلنديين العظيمين المسياحين وأعني سهما الأخوين ريدموند ، كان ما يزال يبدو أن في الإمكان أن تعيش كل من الجزيرتين إلى جانب أختها متعاونتين تعاوناً حراً تدفعه الرغبة ، وفي حال من الوحدة الودية القائمة على المساواة على حين تتشاركان مسئولية بريطانيا في الإمبراطورية وتواجهان العالم معال. فإن المسافة الدانية بينهما تتطلب مثل هذه الرابطة الوثيقة . فرخاء إراندة وإنجلترة يشابه. رخاء التوأمين السياميين اللذين يرتبط جسماهما برباط العروق والشرايين . ولم يكن ينبغي أن يسمح للأحقاد القديمة والفوارق الدينية أن تكون سبباً لمنبع نشوء تعاون صحيح ذكى . ولكن الأمر لم يكن هو الأحقاد القديمة ، بل إن الأحقاد الجديدة هي التي دفعت إرلندة في طريق الانفصال . وقد أسلفنا عليك كيف أن السر إدوارد كارسون نابغة الشر في الشعوب البريطانية ، أدخل الأسلحة لأول مرة إلى إرلندة ثم أيقظ وحرك عملية مرعبة من العنف والانتقام في البلاد ؛ وكيف خدعت. إرلندة في أول الحرب. عن حكمها الذاتي ، وكيف أن الحكومة البريطانية وعلى. رأسها المستر آسكويث قد أهانت إرلندة إما عن عماية وغفلة أو عن قصد وتدبير ، بإدخالها هذا الرجل الملطخ اليد بالدماء والتغرير بالأبرياء عضوأ في حكومة الاثتلاف . وأخبرناك كذلك كيف قع العصيان في دبلن وأنزلت من أجله العقوبات ، وكيف زاد ذلك في مرارة حفيظة إرلندة . ونتائج كل هذا صر عمة. واضحة على صفحة التاريخ .

وكان يلعب من وراء الستار دوراً فعالا في المفاوضات التي انتهت بالاستقلال في ١٩٤٧ .
 وغاظت جهرده لصالح المسلمين بعض المسلوفة من الهندوك فاغتيل في نيودلهي ٣٠ يناير ١٩٤٨ .
 (المترجم)

فنى ١٩١٤ نزلت إرلندة ساحة الحرب العظمى بسياحة وإقدام كانجلترة سواء بسواء . وكانت ما تزال بلداً منظماً ممدناً . وعند نهاية ذلك الكفاح كانت إرلندة قد أصبحت أرض فتنة ثائرة لا تمسك إلا بالقوة القاهرة . فإن الاستعار المنطرف قد أوتى رد فعله فى صورة الوطنية المتطرفة . وكانت إرلندة قد غدت آنذاك مصرة كل الإصرار على أن تصبح جمهورية منفصلة تماماً عن بريطانيا العظمى .

وأجبر في البرلمان البريطاني قانون حكم ذاتي جديد في ١٩٢٠. وبه تأسس برلمانان منفصلان ، أحدهما في آلستر والثاني في الجزء الباتي من إرلندة ، مع وجود ترتيبات ترمى إلى التعاون بينهما وإمكان إدماجهما أحدهما في الآخر . وكان بالقياس إلى مشروعات قوانين الحكم الذاتي السابقة تدبيراً فيه شيء كثير من السخاء ولكن الإرلنديين رفضوه بحدافيره .

فإن أعضاء حزب السين فين الذين انتخبوا أعضاء في برلمان ١٩١٩ لم يقبلوا حتى أن يظهروا في وستمنستر لمناقشته . وفي الوقت ذاته كانت أساليب العصيان والتسخط من ناحية ، وسياسة القمع من ناحية أخرى تحول البلاد إلى مسرح لحرب العصابات ، فكان العصاة يغيرون ويكمنون ويغتالون ثم تراموا في النهاية إلى أن أصبحوا يقاتلون في معارك صغيرة حامية الوطيس يقصائل صغيرة من الجنود . فأما الجنود الإنجليزية وكانت حسنة السلوك في البداية ، فإنها أغريت الفور وشجعت على الدخول في دور « الانتقام » بالمثل . ونظم بوليس إضافي خاص هو « السود والصفر »(١) ميز نفسه بأساليه الحشنة الشديدة .

وأخذ شر الاعتداءات يتفاقم تفاقاً مطرداً. فكان مقتل كل فرد فى هذا الجانب أو ذاك يفضى إلى قتل أفراد. فإدا قتل جندى أو فرد من أفراد القوة الإضافية المسهاة بالمسود والصفر قتل نظيره فرد من الطرف الآخر ، ربحاكان أو لم يكن له ضلع فى الجريمة الأولى. وكان كل طرف فى هذا التناحر بجهد أن يبذ أخاه فى القساوة.

⁽١) السود والصفر (Black and Tans) فرقة إضمانية من الشرطة أنشئت لقمع ثوبرة الإرثنديين ، وسميت كذلك بسبب قلانسها وأساورها السوداء وبدلها الكاكى . (المترجم)

حتى تناهى الأمر إلى أن لم يعد أحد بمأمن فى منزله ولا فراشه . فإن رجالا من أحد الحزبين أو الآخر ربما جاءوا بليل يطرقون باب أحد الناس يتهمة حقيقية أو خيالية . فكان الرجال يقتلون بالرصاص على أبواب منازلهم ، وسرعان ما تحول هذا إلى إعدام العائلات بأسرها . وفى ديسمع ١٩٢٠ انفجر العسكريون انتقاماً من وقوع أحد عشر تلميذاً في الملاسة الحربية في كين ، فأقلموا على القتل والسلب حتى لقد دمرت أملاك يبلغ تمنها ثلاثة ملايين من الجنبات . وبديهى أن تتفاقم السرقات ويزدهر قطع الطرق في مثل هذا الجو .

وأصبح مشروع الحكم الذاتى قانونا سارى الأحكام فى ١٩٢١ ، وتكون بمقتضاه برلمانان إرلنديان ، أحدهما للشهال والثانى للجنوب وانتخب البرلمان الشهالى فى وقته المعين ، وفتحه الملك فى احتفال فخم فى ٢٧ مايو ١٩٧١ . ورفض أهل الجنوب قبول البرلمان البلنوبي فلم يجتمع أبداً ، واجتمعت فى دبلن هيئة كونت نفسها بنفسها ، هى الديل إبريان (Dail Eireann) ، معلنة أنها مرلمان إرلندة المستقلة ، ومنتخبة لكرسى رياستها المستر ديقالبرا الذي كان مؤسسها الأكبر .

وكان الملك قد ألتى فى خطاب افتتاحه البرلمان الشهالى خطبة ملوّها التسامع والرغبة السلام. وانتهز المستر لويد چورج رئيس الوزارة البريطانية هذه المناسبة فدعا المستر ديڤاليرا والسير چيمس كريج لحضور موغمر يعقد فى لندن لبحث الشئون الإرلندية ، ودعى الطرفان إلى إنشاء هدف عن العنف ، وهى هدنة نفذت على الحسن ما تسمح به حالة البلاد المضطربة ، وفى ١١ أكتوبر ١٩٢١ افتتح فى لندن موثمر تباحث فيه المستر ديڤاليرا وزملاؤه المختارون عن (الديل إيريان) وعليهم بوجه خاص سيا رجال قادوا ثورة مسلحة إلى نصر مؤزر ، – مع ممثلى الحكومة المربطانية فى موضوع مستقبل إرلندة .

وكان هذا أمرا يسركل إنجليزى مفكر سروراً يقارب جذل أى أمريكى فى الممتلا لدى رؤيته چفرسون دافيز يتفاوض مع أيراهام لنكولن فى واشنطون بشأن مستقبل ولايات القطن. ذلك أن انفصام إرلندة التام عن بريطانيا ليس مجرد أمر تقبل تأباه الأنفس فحسب، بل هو أمر خطر جداً ربحا كانت فيه الكارثة على كل من

البلادين. ولكن هذا الاعتراف الفعلى بالهزيمة كان برشامة ، سمح الرجل الإنجليزى لأصدقائه المختارين أنصار كارسون بأن يصنعوها له ، وكان عليه أن يزدردها على أحسن ما يستطيع من التجمل والوقار . وكان المشهد في هوايت هول^(۱) في أكتوبر ١٩٢١ أثناء موتحر دونتج ستريت مشهداً عجيباً جداً . فقد رفع قدر عظيم من الرايات الإرلندية والشعارات القومية الإرلنسلية في حال تحد ظاهر ، ولكن سلوك جمهور لندن لم يكن منطوباً فقط على التسمع بل تبدّى فيه المودة والعطف .

وبعد مهاترات كثيرة وصل الطرفان إلى تسوية أقرّها البرلمان البريطاني كما أقرها (الديل إبريان) ، في كثير من القنع والمقاومة . وفيها دانت إراندة في النهاية بالولاء المتاج البريطاني ، وتقيدت ببعض القيود البحرية والجوية وأصبحت كلها (فيها عدا آلستر البروتستانتية التابعة لحكم البرلمان الشهالي) ، دولة مستقلة هي دولة إرلندة الحرة . وكان هذا نصراً عظيماً المتعقل والتبصر والرغبة في السلام . فاستقرت بذلك حرية قائمة وصيغت وحدة شكلية . ولكنها كانت تسوية مهددة من كلا الطرفين .

واعترض المستر ديقاليرا على المشروع الأنه يجزئ إولندة ولا يذل بريطانيا إذلالا كافياً ، وحرض أنصاره على الثورة على الدولة الحرة الجديدة . كذلك بدل السير إدوارد كارسون وهو عند ذلك قاض برتبة اللوردية قصارى جهده – بالرغم مما ألفه القضاء من الرقار ، ليوقظ ويذكى روح العنف وسفك الدماء في آلسر . وكان من أثر هذا أن دولة إرلندة الحرة كافحت في سببل الحياة بصعوبة شديدة وعلى نغات الطلقات النارية والصرخات المدوية في بهيم الليل . وكانت البلاد مليئة بالشبان الذين لم يتعلموا أية صناعة إلا حرب العصابات ، وكانت عادات العنف والإخلال بالنظام قد تمكنت من قلوب السكان ، وأعقب ذلك حرباً أهلية بين الحمهوريين وعلى رأمهم ديقاله ا وبين جيش الدولة الحرة .

⁽۱) شارع رئیسی بین میدان ثراهالجار و داری الپرلمان بلتدن و تقع به سطم دور الحکومة . (الگرحم)

معالم تاريخ الإنسانية جـة –

ذلك بيان موجز لقصة انقصال إراندة عملياً عن إنجلترة. وكان كل ما عقب ذلك من أحداث يعمل على توسيع هوة الخلاف وتعميقها ــ وقد اغتيل الزعيان ذلك من أحداث يعمل على توسيع هوة الخلاف وتعميقها ــ وقد اغتيل الزعيان ميشيل كولنز وكيفن أوهجنز ، وهما السياسيان الإرلنديان اللذان لعلهما كانا يستطيعان رتقها . وتحلى ديقاليرا عن الحرب الأهلية ووصل إلى مقاليد الحكم بالوسائل البر لمانية وكرس جهوده لزيادة الهوة اتساعا . وصدر دستور جديد أهلن أن السر جزء من دولة جديدة أسموها «آيار Eire» ومعناها «التهديد» ؛ ومن حسن الحفظ أن التهديد اقتصر فقط على اللفظ لا التنفيذ . ثم انهز ديقاليرا فرصة تنازل الملك عن المرش في ١٩٣٦ والأزمة التي نشأت من جرائه لقطع كل علاقة دستورية له بالكومنولث البريطاني ، فيا عدا مسألة تعين السفراء والمبعرثين الإبرلندين باسم الملك . صلماً أن هذه الرابطة كانت من الوهن بحيث استطاعت دولة آيار أن تلزم الحياد في الحرب العالمية الثانية ، واستبقت سفيرها في برلين ، وأعلنت تعزيتها الرسمية للألملن عند وفاة هتلر . ثم تمكن منافسوا ديقاليرا من اقصائه عن كراسي المحكم حين أنشأوا ضسده التلافاً ، ولكن ذلك الائتلاف زاد في بتر العلاقة الواهنة الباقية .

إن هذه سلسلة الأحداث التي ينبغي أن تكون مصدراً لعميق القلق والأسف لدى الشعبين الأمريكي والبريطاني على السواء ، كانت نتيجة قسرية للطرائق التي استخدمتها الطبقة البريطانية الحاكمة إبان فترة ما بين الحربين في معاملتها للشعوب الخاضعة للامبر اطورية . وقد جاء أوان بدت فيه الإمبراطورية البريطانية في صورة الأم المنشئة لاتحاد كنفدرالي ومثالي مكون من شعوب حرة ، إما تتكلم الإنجليزية أو تتخد منها لغة دولية عامة (Lingula Franca) ، ونطور تقاليد عظيمة واحدة مدارها الصراحة في القول والمعاملة الواضحة والعدالة في كل أرجاء العالم . وقد جاء حين من الدهر بدا للناس أثناءه أن هذه الشبكة الضخمة التي سيقوبها التفاهم المشترك الذي يزداد في كل آن عمقاً والتعاون الذي يزداد على الأيام اتثاقاً مع الولايات المتحدة الأمريكية ، ربحا لعبت دوراً قائداً في ربط أجزاء العالم بعضها ببعض في وحدة تعظمهما الأمريكية ، ربحا لعبت دوراً قائداً في ربط أجزاء العالم بعضها ببعض في وحدة تعظمهما جميعاً . وكم أطافت مثل هذه الأحلام بخيال كاتب هذه السطور نفسه ، ولكن المؤرخ

ملزم أن يدون ما لديه من حقائق -- والحقائق التي نسوقها هنا لا تساير هاتيك الأحلام إلا أسوأ مسايرة .

وقد أظهرت الآيام أن تعليم الطبقات البريطانية الحاكمة لم يبلغ من الاتساع والسلامة القدر الكافى المناسب لما بين أياسهم من بهزات. فإن الرجال الإنجليز الدين بيدهم الأمر لم يبلغوا من بعد الهمة وقوة الشخصية ولا من الجنتلانية الحد الكافى الذي يؤهلهم للتبعات التي تصدوا لها وتولوها . والعالم لا يستطيع أن ينتظر البريطانيين حتى يقودوه . وقد فشلت السحوب الناطقة بالإنجليزية عن أن تطور المنظمة التعليمية والعظمة الحلقية التي تسوخ ادعاءها زعامة البشرية ، ومن ثم بهزأ النهزات والفرص بهم وتحر سراعاً . فإن الأجناس والشعوب التي كانت في يوم من الآيام تلميذاً المدنية الغربية مريداً لها وراغباً فيها انعلت الآن ترسم لنفسها في يوم من الآيام تلميذاً المدنية الغربية مريداً لها وراغباً فيها انعلت الآن ترسم لنفسها بهجاً جديداً من التجريب وتفكر على أسسها الحاصة بها . ويتسع ميدان التقدم ويأتى يوم يجب أن يقنع فيه أو لئك الذين كانوا هم القادة في زمان ما بأن يسايروا سائر الناس .

٧ ــ الشرقان الأقصى والأدنى

(۱) الصين: أشرنا فيا سلف إلى سقوط أسرة مانشو في الصين في ١٩١١. ويدل هذا على إدراك الذكاء الصيني للطبيعة الرثة التي عليها نظامهم الإمبراطوري العهيد. لذا لم يتر ددوا في نبذ الرداء القديم. ولكن أنتي لمم الرداء الجديد الذي أعدوه لترتديه بلادهم. فإن الجمهرة الكبرى من السكان ظلت في سبيلها الذي ما فتئت تسلكه قرناً بعد قرن ، أمية منتجة النسل فقيرة مسالمة ، محافظة على القديم ؛ ومن فوق هولاء كانت الأقلية المتعلمة تكافح محاولة أن تكشف نظماً جديدة ذات كفاية تحلها على الحكومة العليا التي شاخت ثم تلاشت من الوجود.

وانتشرت فى الجنوب مبادئ جمهورية ترتجى صبغ البلاد بالروح الغربية تحت

زعامة اللكتور صن يات سن (١) . وكانت الحكومة الجديدة التي أقيمت في بكن جهورية برلمانية شكلا. لي أن القوة الحقيقية كانت في يد صاحب التصرف في قوات البلاد المسلحة ، ولاح في الأفق ردحاً من الزمان احتمال نشوء أسرة مالكة جديدة يوسمها موظف عظم ورجل دولة كبر هو يوان تشيه كاى . والواقع أن الملكة أعيدت بالفعل في ١٩١٥ ، ولكنها ما لبثت حتى تلاشت ثانية في السنة التائية . ولعب اليابانيون دوراً ديبلوماسياً فيا لم يكن مناص من حدوثه بين الصينيين من خلافات . فكانوا يناصرون هذا الحزب أولا مم ذاك ، تعدوهم سياسة عامة هدفها منع الصينيين من أن يعيدوا بناء دولهم الناهضة بناء قوياً متهاسكاً .

وانضمت الصين إلى الحلفاء ضد ألمانيا في ١٩١٧ انضاماً متأخراً غير ذى أثر ، موملة أن تظفر من وراء ذلك بمركز دولى تقاوم به ضغط البابان العدائى عليها . وازداد تاريخ الصين يوما بعد يوم اضطراباً منذ وفاة يوان تشيه كاى . فإن عدداً من القواد العسكريين وثبوا بماطق فسيحة وأخلوا يتنازعون فيا بينهم على السلطة العليا . وقامت بالصين حكومات متنافسة كانت كلها ترسل السفراء إلى أوربا , وأخذت الولايات المتحدة واليابان والدول الأوربية الكبرى تدبر المؤامرات المعقدة وتنصر هذا الرجل أو ذاك . وفي نفس الوقت واصلت الحياة العامة مسيرها في السبل التليدة المكرمة التي كانت على أيام الأجداد ، ولكن ظهرت تطورات جسيمة في إنتاج المصانع وأعمال البنوك . وأصبح التعليم عصرياً . وأجريت التجارب في تبسيط الحط والكتابة . وإن هناك لشيئاً بهز خيال المؤرخ هزاً عيقاً في شهوده هذا العدد الضخم من التاس وهو يحل الروابط القديمة لكيانه هزاً عيقاً في شهوده هذا العدد الضخم من التاس وهو يحل الروابط القديمة لكيانه الإداري ويحاول في عماية وتحسس لطريقه أن يبحث عن فرجة يصل بها إلى المختملات الجديدة الكامنة في التنظيم الاجتماعي والقوة الحشدة .

 ⁽١) عن هذا الموضوع وعن تاريخ الشرق الأقمى بأكله وعبث الاستهار الإجراب به افظر للمترجم كتاب و أسيا والسيطرة العربية » السردار پائيكار - طع المؤسسة المصرية التأليف والترجمة والطباعة والنشر . (المترجم)

وقد قضى على الصين بعد فن البوكسر بأن تدفع تعويضات باهظة للدول المختلفة الني أصيب رعاياها في هذه الفتن . وقد تجاوز الأمريكان — في شيء عظيم من الحكمة — عن هذه التعويضات على شريطة أن تخصص للتعليم ، وأرسل عدد ضخم من الطلاب الصينيين إلى الجامعات الأمريكية بوصف كونهم بواكبر تمار هذه الفكرة الكريمة . وكان الفرنسيون أميل إلى إنشاء البنوك ومشروعات السكك الحديدية . ووجه البريطانيون واليابانيون نصيبهما توجها غير واضع مقسما بين أعمال التعليم والصحة والاسعاف وبعض الأعمال الاقتصادية النافعة .

وقد جاء أوان بات محتملا فيه أن يصبح الأمريكيون آباء "روحيين للصين. بيد أن الجامعين الشبان الذين كانوا يعودون من الولايات المتحدة وقد امتلأ وطابهم علما غزيراً بالثقافة الغربية ، وبالتقدم الصناعي الغربي ، أصبحوا جميعاً بلا استثناء من أتباع الفيلسوف الصيني صن بات سن ، الذي سبق ذكره . وانقطى ردح من الزمن أصبح فيه الدكتور صن كمعلم وفيلسوف ، على نفس أهمية لينين لدى الروس . وظل الناس ربع قرن يقرؤون « وصيته ، في المجتمعات العامة كأنما هي إحدى الشعائر ، وينحنون أمام صورته ، ويسلمون بأن « مبادثه الثلاث » هي الأساس الذي يقوم عليه كل برنامج سياسي . وهذه المبادئ الثلاث هي : (١) _ الوطنية ، ولم يكن يمني بها الوطنية العادية ، التي أهلكت الحرث والنسل بأوربا وآسيا ، ولكن يقصد بها إحلال الإخلاص للمجتمع محل الإخلاص للعائلة ؛ وقد وجد أن لامندوحة له في ذلك الزمان وهو ببلاد الصين من أن يدخل في هذا المبدأ الأول فكرة الحاجة إلى حرمان الأجانب من امتيازاتهم . (٢) - الديمقراطية ، أي حكم الشعب بما في ذلك النساء اللائي كان يفترض حتى ذلك الحين أنهن جنس أدنى من الرجال ؛ (٣) - العدالة الاجماعية أو كفالة وسائل العيش للناس جيعاً ، وهي تعبير صيني من العسير ترجمته . وكان ثمانون بالمئة من الشعب الصيني من الفلاحين ، وكانوا جميعاً بلا استئناء تقريباً مدينين للمرابى أو لصاحب الأرض أو لهما كليهما . وربما كانت العبارة مهمة ؟ . ولكن معناها لم يكن ليخنى على أوساط الناس بين الصينيين ولا على اللكتور صن .

ولم تكن مبادئ اللكتور صن بعيدة كثيراً عن مبادئ نيقولاى لينين ، ولا كانت شقة الخلف بعيدة بين حاجات النوريين الصينيين والروسيين . وما أسهل ما توصل الطرفان إلى إتفاق ، وفي ١٩٢٤ تولى عضو بالحزب الشيوعي الروسي هو مبخائيل بورودين مساعدة الدكتور صين في تنظيم الكومنتانج ، وهي حزب تأسس على مبادئة الثلاثة . وفتحت للحزب فروع محلية وفرض عليه نظام دقيق والتحق به العال والفلاحون ونظم منه فصيلة عسكرية بكانتون (وهي المدينة الكبرى الوحيدة التي كانت تحت سلطان الدكتور صن تحت قيادة ضابط صيني شاب اسمه تشيائج كاى شك ، على حين أن بقية الصين كلها كانت تحت سيطرة ، أمراء حرب، شأن بريطانيا إبان حكم المالك السبع (١٠) : لذا لم يعيروا أى النفات لما كان يجرى في الجنوب . وانقضت بضع سنوات وأسماء مثل ين و (وو ٧٧١) وفنج و لو تشالع تطرق الأسماع كأنما لها شيء من الأهمية ؛ وقام في يكين ظل لحكومة مهمتها تغطية عملياتهم الحربية ، ولكن لم تكن لديها السلطة الكافية لإيقاف الحرب بينهم عند ما يختارونها لهم سبيلا . وفي ١٩٢٦ أحس الكومنتانج وقد أعيد تنظيمه أن لديه القوة الكافية للتصرف وإياهم . فإن جنده المدربين حديثاً قضوا على جند أمراء الحرب المتذمرين العديمي التدريب والكفاية ؛ فكان ﴿ الماريشالات ﴾ يسقطون كأعواد الهشيم . ولم تنقض بضعة شهور حتى أصبح جنوب الصين بأجمعه في آيديهم . وكان لابد لم الوصول إلى الشهال ، من الاستيلاء على حوض نهر بانج تسى كيانج ، وهو الهر العظيم الذي كان يعتمد عليه الشطر الأعظم من التجارة الصينية ويحول دون التغلب عليه عقبة كادًّاء وعدو أشد رهبة من الماريشالات هو الأجانب . وكان البريطانيون أشد هؤلاء الأجانب بأساً وصلفا . وقد نظم الكومنتانج علمهم حملة مشددة لمقاطعة التجارة دامت بضعة أشهر . ومرت لحظة عصيبة حين استولى الكومنتانيج على هانكاو ، وهي المدينة المثلثة الهائلة الواقعة

⁽۱) المَهْ السبع (Heplarchy) : يعتقد بعض الناس أنه مرت على إنجلترة فترة تقسمت فيها إلى سبع مالك : وسكس ، سسكس ، كنت ، إسيكس ، إيست أنجليا ، مرسيا ، فور عُبريا . وهي التي يرد ذكرها في أدب شكسبير . (المترجم)

بعيداً في أعالى اليانجتسى ، وكان بتلك المدينة ، منطقة امتياز ، بريطانية ، ولكن الكومنتانج أوضح بما ليس وراءه شك بوسائل الاضراب والهديدات المسلحة أنه لم يعد الرقابة الأجنبية بقاء بالصين . ومن حسن الحظ أن الحكومة الإنجليزية كانت أعقل من ، رجالها القدماء بالصين ، اللين كانوا يكتبون المقالات بالصحف مطالبين بالحرب : ففتحت باب المفاوضات وسلمت الصين ، مناطق الامتياز ، بهانكاو وكيوكيابج . لقد هزم الأجنبي وانتهى أمره . وزحفت جيوش الكومنتانج شهالا واستولت على بكين بقيادة تشيانج كاى شك الذى تزوج من شقيقة زوجة الدكتور صن . وعند لله يبق بالصين من أمراء الحرب سوى من شقيقة زوجة الدكتور صن . وعند لله يبق بالصين من أمراء الحرب سوى تشانج الذى كانت في يده إمارة منشوريا المنعزلة . وكان إلى الجنوب منه بالمضبط الجنرال فينج وهو اقائد مسيحى » كانت له في يوم ما شهرة واسعة (ويقال إنه عمد جيشه على المسيحية بفتح خرطوم المياه عليه) فأعلن اعتناقه التام لمبادئ الكومنتانج .

ولكن كتب التحطم على الأمل في وحدة الصن وسلامها ، إذ أن الدكتور صن مات في ١٩٢٥ . وفي ١٩٢٧ رأى زعماء الشيوعية الدولية أنه قد آن الأوان القيام بالحطوة التالية (وهي خطوة ضرورية منطقياً من وجهة نظرهم) وأعنى بها خطوة الانتقال بالبلاد من حكم الكومتنانج القائم على السيطرة المبلبلة والمرجوازية الصغيرة والفلاحين الملاك ، إلى الدكتاتوية البروليتارية . ويقال إن بورودين نفسه قد احتج على ذلك هو وأرملة الدكتور صن ؛ ولكن ذلك لم يغن فتيلاً . وبدئ بالمحاولة التي أقاموها على نقابات العال المشاغة التي أنشئت حديثاً ؛ وكان جواب الحرال تشيانج كاى شك ساحقاً قاضيا . وكانت هانكاو عند البداية في قبضة الثوار ، على حين جعل الجرال قاعدته في عاصمته الجديدة نانكين . ولم تنقض بضعة أسابيع إلا وقد صار الشيوعيون أشلاء متناثرة وأصبح تشيانج قابضاً على الجهاز الحكومي الصبني بأكمله . ولكن القبض على الجهاز الحكومي شيء والقبض على الصين ذاتها شيء آخر ، ولو أن تشيانج نفذ و المباديء الثلاثة » لسارت الأمور على خير ما برام ، بيد أنه اضطر في صبيل القضاء على ثوار هانكاو إلى الإعماد على الطبقات القديمة من بيد أنه اضطر في صبيل القضاء على ثوار هانكاو إلى الإعماد على الطبقات القديمة من بيد أنه اضطر في صبيل القضاء على ثوار هانكاو إلى الإعماد على الطبقات القديمة من بيد أنه اضطر في صبيل القضاء على ثوار هانكاو إلى الإعماد على الطبقات القديمة من

أرباب الأملاك والموظفين وأصحاب الأعمال ، وعبدئذ أصبح من المحال عليه أن يدعى أنه يقوم بثورة اجمّاعية .

وأنشئت الطرق ومدت أميال عديدة من خطوط السكك الحديدية وبدىء في إنشاء المصانع وتم قدر عظم من المشروعات التعليمية وساهمت الدول الأجنبية في المشروعات واستتمرت رؤوس الأموال الأجنبية . ولكن الفلاحين لم يتخلصوا البتة من دبونهم (فضلا عن الإيجارات) ووجد عمال المدن أن الحكومة تحظر علمهم كل جهد ببذلونه لتحسين أحوالهم عن طريق اتحادات العال ونقاياتهم . أما المبادئ الثلاثة ، فإن الشعب الصِّيبي حصل من الكومنتانج على شيء قليل من * المبدأ الأول * وهو : (الوطنية) ، أما الأجنى فأعيد بشدة إلى مكانه الأول ، كما أن عبادة العائلة قد أبطلت بعض الشيء. وبني النذر اليسر من المبدأ الثاني (: الديمقراطية) ، وذلك لأنه رغم أن الصين صارت جمهورية يعامل فيها النساء معاملة لا بأس بها ويستمسك القوم فيها ببعض الشعارات والسنن الديمقراطية ، فإن الدولة لم تكن فى الواقع إلا ذكتاتورية حزبية يرأسها الجنرال نشيانج كاى شك ؛ ولم يبق أى شيء من المبدأ الثالث (: العدالة الاجتماعية) . ووجد الشيوعيون المنهزمون كثيراً من الأعوان والأنصار بالقرى وتهيأ لهم أن ينشئوا بولايتي كيانج سي وهونان المركزيتين وحدات حاكمة تمكنت في مدى عدة سنوات من تحدى محاولات تشيانج للقضاء عليها ، ويرجع ذلك إلى أن الحزب الشيوعي تعلم أتناء الأزمة المدمرة التي مرت به كيف يصغي لمطالب الفلاحين ولا يأبه كثيراً بنظريات معهد ماركس إنجل بموسكو . وقد حالت هذه الوحدات الحاكمة فضلا عن حرب العصابات التي تكاد تفوقها في تكدير صفو الحكومة ــ دون تمكنه من تحويل الصين إلى دولة موحدة . وبتى بعد هذا كله قائدان من أمراء الحرب ؛ أولها تشانج الذى كان مستقلا استقلالا فعليا بمنشوريا ، وثانهما الحترال المسيحى الماكر فنج ، وقد تمكن من جمل جنده في قبضة يده شمالي بكين . ولم تكن هذه · الأمور ذات خطر كبير ما استمتع العالم الحارجي بالسلام .

(ب) اختمار الإسلام : كان نفس ارتشاح الفكرات الغربية وأساليها وتطبيقاتها ، الذي ترتب عليه تقويض مدنية الصن العتيقة يعمل عمله في كل أرجاء الشرق الأدنى

بقوة تتزايد كل يوم منذ الحرب العظمى . إذ يلوح أن ذلك السبات الطويل المنطوى على القدرية وعدم التسمح الذى ران على الإسلام قد أخذ يقترب من بهايته . فإن العالم الإسسلامى يستخدم الآن الصحف والتلغراف واللاسلكى والتطبيقات التعليمية العصرية والدعاية العصرية . وقد أسلفنا عليك شيئاً عن نهوض التركى بعد هزيمته ، وعن وحدة العرب المؤقتة . وإنا لنلحظ في إبران اشتداداً في مقاومة الإسلام لاستغلال الغرب الحجرد .

وكانت إيران قبل الحرب العالمية الأولى مرتعاً خصبا يجد فيه قضاصو الدببلوماسية الأوربية كل ما يشهون من الصيد ، ويجد الرجال والنساء من سكانه أنكد عكان للعيش . وكانت الروسيا تضغط على القطر التعس من الشهال . وتضغط عليه بريطانيا من الخليج الفارسي ، وبدلت كل واحدة مهما كل ما تستطيع لإضاحة الثقة بالأخرى وإيقاع الأذى بها . واكتشفت في البلاد موارد عظيمة البرول ومن ثم أخدت الدوائر الأمريكية المهتمة بالزيت ترود طرقاً منحرفة من التحريض والمناصرة . وكانت المبلاد أمسوخة لحكومة برلمانية أوربية برياسة الشاه ، على حين أن القوة الحقيقية كانت تنتقل بين أيدى روساء إقطاع يتخاطفونها . فكان أحدهم يغير على الآخر ويقتله . وكان الروسيون قد وضعوا في البلاد لواء من القوزاق ليكون في طاعة الحكومة إسمياً وإن رموا منه في الواقع إلى السيطرة عليها . وأنشأ المريطانيون هيئة مقابلة هي شرطة النظام (1) ضباطها من السويديين ، كان مفهوماً أن لها سمة دولية . وكانت هذه الهيئات المتناحرة تعيث في البلاد فساداً و تقتل الآمنين باسم النظام الأوربي . وما يفت الألمان أن يدبروا المؤمرات بواسطة الأتراك بغية القضاء على كل من البريطانيين والفرنسين .

وكانت حماية خطوط أنابيب الزيت أو تحويلها أو تدميرها هي قطب الرحى فيا يدور حوله الموقف من خطط استراتيجية معقدة . وكانت الحرب العظمي في إيران

⁽١) فرقة شرطة النظام أو الجندرمة (Gendarmerie) : فرقة من الجنود المسلحين تقوم كلوكات الخفر والنظام بمصر بضبط الأمن وبعض الأعمال البوليسية . (المترجم)

قصة غارات وزحوف للجنود واستيلاء ومغامرات يقوم بها القوزاق تارة والألمان جيناً والبريطانيون حيناً آخر وقوات القبائل من الأهالى طوراً. وكلما تأرجع النصر بين الألمان وخصومهم كان الإيرانيون الذين لم تكن تعنيم هذه المنازعات الأوربية فى كثير ولا قليل ، يسترضون البريطانيين أو بهاجوبهم . وأقام البريطانيون دهراً بعد الحمرب وهم أصحاب الكلمة الأولى فى فارس ، ولكن مركزهم بدأ فى ١٩٢٠ مهده شهديداً خطيراً غزو بلشنى أعاد سابق الضغط القديم الذى كان يمارسه النظام القيصرى. ولكن روحا أوفر قومية وأكثر استقلالا عن أوضاع الديبلوماسية أخذ يثبت وجوده على التدريع . وذلك أن الوعى القوى الإيراني أخذ يترعرع ، وأن هيبة الغرب أخدت بخلى التدريع . وذلك أن الوعى القوى الإيراني أخذ يترعرع ، وأن هيبة الغرب أخدت بخلى التدريع . وظهر رجل قوى هو رضا خان ، وأمسك بزمام الحكومة فى ١٩٢١ ، عنفظاً برياسة الشاه الإسمية . ثم عقد مع روسيا السوڤيتية محالفة ركزت البلاد على أسس من استقلال أعظم وأكبر ثما كانت فيه أمد سنوات عديدة . وفي ١٩٢٦ ، تخلص من الشاه وحل في العرش عله ، وهو عمل لم يغير الوضع إلا يعلم فقط .

ومن فارس شرقاً إلى ساحل مراكش على الأطلسى ، على كامل امتداد خط التماس بين عالم المسيحية القديم وبين العالم المحمدى ، تظهر هذه السنوات التالية للحرب حالة معقدة من المنازعات والشغب بين الإسلام والدول الغربية وتبدى فى الجانب الإسلامى مقداراً أكبر كثيراً من التماسك ووحدة الغرض ، بل لقد أبدى ذلك الجانب فى النهاية وحدة فى العمل أقوى وأبرز بما أبداه الجانب الغربى . فأما الدول الأوربية غقد عميت عن الخطر النامى المحدق بها ، ومن ثم فهى تواصل الكيد إحداها للأخرى على نفس منوالها القديم المتبع فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . فقد از دهر الاتجار فى الأسلحة إما علانية أو خفية وأخذ الاحتفاظ بولاء الجنود البلديين يزداد صعوبة من يوم الى يوم .

فى مراكش واصلت أسبانيا حرباً باهظة النفقة لانهاية لها ضد عصبيان محتشد يزود بالسلاح الأوربي والأمريكي . وكم من مرة ألمت بهم الكوارث والتقهقرات والانسحابات ، وارتفع شخص بعينه اسمه عبد الكريم إلى مرتبة الزعامة في

الريف. وفي نفس الحين كانت فاس بيد الفرنسيين الذين مدوا سلطانهم وثبتوا أملاكهم إلى جنوبي أراضي قبائل الريف ، ممتنعين عن إسداء أي تعاون مع الأسبان حتى انقلب عبد الكريم في ١٩١٥ يصوب مدافعه وبنادقه عليهم ويشير إلى احيال بدء حرب طويلة خطيرة .

وسرعان ما بلغ عدد الرجال المشتغلين بتلك الحرب في الجانب الفرنسي مئة وعشرين ألف رجل ، وأنتج قع الفرنسين للتورات في مراكش صدى في أراضي الانتداب السورية . فإن الدورز (١) ثاروا على الفرنسين وأوقعوا بهم خسائر بالغة . وامتنع السكان العرب عن معاونة الفرنسيين وأصبحوا مصدر خطرعلهم ، وأصبح الخطر على فاس خطراً على دمشق أيضاً . وإلى الجنوب استطاع العرب الوهابيون أن يرغموا ملك الحجاز الذي يحميه البريطانيون على التنازل عن العرش (١٩٢٣) ، وأن يدفعوه إلى المنني . فاستولوا على مكة ومدوا سلطانهم في تودة ورسوخ قدم في الأراضي الحجازية المرموقة . وقامت بمصر اضطرابات لانتقضي ، فإن المصريين تحت الحكم البريطاني كانوا أشبه شيء بلبن يغلي في إناء مسبل الغطاء .

وفى كل مكان من العالم الإسلامى راحت إيطاليا وفرنسا وبريطانيا وألمانيا تقضى على الهيبة القديمة للعالم الغربي بما تقوم به أجهزة دعاياتها من نشاط وتسنثر فى الإسلام وعيا ذاتيا جديدا . وأخذ الأثراك والعرب والمصريون والهنود المسلمون بتباحثون معا فى الامبريالية الغربية ، واكتشفوا أن لم مصلحة مشتركة فى القضاء عليها . وقد خفف للوقت الضغط الذى كان متسلطا على الفرنسيين فى مراكش ، ويرجع ذلك إلى ما رزقه الماريشال ليوتى من عبقرية عسكرية وإدارية ، فأسر عبد الكريم وأرسل إلى المننى فى ١٩٢٦ . فأما الحكومة البريطانية

⁽¹⁾ إن الذي حدث في الواقع هو أن المِشراك سراي الفرنسي دما إليه زعماء ألدرورَ ثم اعتقلهم فجأة وغدرا ، وفيهم عبد النفار باشا الأطرش فثار الجبل كله بقيادة سلطان باشا الأطرش . (المترجم)

فإنها اتبعت عادتها القديمة من الرضوخ غير الكريم والإذعان تحت الضغط للشيء الذي كان ما فطر عليه التحرر الطبيعي لمواطنيها الإنجليز من الميل الى التفاهم وحسن النية مستعدا للسهاح به عن طيب خاطر . فقبلت بعد كفاح دام طويلا بينها وبين زغلول باشا والهيئة الوطنية التي تكونت بمصر وسميت باسم الوفد المصرى ، إلغاء الحاية البريطانية على مصر وسمحت بإعلان استقلال مصر في (١٩٢٨)^(١) وجعله حقيقة فعالة . فحلت محل الحاية القديمة معاهدة تحالف هجومية دفاعية وضع مشروعها أولا نى ١٩٣٠ ووقعت فى (١٩٣٦) ، وبها أصبح فى الإمكان دخول مصر عضو بعصبة الأمم بوصفها دولة مستقلة ذات سيادة . وتعقد الموقف على البريطانيين في شرق البحر الأبيض ، لأن وزارة الخارجية البريطانية أصيبت فيما يتعلق بالمسألة الفلسطينية بداء الشيزوفرانيا (الفصام النفسي) ، فأخذت تعطى الوعودِ المتناقضة للعرب والبهرد الصهيونيين نجميعاً . ومما يشهد ِبتفوق الادعاء التاريخي وتغلبه على الحقيقة الواقعة ، أن يتوج بالنجاح كفاح طويل ومعقد قام به فرع معين من المجتمع البهودى في العالم كله ، العودة إلى بلد انقطعت صلته ولو الاسمية بالبهودية منذ أيام - الملك ألفريد الكبير (انظر الفصل ١٨ قسم ٢ ، ٣) ، بلد أعظم الاحتمالات أن الغالبية العظمي من أجدادهم لم يعيشوا فيه مطلقاً . ومن عجب أن مسألة قيام دولة إسرائيل الصغيرة الناطقة بالعبرانية أصبحت لدى عدد ضخم من اليهود العصريين الذين جمع التلمود وأسفار العهد القديم شملهم فى مجتمع واحد من العادات والسلوك والمعاونة المتبادلة ــ أصبحت من الأهمية القصوى بحيث غطت في عقولهم تماماً على احتمالات أعظم من ذلك كثيراً ، هي احبالات توحيد العالم التي تواجه البشرية . وبما يزيدنا أسفاً على ذلك الوضع ، ضياع رصيد الطاقة الفكرية المائل والتعاون العالمي الرحب الذي تحول بهذه المسألة عن سبيل الخدمة العامة البشرية . فإن الصهيونية جعلت اليهود يقفون يمعزل تام عن واجب بث الطابع العصرى في المجتمعات السامية والإسلامية الأخرى ، التي ربما كنا نتوقع منهم أن يقوموا فيها بدور يتسم بالوداعة التامةَ . إنى لأكتب هذه التعقيبات الواضحة هنا وأضعها إلى جوار

⁽١) الصحيح أن ذلك كان في ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢. • (المترجم)

انتقادات فى أشد قسوة وتعنيفاً لأفكار البريطانيين وأساليهم . ويقبنى أنه لن يقرأها بهودى واحد من المتمرسين بالصهيونية دون أن يصاب بالحنق الشديد والاستياء المرير والاتهام فى بأنى داعية شرير من دعاة 1 السياسة البريطانية ع .

٨ - الديون والنقود والتثبيت النقدى.

أسلفنا إليك في بياننا عن الثورة الفرنسية ، بحثاً في العلاقات الأولية بين الالتهان والنقود وبين الحياة الاجتهاعية . ولكن الترعزع الاجتهاعي الذي ورثته فرنسا عن الثورة والحروب التي نجمت عنها ، كان تافها بالقياس إلى التخلخل الهائل بعد الحرب العظمى . فالحتمع في نهاية القرن الثامن عشر كان من جميع نواحيه بجنمعاً أشد بساطة وأكثر استقلالا من المجتمع الأوربي العصرى المعقد النسيج . وكانت حياته الاقتصادية والاجتهاعية محصورة بين دفتي حدوده . ولكن الصعوبة الخاصة في الموقف العصرى ، هي أنه بينها العلاقات وردود الأفعال الاقتصادية ، قد تسامت من أمد طويل على مخوم الدول القائمة ، بسبب التغير الفخم في وسائل المواصلات ، وعلى حين أن في الإمكان اليوم نقل السلع الفنائية الرئيسية والعمال كتلة وجملة من أي جهة في العالم تقريباً إلى الأخرى المغذائية الرئيسية والعمال كتلة وجملة من أي جهة في العالم تقريباً إلى الأخرى سوهو أمر لم يشهد الناس له من قبل مثيلا إلا في المؤن المرسلة إلى روما الإمراطورية — كان الرجال لايفتأون يتعلقون بالأقسام السياسية الصغيرة ، والدول المنعزة ، المؤسسة في ظلال الأحوال البائدة .

والحن إن التضليل والأوهام التى تساور الناس حول السيادة القومية وما يلازمها من ألوان التعصب نحوه الله والملك والوطن ، وما إليها ، هى أفظع الحرافات الناشطة الأثر فى الناس فى هذا الزمان . ولابد لكل دولة من أن تكون حرة فى تكوين نقودها الحاصة بها ، وتنظيم اثبانها ، وإعاقة مرور وسائل المواصلات فى أرضها وإقامة حواجز من التعريفة لإيقاف فيض التجارة . ولابد لكل منها أن تستدين ديونها الجاصة وآن تظل على ما هى عليه من الوقوف فى سبيل الغير وإظهار العداوة له والتسلح التام ضد جرانها الماثلة ما هما مماثلة جوهرية . ولابد لكل منها من إقامة لمه والتسلح التام ضد جرانها الماثلة ما هما مماثلة جوهرية . ولابد لكل منها من إقامة

نظامها التعليمي الحاص ، ومن تعليم النشء فيها تاريخًا متحزبًا كاذبًا ، وبث غرور قومي مسمم وعداوة للأجانب سامة في كل جيل جديد .

وكانت العقبي التي عادت على أوريا من تلك اللعنة الموروثة: النول ذات السيادة ؟ التي لا يربطها فيا بينها اتحاد ، - تفاقم تعقيدها بسبب الموقف اللولى الحرج اللذي ظهر عندما تكررت في أوربا على صورة أضخم كثيراً بعد الحرب العظمى ، علية الارتباك والانهاك الاقتصادي التي أصابت فرنسا بعد الثورة الفرنسية. لقد عض الفقر كل دولة ، ولكن كل دولة كانت قد جمعت حساب الديون التي لها على كل دولة أخرى مقابل المساعدة القومية في الحرب التي كانوا فيها حلفاء ، كذلك فرضوا على المغلوبين فريضة من ديون خيالية مضحكة . ومع أن الولايات المتحدة كانت في المدة الأخيرة من الحرب العظمي خصماً لألمانيا ولقيت من الآلام أقل من أية دولة أوربية لها أصبح في الموضوع ، فإن الذخائر والمبرة الأمريكية قدمت لكل حلفائها بثمن باهظ مبالغ فيه ، فكانت أوربا لذلك مدينة عند ذاك لأمريكا ديناً يعقد الألسنة دهشاً .

ولا شك أن الرفض الصريح لمعظم ديون الحرب ومدعيات الحرب هذه كانه خير ما يصنى الجو في العالم بأكمله ، ولم يكن شيء ليستطيع أن يتذرع بالقدر اللازم من الجورأة والصراحة إلا حكومة اتحادية قوية في أوربا . ولكن لم تكن لأوربا حكومة اتحادية ، ولا سياسيون عالميون ولا قادة رحيبو الفكر ، بل كان هناك كل ضين الأفق من الملوك ورجال اللولة والسياسيين وزعماء رجال الأعمال الذين يعتمدون على التعريفة الجمركية ، والصحف المحدودة الأفق القاصرة نظرتها على لغنها ومناطق توزيعها ، والمعلمين الذين تعولم الدولة ، والجامعات القومية وجماعات الماليين ، الوطني الذعة ، وكل كان ينخلع فؤاده فرقاً لمجرد التفكير في أى نظام أكبر من نظامهم يمحو المزايا الشخصية العميقة التي ينعمون بها على حساب الدولة الأوربية الحرة (Commonweal) . إنهم ليرفضون أن تكون لهم أوربا مشركة . وإنهم ليأبون أن يسمعوا في ذلك كلمة واحدة . وإنهم ليفضلون أن تحوت أوربا على وإنهم ليأبون أن يسمعوا في ذلك كلمة واحدة . وإنهم ليفضلون أن تحوت أوربا على

أن تزول قومياتها . وكأنى بهم ذماب يقع على كومة من قاذورات ويأبى إلا أن تبتى . . ليستمتع بها ما ساعفه الاستمتاع .

وهكذا فإن أوربا إلى الغرب من الروسيا دخلت من الناحية السياسية في د تقمصت فيه شخصية شايلوك(١) ؛ فإن الخطط المدبرة لتسديد ديون الحرب الحيالية هذه كانت تستنفد الطاقة الذهنية بأكلها للرأى العام ؛ وفي نفس الوقت اتبعت كل دولة ذات سيادة طرائق خاصة بها في شئون النقد . وحلت كوارث الفقر وهنه بكثير من الناس ، وأثرى الكثيرون ثراء فاحشاً خيالياً عن طريق المضاربات ، ولاح للناس أن إنفاق النقود أصوب من جمعها . فلنن توقف إنشاء المنازل الناس العادين ، فلم يكن هناك ما يحول دون بناء وتحسين فنادق الترف . ولم يحدث قط في أوربا مثل هذا الاقبال الشديد على الرقص ولم يحدث قط مثل ذلك الاهبام الكبير في أوربا مثل هذا الاقبال الشديد على الرقص ولم يحدث قط مثل ذلك الاهبام الكبير في أوربا مثل هذا الاقبال الشديد على الرقص ولم يحدث قط مثل ذلك الاهبام الكبير في أوربا مثل هذا الاقبال الشديد على الرقص عدمة الحمى المهلكة .

وجاء الهيار النقد في الروسيا أولا . وهناك شجعته الحكومة الشيوعية ورحبت به . فأخلت المطابع تنتج الروبلات بلا حساب ، وهبط التبادل وارتفعت الأسعار حتى أصبحت البيضة أو التفاحة تباع بعشرة آلاف روبل . ولم يعد للفلاح ما يدعوه إلى اكتناز النقود أو إلى العمل من أجل اكتنازها . وكان في نية غلاة الشيوعيين إلغاء كل بيع أو شراء حر . وكانوا يرمون إلى جعل النقود بلا قيمة . على أن يقدر عمل المواطن ببطاقات تسلم إليه على فترات دورية ولا يمكن تبادلها بين الأفراد ، ولكنها محمل كوبونات قابلة للفصل تنتظم الطعام والكتب والسفروما إلها . ولكن الحكومة البلشفية اقتنعت في ١٩٢١ بالحاجة إلى استمادة هذه السيولة الاقتصادية التي لا يتبحها لنا النقود ، وظهرت عملة روبل جديدة ، كان فها كل روبل مساوياً لعشرة آلاف من القديمة . واستبدلت سهذه في ١٩٢٣ عملة الشرڤونتز مساوياً لعشرة آلاف من القديمة . واستبدلت سهذه في ١٩٢٣ عملة الشرڤونتز وذلك هو قاعدة العملة اليوم . وقد أصدر محكمة وتبصر فاحتفظ بقيمته إلى وذلك هو قاعدة العملة اليوم . وقد أصدر محكمة وتبصر فاحتفظ بقيمته إلى

 ⁽۱) شایلوك : شخصیة مراب مهودی جشم فی روایة تاجر البندقیة اشكسیر (۱)
 (المترجم)

يومنا هذا ، وهو يسجل عجز النظام الاقتصادى البلشق عن فصل نفسه عن الأساليب والتبادلات والديون المعقدة القائمة إلى الغرب منه . فإن مسالة النقود في العالم واحدة ولا يمكن أن تحل إلا يوصفها مسألة عالمية .

ولم تجر إلى الغرب من الروسيا أية محاولة للتخلص من استمال النفود تخلصاً نهائياً ، ولكن كان هناك في كل دولة تضمخ يتفاوت مقداره . وكان ابتلاء ألمانيا بالنقود بالغا أقصاه وهو يبرز لنا العملية العامة في أكمل صورها . وبخأت الحكومة إلى المطابع لعجزها عن أن تجمع بالفرائب الأموال الكافية لمقابلة الترامانها الخارجية وحاجانها الداخطية . وكلا زادت مقدار الماركات للتداولة ، ارتفعت تكاليف الإدارة وارتفع صعر العملة الأجنبية اللازمة لمدفع التصويضات وهذا الأمر استلزم من الحكومة اللجوء مرة ثانية إلى المطبعة . وفي يناير ١٩٧٣ بلغت قيمة الدولار ٢٩٢٠ ماركاً . ثم حدث انهيار سريع ، فإنه كان يساوى في فيراير ٢١٢١ ماركا ورقياً . وتجاوز في يوليه حد الملبون ، وفي نهاية السنة كان قد بلغ أربعة بلايين من الماركات الورقية .

وكانت الآثار الاجماعية لهذا التغير الحيالى المضحك للنقود الموثوق بها وتحولها إلى ورق لا قيمة له ، آثاراً عميقة حقاً . فإن جميع طبقات الباس الذين يعيشون على استهارات ذات فوائد ثابتة كأرباب المعاشات والأرامل والأيتام ذوى المرتبات السنوية وغيرهم ، - قد أدقعت ودفعت إلى إنيان أحقر وأذل الوسائل في سبل العيش ، وتوقفت كل أعمال النشاط العلمية والأدبية والتعليمية للعتمدة على الهبات . ولم يستطع الموظفون ولا المدرسون ولا أرباب الحرف ومن إليهم من أشخاص يعيشون على مرتبات ثابتة أن يزيدوا أبداً في دخلهم زيادة تتناسب مع ارتفاع الأسعار . وكان ما يحدث إنما هو في الواقع ثوع من الذبح الاقتصادي للمتعلمين الفقراء . واختفت ما يجدث إنما هو في الواقع ثوع من الذبح الاقتصادي للمتعلمين الفقراء . واختفت الإيجارات من الوجود ولكن أثمان جميع الضروريات حلقت في السهاء تحليقاً مضحكاً .

وفى نفس الوقت أصبح كل راهن أملاكه وكل شركة أعمال فى مركز يخولهم بران بدفعوا دبونهم ورقاً لا قبمة له ، وتبخر دين الحكومة للداخلي وسألف البلديات.

في الداخل وانقضى وقت نشطت فيه عمليات التصدير نشاطاً محموماً. وأصبح من الضرورى فرض حواجز قوية لمنع تصدير كل شيء ثمين في البلاد . ولكن استبراد الطعام والمواد الحام هبط إلى لا شيء ، وهبط استخدام العال هبوطاً سريعاً بعد أن ابتدأ بنشاط قوى . وأمسى الطعام نادراً في المدن لأن الفلاحين ، وقد أدركوا إنعدام قيمة النقود لم يعودوا يقبلون في التعامل إلا طريقة المقايضة . وكان الجوع والألم والهم نصيب كتلة الطبقات الوسطى والفقراء الطبين المقتصدين . وارتفعت نسبة الانتحار ارتفاعاً شديداً . وهبطت نسبة المواليد ١٥ في المئة بالمقارنة إلى السنة السابقة ، وبالوغم من هذا فإن نسبة وفيات الأطفال زادت ٢١ في المئة .

وكانت المتاعب السياسية تضطرم فى كل مكان حركات رجعية وعصيانية . ولعل شعباً واحداً لم يكن ليستطيع تحمل هذه العاصفة إلا الآلمان ، ذلك الشعب المتعلم النظامى . وفى نوفم أنشأت الحكومة عملة جديدة . فأصدرت ماركاً جديداً هو «الرنبارك ، بضيانة ما فى البلاد من الأرصدة العامة ، وأوقفت طبع الماركات القديمة ، وكان . المارك الجديد ماركاً مكافئاً لبليون من المارك الورقى . وترتب على تقييد الطبع تقييداً شديداً ، أن ارتفع المارك الجديد بالتدريج حتى بلغ مراقى النجاح ، وبذلك استطاعت المانيا أن تعود أيضاً إلى ولائها القديم لمعيار الذهب . وحل الرايخ مارك الذهبي على الزنبارك في ١٩٢٥ ، بقيمة معادلة لقيمته ، ومن ثم أخذت الدولة في سحب الرنبارك شيئاً فشيئاً .

وقد حدث في أقطار عديدة من أمثال النمسا وبولندة أن قصة النقود أوشكت أن تبلغ فها مبلغها المجزن في ألمانيا. وظلت كل منهما تترنخ حي عادت إلى علتها الحالية الجديدة المعدلة. فاستخدم النمسويون عملة جديدة للمحاسبة هي الشلن؛ وأوجد البولنديون الزلوني وكلاهما يعتمد على أساس الذهب ، فأما عملات الأقطار الأخرى من أمثال تشيكوسلو قاكيا واليونان وفنلندة ، فإنها وإن تضخمت ، فلقد تضخمت في حدود الاعتدال واحتفظت بوحدتها النقدية الأصلية في ضرب من الثبات على صورة تعدل خمس أو سدس قيمتها الذهبية السابقة . وتضخمت عملة إيطاليا وفرنسا والبلجيك في حدود أضيق من هذا كثيراً. فهبطت الليرة من درم إلى مئة المجنيه الإسترليني

قبل زمان موسوليتي ، وبعد أن مرت في دور من أدوار الطمأنينة المشكوك فيها أخذت تواصل الهبوط تدريجياً إلى ١١٠ و ١٢٠ و ١٣٠ . وعند ذلك وضعت في حالة من التضييق القامي « وثبتت » على مستوى جديد يزيد قليلا على ربع قيمتها الأصلية . على أن الفرنك الفرنسي والبلچيكي والبزيتا الأسبانية هبطت بدرجة أبطأ منها نوعاً ما . وتجاوز الفرنك حد المئة للجنيه في ١٩٢٥ ، ثم أصيب بأزمة ، وحدثت نوبة ذعر مالي عُدل بعدها إلى خس قوته الشرائية قبل الحرب الأولى .

وتدهور الجنيه البريطانى عن قيمته الذهبية بعد الحرب العظمى ، ولكنه لم يبلغ قط إلى حد فقدان أكثر من ثلث قيمته ، وفي ١٩٢٤ – ١٩٢٥ ، وبعد مجهودات مضنية وتقييد للاثنيان ، وإيقاف للمشروعات والأعمال وأزمة خطيرة في البطالة ، جُدب من جديد إلى معادلته القديمة للدولار الذهبي . ومرت على الأقطار السكندناوية وعلى هولندة وسويسرا تجارب صغيرة نسبيا في ارتفاعات العملة وأنضاضاتها .

وما هذا إلا تاريخ العالم نسطره لك على هيئة الحساب والأرقام. ولا بد للقارئ من أن يتخيل بنفسه ضخامة المخاوف وصنوف الحرمان والقلق واليأس القاسى والمحن الفاجعة والأمراض والقنوط والموت التي سببتها هذه الألاعيب البارومترية القلابة في العملات الأوربية لو أنها ترجمت إلى لغة الشعور الإنساني .

وعادت بريطانيا بصعوبة إلى معيار الذهب ردحاً من الزمان . ولم تقدم للعالم علمة مثالية ، ولكنها لاحت خير معيار في مستطاع العالم ، على حين كانت النقو د ما تزال تحت هيمنة عدد كبير من الحكومات المستقلة . ونظراً لأنه لم تكن هناك حكومة عالمية عامة ولاحكومة اتحادية تستطيع أن تتصرف في هذه الشئون ، فقد لاح من الفرورى أن يسلم الناس السيادة الاقتصادية في الأرض إلى أحد المعادن . وكان المعدن مادة مواتاً ؛ ولم يكن يستطيع أن يستجيب الزيادة والتقصان في الروة الحقيقية ، وكان يجعل كل نشاط إنتاجي جديد يدفع الحزية لأرباح الماضي . ولكنه لم يكن على الأقل يستطيع أن يغش أو يكذب ولم يكن كالبشر فيه شيء من سوء الظن بالغير والتحامل الوطني على الغير .

ولكن كان فى المستطاع إمساكه واحتباسه . وكان من أثر دفعات الدين الهائلة التى دفعت لأمريكا وفرنسا أن تراكمت كميات عظيمة جداً من الذهب فى هدين القطرين . وهناك اكتنزوه وأصبحت القيمة الفعلية للدولار المسكوك من الذهب أقل من عملة و دولار اللهب الورقية العادية . وكانت العودة إلى معيار الذهب فى زمان كانت فيه إنتاج السلع يفوق على وجه العموم إطلاق الذهب لتصنع منه النقود - أمراً لمسالح الدائنين دون غيرهم . هبطت الأسعار فجني الدائنون أكثر مما بذروا وتعرقل كل جهد ومسعى اقتصادى .

٩ – الأنهيار العظيم في ١٩٢٩

سار العالم فى طريق الانتعاش حتى شتاء ١٩٢٩. وكان لا يزال يعانى من آثار الحرب ، وكانت تتنازعه عوامل التبدد والارتباك من أكثر من ناحية ، ولعله كان فى غير وعى منه يرجو ظهور عام ١٨٣٠ – أو١٨٤٨ لكى يصفيا له المسائل وينقيا الجو من حوله ، على أن الزمن كان يخبي له شيئاً غتلفا عن ذلك تماماً ، ولم يكن ذلك ثورة يوجهها رجال – مهما يكن عدم كفايتهم عمليا – فقد كان لهم مثل عليا تلهمهم وأفكار يقدمونها الاتباعهم من الناس ، ولكنه كارثة عامة مجتاحة وقاسية ، لم يفهم العالم مصدرها ، وكانت عواقبها شراً كلها عليه . وقد شددنا من التأكيد فى الاقسام السابقة من هذا الكتاب ، على عيوب عالم ما بعد الحرب وخيبات آماله ، بحيث لم يعد يجب علينا أن نوجه إلا متسعا صغيراً من الكتاب لتبيان السبب الذى من أجله أصبحت سنة ١٩٧٩ للدى ملايين من الناس من الكتاب لتبيان السبب الذى من أجله أصبحت سنة ١٩٧٩ للدى ملايين من الناس منة أخيرة فى السنوات الذهبية التى كانوا يشخصون إليها بأبصارهم .

وأول أسباب ذلك شعورهم بالأمن من الحرب . أجل إن عصبة الأم كانت حتى آنذاك مجرد عصبة لبعض الأم فقط ؛ فقد ظلت الولايات المتحدة غائبة عنها غيبة المغضب ، ولم تكن الروسيا ميالة إلى دخولها كما لم يسمح لها أصحاب العصبة بالانضهام إليهم . وعلى الرغم من قص جناحها على تلك الشاكلة ، فإنها حالت دون اتساع رقعة

حروب صغيرة شبت في جزر الآلان وسيليزيا ومقلونيا ؛ أجل ربما لم تجمع من القوة ما يمكتها من إيقاف الدول الكبرى عند حدها ، ولكن دولة واحدة كبرى لم تبد رغبة في تحديها . مثال ذلك ، أن إيطاليا أعلنت أن (الفاشية ليست سلعة للتصدير للخارج ، وغالبًا ما أظهرت نحو رأى العصبة من الاحترام أكثر مما كانت تظهره كثير من الدول الأخرى الأكثر ديمقراطية . وثانيا : حدث تقدم عظيم في المعرفة العلمية والصناعية ؛ وكان مما أدهش الرجل العادى بوجه خاص انخاذ الطيران وسيلة عادية وبسيطة للسفر وشيوع استخدام اللاسلكي في التواصل بين أجزاء العالم ، وأخيراً جاءت فترة يسر ورغد للرجل العادى . أجل كانت هناك مستثنيات من هذه القاعدة العامة ، فكان ثم يريطانيون حتى من الماليين الدين تركوا مليون رجل عاطلين بلاعمل يعملونه ،وكان ثمة قطرمثل بلاد الصين ، حيث الفقر داء متوطن . ولكن سكان العالم على الجملة كان لديهم متسع أكبر من الوقت للمتعة والتسلية وقلر أكبر من المواد الغذائية مما كان للسهم من قبل. أجل إن سكان الولايات المتحدة كانوا يبدون في صورة الثراء الذي يكاد يكون خياليا . وقد انعكست هذه الأحوالُ الميسّرة السهلة ، حرية سياسية أكبر . حقاً إن شعوب شرق أوربا لم تكف عن اضطهاد أقليانها ، ولكنها أصبحت أكثر اعتدالا . وعادت لجان العصبة المختصة بالأقليات والانتدابات بالخير العميم ، إذ جعلت الظلم والاضطهاد أصعب منالا وأبغض إلى النفس . أجل إن أمم الشرق الأدنى كالعراق ومصر لم تحصل على حكومات غير فاسدة ولا ديمقراطية حقاً ؛ ولكن لملحكومات التي قامت بها لم تكن تقل عن حكومة بريطانيا في القرن الثامن عشر، وهو تقدم عظيم في تلك الظروف . ولقد بلغ الأمر أن كان هناك تقارب بين الإنجليز وبين الوطنيين الهنود. وتغيرت الظروف ، فكف العالم الخارجي عن ملاحقة الروسيا بالإيذاء ؛ ودارت خصومات بن تروتسكي وستالين ، حول إمكان قيام و الاشتراكية في دولة واحدة بمعزل عن الدول الأخرى، ، فاز فها الثاني وطرد تروتسكي من البلاد (١٩٢٧) فخرج حاملًا معه نظرينه في :

و الثورة المستديمة (١) و ولم يحزن لذلك من أحد سوى الثورويين المحترفين . ولم يلبث الاتحاد السوڤييتى أن تحول فى السنة التالية إلى و مشروع خس سنوات و بقصد التزود بالصناعة ، وهو أمر بدا فى عين جيرانه على كل حال – ضمانا للمقاصد السلمية . وكان الاعتدال الذى عامل به البلاشفة زعيمهم المحلوع الذى لم يزد خروجه من البلاد على كونه نفيا – كان ذلك لاعتدال إجراء اعتبر نقيضاً للوحشية التي أبدتها الثورة الفرنسية .

ويذكر كل من عاشوا أزمة ١٩٢٩ كيف بدأت في شارع وول ستريت (Wall Street) في الرابع والعشرين من أكتوبر . وكانت بوادرها عاصفة هوجاء من بيع الأسهم وانحدار سريع في الأسعار وهبوط شديد في الضانات التي كان عُقلاء المغتنغلين بها يعرفون أنها متضخمة السعر . ولكن الذعر شاع منذ تلك اللحظة حَى شَمَلَ سطح الأرض بأجمعه شلل صناعي ، والشلل هنا كلمة تناسب المقام ، وذلك لأن الانهيار كان أشبه بمرض ، ولكنه مرض لاسبب له في الطبيعة . وكان انتشار الجوع والمصانع الصامتة والبضائع الملقاة جانبا والرجال المتعطلون، - نتائج طبيعية لأعمال البشر. أجل لم تحدث مجاعات ولافيضانات ولاكوارث قومية ولو أنه حدث ذات يوم فعلا أن الناس صلوا إلى الله طالبين إليه أن ينزل بهم هذه الشدائد جميعاً لتخلصهم بما كانوا فيه من عسرة ؛ ولم تحدث حتى أية حرب ولاأى فساد في الأرض . ومع ذلك ، فقد حدث في أغنى بلاد العالم وهي الولايات المتحدة فيما يقول المستر هامبدن چاكسون : و أن ما يداني العشرين مليونا من الأنفس كانوا يواجهون الموت جوعاً وبرداً في الشهور الأولى من ١٩٣٣ ه . وكانت أحوال الأقطار الأقل ثراء "أسوأ نسبياً . ودامت الأزمة إلى ما بعد ١٩٣٣ ــ بل لقد يمكن القول أنها لم تتوقف حتى جاءت الحرب والاستعدادات للحرب فوضعت حداً لما .

 ⁽١) يشير الكاتب إلى المهدأين الأساسين اللذين قامت عليما ثورة البلاثنة وسياستهم وهما:
 (١) اللولية الثالثة أي نشر المبادئ الشيوعية في العالم و (ب) الثورة وحوب الطبقات.
 (للترجم)

وكانت هناك أزمات تجارية دامت ما يقارب القرن . وكان الاقتصاديون يشهدون هذه الأزمات دون تأثر ولا انفعال كأنما هي ظواهر لاسبيل إلى ضبطها والتحكم فيها (وهو شأنها في الواقع ، ما دامت الملكية الخاصة بمنجاة من كل ممكم أو رقابة) ، وكانوا بلاحظون أن تلك الأزمات تعاود الظهور كل عشر سنوات تقريباً . ولكن أزمة واحدة من تلكم القديمة لم تكن طاحنة كهذه ؛ وذلك أن هذه الأزمة الأخيرة قد زاد من حدثها حماقات معينة ارتكبت. وقد ذكرنا لك آنفا معظم هذه الحاقات ، ولكن ربما كان القارئ في حاجة إلى تذكيره بها . وكانت أولى الحاقات.الفقرات السياسية والاجتماعية التي وردت في معاهدة قرساى ، فقد تحققت في النهاية تنبؤات كاينز وغيره من الرجال إذ تحطمت وحدات قديمة التكوين مثل الإميراطورية النمسوية ، وقامت مكانها دويلات صغيرة هزيلة كل تحيط نفسها بسياج من التعريفة الحمركية . وحيى الاصلاحات المرغوبة في حد ذاتها قد تجلى أنها مصدر خطر ؛ فمثلا كان إحلال الفلاح المالك مكان كبار أصحاب الأملاك شبه الإقطاعيين في وسط أوربا وشرقها ، سلبها في إحداث هبوط في الإنتاج الزراعي ، في بلاد لم تكن بمستطيعة أن تعيش إلا على الزراعة . وتما زاد الطين بلة ، سوء أثر « التعويضات » - فإن الاعتقاد بأن دول الحلفاء تستطيع أن تعيش إلى الأبد على حساب آلمانيا ، أخذ يؤتى نتائجه السيئة التي لامناص منها . وقد قُدر أن مشروع داوز كان يعنى أن ألمانيا تستطيع دفع ٨٠ ماركاً في الثانية الواحدة أي ٢٨٨,٠٠٠ ماركاً في الساعة لملمة لاحد" لها ؛ وجاء التعديل الذي أدخله مشروع يونج محدداً ﴿ للمدة إلى ٥٩ سنة . . . ولم يكن تحقيق مثل هذه الأخلام الحشعة ممكنا ما لم تكن أمريكا مستعدة الإقراض النقود الألمانيا بالاحساب التمكينها من الدفع ، فما يكاد ذلك الوضع يتوقف حتى يكون فى توقفه انهيار أَلمَانيا بل وكل من يعتملون . عليها . والراجيح أن شر ما جلب الكوارث على العالم سياسة الولايات المتحدة المالية . فإن الوَلايات المتحدة حاولت ما وسعها الجهد أن تتوصل بكافة الوسائل عدا الحرب إلى حمل حلفائها على تسديد « ديون الحرب » . وفي الحين نفسه كان

القائمون على الحكم لدى الحلفاء ، وهم قوم يجمعون بين قصر النظ والجشع يحولون دون تسديد الدفعات . وانهى الآمر بأن صار لابد من دفع جميع المدفوعات المالية ذهباً أو عيناً ، وأخلت مجالس الكونجوس الآمريكية المتعاقبة تزيد فى التعريفات حتى صارت البضائع الأجتبية مبعدة ابعاداً فعلياً . (وقد نفلت آخر تعريفة جركية معروفة فى عام ١٩٣٠) . وأمكن إلى حين تجنب المشكلة بتكديس قناطير مقنظرة لانفع لها من الذهب سحبت من كل بلاد العالم وأودهت فى فورت نوكس ، وكذلك أمكن نجنبها فترة أطول قليلا بما قدمته الولايات المتحدة من قروض للأقطار المدينة ، ولكن لايغين عن البال أن الكارثة لابد وأن تقع بمجرد المطالبة بتلك الديون . وكأنما شاءت الولايات المتحدة التحقق من مكابدة شعوب تلك البلاد العذاب الشديد ألواناً ، فعمد رجال الأعمال فيها إلى طريقة البيع بالتقسيط المسهاة (الشراء بالإيجار) ونشروا ذلك بحيث أن عائلة من كل النتن أصبحت مدينة بثمن سلعة أو أخرى ، وزادت المقامرة بالأسهم والسندات أن الكبرى زيادة فاحشة حتى لقد اشترك فيها العمال وصقار الموظفين .

وكانت الهذه الكارثة التي أصبحنا نراها اليوم خطأ فاصلا في التاريخ ، نتائج سياسية مزدوجة . فسقطت الحكومات في البلاد التي كان في الإمكان تغيير حكوماتها بمقتضى الدستور . فإن كانت و يسارية ، تولت الحكم فيها حكومة و يمينية ، والعكس بالعكس – وكان الأمركله تقريباً يقوم على محض الصدفة . فإن كانت في دست الحكم ديكتاتوريات ، صارت الحكومات عديمة الرحمة في الداخل ، وأدركت من حيث علاقتها بالحارج أن في إمكانها في خاتمة المطاف أن تتصرف حسها يمليه عليها أشد نوازع الجشع فيها . ولم يعد لدى الدول المحبة للسلام أية قدرة ولا رغبة في حماية بدايات المنظات الدولية ؛ وأصبح في إمكان الدكتاتوريات مهاجمة جبرانها الأضعف بدايات المنظات الدولية ؛ وأصبح في إمكان الدكتاتوريات مهاجمة جبرانها الأضعف المالمية الثانية .

وقد حادث بعض البلاد إلى طريق « اليسار » كما كانوا يقولون . وسارع ألفونسو ملك أسبانيا إلى مغادرة بلاده وتركها للجمهوريين. وكان الرئيس هوڤر طالما ادعى وادعى معه الحزب الجمهورى بالولايات المتحدة أن الفضل يعود إليهم فى رخاء أمريكا ولحذا لا يمكن إلا أن تعود عليهم اللائمة فى حدوث هذه الكارثة ، فطردتهم من الحكم فى ١٩٣٧ جماعة النامحين التى ظلت تحقد عليهم عدة سنوات أخرى . واضطر ملك سيام إلى التنازل عن سلطاته الاستبدادية فى العام نفسه ، وقبول نوع من الرقابة الشعبية على أعمله . ولكن هذه هى الحالات الوصيدة التى حدثت بمناطق شديدة التباعد فى أرجاء العالم كله ، والتى أحدث فيها الرجال رد فعل على الأزمة بإظهار عزم جديد على التصرف فى أمورهم بأنفسهم ، فأما فيا عدا ذلك من أما كن فقد اقتصر الوضع على التضجع واليأس ، أو الاستسلام لابتعاث الوسائل القديمة من العافيان أو العنف .



وانتشرت كالبثور في أرجاء أمريكا الجنوبية موجة جديدة من الدكتاتوريات.

فركز جيتوليو قارجاس نفسه في البرازيل في أخريات ١٩٢٩. وفي العام النالي أصبحت بوليفيا وبيرو والأرجنتين دكتاتوريات هي الأخرى ؛ وتبعنهن شيلي في ١٩٣١. وفي ١٩٣١ تجاهلت بوليفيا وپاراجواي رجاء عصبة الأمم واشتبكتا في حرب ضروس دامية بسبب غابة تسمى جران تشاكو ؛ وكانت الحرب فرصة انتهزها دعاة الفاشية والنازية للخول أمريكا الجنوبية وممارسة مهنتهم المختارة . فأما في الهند ، فانتهت فترة التعاون الوجيزة بين الهنود والبريطانيين بمعاودة حركة و العصبان المدنى ، في ١٩٣٧ ؟ وفي الشرق الأدنى طرد الملك فؤاد ملك مصر برلمانه ، واحتفلت الحكومة العراقية في ١٩٣٧ ، عربيها الجديدة من قبضة البريطانيين بإعمالها الذبح قصداً وبهدوء تام في الأشوريين لأنهم مسيحيون .

وإذا نظرت إلى أوربا ، وجدت پيلسودسكى يكبل الانتخابات البولندية بالأغلال ليجعل من نفسه ذكتاتوراً في نهاية ١٩٢٩ ؛ وتخلص ملكا يوغوسلافيا ورومانيا الإسكندر وكارول من الرقابة البرلمانية ، وأقيمت ذكتاتورية بلغارية حسكرية في ١٩٣٤ ، كما قامت أخرى يونانية (برئاسة متكساس) في ١٩٣٥ . وانتقلت أستونيا ولتفيا إلى الحكم الدكتاتورى في ١٩٣٤ . وأهدى سالازار ذكتاتور البرتغال إلى نفسه سلطاناً قانونياً جديداً في ١٩٣٣ : وقضى دولفوس وهو سيامي كاثولبكى نمسوى على الاشتر اكبين النمسويين بالقوة والعنف في فيينا ، وأنشأ دولة فاشية في فراير ١٩٣٤ . ولعل أسوأ نتائيج الآزمة تأثيراً في المستقبل ، تسليم مقاليد السلطة للنازيين في ألمانيا في ١٩٣٧ ، وسنعاود الحديث في ذلك فيا بعد ؛ ولكن أشد الحركات النازيين في ألمانيا أن المحكم ، ثم قتلوا بعد ذلك أهم أعضائها بطريقة منظمة . وصدق حدس الحكومة الجديدة حين زعمت أن دول العصبة لن تتدخل ، فتلمسوا وصدق حدس الحكومة الجديدة حين زعمت أن دول العصبة لن تتدخل ، فتلمسوا ذريعة تافهة لغزو منشوريا ، وهي ولاية صينية لم يتمكن تسيانيج كاى شك من فرض ميطرته عليها ، ومن ثم احتلوها ورفضوا التحرك منها .

· والشيء الذي جعل الأزمة تبدو مستعصبة على الحل (وإن كانت أسبالها أعمق كثيراً دون ريب) هو مجرى الأحداث بعريطانيا . ذلك يأن لندن لم تعرح مركزا لعالم

المال. وكانت الحكومة البريطانية حكومة عمال برأسها سياسي مبهم الأقوال اسمه رامساي مكدونالد. ولم تكن تقوم على أغلبية في البرلمان ، ولو أنها أرادت أن تواجه الأزمة بسياسة انشراكية ، لما مكنها المجلس من عمل ذلك ، وقصارى القول أنها لم تستطع عمل شيء .

وتوقف استبَّار الأموال الأمريكية في ألمانيا والنمسا في ١٩٢٩ . ولكن المالبين المقرضين الأمريكيين بدأوا يسحبون قروضهم في ١٩٣٠ عندما زادت حال وول ستريت سوءاً ويأسا ، وفي مدى أربعة أشهر اضطرب موقف بنك الالتمان (Credit Anstalt) ، وهو البنك الذي كان يمول معظم الصناعات النمسوية وواجه الإفلاس ، واقترح الرثيس موڤر إنشاء موراتوربوم في دفع التعويضات ، واقترح يروننج مستشار ألمانيا إقامة اتحاد جمركي مع النمسا . ولكن حال دون تنفيذ الاقتراحين سیاسی اسمه تاردیو کان پر اُس حکومة فرنسا وکان بری اُن معاهدة ڤرسای ﴿ شدیدة الاعتدال » . واضطرت البنوك البريطانية والألمانية إلى تقديم القروض لإنعاش البنك النمسوى ؛ وبلىك أوقعوا أنفسهم في المحظور وعرضوا مراكزهم للخطر . وهرع الناس إلى البنوك الألمانية يطلبون ودائعهم . وفي يوليه ١٩٣١ مانهار بنك دارمشتادت الشهير . وعندئذ وقع الثقل كله على لِندن ، واشتد اندفاع الناس على الذهب بحيث تجلى تماماً في أغسطس أن بنك إنجلترة لن يستطيع البقاء بغير تلتى مساعدة من الخارج . ولم يكن اللهب موجوداً إلا في باريس ونيويورك ؛ فأما باريس فتأبي أن تقرض فلساً واحداً ؛ وأما نيويورك فأصرت على تغييرات في السياسة البريطانية (أهمها تخفيض إعانات العال العاطلين ﴾ وهو أمر لم تقبله الوزارة البريطانية . واتفق مكدونالد رئيس الوزارة مع خصومه المحافظين على طر د حزبه من الحكم وأقام وحكومة قومية ، لإنقاذ الجنيه . ولكن أنني للجنيه أن ينقذ ؟ وفي أواخر سبتمبر أقر البرلمان مشروع قانون بالتخلي عن معيار الذهب . وهبط الجنيه خس قيمته ، وعندئذ وجدت جميع البلاد التي وثقت بلندن واتحذت منها بنكاً لماليتها وأدارت تجارتها على الجنيه الاسترليني ، – وجدت نفسها مضطرة أن تتخلى عن الاسترليني النهب هي أيضاً . لقد تحطمت جميع نظم العالم المالية والتجارية القديمة .

وتجحت الحكومة البريطانية الجديدة في إلصاق الملائمة كلها عن الأزمة بالحكومة التي سبقتها ؛ ولذا فإن الانتخابات العامة التي أجريت في ١٩٣١ أسفرت عن حصول الاثتلاف القومي على ١٩٥٠ مقعداً والعال ٤٦ مقعداً ومع أن هذا الحجم الجبار الذي أحرزته الأغلبيه انحفض في ١٩٣٥ ، فإن الانتخابات كانت بادئة عهد حكم دام تسع سنوات مستمرة لإقلية محافظة صغيرة . واحتفظ الجميع باسم «القومية ۽ هذا لأخراض انتخابية ، وكان هناك « الأحرار القوميون » و « العال القوميون » ؛ ولكن الأغلبية الحائلة كانت من المحافظين . وكانت مقاليد الأمور في يد دائرة أحاطت أولا بالمستر ستائلي بلدوين ثم بالمستر نيثيل تشمير لن ؛ وأبعد ونستون تشرشل وأتباعه عن كل عمل . وكان السياسيون الفرنسيون أقل حظاً . فني ١٩٣٦ تمكن ائتلاف جع بين الراديكالين والأشتر اكبين والشيوعيين وتسمى ياسم « الجهة الشعبية » من إخراج العصبة الحاكمة في البلاد من مناصب الحكم .

وألقبت السياسة الداخلية الولايات المتحدة بكليتها إلى يد رجل أخذ نفسه بمبدأ المحاولة والتجريب . ولم يكن الكونجرس ولا الشعب ميالين إلى معارضة ولا حتى نقد أى علاج للأمور كان يفترحه فرانكلين ديلانو روز فلت . وكان ذلك الرئيس لا يعتنق أية فلسفة منظمة في الحكم ، ومن ثم كان يتعمد قاصداً تجربة شيء بعد آخو . كان عمله يقوم على فكرة و تصيب أو تخيب ، وراقت الفكرة لدى مواطئيه كل روق حتى لقد أبوا أن يتخلوا عنه رغم ما لقيه من معارضة عنيفة . فانتخب رئيساً للولايات المتحدة في ١٩٤٢ ، ثم أهيد انتخابه في ١٩٢٦ ، ١٩٤٠ ، ١٩٤٤ ؛ ومنروع عنيفة . حكم ه مع رياسته) . وكان أول مشروعاته مشروع قانون الإصلاح الزراعي(١) (AAA) وقد قصد به رفع أسعار منتجات المزارع بتخفيض الإنتاج ؛ ومشروع قانون الإنعاش الصناعي(٢) القوى (NIRA) الذي حاول أن ينعش الصناعة بإقناع أصاب الأعمال وتحسن أحواله

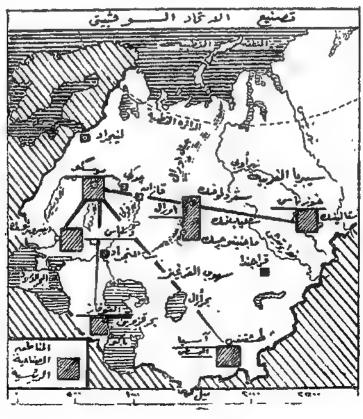
Agricultural Adjustment Act. ()

National Industrial Recovery Act. (Y)

وتحرم استخدام الأطفال في الصناعة . وقد تعشّركل من هذين القانونين بما لقيهما من مصاعب، وثار غضب الدوائر الإدارية أكثر ثما ثار أسفها لأن المحكمة العليا أعلنت أنهما غير دستوريين في ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ . وبدأ أن من المحتمل بلوغ الهدف منهما بالقيام بمشروع ضخم ومتواصل من الأشغال العامة ، وهو مشروع بدىء به فعلا في ١٩٣٣ وتواصل العمل به تحت أسماء مختلفة حتى تبدى شبح الحرب في الأفق فقضي على الضرورة الداعية إليه . وكان المشروع بعيداً كل البعد عن مشروع إصلاح الطرق الذي كان يستتر وراء اسم كريم هو الأشغال العامة ، فكان يتضمن خططاً لكل فتةمن الشعب حتى الممثلين والكتَّاب ، ومن بينها خطة لمشروع بعث الخشوع فى أشد النقاد غضباً ــ ألا وهو مشروع هيئة وادى تنسى ، وقد بدأت تلك الهيئة عملها بمشروع لضبط بهر مدمر ، وأظهرت أنها أعظم وأنجح مثال على التخطيط الإقليمي في بلد حر. وكان أقل فوائد ذلك المشروع ضبط فيضانات النهر . فإن توفير الكهرباء الرخيصة السعر المنتشرة الاستعال واعادة زرع الغابات واسترجاع الأرض التي زالت عنها تربتها الزراعية وإدخال صناعات جديدة ، أدخلت تغييراً تاماً على منطقة كانت في يوم ما بائسة يائسة قد عضها الفقر بقسوة . ولتي مشروع قانون واجنز (١٩٣٥) قلمراً أصغر من الاستحسان العام ، وهو مشروع كان يجبر رجال الأعمال والصناعة الأمريكيين ــ وكانوا حتى ذلك الحين أشد الصناعيين في العالم استبداداً ــ كان يجبرهم على الاعتراف باتحادات العال والتفاوض معها ، فأخذت هذه الإتحادات منذ ذلك الحن تقوم فى السياسة بدور يقوى على توالى الأيام .

ولكن الروسيا التي يقوم اقتصادها على النظام الاشتراكي لم تتلق نفس الصدمة التي نقيبها الدول الأخرى: فلم تظهر في شوارعها طوابير العاطلين، ولم تغلق بها مصانع، على حين كانت المواد الأولية متوفرة. على أن الاتحاد السوڤييتي تأثر من نواح أخرى تأثراً لا يقل خطورة عن سائر الدول. وقد أوضح لينين تماماً أن إيقاف الحربات أثناء الثورة شيء موقوت، وأن سيعقبه وضع يستمتع بقدر من الحرية أكبر من أي شيء يمكن قيامه في ظل نظام بورجوازي. ولكن بدلا من زيادة الحريات الشخصية، كان الاتحاد السوڤييتي يتحول أكثر فأكثر إلى دولة زيادة الحريات الشخصية، كان الاتحاد السوڤييتي يتحول أكثر فأكثر إلى دولة

بوليسية ؛ فإنه كان يتطور من ديمقراطية يغشاها الاضطراب والدكتاتورية إلى أوليجركية وببدو كأنما ينحدر إلى طريق الحكم الاستبدادى المطلق . وحدث تقدم مادى عظيم لا يستطيع تجاهله إلا أشد المراقبين تحيزاً . فتم إنجاز مشروع الحمس سنوات فى أربع سنين . وأقيمت محطات عظيمة لتوليد القوى – منها واحدة على نهر الدنيس ذاعت شهرتها – وحفرت آبار الزيت وأقيمت مصانع الصلب ، وأنشئت مراكز صناعية جديدة تماماً فى كوزنتزك بسيبريا وماجنيتو جورسك بجبال الأورال وفى أماكن أخرى . وقضى على الأمية قضاء جزئياً بهذا البلد ، أشد البلاد اتساعاً وأعظمها تخلفاً ؛ وكانت ألوان التقدم الحضارى قوية مثيرة فى أصفاع الاتحاد الحارجية البعيدة الأكثر همجية . ولكن امتلاك الفلاح للأرض الذى هو شيء لا تبيحه النظرية الشيوعية قضى عليه بين سنتي ١٩٧٩ الفلاح المؤرض الذى هو شيء لا تبيحه النظرية الشيوعية قضى عليه بين سنتي ١٩٧٩ المهرورة لها .



(شکل ۲۲۲)

فأطلق اسم و الكولاك Kulak على كل فلاح غنى ، وأجبروا جميعاً على الاندماج. في المزارع الجماعية أو مزارع اللولة . ورُحل آلاف كثار إلى سيبريا ؛ وانتشرت المقاومة والتخريب المتعمد ؛ فقد ذكر أنه حدث ذات مرة أن ذبح نصف ما في الروسيا من الماشية .

وأتبع مشروع الخمس السنوات الأولى ١٩٣٢ بإعلان مشروع آخر ، ركز على الإسكان والمواصلات وإنتاج السلع الاستهلاكية ورفع مستوى معيشة الشعب . وقد تم بنجاح فی کثیر من النواحی ، ولکن صحبته تغییرات سیاسیة أزعجت العالم الحارجي . وتألب كامينيڤ وزينوڤييڤ وستالين على تروتسكى وطردوه . ووجد العضوان الأولان من ذلك الثالوث أنهما قد أسلم نفسهما لقبضة الثالث. فإن ستالين بوصفه سكرتيراً للحزب الشيوعي كان المنحكم الوحيد في السلطة السياسية ؛ ولم يكن ستالين من الناحية الأخرى بمن تجد الرحمة إلى قلوبهم سبيلاً , فإنه أعدم ما يزيد على ١١٠ شخصاً انتقاماً لمقتل صديقه كبروف في ١٩٣٠ . ونظر زملاؤه فاذا هم مجردون أولا من كل سلطة ، ثم ألفوا أنفسهم يحالون إلى المحاكمة : وفي ١٩٣٦ اتهم أربعة عشر من أشهر د رفاق لينبن ؛ بينهم كامينيف وزينوڤييڤ وأعدموا رميا بالرصاص ، وأعقبتهم ثلة أخرى بعد بضعة أشهر . وفي السنة التالمة أعدم توخاتشيڤسكي وكثيرون غيره من كيار ضباط الجيش الأحر : وتعدد في كل أرجاء البلاد هذا النوع من المحاكمة وأعدم أو سمِن آلاف من أشخاص أدنى أهمية ، حتى لم يعد في البلاد أحد يعارض سياسة ستالين . وحصل المدعى العام المستر فشنسكي على أحكام بإعدام ٦,٢٣٨ شخصا في الحابكم العلنية . وكان المهمون دون استثناء واحد منهم فها نعلم يكتبون اعترافات يعترفون فيها بما أتهموا به بالضبط حتى ولو كانت جريمتهم بعيدة الاحمال جدا . حتى إذا انتهت والتطهيرات ، لم يعد باقيا على قيد الحياة جميع زعماء ثورة ١٩١٧ عدا واحداً . وكان هذا الفرد الواحد في رفعة متعالية ويحيط به رجال أصغر منه أو رجال من الدرجة الثانية : وكان يلقى آنذاك عبادة يدهش لما كثيرًا كل من تذكر التقاليد الديمقراطية للاشتراكية . وقد توفى لبنين قبل أن

يجرو أحد على إلغاء اسم مدينة وتسميها باسمه ، ولكن خريطة الروسيا أصبحت آنذاك مملوء مدن ستالين وستالينو وستالنسك وستالينجراذ وستالينوجورسك وستاليناباد وما ماثلها !

وكانت للتغييرات السياسية العميقة داخل الروسيا آثارها خارج حدودها . فقه كانت هناك في ١٩٢٧ أحزاب شيوعية في كل دولة برلمانية تقريباً ، وكان لابد للروسيا أن تضمن انصباعها لإرادتها . فأوقفت الاجتماعات السنوية للشبوعية الدولية مدة ست سنوات للوغ تلك الغاية . وابتدأ الأمر بطرد جميع أنصار تروتسكي . فإن التخلي عن ه الثورة المستديمة ، تفضيلا « للاشتراكية في قطر واحد » ، وأعنى به الروسيا ، أفضى بصورة طبيعية إلى جعل الدفاع عن ذلك القطر الواحد أهم كثيراً من الدوافع والآمال الثورية بموطن كل فرد وبذا أصبحت الأعزاب التي كانت أحزاباً ثورية فردية آلات وأدوات للسياسة الروسية الخارجية . وتوالى فى كل سنة بعد سنة طرد كل زعيم أو تابع لايرصيخ لهذا التغيير . وكانت ٩ خطة الأحزاب ٤ في البداية توجيه أشنع الحملات على الاشتراكيين والأحرار في الدول الديمقراطية ونعتهم بأنهم « فاشيون قوميون » أو حتى اتهامهم بأنهم يتعاونون مع النازي عليهم كما حدث في أحد اضرابات الترام ببرلين . وقد اتضحت العواقب الوخيمة لهذه السياسة على الروسيا بعد ١٩٣٣ بقليل ؛ ولم. تلبث أن قلبت رأساً على عقب في ١٩٣٥ بعد عقد ۽ حلف ستالين لاڤال » . وأضيف إلى هذا الحلف ، وهو تحالف عقيم بين الروسيا وفرنسا موافقة رسمية على إعادة تسليح فرنسا : حين طلب إلى الحزب الشبوعي الفرنسي أن بتخلي بين عشية وضحاها عن سياسته المناهضة للروح العسكرية وللإمربالية . ولم تلبث تلك السياسة أن حولت إلى تعاون وثيق مع الاشتراكيين والأحرار فيها كان يسمى باسم « الجيهات الشعبية » ضد الفاشية . وحصل الشيوعيون على ألوان عديدة وضخمة من النجاح السياسي بفرنسا بوجه خاص. ولكن المعنى الحقيتي لتلك التغيرات هو أنه أصبحت توجـــد آنذاك بكل دولة برلمانية هيئتان حزبيتان غير نابعتين من الشعب ولامسئولتين أمام مواطنهما

كما أنهما لانشكلان سياستهما بحسب ما تعتقدان أن بلدهما فى حاجة إليه ، ولكنهما تمثلان دولة أجنبية . وكانت إحدى الفئتين تدافع عن مصالح الاتحاد السوڤييتى ، وتدافع الأخرى عن تحالف هتلر وموسوليتى الذى كان يسمى نفسه آنذاك بالمحور . فأما تمكن الهيئتين من التعاون فشيء كان يراه كل إنسان أمرا مستحبلا .

١٠ _ المأساة الأسبانية

فى أبريل ١٩٣١ ، انهارت الملكية الأسبانية وتحولت أسبانيا إلى جمهورية ،
 فانسحبت الأسرة المالكة من الميدان بسلام ، ولم يحدث إلا النزر اليسير جداً من الضراع أو العنف .

وقبل ذلك قضت أسبانيا الشطر الأكبر من قرن كامل من الزمن ، تعد العدة لثورة غررية . ولعلك ترى أننا لم نذكر إلا القليل مما مر بها من تجارب بعد سقوط نابليون . والقصة كلها لا تروى إلا حكاية اضمحلال و ذلة ، أو انتشار الجهالة المطبقة على شعب بأكمله ، أو سوء تعليم أو عدم كفاية بظل الكنيسة الكاثوليكية التابعة لروما . وهي حتى الآن أكمل مثال على انحلال الإمبريالية وانهيارها . وقد سبق أن أشرنا إلى الحنرال بوليفار ، وإلى ضياع المستعمرات الأسبانية الضخمة بأمريكا ، وكيف حدث ذات مرة واحدة فقظ أن بريطانيا العظمى والولايات المتحدة وصلتا إلى مرتبة التعاون الذكي بقصد حماية الديمقراطية في العالم الجديد . (ف ٣٦ ق ٢) ، فإن كاننج ذلك السباسي البريطاني العظم نادى بضرورة انشاء جمهوريات العالم الجديد قائلا أن ذلك بقصد : وإصلاح توازن العالم القديم » . ولم تبق لأسبانيا في النهاية سوى كوبا . ويتحدث القسم نفسه (ف ٣٦ ق ٢) عن الثورة المضادة التي ظلت مندلعة في أوربا زهاء أربعن سنة .

وقد كان الكفاح في سبيل الفكر المتحرر والحرية البشرية شاقاً وعراً ككفاح الصاعد جبلا، ولعله كان أقل استيئاساً في بريطانيا العظمي منه في أي مكان آخر في العالم عدا أمريكا . وكانت قبضة الظلم تقوم في أسبانيا على أسمج صورة وأنقلها وطأة ؛ ولكن تجرير أمريكا الجنوبية حافظ على روح النمرد حية صاخبة . ولا بعد أن أسبانيا كانت أشبه الآشياء بجحيم لا يطيقه ذكاء وطني آثناء تلك الفترة الطويلة من التدلى الأرستقراطي والنبي " . وكانت تتعاور عمها أدوار من العصيان الغاضب الذي لا يستمتع بالقدر الكبير من الذكاء مع فترات من القمع والسرقة . واستمرت البلاد في جهالة بالغة تدور حول صراعات بين بوربونيين فم أشكال وسحن مختلفة وبين كار لوميين وما شاكل ذلك وقواد استبداديين يتخذون مظهر و الرجال الأقوياء ؛ وبين ملك متطفل منتخب وافد من سافوى اسمه أماديو . وظلت كوبا في حالة عصيان منذ ١٨٦٩ فصاعدا . وكان الأسبان بمنحون الكوبيون في بعص الحين تساهلات غير مخلصة ، وكان و رجال أقوياء ؛ بخرجون في أحيان أخرى القضاء على المتاهب .

وفى ١٨٩٧ أخلت الولايات المتحدة تهم بالأعمال الوحشية التي يرتكها أحد دعاة القمع الصارم الحنوال ويلر، وتعبر عن رأيها في ذلك بصراحة للحكومة الأسبانية. وسرعان ما اصبح ذلك الحنوال أكثر لينا ومراضاة، ولكن الذي عجل بالحرب فجأة نسف سفينة حربية للولايات المتحدة هي و المن المن كوبا بميناء هافانا. وعندئذ طالبت الولايات المتحدة بجلاء الأسبان فوراً عن كوبا وأعلنت أسبانيا الحرب عليها في (١٨٩٨). ودمر الأمرال ديوى أسطول أسبانيا الشرقي في خليج مانيلاً، ودمر الأسطول الأسباني الغربي في سانتياجودي كوبا، واستسلمت كوبا للأمريكيين، وبذلك انتهت الحرب. وعبئاً استنجدت الحكومة واستسلمت كوبا للأمريكيين، وبذلك انتهت الحرب. وعبئاً استنجدت الحكومة الأسبانية بالبابا، وهي الابنة المخلصة الكنيسة حد كما استنجلت بعاهليات رجعية أخرى ترجوهم التدخل، ولكن صبحها ذهبت أدراج الرباح، وتنازلت أسبانيا في المعاهدة التي أبرمت بعد ذلك عن كوبا وبورتوريكو وجزر القلبان وجزر في المعاهدة التي أبرمت بعد ذلك عن كوبا وبورتوريكو وجزر القلبان وجزر

 ⁽١) الكارلوسيون هم أقصار الدن كارلوس دى بوربون (١٧٨٨ – ١٨٥٥) المطالب هو
 وأسفاده بعرش أسبائيا من فرع الأسرة المالكة أللك انتهى بالفونسو . (المترجم)

معالم تاريخ الإنسانية جـ ٤ -

سولو ، أى أنها تنازلت فى الحق عن كل شىء باق لها وراء البحار عدا مراكش ، وحدثت ثورات شعبية فى يرشلونة وسرقسطة ، وكان الذى أخمدها هو الجنرال ويلر — ولكن حركة النهضة التحررية الأسبانية كانت تزداد فى كل يوم قوة ، وشرع عدد من مفكرى الأسبان وكتابهم يتوقرون على مشكلة أسبانيا الجدبدة . وتولى ألفونسو الثالث عشر فى ١٩٠٢ . وتزوج من الأميرة الإنجليزية فكتوريا أو چينى وهي حفيدة الملكة فكتوريا ، وبنت أخت ادوارد السابع ملك بريطانيا ، وقد اعتنقت الأميرة المذهب الكاثوليكي لهــذا المغرض خاصة ومنحها البابا وسام و الورود الذهبية ، دلالة على عطفه الخاص عليها . ومن الطبيعي أن ملكية متفوقة يدعمها عسكربون لابد أن تكون لدبها حرب دائرة الرحى فى مكان ما ، وكادت مراكش فى ذلك الحين أن تكون لدبها حرب دائرة الرحى فى مكان ما ، وكادت مراكش فى ذلك الحين أن تكون الحبال الوحيد المفتوح أمامهم هم وأصحاب الامتيازات والمنح الاستغلالية الذين لابد أنهم كانوا خلطاءهم .

وكانت حرب مراكش تستنفد عدداً ضخماً من الجند الشبان الذين يذهبون إلى مراكش فلا يعودون ، وتستلزم المطالبة بالمزيد من الضرائب المجندين حتى نفد صبر الشعب. وحدثت ثورة فى برشلونة حيث أقدم الناس فى تقدير واضح لمصدر ما هم فيه من بلاء على حرق الكنائس والأديرة . ذلك أنهم كانوا يعلمون علم اليقين أن الآبروشيات لا تدفع ضرائب ، وأن الكنائس رمز للقمع الساحق لكل فكر ، وكان طبيعياً أن تعد رمزاً للانحطاط القومى الذى حل بهم .

وكانت ثورة برشلونة تلقائية سيئة التنظيم ، فقمعت بعد قتال دام ثلاثة أيام .
حتى إذا أخمدت الثورة قبضت السلطات على رجل من عظاء التربويين بأسبانيا إسمه ه فرر Ferrer ، كان أسس ه مدارس علمانية ، بقطلونية ، ب وأعدمته في (١٩٠٩) دو ن أن يكون له يد في الثورة . وكان الرجعيون يستطيعون قتال أعدائهم في أرض الوطن ، ولكن الحال بمراكش كانت مختلفة جداً . وكان رجال قبائل الريف قد أنز لوا هزيمة منكرة بالماريشال مارينا قبل إعدام فرر ببضعة أيام . وظل الشعب الأسباني ينزف دماه م بمراكش قبل حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ وبعدها ، حتى حلت

بهم هزيمة قاضية فى ١٩٢١ على يد الأمير عبد الكريم الخطابي (٢٠). فإن جيشاً عدته تسعة عشر ألفاً لتى الهزيمة واللبيح ؛ ولم ينج منه سوى تسعة آلاف فروا إلى المنطقة الفرنسية .

ولعلنا بهذا قد وفينا تلك الحركة الجمهورية وأسباب تقويتها حقها من الحديث ، وأوضحنا لماذا حصلت على أغلبية كبيرة في مجلس الكورتيز الذي عاد إلى الانعقاد بعد أن ظل لا يدعى للاجتماع مدة ثمانية أعوام ، وكيف أن الملك ألفونسو شعر بدنو الثورة ، وكيف أنه لمدن سماعه أصواتاً في الشوارع حزم أمتعته وفر تاركا أميرته المربطانية لتتبعه بعد بضعة أيام دون أن يمسها أحد يسوء هي وأسرتها ووردتها اللهبية (١٩٣١) ، وجاء بعده حكم جمهوري برياسة الرئيس زامورًا ومعه آزانا رئيساً للوزراء . فوجدا نفسهما تلقاء عبء ضخم من الإصلاح الاجتماعي .

نقد استنزفت الكنيسة وعلية القوم دماء البلاد حتى خارت قواها ، وصارت متأخرة عن الزمان بمثنى عام . وكانت بحاجة إلى آلاف من المدارس الأولية ، واستلزم الحال إعادة بناء صرح التربية إعادة تامة ، وكان لا بد من توزيع المزارع المضخمة المهملة التى تملكها الكنيسة والسراة على الفلاحين ، وكان لا بد من إنقاذ الصناعة من برائن الاحتكاريين من أصحاب المنح والامتيازات . وكان ذلك وحده علية جبارة هائلة . ولكن الحكومة الجديدة اضطرت أيضاً أن تتفاهم مع قطالونية ومع الانفصاليين من الباسك . ومع نفاد الصبر الساذج الفجيج الذي أبداه الأميون المهلة الذين كانت هذه الحكومة تحررهم وأبدى زامورًا شيئاً من الميل الرجعي ، وأحدث الملكيون بعض الفورات التي أثارت عليهم خصومة اليمينيين واليساريين على السواء . وكان آزانا يعبر عن الرأى التحرري اليساري ثم اعتقل في ١٩٣٤ . ثم انتخب في ١٩٣٤ رئيساً بدل زاموراً . ولكن الاندقاعة نحو اليسار أصبحت آنذاك

⁽١) الأمير عبد الكريم الحطابي (١٨٨١ – فبرأير ١٩٦٣) قائد الريف العربي. أنزل بالأسبان الداء يمة الماسقة في ١٩٢٦. ولكن جيثاً فرنسياً ضخماً بقيادة يبتان أرخمه على التسليم في ١٩٢٦. ولفي لن جزيرة ريونيون بالمحيط الهندى. وسمح له في ١٩٤٧. بالعودة إلى فرنسا ، ولكنه بأنا إلى مصر في طريق عودته حيث ظل بها إلى أن مات بطلا من أبطال العروبة . (المترجم)

أشد عنفاً. وأصبح من المحال إبعاد جاهير الملن عن الأديرة والكنائس، وكانت كراهية الفلاحين لقسوس الأبروشيات من الشدة بحيث أصبحت مقلقة . فإزاء هذه الحالة أصبحت الحكومة الجديدة عاجزة تماماً عن خلق العهد السعيد المرتقب . فاتهمت ببطء الحركة وقيصتر مدى التقدم عما ينبغى أن يكون عليه الحال . واضطرت أن تواجة إضرابات لا تحت إلى التعقل بأدنى سبب وتجابه اتحادات نقابية فوضوية ، اعتنقت ضرباً من التأثر بمذهب روسو يخالطه التلاذ بالوسائل العنيفة . (ويجد القارىء عن ذلك بياناً ممتعاً كتبه رامون سندر في كتابه (وسبعة أيام أحد حمراء Seven Red عن ذلك استمرت هذه الحكومة في كراسيها بشجاعة وصلابة ، فلولا أن قرى الرجعية المتجمعة هاجمتها فلعلها كانت ترفع أسبانيا حتى تقف صفاً وفي تعاون فعال مع ديمقراطيات الأطلنطي .

وقد حاول مغامر عسكرى اسمه فرانكو (١٩٣١) أن يعلن تصريحاً جمهورياً يقوم في ظل الملكية . ثم عفت الحكومة عنه ووكلت إليه إمرة أحد الجيوش بمراكش ، وهناك أيضاً وجد فرصته حيث كان أى رجل نزيه في مكانه يجد فرصة للخدمة وأداء الواجب . فأعلن الثورة على الحكومة المكافحة للأهوال بمديد (١٩٣٦) . وهزا أسبائيا بجيش من المغاربة ، مدهياً أنه سرد النظام إلى نصابه ويعيد المسيحية وحقوق الامتلاك وأى شيء أحس أنه قد يروق قوى الرجعية في البلاد . وأيدته حكومتا الأتليات المطلقة (Totalitarian) بألمانيا وإيطانيا ، التي رأت في أسبانيا احمالات القيام كذلك بركات الفاتيكان ، كما حصل أيضاً على عطف فعال من العناصر الرجعية في الحكومات المريطانية والفرنسية ، وهي حقيقة لا سبيل إلى إنكارها رغم إصرار تلك في الحكومات الصفيق على نكرانها في الرلمان . وقد بذلوا قصاراهم منذ البداية لتعويق وصول المساعدات والمدعائر للحكومة الأسبانية الشرعية ، واعترف كل چنتلانية أوربا بأن فر انكو إنما هو « چنتلان مسيحي » . فاندفع قدماً نحو مدريد ، ولكن جند الحكومة صدوه وأوقفوه مكانه ، وأصبحت أسبانيا عند ذلك مسرح مظاهرات المحكومة التي كانت تشغل البشرية آ تداك .

وسنتناول تلك القوى بترتيبها التاريخي ، فقد كانت هناك أولا المجموعة المعقدة الكبرى من التقاليد والمصالح والكرامات والامتيازات التي ترجع إلى الأيام السابقة للإصلاح الديني البروتستنتي وإعلان الاستقلال الأمريكي والثورة الفرنسية . وقد نستطيع أن نسمى هذه القوة بكل ما يندرج تحتها من قسوسة وملكية عاهلية وقوات مسلحة وغيى وفقر باسم النظام القديم . وقد أخبرناك في كتابنا هذا كيف أن روح الحرية في الإنسان كافحت للتخلص من كابوس الماضي وكيف حدث المرة تاو المرة أن قوى الرجعية قد تسللت عائدة في خفية وإصرار إلى مواطن تحكماتها السابقة . والأمر التالي في الترتيب في استعراضنا هذا هو العنصر الثاني : الروح العسكرية ، فإن الفاتح المغامر جندى العصابات الذي كان أول ما فعله كجندى من المرتزقة أو مترحل من الخارج أو وطلى صخاب من الداخل ، أن نظم قوة محاربة لا سبيل إلى مقاومتها مؤقتاً تم وضع يده على زمام النظام الاجتماعي . وهو لا يجتلب معه أية فكرات بناءة ؛ ولا يصر إلا على شيء واحد هو المذلة الحاضعة والطاعة الطبعة ، ولا بد للنظام القديم من أن يبعث حياً عن طريقه إن عاجلا وإن آجلا فذلك هو إيقاع التاريخ .وهو غير صالح إلا وهو مرتد ثوبه العسكرى ، ولا بد له من شراء رضا الحياة بثمن . ولابد أن يقوم على خدمته القسيس وأرباب المنح والامتيازات ؛ وغالبًا ما تكون المرأة الأرستقراطية مستعدة تمامًا لتلبين أخلاقه . والكنيسة الكاثوليكية مستعدة كشأنها دوماً أن تعطى ما لقيصر لقيصر . وبذا يستطيع النظام القديم بشمن بخس هو تجرع الشيء القليل من المذلة الفردية أن يوفق بين نفسه وبين المعتدين الجدد ، وبلًا يتجنب لمدة جيل آخر عملية مخوفة من إعادة بناء العالم وتحرير الرجل العادى .

والمجموعة الثالثة من القوى الموثرة فى الشئون البشرية أقوى من الإثنتين الأخريين أو تكاد . وقد تتبعنا تطورها فى هذا الكتاب : المعالم ، منذ فجر نشوء الفكرة فى بلاد يونان وفلسطين والهند والصين وأماكن أخرى : بأن فى الامالار أرر تكور مناك هباه أفضل للبشر . والواقع أن هذه الفكرة مرتبطة بالتوسعة المادية المطردة التقدمية للمجتمع البشرى ، — هى الفكرة الجلوهرية التي يدور حولها هذا الكتاب بأكمله . ولم يكن ذلك جزءاً من خطة المعالم الأولى ، ولكن هكذا خرج الكتاب

على أن الرجاء في وقيام وغوة أكبر وأعظم ولم يتجلحي اليوم إلا بصورة محلية ومتقطعة وغير متاسكة. فالآن وعلى هذا المسرح الأسباني المثير ، تقاربت هذه الدوافع المتناثرة وغير المنتظمة ، الداعية إلى قيام حياة الرجال أفضل ، حيث اجتمعت لتحقق على الفور روحهم المشتركة وحاجتهم المحزنة إلى سنة مشتركة تجتمع حولها دغباتهم ، وانثال المتطوعون لمعاونة اليساريين الأسبان من كل حدب وصوب في العالم ، وهناك وجدوا أنفسهم مشتركين متهاثلين روحاً ومختلفين منهاجا اختلافاً لا مطمع فيه لبارقة رجاء . وإنهم ليأبون أن يتهاسكوا جيعاً حتى وهم غرض لهجوم عاصف متواصل . فكانوا يقتلون فيها بينهم خلف الجبة . حتى إذا بدلوا في القتال أشد الجهود بطولية ، أسهموا في النهاية في هريمة مشتركة .

وهكذا نميز الأقسام الرئيسية الثلاث فى الكفاح البشرى الدائر اليوم ، كما تجلت فى أسبانيا . ولم يبد واحد من هذه الأقسام أى اجماع على الهدف قوى حقاً . فهسى لاتزال أقساماً تقوم على الغريزة والتعصب ، لا على الإرادة المفكرة . فني كل مكان ، توجد احتمالات لقيام تبادلات ضخمة فى القوى . وفى كل مكان تظل عواقب الأمور معاة ونتائجها غير حاسمة .

ومع ذلك فإن الطعنة البشرية المتجهة نحو ذلك النظام الأفضل القائم على الحرية والأخوة تعاود الظهور بعناد لا تفتر له قرة . وهي همياء تتخبط في مسرها ، ولكن قد يجئ عليها وقت يصير لها فيه بصيص من بصر ، ووقت تصبح فيه بصيرة تستمتع بالرؤية الكاملة والفهم الصحيح مدركة الغرض المشرك من اندفاعتها . هذا وإن ترسمنا لتاريخ الإنسانية إبان السنوات العشرة الآلاف الأخيرة ، فيعلنا في هذه و المعالم ، يجعلنا ندرك أننا نسير بحركة قسرية كحركة الأجرام السياوية المضبوطة ، نحو توحيد عالمي شامل مؤسس على ثورة اجتماعية جوهرية . ومع ذلك فأغلب الظن أن تلك الثورة ستكلف نوعنا البشرى مزيداً هائلا لا يمكن حصره من الحسار والمدمار والعناء بسبب اتساع الفكر البشرى الساعاً شاملا لاحد له . وقد يكون للحيوية البشرية حد تقف عنده . ومن المعقول جدا أنه ربما فم تتم هذه الثورة مطلقا ، وأن نوعنا البشرى ربما ترنح

فى منتصف طريقه إلى هدفه وكبا ثم أخفق دون الوصول إليه . فليس ثم سبب نجده فى التاريخ داحيا للزعم بأن الإنسان مستثنى من القاعدة العامة القائلة بأن الفشل فى التكيف معناه الإبادة . فهل نحن نتكيف ؟ هل نحن نتكيف بسرعة كافية تلقاء فوضانا الحاضرة ؟

لقد خصصت هذا البراح الكبير وخضت هذا البحث العام في العوامل الأولية في موقفنا الراهن بعد أن كشفها الصراع الأسباني للعيان . على أن التاريخ التفصيلي للصراع الذى دار في تلكم السنوات الثلاث ملحمة للبطولة المرتبكة المشوشة تخرج بنا عن مجال هذه ﴿ المعالم ﴾ . وقد شق فرانكو طريقه قتالا حتى بلغ أرباض مدريد وحصل على موطئ قدم في حي الجامعة الجديد قبل نهاية ١٩٣٦ ، ولكنه صد هناك حتى نهاية الصراع في ١٩٣٩ . وفي أثناء تلك المدة ظلت وزارتا الخارجية البريطانية والفرنسية الرجعيتان تحافظان على ظاهر من التمسك بالقانون وعدم التدخل ، كان عونا عظيا لعرانكو . وظلت ألمانيا وإيطاليا على معاونتهما العلنية له ، كما واصلت الروسيا معاونة الحكومة الشرعية بنفس العلنية تقريباً . ومن ثم أصبحت أسبانيا المعترك والمجتلد الذي تجرب فيه تلك الدول العظمي بأقصى درجات القساوة والعنف تكتيكاتها الجديدة وآلاتها الجديدة . وكانت الحيوش الألمانية والإيطالية تحارب جنباً إلى جنب مع مغاربة سلطان مراكش باسم « القومية » الأسبانية ! 1 . . فحت قاذفات القنابل الألمانية من الوجود مدينة جورنيكا الباسكية المقلسة بكل من فيها من السكان في ١٩٣٧ ، وبذلك تسلفت مذبحة روتردام العظمي في ١٩٤٠ . وتقدم شعب الباسك وهو شعب كَانُولِيكِي مُخْلَصَ إِلَى القَاتِيكَانُ بِاسْتَغَانَةً يَانُسَةً مُحْزِنَةً لَمْ تَجِلُهُ نَفْعًا . وظلت الحكومة الجمهورية تكافح حتى ابريل ١٩٣٩ وعندئذ دخل قرانكو مدريد منتصرا .

١١ - قيام النازية

هناك كتاب ألفه هانز فالادا وجعل عنوانه : « وماذا بعد ُ أيها الفتي الصغير؟ » وهو أحد تلك الكتب التي يبز فيها القصصي ُ المؤرخ في عرضه لحو تحدث فيه وبسببه

الأحداث ؛ وهو كتاب يمثل الحالة العقلية لشاب ألماني في السنوات التي أعقبت الحرب . إن و فتاه الصغير ، ذاك شاب عاطل ذليل مهان ومدفوع قسرا إلى التمرد . وهو يقع في الحب ، وتصير أبوته شيئاً مخجلا ومستقبل كل طفل يلده هو الوقوع بين براثن نقص التغذية والاستعباد . وليس أمامه مخرج يخرجه من حاله البائسة إذ ليس ثم وراء البحار عللْم يستطيع رجل أن يبدأ فيه حياته من جديد . فما السبب في كل هذا البلاء ؟ ليس هناك من أحد يحدثه عن حماقة ١٩١٤ الصلفة المتكبرة وكل ما يقرأ ويسمع مشبع بالإشارة إلى أن (عقوبة) فمرساى كانت شديدة الإجحاف. وأنه لن يكون إنساناً من البشر إن هو لم يتقبل الفكرة القائلة بأن أبخيوش الألمانية لم تهزم فى ١٩١٨ ، (وهو أمر حدث بكل تحقيق) ؛ بل كانوا ضحية الحيانة والغدر . خانتهم الدعاية البريطانية الحبيئة وأضاعتهم منالداخل الخيانة . وإذن فإن كل هذا الفقر الذي يرزح تحته إنما يرجع إلى الحصار البحرى الجائر الذي ضرب على بلده وإلى ما مُحلت من عبء التعويضات الفادح وإلى دسائس اللىوائر المالية العالمية سيما اليهودية وإلى جشع اليهود . وإنه ليجد أن معظم أصحاب الأعمال الذين يذهب إليهم يائساً يكونون من البهود - أو يلوح أنهم من البهود . وأن المهود يختفون إبان أيام الفقر ويزدهرون أيام الرغد . وربما يكون بعضهم ازدهر أزدهاراً شديد اللمعان قليلا أثناء السنوات التي أعقبت الحرب . وإن ١ الفتي الصغير ۽ الذي كان طفلا غريراً في ١٩٦٨ والذي لم تسمع أذناه إلا حديث الانتصارات المجيدة حتى حلت ببلاده كارثة الانهيار وما أعقبه من جوع وفاقة ، لينظر شزراً إلى المطاعم ويرمق ببصره واجهات الدكاكن . فهل يتحول إلى البلشفية ؟ ولكن أينسي أن الديمقر اطبين الاشتراكيين ومعهم الشيوعيون كانوا مشتركين في المؤامرة التي أسقطت جبة الوطن ؟ إن حزب الديمقراطيين الاشتراكي يقدم الفَرنسيين والبريطانيين كل أنواع التنازلات ، ولكنه . لا يحصل مقابل ذلك على شيء -- رو يحصل على شيء . يخرمني مما أنا فيم . تلك هي الحالة العقلية لجيل كامل جديد من الألمان ، ولملاين من الشبان الذين ضافت عليهم الأرض وأذلتهم الأيام . وأخذت تلك الحال تجمّع القوى المتفجرة المدمرة في أيام الانهيار المالي التي عجلت بانصباب كل شياب البرجوازية

بأجمعه فى طبقة المحنة المفسدة . وقد كان الشكل الحاص الذى تشكل فيه الانفجار ثمرة لصدفة فردية بحتة . واتخذ شكل حرب ضروس كانت أشد الحروب التى منيت بها الإنسانية وأجلها للكوارث عليها .

وكانت الحمرة المتقدة التي أشعلت هذا المخزن البشرى المكدس بما لا يطيق من أحمال ، رجلا اسمه أدولف هتلر ، وهو مخلوق مطبوع على الهيجان وكثرة الهزر فيه عرق لا شك فيه يمت إلى الجنون بسبب كبير . وقد زعم بعضهم أن اسمه الأصلى شكلجروبر (Schückigruber) على أن هذا بعد ضربا من التشهير به . وكان أبوه رجلاهريسمي ألويس شكلجروبر ، وهو ابن غير شرعي لامرأة تسمي شكلجروبر ، ولكن ألويس تربى في بيت رجل شهر عنه أنه أبوه وهو هتلر ، وهو عامل طحان ، وما لبث ألويس أن اتخذ الم خاك الرتجل لقباً له فاصبح يدعي شكلجروبر هتلر . ثم أسقط من اسمسه لفظ شكلجروبر بسبب بعض دواعي العنجهية والترفع فيا يحتمل . وكان ألويس على شيء من الهمة والطموح ؛ وكانت له زوجات ثلاث وأحاطت به الظلال حول أطفال شرعين له وأطفال غير شرعين ، له زوجات ثلاث وأحاطت به الظلال حول أطفال شرعين له وأطفال غير شرعين ، ولكنه كافح حتى بلغ مرتبة كريمة وأصبح يلقب بلقب الميد الرئيس (الهر أوبر) . ثم الجارك . وكان يظهر إصراراً صارماً على التلقب بلقب السيد الرئيس (الهر أوبر) . ثم مات فجأة وابنه لم يبرح تلميذاً بالمدارس ، وترك أرملته في پوس مدقع .

وقد كشف النقاب عن هذه الحقائق وعن تفصيلات حياة هتلر الأولى ، بكل عنابة وأمانة رجل اسمه الدكتور رودلف أولدن فى كتابه : « هتلر الجندى » . وإن معظم ما جاء فى كتابه « كفاحى Mein Kampf » أو سرد على مسامع من حظوا بلقائه من ببانات عن تربيته ومطاعه وأعماله العسكرية العظيمة وما إليها ، لهو محض اختلاق أو تسويهات جريئة للحقائق . وقد أخفق هتلر فى دراسته بالمدارس تمام الإخفاق ، ولم يستطع أن بحصل على المؤهل اللازم لمدخول مدرسة الفنون التابعة لأكاديمية فيبنا . وحدث فى عقله شيء غامض لا نعرفه عندما شارف المراهقة وتطور فيه ضرب

Herr Oberofficial Hitler, ()

مشهور من الجنون يتمثل فيه هو وأشياء أخرى في صورة بغض فاحش لكل غريب ذكر . وهو داء يوجد بالمنطقة الجنوبية من الولايات المتحدة ويتخذ بوجه خاص إزاء الزنوج وكثيراً ما يودى إلى إعمال القتل فيهم على يد الأفراد أو الأحزاب الى تنزل بهم قصاصها بيدها دون انتظار الحكومة ؛ وتركز الداء في حالة هتلر على البود . ولاشك أن انحصاراً نفساً (۱) من هذا النوع يجرد المرء من إنسانيته ويضيق الخناق على ألوان نشاطه ويحددها ويصبح مصدرا للطاقة السقيمة الوبيلة . وقد طرد من الجيش قبل ١٩١٤ ، ولكنه تطوع قبل نشوب الحرب وأصبح يشتغل مراسلة . غير أنه لم يرتق قط فوق مرتبة أومباشي . هحصل على وسام العمليب الحديدي من الطبقة الأولى ، ولكن أحاديثه عن طريقة حصوله عليه تختلف المتلاطاً بعيدا . على أن ملف خدمته في الجيش النظامي (Reichswehr) والحرب تقد أتلث .

وظل هذا المخلوق غير المستقر يميش في دنياه حالماً متحدثا إلى نفسه أثناء السنوات القاتمة السابقة للحرب؛ ويبدو أنه لم يكتسب عيشه قط من صنعة ولا حرفة، وأنه انحدر حتى لبس الأطار البالية وسكن البيوت الرثة، وطرد من الحدمة بالجيش الفسوى بسبب عدم لياقته، ولكنه عاد فتطوع في ١٩١٤؛ واشتهر بين رفاقه في جهة القتال بأنه ثرثار هاذر، وحدث بعد ذلك في ميونخ أن فيضانه الدافق المتزايد من الكلمات كان واضحاً لكل من تحدث إليهم. وكانت باقاريا بعد ١٩١٨ مباشرة في حالة اضطراب شديد. فقامت بها جمهوريتان سوڤييتيتان، ثم رجعية عسكرية. ونظمت هيئة أركان حرب الجيش الباقاري ندوات المناقشة السياسية لتربية وعي الشعب وتحذيره من الشيوعية ونزعات الهدئة والسلام. وتحركت عواطف هنلر في أحد هذه الاجتاعات الذي عقد ببعض ثكنات الجيش، فألتي ضد الهود خطاباً مقذعاً

⁽١) الانحصار النفسي (Obsession) حالة مرضية مظهرها فكرة مساورة ملحة أو منبة ، تكون مصطبغة عادة بصباغ قوى من الانفسال ، وتنظوى كثيراً على دافع يحدو إلى الإقدام على بعض الأعمال .
(المترجم)

ملهباً عنيفاً كان له وقع عظيم فى أنفس سامعيه . وكانت عاقبة ذلك أن عين « ضابط تعليم » . ومنذ تلك اللحظة لم يعد مجرد خطيب سليط غير مسئول .

واضطلع هتلر بأعباء منصبه الجديد مجاسة . فكان يغشى ثكنات ميونخ ومقاهما بفصاحته السيالة . وأنشأ على التعاقب حزب العال الألمانى ، ثم حزب العال الألمانى القومى الاشتراكى ، الذى تحول إلى الحزب القومى الاشتراكى . وكان ذلك الحزب يقدم للناس توليفة مخلطة تجمع بين الاشتراكية والوطنية ومهاجمة اليهود والنشاط الإرهابى والوعود الضخمة ؛ وهى الشيء الذى كان الرجل الصغير » يحس أنه بحاجمة إليه .

لقد نقفت بيضة الجيش عن فرخ أكبر عما كان يقصده . وفي ١٩٢٣ أخا الحزب القومى الاشتراكي ينمو بنسب هائلة كما كون هتلر تحالفاً مع الجنرال لودندورف ، الذي كان يثير عند الناس دائماً فكرة خوض حرب انتقامية ، فحدث عصيان (Putach)كان عاولة طائشة للاستيلاء على السلطة في ميونخ والزحف على برلين . ولكن الحركة فشلت فشلا غير كريم ، فاستونى الحزب القوى الاشتراكي على دار البلدية ، ثم تنازعوا أمرهم بينهم وزحفوا على مركز قيادة الجيش . وهناك أطلق عليهم البوليس النار . وانبطح هتلر على الأرض فأصيبت ذراعه برضوض ثم أطلق ساقيه للريح . وجرح جورنج نجيه وشريكه وفر هارباً هو الآخو . وذلك على حين أن الشجاعة وغرور الكبرياء دعت لودندورف الشيخ الشهم أن يسير ثابت الحطي بين طلقات الرماة المهرة حتى أخذ أسرا بين الإكبار والإعجاب .

ولم يكن كل ما حصل ليزيد عن قصة تافهة ريماكان هتلر يمر بعدها من التاريخ لولا وجود تلك الجمهرة من الشياب المتجمعة في الحلفية . وهم لم يكونوا فقط في الحلفية . إد الهم جاءوا إلى المحكمة ليصيحوا في صالحه ، وكانوا يصيحون آنذاك وبزحفون في كل أرجاء ألمانيا ، ودخل هتلر سجن لاندسعرج على الليخ لمدة ستة أشهر ، كنب فيها كتابه وكفاحي . Mein Kampi ، وهو إنتاج أي أشبه بإنتاج تلامذة المدارس ، كتاب رخيص تافه كمجاجة من جعة أزيلت من فوق منضدة بإحدى

المقاهي ، ولكن ذلك الكتاب بُجل وقُدس وجعلت مطالعته إجبارية في كل أرجاء العالم الألماني .

وتقم فترة عهد شترزيمان في التاريخ الألماني بين محبس هتلر في ١٩٢٤ إلى تجدد نشاطه في ١٩٢٩ . وقد بدأ جوستاف شترزيمان سبرته وطنياً متحمساً ؛ وقد وجه بواكر نشاطه لأول عهده بالحياة العامة بإثارة المشاعر للمطالبة بإنشاء الأسطول الألماني ليكون تهديداً فعالا لمريطانيا ، إن هي تلخلت في الحرب ضد الروسيا وَفرنسا وذلك أثناء فترة وضع الخطط لها قبل ١٩١٤ . وواصل شترزيمان القيام بجهوده الوطنية الحامية طوال الحرب ، وظل مثابرًا على ذلك حتى بدأ يدرك فرص الموقف الألماني وأخطاره الحقيقية بعد ١٩١٨ . ثم عاد فاتخذ خطة التسامح والمساهلة وكان ذلك بفضل الجهود الدبلوماسية الكبيرة الاقتدار الثي بذلها اللورد د . أبرنون السفير البريطاني . فوجه جهوده لتخفيف دفعات الديون المفروضة على بلاده تخفيفاً مطرداً ، ونعبُّب نفسه لتحرير الأراضي الألمانية من الاحتلال الأجنبي . وأخذت الحبرة توسع آفاق عقله ، ختى أمسى صديقاً حميا للمسيوبريان ، كما أصبح فيها يبدر مدافعًا أصيلا يدعو معه إلى الاتحاد الفدرائي الأوربي . وأصبح من المقرر بالقطع أن الأراضي الألمانية ستتحرر من آخر جندي أجنبي في ١٩٣١ . ولكنه لم بعش ليشهد ذلك اليوم ؛ إذ توفى في ١٩٢٩ . ولذا لم يحس تقريباً ببدايات العاصفة الاقتصادية العالمية التي كانت تتجمع من حوله . كما لم يدرك الشر المستطير الكامن وراء تلك العصابات المكونة من أولئك الشبان القلقين الذين كانت نفوسهم تغلى تمرداً في كل مدينة من مدن البلاد . إذ أن عقله كان ينصب بكليته على أفكار الدبلوماسية القديمة .

وقد أسلفنا إليك الحديث فى القسمين السابقين من هذا الفصل عن الانهيار النقدى الذى حدث بعد الحرب والذى بلغ ذروته فى ١٩٢٣ ، وكيف جاء أوان حاول فيه الناس عمل تأهيل مزعزع للمناهج النقدية ، وكيف حدث أخيرا فى ١٩٣٠ ل نحر النظام بأجمعه منهاراً كارثة مالية عمت أرجاء العالم قاطبة . وهنا وافت هتلر فرصته الثانية . وكانت أدواته القريبة المباشرة حركات الشباب

المتوحة التي از دهرت بآلمانيا بقدر ما از دهرت حركة الكشافة الموازية لها بالإمبر اطورية البريطانية ، ولكن مع اختلافات ضخمة في الروح والحلف. ولكي يستطيع تنظيم قوة منظمة موحدة الزي من أدواته تلك التي ذكرنا وأعني بها شباب ألمانيا ، كان لابد له من العون المالى ، وقد حصل على ذلك المال اللازم من الماليين الفائمين على الصناعات الثقيلة ، التي كان از دهارها يستلزم العودة إلى التسلع ، والتي كانت من أم عدوة لدودا لسياسة السلام التي ينتهجها شترزيمان . فقدم نفسه إلى أولئك الأقطاب في صورة معاون كفء لهم في الفضاء على الاضرابات ووسيط نافع لهم في تحويل في صورة معاون كفء لهم في القضاء على الاضرابات ووسيط نافع لهم في تحويل قلق الجماهير عن وجهة الثورة الاجتماعية وتوجهها إلى حلة صليبية تدعو إلى الوحدة الألمانية . فاستطاع الحصول على تأييد هوجتبرج مدير مصانع شركة كروب العظيمة وملشيء الحزب و القومي الاشتراكي الألماني ، وزعيمه . وكان وجلا قصيراً أشيب متغطرساً ميالا إلى التحكم ، وقد زعم أنه بذلك قد اشترى هتلر . ولكنه أخطأ مناطماعة الحيش الذي أخذ يتتعش ويتسع .

وبذلك أصبحت بن يدى هتلر وخلطائه الأقربين ومن ورائهم رجال الصناعة أعظم الموارد الممكنه للقيام بحملة شديدة لاسترجاع الروح العدوانية إلى ألمانيا ، فاللفعوا يقومون بالمهمة بأقصى همة ونشاط ، ونظمت في البلاد كلها روح العنف على البود وعلى المفكرين وعلى الشيوعيين ، وهدد الأخيرون بالإبادة التامة ، وكان عملهم هذا عاكاة دقيقة لحملة الوحشية والارهاب التي بهضت بها الفاشية وتسلمت مفاليد القوة بإيطاليا ، ولكن حملة هتلر كانت نظامية أكثر وكانت أوسع مدى وأشد وحشية ، وفي ١٩٣٠ كان للحزب القوى الاشتراكي اثنا عشر عضوا في وأشد وحشية ، وفي ١٩٣٠ كان للحزب القوى الاشتراكي اثنا عشر عضوا في بعد أن كانوا في ١٩٣٤ أربعة عشر ، ثم ظهر الحزب في ذلك المجلس بعد انتخابات سبتمبر ١٩٣٠ وقد أصبح ممثلوه مئة وسبعة ، يمثلون سنة ملايين بعد انتخابات سبتمبر ١٩٣٠ وقد أصبح ممثلوه مئة وسبعة ، يمثلون سنة ملايين ونصف المليون من الناخين ، وهكذا ارتقي هتلر إلى الثلاثة عشر مليونا الذين أعطوه

أصواتهم فى انتخابات الرياسة فى ١٩٣٢ مقابل التسعة عشر مليوناً التى حصل عليها الماريشال الشيخ هندنبرج .

والغدوات السياسية والروحات التي أعقبت ذلك أعقد من أن يتسع لتغاصيلها هذا المقام. وفي يناير من ١٩٣٣ تراجع الماريشال هندنبرج ... وقد تجاوز آنذاك الخامسة والثانين وأصابه انحلال الشيخوخة المفرط ... عن تصريحاته التي طالما كرر فيها قرله : ٩ أني أقسم بشرفي كقائد بروسي أني أن أفعل تلك الفعلة » ... وفعل الفعلة وعين هتلر مستشاراً إمبراطورياً للدولة . والراجع أن الرجل العجوز نسى تصريحانه 1 1

على أن هتلر كان حتى ذلك الحين لا بزال واقعاً في قبضة الجميش ورجال



(شکل ۲۲۳) (مبورة هتلر)

الصناعة ، وبعيداً بعداً شديداً عن مرتبة الدكتاتورية الحقة . وقررت مجموعة أخصائه القيام بانقلاب . فأشعلوا النار في الريخستاج (٢٧ فراير) وأعلنوا أن ذلك جزء من مؤامرة شيوعية شملت الشعب كله وقاموا بحملة ضارية من العنف على الشيوعين والمهود . وأخطر وألمغيث نقابات المهال وبنوك المهال . وأضطر واحد وثمانون نائبا شيوعياً في الريخستاج الجديد إلى الخارج أو وضعوا

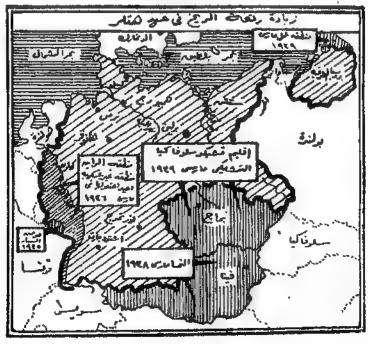
فى السجون . وبإلغائهم من ذلك المجلس أصبحت لهتلر الأغلبية الفعالة فيه .

و بجمت عن ذلك حادثة طريفة . فإن الجهاز الارهابي التابع للحزب الديمقر اطي الاشتراكي كان فرقة الصاعقة S.A ، وهي جند الصاعقة غير القانونيين الذين نظمهم (روهم) أيام نزع السلاح من ألمانيا . والآن وقد أخذت البلاد تتسلخ بجرأة تحديا للالتزامات التي نصت عليها المعاهدة ، فإن فرقة الصاعقة S.A أصبحت من وجهة نظر الجيش النظامي (The Reichswehr) طغمة مشاغبة ولا ضرورة لها . وقرر هتلر

التضحية بها . ومن ثم فإن روهم وجريجورشراسر وعدداً من الرجال الذين كانوا أشد أخصائه قربا منه وولاء له فى أيانه الأولى ؛ والحنرال فون شليخر وزوجته وعدداً غفيراً من زعماء فرقة الصاعقة SA أغتيلوا فى وحمام الدم والذى حدث فى ٣٠ يونية (١٩٣٤) . ومن بعدها لم يعد هتلر زعيا للشعب الألمانى بقدر ما هو الإله الشاخص أمام أبصاره . ومنذ ذلك الحين أخذت ألمانيا تنحدر بقيادة ذلك المخلوق المخبول الثرثار نحو طريق الحرب رويداً رويداً .

١٢ ــ العالم ينحدر نحو الحرب

دبر هتلر خطة الحرب فانزلق إليها العالم دون أن يبال أى جهد لتجنها . كانت المحاولات الجادة الوحيدة هي التي بذلها الاتحاد السوڤييتي ، الذي اعتبر نفسه موضع النهديد المباشر من النازيين . وقد انضم الاتحاد السوڤييتي إلى عصبة الأمم في ١٩٣٤ ، فقلب بذلك سياسة لينين رأساً على عقب ، وقرر في السنتين التاليتين كما أشرنا آنفاً أن يحمل الأحزاب الشيوعية بكل أرجاء العالم على تبني سياسة « الجنهة



(شکل ۲۲۹)

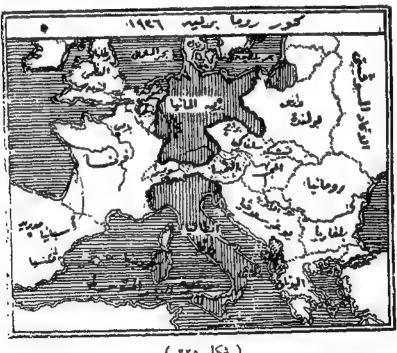
المتحدة التي تهدف إلى تقوية الحركات المضادة للفاشية بالأقطار الأخرى . وبينا كانت الكارثة تقترب افترح ليتفنوف أكثر من مرة القيام بمقاومة مجتمعة لتقدم المحور ، وهو أمر ظلت الحكومات البريطانية والأمريكية والفرنسسية تنجنبه على الدوام .

وكان هناك سببان أورثا بقية العالم ما كان فيه من قصور ذاتى . فأما فى الولايات المتحدة فالسبب هو إطلاق العنان لأماني لا يمكن أن تتحقق . وقد وجهت الولايات المتحدة أثقل ضربة للسلام العالمي حيث انسحبت من العصبة منذ ابتدائها ، ومنذ تلك اللحيظة أصبح من العقائد القومية تقريباً أن تتجنب أمريكا التورط في الحرب القادمة بطريقة بسيطة هي الامتناع عن أخذ أي دور في الشئون الأجنبية . وكان الرئيس روز فلت هو السياسي الأمريكي الوحيد الواسع النفوذ الذي رأى في نمو النازية خطرا قد يهدد الولايات المتحدة ، ولكن تصريحانه في هذا الأمر (كخطابه في « الحجر المصحى » مثلا) لم تكن بالكثيرة ولا القوية ؛ وتلقاها الناس في أمريكا بغاية الفتور . وحدث في عهد متأخر هو يوليو ١٩٣٩ ، أنه اقترح تعديل قانون الحياد ، فأبي مجلس الشيوخ قبول ذلك . ومع ذلك فإن حكومتي بريطانيا وفرنسا لم يكن في مستطاعهما أن تدعيا لنفسهما أن قيام النازية لا يعنهما في شيء. ومع ذلك فإنهما كانتا تعمدان إبان عدد من السنوات إلى القيام بأعمال من شأنها أن تبني قوة الدولة التي سندمرهما . ولابد أن الأسباب التي دعتهما إلى ذلك كانت تقوم على الحدس والتخمين . ولا يكنى أن يقال إنهما انتهجتا ذلك النهج لأنهما دولتان عجوزتان وغنيتان داخل الخوف قلبهما . ولَجَّت في بريطانيا بوجه خاص في الإصرار على اتباع تلك السياسة (بعد تقاعد مكدونالد وبلدوين) مجموعة رباعية من الرجال هم : تيقل تشميران ولورد هاليفاكس والسير چون سيمون السير صمويل هور ، وهم رجال مكتهلون حقاً ، ولكنهم أقوياء وعُننَداء وأمناء بشكل فادح كارث . ويبدو أن ماكان يحرك هؤلاء الرجال إنما هو فكرة خاطئة تمامًا عما كانوا يواجهونه ، نشأت السهم عن ضرب مقلوب من الفهم تبادر إلى أذهائهم جول حرب الطبقات . فإنهم رأوا أن النازيين والفاشيين كانوا متى انتصروا يقضون تماماً على تنظيمات الشيوعيين

قبل كل شيء ثم على جميع اتحادات العال والأحزاب الاشتراكية ؛ وأنهم كانوا يضمدون كل و غالفة للنظام ؛ وأنواعاً غتلفة من النزعات العصرية غير الصحية في الفنون والأخلاق ؛ وأنهم كانوا يدربون الشباب تدريباً معجباً على النمارين العسكرية العنيفة ؛ وأن مواردهم المالية تعود إلى المساعدات التي يمنحها لهم رجال الأعمال الناشطون . ويبدو أن المحافظين بكل من بريطانيا وفرنسا كانوا يشعرون إزاء هذه المسائل بروح العطف والزمالة النازيين والفاشيين وإن أحزنهم فجاجاتهم ووحشياتهم (وإن كانوا على يقين تام بأن تلك الأعمال الفجة والوحشية كانت مبالغا لها كثيراً) . ثم إنهم افترضوا وجود مشاركة وجدانية ممائلة لهذه عند الجانب الآخر ، وكانوا على يقين من أن الاتحاد السوقييتي والاتحاد السوقييتي وحده هو علو المحور اللمدود ، وأنهم هم الذين يستطيعون وحدهم وبغاية السهولة الوصول إلى تسوية شبيهة بالعمليات النجارية مع هتلر وزملائه . وموجز القول أنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن طبيعة روح (عصابات المجرمين) ، ولم يكن لديهم أدنى فكرة أنه يعرفون شيئاً عن طبيعة روح (عصابات المجرمين) ، ولم يكن لديهم أدنى فكرة أنه وقع عليهم الاختيار ليكونوا أول الضحايا وأسمها .

ولسنا نجد نظرية أخرى لنفسير التساهل الذى كانوا يرقبون به بل الذى يساهدون به سلسلة الأحداث التي جردتهم أولا من كل حلفائهم المحتملين ثم أفغمت بهم إلى حرب جائعة مزلزلة . وتعاقب الأحداث يبدو الآن وعلى بعد هذه المسافة الفاصلة الطويلة ، أوضح كثيراً من أن يفوت فهمه أحداً عدا الخادعين لأنفسهم . وفى أول الأمر كانت الحرب تنظم على حدة فى الشرق والغرب ، ولم تنسق سياستا المانيان من حيث المبدأ إلا فى نوفم ١٩٣٦ ، ولم يبدأ التعاون الكامل بينهما إلا فى أخريات ١٩٣٧ ، فإن اليابان لما رأت أن غزوها منشورياً لم يبرتب عليه الا بعض الاحتجاجات الشفوية ، غادرت العصبة فى ١٩٣٣ ، وغزت الصين نفسها ، وعن احتلت ولاية جهول الشهالية تلقاء مقاومة تافهة جداً . وكان السبب فى ذلك أن تشيانج كاى شك كان لا يزال شديد الانشغال بإخضاع الشيوعيين ؛ وكان أحرز عليم من النصر العظم ما جعلهم يفرون فى ١٩٣٤ من معاقلهم الحصينة فى وسط عليم من النصر العظم ما جعلهم يفرون فى ١٩٣٤ من معاقلهم الحصينة فى وسط العين ، وبعد قيامه بزحف شديد مدهش قطع به بضعة آلاف من الأميال عاد إلى

الظهور في ولاية كان سو الغربية ، حيث كان الاتصال بالأعداء أصعب . على أن سياسة الروسيا الجديدة كانت وصلت عند ذاك إلى الصن ، وتجلت نتائجها في حادثة تسترعي الاهتمام بطريقتها والصينية ، إذ أن ابن أمر الحرب الذي طرده اليابانيون من منشوريا اختطف القائد تشيانج كاى شك فى ١٩٣٩ ، ثم حمله معه إلى مركز القيادة العليا للبخر ال ماوتسي تونيج قائد جيش الشيوعيين . وبدلا من إعدامه تفاهم معه ماوتسى تونج وزملاؤه حول الحطر الياباني الداهم ، وأحضرت زوجة تشيانج كاى شك لتشترك في المباحثات . وبعد قضاء بضعة أيام في التباحث والتأمل أعلن الطرفان أنهما قد حصلا على الاستنارة اللازمة وتعاهدا على الاتحاد لمقاومة الغزو .



(دکل ۲۲۰)

وجاء ذلك في أنسب أوقاته ، إذ أن اليابانيين بدأوا في السنة التالية غزواً كاملا للصين ، واستولوا على بيكين وضربوا بقنابلهم المدن الصينية وأحرقوها . ووجد الصينيون أنهم غير ند لأعدائهم فاضطروا إلى التراجع ، ولم تحل ١٩٣٨ إلا وكانت هانكاو ونانكين وشنغهاى وكانتون جميعاً في قبضة يد البابانيين. ولكن التحالف الجديد ثبت على الحطوب (وإن كان كل من الطرفن فى ريب من أمر الآخر) ؛ وانسحب تشيانج كاى شك إلى تشنج كتج فى أقصى داخلية البلاد ووجد اليابانيون أنهم لايملكون إلا السكك الحديدية والطرق المائية والمدن الكبيرة . وكان كل ما يحيط هم عدواً لهم مليئاً بعصابات كانت حرباً عليهم . فكأن ماكانوا بحسبونه أرضاً متينة ومنطلقاً ينطلقون منه نزحوف وتقدمات أخرى قد ظهر أنه أرض مسخة ، وإذن فإن ه حادلة الصين » (كما يسميها اليابانيون) لم تكن اليابان مصدر قوة بل مصيدة وقعها في حبائلها . وعلى ذلك تكون قطعة من خطة الحرب قد ذهبت فى الاتجاه الخاطئ .

ولكن لم تحدث مثل هذه الأخطاء في الغرب . فإن عام ١٩٣٣ الذي استولى فيه هتلر على السلطة شهد انحلال المؤتمر الأخير للزع السلاح والهيار مؤتمر



(شکل ۲۲۱) صورة بنیتو موسولینی

عالمى لتثبيت التبادلات التجارية (نتيجة لأعمال الأمريكيين)، واستقالة ألمانيا من عصبة الأم . فكأنما أمسك أحدهم بقلم ورسم به خطأ أسفل إحدى صفحات التاريخ . ثم أعلن هتار بعد ذلك في ١٩٣٥ أن معاهلة قرساى لم تعد موجودة ، وأعاد التجنيد وأرجع التسلح العلنى في تحد ظاهر منه لما . واحتجت الحكومة البريطانية ، ثم عمدت على الفور تقريباً إلى توقيع الناق يحدد بمقتضاه حجم الأسطول الألماني

الجذيد. وصدرت الحركة التالية من موسوليني. فني أكتوبر من تلك السنة غزت جيوشه أرض عضو آخر في العصبة ، هو الحبشة . وكانت أسباب الاعتداء التي زعمها الإيطاليون مبرراً لذلك منازعات طفيفة على الحدود؛ ولكن السيب الحقيقي لذلك الاعتداء لم يكن إلا أن الأحباش هزموا عند عدوة جيشاً إيطالياً حاول غزو بلادهم في ١٨٩٦. و مدم العالم لهذا الحرق المباشر للسلام وأثار عصبة الأمم إلى اتخاذ إجراءات حاسمة . وانفقت اثنتان وأربعون دولة على اتهام إيطاليا بالعدوان وإنزال «العقوبات» بها بزعامة بريطانيا وفرنسا شكلا وفرضاً . وألتي السير صحويل هور وزير الخارجية

فى ١١ سبتمر عطاباً ذاع صيته آنذاك تعهد فيه بوقوف بريطانيا بجانب ميثاق العصبة روحاً وحرفاً ، ولكنه اتفق فى الحقيقة مع پيير لاقال رئيس وزراء فرنسا على أن لا يفعلا أى شىء فى هلما السبيل . ومن ثم لم تطبق (العقوبات) على المواد التى تحتاج إليها الجيوش الإيطالية (الزيت والصلب والفحم) وسمح بمرور الغاز السام ضمن حمولة السفن التى عبرت قناة السويس . ولم يحل مايو ١٩٣٦ حتى كان الإيطاليون يحتلون أديس أبابا ، وبذلك دمرت عصبة الأثم بوصفها قوة واقية . وفى نفس ذلك الوقت كان هتلر أرسل جيوشه إلى أرض الراين ، التى كانت المعاهدة تحرم دعولم إليها . وكذلك أيضاً بدأ فى ١٩٣٦ عصيان فرانكو فى أسبانيا الذى كانت توازره إيطاليا وألمانيا ؛ وقد أسلفنا إليك تاريخه من قبل .

وفى مارس ١٩٣٨ احتلت جيوش النازى دولة النمسا وسجنت شوشنج الدكتاتيور الكاثوليكي الذى خلف دولفوس ، وبدأت حركة المدابح والسجن التي ينزلونها عادة باليهود وأعداء الفاشية .

وفي سبتمبر ۱۹۲۸ أعلن هتار أن و الظلم و الواقع على الألمان في تشيكوسلوفاكيا أصبح لا يطاق و وبدا شبح الحرب دانيا ، وكانت فرنسا (وإن لم تكن بريطانيا) مرتبطة بتشيكوسلوفاكيا بمعاهدات . وطار تشمير لن إلى ميونيخ ، وعقد موتمر رباعي مكون من بريطانيا و فرنسا وألمانيا وإيطاليا أجبر تشيكوسلوفاكيا على التنازل عن مناطق التخوم بها لألمانيا ففقدت معها قدرتها على الدفاع عن نفسها . وعندما عاد تشمير لن من ميونيخ أعلن قائلا : و أعتقد أن هذا فيه السلام لزماننا و . (وينبغي أن نلكر أن هتلركان يتبع كل اعتداء من هذه الاعتداءات ببيان يؤكد فيه مقاصده للكر أن هتلركان يتبع كل اعتداء من هذه الاعتداءات ببيان يؤكد فيه مقاصده السلمية وعدم رغبته في المطالبة بأية مطالب أخرى . وكان الروس في نفس الحن يقدمون عادة وفي كل مرة مقترحات بضرورة التشاور لإيقاف التقدم النازي كانت تقابل دوماً بالإغفال التام) .

وفى مارس ١٩٣٩ احتل النازيون بقية تشيكوسلوڤاكيا ومدوا فيها أركان نظامهم المعتاد . واقتطع هتلر أيضاً مدينة عمل من دولة لتوانيا الصغيرة.

و فى أبريل ١٩٣٩ غزت إيطاليا ألبانيا و قتحتها . وألغى هتلر حلف عدم الاعتداء الذى كان مبرماً بينه وبن بولندة .

وفى ذلك الحين كان الناس جيعاً حتى حكومة تشمير لن قد أدركوا ما كان مقبلا عليهم بخطوات عظيمة . لقد ذهبت معاهدة قرساى إلى غير رجعة ، ودمرت عصبة الأمم ، ولم يعد ثم باقيا سوى حليف واحد ذى أيد : هو الروسيا . وأخيرا أرسلت إلى موسكو بعثة التفاوض فى عقد معاهدة ، ولكن بعد فوات الأوان . فإن الروسيا كانت أخذت تغير سياسها تغييرا رمز إليه خلع ليتثينوف البلشفيكي القديم وإحلال مولوتوف الواقعي محله .

وتوقفت خطط الألمان الحربية لحوفهم من أن يضطروا إلى القتال في جبتين كما يعرف ذلك حتى الهواة في علم استراتيجية الحروب. وكانت هذه النقطة هي مصدر القلق التقليدي لدى جرالات الألمان. ولم تكن ألمانيا بموقعها المعروف إلا كبندقة بين ذراعي كسارة البندق ، — والجيوش الروسية من شرقها والفرنسية من غربها والأساطيل البريطانية تسود البحار. ولم يكن هتلر لبستطيع البدء ببرنامج وواحدة بعد واحدة ، الذي اختطه لنفسه ، ما يتي هذا التهديد قائماً . فإن زال أمكن البدء في الحرب. ومن ثم فتح باب المفلوضات الإزائته من الوجود. ويعاية تفسيرها أصعب علينا من تفسير عناية تشمير لن نفسة ، يبدو أن ستالين ومولوتوف رعما أن بعثي الحلفاء والألمان إلى موسكو ليستا سوى خاطبين متنافسين يخطبان ود الروس ، ويبدو أنهم كانوا يرون الحير في إيثار النازيين على الحلفاء. وفي ٢٣ أخسطس ويبدو أنهم كانوا يرون الحير في إيثار النازيين على الحلفاء. وفي ٢٣ أخسطس ويبدو أنهم كانوا يرون الحير في إيثار النازيين على الحلفاء . وفي ٢٣ أخسطس المهلية الثانية اجتاحت بولندة في أول سبتمبر وبدأت المترب العللية الثانية .

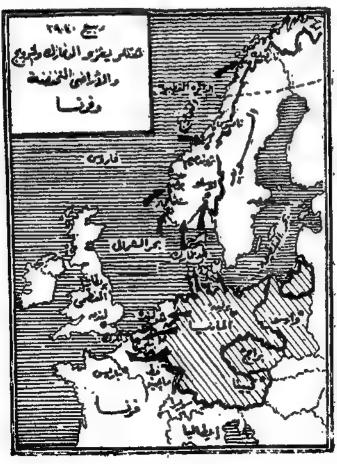
الف<u>صل الأر</u>ىغو*ن* الحرب العالمية الثانية

١ عبرى اغرباً . ٢ - مستقبل البشرية .

۱ - عجری الحوب

لم تكن في العالم حكومة لديها أية فكرة عماكان سيحدث في سبتمبر ١٩٣٩ خلا الحكومة الألمانية وخدها . أما هزيمة بولندة فكانت شيئاً قوقعه كثير من الناس ؛ ولكن أحدا لم يكن يتوقع أن يقضى علمها في مدى ثلاثة أسابيع . وفي البداية كما كان يمدث غالبًا كان عنصر المباغتة في جانب النازيين ، وذلك لأن الجيش البولندي لم يكن حتى قد استكمل تعبثته تماماً . ولكن تلَّت الهزائم الأولى كوارث أخطر وأعظم ؛ فيز الألمان البولنديين في الدبابات والمدافع والطائرات بصورة ينقطع معها كل رجاء . ولكن البولندنين كانوا إذا وجدوا بن أيديهم ملجأ يتحصنون فيه مثل وارسو أو شبه جزيرة هيلا المجاورة لدانزج ، فإنهم كانوا يقاتلون قتال المستيئس ؛ ولكن المذابع حلت بجيوشهم الرئيسية . وكان هناك حتى ١٧ سبتمبر بعض أمل لعله كان وهماً بإطلا في أن يستطيعوا أن يقيموا خط دفاع على امتداد نهرى السان ببج والناريث ؛ ولكن منفعة المحالفة النازية السوڤييتية تجلت في ذلك اليوم . فغزا الروس . بولندة من الشرق وبذلك انتهت الحرب فعلا . فالتقى الحليفان عند بيالي ستوك وأبرما في ٢٩ سبتمبر التقسيم الرابع لبولندة ؛ وسلم آخر جندى بولندى في أول أكتوبر بشبه جزيرة هيلاً . وظهرتُ للمحالفة آثار أخرى في الأسابيع الأربعة التالية عندما أجرت جمهوريات البلطيق : استونيا ولاتثنيا ولتوانيا على عقد معاهدات تخول للروس إقامة قواعد عسكرية على أراضيها ، وجامل الألمان الروس بسحب جميع الألمان من تلك المناطق.

ولم يصنع الحلفاء الغربيون أى شيء تقريباً أثناء هذه الأزمة . نعم قام الحنرال المائد الفرنسي العام بخروج خائف مباغت من خط ماجينو ، ولكنه ما لبث أن عاد بمجرد أن التي بخط سيجفريد . وبلغ من جودهم عن الحركة أن امتلأ هتلر بالرجاء فعرض عليهم الصلح على أساس قبول الحلفاء لفتح بولندة . ولكن العرض رفض ؛ أما عن أية أنواع أخرى من التحديات القوية المحسوسة الأثر ، فإن الشعوب المتحاففة اضطرت أن تقنع بأحداث تافهة مثل تضييق الحناق على البارجة الألمانية المغيرة جراف اشي على يد ثلاث صغن بريطانية صغيرة في ديسمبر وتنظم حصار يحرى على ألمانيا . والحق إن حكامهم كانوا ضئيلي الحظ جدا من



(YYY JS3.)

المعرفة بقوة خصمهم بحيث زاغت عيوبهم إلى مكان آخر ، وحطت على جزء من العالم ضلت فيه خطة السوفييت السييل . فقد قدمت إلى فنلندة مطالب تماثل تلك التي قدمت لدويلات البلطيق ، ولكن فنلندة كانت دولة ديمقراطية وطيدة الأركان لادكتاتورية خائرة القوى ، ولذا رفضت المطالب بأدب . وفي اليوم الأخير من نوفير ، وفي تحد سافر المعاهدت ولميثاق عصبة الأم . غزا الروس تلك الجمهورية الصغيرة وضربت بالقنابل عاصمها هلسنكي . وكانت كفة ميزان القدر عجيبة مضحكة — والنسبة بين الدولتين في عدد السكان مه أو ٢٠ : ١ ، — ونفس النسبة تقريباً في الأسلحة والعتاد — وكانت الفنلنديون وحدهم لا يتلقون آية مساعدة فعالة اللهم إلا بعض العون الحقي من السويد وتمكنوا من صد المغيرين مدة ثلاثة أشهر ؛ وبلغ من شدة الغضب من الغزو وتحكوا من صد المغيرين مدة ثلاثة أشهر ؛ وبلغ من شدة الغضب من الغزو السوفيتي أن أعد الريطانيون والفرنسيون حملة لمعاونهم — ولم يحل دون التورط في حرب نانية سوى أن سدت الطريق علها الترويج والسويد .

وفى ١٧ مارس ١٩٤٠ انتهت الحرب الفناندية بفوز الروسيين الذي لم يكن منه به بد ؛ وعاد الحلفاء إلى سابق جمودهم الذي يسجله في ٥ إبريل صدور بيان من المستر تشمير لن ملؤه الاستسلام يقول فيه : «إن حتلر قد فاته الأمنيبوس . » وبعد أربعة أيام من ذلك الإعلان استولى الألمان على الدانموك كلها وحلى الشطر الأكبر من النرويج ... فأما الأولى من هاتين الدولتين المسالمتين فلم تبد أية مقاومة وأما الثانية فقد أظهرت مقاومة غير منظمة لم يصادفها النجع . ولم يستطع تشمير لن أن يصدق أذنيه ، فإنه عندما أبلغ أن الألمان استولوا على نارقيك في أقصى الشمال ، قرر أمام مجلس العموم أن ذلك لا يمكن أن يكون صحيحا ، وأن المكان لابد أن يكون «لارقبك» في أقصى الجنوب. وسارع البريطانيون بإنزال جندهم في نامسوس وأندالم شنيس لمساعدة في أقصى الجنوب. وسارع البريطانيون بإنزال جندهم في نامسوس وأندالم شنيس لمساعدة النرويجين المكافحين ولكنه جيش حبّر م الوقاية الجوية الكافية والدبابات والمدافع الكبيرة والحطة بالمقارنة إلى الألمان ، فكأن الإنجليز هم والفرنسيون الدين لحقوا بهم لم يكونوا يزيدون في القوة كثيراً عن البولنديين . ولم تبد الكفاية في شيء من

أعمالهم إلا فى العمليات البحرية التى اتخذت فى نارقك ، وهى عمليات لم تستطع على كل حال أن تنقذ الحملة . وتم فتح النرويج عند نهاية الشهر .

وعندئذ ضاق صدير عجلس العموم البريطاني (وإن كان رد الفعل الفرنسي أضعف من هذا ﴾ . ودارت مناقشة نارية متفجرة ، قال فيها أحد أتباع تشمير لن يخاطبه : وأستحلفك بالله أن تذهب ، ، واقتنع تشمير لن بعد أخذ الرأى على وزارته بالمجلس بأقلية ٢٠٠ إلى ٢٨٦ صوتاً أنه لابد له أن يستقيل . وحل محله في الوزارة التلاف برئاسة ونستون تشرشل ساهم فيه حزب العال . وجاء التغيير في أنسب الأوقات بالضبط . وفي نفس ذلك اليوم (١٠ مايو) خرق الألمان مجموعة أخرى من المعاهدات بغزوهم هولندة وبليجيكا . وعندتك شهد العالم الغربي والعزم الألماني ، بكامل عمله وقوته . فإن « فرق الپانزر » وهي مزيج من الدبايات والمشاة كانت تشق طريقها عنوة من خلال الخطوط العادية _ فكانت الدبابات "بهدم الأجزاء الضعيفة ، على حين تقضى جند المشاة الزاحفة ورامعا على كل مقاومة . واستخدمت قاذفات القنابل ومعها شيء جديد اسمه قاذفات القنابل المنقضة كأسلحة لتمزيق شمل تشكيلات العدو ــــ وكانت تتلقى الأوامر باللاسلكي هي واللبابات على السواء . ولم تعد خطوط التليفون السهلة القطع المستخدمة في ١٩١٩ إلا ذكرى من ذكريات الماضي . وكانت خطة الهجات توضع حيى،أدق يفاصيلها . ولم تستطع حصون إين إيمائيل (Eben Emael) القلمة العظيمة والركن المركزى الذى يعتمد عليه الدفاع الىلجيكي أن تصمد إلا يوماً واحداً . ولكن المجات لم يقتصر توجيهها على الجنود فقط ، إذ أن هذه إنما كانت : الحرب الشاملة ﴾ . وكانت الدبابات وقاذفات القنابل المنقضة بأصواتها الصارخة الرهيبة تدفع أمامها حشوداً هاثلة من المدنيين المذعورين ؛ وكانت قوات الحلفاء التي هبت لمحاولة إنقاذ البلچيكيين تجد نفسها مختلطة بكتل غفيرة من اللاجثين المذعورين الذين يفرون نحو الغرب في هلع . وكان والمظليون؛ يهبطون وراء المطوط ويستولون على الكبارى . وفي هولندة كان جواسيس الألمان الذين كثيراً ماكانوا من قدماء النازلين بأرضها – يقيمون مواقع للمدافع الرشاشة . ورغبة في زيادة أثر الإرهابُ ، هاجم ﴿ اللَّوْفَتُ

قاف Luftwaffe » أي سلاح الطبران مدينة روتردام العزلاء وقتل ثلاثين ألفاً من سكانها ، وكانت الجريمة متعملة إذ رأى الألمان أنه يجب على العالم أن يتعلم درساً.

وتم فتح هولندة في أيام خسة ؛ وبينها كانت الجيوش للتحالفة التي غيرت اتجاهها فمسارت شمالا لإنقاذ بلجيكا تتقهقر ببطء نحو الساحل اخترق الألمسان قطاعاً ضعيف اللمفاح في الأردين" قرب مدينة سيدان المشتوعة . وما وافي ١٥ مايو حتى كان الجيش الغرنسي التاسع قد تمزق بدداً وكان الهانزر ينتالون من خلل فجوة ذرعها خسون ميلا شمال خطما چينو العدم الفائدة . ولم تنقض أربعة أيام أخرى حتى بلغوا البحر ؛ وأجيط بالجيوش البليجيكية والبريطانية وبعض الفرنمية في فلاندر . واستسلم ملك البلجيك ؛ وقد استطاع الجيش البريطاني ومن معه من الفرنسين الخروج من دنكرك بين ٢٨ مايو ، ٧ يونيه على يد أسطول تجمع على الفجاءة وكان مكونا من أكثر من • • إ من الزوارق الحاصة ، ٢٠٠ سفينة بحرية من سفن الأسطول . على أن الجيوش كانت أخذت في ذلك الحين في التصدع والانهيار ؛ فإن الپانزر كانوا يخترقون البلاد بسرعة شديدة جداً حتى أن دباباتهم كانت تسبق المشاة المتابعين لمم بخمسين ميلا في بعض الأحيان . وهناك على الطرق البيضاء الممتدة بين ﴿ الليالَقُ والْورود ﴾ في شمس الصيف المصحبة كانت تنتال جاهر خفرة مذعورة منها المدنيون ومنها العسكريون يزيهم الرسمي ، وهم يفرون لايدرون إلى أين ويجرون وراءهم قطعاً غير منتظمة الشكل من متاع بيوتهم تلاحقهم قاذفات القنابل المنقضة بقنابلها ورشاشاتها كلما توقفوا عن الهرولة إلى الأمام . لقد بدت في الأفق بوادر انتهاء إحدى الحضارات : ولم تشهد الدنيا مناظر كهذه منذ أن دمر البرابرة الإمبراطورية الرومانية . وفي ١٧ يونيه تألفت حكومة فرنسية جديدة برئاسة الهاريشال بيتان العتيق وأغلنت أنها ستكف عن القتال ، متجاهلة بذلك عرضا بريطانيا بإنشاء اتحاد انجلزى فرنسي تام .

لقد أدرك النازيون النصر بفضل ماكان لهم من أسلحة أفضل وقيادة أكفأ وعدم رغبة الطبقة العليا الفرنسية في المقاومة وانتشار الدهاية الشيوعية بين صفوف العمال . وعندئد امتدت أيدى حلفاء النازية تنتني وتلتقط . وبكل شجاعة أعلن موسوليني الحرب على حلفائه المهرمين ، واقتطع الاتحاد السوڤييتي ولاية بساربيا من

رومانيا (وهي دولة يحميها من قبل ضمان اتجلو فرنسي)كما ضمت إليها استونيا ولاتثيا ولتوانيا . ثم حدثت وقفة وسوزة .

والمعركة التي جاءت في أعقاب ذلك ترتفع إلى مرتبة ماراتون وسلاميس بين المعارك التي ضرت وجه التاريخ وأنقذت إحدى الحضارات . فلو لم تقاوم بريطانيا أو لو أنها هزمت في ذلك الكفاح ، فليس من العسر تقدير ماكان سيحدث . فإن خطة النازية صارت الآن واضحة وضوحاً لابأس به ، وواضح أيضاً كم أشرفت على النجاح . وكانت هزيمة بريطانيا سيعقبها غزو الروسيا . والحق أن القوات السوفييتية أصبحت هي الأخرى على نفس شفير الكارثة في ١٩٤١ ، ١٩٤١ ، ومن بعيد الاحمالات أنهم كانوا يستطيعون الصمود أمام ألمانيا بعد أن تهزم بريطانيا ولا تعود بها حاجة للدفاع عن موشحرتها ، وتجد كل البحار مفتوحة لتزويد جيوشها بما تحتاج إليه ، وكانت الحلة تقضى بأنه مني تحت هزيمة الروسيا أن نهاجم الولايات المتحدة تلك اللبولة الساذجة نصف المسلحة - فيهاجمها اليابانيون من الغرب وتهاجمها المتحدة تلك اللبولة الساذجة نصف المسلحة - فيهاجمها اليابانيون من الغرب وتهاجمها الربانية على بكرة أبها من الشرق كما بهاجمها من الجنوب حلفاء ألمانيا بأمريكا اللالينية - وهم فعلا في حالة استعداد . وقد أخبطت مقاومة بريطانيا تنفيذ هذا البرنامج الضخم وغير بعيد التنفيذ .

وكانت هناك من قبل أم مكسورة كثيرة تحتمى وراء النبرع البريطانى . وقد ظلت هيئة الإذاعة البريطانية شهوراً كثيرة تذبيع بعد إذاعة النشيد البريطانى الأناشيد الوطنية لجميع الدول الأخرى التى لحكومتها أشباح فى لندن قبل قراءة نشرة أخبار المساء . كان موكباً طويلا غلب طيه الأسبى قدر ما تجلت فيه الشهامة ، تمر فيه هولندة وبلجيكا والترويج والدانمرك ولوكسمبرج والحبشة وبولندة وتشيكوسلوڤاكيا وفرنسا حولم بلبث الموكب حتى انضمت إليه بوغوسلاڤيا واليونان . وقل منهم من كان يدرك كم كان ذلك الدرع رقيقاً . يقول چون بروق : « لم يكن لدى بريطانيا بعد دنكرك سوى ما يقارب فيلق وقصف من فيالق المشاة وبضعة فرق من مدفعية الميدان وستين دبابة فقط » . أجل إنه كان لديها أيضاً الحرس الوطنى ، مدفعية الميدان وستين دبابة فقط » . أجل إنه كان لديها أيضاً الحرس الوطنى ، مدفعية الميدان وستين دبابة فقط » . أجل إنه كان لديها أيضاً الحرس الوطنى ، وهي قوة من المتطوعين أصبحت في مدى بضعة أسابيع مكونة من أكثر من مليون

من الرجال مستعدة نجامة المظلمين الذين حطموا المقاومة الهولندية والدائمركية ؛ ولكن كل ما كان لديهم من سلاح ــ إن كان معهم سلاح ــ هو البنادق العادية ، حتى وافى الخريف ووصلت إلى البلاد ٠٠،٥٠٠ بندقية من أمريكا . أجل إن الأسطول كان قوياً جباراً لم يتغير من وضعه شيء ، ولكن سلاح الجو الألماني كان يفوق فى العدد سلاح الجو الملكي بدرجة هائلة .

وحدد هتلر تاریخ غزو پریطانیا — وهو الحادی والعشرون من سبتمبر ۱۹۴۰ - وبدأت الحركة الأولى في هذا السبيل ، وهي تدمير الأسطول الجوي البريطاني في ٨ أغسطس ١٩٤٠ . وأخذت قاذفات القنابل من طراز هاينكل ودورنير وقاذفات يونكرز المنقضة ومقاتلات مسرشمت تجتاح جنوب شرق انجلترة . وكانت تعبرضها أعداد صغيرة من طائرات سبيتفاير وهاريكان تساعدها بعض الطائرات القديمة من طراز ديفايانت (Defiant) . وكانت طائرات الدفاع من القلة بحيث لم بعد في الإمكان مواصلة مسر الدوريات باستمرار . فلا بد لملاحي الجو من الانتظار حتى يصل الأعداء المهاجمون ، ولا كان في الامكان عندما تكتشف طائراتهم أن تصعد لهم القوة بأكملها ؟ فلابد من الاحتفاظ ببعض الأسراب لملاقاة الموجة الرابعة والخامسة التي كان الفاتح المسرف في قواته يستطيع إرسالها . وكانت خطة سلاح الجلو الألماني ذات خمس شعب : تدمير القوافل الساحلية التي تمون بريطانيا بالطعام وإغراق الأسطول أو تعجيزه عن الحركة وطرد سلاح الجو الملكي R:A.F من السهاء ، وشل الحركة في المواني وتحطيم جبع المطارات التي قد تقوم منها الطاثرات لقذف أساطيل الغزاة بقنابلها . مثال ذلك أنه حدث يوم ١٢ أغسطس أن ٢٠٠ طائرة هاجمت دوڤر على موجات وهاجمت ١٥٠ طائرة ميناء بورتسموث وجزيرة ويت . واستمر القتال طوال أغسطس وسبتمبر إلى أكتوبر . وكان كل ما يستطيع روّيته من على الأرض من الناس خطوطاً من اللخان الأبيض تمر عبر سماوات كنت الزرقاء الصافية وقرقرة المدافع الرشاشة السريعة والانفجارات المفاجئة المكتومة ومظلات بيضاء متطوحة يتعلق بها بعض الرجال وطاثرات متقدة تسقط على التلال . ولكن النتيجة ظهرت وفصل في الأمر في سبتمبر : فإن سلاح

الطيران الملكى قد طرد سلاح الجو الألمانى من الساوات نهاراً. وقال المستر ونستون تشرشل الذى كانت خطبه جزءاً من خطة الدفاع البريطانى متحدثاً عن الطيارين : ولم يحدث قط فى تاريخ الصراع البشرى أن كان عدد ضخم كهذا مديناً لمثل هذه الفا الفضل العظم . »

وفى أكتوبر بدأ سلاح الجو الألماني طريقة جديدة . (وذلك لأن الغزو تأجل ، وتشرقت الصنادل المسطحة القاع التي أعدها هتلر كما أعدها نابليون من قبله) ولكن



(شکل ۲۲۸) صورة ولستون تشرشل

بريطانيا تكهنت من قبل بالحطة ؛ وبدلا من عاولة تدمير المطارات والقضاء على سلاح الطيران الملكى ، أخد الألمان منذ ٧ سبتمبر يهاجمون أرصفة ميناء لندن ، وكانت ألسنة اللهب والانفجار تشاهد على بعد ٢٠ ميلا . وواصل الطبارون الألمان غاراتهم الليلية طوال الشتاء حين لم يكن في مستطاع سلاح الطيران الملكى اكتشافهم . ودمر الجزء المركزى من كوڤنترى في ١٥ نوفير (واخترع الألمان في لغتهم بابتهاج

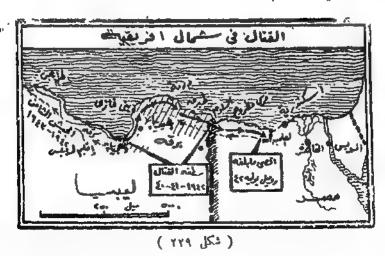
فعل و أكثنر to caventrate و الدلالة على التدمير المطلق الشامل و أغاروا على لندن ستا وتسعين غارة منفصلة و أحرقت أحداها في ٢٩ ديسمبر كل المنطقة المركزية من المدينة . ووقعت على المدينة خسون ألفاً من القنابل الشديدة الانفجار وما لاحصر له من القنابل الحارقة . ولاح في البداية أن الهجات كانت توجهها خطة استراتيجية مرسومة و فكانت تجعل أهدافها السكلث الحديدية والمحطات ومصانع الغاز ومستودعات المياه ومحطات الحجارى والموانى ومحطات توليد القوى و ثم يدأ بعد ذلك أن الدافع كان الغضب العشوائى . واستخدمت الألغام المعنطة التي كانت تعلو عن قاع البحر لتغرق السفن الحديدية التي تمر فوقها ، فأصبحت الموانى معطلة ، حتى يوجد لغم سليا بهايه نوفمر ففكت أجزاؤه وفحص ، وكانت نتيجة ذلك أن استنبطت طريقة غيد المجال المغنطيسي للأرض (Degaussing) ، فأبطلت مفعول تلك الألغام .

والمصائب تجمع قلوب المحزونين . وقد توقع الألمان أن تحدث غازاتهم نفس الآثار التي أحدثها في المواطن الأخرى - بل الواقع أن إذاعتهم أخنت تذبع مفترضة أن تلك الآثار نفسها قد وقعت ، وأن سيولا علايدة من اللاجئين الملـعورين كانت تكظ الطرق المؤتية من لندن شمالا ؛ وتكرم اللورد هوهو (وليم چويس) بنصحهم بأن شمال ويلز هو الجهة الآمنة الوحيدة أمامهم . ولكن الواقع أن الأطفال أبعدوا عن المدينة بطريقة منظمة وأنزلوا عند أصحاب المنازل بالريف ، في وجه شيء من التذمر ، ولكن مع الكفاية ؛ ولم يتبعهم أى جماهير من اللاجدين . وكانت جيع الطبقات تحتمي من الغارات في لنلث ومدن الأقاليم في نفس النوع من المخالئ ؛ وفوق هذا صدرت قوانين حتمت المساواة ، لو أنها ظهرت قبل ذلك بسنتين لا تهمت بالانسام باشتراكية لا يمكن العفو عنها . ووضعت جميع الممتلكات ، بما في ذلك الأرض ، تحت هيمنة الحكومة ، بمقتضى قوانين صدرت بمجرد تقلد حكومة تشرشل مهام الحكم . ووضعت البنوك تحت الرقابة الحكومية ؛ وتولت الحكومة الاشراف على الاستثارات الأجنبية ؛ وفتحت دفاتر حسابات أصحاب المصانع والشركات للتفتيش ؛ وكان في الامكان إصدار الأوامر بالزام الأفراد بالقوة بإنتاج أي شيء يحتاج إليه . وفرضت الضرائب على أرباح الحرب ؛ وتقرر أن تكون خسائر الحرب قسمة مشتركة بين الجميع . وقبل العمال أن يعملوا تحت التوجيه ، لم يلبث هذا التجنيد أن بسط على النساء أيضاً . ولم يحدث قط منذ أيام اسبرطة أى قبل ذلك بألفين وخمسمئة عام أن يسجل الناس أسماءهم بمثل هذه الدرجة الكاملة الشاملة.

على أن الحظ كان رغم كل هذه الجهود يعابث البريطانيين . فإن عده البريطانيين ، أربعة وأربعون مليوناً من الأنفس مقابل ثمانية وثمانين مليوناً لدى الألمان ، فلو أضيف إلى الملايين الأربعة والأربعين من سكان الجزر البريطانية مكان الممتلكات المستقلة المؤيدون لهم ، فقد كان في إمكان هتلر أن يضم إلى من تحت سطرته من ألمان أغلبية سكان أوربا . أجل إن الأسطول لم يكن يبزه في العالم شيء ؛ ولكن تجلت واحدة من أشد تحديدات القوة البحرية خطورة عندما أذيعت

الأخبار بأن ٥٠٠ ألف طن من السفن كانت تغرقها الغواصات النازية .كل شهر في مستهل ١٩٤١ . غير أن الأسطول ظل مع ذلك يعمل بنشاط . فني النالث من إبريل ١٩٤٠ أغرق أو استولى في وهران على الأسطول الفرنسي الذي يظهران بيتان كان يهم بتسليمه للألمان . وفي ١٧ نو فمبر هاجيم طبران الأسطوال بميناء تارئتو ثلاث بوارج وأربع مدمرات وسفن إضافية من الأسطول الإيطالي الذي كان يتوقع منه أن يكون هو المهيمن على البحر المتوسط . وفي الشهر التالي بدأت القوات البريطانية والمتحاففة بمصر بقيادة الحنرال ويقل هجرماً على القوات الإيطالية بليبيا انهي باحتلال برقة (Cyrenaica) أحتلالاً تاماً وأسر عدد من الأسرى يفوق بكثير عدد الجيش المهاجي .

ولكن كل هذه الأعمال الضخمة لم تكن بالحاسمة . ونمكن البريطانيون من استرداد بلاد الحبشة وإعادة الأمبر اطور إلى عرشه ؛ كما تمكنوا من إغراق نصف الأسطول الإيطالي في معركة رأس ماتابان مارس ١٩٤١ ؛ ولكن كفة الميزان كانت لا تزال شائلة لغير صالحهم . وبينا كان سيل الغارات الجوية ينهمر على الجزيرة



البريطانية بلا انقطاع ، حلت بالانجليز هز أنم برية أخرى فى الشرق الأوسط وحاول موسوليني الحصول على نصر رخيص آخر ، فغزا بلاد اليونان فى نهاية أكتوبر ١٩٤٠ من مستعمرته البلقانية ألبانيا . وقد صعق الرجل لآن قواته الضخمة هزمتها قوات

اليونان الصغيرة وأرجعتها القهقهرى وأخذت تغزو ألبانيا نفسها . وبعد قليل تقدم هتلر على مهل (كا بدا للناس عندئذ) لمساعدة حليقه ، ولتمهيد السبيل لذلك أمرت المجر ورومانيا وبلغاريا بالانضام إلى المحور . وأقر الأمير پول الوصى على عرش يوغوسلافيا تحالفاً عقد مع الألمان في ٢٥ مارس . ولكن اليوغوسلاف أبوا قبول ذلك الحلف ، فطرد الأمير بعد يومين وأجلس ابن أخيه الغلام على المعرش باسم بطرس الثانى . وفي السادس من أبريل هاجمت الجيوش الألمانية يوغوسلافيا بسرعة مرعبة . وُمْ يكن الجيش اليوغوسلافي مستعدا للقتال فشتتوا شمله ، ودمرت بلجراد تدميراً جزئياً في خارة من غارات الارهاب المألوفة ؛ وما وافي ١٧ من الشهر حتى أخدت كل مقاومة إلا ما كان يصدر من بعض عصابات في سربياً بقيادة الكولونيل ميخائيلوفتش .

وعند ذلك دخل الألمان بلاد اليونان . إذ كانت فرق الهانزر تشكل تشكيلا يختلف اختلافاً بليغاً عن الجيوش الإيطالية ، وعندئذ طلبت اليونان المساعدة من بريطانيا على الفور . وأرسل إليها كل الفائض الذي يمكن الاستغناء عنه من قوات ويقل – في أعداد ربما تجاوزت حد الحكمة – ولكن عاد التفوق الألماني الجموى فأحرز نصره ، وربما كان في الامكان التمسك بمضيق ثرموبيلاي ، ولكن كتلة الجيش اليوناني التي قطع عليها السبيل في إبيروس استسلمت واستلزم الأمر إخلاء بلاد اليونان من الجيوش ، وحاول اليونانيون التمسك بجزيرة كريت ، ولكن ما فبث الألمان أن انتزعوها منهم بقوة السلاح الجموى . وفضلا عن ذلك نقل الألمان تعزيزات كبيرة الى ليبيا ، بينها الأسطول البريطاني ينقذ القوات البريطانية من اليونان ، وهناك في ليبيا تمكنت الجيوش الألمانية والإيطائية بقيادة الجنرال رومل من طرد البريطانين من كل ما كان ويثل فتحه تقريباً .

وانقضت لحظات بدت فيها الكوارث موشكة على الانتشار . واستولى رشيد عالى الكيلاني أحد أنصار النازى على السلطة من نائب الملك في العراق ، وأمد بالطائرات الألمانية عن طريق سوريا التابعة لحكومة قيشي الفرنسية (برئاسة پيتان ولافان). ولكن لأول مرة كان الرد سريعاً ، فإن رشيد عالى قام بأول هجاته في اليوم الثانى من مايو ، ولكن لم يلبث البريطانيون أن استولوا على بغداد فى أول يونية . ' وتمكنوا فى الأسابيع الخمسة التالية من اسرداد العراق بأجمعه كما احتلوا سوربا .

وأزبل عن بريطانيا قلق كبير له جديته . وبريطانيا كما هو معلوم جزيرة مكتظة بأكثر مما تطيق من السكان لا تستطيع العيش إلا بما تستورد من لوازم ومواد تدفع بعض أثمانها مما تغله علمها استثماراتها وراء البحار . وسرعان ما بيعت هذه الاستثمارات لشراء المبرة والذخيرة ، وكان بيعها بالولايات المتحدة بوجه خاص ، وبذا أصبح الحراب وشيكاً جداً . وكان الرئيس روزفلت أقنع الكونجرس في ١٩٣٩ بتعديل قوانين الحياد المتعلقة بالحظر البحرى للأسلحة والسياح بنظام ه الدفع نقدأ وحمل البضَّاعة Cash & Carry (وهو أمر لم يكن معناه إلا البيع لبريطانيا وفرنسًا دون غبرهما بسبب تفوق الأولى البحرى ، ولكن حتى هذا الوضع لتى معارصة عنيفة جداً . وصرح السناتور بوراه أن معنى ذلك هو حمل السلاح ، وصرح ناى أنه لن يكون هناك شيء ، أمام أمريكا إلا الجحيم الموقد ، ، كما صرح كلارك بأن بريطانيا وفرنسا هما المعتديتان وقال لندين (Lundeen) : يجب انتهاز هذه الفرصة للدفع ديون الحرب العالمية الأولى أو الاستبلاء على جزر الهند الغربية . وفي سبتمبر ١٩٤٠ بيعت لمريطانيا لحمسون مدمرة تجاوزت العمر القانوني المحدد لها مقابل بعض القواعد البحرية . وفي الحين نفسه تكونت بشيكاغو لجنة سميت : « لجنةرعاية المصالح الأمريكية أولا ، ﴾ وكانت هيئة أكثرت من الصخب وبدت في ثوب من قوة النفوذ والتأثير . ومع ذلك فقد قدم إلى الكونجرس في نهاية ١٩٤٠ مشروع قانون و الإعارة والتأجير Lease-Lend » ومر القانون في المجلس في ١١ مارس ١٩٤١ . وكان ممناه الحق أن الفيض الضخم من الأسلحة الواردة إلى بريطانيا أصبح يقدم إليها منذ تلك اللحظة بغير مقابل.

ولكن الحروب لا يمكن كسها بالمال ؛ وربماكان من حسن حظ العالم أن بدأ صبر هنار ينفد . وكان منذ حين بفكر في الشطر الثاني من خطته الحربية العظيمة مع ترك الشطر الأول ناقصاً . وفي مايو قام هيس الرجل نصف المجنون التالي له في القيادة والرئاسة بوحلة طيران سرية ليرى هل تقبل بريطانيا أن تتعاون أم

ترفض. وقد اتضح ماكان يدور بعقله على حين بغتة فى الساعة الرابعة من صبيحة ٢٢ يونية عندما هجمت القوات الألمانية على طول الحدود المترامية – على أراضى الاتحاد السوڤييتى.

وبدا الروس كن أخذ على غرة . إذ لم يكد يمضى أسبوع على إعلان أصدرته وكالة تاس الرسمية للأنباء تصرح فيه أنه: ولا يمكن أن يكون هناك أى سوء نفاهم بين الدولتين » . وبديهي أن قواتهم على الحدود دفعت جيعاً إلى الحلف ، ولم ينقض أحد عشر يوماً حتى كان الألمان يحتلون منطقة أعظم من فرنسا مساحة . ولكنهم دخلوا عندئذ منطقة عميقة من التحصينات تسمى على سبيل التسهيل باسم دخط سنالين » وتحتد بالتقريب على خط حدود الروسيا في ١٩٣٨ . وهنا بات القتال أشد



(YT. 153)

عناداً ؛ إذ لم يكن الثورة المحتدمة في أنفس الطرفين من نظير وكان عنادهما أكثر تعادلا . ولكن النتيجة كانت واحدة ؛ فاخترق الألمان الخط عند مواطن ثلاثة للولما في الشهال بالاستيلاء على بسكوف على الطريق إلى لننجراد ، وثانيا في الوسط بالاستيلاء على قيتيبسك على الطريق إلى سمولنسك ، وثالبها بالاستيلاء على زهيتومبر (Zhitomir) على الطريق إلى كبيث ، وتواصلت قصة الهزائم والتراجعات الروسية متكررة طوال الصيف . وحوصرت لننجراد ، وانتم الفنلليون لأنفسهم بالزحف نحوها من الشهال ، ثم سقطت سمولنسك في قبضة الألمان الذين شقوا طريقهم في المنتوب ودلفوا إلى أوكرانيا (وهي المستودع الصناعي والزراعي العظم لدى الروسيا) ، واحتلوا كل شيء تقريبا يقع غربي نهر الدنير

وعندئل قدمت بربطانيا للروسيا كل ما تستطيع من مساعدة بعد أن عقدت مع الروسيا معاهدة تحالف . وحذت الولايات المتحدة حلوها ، ولكن كل ما قدمتاه كان ضيلا جداً . وكانت اللولتان الناطقتان بالإنجليزية حاولتا توضيح أغراض الحرب : فعند بداية السنة كان الرئيس روزقلت بتحدث إلى الكونجرس عن الحريات الأربع » — وهي وحية الكلام والعبادة والتحرر من الحاجة ومن الحوف. وفي أغسطس التي برئيس الوزراء تشرشل على صفحة البحر حيث أعدا ووقعا «ميثاق الأطلنطي» لتنفيذ هذه الحريات — وهي على الجملة أقل وضوحاً من نقاط ولسون الأربعة عشرة ولكنها محتوى على نفس النوايا . وصلق ستالين على الميثاق مضيفاً إليه التألى : « إن هدفنا هو مساعدة الأم التي تكافح ضد هتلر تم تركهم وشاتهم ينظمون أحوالهم بملء حربهم وبالطريقة التي يرضومها — وينبغي أن لا يتدخل أحد أي تدخل في الشفون الداخلية الشعوب الأخرى » .

ولكن الكلمات لا تزيد على الأموال قدرة على اكتساب الحروب. وحاول الجيش الألماني مواصلة الزحف. فسقطت كبيڤ وتبعثها خاركوڤ واحتلت أوكران. بأجمعها وكان الروس يحرقون أو ينسفون كل شيء قبل مغادرة كل مكان لكى لا يتركوا للفاتح شيئاً. وكانت الوحشية الضارية سمم التقدم الألماني، وقد كان جندم يحسنون في أوربا الغربية السلوك إلى حد ما (حسب مقتضى المعايير الخفيضة

المقبولة الآن) ، ولكن لم يكن ثمة داع يدعوهم فى الروسيا لكبح أنفسهم . وأبعد القائدان العامان الروسيان فوروشيلوف وبوديني عن القيادة ، ولكن خليفتهما في الإمرة لم يكونا أسعد حظاً ؛ واحتل حوض ثهر الدون ، واجتبحت بلاد القرم ، وصار الألمان على ما يقرب من عشرين ميلا من موسكو ؛ ونقلت مكاتب الحكومة والبعثات الأجنبية إلى كويبشيڤ على بعد ٥٠٥ ميل .

وللمرة الثانية لم يستطع المحور أن ينتظر ؛ إذ لا بد له من التقاط المرة قبل نضجها . فني الناسع من أكتوبر أعلن الألمان بصفة رسمية كان إيمانهم بصحها واضحا أن الجيوش السوقيينية في حالة تحلل . والظاهر أن تلك الفكرة أخذت تتضع لدى آخرين غيرهم ، وأنه قد حان الوقت الذي ينبغي أن يبدأ فيه الدور الثالث من فترح المحور ، إذ هاجمت اليابان الأسطول الأمريكي في الهاسيفيكي الراسي عنسد بهرل هاربر في اليوم السابع من ديسمبر ١٩٤١ ، فأغرقوا بعض بوارجه الثانية وأصجزوا بعضها الآخر عن العمل ، كما أغرقوا أو أعجزوا بلائة من طراداته السبعة ، فضلا عن ثلاث مدمرات . وبذا أصبحت أمريكا في حالة حرب مع المحور .

وكان حظ الحلفاء في أو هد حضيضه أثناء الشهور التي عقبت ذلك . واجتمعت القوات البحرية الباقية بالمحيط المادى تحت إمرة أمير بحر هولاندى في أسطول أغرق عن آخره قرب جاوة ؛ وسارعت بارجتان بريطانيتان عظيمتان نحو الشرق هما : البرنس أوف ولز والريبلس لإنفاذ الموقف ، فأخرقتا بالقرب من الملايو لعدم وجود الدفاع الجوى الكافي . وفتحت بلاد الفلبين . واجتيحت الملايو ، وسقطت قلعة سنغافورة العظيمة في ١٥ فبراير ١٩٤٢ . وبدلا من أن يمد أهالي جنوب شرق آسيا بد العون الحلفاء ، أظهروا نحوهم فتوراً وعدم اهيام . فإن سنوات الاستغلال المديدة التي مرت بهم أنتجت نمارها المتوقعة ، فإن لم يتعاونوا فعلا مع اليابانين ، كانوا يحولون (كما فعلوا في يينانج) دون القيام بأية جهود و لإحراق الأرض ٢ كما كان الروس يفعلون . وجاء بصيص الأمل الوحيد من ليبيا ، حيث هاجم البريطانيون رومل ودفعوه إلى العجيلة نقطة الدوران إلى إقليم طرابلس . ولكنه

لم یزد عن بصیص ؛ وفی ینایر قام رومل بهجوم مضاد واسترد کل شیء حتی درنة .

وكان بصيص أقوى قليلا من ذلك يجيء من الروسيا وإن ظهر فيا بعد أنه لم يكن إلا سراباً . ومن العجيب أن الألمان لم يتزودوا بما يلزم لقتال الشتاء ، كما أن



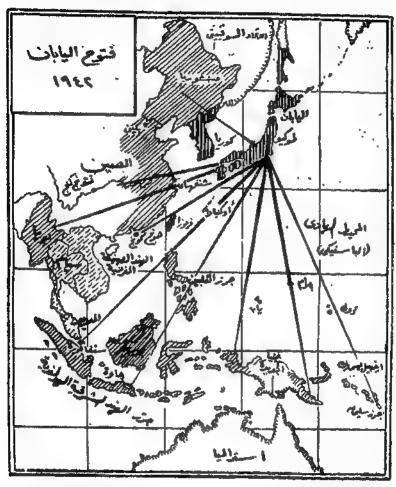
(شکل ۲۳۱) غرانکلین روزفلت

مبادرة الروس بنقل المصانع إلى ما وراء جبال الأورال عوضت خسارتهم لأوكرانيا إلى حدما . وردهم فى الجنوب الجنرال تيموشنكو على أعقابهم حتى بلغ خاركوف ؛ وبذلك أبعد الخطر عن موسكو وخفف الضغط عن لننجراد إلى حد ما . على أن تلك الأخبار غطى عليها بدرجة ما فقدان الحلفاء قطراً بأكله : هو بورما التى طرد منها البريطانيون طرداً عاجلا وسقطت رانجون فى ٧ مارس . وفى يونية قام

الألمان بهجوم آخر فى ليبيا ؛ وذلك بعد أن نيطت آمال كبار على الجيش الثامن بعد تعزيزه وتقويته بالدبابات الأمريكية الجديدة ، على أنه دفع إلى العلمين ، ووعد رومل ه بمواصلة الزحف وراء البريطانيين المندحرين إلى وادى النيل . ه وفى الشهر التالى أخذ اليابانيون يتجمعون فى جزيرة غينيا الجديدة فى طريقهم إلى أستراليا ، وحطم الألمان مقاومة الروس فى الجنوب . وسقطت سفاستبول كما سقطت روستوف ، وتقدمت جيوش النارى إلى الأمام نحو جروزنى وستالينجراد ، وهو أمر بهدد فى حالة الأولى بإيقاف مدد الزيت ، وقطع خط إمدادات الفولحا فى حالة الثانية .

وحاول البريطانيون استثارة الشعب الهندى لمعاونتهم . في مارس أرسل السير ستافورد كريبس ليعرض على المؤتمر الهندى مبدأ منح الهند وضع الممتلكة المستقلة (الدومنيون) بعد الحرب ، مع منحهم حق الانفصال ؛ وتخويل الهنود

دستورهم بأنفسهم ؛ فضلا عن إنشاء مجلس تنفيذى يستمتع مباشرة بسلطات وزارة بريطانية ، وأما سلطات نائب الملك فقد احتفظ بها كما يحتفط بسلطات الملك .



(شکل ۲۲۲)

ولكن المستر غاندى استهزأ بلنك العرض قائلا إنه . « شيك فات أوانه مسحوب على بنك يعلم ألناس جميعاً أنه ينهار . » وقرر حزب المؤتمر فى يولية القيام « بنضال شعبى متكتل » ضد المربطانيين ؛ كما قرر أن لا توجه على اليابانيين سوى مقاومة « قوة الروح »

وكأنما شاء الألمان أن يسجلوا تحققهم التام من النصر ، فأنزلوا مقابل مقتل هيدريخ حاكم تشيكوسلوڤاكيا عقوبة الإعدام على ثلاثمثة إنسان ومحوا من الوجود

قرية ليديس . ولكن هذا النزوع إلى القتل كان في الحقيقة من علائم الضعف ، فنذ أعلن « الكولونيل بربطن » في يولية ١٩٤١ في الإذاعة البريطانية تعبئة « جيش النصر ٧.army » ، ما برحت المقاومة تشتد وتقوى على الألمان . وكان لا بد من إذكاء تلك الحركة في أخريات الصيف بإعلان أنباء تنظيم موارد الحلفاء تنظيا جعل المبرة والذخيرة والعتاد الحربي تنصب إلى بربطانيا والروسيا انصباباً . وهاجمت قوات الولايات المتحدة اليابانيين في جوادا الكانال بالحيط الباسيفيكي في أغسطس ؟ كان قتالا بطيئاً ودموياً ، ولكنه كان على كل حال هجوماً على المحود ؟ وفي غانا الجديدة طرد اليابانيون إلى البحر . ومع أن الألمان بلغوا القوقاز ورفعوا الصليب المعقوف على جبل إلىروز (Elbruz) أعلى قة في أوربا ، فإنهم وجدوا الاستيلاء على ستالينجراد أمراً عسيراً ؛ ذلك أن دفاع الروس كان هناك عنيداً بصورة غير منتظرة .

ثم بدا فى نوفمر ١٩٤٢ كأنما حدث صدع مفاجىء. فنى الساعة السادسة والنصف من صبيحة ٢٣ أكتوبر ، هاجم الجيش الثامن بقيادة الحرائ مونتجومرى جيش رومل فى ليبيا بعد استعدادات طويلة ضخمة ، فحيت قوات المحور الجوية من السهاوات ؛ وفاز مونتجومرى بنصر عظيم فى معركة العلمين فى اليوم الأول من نوفمر ، ولأول مرة شهد العالم جيشاً نازيا يجرى متفرقاً شدر مدر ولا يقف لحظة فى مدى مئات من الأميال ه وبدأت الجيوش الألمانية هجومها المضاد فى جنوب الروسيا ؛ ولم تسقط ستالينجراد بأيدى الألمان وأحاط الروس بالقوة الألمانية المهاجمة لها ؛ وكان أن رأى العالم فى بناير جيشانازيا يسير إلى الأسر تحت بنادق الروس .

وبعد هجوم مونتجومرى بأسبوع ، نزلت الجيوش الأمريكية والمربطانية على غير انتظار إلى الدار البيضاء والجزائر ووهران ؛ وأنشئت جهة جديدة بعد مقاومة فائرة أبدتها جند بيتان . وكانت الصعوبات التي تواجه الحلفاء عند البداية سياسيه . في معظم أمرها . فقبل القائد الأمريكي العام الجنرال إيزنهاور حاكماً من أتباع بيتان في البداية هو الأمرال دارلان ، حتى إذا اغتيل ، تعن في مكانه فائد أنظف

سمعة هو الحنرال چيروه (Giraud) ؟ وقد كان تعين الحنرل چيروه موضع الاستياء من ديمول ، وهو قائد ظل منذ يوليه ١٩٤٠ ينظم مقاومة الفرنسيين من لندن . وقد اعترف الحميع بسلطة ديمول في الوقت المناسب ، ولكن الأثر السيء الذي تركته تلك المسألة كان له أثر ملحوظ على السياسة الفرنسية منذ ذلك التاريخ . وفي الحين نفسه تهيأ للألمان بقيادة قون أرنم الوقت الكافي لتنظم صفوفهم في تونس ؟ ولكن ثم يحدث إلا في ٧ مايو ١٩٤٣ أن قواته وقوات رومل ، وقد دفعا جميعاً إلى ما يشبه الحظرة ، ساضطرا إلى التسلم وسبق جيش ألماني عظم آخر أسراً إلى معسكرات الاعتقال . وفي ذلك الحين أيضاً ثم تعد الجزر البريطانية ضحية لقلف القنابل النقيل ؟ ودار الزمن دورته فصار سلاح الجوى الملكي ليلا والسلاح الجوى الماتمين ثهاراً يدقان ويحطان المدن الألمانية والأوربية والأهداف المسكرية ، عدائن تدميراً فيخا لعله قد ساعد على تقصير أمد الحرب (ونقول لعله لإن تلك مسألة فها جدل) .

بيد أن إغراق الغواصات والسفن ظل شديداً بدرجة مزعجة ، ومع أن الجيوش الروسية قد أصبحت في ذلك الحين كاملة العتاد والعدة ، إلا أن انتصار الروس في ستالينجراد لم يعقبه أى انهيار آخر الألمان . وظل القتال في الصيف سجالا – يتقدم فيه الروس حينا ويدفعون إلى الخلف آخر ، ويفعل الألمان مثل ذلك ؛ حتى إذا حل أغسطس كانت الروس ميزة واضحة على الألمان خاصة في الجنوب ، وفي الحين نفسه وثب الحلفاء الغربيون من إفريقية وفتحوا صقلية في يوليو ، ودخلوا أوربا عن طريق و كعب الحلفاء ، الإيطالي ؛ وكان موسوليني أول من سقط من عمد المحور حيث طرد من الحكم في ٢٥ يولية . وعندئذ قبل روز فلت وتشرشل وقد اجتمعا في كويبك عرضاً إيطالياً بتحول إيطاليا إلى جانب الحلفاء (بعد أن أعلنا من قبل أنهما لن يقبلا إلا التسليم دون قبد ولا شرط في الدار البيضاء في يناير من تلك السنة) ؛ ولكن الظاهر أن المسائل كانت فسلت . وكان رد الفعل الألماني أسرع من ذلك . فإن القوات الريطانية التي تحلي عمها فإن الإيطاليون عادت فهزمت مرة ثانية على يد القوات الجوية الألمانية ؛ ولم يكتسب الإيطاليون عادت فهزمت مرة ثانية على يد القوات الجوية الألمانية ؛ ولم يكتسب

الحلفاء إلا الندر اليسير من الأرض حتى بإيطاليا نفسها ، ونزل الأمريكيون أعلى الساحل الإيطانى عند سالرنو فتعرضوا إلى حين لحطر محلق عظيم ، وبلغ الأمر بالألمان أن أنقذوا موسوليني من آسريه وأنشأوا «جمهورية فاشية ، في الشمال .

وإذن فقد جاء الوقت الذي وجب فيه إيقاف الخلافات بين الحلفاء . وكان . الروس`حلوا بصورة إسمية الشيوعية اللولية في مايو ، ولكنهم في الشهر السابق



(شکل ۲۳۳) ستالین

نظروا إلى المستقبل البعيد فقطعوا هلاقاتهم بالحكومة البولندية المقيمة بالمنفى فى لندن . وكانت علاقة المقاومة الشيوعية سيئة بالآخرين فى كثير من أجزاء أوربا . أجل إنهم كانوا يحملون السلاح فى يوخوسلافيا ويقاتلون ، فكان الشيوعى الناشط تيتو يقاتل ميخائيلو فتش الملكى الخامل . وبعد التشاور مع تشبانج كاى شك فى القاهرة ، التتى روز فلت وتشرشل مع ستالين فى طهران عاصمة إيران فى نهاية

نوفمبر ، وعقدوا أول مؤتمرات ثلاثة لا يزال العالم يجهل إلى حد جزئى قراراتهم فها . وكأنى بالأحداث التالية أخذت تظهر أنهم قرروا هناك إقامة منظمة « للأم المتحدة » بعد انتهاء الحرب وأن من بين الترتيباب الحربية إعلان الروس الحرب على اليابان ، ومنح الروس الحق في تحرير أوريا الشرقية حتى مدينة براج مع دخول المدينة ضمن ذلك التحرير . ووضعت ترتيبات تنسيق المقاومة بما في ذلك التحلي عن مبخائيلو قتش

وكانت دورة الأيام وانتقالها من ١٩٤٣ إلى ١٩٤٤ مؤذنة بتحول الحظوظ في الحرب. فقام الروس بهجوم على طول خط القتال كله ولم يستطع الألمان في هذه المرة استرداد ما كسبه الروس منهم - فاسترد الروسيون زهبتومبر (چيتومبر) كما استردوا بسكوف وخلصت لنينجراد واستردت نيكوبول وأوديسا. وعادت القوات السوفييتية إلى حدود ١٩٢٨ وسرعان مانخطتها. واخترق وخط

كاسينو في إيطاليا ، وبعد قتال محطم للأعصاب دار عدة أيام حول رأس على الساحل عند أنزيو ، دخلت الجيوش الأمريكية مدينة روما في ٤ يونية ، فأما في الشرق الاقصى ، فإن تفوق اليابان البحرى قضت عليه في مارس ١٩٤٣ البحرية الأمريكية في معركة بحر بسمارك . فإن طريقة ماك آرثر نيمتز البطيئة الفعالة وهي « الوثب على الجزر » التي أصبحت عندئذ ممكنة طهرت آنذاك جزيرة غينيا الجديدة وجزائر سليان وأفضت إلى مهاجمة جزيرة طروك (Truk) المحصنة المنيعة . ودخلت الجيوش المربطانية والصينية بورما وأخراً شرعت في دفع اليابانين إلى الحلف .

ولكن غطى على كل ذلك حدث فى صباح ٢ يونية ، حدث سيظل موضع البحث فى كُنتِب التاريخ العسكرى . فإن الجيوش الغربية نزلت فرنسا .

كانت حملة مجهزة منذ مدة طويلة ، وكثيراً ما أرجئت ﴿ كَمَا تَمْتَ يُومًا مُحَاوِلَة زائفة لها) ، ثم حدثت الحملة الهائلة في فترة سكون قصيرة في أثناء جو فظيع وفي حدثان أسوأ عاصفة في يونية شهدها بحر المانش منذ عشرين سنة . وعلى الرغم من الأسلحة الهاثلة التي جمعت ، كان إنزال الحملة محفوفاً بأشد المخاطر . ويعدها القائد العام الجار ال أيزنهاور واحدة من أخطر اللحظات الثلاث الحرجة الحاسمة في حملته . فقد أعلن الألمان أن لاسبيل إلى اختراق جدارهم الغربي ، ولمسا شن الكنديون عليه هجرمهم الجسور الباسل عند دبيب (Dieppe) في ١٩٤٢ ، كانت العاقبة وبيلة مدمرة ــ وكانت تحت إمرة إيزنهاور ٣٧ فرقة ، ولكن خصمه فون رونشتد كان بيده ستون فرقة . واستخدم الحلفاء ١٧١ سرباً من أسراب الطائرات حطموا مها المطارات وانسكك الحديدية والكبارى ما هو من الكثرة بحيث عجز فون رونشند عن تجميع قواته عند ما تحقق من الموضع الذي تكال فيه الضربة الكبرى الرئيسية . ذلك أن الحلفاء انصرفوا عن منطقتي الكوتنتان وبمركاليه اللذين كان ينتظر أن يوجهوا هجومهم إليها ونزلوا على سواحل نورماندى المفتوحة ، منزلين المظليين أمامهم وجالبين معهم مينائين صناعيتين تسميان باسم ثمرة «التوت Mulbery . وأنزل الجند في مواضع ثلاثة واجتمعوا سريعاً في موضع واحد ، وكان البريطانيون يكوِّنون الطرف الشرقى والأمريكيون الغربي . وللمرة الثانية تقرر أن تكون بداية العمل ` الميدان الجديد على يد رومل ومنتجومرى ، فركز رومل كل مصفحاته وخيرة مشاته

فى الشرق حول مدينة كاين (Caen) لإنقاذ باريس وحوض السين وحماية المواقع التي كان الألمان يضربون منها عندئذ بريطانيا بطائرات تسير بغير طيارين (وهي المسهاة (<٧.15>) وكانت تلك الطائرات تنسف المباني التي تصطك بها – ثم جاءت في إثرها طائرات أسرع من الصوت تسمى (<٧25) وكانت تنقض على على أهدافها من طباق الجو العليا . وهنا كان التقدم دموياً وبطيئاً ، ولكن جبوش على أهدافها من طباق الجو العليا . وهنا كان التقدم دموياً وبطيئاً ، ولكن جبوش



(شکل ۲۰۳۶)

الولابات المتحدة دأبت على شق طريقها نحو الغرب بثبات ، حتى قطعوا خط شبه جزيرة الكوتنتان ثم استولوا على شربورج ، وبذلك أصبح فى قبضهم فى النهاية ميناء طبيعى كبر . وما حلت نهاية يولية حتى أصبحوا وقد شقوا طريقهم عنوة حول ركن شبه الجزيرة إلى بريتانى بالاستيلاء على أفارانش ، فانحين السبيل أمام جيش

الحترال باتون ليزحف بجيشه في صورة مروحة في مسيره الشهير عبر شمال فرنسا . ووثبت « جيوش الداخل » الفرنسية إلى أسلحتها لاستقباله ، وأخذ الحكم الألماني يتصدع . وسقطت دينان في ٢ أغسطس ورين في ٤ أغسطس وماين " في ٢ وليان في ٩ ونانت وأنجرس في ١٠ ، على حين سارع الألمان إلى الفرار إلى المواني المحصنة : برست وسانت نازير وسانت مالو ولوريينت .

ولكن خيل للألمان أن هذا التقدم الرائع يعطيهم فرصة ، فلو أمكن اسرداد أقارانش ، إذن لقطع السبيل على باتون وشلت حركته . ومن ثم وجهوا إليها هجوماً قوياً من فرق الپانزر في ٧ أغسطس . ولكن الهجوم صد في يوم ١٧ وواصل القواد الألمان هجومهم طويلا . وكان التقدم السريع الذي أحرزه پاتون حول مراكزهم إلى خط امتداد طويل محصور في منطقة فاليز ، التي سميت باسم رهيب ولكنه صحيح هو «أرض القتل ، . ولم تبق من جيش الپانزر الخامس والسابع إلا بقايا ضئيلة فرت على أعقابها إلى لهر السين الذي لا يقوم عليه هناك جسر ولامعر ؛ حتى إذا حل يوم على معضم الجيوش الألمانية بين ميت وأسير .

وفى الحين نفسه اكتسحت حركة ياتون مدن: شارتر ودروه ومانت على السين وأورليان وفونتينبلو وترويس، وكلها سقطت فى مدى أسبوعين ؛ وأنزلت دفعة أخرى من الجند فى الجنوب بين مارسيليا وطولون قامت بتعقب الألمان على امتداد حوض الرون ، ولكن فرنسا خلصت نفسها إلى حد كبير حيث قدر إيزنهاور مقدار قوات المقاومة و بخمسين فرقة » . وولى الألمان الأدبار مهطعين ، إذ اضطروا إلى ذلك لأن القطر المحيط بهم بأكمله تحول إلى منطقة عدوة مسلحة ، وخلصت باريس نفسها بعصيان نظمته الشرطة فى التاسع من أغسطس ، قبل وصول الحلفاء يوم ٢٥

وعندئذ جاء دور البريطانيين والكنديين ؛ فإنهم قاموا باكتساحات شمالية جارفة أسكنت ــ الواحد تلو الآخر من الأحادير العظيمة التي كانت تنطلق منها إلى بريطانيا الطائرات «٧٠١» التي ليس لها قائد ، ثم انصبوا عبر شهال فرنسا وبلجيكا . وفي ٣٠ أغسطسأصبح البريطانيون في بوڤيه وإذا هم في أميان في اليوم التالي ــ ثم إذًا هم يوماً في إثر يوم يستولون على آراس وتورنيه وبروكسل وأنتويرپ (أنڤرس) ولوڤان . واستولى الكنديون والبريطانيون فى أول سبتمبر على دييب وروان ؛ وفى الأيام الأربعة التالية اكتنفوا الهاڤر وبولونيا وكاليه ؛ وفى السادس منه أخذوا أوستند . ولكن بدا عند ذلك أن الاندفاعة العظيمة انتهت . وتقدمت جنود الولايات المتحدة إلى لكسمبرج ، وتقدم الفرنسبون إلى الرين من خلل الڤوچ ، ولكن محاولة البريطانين مواصلة الغزو حتى هولندة كبدتهم خسارة ثلاثة أرباع قوة من جنود المظلات قرب أرنم . . وكانت أول مدينة ألمانية سقطت هي آخن ، وهي في الطرف الأقصى للتخوم الألمانية ، وقد أخذت في ٢١ أكتوبر ، ولكن الأمطار نزلت بشدة في نوفمبر وبدا كأن جيوش الحفاء قد استنفدت قوة الدافع .

وكانت الآنباء الواردة من أوربا الشرقية طيبة أيضا ، ولكن كانت تشوبها بعض الظلال . فقد أصيب الجيش الألماني بضربة ثقيلة عندما استردت منه مدينة منسك ؛ وأعقبتها قلنا ، وفي أغسطس عبرت الجيوش الروسية الحدود البروسية الشرقية قرب مريمهول ؛ وثارت قوات المقاومة البولندية في وارسو لاستقبالهم . ولكن فات الروسين أن يتقدموا لمعاونتهم ؛ ولم يلبث مقاتلة وارسو حتى أبيدوا عن آخرهم بعد أن كافحوا مدة ثلاثة أشهر كفاح المستيش . ونقل مركز الثقل في الهجوم السوئيتي تحو الجنوب . واعتقل ميتبل ملك رومانيا «الفوهرر Führer» الحلي ببلاده وانضم إلى أعداء الألمان ؛ وسلست بلغاريا ؛ وحرر المساريشال تيتو وطنه يوغوسلائيا . ودخلت الجيوش الحمراء بلاد الحجر . (وحرر البريطانيون بلاد الجونان .) .

وفى الشرق الأقصى تمزق شمل الأسطول اليابانى فى معركة الفليين ، ونزلت الجيوش البريطانية تدفع الجيوش الأمريكية بإحدى الجزر (لايتى) ؛ وكانت الجيوش البريطانية تدفع باليابانيين إلى الخلف فى بورما ، ولكن ذهابهم كان عسيراً جداً .

وفى شتاء ١٩٤٤ قام الپانزر يآخر هجوم لهم فى التاريخ . فقد هاجمت الأمريكيين فى منطقة الأردن التقليدية فى يوم ١٢ ديسمبر ١٤ فرقة من المشاة ، ١٠ فرق من الپانزر وقوة تجددة من سلاح الطبران الألمانى . فكسروا صفوف الأمريكيين فى

جهة عرضها ٤٥ ميلا ؛ وقرقوا بين ميمنة الجنرال برادلى وميسرته ، وقطعوا الطريق على الفرقة ١٠١ من الجنود الأمريكيين راكبة الطائرات في ماستونيه على طريق سيدان ؛ وتقدم الألمان ٢٠ ميلا حتى أوشكوا أن يبلغوا نهر الموز ولكنهم ما لبئوا أن أوقفوا عن الزحف ثم دفعوا إلى الخلف . وبعد أكثر من شهر بقليل عادوا إلى حيث كانوا من قبل ، ولم يبق لديهم دبابات ولا طائرات ولا زيت مماكانوا يحتاجون إليه أشد الحاجة .

ومنذ ذلك الحين أصبح الهيار الألمان سريعاً عاجلاً . وفي يناير ١٩٤٥ كان الروس اجتاحوا پولندة بأكملها ولتوانيا معها ، ودخلوا سيليزيا ولم يلبثوا حتى أصبحوا على ما لايزيد عن ٣٠ ميلا من برلين . وفي الغرب صمم الألمان على التتال غربي نهر الراين ــ وهي الكارثة الحاسمة الثالثة فيا يرى إيزينهاور (وكانت الثانية هي فاليز ﴾ ؛ فإنهم لم يلبثوا في الأسبوع الأول من مارس أن سحقوا مرة ثانية ولم يبق لهم من حدود سوى نهر الراين نفسه . وفي فبراير عقد في يالنا مؤتمر ثان للأقطاب حضره روزفلت وتشرشل وستالين فنستى الحطط للهجوم النهائى وللتسوية السياسية لأوربا والشرق الأقصى ــ وقد نجح المؤتمر في الحالة الأولى . والواقع أن المقاومة العسكرية الألمانية كانت ترجع آنئذ إلى إرادة رجل واحد هو أدولف هتلر , وقد فشلت محاولة لا غتىاله في ٢٠ يولية ١٩٤٤ ، وإن النازيين ليواصلون المقاومة ما أقام هو على إلقاء خطبه . ولكن أنى له أن يغير مجرى التاريخ ؟ فني مارس أصبحت الجيوش الغربية تقف على شاطئ الراين ، وحوصر حوض الرور ولم يلبث حتى سقط بمن فيه من مدافعين . ودخل الروس ڤيينا في ١٣ من أبريل ، ولم ينقض زمن طویل علی ذلك حتى طوقوا برلن وبها الفوهرر نفسه ، وتقدم پاتون نحو تشيكوسلوڤاكيا ، وتوقف خارج براج ، وبلغ البريطانيون نهر الإلب . وف ٢٥ إبريل وعلى نفس ذلك النهر التقت الفرقة ٥٨ الروسية بالفرقة ٦٩ الأمريكية ، وأصبح الريخ مقسوماً إلى قسمن .

وكان المتوقع أن يتُسحب هتلر بطريق الجو إلى « طابية » فى جبال الألب بموقع يمكنه أن يقف فيه وقفة أخيرة ، ولكنه لم يفعل ذلك . ذلك أنه ازداد جنونا فى أيامه الأخيرة وأخذ يغذى خياله حتى النهاية بأوهام وخيالات عن جيوش ألمانية ستتقدم لانقاذه ، فصمم على أن يختم حياته ختاماً ميلودراميا أعنف وأقسى ؛ فبينما كان الروس يشقون طريقهم نحو مكان مخبأه من الغارات في برلين ، أقدم على الانتحار في اليوم الأخير من إبريل ومعه إيڤابراون . ثم أحرقت جثتاهما بعد ذلك بأمره . وقبل ذلك بيومين اغتال رجال الأحزاب الإيطاليون موسوليني وخليلته وعلقوهما من قدمهما في الشارع .

وتمضى ذلك الخبر على كل مقاومة . وفي اليوم الثاني من مايو سلمت برلين ؟ وكذلك فعلت جميع الجيوش الألمانية بإيطاليا ؛ وبعد يومين نحت نفس ذلك النحو الجيوش الألمانية في هولندة وشمال غربي ألمانيا والدانيمركة . وفي اليوم السابع وقع الحَمْر ال يودل (Jodi) رئيس هيئة أركان الحرب على صك استسلام تام . ولم يبق من شيء يعمل بعد ذلك بألمانيا سوى تنسيق أعمال الفاتحين . وبيها الحلفاء يجتاحون أرض الربخ ويشهدون بلسن وداخاو وأوشقتر وغيرها من معسكرات الاعتقال ، أدركوا (الحلفاء) أن الروايات التي كانت تروى عن جرائم الألمان ووحشيتهم كانت - على عكس روايات الحرب العالمية الأولى ــ أقل كثيراً من الحقيقة . لذا لم يظهروا أى ميل إلى الرحمة ، ولما اجتمعوا في بوتسدام في ١٧ يولية اتفقوا على تنظيمات اقتصادية وسياسية لألمانيا كانت فيما بعد موضع النقد لأنها تجعل من المحال بعد ذلك أن يصبح ذلك القطر إلا حي فقراء معدمين يتلتى معونة اجتماعية ؛ وفوق هذا ، فإن الفرنسين الذين احتلوا جزءًا من ألمانيًا رفضوا التعاون في تنفيذ تلك الخطط . وكان المؤتمر يضم وجوها غريبة . وكان أحد بناة النصر قد مات عشية وصول الحلفاء إلى نهر الإلب ، وجلس في مقعد روزفلت رئيس قلق اسمه ترومان . ولم يكن تشرشل جالساً في بهرة ذلك المؤتمر لأنه اختفي حيث ربط مصره بمصر المحافظين ؛ إذ أجريت بالبلاد انتخابات عامة أحلت كلمنت . أتللي زعم حزب العال محله في رياسة الوزارة . وبقى ستالين وحده صامناً لم يُعزل ، صامناً لابعرف ما يجول بخاطره . ولكن لم يظهر حتى آنذاك خلاف خطير . أجل إن الروس كانوا يبلمون شيئًا من المالأة والإيثار للأحزاب الشيوعية بالبلاد التي احتلوها _ (وهو أمر منطقى ومتوقع)، ولكنهم لم يلغوا الأحزاب الأخرى. وفوق هذا، انخذت عطوة عظيمة فى سبيل الوحدة وافقت عليها الشعوب طرا، وهى توقيع خمسن دولة مبثاق الأمن العالمي بمدينة سان فرانسسكو فى ٢٠ بونية . ولتهدئة روع كل من السوڤييت ومجلس الشيوخ الأمريكي أدخل فى المنظمة الجديدة حتى الفيتو للدول العظمي .

ولكن لأن لم يكن هناك قتال ينبغى القيام به بألمانيا ، إلا أن الحرب لم تنته مع ذلك . ذلك أن الدراما التى مثلت فى أوربا قد أبعدت عن المسرح مشاهد النضال فى الشيرى الأقصى ؛ إذ بلغت المرارة بنفس القوات المحاربة فى بورما أن أسمت نفسها : ها الجيش المنسى ، وكانت الجيوش البريطانية والهندية فتحت من جديد الطريق البرى إلى الصين فى يناير ؛ وتيسر لها فى مارس فنح ماندلاى وانتقل الجنود البورمانيون غير النظامين بقيادة أنج سان من جانب اليابانين إلى صفوف الحلفاء ؛ البورمانيون غير النظامين بقيادة أنج سان من جانب اليابانين إلى صفوف الحلفاء ؛ الولايات المتحدة البرية والبحرية أن القضاء على الأسطول الياباني لم يوثر بأى حال فى القتال المرير الذى كانت الجيوش البرية اليابانية تدافع به عن الجزر الحيوية الأهمية في الباسيفيكي ، ولم يتم نحرير الفلين إلا في ه يوئية . فإن الذادة عن إيووجها ظلوا يحاربون من 19 فبرابر إلى 10 مارس ؛ وظل المدافعون عن أوكيناوا ، وهي جزيرة قريبة من اليابان قرباً خطراً يقاتلون باستهانة تكاد تصل إلى الجنون من أول إبريل وصمدوا فى موقفهم قرابة الثلاثة أشهر . ذلك أنه يظهر أن اليابان كان متبقياً لديها فائض ضخم من الطاقة وأن إعلان الروسيا الحرب عليها كان موضع الترحاب لديها .

ولكن الواقع أن اليابان كانت منهكة أكثر كثيراً بما بدا عليها ظاهرياً ، ولم تلبث حين وجه إليها أشد أنواع و الأسلحة الحديثة المروّعة أن استسلمت استسلاماً مباغتاً . وكان العالم أينشتين وغيره من العلماء حذر الحلفاء منذ البدايات الباكرة للحرب مما يحاول النازيون فعله ، فأخذ الحلفاء يحاولون و تفتيت الذرة و لكي يطلقوا عقال أقصى ما في هذا العالم من طاقة . وأخذ العلماء الأمريكيون والكنديون والبريطانيون يعملون في تلك المسألة ، وفي اليوم السادس عشر من يوليو فجرت

بنجاح أول ٥ قنبلة ذرية ، بصحراء ولاية نيومكسيكو . والواقع أن استخدام هذه الآلة الجهنمية كان يتوقف على الرئيس الأمريكي الجديد . وفي النهاية استقر رأيه إلى أنه ربحاكان في الإمكان استحياء مثني ألف نفس أمريكية كما قال الرئيس ذلك فيما بعد لو استخدمت تلك القنبلة ، بل ربحاكان في استخدامها الابقاء على عدد آخر أكبر من أبناء الأم الأخرى . وفي ٦ أغسطس سقطت على ميناء هروشها اليابانية قنبلة ذرية بعد إنذار شكلي عاجل . ويمكن الفول بصفة إجمالية أن تلك القنبلة دمرت المدينة بأكملها وقضت على كل كائن حي بها . وبعد ذلك بثلاثة أيام أسقطت على نجازكي قنبلة مماثلة فأحدثت نفس النتيجة . (وقد أعلن الروس في المدة بين القنبلتين الحرب على اليابان ودخلوا منشوريا ، وكأني بتلك الفعلة أصبحت آنذاك مسألة صغيرة الأهمية .) وفي ١٤ أغسطس سلم الإمراطور الياباني دون قيد ولا شرط ، وفي اليوم التالي أعلن المستر ترومان والمستر أتللي أن يوم النصر على اليابان «V.J Day» اليوم التالي أعلن المستر ترومان والمستر أتللي أن يوم النصر على اليابان «V.J Day»

٢ ــ مستقبل البشرية

مهما يكن مصير البشرية ، فليس ثم مجال الشك في أن الوصول إلى توحيد البشرية كلها في اتحاد فدرالى ، فضلا عن قيام قدر كاف من العدالة الاجتماعية ، إبتغاء تأمين الصحة والتعليم وضان قدر لا بأس به من تكافؤ الفرص لمعظم الأطفال المولودين في هذا العالم ، سيودى إلى إطلاق الطاقة البشرية وزيادتها بصورة تفتح دوراً جديداً في التاريخ البشرى . وعند ثذ لابد أن يتوقف ذلك الحسار الهائل ، الذي يعيد إلى ما يدور بين الدول الكبرى من إضرار متبادل ، فضلا عن الحسار الأضخم كثيراً ، الراجع إلى قلة إنتاج جماهير غفيرة من الناس ، الذين يقصرون عن الأضخم كثيراً ، الراجع إلى قلة إنتاج جماهير غفيرة من الناس ، الذين يقصرون عن الكفاية إما لشدة ثرائهم حتى ليعوزهم الدافع المثير وإما لشدة إدقاعهم حتى لتعوزهم الكفاية . وعند ثذ لابد أن تحدث زيادة ضخمة جداً في إنتاج حاجيات البشرية الضروية وارتفاع في مستوى المعيشة وفي أفكار الناس حول ما يعتبر ضرورياً من الضروريات وتطور في النقل وكل نوع من أنواع اليسر والجام ؛ وعند ثذ لابد أن

ينتقل جمهور غفير من الناص من مرتبة الانتاج الخفيض اللرجة إلى صنف أعلى من العمل مثل الفنون على اختلاف أنواعها والتعليم والبحث العلمي وما ماثلها . ولابد أن يعم العالم عندئذ فكاك لعقال الطاقة البشرية ، على صورة لم تحدث إلى اليوم إلا في مواطن صغيرة فقط وعن طريق أدوار صغيرة وتمينة من الأمنة والرغد . فا لم نفترض أنه قد حدثت في الماضي انبجاسات تلقائية أنتجت مجموعة من الإنسان السويرمان ، فإن من المعقول أن نستنج أن أثينة پركليس وفلورنسة آل مدينشي وانجلترة إلىزابث وأعمال أسوكا العظيمة وعهدى تانج ومنج في الفنون ، إن هي إلا عينات لما يمكن أن ينتجه على الدوام وبصورة مجتمعة مكدسة عالم ترفرف على ربوعه عينات لما يمكن أن ينتجه على الدوام وبصورة مجتمعة مكدسة عالم ترفرف على ربوعه كلها الطمأنينة المستمرة . ولا شك أن التاريخ يمرر هذا الشيء الذي نتوقعه ، وذلك دون اللجوء إلى افتراض حدوث أي تغيير في الصفات البشرية ، اللهم إلا مجرد أولاته من النظام الحاضر القائم على الحسار المتجاوز كل حد .

وقد شهدنا بأنفسنا كيف أنه حدث منذ ساعة تحرير الفكر البشرى في القرنين المحامس عشر والسادس عشر ، أن عدداً قليلا نسبياً من رجال أذكياء طلعة ظهروا بخاصة في أوربا الغربية ، قد أنتجوا روى عن العالم وقدرا من العلوم تحدث الآن انقلاباً ثورياً في الحياة من ناحيتها المادية . وقد كان هؤلاء الرجال يعملون في معظم الحالات تلقاء نئيبط ضخم للهم وإقتار في المال ومساعدة أو مساندة ضئيلة من سائر البشرية . ومن المحال على المرء أن يعتقد أن هؤلاء الرجال هم أقصى ما أمكن جيلهم انتاجه من محصول . فإن انجلترة وحدها لا بد أنها أنتجت في القرون الثلاثة الأخيرة عشرات من النوابغ مثل نيوتن لم يتعلموا القراءة قط ومثات من أضراب دالتون ودارون وباكون وهاكسلي - ماتوا جيعاً أقزاماً في بيئات الفقر وألجهل دالتون ودارون وباكون وهاكسلي - ماتوا جيعاً أقزاماً في بيئات الفقر وألجهل العفنة ، أو لم يحصلوا قط على فرصة لإظهار مواهبهم .

ولابد أن العالم كله كان مشحوناً بآلاف من أشخاص كان يمكن أن يكونوا باحثين من الطراز الأول أو فنانين ممتازين أو مفكرين ذوى عقول خلاقة لم يتح لهم قط بصبص من الإلهام ولا فلذة من فرصة مقابل كل فرد واحد من أولئك الذين تركوا أثرهم في العالم عميقاً محفوراً. وكم مات في الحروب القريبة من ألوف من

العظاء و قوة » غادروا هذا العالم يسرا لم يتم له ازدهار . ولكن العالم لو أتبح له بارقة سلام دول وطيد الأركان وبادرة عدالة اجتاعية ، لابد أن يتصيد الكفايات بشبكة دقيقة من التعليم العام الانتشار ، وربحا جاز له أن يتوقع الحصول على محصول يفوق كل مقارنة بأى محصول آخر من الرجال الأكفاء اللامعين الذين شهدهم العالم في أي حقبة من تاريخه .

ولعمرى إن اعتبارات مماثلة لهذه هي التي تبرر تركز الجهود في المستقبل القريب على إنشاء دولة عالمية جديدة قوامها أكبر من أنقاض ارتباكاتنا الحاضرة . والحرب شيء فظيع ، يزداد على تقدم الزمان فظاعة ورهبة ، بحيث أنه ما لم يجد الناس لهم منها مهرباً ، فلابد أن يقضى على الجهاعة البشرية ؛ ذلك أن ما تتمخض عنه من الفالم الاجتماعي ومشاهد الكائنات البشرية المصابة والمشوهة يعذب النفس ويثير لواعجها ، ولكن أقوى بواعث العمل السياسي والاجتماعي البناء عند ذوى الأرواح الحائلة لا يكن في عرد الأمل في تجنب الشرور قلر ما يكن في نشوء القرصة اللازمة للقيام بالمغامرات العظيمة التي يتبحها لجنسنا البشري القضاء على تلك الشرور . ونحن نبغي إلغاء كثير من ألوان التزيد في الملكية الحاصة مثلما قد نرغب في إلغاء حارس أبله يمنعنا من الدخول إلى موسم يمكن الداخل إليه القيام بأشياء ممتازة .

ومن الناس من قد بتصورون أن قيام نظام عالى وقانون وعدالة شاملين لابد أن يبدأ المغامرة البشرية . والواقع أنه أمر لا يزيد عن أن يبدأ تلك المغامرة . ولكن بدلا من مغامرة الماضى ، تلك القصة و الرومانسية و لعالم السيما توغراف القائمة على التكرار الدائم للتفاعلات المبتدلة للجنس (Sex) والعراك وتصيد الذهب ، ستكون المغامرة ارتيادا لا نهاية له على حافة الحبرة . فكأن هناك رجلا ظل حتى حين قريب يعيش في أحد الأحياء الفقيرة ، يتنقل بين ما تحفل به من ألوان الشجار والانتقام والغرور والمعرة والدنس والرغبات الحارة والشهبات الحادة . ولم يكد حتى اليوم يتذوق للهواء التتي الحلوط طعماً ، ولا عرف فلحريات الضخمة في الحياة ، التي وسع العلم آفاقها له .

ومن أجمل التأملات التي قد يرتأمها الفرد منا تصوره صورة ما للحياة الأرحب أفقا التي تفنح وحدة العالم رتاجها على مصراعيه . ولا بد أن الحياة ستمضى عندثذ مدفوعة بدافع أقوى ، وستتنفس أنفاساً أعمق وأقوى ، وذلك لأنها عند ذاك تكون قضت على مئات من صنوف العدوى التي تصيب العقل والجسم والتي تلسعه اليوم بلسعات المرض والعجز والفاقة . وقد سبق أن شددنا التأكيد هلي أن الكدح قد أزيل من الحياة الإنسانية بدرجة كبيرة بسبب إيجاد نوع آخر من الرقيق : هو الآلات . وسيرفع هذا عن كاهل أطفالنا ومعه عوامل أخرى مها اختفاء الحرب وتوطئة أكناف ما لا حصر له من القيود والمنازعات بفضل الترتيبات الاجتماعية والاقتصادية الأكثر عدلا ، - عبء العمل المتعب والعمل الروتيبي ، وذلك العبء الذي بذله الإنسان وما زال يبذله منذ ظهور فجر الحضارات الأونى كي يحصل على الأمن البشرى . وليس معنى ذلك أنهم سيتوقفون عن العمل ، بل أنهم سيتوقفون عن القيام بالأعمال المضنية التي يعملونها بدافع الضغط ، وسيعملون بملء حرياتهم واضعين الخطط وصائعين ما يشاءون وخالقين ما يستطيعون خلقه ، كل حسيا تهيىء له قدراته وغرائزه . ولن يعودوا يقاتلون الطبيعة على طريقة أصحاب الفأس والمحراث الأغبياء في قديم الزمان، وإنما هم مقاتلوها التماسا لفتح عظيم يفتحونه. وكل ما في الأمر أن انعدام الروح فيا يحبق بنا من اكتتاب في عصرنا الراهن يعمى بصائرنا عن الإشارات الواضحة التي تشير بها إلينة عقولنا ، وهي التي ترسم لنا أنه لن تنقضي بضعة أجيال حتى تصبح كل مدينة ريئتية صغيرة أثينا جديدة ، وحتى يصبح كل كائن بشرى رقيقاً في تربيته ، صحيحاً في جسمه وعقله ، وحتى تصبر كتلة الأرض كلها منجماً للإنسان ومصدر إنتاج وثروة وأقصى مناطقها بعداً مسترادا له

وقد جهدنا فى هذه و المعالم ، أن نبين للقارئ نظامين عظيمين للتطور يتفاعلان أحدهما مع الآخر فى قصة الجهاعة البشرية . فقد شهدنا الثقافة المتأخرة للعصر الحجرى الحديث تنمخض فى المناطق الرسوبية الدفيثة من العالم عن الحضارات الأولية العظيمة ، وهى نظم كانت تربة خصيبة لنمو الإخضاع والطاعة وتكاثرات ضخمة

لأناس مجدين أذلاء . وأوضحنا العلاقة الضرورية بين هذه الحضارات القديمة وبين المعابد الباكرة وبين الآلهة الملوك والملوك الآلهة . وترسمنا في الوقت نفسه خطى التطور المتداء من مستوى بسيط العصر الحجرى الحديث الذى عاشت فيه الشعوب المتجولة ، التي أصبحت الشعوب المترحلة ، ترسمناها في تلكم الجماعات الضخمة : الشعوب الآرية النوردية والشعوب المونية المغولية في الشهال الغربي والشهال الشرقي كما شهدتا الساميين سكان الصحارى العربية . وقد تحدث تاريخنا عن عمر هذه الشعوب الأشد مراساً والأجرأ قلباً والمتحررة روحاً ساكنة السهوب والصحارى ، غمراً متكرراً ومنعشاً للحضارات السمراء أصلا . وأوضحنا كيف أن هذه الانسيابات المتكررة على الدوام لهولاء المترحلين غيرت على الدوام كلا من روح الحضارات البدائية على الدوام لهولاء المترحلين غيرت على الدوام كلا من روح الحضارات البدائية وما نشهده من شدة جرأة البحث العلمي الحديث والقلق العام المنتشر في الدنيا ، وما نشهده من شدة جرأة البحث العلمي الحديث والقلق العام المنتشر في الدنيا ، وحم كلها إلى « صبغ » الحضارة بهذا الصباغ الترحلي . واليوم تدمرت قوة التقاليد . أجل إن قوام حالتنا الراهنة لا يزال هو الحضارة ، ولكن روحها هي روح العالم المترحل . هي روح السهول العظيمة والبحار العليا .

ونتيجة لهذا كله يصبح من المسير علينا أن نقاوم الاقتناع بأنه ما يكاد قانون واحد يسرى في الأرض وتكف حدة التوترات على الحدود عن إقلاق بالنا ، حي تحدث أثرها فينا تلك الحاجة الماسة في طبيعتنا التي تحركنا في الربيع والحريف أن نشهض للسفو والرحلة . وسيكون منا السبيع المطبع لما ركب في دمائنا من دعوة مراعي الصيف ومراعي الشناء ، ودعوة الحبال والصحراء والبحر . ومنا أيضاً من قد يكون من سلالة أخرى وتجيئه دعوة الغابة ، ومنا من يميل إلى الصيد صيفاً وبعود إلى الحقول تلبية لدعوة المحصول والحراث . ولكن ليس معنى ذلك أن الناس سيصبحون عندئذ مشردين بغير مأوى منساقين دوما بدافع النقلة والتحرك . إذ أن حياة الترحل السوية ليست حياة قوم عديمي المأوى ، وإنما هي حياة قوم يتنقلون بين مآوى عندئلة . فإن شعب القلموق يعيش في هذه الأيام كطه الخطاء . منتقادات كا عاء ألف ميل من مأوى لهم إلى آخر . وفي اعتقادات "

التالى الحميلة المريحة ستمر عليها مواسم تعج فيها بالحياة ومواسم تغط أثناءها فى النوم . وستمر بالحياة آناء مد وآناء جزر تمتلىء فيها كل إقليم أو يُصفر على حال موسمية بقدر ما يزداد الاهمام بذلك الإقليم أو يفتر .

ولكن يكون في هذا العالم الأحسن نظاماً إلا القليل من الكدح العسيف . إذ أن العسيف الكادح للناس جميعاً سيكون قوى الطبيعة ملجمة في الماكينات. فأما ماكان من صنوف الكدح لا مندوحة منه ، فسِيتم في صورة خدمة وأداء واجب لمدة بضعة سنوات أو أشهر تقتطب من حياة كل فرد ؛ وإذن فلن يستنفد ولا يحقر حياة أى فرد بأكملهًا . ولن يقتصر الأمرّ على الكادحين العسفاء فقط ، بل إن أنواعاً عديدة أخرى من الناس وطرائق أخرى كثيرة للعيش تبدو اليوم ضخمة ضخامة غبر عادية في الخطة الاجمّاعية الحارية ستضوى أهميتها بمكم الضرورة أو تزول من الوَّجود زوالا تاماً ؛ مثال ذلك أن المقاتلين المحترفين سيكونُون قلة أو ينعدمون تماماً وسيزول من الوجود موظفو الجارك ؛ ولا بد أن يتهيأ للعدد الضخم الذي سيصير إليه المعلَّمون إلغاء شطر ضخم من قوات الشرطة وشطر آخر ضخم من موظني السجون ، وستصبح دور الحجانين نادرة أو متعدمة تمامأ ؟ وسيعم العالم كله نظام صحى شامل يقلل من عدد المستشفيات والممرِّضات والمشرفين على غرف المرضى وما إلى ذلك ، وستعم الدنيا أجمع عدالة اجتماعية وينقرض منها كل عالة تميش عائمة على بحر المجتمع كالغشاشن والمحتالين والمقامرين والمحتكرين والمتطفلين والمضاربين بصفة عامة ولكن عالم الأيام المقبلة لن تنقضي فيه المغامرة ولا الروّمانس ، كما أنه سيحدث مثلا أن مصايد الأسماك في البحار وتلك الثورات التي تحدثها البحار بلا نهاية ستدعو طرزها الحاضة القوية من الرجال ؛ كما أن أطباق الهواء العليا ستجأر مطالبة بالرجولة التي تجرو على الخبراقها ، فضلا عن زئير الأماكن الخفية العميقة الخطرة للطبيعة . بالدعوة والطلب .

وسيلتفت الناس ثانية لعالم الحيوان باهتهام مجدد . فإن أيامنا هذه المضطربة تجرى فيها مذابخ غبية لا سبيل إلى ضبطها تنزل أضرارها بأنواع الحيوان ــ وترى بعض الدوائر أنها شيء أكثر فجيعة من التعاسات الانسانية نفسها ، فقد حدث إبان القرن

التاسع عشر أن العشرات من أنواع الحيوان أبيلت عن آخرها مع أن بعضها أنواع شائقة جداً ؛ بيد أن من أول تمرات اللولة المعالمية الفعالة قيام حماية أفضل لكل ما يسمى الآن بالضوارى . ومن أعجب الأمور فى تاريخ البشرية أن نشهد ذلك القدر الضئيل الذى تم منذ عصر البرونز فى سبيل استئناس الحياة الحيوانية المحيطة بنا واستخدامها ومصادقتها وتقديرها . ولكن ذلك القتل البحت الغبى الذى يسمونه البوم باسم الرياضة لابد أن يحل محله فى مجتمع عالم أحسن تعليا تعديل للغرائز البدائية التي تعبر عن نفسها بهذه الطريقة يحولها إلى اهتمام لا بمرت الوحوش بل بحياتها ، ويؤدى إلى قيام محاولات جديدة قد تكون أيضاً عجيبة جداً وجميلة جداً لمصادقة مذه المخلوقات الدنيا البائسة القريبة النسب منا والتي لم نعد نخشاها عدوا ، ولانكرهها منافساً ولا نحتاج إلها عبداً رقيقاً .

. وليس معنى وجود الدولة العالمية والعدالة العامة الشاملة حبس جنسنا البشرى فى إطار نظاى من النظم الجرداء . إذ أن الجبال والبحر ستظل كائنة ، وستظل هناك أدغال وغابات عظيمة تلتى العناية حقا وتقدر أعظم التقدير وتوضع موضع الرعاية والحاية ؛ وستظل السهول العظيمة مبسوطة أمامنا وتخفق فيها الأرياح العانية . ولكن الرجال سيكفون عن البغض إلى هذا الحد الشديد ، وعن الحوف بهذه الشدة ، وعن الغش والجديمة بمثل هذه الدرجة المستيشة التي نشهد ؛ وسيحافظون على عقولهم وأجسامهم أنظف وأطهر .

هذا وإن ضم شتات البشرية مجتمع واحد لا ينطوى ضمنا على خلق مجتمع واحد معنجانس ، بل الأمر على العكس من ذلك أو يكاد ، إذ سيقوم الوضع على استخدام الصفات المميزة الحاصة استخداماً كافياً يكون موضع الترحاب من الجميع فى سجو من الفهم . والأخلاق السيئة المنتشرة بين الناس كافة تقريباً فى هذا العصر الذى نعيش فيه هى التى تجعل الشعب لايطيق أخاه من الشعوب . والمجتمع الذى لعلنا نسير صوبه سيكون أشد اختلاطاً ، وأكثر ينوعاً وأكثر امتاعاً وتشويقا من أى مجتمع بوجد الآن بوجد الآن بوجد الآن ما وليس معنى ذلك بالضرورة أنه سيكون أكثر تهجينا . ذلك أن

المجتمعات المصوغة على غرار واحد كصناديق بيادق (١) اللعب ، إنما هي شيء على المعتمد الله المستقبل .

بيد أن من أعسر الأمور وأشدها استحالة على الكاتب ، أن يتصور قيام وضع. يعيش فيه قوم أحسن تعليها وأسعد ظروفاً وأكثر حرية وأصح بدنا منه هو نفسه . ومعارفنا في هذه الأيام من السعة بحيث تعلم يقيناً أن هناكِ متسعاً لا نهاية له لادخال التحسين في كل ناحية تهم البشر . وكل ما يحتاج إليه الأمر إنما هو الجهد الحشدى المشترك والتسامح المتبادل. ولا شك أن ما نرزح تحته من فقر وقبود وأمراض معدية وعسر هضم وما ينشب بيننا من شجار وسوء تفاهم ، إنما هي أشياء يمكن . التحكم فيها وإزالة دواعيها بتجميع الجهود البشرية . ولكن معرفتنا بمعنى الحياة وإخساسها لو انعدمت هذه الأشياء تكون ضئيلة جداً لا تزيد عن معرفة مخلوق فقر قذر يعامل معاملة السوء وتتمرد نفسه بالشراسة ، مخلوق ولد وترعوع بين ظهراني. وسط قاس قذر في شارع خلني من شوارع أوربا ، ــ أقول لا تزيد معارفنا عن. معرفة ذلك المخلوق بمعنى الاستحام يومياً وارتداء الثياب الجميلة وارتقاء الجبال التماسا للمسرة والانطلاق إلى أطباق الجو طبرانا وعدم الالتقاء بأى إنسان إلا المهذبين الواقين من ألناس والقيام بالابحاث العلميه العميقة أو إنتاج كل ما يسر ويسهج من الأشياء . ولكن اليوم الذي قد تكون فيه هذه الطيبات جميعًا في متناول الناس كافة إ قد يكون أقرب كثيراً مما نظن . وكل مرء منا يعتقد فى ذلك يقرب يوم ذلك الزمان الحسن ؛ وكل قلب يفشل دون تلك الغاية يباعد بيننا وبينه .

ولا يستطيع إنسان أن يتنبأ بالمفاجآت ولاخيبات الرجاء التي يدخرها لنا المستقبل . وقبل أن يبدأ هذا الفصل الحاص بالدولة العالمية بداية جميلة في تاريخ العالم ، فربما احتاج الأمر أن تُكتب فصول أخرىلا نتوقعها الآن ، فصول لا تقل في طولها وامتلائها بالصراع عما أدلينا به إليك عن نمو الدول العظمي ومنافساتها وعن نورة حكومات القلة الشيهة بالعصابات . وربما حدثت كفاحات اقتصادية

⁽١) البيدة هو الجندي المصنوع دمية كما في الشطونج . [المترجم]

فاجعة ، وملابطات شرسة بين جنس وجنس وبين طقة وطبقة . وربما حدث أن يعاود أصحاب و المشروعات والمساعى الحاصة » رفضهم تعلم درس بغل الحدمات دون قيام ثورة كارثة أخرى . تلك أمور لا بدى عنها شيئا ولا نستطيع أن ندلى فيها برأى . وغنى عن البيان أن هذه جميعاً إن هي إلا نوازل لا ضرورة لها ، ولكن ربما كانت نوازل فظيعة وليس منها محيص . والتاريخ البشرى يتحول أكثر فأكثر الى سباق بين التعليم والكارثة . وفي الماضي كانت الكارثة هي الفائزة على جهد المسيحية لتوحيد العالم ، وكانت هي الفائزة على أثر الانقلاب الميكانيكي النازع المسيحية لتوحيد العالم ، وكانت هي الفائزة على أثر الانقلاب الميكانيكي النازع الى الوحدة العالمية . ولسنا نستطيع حتى الآن أن نجزم كم من الانتصارات قدر المكارثة أن تحرزه ، وكم من المحصولات الضخمة من حصائد النفوس لا يزال ينتظر الحاصد القاسي . وربما نشأت زيوف وأكاذيب أخرى لم نحلم بها حتى اليوم ، فتمسك الحاصد القاسي . وربما نشأت زيوف وأكاذيب أخرى لم نحلم بها حتى اليوم ، فتمسك بالناس و تزج بهم إلى حين في ربقة أحد الأنظمة قبل أن تنهار تلك النرهات بين ظهراني التماسات والمذابح التي تنزل بالأجيال .

على أنه لابد للعالم من أن بتقدم ولسوف يتقدم على شاكلة مأسواء فى تعثر أو فى سهولة ويسر . وقد سبق لنا أن اقتبسنا فى هذه و المعالم ، فيا أدلينا به إليك عن إنسان العصر الحجرى القديم ، وصفاً نقلناه عن المستر ورتنجنون سميث لأعلى درجة وصلت إليها الحياة البشرية فى العالم قبل يومنا هذا بما يقارب الحسين ألف سنة . لقد كانت حياة أدنى إلى حياة البهائم لا جرم . ورسمنا أبضاً اجتماع الناس لتقديم القربان البشرى قبل يومنا هذا بخمسة عشر ألف سنة . وغنى عن بيان أن ذلك المشهل قاس قسوة لا يكاد يصدقها عقل عند أبناء عصرنا هذا .

ولم ينقض بعد أكثر من خسمة منة على إمر اطورية الأزنيك التي كانت تعتقد أنها لا تعيش مالم تسفك الدماء . وكانت مئات من الضحايا البشرية نموت كل عام بهذه الطريقة في بلاد المكسيك ، وكان الجسم يقوس كالقوس فوق حجر التضحية الأقنى ، وكان الصدر يطعن بسكين من الزجاج البركاني ، ثم يعمد الكاهن إلى القلب المابض فينزعة من جسم الضحية وهي لا تزال حية . وربما كان قريباً ذلك اليوم الذي لا نعود فيه نأكل قلوب الرجال ، ولو كان ذلك من أجل آلمتنا القومية ،

وما على القارئ إلا أن يرجع إلى الحرائط الزمنية الباكرة التي قدمناها إليه في هذا الكتاب، لمرى المقياس الحق والسمة العارضة لكل الصراعات والجرنمانات والتعاسات التي شهدتها الانسانية في هذه الفترة فترة التغيرات الجرداء المؤلمة والحافلة بالرجاء جملتها في الحن نفسه .

والتاريخ إنما هو – ولا بد له على الدوام كذلك – من أن لا يزيد على بيان بسجل البدايات . وفى إمكاننا أن نجرو على التكهن بأن الفصول التالية التي ستكتب ، ستتحدث وإن تخللها فواصل طويلة فى النكسات والكوارث ، عن إحراز الناس فى النهاية للوحدة السياسية والاقتصادية التي تشمل العالم أجمع . حتى إذا بلغت تلك الغاية ، فلن يكون معناها مرحلة راحة ، ولاحتى مرحلة لالتقاط الأنفاس ، قبل نشوء كفاح جديد وجهود جديدة أعظم كثيراً . فالناس لن يتحدوا إلا لتشديد بحثهم وراء المعرفة والقوة والهيش كشأنهم دائماً فى انتظار المناسبات الجديدة به وعنداذ ستخضع حياة الحيوان والنبات ، والطرائق الغامضة فى علم النفس ، والتركيب الحنى للمادة والأعماق الباطنية لكرتنا الأرضية ، وتسلم أسرازها وتهب عطاياها لفاتحها . والحياة شىء يبدأ باستمرار لايتوقف . و والحياة ، عندما تتجمع فى النهاية بزعامة الإنسان ، المعلم الدارس للكون ، وقد تتوحد وتنظم وتسلّح بقوى اللرة الخفية ، وبالمعرفة التي لا تزال اليوم وراء الأحلام ، تلك ه الحياة » التي تفتأ تموت أبداً لتولد من جديد أبداً ، والتي تفتأ دائماً أبداً صغيرة ومتشوقة ، حستهض عند ذاك على قدمها فوق ظهر هذا الكوكب ، وقفها فوق كرسي ممهد وتمد سلطانها بن الأنجم الزهر .

نختم الآن هذه المعالم بتقديم قائمة بالأحداث العظمي من ٨٠٠ ق . م إلى ١٩٦٥م . ويحسن بالقارى أن يستحضر أمام ذاكرته فكرة واضحة من التناسب الحقيتي بن الزمن التاريخي والزمن الحيولوچي . ولنقتبس لك الآن فقرة عن كتاب أصدرُه حديثًا المسترج. ه. روبنسون : 1 لكي يُتسنى لنا أن نفهم الضوء الذي يعكسه عمر البشرية الضخم على مركزنا الحالى ، وعلاقتنا بالماضي ، وأملنا في المستقبل ، سنقتبس في شيء من التعديل (من هنريخ شميت ، أحد تلاميذ هيجل) وسيلة ذكية ماهرة لتمثيل الصورة التاريخية العصرية المرئية . فعلينا أن ننصور أن تاريخ البشرية بأكمله مقسم إلى اثنتي عشرة ساعة ، وأننا نعيش في ظهيرة اليوم الإنساني الطويل . وعلينا لكي نسلك سبيل القصد والتقدير المربح ، أن نفترض أن الإنسان كان مستقيم العود ومنشغلا بطلب المستحدثات لمدة مئتين وأربعين ألف سنة لاغير . وستمثل كلُّ ساعة من يومنا هذا عشرين ألف سنة ، وتمثل كل دقيقة ثلاثمُّثة وثلاثين سنة وثلثاً . لقد انقضى ما يربو على إحدى عشرة ساعة ونصفاً لم يسجل فيها شيء . فنحن لانعرف فها شخصاً ولا حدثاً ؛ بل الحق أننا لا نتجاوز حالة الاستنتاج ، إذ نقول إن الانسان كان يعيش على الأرض ، ذلك أننا نجد آلاته الحجرية وأجزاء من فخاره ، وبعض صوره التي تمثل الماموث والجاموس الدى (البيزون) . وليس هناك حتى الدقيقة العشرين قبل الساعة الثانية عشرة أى شيء ، ثم تبدأ أواثل آثار المدنيتين المصرية والبابلية , وليس عمر الأدب والفلسفة والعلم الإغريثي التي جرت عادتنا أن نسمها بالقديمة إلا سبع دقائق نقط . وفي الساعة الثانية عشرة إلا دقيقة كتب اللورد باكون كتابه الموسوم • تقدم العلوم • ، ولم تكله تنقضى نصف دقيقة منذ أن بدأ الإنسان لأول مرة يجعل الآلة البخارية تقوم له بعمله ۵ .

والحق أن ذلك مثال فائق لتمثيل زمنى للتاريخ صغير المعيار .

ولا يبدأ التاريخ أن يتسم بدرجة كافية من الدقة لتحديد سنة أية حادثة بالضبط إلا بعد استقرار فترات الأولمبياد الأول وبعد بناء روما .

وحوالى عام ألف ق . م . كانت الشعوت الآرية تستقر فى أشباه جزائر أسبانيا وإبطاليا والبلقان ، وكذلك استقروا فى شمالى الهند ، وكانت كنوسوس قد دمرت من قبل ذلك ، وكانت عصور التوسع المصرية أيام تحتمس الثالث وأمينحوتب (أمينونيس) الثالث ورمسيس الثانى قد ولت منذ ثلاثة أو أربعة قرون . وكان يحكم فى وادى النيل ملوك ضعفاء .

وكان سرجون الأول (٢٧٥٠ ق . م) صاحب الإمبر اطورية الأكادية السومرية ، ذكرى بعيدة في الناريخ البابلي ، كان أبعد في الناريخ البابلي من بعد قسطنطين الأكبر عن عالمنا اليوم . وانقضى على موت حامور ابي ألف سنة . وكان الآشوريون يحكمون من قبل البابلين الأقل مهم مراسا حربياً . إذ أن تجلاث بلسر الأول استولى على بابل منذ ١١٠٠ ق . م . ولكن لم يقم ثمة فتح دائم ، فكانت آشوريا وبابلونيا لا تزالان إمبر اطوريتين منفصلتين . وكانت أسرة تشاو الجديدة تزدهر في الجلرة ألف سنة في ذلك العصر .

وشهد القرنان التاليان نهضة في مصر تحت الأسرة الثانية والعشرين ، وانقسام مملكة سليان العبرانية الصغيرة القصيرة الأجل ، وانتشار الإغريق في البلقان وجنوبي إيطاليا وآسيا الصغرى وأيام سيادة الإترسك في وسط إيطاليا . وقد نستطيع أن نبدأ قائمة التواريخ الممكنة التحقيق بالآتي .

7 3

٨٠٠ بناء قرطاجنة

٧٩٠ غزو الإثيوبيين لمصر (تأسيسهم الأسرة الخامسة والعشرين) .

٧٧٦ الأولمبياد الأول

۷۵۳ بناء روما

ق . م

٧٤٥ تجلاث بلسر الثالث يفتح بابلونيا ويؤسس الإمبر اطورية الآشورية الجديدة

٧٣٨ مناحم ملك اسرائيل يشترى رحيل تجلاث بلسر الثالث عن بلاده .

٧٣٥ الإغريق يسكنون صقلية

٧٢٧ سرجون الثانى يسلح الآشورين بأسلحة من الحديد

٧٢١ نقل الإسرائيلين إلى الأسر

٧١٤ سناحريب

٧٠١ الوباء يدمر جيشه وهو في طريقه إلى مصر

 ٥٨٠ إيسارهادون يستولى في مصر على طيبة من يد الأسرة الخامسة والعشرين الأثيوبية

٦٦٧ سار دانا بالوس

۱۹۶ أبسهاتيك الأول يسترد خرية مصر ويؤسس الأسرة السادسة والعشرين (في ۱۹۰) . وقد ساعدته ضد مملكة آشور جنود ليدية أرسلها الملك چيچيس

٣٠٨ نخاو ملك مصر يهزم يوشع ملك يهوذا في معركة مجدَّو

٦٠٦ الكلدان والميديون يستولون على نينوى. تأسيس الإمبراطورية الكلدانية

٦٠٤ نخاو يتقدم إلى الفرات وهناك يغلبه تبوخذنصر الثانى

م ۱۸۳ نبوخذنصر الثاني يحمل اليهود إلى بابل . ويفر منهم كثيرون إلى مصر ويقيمون مها

٥٥٠ قورش الفارسي يخلف سياكسارس

قورش بهزم كرويسوس

بوذا كان يعيش قرابة ذلك الزمان . وكذلك كونفوشيوس ولاهوتسي

٥٣٩ قورش يستولى على بابل ويؤسس الإمبر اطورية الفارسية

۲۷ه مات بنزستراتوس

٥٢٥ غزا قبر مصر . مولد إسكيلوس

ق . م

٢١ ه دارا الأول ابن هيستاسبس يحكم من الدردنيل إلى السنه

حملته على بلاد الإسكيذين

ه ٤٩ مولد سوفوكليس

٤٩٠ معركة ماراتون

٤٨٤ مولد هيرودوت . فاز إيسكيلون بأول جائزة له على التراجيديا

۱۸۰ معرکتا ترموبیلای وسلامیس . موله یوریبیدس

٧٩٤ معركتا بلاتيا ومنكالي تنمان طرد وهزيمة فارس

٤٧٤ الإغريق الصقليون يدمرون الأسطول الإترسكي

٤٧٠ رحلة هانو

٤٦٦ بركليس

٥ ٢٥ مقتل إجزرسيس .

£٣٨ هيرودوت يلتي تاريخه في آثينا

٤٣١ ابتداء حرب البيلوبونيز (حتى ٤٠٤)

٤٢٩ وفاة بركلىز . وفاة هىرودوت

٤٢٧ بدأ أرستوفانيس حياته العملية . مولد أفلاطون . وعاش حتى ٣٤٧

٤٠١ تراجع عشرة الآلاف (مع زينوفون) .

۳۹۰ نهب برينوس روما

٣٦٦ بني كاملتوس معبد الكونكورد

٣٥٩ أصبح فيليب ملكا على مقدونيا

٣٣٨ معركة خايرونيا

٣٣٦ عبرت جيوش مقدونيا إلى آسيا . مقتل فيليب

٣٣٤ معركة جرانيكوس

٣٣٣ معركة إسوس

٣٣٢ الإسكند بمصر

٣٣١ معركة أربيلا

٣٣٠ مقتل دارا الثالث

٣٢٣ موت الإسكندر الأكبر

٣٢١ قيام شندارچوبتا في البنچاب . السمنيون يهزمون الرومان هزيمة تامة في

معركة كودين فوركس

٣٠٣ شندر اچوبتا يطرد سيلوقوس

ه ۲۸ وفاة بطليموس سوتير (المخلص)

۲۸۱ غزا بىروس إيطاليا

۲۸۰ معركة هرقلية

٢٧٩ معركة أوسكولوم

٢٧٨ غارة الغالة على آسيا الصغرى ومقامهم يغلاطيا

ه٧٧ بيروس يغادر إيطاليا

٢٦٤ الحرب البونية الأولى . (بدأ أسوكا حكمه في بيهار ــ حتى ٢٢٧) أول ألعاب

للمجالدين بروما

۲۹۰ معركة ميلاي

٢٥٦ معركة إكنوموس

۲٤٦ أصبح شي هوانج تي ملكا علي تس ثن

٢٤١ معركة الجزائر الإيجائية . نهاية الحرب البوئية الأولى

ه٢٢ معركة تيلامون . الجيوش الرومانية في إلليريا

٢٢٠ أصبح شي هوانج تي إمبراطوراً للضين

٢١٩٠ الحرب البونية الثانية

۲۱۶ معرکة کانای

٢١٤ بدأت الحرب الصينية العظمي

۲۱۰ وفاة شي هوانج تي

```
۲۰۲ معركة زاما
                                        ٢٠١ لمهاية الحرب البونية الثانية
                         ۲۰۰ ـ ۱۹۷ امتداد الحرب بين روما ومقدونيا
                                           ١٩٢ الحرب مع السلوقيين
                                                 ١٩٠ معركة ماغنيسيا
    ١٤٩ الحرب البونية الثالثة . ( وصول يويه تشى إلى التركستان الغربية )
                                 ١٤٦ تدمىر قرطاچنة . وتدمير كورنثة
              ١٣٣ أثالوس بهب برجامة لروما . مقتل تيبريوس جراكوس
                                       ۱۲۱ کابوس جراکوس بُنقتل
                                           ۱۱۸ الحرب مع يوجورثا
                                        ١٠٩ نهاية الحرب مع يوجورثا
                                            ١٠٢ صد ماريوس الألمان
                        ۱۹۰ نصر ماريوس . ( فوتى يغزو وادى التاريم )
                                              ٩١ الحرب الاجتاعية
                             أصبح جميع الإيطالين ممادتين رومانين
                                                 ٨٦ وفاة ماريوس
                                                    ٧٨ وفاة سولا
                                   ٧٣ - ثورة الأرقاء بقباة سبارتاكوس
                                      ٧١ هزيمة سبارتاكوس ونهايته
٦٦ قاد بومبي الجيوش الرومانية إلى بحر قزوين ونهر الفرات . والتق بالآلانيين
                                      مات ميثر بداتس البونطشي
                                                                ٦٤
             مقتل كراسوس في كرهاي . عناصر مغولية مع الپارثيين
```

الهزم يوليوس قيصر بومي عند فارسالوس

٤٤ أاغتيال يوليوس قيصر

ق . م

٣١ معركة أكتيوم

۲۷ أوغسطوس قيصر زعبا (حتى ١٤ م)

ا التاريخ الحقيق لمولد يسوع الناصري

الحقية المسيحية

٦ تأسست مقاطعة مويسيا

٩ تأسيس مقاطعة پانونيا . مد الحدود الإمراطورية إلى الدائوب

14 وفاة أوغسطوس , تيريوس يصبح إمىراطورا

۳۰ صلب یسوع الناصری

٣٧ كاليجولا يخلف تيريوس

کلودیوس (أول أباطرة الکتائب) ينصبه الحرس البريتوري (الإمبر اطوري)
 على المرش بعد مقتل كاليجولا

٥٤ نيرون يخلف كلوديوس

٦٦ بواديكيا تذَّبع الحامية الرومانية بعريطانيا

٨٨ انتحار نبرون . (جالبا وأوتو وڤيتيلوس أباطره على التعاقب)

٦٩ قسياسيان ببدأ الأسرة الموسومة بالفلاثية

٧٩ تيتوس يخلف فساسيان

۸۱ دومیتیان

٨٤ استلحاق شمال بريطانيا

٩٦ نرقًا يبدأ أسرة الأنطور

۹۸ خلف تراچان نرڤا

١٠٢ پَان تشاو على بحر قزوبر . (الهندو إسكيذيون يغزون شمال الهند)

١١٧ هادريان يخلف ترا- . الإمبراطورية الرومانية في أعظم مداها .

١٣٧ أنطونيوس بيوس يعقب هادريان

(كان المندوإسكيديون في ذلك الأوان يدمرون آخر آثار الحكم الملليني في الهند ،

١٥٠ (في حوالي ذلك الوقت كان كانيشكا يحكم الهند وقشغر ويرقند وخوتان)

١٣١ ماركوس أوريليوس خلف أنطونيوس بيوس .

١٦٤ بدأ الطاعون العظيم واستمر حتى وفاة ماركوس أوريليوس ١٨٠، وعاث فساداً أيضا في آسيا بأجعها .

١٨٠ وفاة ماركوس أوريليوس .

﴿ ابتدأ في الإمبر اطورية الرومانية ما يقارب القرن من الحرب والفوضي ﴾

٣٢٠ ثهاية أسرة هان . بداية ٤٠٠ سنة من الانقسام في الصمن .

٢٢٦ أردشر الأول (أول شاه ساساني) يقضي على الأسرة الأرشكية بفارس.

٢٤٢ بدأ مانى تعليمه الناس .

٧٤٧ القوط يعبرون الدانوب في غارة عظيمة .

٢٥١ نصر عظيم للقوط ، مقتل الإمبر اطور ديكيوس .

۲۹۰ استولى سابور الأول ثانى شاه ساسانى على أنطاكية ، وأسر الإمبراطور ثالم بالريان ، وقطع عليه أودينائيوس ملك تدمر خط عودته إلى فارس .

٢٦٩ هزم الإمبراطور كلوديوس القوط عند نيش .

۲۷۰ أورليان يصبح إمىراطوراً .

٢٧٢ حملت زنوبيا أسرة إلى روما . نهاية أمجاد تدمر الوجنزة .

٢٧٠ بروبوس يخلف أوريليان .

٢٧٦ القوط في إقليم بونطش . الإمبراطور پروبوس يضطر الفرنجة والأليماني إلى التراجع .

۲۷۷ مانی يصلب في قارس .

٢٨٤ دقلديانوس أصبح إميراطوراً.

٣٠٣ دقلديانوس يضطهد المسيحيين

٣٠٦ قسطنطين الأكبر أصبح إميراطورآ

٣١١ تخلي جالبريوس عن اضطهاد المسيحيين

٣١٤ قسطنطن يرأس مجلسا مسيحيًا في آ لس

٣٢١ الغارات القوطية الجديدة تصد

٣٢٣ قسطنطن يرأس مجمع نيقيا

٣٣٧ الوندال يحصلون وقد دفعهم القوط ، على الأذن بالمقام في بانونيا

قسطنطين يعمد وهو على فراش الموت

٣٥٤ مولد القديس أوغسطان

٣٦١ ــ ٣٦٣ چوليان المرتد يحاول أن يدخل الميثراثية بدل المسيحية

٣٧٩ ثيودوسيوس الأكبر (وهو أسباني) يصبح إمبراطوراً

٣٩٠ تعطيم تمثال سيرابيس بالإسكندرية

٣٩٢ ثيودوسيوس الأكبر إسراطورا للشرق والغرب

٣٩٥ وفاة ثيودوسيوس الأكبر .

11. استولى القوط الغربيون بقيادة آلاريك علىروما

ه ٤٢ الوندال يستقرون فى جنوب أسبانيا . ويستقر الهون فى بانونيا والقوط فى دالماسيا . القوط الغربيون والسويڤى فى البرتغال وشمالى أسبانيا .

الإنجلنز يغزون بريطانيا

٤٢٩ الوندال بقيادة جنسريك بغزون إفريقية .

٣٩٤ أخذ الوندال قرطاجنة

٨٤٤ بريسكوس يزور آٽيلا

٤٥١ آتيلا يغزو بلاد الغاله ويهزمه الفرنجة والألبيانى والرومان في نرويس

٣٥٤ وفاة آتيلا

هه٤ الوندال ينهبون روما

- ٤٧٠ إغارة الإفثالين على الهند
- 273 أودواكر ملك خليط من القبائل التيوتونية ، أبلغ القسطنطينية أنه ليس هناك إمبر اطور في الغرب . نهاية الإمبر اطوررية الغربية
 - ٠٨٠ مولد القديس بندكت
 - ٤٨١ كلوڤيس في فرنسا . المروڤنجيون
 - ٤٨٣ الكنيسة النسطورية تنفصل عن الكنيسة الأرثوذكسية المسيحية
- 49% ثيودوريك القوطى الشرقى يغزو إيطاليا ويصبح ملك إيطاليا ، ولكنه كان خاضعاً اسماً للقسطنطينية
- (ملوك القوط فى إيطاليا . القوط يقيمون فى أراضى خاصة مصادرة بوصفهم حامية)
 - ۲۷۰ چستنیان امراطورآ
 - ۲۸ طرد مهر اجولا (آتیلا الهندی الافثالی)
 - ٥٢٩ أغلق چستليان مدارس آثينا ، بعد أن ازدهرت ألف سنة تقريباً .
 - بلسانيوس (قائد چستنيان) استولى على نابلى
 - ۵۳۱ كسرى الأول (أنو شروان) بدأ حكمه
 - ٥٤٣ الطاعون العظم بالقسطنطينية
 - \$\$\$ وفاة القديس بتدكت
 - ٥٥٣ جستنبان يطرد القوط من إيطاليا . كاسبوهوراس يؤسس ديره
- ٥٦٥ وقاة چستنيان . فتح اللومبارد معظم إيطاليا الشالية (تاركين رافنا
 وروما لبيزنطه) . شتت الأتراك الإفثاليين بالتركستان الغربية .
 - ٧٠٠ مولد محمد عليه الصلاة والسلام
 - ٥٧٩ وفاة كسرى الأول (أنو شروان)
 - (اللومبارد يسودون إيطاليا)

۱۹۰ الطاعون بحصد الناس فی روما . (جریجوری الأعظم و هو جریجوری الأول _ ورویا القدیس أنجیلو) . بدأ كسری الثانی (أردشیر) حكمه

٦١٠ بدأ هرقل حكمه

٩١٨ بداية أسرة تانج بالصن

۱۱۹ كسرى الثانى (أردشير) وبيده مصر وبيت المقلس ودمشق وجبوشه على الدردنيل

٣٢٢ الهجرة النبوية

٦٢٣ معركة بدر

۹۲۷ هرقل بهزم الفرس هزيمة كبرى عند نينوى . مكة وأحزابها تحاصر المدينة تاى تسونج يصبح إمبر اطوراً للضين .

٦٢٨ قتل قباذ الثاني أباه كسرى الثاني وخلفة على للعرش

٧٢٩ بدأ يوان شوانج رحلته إلى الهند. فتح مكة. (غزوة اَلفتح) ــ كتب عمد (ص) إلى جميع حكام الأرض .

٦٣٢ وفاة محمد وخلافة أبى بكر

٣٤٤ خلافة عمر

٩٣٥ تاى تسونج يستقبل المبعوثين النسطوريين

٦٣٦ معركة البرموك . . العُرب يستولون على سوريا

٦٣٧ معركة القادسية

٦٣٨ تسليم بيت المقدس لعمر

٣٤٢ وفاة هرقل

١٤٤ خلافة عيان

٦٤٥ يوان شو نج يعود إلى سنجان

هه. المسلمون يهزمون الأسطول البزنطى

٢٥٦ مقتل عيَّان بالمدينة

٦٦١ مقتل على . خلافة معاوية . (أول خلفاء بني أمية)

۱۲۸ هاجم الحليفة معاوية القسطنطينية بحراً ــ أصبح ثيودور الطرسوسي رئيساً لأساقفة كانتربري

٦٧٥ آخر هجوم بحرى لمعاوية على القسطنطينية

٦٨٧ ناظر القصر بيين الهرستالى يوحد أوستراسيا ونوستريا

٧١١ غزا جيش المسلمين أشبانيا من إفريقية

٧١٦ ــ ٧١٧ سليان أخو الوليد وخليفته يفشل فى فتح القسطنطينية . الأسرة الأموية تنحدر عن أوج مجدها

٧٢١ شارل مارَتل ناظراً للقصر . ممتلكات الخليفة الوليد الأول تمتد من جبال السرانس إلى الصن .

٧٣٧ هزم شارل مارتل المسلمين عند بواتبيه

ه٧٣ وفاة بيده (Bede) الوقور

٧٤٣ الوليد الثانى خليفة ــ وهو الحليفة الكافر

٧٤٩ خلِعُ بنى أمية. أبو العباس أول خلفاء الدولة العباسية . ظلت أسبانيا أموية ابتداء تمزق الإمبر اطورية العربية

٧٥١ پېين يتوج ملكا للفرنسيين

٥٥٥ استشهاد القديس بونيفاس

٧٧١ شارلمان ملكا بمقرده

٧٧٤ شارلمان يفتح لومباردى

٧٧٦ شاولمان في دالماسيا

٧٨٦ هرون الرشيد خليفة العباسيين ببغداد (إلى ٨٠٩)

٧٩٠ أصبح ليو الثالث بابا (إلى ٨١٦)

٨٠٠ ليو توج شارلمان إمراطوراً على الغرب

٨٠٢ إجبرت وهو لاجئ إنجليزى ببلاط شارلمان ، يقيم نفسه ملكا على وسكس

٨١١ كروم البلغارى يهزم الإمىراطور نقفور ويقتله

٨١٤ مات شارلمان ، وخلفه لويس التقي .

٨٢٨ أصبح إجبرت أول ملك لانجلترة

٨٤٣ مات لويس التقى وتمزقت الإمراطورية الكارلوثنجية . لم يكن هناك حتى ٩٦٧ أى تعاقب منتظم الأباطرة الدولة الرومانية المقدسة ، وإن ظهر اللقب على فترات

۸۵۰ فی قرابة ذلك الوقت أصبح روریك وهو شمالی (نورثمان م حاکما لنوڤجورود وكييڤ

٨٥٢ بوريس أول ملك مسيحي لىلغاريا (إلى ٨٨٤)

٨٦٥ أشطول الروس وهم الشهاليون (Northmen) يهدد القسطنطينية

٨٨٦ المعاهدة بين ألفرد الإنجليزى وجوثروم الدانمركي توطد قدم الدانمركيين بانجلىرة

٩٠٤ أسطول الروسين (النورثيين) خارج القسطنطينية

٩١١ رولف العداء يوطد نفسه في تورماندي

٩١٩ هنري الصياد ينتخب ملكا لألمانيا

٩٢٨ ماروزيا تحبس البابا يوحنا العاشى

۹۳۱ يوحنا الحادي عشم بابا (إلى ۹۳۹)

٩٣٦ أوتو الأول أصبح ملكا لألمانيا خلفاً لأبيه هنرى الصياد

١٤١٠ الأسطول الروسي يعود إلى "بهديد القسطنطينية"

٩٥٥ يوحنا الثاني عشر هو البايا

٩٦٠ أسرة صنج الشمالية تبدأ ببلاد الصن

٩٦٢ أُوتُو الأول ملك ألمانيا يتوج إمبر اطوراً ﴿ أُولُ الْأَبَاطُرَةُ السَّكَسُونُ ﴾ بيد يوحنا الثاني عشر

٩٦٣ أُوْتُو عزل يوحنا الثاني عشر

٩٦٩ الجلافة الفاطمية المنفصلة تقام بمصر

٩٧٣ أوتو الثاني

٩٨٣ أوتو الثالث

٩٨٧ أصبح هيوكابت ملكا لفرنسا . نهاية الأسرة الكارلوڤنجية من الملوك الفرنسيين

١٠١٦ أصبح كانبوت ملكا على انجلترة والدانمركة والنرويج

١٠٣٧ مات ابن سينا البخارى أمر الأطباء

١٠٤٣ الأسطول الروسي سهدد القسطنطينية

١٠٦٦ وليم دوق نورماندي يفتح انجلترة 🔭

١٠٧١ انتماش الإسلام تحت الأتراك السلجوقيين . معركة ملازجر د

۱۰۷۳ أصبح هلدبراند بابا (جريجورى السابع) إلى ۱۰۸۵

١٠٧٧ همري الرابع يقدم التوبة في كانوسا .

١٠٧٩ مولد بطرس أبيلارد

۱۰۸۲ روبرت جویسکارد یفتح دورازو

۱۰۸٤ روبرت جويسكارد ينهب روما

١٠٨٧ - ١٠٩٩ إربان الثاني بابا

١٠٩٤ وباء

١٠٩٥ إربان الثانى يدعو في كلرمونت إلى الحرب الصليبية الأولى

١٠٩٦ مذبحة الحملة الصليبيه الشعبية

١٠٩٩ جودفري البويوني استولى على بيب المقدس . بسكال الثاني بابا (إلى ١١١٨)

١١٣٨ ازدهار إمبر اطورية كن . نقل عاصمة أسرة صنج من نانكان إلى هان تشاو

١١٤٢ وفاة بطرس أبيلارد

١١٤٧ الحرب الصليبية الثانية . تأسيس المملكة المسيحية البرتغالية

١١٦٩ صلاح الدين سلطاناً على مصر

١١٧٧ فردريك باربروسا يعترف بسيادة البابا (إسكندر الثالث) بالمبندقية

١١٨٧ استولى صلاح الدين على بيت المقدس

١١٨٩ الحرب الصليبة الثالثة

١١٩٣ مولد ألبرتوس ما جنوس

۱۱۹۸ وفاة ابن رشد القرطبي الفيلسوف العربي . إنوسنت النالث بابا (إلى ۱۱۹۸ و ۱۲۱۲) ؛ أصبح فر دريك الثاني (وعمره أربع سنوات) ملك صفلية تحت وصايته

١٢٠٢ الحملة الصلينية الرابعة تهاجم الإميراطورية الشرقية

١٢٠٤ اللاتين يستولون على القسطنطينية

١٢٠٦ أسس فطب الدولة الإسلامية بدلمي

١٢١٢ حلة الأطفال الصليية

١٢١٤ چنکيزخان استولی علي بکان

١٢١٥ التوقيع على الماجنا كارتا

١٢١٦ هونوريوس الثالث بابا

۱۲۱۸ چنکىزخان يغزو خوارزم

١٢٢١ فِشَلُ الحُملَة الصليبية الخامسة وعودتها . وفاة القديس دومينيك (جمية الدومينيكيين)

١٢٢٥ ميلاد توماس الأكريبي

١٢٢٦ وفاة القديس فرنسيس الأسيسي (جمعية الفرنسيسكانيين)

۱۲۲۷ مات چنکیزخان ، وهو یحکم من بحر قزوین إلی المحیط المادی ، وخلفه إقطای خان . جریجوری التاسع بابا

١٢٢٨ شرع فردريك الثاني في الحملة الصليبية السادسة ، واحتاز بيت المقدس

١٢٣٤ أتم المغول فتح إسراطورية كن بمساعدة إسراطورية صنح

١٢٣٩ فردريك الثاني يصدر تضده الحرم للمرة الثانية

١٢٤٠ المغول معروا كييف . الروسيا تصبح تابُّمة المغول

١٢٤١ المغول ينتصرون عند ليجنئز في سيلنزيا

١٧٤٤ ملطان مصر يسترد ييت المقدس . فأدى ذلك إلى الحملة الصليبية السابعة .

١٢٤٥ فردريك الثاني يحرم مرة ثانية . رجال شويز يمرقون علمة نيوها بسرج

١٢٥٠ القديس لويس الفرنسي يدفع الفدية . وفاة فردريك الثاني آخر أباطرة أسرة هوهنشتاوفن . فترة خلو العرش الألماني حتى ١٢٧٣

١٢٥١ أصبح ما نجو خان هو الحان الأعظم . قويلاى خان حاكما على الصين

١٢٥٨ هولاكو خان پستولى على بغداد وبدمرها

١٢٦١ أصبح قويلاى خان خانا أعظم . هريمة قطبغا بفلسطين

١٢٦١ عاد الروم فاستردوا القسطنطينية من اللاتبن .

١٢٦٥ مولد دانتي الليجيرى

١٢٦٦ ، مولد جيوتو

١٣٦٩ أرسل قوبلاى خان رسالة استعلام إلى البابا على يد الأخوين الكبيرين بولو

١٧٧١ ماركو بولو يبدأ رحلاته

١٢٧٣ رودلف الهابسرجي ينتخب إسراطوراً . أسس السويسريون حلفهم الدائم

١٢٧٤ وفاة توماس الأكويني

۱۲۸۰ أسس قوبلاى خان أسرة يوان بالصين . مات ألمرتوس ما جنوس

۱۲۰۲ وفاة قوبلای خان

١٢٩٣ وفاة روجر باكون ني العلوم التجريبية

١٢٩٤ بونيفاس الثامن يصبح بابا (حتى ١٣٠٣)

١٢٩٥ ماركو بولو يعود إلى البندقية

١٣٠٣ وفاة بونيفاس الثامن بعد اعتداء غليوم دى نوجاريت عليه في أناجي

١٣٠٤ ميلاد بترارك

١٣١٥ كلمنت الخامس بابا

۱۳۰۸ وفاة دنس الاسكتلندي (سكوتاس)

١٣٠٩ إقامة البلاط البابوي في آڤينيون

١٣١٨ أربعة من الفرنسسكيين يحرقون بمرسيليا بتهمة الهرطقة

١٣٣٧ وفاة جيوتو

١٣٤٧ وفاة أكتام

١٣٤٨ الطاعون العظيم ــ الموت الاسود

١٣٥٨ حروب الفلاحين (الحاكرى) بقرنسا

١٣٦٨ في الصبن سفطت أسرة يوان المغولية وخلفتها أسرة منج (إلى ١٦٤٤)

١٣٦٩ تيمورلنك يتخذ لقب الحان الأعظم

١٣٧٤ مات بترارك

۱۳۷۷ عاد الباما جریجوری الحادی عشر إلی روما

١٣٧٨ الصدع الأعظم . إربان السادس في روما ــ كلمنت السابع في آثينيون

١٣٨١ فتنة الفلاحين بانجلترة . وات تايلور يقتل بمضرة الملك ريتشارد الثاني

١٣٨٤ وفاة ويكليف

١٣٨٧ مولد فرا أنجليكودى فنزولي

١٣٩٨ بشرهس بتعالم ويكليف في براغ

١٤١٠ مات شوسی

١٤٠٥ وفاة نيمورلنك

١٤١٤ – ١٤١٨ مجمع كونستانس . إحراق هس (١٤١٥)

١٤١٧ نهاية الصدع الأعظم . مارتن الحامس بابا

١٤٢٠ ثار المسيّون . دعا مارتن الخامس إلى حملة صليبة ضدهم

١٤٣١ تبددت حلة الكاثوليك الصليبية أمام الحسيين عند دومازليس

اجتمع مجلس بال . مولد گیون . مولد مانتنبا

١٤٣٦ اصطلح المسيون مع الكنيسة

١٤٣٩ أوجد عجمع بال صدعاً جديداً في الكنيسة

١٤٤٥ اسكشاف البرتغاليين لرأس ڤردى

١٤٤٦ أول الكتب المطبوعة (كوستر في هارلم)

١٤٤٩ نهاية مجلس بال

- ١٤٥٢ مولد ليوناردو داقنشي
- ١٤٥٣ استولى الأثراك العبانيون بقيادة محمد الثاني على القسطنطينية
 - ١٤٧١ مولد ديورر
 - ١٤٧٣ مولد كوبرنيق
 - ١٤٨٠ خلع إيثان الثالث غراندوق موسكو طاعته للمغول
- ١٤٨١ وفاة السلطان محمد الثانى وهو يستعد لغزو إيطاليا . بايزيد الثانى سلطان الأتراك (حتى ١٥١٢)
 - ١٤٨٦ دار دياز حول رأس الرجاء الصالح
- ١٤٩٢ عبر كولمبس الأطلسي إلى أمريكا . رودريجو بورچيا ، الإسكندر السابع بابا (إلى ١٥٠٣)
 - ١٤٩٣ أصبح ماكسيمليان الأول إميراطوراً
 - ١٤٩٨ دار قاسكودا جاما حول الرأس إلى الهند
 - ١٤٩٩ أصبحت سويسرا جمهورية مستقلة
 - ١٥٠٠ ولد شارل الخامس
 - ١٥٠٩ هنري الثامن ملكا على انجلترة
- ۱۰۱۲ سلیم الأول سلطان حتی (۱۵۲۰) . اشتری لقب الحلافة . سقوط سودرینی ومکیاثمالی بفلورنسا
 - ١٥١٣ ليو العاشر يابا
 - ١٥١٥ فرنسيس الأول ملكا لفرنسا
 - ١٥١٧ ضم سلم مصر إلى أملاكه . لوثر يبسط نظريته في وتنبرج
- ۱۵۱۹ مات ليوناردو داڤنشي . الشروع في رحلة ماجلان حول العالم . كورتيز يدخل مدينة المكسيك
- ١٥٢٠ سليان القانونى سلطانا إلى ١٥٦٦ ، وكان يحكم من بغداد إلى بلاد المجر . شارل الخامس إمبراطوراً

١٥٢١ لوثر بمجلس الدايت في ورمس . جرح ليولا في بامبلونا

١٥٢٥ بابر فاز بمعركة بانيبات وفتح دلهي ، وأسس الإمىراطورية المغولية

١٥٢٧ الحنود الألمانية بإيطاليا بقيادة كونستايل بوريون ، تستولى على روما وتنهيها

١٥٢٨ مولد بول الفروني

١٥٢٩ سليان يحاصر ڤيينا

۱۵۳۰ غزا بيزارو بيرو . توج البابا شارل الخامس . بدأ هنرى الثامن خلافه مع البابوية

١٥٣٢ استولى التعميديون على مونستر

١٥٣٥ سقوط حكم التعميدين في مونسر

١٥٣٩ تأسست جمية يسوع (اليسوعيين)

١٥٤٥ اجتمع مجلس ترنت (إلى ١٥٦٣) لينظم الكنيسة

١٥٤٦ وفاة مارتني لوثر

١٥٤٧ إيثان الرابع (الرهيب) اتخذ لقب قيصر الروسيا . توفى فرنسيس الأول

١٥٤٩ وصلت أول البعثات اليسوعية إلى أمريكا الجنوبية

١٥٥٢ معاهدة باساو . تهدئة مؤقتة الألمانيا

١٥٥٦ تنازل شارل الخامس عن العرش . أكبر يصبح للغولى الأعظم (إلى ١٦٠٥) . مات إغناطيوس ليولا

١٥٥٨ وفاة شارل الخامس

١٥٦١ مولد فرنسيس باكون (لورد ڤريولام)

١٥٦٣ نهاية مجلس ترنت وإصلاح الكنيسة الكاثوليكية

١٥٦٤ مولد شكسير

١٥٦٦ مات سلهان القانوني

١٥٦٧ ثورة الأراضي المنخفضة

١٥٦٨ إعدام الكونتين إجونت وهورن

١٥٧٣ حصار ألكمار

١٥٨٣ حلة السبر والتر راني على قمرچينيا

١٦٠٣ چيمس الأول ملكا لانجلترة واسكتلندة

١٩٠٥ المغولى الأعظم چيهان جير

١٦٠٦ تأسيس شركة فرچينيا

١٩٠٩ استقلال هولندة

١٦١٨ ابتداء حرب الثلاثين سنة

۱۹۲۰ حملة المای فلاور تومس نیوبلیموث . أول أرقاء زنوج ینزلون چیمس تون (ٹرچینیا)

١٦٢٥ شارل الأول ملك انجلترة

١٦٢٦ تونَّى السير قرنسيس بالكون (لورد قريولام)

١٦٢٨ شاه چيهان يصبح المغولي الأعظم . و التماس الحقوق ، الانجليزي

١٦٢٩ شارل الأول ملك انجلترة يبدأ حكمه أحد عشر عاما بلا برلمان

١٦٣٢ لى يوثن هوئك يولد . مصرع جوستاف أدولف في معركة لوتزن

١٦٣٤ مقتل والنشتين

١٦٣٨ إنفال اليابان في وجه الأوربيين (حتى ١٨٦٥)

١٦٤٠ عقد شارل الأول ملك انجلترة العرلمان الطويل

١٦٤١ مذبحة الإنجلىز بإرلندة

١٦٤٣ بدأ لويس الرابع عشر حكما دام اثنتين وسبعين سنة

١٦٤٤ أنهى المانشو أسرة منج

١٦٤٥ هدم حظائر الخنازير بالمدينة الداخلية من ليبزج

١٦٤٨ معاهدة وستفاليا . وبها اعترف بهولندة وسويسرة جمهوريتين حرتين وأصبحت بروسيا دولة هامة . ولم تتح المعاهدة نصراً نهائيا التاج الإمبراطوري ولا للأمراء حروب الفروند ؛ وانتهت بنصر التاج الفرنسي نصراً كالملا

١٦٤٩ إعدام شارل الأول ملك انجلترة

١٦٥٨ أورانغزيب المغولى الأعظم . مات كروم ويل

١٦٦٠ شارل الثاني ملك انجلترة

١٩٧٤ أصبحت نيو أمستردام بريطانية نهائياً بمعاهدة ، وسميتُ نبويورك

١٦٨٣ آخر هجوم تركى على ڤيينا بهزمه حنا النالث ملك بولندة

١٩٨٨ الثورة البريطانية . فرار چيمس الثاني . بدأ وليم ومازي حكهما

١٦٨٩ بطرس الأكر قيصر الروسيا (ُحتى ١٧٢٥)

۱۲۹۰ معركة بوين (Boyne) بارلندة

١٧٠١ فردريك الأول أول ملك لىروسيا

١٧٠٧ وفاة أورانغزيب . إمراطورية المغزلى الأعظم تتفتت

١٧١٣ مولد فردريك الأكبر ملك يروسيا

١٧٣٣ أسس أوجلي ثورب ولاية چورچيا

١٧٣٦ أغار نادر شاه على الهند . (بداية عشرين عاماً من الفوضي والنارات بالهند)

١٧٤٠ ارتقاء فردريك الأعظم عرش بروسيا

۱۷۶۰ بدأت ماريا تريزا حكمها . (ولأنها امرأة لم تصبح إمبراطورة . وأصبح زوجها فرانسوا الأول إمبراطوراً بعد ۱۷۴۵ حتى وفاته في ۱۷۹۵ عندما خلفه ابنها چوزيف الثاني م

١٧٤١ بدأت قبصرة الرسيا إلىزابيث حكمها

۱۷۰۵ – ۱۷۲۳ بریطانیا وفرنسا تثقاتلان علی أمریکا والهند . وفرنسا تتحالف مع النمسا والروسیا ضد بروسیا وبریطانیا (۱۷۵۱ – ۱۷۲۳) ، حرب السبع سنوات .

١٧٥٧ معركة بلاسي

١٧٥٩ استولى الحنر ال ولف البريطاني على كويبك

١٧٦٠ چورچ الثالث ملك بريطانيا

. ۱۷۲۲ وفاة الإمبراطورة إلىزابيث الروسية . مقتل القيصر بول ، وتولى كاترين العظمى عرش الروسيا (إلى ۱۷۹۳)

١٧٦٣ صلح باريس ، والتنازل عن كندا لبريطانيا . بريطانيا تسود الهند

١٧٣٤ معركة بوكسار

١٦ ١ مولد مالئوس

٣٩٪ مولد نابليون بونابرت

١٧٧٤ بدأ لويس الرابع عشر حكمه . انتحار كليف . بدء الحركة الثورية الأمريكية

۱۷۷۵ معركة لكسنجتون . مولمد ترنو

١٧٧٦ إ. إن الاستقلال بالولايات المتحدة الأمريكية

۱۷۸۰ نهاید حکم ماریا تریزا . خلفها الإمبراطور چوزیف (۱۷۹۰ یلی ۱۷۹۰) فی متلکه ت آل هابسترج الموروثة

١٧٨٣ معاهد: الصلح بين بريطانيا وبن الولايات المتحدة الأمريكية الجديدة . إطلاق سراح كواكو بماساشوستس

١٧٨٧ موتمر فيلادلفيا اللستورى يقيم حكومة الولايات المتحدة الاتحادية . تبين أن فرنسا مفلسة . جعية الأعيان

١٧٨٨ الكونجرس الاتحادى الأول الولايات المتحدة يتيوبورك

١٧٨٩ مجلس الطبقات العام الفرنسي بجتمع . هدم الباستيل

١٧٩١ ثورة اليعاقبة ، الفرار إلى قارن

١٧٩٢ أعلنت فرنسا الحرب على النمسا ، أعلنت بروسيا الحرب على فرنسا . أصبحت فرنسا جمهورية

١٧٩٣ إعدام لويس السادس عشر

١٧٩٤ إعدام رويسبير ونهاية جمهورية اليعاقبة . حكم الموتمر

١٧٩٥ حكرمة الإدارة . أخد بونابرت ثورة وذهب إلى إيطاليا قائداً عاما

١٧٩٧ دمر بونابرت جمهورية البندقية بمعاهدة كامبوفورميو

١٧٩٨ ذهب بونابرت إلى مصر . معركة النيل

١٧٩٩ عودة بونابرت. أصبح القنصل الأول مع سلطات هائلة

١٨٠٠ الاتحاد النشريعي بين انجلترة وإرلندة ينفذ في أول يناير ١٨٠١

حملة نابليون على النمسا . معارك مارنجو (في إيطاليا) وهو هنلندن (وهي انتصار مورو)

١٨٠١ مسودات الصلح بين فرنسا وانجلترة والنسا توقع

١٨٠٣ بونابرت يمثل سويسرا ، وبذا يعجل بالحرب

١٨٠٤ أصبح بونابرت إمبراطوراً . اتخذ فرانسوا الثانى لقب إمبراطور الفسا فى ١٨٠٤ أسقط لقب إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة وبذلك انتيت الدولة الرومانية المقدسة

١٨٠٥ معركة الطرف الأغر . معركتا أولم وأوسترليتز

۱۸۰۲ هزيمة بروسيا في بينا

١٨٠٧ معركتا إيلاو ، وفريدلند ، ومعاهدة تلست

١٨٠٨ جعل نابليون أخاه چوزيت ملكا على أسبانيا

١٨١٠ أصبحت أمريكا الأسبانية جمهورية

١٨١١ انسحب الإسكندو من و النظام القارى ،

۱۸۱۲ تقهقر نابلیون من موسکو

١٨١٤ تنازل نابليون عن العرش . لويس الثامن عشر

ه ۱۸۱ حملة واترلو : معاهدة ڤيينا

١٨١٩ أول قانون للمصانع يقره البرلمان بناء على جهود روبرت أوين

١٨٢١ ثورة اليونان

١٨٢٤ شارل العاشر ملك فرنسا

١٨٢٥ نيقولا الأول قيصر الروسيا . أول سكة حديد من ستوكتون إلى دار لنجتون

١٨٢٧ معركة نوارين

١٨٢٩ استقلال اليونان

١٨٣٠ سنة من الفوضي والفتن . حرد لويس فبليب شارل العاشر

انفصلت بلچيكا عن هولندة . أصبح ليوبولد أمير ساكس كوبرج جوثا ملكا على تلك الدولة الجديدة ، وهي بلچيكا . ثارت بولندة الروسية بغير جدوي

١٨٣٢ قانون الإصلاح الأول ببريطانيا يرجع إلى البرلمان البريطاني السمة الديموقراطية

١٨٣٥ استعال كلمة و الإشتراكية ، لأول مرة

١٨٣٧ الملكية فميكتوريا

١٨٤٠ تزوجت الملكة ڤيكتوريا الأمبر ساكس كوبرج جوثا

۱۸۶۸ سنة أخرى من الفتن . جمهوريات بفرنسا وروما . مؤتمر الجمامعة الصقلبية بعقد في براغ . ألمانيا كلها تتحد في برلمان بفرانكفورت . ملك بروسيا يدمر وحدة ألمانيا

١٨٥١ معرض لندن العظيم

١٨٥٢ نابليون الثالث إسراطوراً للفرنسين

١٨٥٤ علة برى (Perry) (الثانية) تَنزل باليابان . احتل نيقولا الأول ولايات الدانوب التركية

١٨٥٤ - ١٨٥٦ حرب القرم

١٨٥٦ إسكندر الثاني قيصر الروسيا

١٨٥٧ العصيان المندى

١٨٥٩ الحرب الفرنسية النمسوية . معركتا ماچننا وسولفرينو

١٨٦١ فيكتور عمانويل أول ملك لإيطاليا . أصبح أبراهام لينكولن رئيساً للولايات المتحدة . ابتدأت الحرب الأهلية الأمريكية

١٨٦٣ أُطلق البريطانيون قنابلهم على مدينة يابانية

١٨٦٤ أصبح ماكسمليان إمبراطوراً للمكسيك

١٨٦٥ التسليم فى أوبوماتوكس كورت مدوس . فتح أبواب اليابان للعالم الخارجى ١٨٦٦ بروسيا وإيطاليا تهاجمان النمسا (والولايات الألمانية الجنوبية المتحالفة معها) معركة ساد وا

١٨٦٧ مقتل الإمبراطور مكسمليان بالرصاص

١٨٧٠ نابليون الثالث يعلن الحرب على بروسيا

۱۸۷۱ سلمت باریس (ینایر) . أصبح ملك بروسیا هو غلیوم الأول إمبراطور ألمانیا ، صلح فرانكفورت

١٨٧٥ الفظائع في بلغاريا

١٨٧٧ الحرب التركية الروسية . معاهدة سان استفانو . أصبحت الملكة فكتوريا إمىراطورة على الهند

۱۸۷۸ معاهدة برلن . سلام مسلح يأوربا دام ٣٦ سنة

١٨٨١ معركة تل ماچوبا . تحرير الترنسفال

۱۸۸۲ وفاة شارلز دارون

١٨٨٣ احتلت بريطانيا مصر . (وضحة التاريخ ١٨٨٢) . مات كارل ماركس

١٨٨٦ أول قانون للحكم الذاتي الإرلندي يصدره جلادستون

۱۸۸۸ الإمبراطور فردريك الثالث (مارس) ثم غليوم الثانى (يونيه) يتوليا الحكم بألمانيا

١٨٩٠ عزل بسمارك. اللورد سالسبورى ينزل لألمانيا عنْ جزيرة هليجولند

١٨٩٤ ــ ١٨٩٥ حرب اليابان مع الصن

١٨٩٥ الحكومة الاتحادية (الاستعارية) بريطانيا

١٨٩٦ معركة علموه

١٨٩٨ الخلاف بين فرنسا وبريطانيا على فاشوده . ألمانيا تستولى على كياوتشاو

١٨٩٩ ابتدأت الحرب بجنوب إفريقية (حرب البوير)

١٩٠٠ فتن البوكسر بالصين . محاصرة السفارات في بيكين

- ١٩٠٤ غزا الىربطانيون التبت
- ١٩٠٤ _ ١٩٠٥ الحرب الروسية اليابانية
- ١٩٠٣ الأحرار يغلبون حزب الاتحاديين (الاستعاريين) في مسألة التعريفة الجمركية .
 - ٧٩٠٧ تأسيس اتحاد جنوب إفريقية
 - ١٩٠٨ خبمت النمسا البوسته والهرسك
 - ١٩٠٩ طار المسيو بلبريو بطيارة من فرنسا إلى انجلترة
 - ١٩١١ أعلنت إيطالياً الحرب على تركيا واستولت على طرابلس
 - ١٩١٢ أصبحت الصين جمهورية . أعلن حلف البلقان الحرب على تركيا
 - ١٩١٣ تهريب الاتحاديين السلاح يترتب عليه سفك الدماء بلندندري في إرلندة
 - ١٩١٤ ابتدأت الحرب العظمى الأوربية
 - ١٩١٧ الثورتان الروسيتان . تأسيس النظام البلشني بالروسيا
 - ١٩١٨ الهدنة (توقير)
 - ۱۹۲۹ ــ ۱۹۲۰ معاهدة قرساى
- ۱۹۱۹ انسحب البريطانيون من أركانجل . هزيمة دنيكين . أوشك يودينيتش أن يستولى على بطرسبرج ثم انهار . الأسطول الألماني يخرج ليسلم للبريطاني ولكن على يغرقه قواده وضباطه عند سكابافلو
 - 1970 أول اجتماع لعصبة الأمم ، التي حظرت على ألمانيا والنمسا والروسيا وتركيا ، والتي لم تمثل فيها الولايات المتحدة . قتل كولتشاك رمياً بالرصاص . بولندة تهاجم الروسيا ، ويغزوها رانجل من الجنوب فيدفع إلى الوراء ، رضا باشا يقيض على السلطة في فارس
 - ١٩٢١ الحلفاء يسيطرون على القسطنطينية . موتمر لبحث نزع السلاح البحرى يعقد بواشنطون برئاسة الرئيس هاردنج
 - ١٩٢٢ مجاعة عظيمة بالروسيا . مؤتمر چنوا الله حضره الألمان والروس . ازدياد الحلل في المالية الألمانية وعدم مقدرتها على دفع عقوبات الحرب الباهظة .

- الانهيار اليونانى العسكرى بآسيا الصغرى . انفصال إرلندة الجنوبية عن بريطانيا العظمى
 - 19۲۳ احتلال الفرنسيين لحوض الروهر والانهيار النقدى بألمانيا . إنشاء الرنت مارك 19۲۳ بريطانيا العظمي تسترد لعملتها معيار ما قبل الحرب عند العظمي تسترد لعملتها معيار ما قبل الحرب
- 1978 أول حكومة للعال ببريطانيا . وخلفتها حكومة محافظة فى نوفمبر بعد انتخابات عامة ، توفى لينين . مفتل ماتيوث، (وهوكاتب إبطالى حر) بيد الفاشست . مشروع داوز لتخفيض ديون الحرب الألمانية
- ۱۹۲۰ الفرنسيون بهاجمهم عـد الكريم بمراكش والدروز فى سوريا . إنشاء الريخ مارك بألمانيا . معاهدة لوكارنو . خلع شاه إبران على بد على رضا خان . رضا خان يصبح شاها
- ۱۹۲۱ الإضراب العام ينج في انجلترة عن إغلاق أصحاب العمل مناج الفحم . الفرنك الفرنسي ينزل دون البنس الانجليزي ولكن هبوطه يوقف ، وتعاد قيمته إلى بنسين بحكومة ائتلافيه ، أنفت لمواجهة الأزمة . هزيمة عبد الكريم
- ١٩٢٧ هاجمت الحكومة البريطانية إدارة الأعمال التابعة للحكومة الروسية بلندن وقطعت علاقاتها الديبلوماسية مع الروسيا . فشل مؤتمر لنزع السلاح بجنيف
- ۱۹۲۸ المستر كيلوج وزير خارجية الرئيس كوليدج يبتكر عبموعة من المعاهدات بها تتخلى جميع الدول العظمى فى العالم عن الحرب . نشاط لايفتر فى صناعة الأسلحة . إتمام تحويل الجيوش إلى وحدات ميكانيكية والاستفاضة فى دراسة حرب الغازات والبكتيريا . بدأ مشروع الحمس سنوات فى الروسيا
- ۱۹۲۹ وزارة العمال الثانية بانجلترة بعد انتخابات, عامة . إعادة العلاقات بين انجلترة والروسيا . وفاة شترزمان . أصبح هوڤر رئيساً للولايات المتحدة . كانت ظاهرة هبوط الأسعار وتواصل عطالة العمال زادت زيادة واضحة فى كل مكان . مشروع بونغ لتخفيض ديون ا

- ۱۹۳۰ عقد بلندن مؤتمر لنزع السلاح البحرى وكانت نتائجه تافهة . ظهر فى الريخستاغ الألمانى حزب فاشى جديد قوى بزعامة نمسوى اسمه هتلر . إنشاء بنك التسويات الدولى
- ۱۹۳۱ أصبحت أسبانيا جمهورية (أبريل) . اشتدت حدة محنة ألمانيا الاقتصادية ، واقترح الرئيس هوڤر أن يعطل دفع ديون الحرب سنة . جاءت الأزمة المالية في أعقاب ذلك إلى بريطانيا . وحلت محل حكومة العمال ، جكومة طوارى، قومية ، تعهدت بديم معيار الذهب . ثم تخلت عن تلك الفكرة بعد ثلاثة وعشرين يوماً قضها في أوضاع اقتصادية هستيرية . واحتفظ المستر رامساى ماكدونلد رئيس جزب العمال السابق بمنصب رئاسة الوزارة بمهارة تلك التقلبات السياسية

۱۹۳۱ رفضت عصبة الأثم أن تأذن بقيام اتحاد جمركى بين ألمانيا والنمسا ۱۹۳۲ أنشأت اليابان دولة منشوكو

- ۱۹۳۷ تنظیم الهیئة المالیة للتعمیر بالولایات للتحدة لاقراض النقود البنوك وشركات السكك الحدیدیة والتأمین . إنتخب فرنكلین د . روزقلت (المولود ۱۸۸۲) رئیساً للولایات المتحدة عن الدیموقراطیین . إعادة انتخاب هندنبرج رئیساً للولة ألمانیا (۱۹۹ ملیون صوت) ؛ هتار ۱۸ ملیون ؛ تایلمان (شیوعی) پستار ۱۸ ملیون و تایلمان (شیوعی) پستار ۱۹ ملیون صوت . الزیادة المستمرة بحزب النازی فی ألمانیا . موتمر نزع السلاح بچنیف . ألمانیا تترك الموتمر
- ۱۹۳۳ افتتاح مشروع الصفقة الجديدة . الرئيس روزفلت يقوم باصلاحات اجهاعية واقتصادية بعيدة الأثر . أصبح هتلر مستشاراً للرايخ وصارت ألمانيا دولة نازية . المؤتمر الاقتصادى العالمي بلندن فشل . بدء مشروع الحمس سنوات الثانى بالروسيا . عصبة الأمم تستنكر غزو اليابان چهول وإنشاء دولة منشوكو الألعوبة . حربق الريخستاغ برلين والانقلاب النازى

- 1978 ثبت قيمة اللولار على ٥٩ ، ٠٠ في المئة من قيمته عام ١٩٠٠. إعلان هنلو وموسوليني استقلال النمسا عند تقابلهما بالبندقية . هنلر يطهر بلاده من خصومه السياسيين . النازيون يقتلون دولفوس . وقاة الرئيس فون هندنبرج . أدولف هنلر الزعم والمستشار . الاتفاق الودى البلقاني ، عقده بين تركيا واليونان وبلغاريا ويوجوسلانيا للاحتفاظ بالحالة الواقعة بالبلقان . دخلت الروسيا عصبة الأم .
- 1970 المحكمة العليا بالولايات المتحدة تقرر عدم دستورية مشروع المتعمير الجديد N.R.A . إنشاء لحنة التنظم الصناعي (C.I.O) . حصول ألمانيا على منطقة السار باستفتاء . إيطاليا تهاجم الحبشة وتفتحها .
- 19٣٩ إعادة انتخاب الرئيس روزفلت. الجمهة الشعبية تنتخب فى فرنسا ؛ ليون بلوم رئيسا للوزارة . هتلر يعيد تسليح منطقة الراين . الحرب الأهلية فى أسبانيا ، نشوء التمرد بقيادة الجنرال فرانكو بمساحدة ألمانيا ؛ وإيطاليا وحرب انحافظان الريطانى بدرجة من العلانية أقل .
- ۱۹۳۷ فشل الرئيس روزفلت في محاولته إعادة تنظيم المحكمة العليا . حرب بلا إعلان بين اليابان والصين. تحالف ألمانيا وإيطاليا واليابان على الشيوعية ، الحلف المضاد فلكومنترن . جيش الحنرال فرانكو ونجاحه في شمال أسبانيا . الجيوش الإيطالية تهزم هزيمة فادحة في جواد الاجارا على يد الجند الموالين . تتويج الملك چورج السادس ملك انجلترة .
- ۱۹۳۸ ألمانيا نضم النمسا . مؤتمر ميونخ (تشمير لن ــ دالدييه ــ هتلر ــ موسوليني) يعطى ألمانيا جزءاً من أراضي تشيكوسلوڤاكيا ويدمر تحصيناتها .
- ١٩٣٩ ضمت ألمانيا تشيكوسلوڤاكيا . ضمت إيطاليا ألبانيا . فرانكو يدخل مدريد ويرشلونة ... السوڤييت يوقعون حلفا مع النازيين . غزت ألمانيا بولندة . بريطانيا وفرنسا تعلنان الحرب . إنهيار بولندة . ألمانيا والروسيا تقتسمان

أراضها . الروسيا تمد سلطانها على أستونيا ولاتقيا ولترانيا وتغزو فنلندة ثهاية الحرب الفنلندية . ألمانيا تستولى على الدائمركة والنرويج . طرد تشمير لن ونستون تشرشل يرأس الحكومة القومية الجديدة . الألمان يجتاحون بجليكا وهولندة . دنكرك . سقوط فرنسا ، إيطاليا تعلن الحرب ، حكومة بيتان . معركة بريطانيا . قلف لندن بالقنابل . تشتيت شمل الإيطاليين في برقة إيطاليا نهاجم اليونان ـ وتنهزم

- 1981 حرب بريطانيا الجوية . البريطانيون يفتحون الحبشة . ألمانيا تفتح بوجوسلافيا واليونان : وترد البريطانيين في برقة . البريطانيون بهزمون قوات المحور في العراق وسوريا . هتلر يغزو الروسيا . خسائر الروسيا الفادحة . اليابان تغرق أسطول الولايات المتحدة بالباسيفيكي وتزج بأمريكا في الحرب . تقهقر الألمان في برقة .
- 1924 أليابان تفتح الفليبين والملايو وسنغافورة والهند الشرقية الهولاندية والبريطانية .

 الحرب الجوية على ألمانيا ؛ حرب الغواصات فى الأطلنطى . اليابان تغزو يورما . الوطنيون الهنود يرفضون عرض ستافورد كريبس . طرد البريطانين من برقة . الألمان ينفذون إلى القوقاز ، ولكنهم يفشلون فى الاستيلاء على موسكو أو ستالينجراد . فشل اليابان فى فتح جزيرة نيوجنى . معركة العلمين : بدء تحطم الألمان فى ليبيا . الحلفاء ينزلون بشمال إفريقية .
- ۱۹۶۳ صد الآلمان وتراجعهم فى الروسيا . الحلفاء يفتحون شمال إفريقية ؛ ويغزون صفلية ويلخلون إيطاليا . سقوط موسوليني . حرب جوية حامية على أوربا . موتم الدار البيضاء .
- ۱۹٤٤ الحلفاء يستولون على روما . غزو نورماندى . طرد الألمان من الروسيا .
 تحرير قرنسا وبلچيكا . الروس يلخلون رومانيا والمجر .
- ١٩٤٥ الأمريكيون يفتحون الفلبين : البريطانيون يستردون بورما . وفاة هتلر ؟
 تسليم ألمانيا . قنبلتان ذريتان تسقطان على اليابان . تسليم اليابان .

١٩٤٥ إنشاء الأمم المتحدة . إنشاء جامعة الدول العربية .

ميثاق حقوق الإنسان

١٩٤٨ اليهود يحتلون فلسطين وينشئون إسرائيل

١٩٥٢ حريق القاهرة

١٩٥٢ ثورة ٢٣ يوليو المصرية

١٩٥٤ سقوط الملكية وإعلان الجمهورية

بروز الرئيس جمال عيد ألناصر على مسرح السياسة العالمية

هه١٩ مؤتمر باندونج (١٨ أبريل)

١٩٥٢ إستقلال مصر والجلاء .

حب تمويل السدالعالى وتأميم قناة السويس

الثورة الجزائرية

انسحاب المرشدين الأجانب من ألعمل بقناة السويس

موتمر بريوتي الأول

جامات المنتفعن .

العدوان الثلاثي وحرب السويس.

خروج المعتدين من يور سعيد(٢٣ ديسمبر)

موتمر بريوني الثاني .

١٩٥٧ المؤتمر الأسيوى الإفريق بالقاهرة

حلف الأطلنطي

١٩٥٨ إنشاء الجمهورية العربية المتحدة (وحدة مصر وسوريا)

١٩٥٩ انحراف ثورة آلعراق من ركبالعروبة

۱۹۵۹ ثورة كوبا على يد فيديل كاسترو (يناير)

١٩٥٩ تجارب الأقمار الصناعية الروسية . انتخاب الم

البدء في إنشاء السد العالى

مشروع السنوات الحمس الأولى فى ج . ع . م السوق الأوروبية المشركة مؤتمر الأقطاب

الحرب الأهلية فى لبنان ونزول القوات الأمريكية

١٩٦١ القرارات الاشتراكة

انفصال سوريا

موتمر الدار البيضاء لملوك وروساء العرب موتمر بلجراد مؤتمر القمة الإفريق بأديس بابا إنشاء سور برلين إطلاق سفينة فضاء تحمل رجلاً

۱۹۶۲ انقلاف العقائلى بين المعين وروسيا

مؤتمر الدول الإفريقية استقلال الجزائر

> ۱۹۹۴ استفلال قبرس مقتل کندی

۱۹۶۶ زحف الزنوج علىنيويورك عزل خووشوف سقوط حزب المحافظين بعريطانيا

1974 مؤتمر القمة الأفريقي بالقاهرة اجتماع الملوك والرؤساء العرب الأول اجتماع الملوك والرؤساء الثاني موتمر اللمول غير المتحازة التمال في بناء السد العالى انتهاء المرحلة الأولى في بناء السد العالى

١٩٤٥ – ١٩٦٤ استقلال دول إفريقيا وآسيا :

إندونيسيا ــ أوغندا ــ باكستان ــ بورندى ــ تونس ــ تنجانيةا ــ زنزبار (تنزانيــا) ــ جامبيا ــ الجزائر ــ جابون ــ داهومى ــ السودان ــ سيراليون ــ سرازيل ــ سيلان ــ ساحل العاج ــ الصومال ــ غانا ــ غينيا ــ كينيا ــ ليبيا ــ نيجيريا ــ الهند الصينية ــ ملاوى ــ المغرب ــ مالى ــ ماليزيا ــ الهند ــ زامبيا ــ توجو ــ موريتانيا .

١٩٦٥ إنسحاب أندونيسيا من هيئة الأنم المتحدة

مؤتمر روماء حكومات الدول العربية على الأمة يرشع الرئيس جمال عبد الناصر لرياسة الجمهورية

كشاف أبجدى للكتاب

الأسطول القرئسي ١٢٤٨٤١٢٢٧ (1) الاسلام ١١٢٤ ، ١٢٩٢ ، ٢٢٥٢ الاسكندر الأكبر ١١/٩ ، ١٤٧٢ 101. 4 10TY 4 10TY 6 15TY DEY! الاسكندر الأول ١٢٥٠ ، ١٢٥٣ ، ١٣٩٩ أيسن ١٣٩٤ الاسكندر اليوقوسلاق ١٩٧٥ أبي خبر (معركة) أبو ما تركس كورت هاوس (معركة) ١٣٤٥. الاشتراكية ١٢٩٧ ، ١٢٩٧ ، ١٤٦٩ ، ١٤٧٠ ، الإتماد الأوربي ١٢٧٠ الإتماد السوثييني ١٥٤١ ، ١٥٤١ الاشتراكيون ١١٨٧ ، ١٢٢٧ ، ١٥٣٩ اشتر اكية اتحادات العال ١٣٠١ اتماد مالي ١١١٠ : ١١٣٣ ، ١٤٩٧ اصاب الأملاك ١٠٧٩ ، ١٠٧٠ ، ١٠٧٨ أتعاد فدرائل ١٣٤٥ - ١٣٣٣ ، ١٣٤٤ الإصلاح الديني ١٩٤٤ ، ١٩٤٤ اتحاد كندرالي ١١٧٥ ، ١٣٣٣ ، ١٣٤٤ اتكنسون (س . ف) ۱۲۱۵ الإصلاح الزرامي ١٥٤١ احولت ۱۰۷۱ ، ۱۰۷۲ أعلان الحقوق الأمريكي ١١٦٨ الأحرار (حزب) ۱۹۱۳ ، ۱۶۱۲ ، ۱۶۱۲ ، ۱۶۱۸ اغناطيوس ليولا ١١٣٤ اختاتون ۱۳۸۰ أغلاطون وواوا الأدب ١٣٨١ - ١٣٩٧ الأكاديمية الفرنسية ١٠٩٩ ، ١٣٨٩ الأدب البياس 1110 الأكادمية الملكية البريطانية ٢٣٧٨ الأدب الإنجليزي ١٣٨٩ الأدب القرتسي ١٣٨٧ ، ١٣٨٧ 1704 U Tree last إدجار ألان يو ١٣٩٥ ألفوتس ١٥٣٧ أدرثه (معاهده) ۱۲۹۷ الكار ١٠٧٢ء ١٠٧٤ أديثبتون ١٢٤٦ ادرارد الأرل ۲۰۷۷ الزابث ١١٠٣ ادرارد السابع ۱۰۷۸ ، ۱۰۸۹ الامراطورية الألمانية ١٤٠٣ الإمبر اطورية البريطانية ١٣٧١ ، ١٣٧٧ أتوارد السادس ١٠٧٥ - ١٠٧٨ أ الأراني المنظمة ، ١٧٦٧ ، ١٧٩٥ الاسراطورية البركية ١٣٥٩ أرمطو ١٣١٢ الإمبر اطورية الرومانية ١٩٧٧ ، ١٩١٥ ، ١٩٣٨ ، ارتورت ۱۲۵۲ ارلندة - الأرتنديون ١٠٨٤ ، ١٠٨٠ الأميرا طورية الرومانية المقلسة ٢٠٦٧ أمير أطورية المغول المغليم ١٣٥٧ ، ١٣٥٥ ، الاسترليق ١٥٤٠ الاستيار ١٤٦٤،١٣٦٠،١٣٢١،١٣١٨ الاسطول الانجليزي ١٠٨٥ ، ١٤٥٩ الإمبر اطورية الفسوية ٢٥٢٩

ألاميريالية ١٣٢٣ (انظر استمار)

الاسطول الألماني ١٤٩٠

برجوين (سِنرال) ١١٦٧ البرلمان الأبتر ١٠٨٧ ، ١٠٨٤ البريمان الانجليزي ٢٠٧١ ، ١٠٧٨ يرلمان الإنسان ١٣٢٦ البرلمان الطويل والقصير ١٠٨٠ برلمان فرالكفورت ١٣٢٩ برمت ليترفسك (صلم) ١٤٩٨ ، ١٤٩٨ برقاردشو ۱۳۹۴ برنزریك (درق) ۱۲۱۱ برونستانت ۱۰۸۵ البروتستانتيه ٢٠٧١ يسير ١٢٧٤ 16.7 : 1971 3/1-برخمانية ١١٢٥ بروجل (المارشال) ۱۱۹۱ يروسيا ١٠٩٢ البريز بتريانية (الكنيسة) ١٠٨٠ بريطانيا ١٠٤٦ ، ١٠٤٦ البروليثارية ١٨٨٧ : ١٧٩٩ > ١٤٩٩ ، ١٤٩٩ ، ١٣٩١ بطرس الأكبر ١١٠٣ ، ١١٣٠ بل (الموسيق) ١١٠٥ بلتسك ١٧٤٨ JEAN (18AA I) IL يلمودمكن ١٥٣٩ (البلاثية) ٢٠٢٢ البلغفية ١٤٩٨ بالمرستون 1447 بلرتارك ١٢٣٦ البلوتوقراطي ١٣٧٩ ايليوشر ١٢٥٩ بليك (أميراله) ١٠٨٥ البنقية ١٠٨٧ بئيان ١٠٩٩ يوب (امكند) ١١٠١ برث ۱۳٤٧ بورچراه ۱۹۸۹

أمر ۱۰۹۸) ۱۰۹۹ إمرسون ١٣٩٥ الأمير الزوح ١٣٢٤ أناثول قرائس ١٣٩٣ الانتخابات ١٤٧١ ، ١٣٠٦ ، ١٤٧١ العداب ١٥٩٤ ، ١٥٩٤ الأهرام (معركة) ١٢٢٧ أنبرس (المسور) ١٣٧٨ الانتلاب الآلي ١٢٧٩ ، ١٧٧١ ، ١٨٧٠ ، 1744 4 17+4 4 17+4 4 1741 الانقلاب المخامي ١١٤٩ ء ١٧٨١ أوجليثورب ١١٥٧ ، ١١٥٧ أوركتنو ١٤٨٠ أورقيان ١٧٩٠ أورائج ٢٠٧٤ ، ١٠٧٥ أورننزيب ١١٢٤ ، ١٣٥٢ أوسترلتز ١٢٤٨ أوقسطس ١٧٨١. وكسفورد ١٣٢٤ أرلم (سركة) ۱۲۴۸ أو ليجاركية ١٥٤٣ آوین (روبرت) ۱۲۹۴ إيران ١٥٢٣ לשלב אזיו ايونيارر ويروز ، دووز ، وووز

(ب)

باغ ۱۹۰۵ باراه ۱۳۲۳ باری ۱۳۹۵ باری ۱۳۹۵ بالغرین ۱۹۷۱ بالغرین ۱۰۷۱ بالغرر ۱۹۸۰ بالغرور ۱۹۸۰ تروتسکی ۱۳۰۲ ، ۱۰۰۱ ، ۱۰۰۹ ، ۱۵۰۸ ، ۱۵۰۸ البورجرازية ١٥٢١ LOTE بردًا ۱۲۷۲ ، ۱۲۹۲ ، ۱۴۷۲ تشارلز رید ۱۳۸۸ بوريون ١١٣٩ ، ١٢٤٢ ، ١٢٥٨ ، ١٢٥٩ ، تشرشل ۱۹۷۴ ، ۱۹۷۱ ، ۱۹۷۰ ، ۱۹۷۳ بورودين ۱۵۲۰ تشمير أن ١٥٤١ ، ١٥٦٣ 174. 6 1707 Die تشیانیم کای شیك ۱۹۲۱ ، ۱۰۲۲ ، ۱۹۲۹ يوزويل ۱۹۰۱ تشيكوسلوفاكيا ١٥٣١ 1818 24 بوكسار وبلاسي ١١٢٨ (ممركتا) تشكوف ١٣٩٠ يول رياير 1170 التميوير ١١٠٧ ، ١٣٧٧ 1810 mg التعاون ١٢٩٧ برلنة ١١١٦ ، ١٤٠٣ ، ١٩٩١ ، ١٠٠٠ التعريفة ألجسركية ١٥٣٦ ، ١٥٣٧ التطع الضبئ والصامت ١٩١٣ يولونيا ١٧٤٧ بوليقيا ١٥٤٩ التعمير ١٤٦٦ بیتر فان درمای ۲۰۷۳ تلبت ۱۲۰۱ بينبوڤن ۱۱۰۷ التلفراف الكهربائي ٢٢٧٣ البيداجرجيون ١٣٨٩ تقي ١٠٩٢ -بیدیکار ۱۱۰۴ التلمود ٢٢٩٢ 174. 0,00 الغثيل النيابي ١٣٠٥ يكونزنيلد ۱۰۸۷ ، ۱۳۴۸ تورجنيف ١٣٩٠ اليزيتا ١٥٣٢ تنيسون ۱۳۸۹ ، ۱۳۸۷ التوسع الإستعارى ١٣٧٣ بيلوك ١٣٨٨ اليبورتيان ١٠٨٦ تولستوى ١٣٩٠ بيرس السابع (البابا) ١٢٤٠ توماس مور ۱۲۸۲ ترنكين ١٣٧١ (ت) التوياري 1144 تافت ۱٤٧٧ تيمور لتك ١٣١١ تأمز ١٠٨٩ تيار ۱۲۲۸ تأميم ١٣٠٤ ، ١٣٧٣ تيمو اشتكو ١٥٨٠ تاناریف ۱۰۸۵ (0) تارنشند ۱۶۵۳ تتار ۱۱۳۱ تاكاري ۱۳۸۸ ، ۱۳۹۳ تجارة الرتيق ١١٧٩ ، ١١٨١ التورة الاشتراكية ١٤٥٧ التخطيط ١٤٦٦ الثورة الإقصادية ه١٢٨ ترانسيت ١٢٩٩ الثورة الصناعية والميكانيكية (النظر الانقلاب) 1848 1181 4 31 1777 · 1743 · 1740 · 1124 التركان ١١٣١ الثورة القريسية ١١٠٤ ، ١١٨٥ ، ١٢٨٩ ترز (المعور) ۱۳۷۸ 1071

الثورة المستديمة ههمه جوديج الماس ١٤١٤ ، ١٤٢٧ ألثيوقراطية ١٢٩٣ جورج وأشتجون ١١٧١ ، ١١٧٨ جوزيف ثابليون ١٢٦٢ جوزنين ١٢٣٥ (5) جرستان أدرلف ۱۰۹۲ ، ۱۲۲۴ چاکسون (هامیدن) ۱۹۴۰ جوستافوس قمازا ، ١٠٩٠ جاليليو ١٣٠٩ جرع (سركة) ١٤٩٠ جاسة باريس ١١٤٣ جولة الشرف ١٢٤٧ جامعة لندن و٢٧٥ جولد سيت ١١٤٥ ؟ ١٥٤٤ و جان جاك روسو ١١٠٠ جون أثنالث ١١١٨ جانکيز ۱۱۳۱ ، ۱۱۵۹ جون لوك ١١٦٢ ، ١٨٨٠ جنلند (سركة) ١٤٥١ جون هن ١١٣٤ جرافیلوت (سرکة) ۱۳۳۰ جونو ۱۲۳۰ جرالت ۱۳۶۵ ، ۱۳۶۲ الحركا ١٣٥٥ ATAY KE جستنيان ١٧٦٩ 4 1544 6 3540 6 1541 6 11-1 Que-1410 4 1144 4 1104 4 1144 جفرسون دانيز ۱۱۸۰ ، ۱۳۴۱ ، ۱۳۴۹ ، جيس الأول (استيوارت) ١٠٦٩ ، ١٠٧٨ ، 1011 بعال عبد الناصر ١٩٣٥ 1101 4 1-10 4 1-AV الجاميون ١١٨٧ جیس پر انش کابل ۱۳۹۹ الجمعية الفلورنسية ١٣٧٩ بيس كريج ١٥١٤ الجمعية الملكية البزيطانية ١٣٧٩ جيمس ملك أمكتلندة ١٠٧٥ الجمعية الوطنية ١٢٠٠ ، ١٣٠١ ، ١٣٠٩ جين أوستن ١٢٨٧ ، ١٢٩٣ الجمهورية الانجليزية ١٠٧٥ جيرلش ١٤٧٠ الجمهورية البريطانية المتوجة ١١٣٥ الحمهورية البولندية المتوجة ١٩١٦ ، ١٤٠٣ (E) ألجمهورية للرومانية ١٤٦٤ الحرب - الحروب ١٠٩٩ الجمهورية الفرنسية ١٣٠٧ حرب الاستقلال الأمريكي ١١٦٦ ، ١١٨٥ ، الجبهورية الهولندية ١٠٧٠ STEY الجمهورية المتوجة ١٢٠٠ الحرب الأملية الأمريكية ١٣٣٧ ، ١٣٣٧ جوتاما (انظر بوذا) جرجول ١٣٩٠ حرب البوير ١٣١٨ سرب التحرير الألمانية ١٢٥٦ جودفري البويوني ١٧٠١ حرب الثلاثين سنة ١٠٩٠ ، ١٠٩٠ ، ١٩٩٢ ع جردج الأرل ۱۰۸۷ ، ۱۰۸۸ چورج الثانى والثالث والرابع ١٠٨٨ ، ١١٦٢ ، 1117 حرب لللقات ١٢٨٨ 1771

الميلة الصليبة الأولى ١٠٧١ الحملة الصليبية الثانية والثنالثة والرابعة ٢٠٧١ حنا سوبيسكى ١١١٨ الحوليات ١٠٦٨

(خ)

غريطة العالم السياسية الطبيعية ١٢٦٦ المضر وآلزرق 1110 غيظ ماسون وديكسون ١٣٤١

(2)

دارا ۱۲۰۶ دارتموت ۱۱۸۰ دائيد (المسرر) ١٣٧٨ دانیال دینو ۱۹۰۲/ ۱۱۸۰/۱۱۸۰/ TYAT دارز ۱۰۳۹/۱۱۲۰ الدايستية (المذاهب) ١١٠١ الدراجرناد ١٠٩٨ الدراما ١٣٩٤/١٣٩٣ درایزر ۱۳۹۳ الدردئيل ١٤٥٢ دروجيدا ١٠٨٤ دمتور الولايات المتماة ١١٧٦/١١٢٩ دستريفسكي ١٣٩٠ الدكتاتورية ١٥٢٨ _ دنبار (سركة) ۱۰۸٤ دنکر که ۱۰۸۱ ت ۱۷۹۱ دوجلاس (السناتور) ۱۳۶۳ درق سافری ۱۰۸۰ 10TT/10TT DE الدولة الأوربية الحرة ١٥٢٨ درلة تمرزية مشركة الأأكا

الحرب النظى الأولى ١٠٩٢ ، ١٣٢٣ ، ١٤٥٩ ، [الحلف المقاس ١٣٦١/١٢٦٠ المرب العطم الثاثية ١٥٦٨ الحرب الروسة التركية ١٣٤٨ حرب الورالة الأسبانية ١١٠٤ الحرب اليابانية الروسية ١٣٧٢ إلم ب اليابانية السينية ١٣٧١ الحروب الإنطاعية ١٣٦٨ الحروب ألبونية ١٤٦٤

(5)

الحروب الصليبية ١٠٧١ حروب القلاحين ١١٤٣ حروب ټاپليرن ۱۲۹۸ ، ۱۲۵۲ ، ۱۲۹۹ الحرس أسلمنيان ١٠٨٢ الحرس أتحاص 1144 الحرس ألوطى 1144 حريق لنان ١١٠٩ المرية الفردبة ١٣٠٧ مِزْبِ الأحرار ١١٦٣ - ١٤١٦ حزب الترري ١٤٠٢ الحزب الجنهورئ ١٤٧٣/١٤٧٣ المزب الديموقراطي ١٤٧٩ الحزب الثيرمي ١٤٩٩/١٤٩٩ حزب المال ١٤٥٨ حزب الحالفان ١٤٠٧ ، ١٥٣٩ ، ١٥٩٤ حزب المربح ١١٦٣ حكم الإرهاب ١٢٦٢ الملكم ألدكتاتورى 1079 المكر الذاتي ١٠١٤/١٠١٣/١٣٧٣ المكر المفكم المالق ١٠٨٨ المكومة الإتعادية ١٩٣٢ حكومة الإدارة ١٢٢٢/١٣١٩ المكومة النالية ١٣٠٧/١١١٠ الملت الأثاني ١٣٣٠

الرقيق ١١٨٨ ، ١١٧٩ ، ١١٨٨ ، ١٩٤٠ ، 1450 الرواية (أنظر فصة) الرواية القصيرة ١٣٨٧ روبرت لويس أستيننسون ١٣٩٢ رويسيير ۱۲۲۵ ، ۱۲۱۵ ، ۱۲۳۶ روجر باكون ١٣٧١ روسى ١١٨٧ ، ١١٨٨ ، ١٢٠٢ ، ١٢٠٠ . 1778 6 1710 6 17 · V يتوللز (المسور) ١١٠٩ دنهارك ١٥٣١ رنوار (المسور) ۱۳۷۹ رومان رولاند ۱۳۹۲ ریتشمونه ۱۳۴۵ ، ۱۳۴۹ ریختر (جان بول) ۱۲۸۸ ررزفلت (تیودور) ۱٤٧٣ روزقلت (فرائكلين) ١٥٤١ الروسيا ١٣٧١. الرومائس ٢٠٩٩ الرومانسية ١٣٩١ رومل ۱۰۸۸ ، ۱۰۸۳ ، ۱۰۸۶ ريتشاردسون ١٣٨٢ ريتشارد قلب الأسد ١٠٧٦ ریشلیر ۱۹۲۹ : ۱۹۱۴ ، ۱۹۲۲ (3) زانير (، فرانسيس) ١٣٦٨ زهاول ۲۰۲۳ الزلوق ١٥٣١ زورين ۱۹۰۱ زيتونيف ١٥٠١ (س)

الدرلة ذات السيادة و١٩١٥ ، ١٤٠٠ الدولة الرومانية الغربية ١٠٦٨ المرئة البائية ١١١٦، ١٣٧٩، ١٩٩٩ الدرلة المظمى ١٥١٦ ، ١٢٩١ ، ١٤٧٨ موموريه (جارال) ۱۲۱۱ . دوننج ستريت ١٥١٥ الديبلوماسية ١١٥١ ديماز (المصور) ١٣٧٩ ديدرس ١١٨٦ ديروستبستر ١٠٨٥ ديقالبرا ١٥١٤ دسکا ت ۱۰۹۹ ، ۱۳۱۲ دیکنز ۱۳۸۸ ، ۱۳۹۳ الديل إيريان ١٥١٠ الديموقراطية ١١٥٨ ، ١١٥٨ دېيکين ۱۵۰۹ ، ۱۵۰۹

(3)

رابليه ١١٠١ رادیك ۱۵۰۱ رادیکانین ۱۱۹۷ ، ۱۳۶۰ رأسيوتين ١٤٥٦ ، ١٤٥٧ رفائيل (المصور) ١٣٧٩ رامبراندت (المسور) ۱۳۷۹ رابيرتية ٢١٩٩ الرأين ۲۰۹۰ ، ۲۰۹۴ رأس المال ۱۱۶۹ ، ۱۲۸۸ الرأسال الجاعي ١٣٠١ الرأساليون ١٤٩٩ ، ١٤٩٩ رأسين ١٠٩٩ ردسرتد ١٥١٢ رسکن ۱۳۷۹ ً رضاخان ١٥٢٤ رطاؤة ١١١١

سالازار ١٥٣٩ سالونيك ۲۵۴ الساموراي ١٣٦٨ ستالين ١٥٠٩ ، ١٥٣٤ ستأنفوردويت ١٣٨٢ ستراثثي ١٣٨٨ ستراتورد (الإيران) ۱۰۸۱ ۱۰۸۱ سترن (لورانس) ۱۲۸۷ ۱۱۱۰ ۱۲۸۷ ستوك مار ۱۳۲۷ ستينو ۱۳۱۲ سراجيفو ۱۳۲۳ ، ۱٤۰۲ سكابافلو ١٤٩٠ سلاميس ٢٥٤٢ سلفرينو ١٣٢٩ السلم البريطاني ٢٣٧٧ منكلير لويس ١٣٩٩ السود والصفر ١٥١٣ السين نين ١٥١٣ السردان ه۱۳۷۰ سودرمان ١٣٩٥ سوليز ١٠٧٤ 1570 6 1770 سويفت ١١٠١ السيامة الخارجية ١٠٩٧ سبيريا ١٣٥١

(ش)

سيدآن (معركة) ١٢٣٥ ، ١٤٨٤ -

سيمون دى مولت فورت ١٠٧٩

السيخ ١٢٥٥.

شارل الأول ۱۰۹۹ ، ۱۰۷۹ ، ۱۰۹۳ ، ۱۰۹۳ ، ۲۰۹۳ ، ۲۰۹۳ ، ۲۰۹۳ ، ۲۰۹۳ ، شارل الثانی ۱۸۰۲ ، ۲۰۸۶ ، ۲۰۸۶ ، ۲۰۸۴ ، ۲۰۸۳ ،

شارل ألخامس ١٠٧١ ، ١٠٨٩ ، ١٤٧٢ شارل العاشر ١٢٦٢ شارل لیال ۱۳۱۲ شارلوت كورداي ١٢٠٦ شانوتيبري (معركة) ۱۴۹۱ شان دی مارس ۱۲۱۵ ، ۱۲۰۹ ، ۱۲۱۷ الشخوص القبلية ١١١٢ شتين (قون) ١٢٥٢ شركة حليج هدسن ١٣٥١ شركة ألهند الشرقية ١١٢٩ ، ١١٦٤ ، ١٣٥٢ شر لمان ۱۰۹۸ ، ۱۲۴۷ شرمان ه ۱۳۶ طروود أتلزسون 1847 الشعر ١٢٨٧ الشعور الطبق ٢٣٠٠ شكسير ١٠٩٩ ، ١٣٩٩ الشيومية ١٧٢٧ ، ١٧٩٣ ، ١٣٠٣ ، ٢٠٠٤ الثيرمية المسحية ١١٤١

(ص)

صاحب العبل ۱۶۲۷ الصائد الفرنسي ۱۳۷۸ الصحائة ۱۳۷۳ مسلح فرانكفورت ۱۳۳۱ مسلح فرانكفورت ۱۳۳۱ مسلویل آدامز ۱۱۹۵ مسویل چونسون ۱۱۹۱ مسویل ریتشاردسون ۱۱۱۰ مسرین ۱۱۹۱ مسرین ۱۵۱۸ الصیبونیة ۱۵۲۷ تا ۱۵۲۷ الصیبونیة ۱۵۲۷ تا ۱۵۲۷ الصیب

(ض)

الفرائب ۱۱۹۱۰ ۲۰۱۹ ۲۱۹۱

לונני זיץן فاسكوراجاما ١١٢٧ الفاشية والفاشيون ١٤٧٨ ، ١٤٧٠ ، ١٤٧٢ ، 1074 C 1078 قالى (معركة) ١٧١١ قانی برنی ۱۳۸۷ الفتة المناية ١٣٥٥ فرانكلين (بنيامين) ١٢٠٥ ، ١٢٧٩ فرلكو ١٥٥٠ ، ١٥٥٢ فر ایتاج (جوستان) ۱۳۹۰ قردان ۱۲۲۰ ، ۱۲۳۸ نردريك الأكبر ١١٠٢ ، ١١١٧ ، ١٤٠٣ فر دريك الثاني ١٠٨٩ ء ١١١٧ فردريك (اللوق) ١٠٧٣ فرمزيك وليم ألأول ١١٠٢. قرر ۱۹۶۸ فر ديناند ١٠٨٩ مُرديثالًا البلغاري ١٤٥٣ ، ١٤٠٥ فرسان التيوتون ١١٣٨ قرمای ۱۹۹۹ : ۱۹۹۹ : ۱۹۹۹ : ۱۹۹۹ ه فرنسيس الأسيس ١١٧٤ الفرنك ١٥٣٢ نرنکنورت ۱۳۲۹ ، ۱۳۳۲ الفروقه (حرب) ۱۰۹۳ فسيقساء ١٢٧٣ الفكرة الثورية بفرنسا ١١٨٤ فكرة الدرلة الطمي ١١١٠ الفلاملة الأثينيون ١١٦٩ فلاندرز ١١٠٠ فلمطين ١٤٩٢ ١ ١٩٣٩ فلوبع ١٣٨٩ فلورنسا ١٠٩٨ القن الإسلامي ١٣٨٠ الفن البيز قطى ١٣٨٠ الفن القوطي ١٣٨١

(**ط**) اقات) ۲۹۷

طاغور (رايندرانات) ۱۳۹۷ الطرف الأغر (معركة) ۱۲٤۸

(2)

عالم المسيحية ١١١١ ، ١٣٦٣ ، ١١٣٣ ا العامل والعال ٢٠١٧ عبادة العقل ٢٢١٧ عبد الكريم ٢٠٥٤ ، ١٥٧٥ العدالة الاجتماعية ١٥١٩ عفوه (مصركة) ٢٣٧٠ العراق ٢٥٤٤ ، ١٤٩٤ عصبة الأمم ٢٤٧٥ ، ١٤٩٤ ، ١٤٩٤ ، ٢٥٣١

النصر الحجرى الحديث ١٣٨٠ النصر الحجرى القديم ١٩٨٠ عصور الاضطراب ١٠٩٨ النصيان المدنى ١٩٧٩ العدد الاجهامي ١١٧٧ ، ١١٨٧ العدرم (وتقدمها) ١٣١٧ ، ١٤٦٢ العارم (وتقدمها) ١٣١٢ ، ١٤٦٢ العار ١١٠٠ ، ١٣٠٧ العمل ١١٠٠ ، ١٢٧٤ العمل القطم (في ماجنا كاورتا) ١٣٧٩ ، ١٣٩٩ العهد القديم ١٣٧١ ، ١٣٧٩

(غ)

غاریباللدی ۱۳۲۹ غالیبولی ۱۴۰۲ ، ۱۴۰۳ غلیوم الثنانی ۱۴۰۲ ، ۱۴۲۲ ، ۱۴۲۴

(ف)

أنارجاس (جيتوليو) ١٥٣٩

قوانين السياجاتُ ١١٤٤ ، ١١٤٦ ، ١١٤٩ القوزاق ۱۱۳۰ ، ۱۱۳۱ (1) کابوریتر (سرکة) ۱٤٦٠ كاترين العظيمة ١١٠٣ ، ١١٣٥ كارسون ١٤٢٥ ، ١١١١ کارل مارکس ۱۲۸۷ ، ۱۲۸۸ ، ۱۲۹۷ ، 10 .. . 18.4 . 18.. کارلیل ۱۱۰۲ ، ۱۱۹۶ ، ۱۹۹۴ ، ۱۲۸۸ ک کارنوه ۱۲۲۲ كافور ١٣٢٩ كالدر ١٢٤٨ كالوني ١١٨٩ ، ١٢٠٣ كامپوقورىيو (صلَّح) ١٢٣٦ كامينيف ١٥٠١ كانوقا ١٢٩٨ الكاي دورساي ١٤٨٩ کیلئم ۱۳۵۷ ، ۱۶۷۲ كرأسين ١٥٠١ کرستوفر دن ۱۱۰۹ ، ۱۳۸۲ كرملين ١١٠٣ کرومویل ۲۰۸۲ ، ۲۰۸۵ ، ۲۰۸۵ ، ۲۰۸۸ ، ۲۱۰۸ 1744 4 1774 4 1137 4 1131 کری (ج . أ .) ۱٤٥٤ كلايف ١٣٥٧ 18A0 - 18A8 - 18A7 Dunne كبريلج ١٣٢٤ كتدا ١٢٥٧ كنيسة انجلترا الرسبية ١٠٧٩ الكنسة الكاثرليكية ١٢٦٦ ، ١٢٦٦ الكنيسة للسيحية ١١١٠ الكنيسة اليونائية الأرثوذكسية ١٢٦٦ کویا ۱۳۲۴ ، ۱۰۴۷

فنج ١٥٢٠ الفنون ١٣٧٧ ، ١٣٧٨ فوش ۱۴۹۱ نوكلاند (معركة) ١٤٥١ قولتير ٢٠٩٠ ، ١٠٩٨ ، ١٠١٠ ، ١٠٩٨ ، 1410 4 1140 نونتينبلو ١٢٤٧ فورت حمر ۱۳۶۳ الفيز يوقر اطيون ١١٨٧ فيشر ١٤٥٨ ليشينسكى ١٥٤٤ ليكتور عمالويل ١٣٢٩ فیکتوریا ۲۹۲ ، ۱۳۸۷ ، ۱۳۸۷ ، ۸۵۰۸ ٹیکتور یا اُوچینی ۱۵۶۹ فيلاسكويز ١٣٧٩ نيلانج ١٢٨١ ، ١٢٨١ ، ١٣٨٧ فيليب الثاقي ١٠٧١ ، ١٠٧٧ ، ١٠٨٩ فيليب دوق أورلبان ١٢٣٠ ليوص ١٤٩١ فيهنا ١١١٨ _ توروشيلوت ١٥٨٠ (0)

تامة المرايا ١٣٣٩ تانون إصلاح حكومة المند ١٣٥٩ تانون الحقوق الفرجيني ١١٨١ تانون المصانع ١٣٩٩ تباذ ١٢٥٠ تبرص ١٣٥٠ القرون الوسطى ١١٣٤ قسطنطين (الإمبراطور) ١١٤٠ قسطنطين (البرناني) ١٤٥٠ توانين اللمنة ١٢٨٧

لوثر ١١٤٢ لود ۱۰۸۰ لودندرت ۱۴۹۱ ، ۱۹۹۹ قوسيان ١٢٣٩ لورتس ١٤٩٣ لوك ١١٠٠ لوكريشيوس ١٣١٢ لولى ١١٠٥ ترتجفلو ۱۳۸۷ ، ۱۳۹۵ لونجوى ١٣١٠ لونخارسكى ١٥٠١ لوية جورج الأ١٤٦٠ ، ١٤٨٦ د ١٤٨٦ لويس الثانن مشر ١٢٥٨ لويس اللاس عشر ١١١٢ ، ١١١٢ **،** لويس الرابع عشر ۱۰۹۳ ، ۱۰۹۵ ، ۱۰۹۸ ، 1727 6 1117 لويس البايع عشر ١٢٥٨ لويس النادس عشر ١١٠٧ و ١١٧٩ - ١٢٥٨ ليتون ١٣٨٨ الارة ١٧٥١ ليكوانثر ١١٩٧ ، ١١٩٨ ليوبوك الأول ١٣٦٩ ، ١٣٧٤ ليوناردو دافنتي ١٣١٢ ، ١٠٥٤ لينين ١٢٩٧ - ١٤٥٩ ، ١٠٨٨ ليوتى ١٥٢٥

(1)

ماجنا كارتا ٢٠٧٩ ، ٢٠٧٩ ، ٣٩٠١ ، ٣٩٠٩ ماجنتا ٢٩٢٩ ماجينو ٢٧٥٠ ماجينو ٢٧٥٠ مارا ١٣١٠ ، ٢٢١٠ مارا ١٣١٠ مارستون ٢٠٨٣ مارتجو ٢٤١٩ ، ٢٥٠٠ مارتجو ٢٤٤١ ، ٢٠٥٠ المارتجو ٢٤٤١ ، ٢٠٥٠ مارتجو ٢٤٤١ ، ٢٠٥٠ مارتجو ٢٤٤٠ ، ٢٠٢٠ مارتجو يهنيه خبيده

كون الإمارة ١٠٧٧ كورتير (مجلس) ١٠٤٩ ، ١٠٧٠ كورتير (مجلس) ١٠٤٩ ، ١٠٤٩ كوربوال ١٣٣١ كوربوال ١٣٧٩ كوربوت ١٣٧٩ كوربيا ١٣٧٨ كوربيا ١٣٧٩ ، ١٣٧٠ كوربيا ١٠٩٠ كوربيا ١٠٩٠ كوربيا ١٠٩٠ كوربيان ١٠٩٠ كوربيان ١٠٨٠ ، ١٠٨٠ كوربيان إراية ١٠٨٠ ، ١٠٧٠ كوربيون باريس ١٠٢٠ ، ١٣٢١ ، ١٣٤٠ ، ١٣٤٠ كوربون باريس ١١٦٠ ، ١٣٢١ ، ١٣٤٠ ، ١٣٤٠ كوربون باريس ١١٦١ ، ١٣٢١ ، ١٣٤٠ ، ١٣٤٠ كوربون باريس ١٢١٠ ، ١٣٢١ ، ١٣٤٠ ، ١٣٤٠ كوربون باريس ١٢١٠ ، ١٣٢١ ، ١٣٤٠ ، ١٣٤٠ كوربون

کوندورسیه ۱۲۶۶ کونستابل ۱۳۷۸ کهرباه ۱۲۷۱ کیرینسکی ۱۵۵۷ ، ۱۵۵۸ کیلن أوهجنر ۱۵۱۹ الکیمیاه ۱۳۷۹ ، ۱۳۷۳

(ل

لبرأدور ۱۳۲۳ لاس كاساس ۱۹۳۰ اللاسلكى ۱۵۳۳ دى لامبال (الأميرة) ۱۳۱۱ لاهرت ۱۳۹۱ لطنون ۱۲۹۰ لفت (بأفرامها) ۱۰۷۱ للرف ۱۳۵۷ ، ۱۳۳۲ لوتسيورج ۱۳۲۵ ، ۱۳۳۵ لوتسيورج ۱۳۲۵ ، ۱۳۳۵

مذهب ألتنقيح ١٣٠٠٠ مارك توين ١٣٩٦ المارن معهد مزرعة فرعان (معركة) ١١٩٧ ماري ۱۰۷۰ الستعبرات ۱۱۹۰، ۱۱۹۰، ماري الطوائيت ١١٨٩ ، ١١٩٠ السعى الجماعي ١٢٣١ - ١٢٣١ ماریا تریز ۱۱۲۰ : ۱۱۲۰ المبعى اللماص ١١٤٧ ، ١١٩٠٠ ٢١١٦٠ ك ماری لویز ۱۲۰۳ 1414 6 1414 6 1414 6 11VA ماريتا ١٥٤٨ مشروع اللميس سنوات ١٠٥٩ ، ١٥٤٣ ماز اریك ۲۰۰۱ السيحية ١٢٩٢ مازارين ۲۰۹۳ ، ۲۰۹۵ > ۱۱۱۴ المبيحية (توحيدها) ١٠٨٩ ماكرني ۱۱۴۲ - ۱۲۸۸ المسيحية أخرة عالمية ١١١٤ مألك العقار ١٠٧٥ المبيح المتظر ١٢٣٢ " المائشو ١٩٣١ مصر ١٩٣٤ ، ١٩٢٩ ، ١٩٣٤ مائية (المصور) ١٣٧٩. ماهدة أميان ١٢٤١ ، ١٢٤٥ ماياد ١١٩٥ ، ١١٩١ المبضرون ١٣٥٣ مناهدة باريس ١١٦٨ : متاكماس ١٩٣٩ معاهدة يرلين ١٣٤٨ - مترتبع ١٢٨٩ معاهدة سان أستقالو ١٣٤٩ ٤ ١٣٩٨ عِصْمِ إِرَادِةَ ١١٧٣ ، ١١٧٦ ، ١٢٢٣ معاهدة فرسلي ١٤٩٠ع ٤ ٢٩٩٠ عِيْسَمُ بِشْرِي ١١١٠ معاهدة ثييتا ١٣٢٤ مجتبع طاعه ١١٧٣ معاهدة وستقاليا ١٠٧٠ ، ١٠٩٣ ، ١٠٩٣ مجتبع فكرى ١٠٧٠ للبرش الدول 1870 عد بورج ۱۰۹۳ مجلس الدايت ١٠٩٠ - ١١١٨ المرض الكبير 1371 مجلس أكدرما ١٤٥٧ مبار اللغب ١٥٤٠ : ١٥٣٣ : ١٥٤٠ عِلَى الطِيقاتُ ١٠٧٥ ، ١٠٩٠ ، ١١٩٠ للغول ١١٣١ عِمَاسَ الْمَمْرِمَ ١٠٩٨ -١٠٩٨) ١٠٩٥ - ٢١١٦٠ المتول الأمظم ١٣٥٢ 175A 4 1157 4 1178 4 1151 القميلة ١٣١٧ د ١٣١١ عجلس الكورتيز ١٥٤٩ : ١٥٤٩ مكدرنالد ١٥٦٢ علس أأوربة ١٠٩٨ ، ١٠٨٣ ، ١٠٩٣ مكسبليان ١٣٣٣ ماكم التعتيش ١٢٦٢ الكسيك ١٣٣٠ عكة الدرة ١٢١٦ مكيلقل ١٠٩٥ ، ١٠٩٨ ، ١٠٩٨ ، ١٠٩٨ المدائن ٣٥٤٠ 18.7 6 11.7 المدرسانية ١٣٨٧ طتمش الخفوق ١٠٧٩ المدن ١٠٧١ ملتون ١٠٩٩. مدنية ١٠٦٧ اللاك واللكية ١٢٢٧ ، ١٣٢٨ مذبحة كونيور ١٣٥٥

مولتكه ه١٤٠٥ اللاك والملكية ١١٢٧ ، ١١٢٨ موليير ١٠٩٩ الملكية الاستبدادية المطقة ١٠٧٠ ، ١٠٧٠ مولتجومري ١٨٣ الملكية العرلمانية ١١٤٠ / ١١٤١ 1808 C 1884 C 1868 موئرو ۱۲۲۲ الملكية التحررية ١٣٢٧ موهلون ۱۹۷۹ الملكة الشخية ١٠٧٥ ميثولوسهيا (رطازة) الملكية العلمي ١٠٩٨ ، ١٠٩٨ ، ١٠٩٨ مير أبل ۲۰۲ ، ۱۲۰۵ ميرا 1741 6 1161 6 1107 6 1044 ألمير وفنجيون ١٠٨٩ الملكية الفرنسية ١٠٦٨ ميشيل كولغز ١٥١٩ المكية القومية ١١٠٤ اللكية المقيدة ١٠٧٢ (0) الملكية المكيافلية ١٢٧٠ ، ١٣٧٠ نابلیون بونابرت ۱۲۱۳ ، ۱۲۲۳ ، ۱۲۲۳ ، الملكية الماصة ١٤٧٠ ، ١٤٧٠ الماك أنسع ١٥٢٠ 1441 مناطق الامتياز بالصين ٢٥٢١ نايليون ألفالك ١٣٧٥ ، ١٣٧٦ المنح ١١٣٢ فادر فاه ۱۱۲۹ ملشوريا ۱۱۳۲ ، ۱۹۴۹ منفوليا ١١٣٢ تازميث ١٧٧٤ منكن ١٣٩٦ النازية ١٥٣٧ ، ١٥٥٢ المهاجيون ١١٣٤ فاظر القصر ١٠٨٩ tret libet تائسن ١٥٠٧ مؤتمر استوكهتم ١٤٥٨ النظام الاجتماعي ١٥٥١ مؤتر الصلح (باریس) ۱۹۸۰ ، ۱۹۸۰ ، النظام الدستورى ١٢٥٩ YEAR النظام الملكي ٢٢٦٣ مؤتمر نيينا ١٧٥٧ ، ١٧٩١ ، ١٧٩٩ التقفل المطلق ١١١٨ م ٨٨١٢ طرتمر لاهلى ١٣٩٩ النقل المصرى ١٣٣٩ مؤتمر مونتجسوى ١٧٤١ نقابات المال ١٢٨٤ موالي الأرض ١١٩٣ التقرد ۱۹۳۷ ، ۱۹۳۷ ، ۱۹۳۱ ، ۱۹۳۲ موثلي ١٠٧٣ فلسون ۱۲۲۷ ، ۱۲۹۸ . موزأتوزيوم ١٥٤٠ النبضة التحرية الأسانية ١٥٤٨ موراه څهېې نوفيودود ١١٣١ مورجلتون ١٣٥٣ نوارين ١٣٩٧ 1881 222 نيتى ۱۹۷۰ موزار ۱۱۰۹ ئيسبى ١٠٨٣ المرسوعيون ١١٩٨ نيقولا ألثاني ١٣٩٩ موسولی ۱۴۷۱ ، ۲۲۵ نيوا مستردام ١١٧٣

ئيو انجلند ١١٢٣ ، ١١٥٣ ، ١٢٩٥

المرسيق ه١١٠

ئيولانارك ١٢٩٤ ، ١٢٩٥

وأت ۱۲۲۱ ، ۱۲۲۱ (*****) وترلو (معركة) ١٧٥٩ هایسبرچ (أسرة) ۱۹۱۹ ، ۱۰۹۰ کا ۱۱۱۷ ، وأرن هاستنجس ١١٢٩ وارویك (لورد) ۲۰۸۲ هادو(السيروليم) ۱۱۰۵ ولبول (روبرت) ۱۰۸۸ هاردی (توماس) ۱۳۸۹ وألترسكوت ١٣٩٠ هارلم ۱۰۷۳ وأنشتين ١٠٩٢ القائسا ١١٧٨ ورث (سركة) ۱۳۳۵ هائكوك ١١٦٥ وزارة الخارجية ١١١٥ ، ١٠١١ ، ١٢٩٩ هائوٹر (أسرة)هائدل ۲۰۱۲ ، ۱۰۸۷ ، ۱۰۸۸ ، وزير (الوزرام) ۲۰۲۸ وستفاليا ١٠٩٢ (انظر ساهدة) هاولز (و 1790 (= متأر ۱۵۹۱ ، ۱۵۵۹ ، ۱۵۵۱ ، ۱۳۵۱ ولين ١٤٧٢ ، ١٤٧٣ ، ١٤٧٢ ، ١٤٨٤ ، المدنة السلحة ١٠١١ مكسل ١٣١٤ رلنجون (درق) ۱۲۵۹ ، ۱۲۵۹ الهليوليثية ١٣١١ ولج بت ۱۲۲۱ وليم الزايع ٢٠٨٩ 1079 - 1708 - 1777 - 1174 44 وليم المباحث ١٠٧١ ، ٢٠٧٢ هندنبرج ۱۹۹۱ ، ۱۹۹۰ ولیم هارگوت ۱۳۰۱ هری الثالث ۱۰۷۷ دیار ۱۵۴۸ عَرَى السابع والثامن ١٠٧٨ : ١٠٧٨ ريقل ١٥٧٥ : ١٥٧٦ : ١٥٧٧ هری چیمس ۱۹۷۸ (3) هوایت هول ۱۰۸۶ ، ۱۱۰۹ المَانِ ۱۹۲۱ ، ۱۳۷۱ ، ۱۳۸۱ ، ۱۹۳۸ هوجو ۱۲٤١ ، ۱۳۸۹ يسوع ١١١٠ ١١٢٤ ، ١١٤١ ، ١١٧١ ، هويز ۱۱۰۰ هورن (الكونت) ۱،۷۲ ، ۲،۷۲ 1282 6 1711 6 1710 6 1777 اليسوعيون ١٢٤٣ ، ١٢٧٧ ، ١٣٩٨ 1084 30 اليماقية ١٩٠١ ، ١٩٠٧ ، ١٩١٧ ، ١٩٢٧ ، هولاندروز ۱۲۳۸ هوميروس ۱۹۰۱ المحود ١١١٧ : ١٤٩٣ : ١١٥٤ : ١٠١٧ هولشتين ١٢٦٥ بوان تشوائج ١٤٧٢ هوهنزلون (آسرة) ۱۰۹۲ یران نشیه کای ۱۵۱۸ 1871 + 1800 + 18-7 + 1704 بودينيتش هدها هوهقشتأوش ١٠٨٩ اليوتونيا ١٢٨٢ الهويج ١١٦٣ يوليوس فيصر ١٢٣٩ هويستار. (الصور) ١٣٧٩ هينتي ١٣٨٨ ببينا (معركة) ۱۲۰۸ ، ۱۲۰۲ ، ۱۲۰۳

()

اقسرا في هسله السيلسلة

يرترأته رسل بحلام الاعلام وقصيص أخرى ي ٠ رادونسكايا الالكترونيات والحياة الحديثة الدس مكسل فقطة متسابل تقطة ت و و فريمان الجغرافيا في مائة عام الثقافة والجتمع دايبوانك وليامن ر • ج • فوریس تاريخ العلم والتكثولوجيا (٢ ج) ليسترديل راي الأرض الضامضة والتر ألن الرواية الانجليزية لويس فارجاس طارشه الى فن السرح قرائسوا دوماس الهة مصر ده خدری سفنی واخرون الإنسان المرى على الشاشة -أولج قولكف القاهرة مديئة الف ليلة وليلة هاشم التجاس الهوية القومية في السينما العربية ديفيه وليام ماكنوال مجموعات النقسود عزيز الشبران للوسيقي ـ تعين نفسي ـ ومنطق عصر الرواية سر مقال في النوغ الأدبي ، دا محسن جاسم الرسوى . اشراف س این کوکس ا ديلان توماس الإنسان ذلك الإنسان القرياء 👙 🔞 جون لريس برل ريست الرواية الحديثة - دا عبد المعلى شعراوي السرح المري العامر أتسوز المعسداوي عل محمود طبه بيل شول أدنبيت القوة النفسية للأعرام ده صفاه خلومی . فن الترجمة رالف کی ماتلو ۔ `` تولسستوي قيكتور برومنين 🔧 🔗 مسستنابل

قبكتور هوجو رسائل واحاديث من المتفي الجزء والكل (محساورات في مَفسيتهاوفيرثر ميزنبرج الفيزياء الذرية) التراث الفامض ماركس والماركسيون مبدئى هواي ق و ع و أدنيكوف فن الأدب الروائي عند تولستوي هادى نعمان الهيتي ادب الأطفال د عبة رحيم العزاوي إحمد حسن الزيات د فاشل أحبه الطالي . أعلام العرب في الكيمياء قرئسيس فرجون فكرة السرح 🕆 الجعيسم . هنري يارپوس السيد عليوة صنع القسراد السياسي جاكوب برونوفسكى التطور الحفساري للانسسان هل نستطيع تمليم الأخلاق للأطفال ؟ د٠ رُوجِي منتروجان کاتی ئیر . تربية العواجن ا - شيسن الموتى وعالهم في مصر القذيمة د٠ ناعوم بيتروفيتش النحل والطب سبع معارق فاصلة في العصور الوسطى جرزيف دامبوس سيامسة الولايات التعلة الأمريكية اذاءا د أينوار تشاميرز رايت مصر ۱۸۳۰ - ۱۹۱۶ كيف تميش ه٣٦٠ يوما في السنة 🍐 **د٠ جون شتدل**و بير البر الر الكوميسديا الالهيسة لدائتي في الفسن الدكتور غبريال وحبه التشكيل الأدب الروسي قبسل الشودة البلشسيقية ده زمسیسی عرص ويعلخا د٠ معمد تعمان جلال حركة عدم الانحياز في عالم متذير . فرانکلین ل ۰ بارمر الفكر الأوروبي الحديث (٤ ج) الفن التشكيل العساصر في الوطن العربي شركت الربيعي MAL - MAN

اعداد معيد كمال الساعيل القردوس الطوسى بيرتون بورتر جاك كرابس جونيور محمد فؤاداء كويريلى يول كونر أختيار واعداد صبيرى الغضل تونی بار نادين جورديس وأخرون موريس بدبراير آدامل فيليب أحبه الشبتوالي جوناثان ريلي مسميث ريتشارد شاخت ريجبونت هينر الفريد • ج • بعلس اعداد ۱ د فيليب عطية ادوارد مری هربرت شيار الحاج يونس المعرى ستيفن أرزمنت تفتالي لويس بيتر نيكوللن اعداد : عوتى براح وأخروت

التحليل والتوزيع الأوركسترالي الشساهنامة (٢ ج) الحياة الكريمة (٢ ج) كتابة التاريخ في مصر في ١٩٠ قيام اللولة العثمانية العثمانيون في أوريا مختارات من الآداب الأسيوية التمثيل للسينما والتليفزيون سقوط للطر مسئاع الخلود دليل تنظيم التاحف كتب غيرت الفِكر الإنسائي (٣ ج) الحملة الصليبية الأولى رواد الفلسلة الحديثة جماليات فن الاخراج الكنالس القبطية (٢ ج) ترائيم زرادشت النقد السينمائي الأمريكي الاتصال والهيمئة الثقافية وحلات فارتيما التاريخ من شتي جوائبه ٣ ج مصى الرومائية البيستما الخيالية السينها المربية من الخليج ال الحيط مطابع الهيثة المصرية العلية للكتف

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٧٥٨٤

LS.B.N 977-01-4050-3

هذا الكتاب _ هما يحل عليه اسمه _ موسوعة تاريخية ساملة موجزة للحضارة الإنسانية عبر عصورها ويروع قصتها الأحيب الانجليزة الشهير ج.هـ ويلز. والطبعة العربية من هذا الكتاب سوف تصحر في أربعة أجزاء يتناول الجزء الأول عنها نشاة الكوي والنظريات العلمية المختلفة التي تفسر تطوره ثع ظهور الإنساق والأجناس القديمة المنحرة، ويعرض تفكر الإنساق البحائي ومعتقداته الحينية ونشاة اللغة وتقسيماتها ثم لأقدم الحضارات في مرحر والعراق والهند، أما الجزء الثاني فيعرض للحضارة الأغريقية والهلينستية والرومانية، ولتحقيه تاريخ العبرانيين، أما الجزء الثالث فيعني بحضارات العرص الوسيط والجزء الرابع يتناول التطريخ الحديث.